PT80 – 20% Renaissance 13/3/45 Bound
95

دراسات فى

تاريخ المماليك البحرية

وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص

يبحث فى التاريخ السياسى ، والعلاقات الخارجية ، ونظام السلطنة ، والبلاط ، والخلافة ، ونظم الحكم الإدارية ، والحربية ، والمالية ، والقضائية .

تأليف

الدكتور على ابراهيم حسن

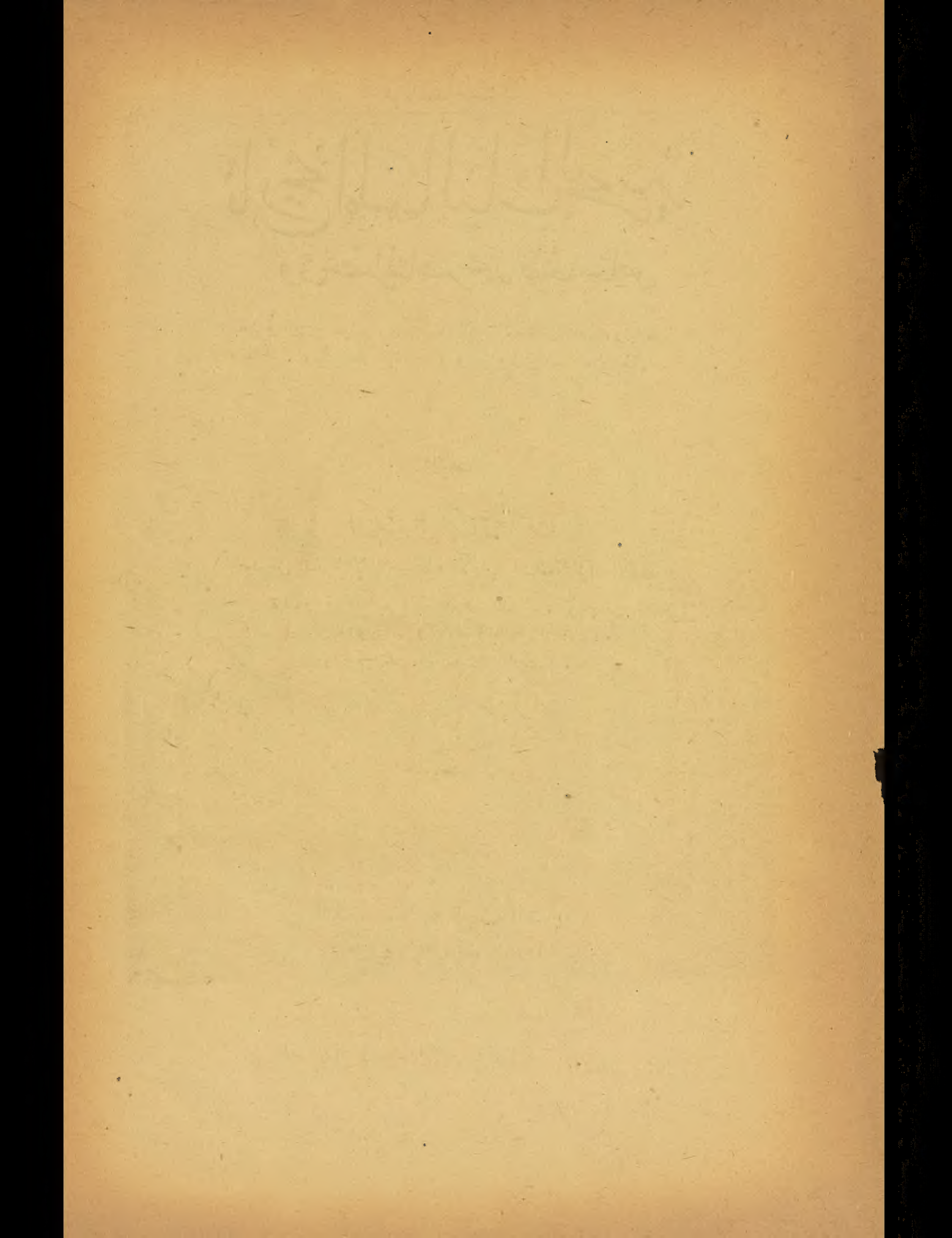
مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

دكتور فى الآداب برتبة الشرف الممتازة ، وماجستير
فى الآداب ، وليسانس فى الآداب (جامعة فؤاد الأول) ،
ودبلوم المعلمين العليا الأدبية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى باشا : تليفون ٥١٣٩٤

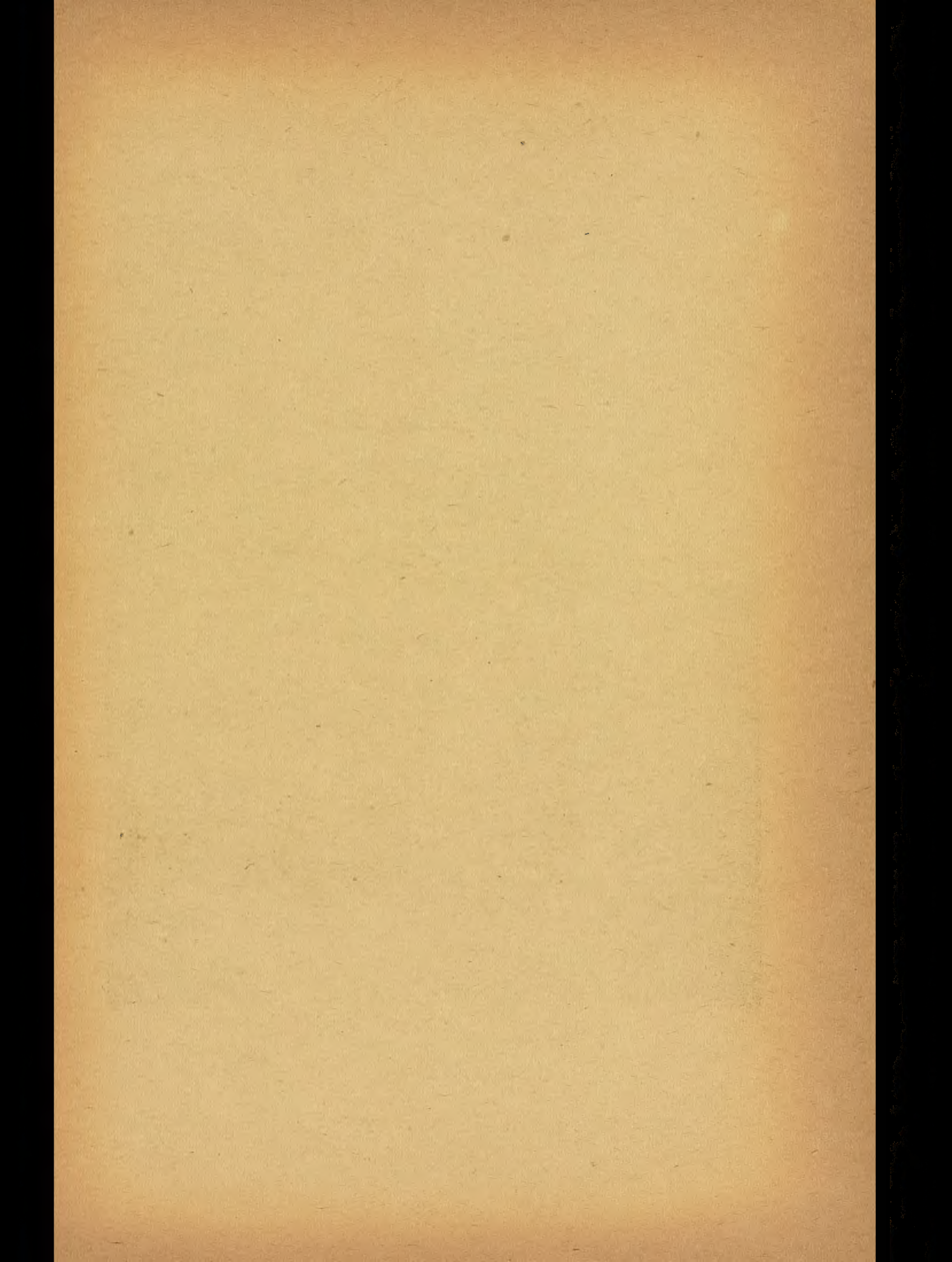
مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر لصاحبها محمود الخضرى

١٩٤٤





مدرسة وقبة وبيمارستان السلطان المنصور قلاوون
(٦٨٤ هـ = ١٢٨٥ م)



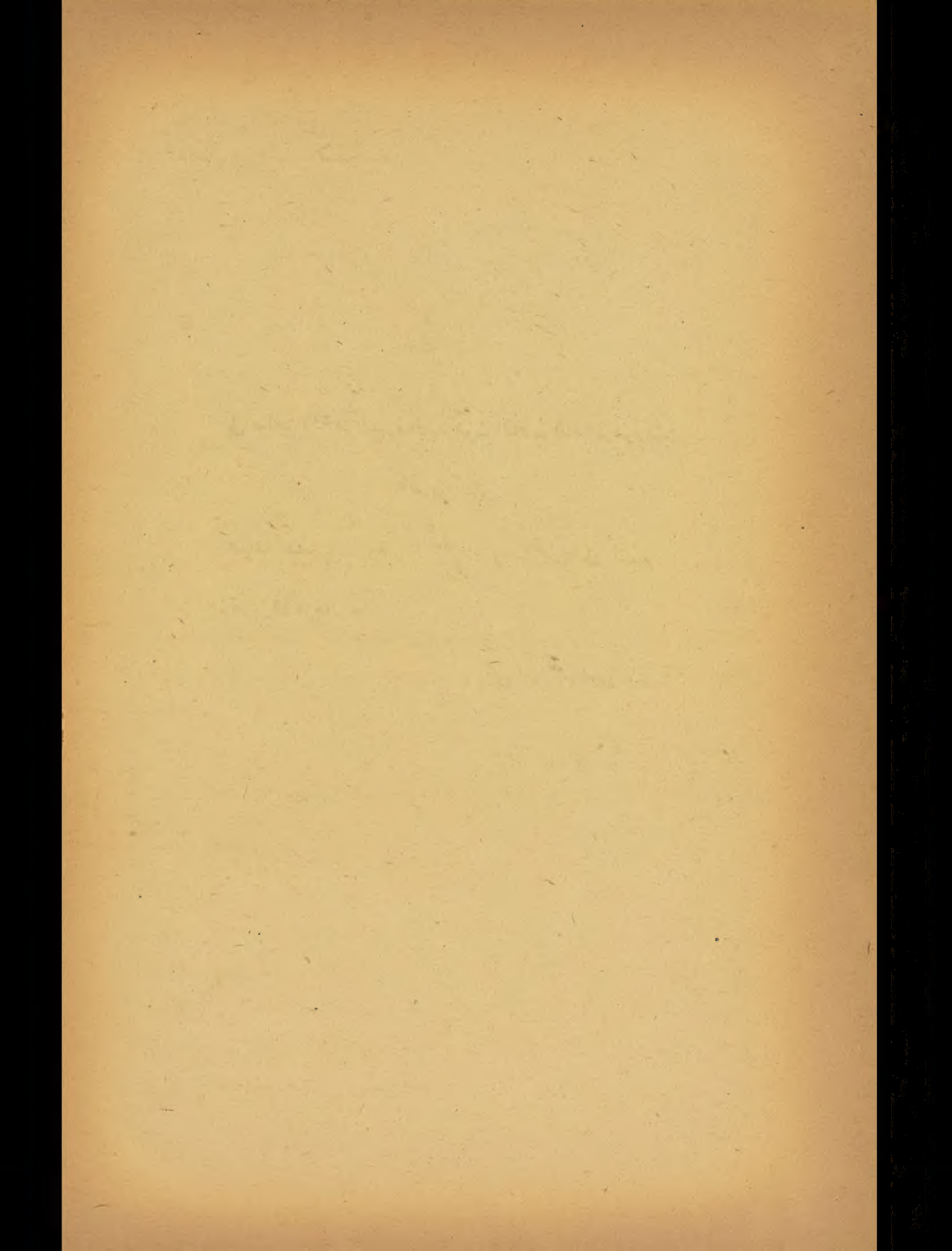
الى صاحبة العصمة السيدة الجليلة قوت القلوب هانم الدمرداشية

أهدى كتابى

اعترافا بفضلها ، وحبها للعلم ، ومساهمتها فى نشره ،

وتقديرها لرجاله ؟

على ابراهيم حسن



تصدير الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن

عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عرفت فى الدكتور على ابراهيم حسن شغفه بالتاريخ وميله إلى دراسته فى جميع مراحل تعليمه. وقد تبين هذا الاتجاه فى مدرسة المعلمين العليا التى حصل على دبلومها سنة ١٩٣٠، وفى كلية الآداب التى حصل منها على درجة الليسانس فى التاريخ سنة ١٩٣١ ثم على درجة الماجستير سنة ١٩٣٣.

إن أظهر ما تمتاز به مؤلفات الدكتور علىّ: حسن الترتيب، وجمال الانسجام، ودقة العبارة وسهولتها ووضوحها، والتدليل على الحقائق التاريخية، والتعليق على الحوادث بآراء متزنة. ويظهر ذلك واضحاً فى كتابه «تاريخ جوهر الصقلى» الذى نال به درجة الماجستير، وفى مؤلفاته الأخرى ولا سيما كتاب «النظم الاسلامية» الذى اشترك معى فى تأليفه، وفى بحوثه التاريخية الشائقة التى ظهرت فى المجلات العلمية.

وإنه لمن بواعث اغتباطى اليوم أن أقوم بتقديم كتابه الجديد، «دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص»، وهو الرسالة التى نال بها فى مارس سنة ١٩٤٣ درجة الدكتوراه فى التاريخ من جامعة فؤاد الأول.

***

حكمت دولة المماليك البحرية مصر ستا وثلاثين ومائة سنة (٦٤٨ — ٧٨٤ هـ = ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م)، وتعتبر هذه الفترة بحق من أزهى عصور مصر الإسلامية. ففى ذلك العصر أصبحت القاهرة حاضرة لأمبراطورية شاسعة، امتد سلطانها من بلاد برقة غرباً إلى ساحل البحر الأحمر شرقا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوباً، كما بسطت نفوذها على بلاد اليمن والحجاز وخطب ودها ملوك أوربا وآسيا عن طريق إبرام المعاهدات والمصاهرة وإرسال الهدايا.

وفى عهد هذه الدولة وقفت مصر فى وجه الحملات الصليبية موقف البطولة والهمة حتى دكت معاقل الصليبيين وقضت على بقاياهم فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٢هـ (١٢٩٢ م) . كذلك وقف سلاطين المماليك فى وجه المغول الطامعين فى مصر ، وقضوا على قوتهم فى الشام ، وحالوا بينهم وبين الوصول إلى مصر .

وظهرت فى ذلك العصر علاقات مصر الخارجية بمغول كل من فارس والهند والقفجاق ، وبأرمينية وبلاد العرب ، وأفريقية ، وبملوك أوربا وخاصة أمبراطور الدولة الرومانية الشرقية وشارل الرابع ملك فرنسا ويعقوب ملك أرغونة ، وبعث هؤلاء برسلهم إلى مصر حتى أصبح بلاط سلاطين المماليك مقصد سفراء الدول الشرقية والغربية حاملين اليهم الهدايا والتحف ملتمسين منهم العون والمساعدة .

على أن أظهر ما امتاز به عصر دولة المماليك البحرية هو ما حدث فيه من تطورات جوهرية فى نظم الحكم . فقد أدرك المماليك أن العرش يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء شجاعة ومهارة . ولكن السلطان الظاهر بيبرس أسس نظاما يضمن به بقاء الملك فى بيته ، وكان هذا أساس مبدأ وراثة العرش فى دولة المماليك ، وهو نظام لم يكن ثابتاً ولا مستقراً فى عهد تلك الدولة .

وهناك انقلاب خطير حدث فى عصر المماليك ، هو انتقال مركز الخلافة العباسية إلى القاهره ، بعد سقوط بغداد فى أيدى التتار ، فقد أوجد هذا الحادث علاقة جديدة بين الخلافة والسلطنة ، فإن الخليفة الذى كان يجمع فى يده السلطتين الزمنية والروحية أصبح فى مصر خاضعاً لمشيئة السلطان وأهوائه .

ولا يقل عن هذا الانقلاب أهمية ، ذلك التطور الذى حدث فى وظائف البلاط والحاشية السلطانية ، فإنه على الرغم من أن المماليك نقلوا بعض هذه الوظائف عن العباسيين الذين أخذوها عن الفرس فى عهد أبى جعفر المنصور وأخذوا بعضاً آخر عن الفاطميين والأيوبيين ، فقد طبعوا بلاطهم بطابع خاص ، لم يكن موجودا من قبل وزادوا فى عدد الوظائف ووسّعوا اختصاصات شاغليها .

وقد بلغ النظام الإدارى فى دولة المماليك مبلغاً عظيما من الدقة والتنسيق . وكان طبيعياً أن ترتفع قيمة بعض الوظائف وتنخفض قيمة البعض الآخر . من ذلك مركز نائب السلطنة الذى تمتع صاحبه بنفوذ واسع طغى على نفوذ الوزير الذى أصبح

لا يتعدى اختصاصه النظر فى المسائل المالية . ونظم المماليك دواوين الحكومة واستحدثوا وظيفة ناظر الخاص عند ما ألغيت الوزارة فى عهد السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٧ ﻫ . وكانت تلك الدواوين تسير على نظام إدارى واحد . وسار نظام الحكم فى نيابات الشام وفق نظام الحكم فى مصر ، وتمتع نواب السلطنة بشىء غير قليل من النفوذ . وكان لكل نيابة دواوينها وجيشها الذى يذود عنها . وبلغ نظام البريد شأوا بعيدا من الرقى حتى أصبح يربط بين أجزاء الدولة المملوكية ويصل بعضها ببعض ، واستخدم حمام الزاجل فى نقل الرسائل من جهة إلى أخرى فى أقرب وقت ممكن ، وكان بمثابة البريد الجوى فى ذلك العصر .

وكانت تجارة مصر الخارجية نافقة فى عصر المماليك الذين كانوا — كما كان الأيوبيون من قبلهم — أصحاب النفوذ المطلق فى مصر والشام والحجاز ، فوقعت فى قبضتهم جميع الموانى وطرق القوافل بين أوربا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى . وسيطر المماليك على تجارة الشرق حتى فاضت خزائنهم بما كانوا يجبونه من الضرائب على تلك التجارة . أما موارد الدولة المالية فقد عُنى المماليك بتوسيع نطاقها وجبوها من نواح عدة حتى يتمكنوا من القيام بأعباء المشروعات الهامة النافعة لجميع مرافق البلاد وما تتطلبه من ضروب الإصلاح ، كما عُنوا بمسح الأرض ، فمسحت مرتين : الأولى فى عهد السلطان لاچين والثانية فى عهد السلطان الناصر محمد ، ليتسنى لهما جبايتها وفرض الضرائب عليها وتوزيع إقطاعات الجند والأمراء .

ولما كانت الدولة المملوكية قائمة على أساس القوة ، كان الجيش أول ما عُنى به هؤلاء المماليك ، لأن تربيتهم ونشأتهم الأولى إنما قامت على نظام حربى . ومن ثم نظموا جيشهم تنظيما بديعاً يكفل لهم صون مصلحتهم والدفاع عنها ، فنظّموا ديوان الجيش وأنشئوا فيه كثيرا من الرتب العسكرية .

وتاريخ القضاء المصرى فى دولة المماليك حافل بمواقف مشرفة للقضاة فى وجه السلاطين والأمراء ، دافعوا فيها عن الحق وذادوا عن كرامتهم واستقلالهم . لهذا لا نعجب إذا بلغ النظام القضائى حدا بعيداً من الرقى ، بعد أن أدخل عليه السلطان الظاهر بيبرس كثيرا من ضروب الإصلاح ، وأصبح القضاة يصدرون أحكامهم وفق المذاهب الأربعة ، وتعددت السلطات القضائية ، ونظمت المحاكم ، وغدا للقاضى معاونون

يعاونونه فى إصدار الأحكام وتنظيم الجلسات . وزادت عناية سلاطين المماليك بنظام القضاء حتى كان السلطان يتصدر « مجلس القضاء » للنظر فى المظالم .

* * *

ذلك العصر الذهبى فى تاريخ مصر الإسلامية هو الذى عكف الدكتور علىّ ابراهيم حسن على بحثه ودراسته ، فأخرج لنا هذا الكتاب الذى يُعد صفحة ناصعة من صفحات التاريخ المصرى المجيد .

وقد استهل المؤلف كتابه ببحث المصادر الأصلية ، منشورة أو مخطوطة ، عربية وأفرنجية ، التى اعتمد عليها ، والكتاب قسمان :

القسم الأول : وهو عبارة عن دراسة تفصيلية لتاريخ دولة المماليك البحرية السياسى ، وفيه بحث المؤلف : المميزات الرئيسية لهذه الدولة ، وسلطنة المماليك فى مصر قبل عصر الناصر محمد ، ثم سلطنة الناصر وأولاده وأحفاده ، وعلاقة سلاطين المماليك بالشعب ، والسياسة الخارجية من حروب وعلاقات دولية .

وفى القسم الثانى من هذا الكتاب بحث المؤلف نظم الحكم المملوكية وما اقتبسه هؤلاء السلاطين عن غيرهم ، فعرض فى إسهاب ووضوح مبدأ الوراثة فى سلطنة المماليك ، وألقاب السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطانى فى داخل القصر وفى المواكب . كما بحث نظام الخلافة العباسية فى القاهرة ، ونُظُم الحكم المملوكية الإدارية ، والحربية ، والمالية ، والقضائية .

وذُيّل الكتاب بعدة ملاحق ، استرعى نظرنا فيها ذلك الكَشّاف الشامل لأسماء الأعلام ، والوظائف ، والضرائب ، والاصطلاحات الاقتصادية ، والدواوين ، والبلدان والأدوات المستعملة فى الحروب والمواكب ، والأماكن التى كانت تودع فيها هذه الأدوات . ولا شك أن هذا العمل يزيد فى قيمة الكتاب ويُسهل على القراء كَشْف كثير من الحقائق التاريخية إذا ما أرادوا بحث مسألة من المسائل ، كما يُبين مدى الجهد الذى بذله المؤلف فى إعداده . واسترعى نظرنا أيضاً ذلك الفهرس المفصل ، لبيان الوثائق ، ومنه يتبين أن المؤلف اطلع على ستين وثيقة من الوثائق التاريخية القيّمة ، اهتدى اليها فى بطون الكتب ، فى غير ترتيب ولا نظام ، مما جعل الاهتداء اليها أمراً عسيرا . هذا إلى ما نراه من الجداول والخرائط والصور التى زيّن بها كتابه .

* * *

هذا الكتاب الجديد هو ثمرة جهد متصل ، استغرق عدة سنوات ، قام المؤلف في خلالها بجمع الحقائق ، وترتيبها ، وتمحيصها ، وشرحها ، واستنتاج الآراء العامة منها . وقد اطلع الدكتور عليّ على كثير من أمهات المصادر الخطية والمنشورة وما نشر من بحوث فى المجلات العلمية ، حتى أنه لم يترك شاردة ولاواردة إلا أحصاها وكشف اللثام عنها .

والكتاب لهذا يعتبر دراسة دقيقة ، وبحثا مستفيضا ، وإحاطة شاملة لتاريخ دولة المماليك البحرية من الناحية السياسية ومن ناحية نظم الحكم ؛ وخاصة فى عصر السلطان الناصر محمد ، أعظم سلاطين تلك الدولة ، وأطولهم حكماً ، وأكثرهم شهرة ، وأوفرهم إنتاجاً ، وأكثرهم استقرارا . ويُعتبر عصره أزهى عصور دولة المماليك البحرية : لأن فيه توطدت دعائم هذه الدولة ، وبدأت أساليب الحكومة والإدارة فى الاستقرار ، كما ازدهرت الفنون حتى عدّ المؤرخون عصره أزهى عصور الفن فى دولة المماليك خاصة وفى تاريخ مصر الإسلامية عامة . واستمر هذا العصر فترة طويلة بلغت ثمانية وأربعين عاماً .

وقد استطاع المؤلف أن يمدنا ببحث مبتكر ، يفيد العلم فائدة محققة ، وينير الطريق أمام الباحثين فى تاريخ دولة المماليك وهو بذلك أعظم وثيقة ظهرت فى تاريخ المماليك حتى اليوم . والدكتور عليّ يستحق لذلك كله ، كل تقدير وكل إعجاب وكل ثناء ، كما يستحق التهنئة الخالصة على ما أصاب من توفيق فى سبيل إخراج هذا الكتاب .

١٥ / ٨ / ١٩٤٤ — حسن ابراهيم حسن

كلمة شكر

أتوجه بالشكر الخالص إلى الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية أستاذ التاريخ بجامعة فاروق الأول، على ما تفضل به عليّ من كريم التشجيع وحُسن التوجيه. فقد أفسح لى من وقته، ودلّني على كثير من المصادر القيمة والمخطوطات النادرة. وإنى إذ أشكر له فضله، إنما أؤدى بعض ما يجب له.

وأتقدم كذلك بأجمل عبارات الشكر لحضرات الأساتذة الأجلاء الذين عاونونى فى هذا البحث:

أشكر الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن؛ إذ هو القَبَس الذى به اهتدى، والمَثَل الذى احتذى، والنَّهْج الذى عليه أسير، وهو لى دائماً أكبر مشجع وخير معين، وله منى هنا عرفان الجميل أسجله شاكراً ممتناً، لتفضله بقراءة هذا الكتاب، ولأنه أسبغ على الكتاب وصاحبه شرف التقديم إلى جمهور القارئين.

وأشكر الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال بك، الذى كان لآرائه السديدة فائدة جُلى. كما أشكر له اطراءه الجهود التى بذلتها فى سبيل إخراج هذا البحث، ولا سيما أن هذا الإطراء صادر من عالم جليل مثله.

والدكتور زكى محمد حسن جدير بكل ثناء وتقدير، فطالما تمكنت بمعونته من الاستفادة من كثير من المصادر الهامة. وكان لكتبه العديدة فى الفنون الإسلامية والرنوك والمسكوكات، ولآرائه السديدة التى أمدنى بها، أعظم الأثر وأجلّ الفائدة. وله فوق ذلك فضل إعارتى الصور التى نشرت فى هذا الكتاب.

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشكر للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة، ما قدّمه إلىّ من معونة وما أشار علىّ به من مصادر، اعتمدت عليها فى بحث كثير من المسائل.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت اليه، والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل، فهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

محتويات الكتاب

الباب الثالث

سلطنة الناصر محمد

(٦٩٣ — ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ — ١٣٤٠ م)

الباب الرابع

سلطنة أولاد الناصر محمد وأحفاده

(٧٤١ — ٧٨٤هـ = ١٣٤٠ — ١٣٨٢م)

الباب الخامس

السياسة الداخلية : علاقة السلاطين بالمصريين

الباب السادس

السياسة الخارجية

حروب مصر وعلاقاتها بمختلف الدول

صفحة

القسم الثانى

نظم الحـــكم

الباب السابع

السلطنة والبلاط

صفحة

صفحة

الباب الثامن

الخلافة العباسية فى القاهرة

الباب التاسع

الحكومة المصرية

أولا ـ كبار الموظفين الإداريين

ثانياً — دواوين الحكومة المصرية

الباب العاشر

الجيش والبحرية

صفحة

الباب الحادى عشر

الحالة المالية والاقتصادية

الباب الثانى عشر

القضاء والمظالم والحسبة

بحث فى مصادر الكتاب

تنقسم المصادر التى اعتمدت عليها فى استقصاء تاريخ المماليك فى مصر إلى ثلاثة أقسام :

١ — مصادر عربية مخطوطة .

٢ — مصادر عربية مطبوعة .

٣ — مصادر أوربية .

وقد أوردت أسماء هذه الكتب وأسماء مؤلفيها وتاريخ وفاة كل منهم على ما هو مألوف فى المؤلفات العلمية ليتبين للباحث أهمية الكتاب بالنسبة للعصر الذى نتكلم عليه . وذكرت ذلك فى الثبت الخاص بمصادر الكتاب مع ترتيبها على حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين فى كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة . ومن يستعرض سنى وفاة مؤلفيها يرى أنه قد قصد منها الاعتماد على كتب ألفت ومخطوطات كتبت بوساطة رجال عاش معظمهم فى نفس العصر رغبة فى تحرى الدقة والوصول إلى المعلومات الصحيحة .

من هؤلاء المؤلفين ابن فضل الله العمرى (+ ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) الذى كتب عدة مؤلفات غنية فى مادتها ، نخص بالذكر منها كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » وهو مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية (رقم ٢٥٦٨) . ويعتبر دائرة معارف تاريخية جغرافية أدبية وهو عشرون جزءا[1] . وفائدة هذا المخطوط جليلة فى موضوع الوظائف الإدارية الكبرى فى دولة المماليك ، والاستشهاد ببعض الحوادث التى وقعت فى هذا العصر ، وذلك لدعم الحقائق التى وردت عن بعض أنظمة الحكم . ويواجه الباحث صعوبة كبرى فى معرفة الأجزاء التى وردت بها تلك المعلومات لضخامة الكتاب وعدم وجود الفهارس التى تبين ما يشتمل عليه كل جزء من المعلومات التى يمكن الاستفادة منها . بيد أنه يتضح أن المجلد الثالث من الجزء السادس عشر ذو قيمة خاصة لما احتواه من المعلومات الدقيقة التى تجلو لنا كثيرا من الغموض المخيم فى المصادر الأخرى . وقد قام المرحوم احمد زكى باشا بنشر الجزء الأول من هذا المخطوط فصححه ووضع حواشى مفيدة لما ورد فيه من المعلومات (دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٢ هـ) .

ولابن فضل الله العمرى مؤلف آخر مطبوع هو « التعريف بالمصطلح الشريف » ، وهو جزء واحد يحوى وصفا لدولة المماليك والدول التى كانت تربطها بها علاقات سياسية . ولا تقتصر أهمية هذا الكتاب على ما أورده من المعلومات العامة عن أنظمة الحكم فى دولة

---

(١) انظر ما كتبه ديموميين (Demombynes) عن ابن فضل الله العمرى ومؤلفاته فى كتابه La Syrie A L'Epoque des Mamlouks, pp. III-IV .

المماليك بل تعدى ذلك إلى الوثائق التى نقلها عن الوصايا التى تكتب إلى كبار رجال الحاشية والبلاط السلطانى وكبار الموظفين الإداريين . ومنها نتبين شيئا كثيراً عن طبيعة وظائفهم وكيف كانوا يقومون بتأديتها . ومن بين تلك الوثائق أيضا مجموعة نفيسة فى تقليد كل من هؤلاء الموظفين وظائفهم . وقد اقتبست من عبارات العمرى ما أعانى على توضيح قيمة هذه الوظائف .

وقد أورد القلقشندى فى « صبح الأعشى » بعض الوثائق نقلا عن ابن فضل الله العمرى . وبذلك نكون قد اعتمدنا على المصدر الأصلى فيما يختص بتلك الوثائق التى أفادتنا فى بيان قيمة الوظائف المختلفة فى ذلك العصر . ومن هنا تتضح قيمة هذا الكتاب .

والقلقشندى (+ ٨٢١ هـ) الذى توفى بعد ابن فضل الله العمرى بنحو ثمانين سنة ذو فضل لا يمكن نكرانه . فقد اعتمدت على كتابه « صبح الأعشى » فى كثير من المسائل لأنه يعتبر بحق من المصادر الأصلية لذلك العصر ولا غنى للباحث عن الرجوع إليه فى بحث النظم المملوكية .

ولد القلقشندى سنة ٧٥٦ هـ ببلدة قلقشندة من أعمال مديرية القليوبية وتوجه إلى ثغر الاسكندرية وأقام به مدة وطلب العلوم الشرعية على مشهورى العلماء فى عصره واشتغل بالأدب العربى وقرأ كثيراً من الكتب والأسفار فى مختلف العلوم والفنون . وفى سنة ٧٩١ هـ التحق بديوان الإنشا وأخذ فى وضع كتابه « صبح الأعشى » الذى فرغ من تأليفه فى سنة ٨١٤ هـ وجاء فى أربعة عشرة جزءا [١] .

ومن أهم الموضوعات التى يظهر أثرها واضحاً فى بحثنا ما كتبه القلقشندى عن ديوان الانشاء . فقد أفاض القول فى الأدوار التى مر بها هذا الديوان منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم حتى دولة المماليك من حيث العناية بأمره وبيان الصفات التى يجب أن تتوافر فى صاحب هذا الديوان الذى أطلق عليه فى عصر المماليك « كاتب السر » والمهام التى كان يضطلع بها . كما تكلم عن معاونيه بحيث لم يترك هناك زيادة لمستزيد . ويلاحظ أن ما دوّنه القلقشندى عن ديوان الانشاء وما أثبته ابن مماتى فى « قوانين الدواوين » والخالدى فى « المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا » وخليل بن شاهين الظاهرى فى « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ، كل ذلك سهّل علينا مهمة التعرض لشرح خصائص هذا الديوان .

وللقلقشندى زيادة على ذلك فضل عظيم فى توضيح اختصاصات موظفى البلاط السلطانى والحاشية السلطانية والموظفين الاداريين فى دولة المماليك بوجه عام وعصر الناصر بصفة خاصة . وأثر هذا المؤلف واضح فيما أورده من الوثائق التى توضح كيف كان يقلد كبار الموظفين وظائفهم . ولا سيما أنه استمد مادته من مصادر عاش مؤلفوها فى ذلك العصر مما يرفع من شأنها فى تحقيق النظم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية . غير أنه يجب أن

---

(١) انظر تاريخ حياة القلقشندى فى افتتاحية « صبح الأعشى » ج ١٤ ص ٨ — ٢٠

نلاحظ أن أمثال النويرى وابن فضل الله العمرى والقلقشندى لم يكونوا فى الواقع مؤرخين وإنما كانوا أدباء دوّنوا ما دوّنوه كموسوعات لا تخصص فيها ونقلوا بها كل ما يتعلق بخطط مصر عمن تقدمهم من المؤرخين الذى عنوا باستقصاء الخطط والتواريخ كابن عبد الحكم وابن زولاق والقضاعى وغيرهم .

ومما هو جدير بالملاحظة أن من يريد دراسة ما كتبه القلقشندى فى « صبح الأعشى » دراسة واسعة ويتفهم ما فيه ، لا بد أن يبدأ بقراءة كتابه « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » الذى لا بد أن يكون قد راعى فى وضعه أن يعطى القارىء صورة مختصرة لما أورده بإسهاب فى « صبح الأعشى » عن هذه النظم .

أما المقريزى (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١م) فهو شيخ مؤرخى مصر الاسلامية وعميدهم بلا جدال . فقد صرف معظم حياته فى كتابة مؤلفاته القيمة . ومن أهم كتبه التى اعتمدنا عليها كتابه المعروف باسم « الخطط » وهو خلاصة مجهود شاق اضطلع به هذا المؤرخ زهاء نصف قرن . ويمتاز المقريزى عن غيره من الكتاب والمؤرخين بدقة البحث وغزارة المادة وعدم التحيز . وقد أفدت من « الخطط » فائدة كبيرة فى بحث نظم الحكم فى سلطنة المماليك وخاصة فيما يتعلق بالنظام المالى بمصر وموارد الدولة وبيان طريقة تنظيم الدواوين الحكومية على اختلاف أنواعها واختصاصات موظفيها . ولم تقتصر الفائدة التى حصلت عليها من هذا الكتاب على ذلك ، بل تعدتها إلى ما دوّنه المقريزى عن النظام القضائى وخاصة النظر فى المظالم وتنفيذ الأحكام ونظام السجون وما أورده من تراجم عن حياة كبار موظفى الدولة فى دولة المماليك .

وللمقريزى مؤلفات أخرى مثل « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » وكتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وقد قام الدكتور محمد مصطفى زيادة بنشرهما . وهذان الكتابان يبحثان فى حالة مصر فى عهد المماليك من النواحى السياسية والحربية والاقتصادية . وهى إلى جانب ذلك تلقى ضوءاً على كثير من نواحى النظم التى كانت قائمة فى مصر إذ ذاك . مثال ذلك أنه أمكننا الاستدلال على العوامل التى أدت إلى تولية السلاطين أو عزلهم مما ورد فى استعراضه للحوادث السياسية لكل عصر من العصور . كما أمكننا استخلاص الشىء الكثير عن أساليب القتال وتنظيم الحرب مما كتبه المقريزى فى « السلوك » عن حروب السلطان الناصر محمد مع التتر . أما كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » فهو يتناول تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨ هـ وهى السنة التى وضع فيها المقريزى كتابه هذا . ويعد المقريزى المؤرخ المصرى الوحيد الذى عنى باستقصاء هذه الناحية الاقتصادية الاجتماعية من تاريخ مصر فى هذا العصر مقتفياً فى ذلك أثر أستاذه ابن خلدون فى كتابه « المقدمة » . وقد أمكننا ، اعتمادا على ماذكره المقريزى عن أسباب هذه المجاعات وما اقترحه لعلاجها ، أن

نبين مدى استقرار نظم الحكم إذ ذاك أو اضطرابها . فإن المقريزى قد ذكر فى مقدمة كتابه السبب الذى حدا به إلى تأليفه ، فقال : « وبالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد » .

وللخالدى (+ ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠ – ١٥٣١ م) كتاب « المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشاء » . وهو من الكتب الخطية المحفوظة بجامعة فؤاد الأول (رقم ٢٤٠٤٥) وله قيمة خاصة فى بحث نظم الحكم فى الدول الاسلامية بوجه عام وفى مصر بوجه خاص . وقد تقلب الخالدى فى كثير من وظائف ديوان الانشاء بالقاهرة مدة طويلة فوقف على أحوال البلاد التى كانت تربطها بمصر علاقات سياسية واشترك فى تحرير كثير من الرسائل التى أرسلها السلاطين إلى ملوك هذه البلاد .

ويشتمل هذا المخطوط على معلومات لا يستغنى عنها المشتغلون بتاريخ نظم الحكم فى مصر الاسلامية بوجه عام . وهى فى الحق معلومات انفرد بها الخالدى فى هذا الكتاب عمن سبقه من الكتاب فى هذه الناحية من نواحى التاريخ المصرى وهو يقع فى ٣٥٠ ورقة . ويشتمل على ثلاثة عشر قسما . تكلم فى الأقسام الأول والرابع والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر على «التعريف بحقيقة ديوان الانشاء وأصل وضعه فى الاسلام وتفرقه بعد ذلك فى الممالك وفى بيان لقب صاحبه والمكاتبات التى تحرر بديوان الانشاء وأنواع الورق المستعمل به » [١] . ويظهر أن الخالدى قد سار فى تأليف هذه الأقسام على نهج القلقشندى حتى ليجد القارىء كثيراً من العبارات التى نقلها بنصها عن كتاب صبح الأعشى للقلقشندى . ويشتمل القسم الثانى على سبعة أبواب فى تاريخ العرب منذ بعث الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أن سقطت الدولة العباسية . كما تناول الكلام على تاريخ مصر الاسلامية إلى نهاية دولة المماليك البرجية سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) . ويختص القسم الثالث من هذا الكتاب بدراسة تاريخ الدول التى لها علاقات بمصر وطرق المواصلات البرية والبحرية التى تصل مصر بهذه البلاد [٢] .

وهذا المخطوط على أهمية يكلف الباحث فيه شيئا غير قليل من الجهد لرداءة خطه وصغره وتآكل بعض ألفاظه . ولكن برغم هذا استطعنا أن نستخلص منه ما أعاننا فى الكلام عن ديوان الانشا وعن الوظائف الكبرى فى البلاط والحاشية المملوكية فى مصر وعن نظام الحكم فى نيابات الشام فى العصر المملوكى .

ولا يقل ما ذكره خليل بن شاهين الظاهرى (+ ٨٧٣ هـ = ١٤٦٨ — ١٤٦٩ م) بكتابه « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » عما كتبه المؤرخون الذين تقدمت الاشارة إليهم . ولد خليل بن شاهين سنة ٧٧٤ هـ فى بيت المقدس ، وكان أبوه من أمراء

---

(١) الخالدى : المقصد الرفيع المنشا ص ١١ — ١٢ .

(٢) هذا التقسيم دوّنه الخالدى فى صدر مخطوطه .

المماليك فيها . وجاء خليل الى القاهرة فى صغره ، فدرس الحديث على ابن حجر العسقلانى ، ثم التحق بالفرقة المملوكية المسماة « فرقة أولاد الناس » وسرعان ماتدرج فى سلك المناصب الحكومية حتى وصل الى أعلاها ، بفضل اتصاله ببيت السلطنة بصلة النسب إذ كان حما السلطان برسباى .

ويشتمل كتاب « زبدة كشف الممالك » على اثنى عشر فصلا فى جزء واحد[١] ، تناول فيها الكلام على الوظائف الحربية والادارية فى دولة المماليك التى تقلب فى مناصبها : على أننى لم أستفد من هذا الكتاب بالقدر الذى كنت أتوقعه عند ما حاولت استقصاء الكلام على الوظائف الادارية فى الدولة المملوكية . لأن هذا المؤلف لم يحدد بصفة قاطعة متى استحدث كل من هذه الوظائف ، أكان ذلك فى دولة المماليك البحرية أو البرجية . لذلك عمدت إلى مضاهاة ما كتبه بما ورد فى كتب ابن فضل الله العمرى والقلقشندى والمقريزى وغيرهما للاطمئنان الى ما أورده هذا المؤلف من المعلومات .

* * *

ومن المصادر التى كتبت عن تاريخ المماليك بوجه عام « تاريخ سلاطين المماليك » الذى نشره Zettersteen ولم يعرف اسم مؤلفه بعد ؛ وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات مفيدة عن بعض وظائف البلاط والحاشية فى دولة المماليك البحرية وأسماء شاغليها ؛ وأوضح المدد التى تولوا فيها هذه الوظائف وخاصة فى عهد سلطنة الناصر محمد الثالثة ، فأمكننا أن نتبين مدى الاستقرار أو الاضطراب فى تلك الوظائف ؛ وقد عنى الناشر بضبط الاعلام والوظائف التى وردت فى الكتاب .

ومن المصادر التى كان لها أهمية خاصة فى بحث نظام الخلافة كتابا : « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ، و « تاريخ أمراء المؤمنين » لجلال الدين السيوطى ، المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٦٠٥ م) ، وكتاب الخلافة للسير وليم ميور Muir : "The Caliphate, its Rise, Decline and Fall." وكتاب الخلافة للسير توماس ارنولد Arnold : "The Caliphate" وكتاب الخـــلافة للدكتور عبد الرزاق السنهورى بك Sanhoury : "Le Califat" ومقاله "Relations between Egypt and the Caliphate" للدكتور حسن ابراهيم حسن المنشورة بمجلة « العلوم » عددى يناير وفبراير سنة ١٩٤٠ .

ومن الكتب التى اعتمدنا عليها فى دراستنا لموارد الدولة المالية والدواوين التى كانت تشرف على النظام المالى لدولة المماليك البحرية ، بجانب الكتب الأصلية التى سبقت الاشارة اليها ، كتاب التحفة السنية » لابن الجيعان ، وكتاب Michel Bernard : L'organisation de l'Egypte sous les Sultans Mamlouks[٢]

(١) كان هذا الكتاب فى بدء تأليفه يقع فى جزءين يحويان أربعين فصلا ، ثم اختصره ابن شاهين فى عهد السلطان جقمق حتى جعله من جزء واحد .

(٢) هذا الكتاب عبارة عن ترجمة لبعض ما ورد فى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى عن موارد الدولة المالية فى مصر والاقطاعات . وقد ذكر ذلك المؤلف فى مقدمته .

وكتاب « مالية مصر منذ عهد الفراعنة إلى الآن »للمغفور له الأمير عمر طوسون .

ولايفوتنا أن نذكر بهذا الصدد ، هذه المعلومات النفيسة التى أمدنا بها المغفور له الأمير عمر طوسون فى كتابه « "La Géographie de l'Egypte" وفى المصورات التى ازدان بها كتابه هذا ، وفى المصورات الأخرى الكبيرة ، التى كان لها أثر يذكر فى توضيح أقسام مصر الادارية فى دولة المماليك والتى انتفعنا بها فى عمل المصورات الايضاحية لهذا الكتاب .

ومن الكتب الطريفة التى ظهرت حديثا وكان لها أثر حسن فى بحث نظام الاقطاعات وتدرج الأمراء فى الوظائف ، كتاب Poliak : Feudalism in the Near East. (1250—1900) ويعتبر بحق من أنفس الكتب التى تكلمت عن نظام الأقطاع منذ عصر المماليك الى العصر الحديث ، فضلا عن أنه أفاض بوجه خاص فى الكلام على دولة المماليك البحرية .

وقد اعتمدنا فى البحث الذى أفردناه للنظام الحربى فى دولة المماليك البحرية على كثير من المصادرة الخطية والمنشورة ، نخص بالذكر منها تلك المصادر التى تعتبر أصلية فى هذا الموضوع فمنها كتاب « الانيق فى المجانيق » لابن ارنبغا الزردكاش ، وكتاب « الأحكام المملوكية » لمحمد بن منكلى ، وهما مخطوطان بدار الكتب المصرية ، وقد أفدت من هذين الكتابين فيما كتبته عن آلات الحرب التى كانت مستعملة فى عصر المماليك . وهناك كتب مخطوطة على جانب عظيم من الأهمية لا توجد فى مصر ، وقد أذن لى الدكتور عزيز سوريال عطية بنقل ما يتعلق بموضوع هذا البحث من صور فوتوغرافية ، نقلها لبعض تلك المخطوطات .

ومن هذه المخطوطات كتاب : السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية تأليف بكتوت الرماح (مكتبة المتحف البريطانى بلندن) [١]، وكتاب « الفروسية برسم الجهاد » تأليف محمد بن احمد ابن لاجين الحسامى الطرابلسى (مخطوط فى برلين) وكتاب « الفروسية » ولايعلم اسم مؤلفه ، وكتاب « غنية الطلاب فى معرفة الرمى والنشاب » تأليف طيبغا الأشرفى البلقميشى (مخطوط بكمبردج) . وقد أمدتنا هذه المخطوطات بمعلومات جديدة تلقى ضوءاً على أنواع السلاح والعتاد الحربى والسفن الحربية والبحرية التى عرفت فى ذلك العصر .

ومن المصادر التى تناولت الكلام على النظام القضائى فى دولة المماليك كتاب « رفع الاصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية (رقم ٢١١٥) ، ترجم فيه مؤلفه بعض قضاة مصر الاسلامية ترجمة كشفت عن كثير من نواحى النظام القضائى فى دولة المماليك . وكذلك بحث نظام القضاء فى ذلك العصر كل من تاج الدين السبكى (+ ٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) فى كتابيه « معيد النعم ومبيد النقم » و « كتاب طبقات الشافعية الكبرى » وابن حجر الهيتمى (+ ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م) فى كتابه « الفتاوى الكبرى الفقهية » ، ومحمود محمد عرنوس فى كتابه « تاريخ

---

(١) من هذا الكتاب نسخة مخطوطة فى دار الكتب ولكنى لم أستطع الاطلاع عليها هناك لأنها معارة لاحدى الجهات العليا .

القضاء فى الاسلام ، وقد أمدتنا هذه الكتب بمعلومات هامة عن تنظيم القضاء فى دولة المماليك وعما طرأ على هذا النظام من تغييرات وتطورات جوهرية فى تلك الدولة .

وهناك طائفة أخرى من الكتاب أفادتنا فى دراستنا لهذا الموضوع . ومن بين هؤلاء الكتاب جمال الدين بن واصل (+ ٦٩٧ هـ = ١٢٦٧ - ١٢٦٨ م) صاحب مخطوط « مفرّج الكروب فى تاريخ بنى أيوب » . ولهذا المؤلف أهمية خاصة فى بحثنا لأنه عاصر سقوط دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك فاعتمدنا عليه فى دراسة نشأة المماليك وقيام دولتهم بمصر .

ومن هؤلاء أيضا بيبرس الدوادار (+ ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م) صاحب مخطوط « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » وكتابه فى أحد عشر مجلداً بالمتحف البريطانى بلندن . ولكن لسوء الحظ فقد بعضها ولا يمكن أن نقطع الا بوجود أربعة منها وهى :

الجزء الرابع (١٣١ — ٢٥٢ هـ) الجزء الخامس (٢٥٢ — ٣٢٢ هـ)
الجزء السادس (٣٢٣ — ٣٩٩ هـ) الجزء التاسع (٦٥٦ — ٧٠٩ هـ)

ويبدأ الجزء التاسع من هذا المخطوط (رقم ٢٤٠٢٨ بمكتبة جامعة فؤاد الأول) بالكلام على عهد السلطان بيبرس وينتهى إلى أوائل سلطنة الناصر الثالثة (٧٠٩ هـ) . ولهذا المخطوط أهمية خاصة فيما أوردناه من الاستشهادات الكثيرة الواردة فى الكتاب لتوضيح كثير من النقط الغامضة . ومما نلاحظه على هذا الكتاب أن مؤلفه يتكلف السجع فى كثير من عباراته . وهذا الجزء ينقص منه بعض صفحات فى مواضع مختلفة تقطع على القارىء تفكيره .

ومن المصادر الأخرى التى اعتمدت عليها كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لأبى المحاسن . وتقوم دار الكتب المصرية بنشر هذا الكتاب ، وقد ظهر منه الأجزاء الثمانية الأول التى انتهت بسنة ٧٠٩ هـ . ولذا اعتمدت فيما لم ينشر من هذا الكتاب على المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٣ وذلك من سنة ٧١٠ هـ إلى سنة ٧٨٤ هـ . ولأبى المحاسن كتاب آخر هو « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ويقع فى ثلاثة أجزاء ويحوى تراجم للشخصيات البارزة فى دولة المماليك

أما المراجع الأوربية فمما يستدعى النظر من بينها كتاب "La Syrie A L'Epoque des Mamlouks" لمؤلفه G. Demombynes الذى صدّر كتابه بمقدمه تاريخية وافية بلغت المائة صفحة بيّن فيها نظام الحكم عند المماليك وتكلم على الوظائف الادارية والمالية والقضائية وعلى موظفى الحاشية والبلاط السلطانى . ثم أفاض فى الكلام على الاقطاعات وتطوراتها فى العصور المختلفة . وقد ذيّل هذا المؤلف جميع ما كتبه بقلمه وما ترجمه عن القلقشندى بحواش جديرة بعناية الباحثين فى نظم الحكم أيام المماليك . وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة ما ورد فى الجزء الرابع من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى خاصاً بنيابات الشام .

كذلك فعل ستانلى لينپول S. Lane-Poole فقد ذيّل كتابه "The Art of the

"Saracens" بمقدمة تاريخية عن نظم الحكم فى دولة المماليك . فأوضح أنواع الوظائف على اختلافها والدواوين الحكومية فى الدولة المملوكية بشكل جلى . وقد أمدنا لينبول فوق هذا فى كتابه: "Egypt in the Middle Ages" بمعلومات نافعة تعطينا فكرة عن نظام السلطنة المملوكية فى مصر .

ومن المصادر الجديرة بالتنبيه كتاب Corpus inscriptionum arabicarum أى « جامع الكتابات العربية » لمؤلفه Max Van Berchem وليس لأى باحث فى التاريخ الاسلامى غنى عنه . رأى هذا المؤلف أن للعمائر الاسلامية وما عليها من كتابات أخطر الشأن وأجل الفائدة فى دراسة المدنية الانسانية وتطور الحياة العقلية والسياسية والادبية لأمم الشرق الأدنى . فعوّل على أن يصف العمائر المذكورة وأن يجمع نصوص ما عليها من الكتابات وأن يضمنها مؤلفا كبيراً ظهرت فى حواشيه ثقافته العظيمة وعلمه الغزير . وأتم جاستون ڤييت عمل ڤان برشم فكتب الجزء الثانى من هذا المرجع الجليل . وتضافر تلاميذ ڤان برشم وأعوانه على تحقيق رغبته فى جمع كل النصوص العربية المكتوبة على العمائر والتحف فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى . ونهض بأعباء هذا المشروع كومب Et. Combe وڤييت G. Wiet وسوڤاجيه J. Sauvaget الذين أهدوا هذا السجل الجامع الشامل إلى روح ڤان برشم (١). وهناك كتاب Saracenic Heraldry لمؤلفه Mayer استاذ علم الآثار الاسلامية فى الجامعة العبرية بفلسطين . كتب مؤلفه فى علم الرنوك وتناول بحث رنوك المماليك ومعناها ورسومها .

وللدكتور عزيز سوريال عطية كتابان هامان أحدهما "The Crusade in th Later Middle Ages" وثانيهما "Egypt and Aragon" . وقد أفادنا الكتاب الأول فيما دوّنه مؤلفه عن The Eastern Christendom ، فانه تناول فى هذا الفصل الكلام عن معاملة سلاطين المماليك للرعايا المسيحيين فى مصر . وفى كتابه الثانى تكلم عن المراسلات التى دارت بين السلطان الناصر ويعقوب ملك أرجونه فى صالح المسيحيين ، وهى رسائل عثر عليها المؤلف فى اسبانيا وتنشر لأول مرة وتجلى لنا علاقة مصر بأرجونه فى عصر الناصر مما يبين أن البلاط السلطانى كان محطاً لسفراء الدول فى ذلك العصر .وقام الدكتور عزيز بنشر كتاب قوانين الدواوين للأسعد بن مماتى الوزير الأيوبى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ . وبذل فى تحرى أصول المخطوط الذى وضعه ابن مماتى واثبات نصوص النسخ المتعددة جهوداً كبيرة حتى وفق لاخراج تلك الوثيقة التاريخية التى تعد من أهم الوثائق عن أحوال الزراعة ونظم الدواوين المصرية فى عصر الدولة الأيوبية .

هذا الى مصادر أخرى متنوعة عربية وأوربية لم يكن لها ما للكتب السالفة من أثر . بيد أنها أمدتنا بمعلومات عثرنا عليها فى ثناياها . وقد أوردناها فى ثبت المصادر .

---

(١) راجع ما كتبه الدكتور زكى محمد حسن فى كتاب « فى مصر الإسلامية » بعنوان « مصادر مهملة فى دراسة التاريخ الإسلامى » ص ١٥٥ — ١٥٧ .

القسم الاول

التاريخ السياسى



سلاطين دولة المماليك البحرية

٦٤٨ — ٧٨٤ هـ و ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

رقم	سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنه ميلادية
		(١) السلطنة المملوكية حتى الناصر محمد	
١	٦٤٨	السلطان الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى الصالحى	١٢٥٠
٢	٦٥٥	» » المنصور نور الدين على بن المعز أيبك	١٢٥٧
٣	٦٥٧	» » المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
٤	٦٥٨	» » الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى	١٢٦٠
٥	٦٧٦	» » السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة خان بن بيبرس	١٢٧٧
٦	٦٧٨	» » العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس	١٢٧٩
٧	٦٧٩	» » المنصور سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى	١٢٧٩
٨	٦٨٩	» » الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون	١٢٩٠
		(٢) عصر الناصر محمد	
٩	٦٩٣	» » الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	١٢٩٣
١٠	٦٩٤	» » العادل زين الدين كتبغا المنصورى	١٢٩٤
١١	٦٩٦	» » المنصور حسام الدين لاچين المنصورى	١٢٩٦
	٦٩٨	» » الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	١٢٩٨
١٢	٧٠٨	» » المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣٠٨
	٧٠٩	» » الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	١٣٠٩
		(٣) أولاد الناصر	
١٣	٧٤١	» » المنصور سيف الدين أبو بكر بن محمد بن قلاوون	١٣٤٠
١٤	٧٤٢	» » الأشرف علاء الدين كچك بن الناصر محمد بن قلاوون	١٣٤١
١٥	٧٤٢	» » الناصر شهاب الدين احمد بن محمد بن قلاوون	١٣٤٢
١٦	٧٤٣	» » الصالح عماد الدين اسماعيل بن محمد بن قلاوون	١٣٤٢
١٧	٧٤٦	» » الكامل سيف الدين شعبان بن محمد بن قلاوون	١٣٤٥
١٨	٧٤٧	» » المظفر زين الدين حاجى بن قلاوون	١٣٤٦
١٩	٧٤٨	» » الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن بن محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	١٣٤٧
٢٠	٧٥٢	» » صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون	١٣٥١
	٧٥٥	» » الناصر حسن بن محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	١٣٥٤
		(٤) أحفاد الناصر	
٢١	٧٦٢	» » المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى	١٣٦١
٢٢	٧٦٤	» » الأشرف زين الدين أبو المعالى شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون	١٣٦٣
٢٣	٧٧٨	» » المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين	١٣٧٦
٢٤	٧٨٣ — ٧٨٤	» » الصالح زين الدين حاجى	١٣٨١ — ١٣٨٢

الباب الأول

دولة المماليك ومميزاتها الرئيسية

يرجع ظهور المماليك فى العالم الاسلامى إلى ماقبل قيام دولتهم بامد طويل . وربما كان أول من استخدمهم هو الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ هـ = ٨١٣ — ٨٣٣ م) ، إذ كان فى بلاطه بعض المماليك المعتوقين . ثم الخليفة المعتصم العباسى (٢١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٣م) حينما استخدم فرقا من التركمان لتدعيم سلطانه . وكان سبب عدم استخدام المعتصم للمماليك هو قلة ثقته بالعرب ، فالواقع أن الجند الفرس الذين قامت على أكتافهم الدولة العباسية فقدوا عطف الخلفاء ، فاراد هؤلاء أن يحموا أنفسهم بجيش من الجند الترك [١] . وكانت هذه سابقة أولى لكثير من الخلفاء والحكام الذين خلفوه . وقد أخذ بمبدأ استخدام المماليك ، ولاة مصر الاسلامية من الطولونيين إلى الاخشيديين ثم الفاطميين .

ذلك أن احمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية قد أكثر من شراء مماليك [٢] الديلم سكان جنوب بحر قزوين وبلغت عدتهم أكثر من أربعة وعشرين ألف غلام من الأتراك وأربعين ألف من السود وسبعة آلاف من الأحرار المرتزقة [٣]. وكان طولون أبو احمد من الترك الذين كانوا يقيمون بين تركستان وسيبيريا ، وقد أسر فى بعض الحروب فأهداه نوح ابن أسد السامانى إلى الخليفة المأمون العباسى نحو سنة ٢٠٠ هجرية فى جملة من الرقيق [٤] والهدايا كما كان الشأن فى بلاد ما وراء النهر . ثم تأسست الدولة الاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ — ٩٦٩ م) فجعل محمد بن طغج الاخشيد جيشه من الأتراك ومن الديلم . وقد بلغت عدة ذلك الجيش بمصر والشام أربعمائة ألف جندى [٥] عدا حرسه الخاص الذى بلغ عدده

---

(١) Ph. Hitti : History of the Arabs, p. 466.

(٢) كلمة « مماليك » جمع ومفردها « مملوك » . ويقصد بها غالبا الرقيق الأبيض . وهى اسم مفعول فعله ملك ، واسم الفاعل مالك . والمملوك هو عبد مملك .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

(٤) يحدث الرق بسبب الأسر فى الحرب أو بالشراء . وكان العبد يتحرر إما بإعتاق سيده له مكافأة له على عمل عظيم قام به أو لشجاعة فائقة أظهرها فى القتال أو لإخلاصه الشديد لمولاه . ولم يكن تحرير العبد مقصوراً على هذه الأسباب بل لقد جعل الشرع الاسلامى تحرير العبد من أعظم القربات إلى الله وتشوق كثيرا لذلك حتى جعله كفارة للقتل خطأ وكفارة للظهار والإيمان وغيرها . انظر كتاب النظم الاسلاميه للدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٩ .

ثمانية آلاف مملوك . ولما جاء الفاطميون إلى مصر (٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م) كانوا فى حاجة إلى جيش كبير يوطد أركان دولتهم فيها ويسهل عليهم ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى بلاد الشرق وكان جيشهم بادىء الأمر مؤلفاً من المغاربة فأضافوا اليه فى مصر غير أولئك من أتراك وأكراد وغز وديلم ومصامدة . (١)

ولما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين (٥٦٧ هـ = ١١٧١ م) نهجوا نفس تلك السبيل وأكثروا من شراء المماليك الترك وبنيت لهم الشكنات بجزيرة الروضة ، وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية(٢) ، وأتيح لهم بعد ذلك أن يتولوا الحكم فى مصر (٣) .

وكانت الغالبية العظمى لجماعات المماليك الذين جلبهم الأيوبيون وسلاطين المماليك من بعدهم فى مصر من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق (٤) وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر ، فكانوا خليطا من الأتراك والشراكسة والروم والروس والأكراد فضلا عن أقلية من مختلف البلاد الأوربية (٥) . وكان تيار الوافدين من أولئك الأجناس بصحبة النخاسين لا ينقطع بسبب ازدياد حاجة السلطنة إلى اقتناء المماليك واستخدامهم فى الجيش ، ولأن ثراء الدولة المملوكية وتواتر الأخبار بأن فى وظائفها وسلطنتها ميداناً فسيحاً لكل ذى موهبة وقدرة — كل ذلك كان سبباً لاجتذاب عدد كبير من أجناس مختلفة إلى مصر . ولقد قيل إن ما كان يصل إلى بلاد التركستان من الأقاصيص عن أحوال المماليك فى مصر وما يذاع عن ثروة الناس بالقاهرة كان باعثاً لكثير من أهل تلك البلاد على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا فى حاشية سلطان مصر .

لذلك كثر تجار المماليك فى هذه الأقاليم ، وهؤلاء كانوا يترددون على بلاد الشرق الأوسط

---

(١) نسبة إلى مصمودة قبيلة من البربر بالمغرب .

(٢) نسبة إلى بحر النيل . وكان أول من عمل هذا السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٥٠ م) .

(٣) أنظر مقال الأستاذ سوبرنهايم Sobernheim عن المماليك فى دائرة المعارف الاسلامية . ويلاحظ أن السلطان أيوب قد أكثر من شراء المماليك من الترك خاصة ، وهو الذى بنى لهم الشكنات فى القلعة التى أنشأها سنة ٦٣٨ هـ بجزيرة الروضة . وجهز تلك القلعة بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وأنشأ فيها جامعا وستين برجا . ولما تم بناءها انتقل إليها هو وأفراد أسرته ومماليكه البحرية ، كما اتخذها مقراً للملك .

(٤) تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجا والأراضى الواقعة حول بحر قزوين .

(٥) Heyd : Histoire du Commerce du Levant, tome II. p. 260

من ذلك ما يقال عن أن السلطان لاچين كان من ضفاف بحر البلطيق . انظر :

Hautecoeur et Wiet Les Mosquées du Caire, p. 48.

والمعروف كذلك أن أنس والد السلطان برقوق كان من فلاحى الدانوب . انظر :

R. L. Devonshire : Rambles in Cairo, pp. 555—561.

خاصة فيشترون المماليك ويبعثون بهم الى مصر فيأخذ منهم سلاطين المماليك ما يحتاجون اليه فى جيوشهم [١].

ولم تكن تجارة المماليك مقصورة على الشرق الأوسط ومصر بل امتد نطاقها إلى أوربا حيث قامت تجارة المماليك بصورة واضحة . وكان يمارس هذه التجارة الغربيون الذين جنوا منها أرباحاً وفيرة . وكان التجار الأوربيون ينافسون التجار الشرقيين فى هذا النوع من التجارة فى وقت سبق قيام عصر المماليك . وقد اضطر الكثير من ملوك أوربا وباباواتها الى اتخاذ اجراءات شديدة ضد التجار المسيحيين بما كانوا يقومون به من بيع المماليك للعرب والبنادقة . وكان البنادقة وأهل جنوة يذهبون إلى مناطق عدة ، نخص بالذكر من بينها سواحل البحر الأسود ، لجمع الشبان وبيعهم فى مصر . ويقال إن التجار الأوربيين كانوا يجلبون إلى مصر كل عام نحو ألفين تقريبا من المغول والشراكسة والروم والألبانيين والصقالبة والصرب [٢] كما كان الترك يرسلون بعض أسراهم المجر إلى أسواق الرقيق فى مصر ليشتريهم المماليك . وقبل ذلك بعدة قرون باعت الجيوش الجرمانية أسراها من الصقالبة إلى المسلمين فى أسبانيا [٣]

وكان المماليك الذين يجلبون إلى مصر يباعون — وهم فى مقتبل العمر — فى أسواق النخاسة بيع الأرقاء . [٤] . وكان خان مسرور [٥] هو الساحة التى تقام فيها سوقهم فى القاهرة كما كان للماليك من التتار سوق قائمة باستمرار فى الاسكندرية [٦]. وكانت أهم الأسواق التى يشترى فيها المماليك واقعة على الساحل الشمالى من البحر الأسود وبحر آزوف وفى مستعمرة كافا Caffa وكانت تابعة لجمهورية جنوة .

ولنضرب هنا مثلا يكشف لنا عن كيفية اختيار السلاطين أو كبار الأمراء مماليكهم . كان بيبرس — الذى أصبح سلطاناً على مصر — قفجاق الأصل . ويظهر أنه بيع أولا بمدينة سيواس وحضر مع أحد التجار إلى حماة ومعه مملوك آخر . فلما عرضا على الملك المنصور صاحب

---

(١) Heyd : op. Cit p.536.

(٢) Heyd : Op. Cit. p. 443, 560. Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV (L'Egypte Arabe),p. 389

(٣) Wiet : Op. Cit. p. 389.

(٤) أطلق على هؤلاء اسم « عبيد الشراء » لأنهم اشتروا بالمال .

(٥) حدد المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٩٢) موضع خان مسرور فقال : « خان مسرور مكانان : أحدهما كبير والآخر صغير . فالكبير على يسرة من سلك من سوق باب الزهومة (أحد أبوب القصر الشرقى الكبير الذى بنى فى عهد الفاطميين سنة ٣٥٨ هـ = ٩٦٩ م) إلى الحريرية وكان موضعه خزانة الورق . والصغير على يمنة من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر ، وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملية » . وموضع هذه المدرسة لا يزال إلى اليوم بجوار جامع السلطان برقوق من بحريه وتعرف باسم جامع الكاملية أو جامع الكامل .

(٦) Heyd : Op. Cit. p. 443.

حماة لم يعجبه بيبرس وبيع بدمشق بثمانمائة درهم . ولكن مشتريه رده لبياض فى إحدى عينيه فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار مملوك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماة ثم انتقل إلى خدمة الملك الصالح (١) .

وتعد رواية ابن واصل عن سبب رفض الملك المنصور صاحب حماه شراء بيبرس من الروايات الطريفة ، فهو يقول : «كان السلطان المنصور إذ ذاك فى سن الصبا ، وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر وتراه الصاحبة والدته ومن أشارت بابتياعه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر وهو مع التاجر تقدم باحضاره فأحضر ومعه خشداش(٢) له وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلما استأذنها السلطان ولدها فى شرائهما ، قالت له : خذ المملوك الأبيض ، والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة — يعنى بيبرس — فان عينيه فيهما الشر لائح فردهما جميعاً على التاجر فسرها ذلك . وبلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا فطلبهما إلى عنده فلما رآهما صلحا له فاشتراهما وهو فى الاعتقال» (٣) . ولما أفرج عن الأمير علاء الدين البندقدار سار من حماه إلى مصر ومعه مملوكه بيبرس وظل فى رعاية أستاذه البندقدار حتى أخذه منه الصالح أيوب ، فانتسب إلى الملك الصالح دون أستاذه .

وليس من السهل علينا دراسة عادات هؤلاء المماليك وحياتهم الخاصة دراسة عميقة ، لأن المصادر التى نستطيع أن نعتمد عليها فى استقصاء تاريخ المماليك قد أغفلت إلى حد كبير دراسة هذه الناحية . ونحن لانجد فى تاريخ العالم نظيراً لعصر المماليك . فهم طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال ، ثم كثر عددهم وحكموا قطراً غنياً كمصر ووضعوا أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر . ومن الغريب أن المماليك عاشوا أثناء حكمهم لمصر كطائفة منفصلة عما حوالها واحتفظوا بشخصيتهم ولم يختلطوا بأى عنصر من عناصر السكان المصرية ، سواء فى ذلك الأقباط والمسلمين ، ولم يسمحوا لسكان مصر أو أى جزء من أجزاء ممتلكاتهم بالانخراط فى صفوفهم ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر . وقصروا أعمال الجندية على أشخاصهم وذهبوا إلى مدى أبعد من ذلك ، حيث اشترطوا الا ينخرط فى سلك المماليك الحربية الا من يستوردونه من جديد . فأبناء المماليك مهما عظم شأنهم كانوا يقصرونهم على الأعمال الكتابية والادارية ولا يسمحون لهم بالدخول فى الجيش . أما أهل مصر فكانوا فى عصر المماليك يتولون وظائف القلم ، ولم

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٨ المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٠ .

(٢) يطلق على الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة زمالة قديمة اسم «الخوشداشية» (ومفردها خشداش) . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ . وكلمة خشداش معربة من اللفظ الفارسى «خواجاتاش» أى الزميل فى الخدمة .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٤٠ ب .

يكن لهم نصيب فى الجيش العامل ، اللهم إلا فى بعض الأعمال غير العسكرية كأعمال الأئمة والصناع والأتباع .

وبذلك يمكن القول بأن مماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم . وهذه العزلة والترفع انفرد بهما المماليك حتى صارا من أخص مميزاتهم . ولم يكن زواج بعض المماليك من بنات القضاة وكبراء المسلمين فى القاهرة داعياً إلى تغيير عادة العزلة فيهم وحثهم على الاختلاط بغيرهم . ولعل هذا كان ترفعا منهم على أهل البلاد المحكومين ومحافظة على الارستقراطية التى تؤهل للعرش بدون نظر إلى اختلاف أصول أفرادها وما مروا به من رق وعبودية .

وكان المماليك فيما بينهم ينقسمون إلى أحزاب متطاحنة لا تربأ بنفسها عن استعمال أدنأ طرق التنكيل الواحد بالآخر . ومع هذا فان الانقسام الداخلى لم يؤثر على وحدتهم كطائفة أو مجموعة إزاء العالم الخارجى الذى كانوا يواجهونه كعصبة واحدة ، مما يفسر لنا سر قوتهم وانتصاراتهم الحربية إزاء عدوهم المشترك .

ومن خواص المماليك جمعهم بين الصلاح فى نظر الشعب والاستمساك بقواعد الدين الحنيف من حيث الصلاة والزكاة وتشييد العمائر الدينية وغير ذلك ، بينما تجدهم فى حياتهم الخاصة لا يتورعون عن اتيان أشنع المنكرات والتعسف فى أذى الخلق وإهراق الدماء بلا اكتراث بأبسط المبادىء الانسانية . وهذا المزج بين الصلاح والطلاح غريب فى بابه يظهر لنا أن المماليك كانت لهم شخصيتان : واحدة عامة وأخرى خاصة . واحدة تعمل على إعلاء كلمة الاسلام وأخرى لا تأبه بما يبشر به الاسلام من قواعد العدل والخلق الكريم . وهذا طبعا كلام عام ينطبق على المماليك فى مجملهم لأنه كان هناك أيضا فى صفوفهم أفراد قلائل اتصفوا بحب الخير والدين الصحيح . وعلى ذلك فاننا لا نظن أن شعورهم الدينى كان عميقا ولكنهم رغم رذائلهم وجرائمهم كانوا فى بعض الأحيان يتخذون مظهراً خارجياً فيه شىء من التقوى ، فيبنون العمائر الدينية ويوزعون الاحسان والعطايا (١) .

والمعروف أن المماليك كانوا لا يجدون بأساً فى الاحتفاظ بنسبة تشير إلى صاحبهم الأول أو إلى أستاذهم . وتذكر هذه النسبة بعد أسمائهم : فالمعز أيبك التركمانى تسمى بالصالحى النجمى لأنه كان من مماليك الصالح نجم الدين أيوب . كذلك الظاهر بيبرس العلائى البندقدارى الصالحى تسمى « بالعلائى البندقدارى » لأنه كان فى أول أمره من مماليك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، ثم تسمى بالصالحى بعد أن انتقل إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب وصار من مماليكه البحرية . وشيخو العمرى نسبة إلى تاجر اسمه عمر كان قد اشتراه فى البداية (٢) .

---

(١) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire pp. 46—47.

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 76.

وإذا كان صاحب المملوك هو السلطان الجالس على العرش ، فان نسبته إلى اسم هذا السلطان يسبقها لفظ « الملكى » فيقال مثلا : « قوصون الملكى الناصرى » (١).

وكذلك كانت بعض الألقاب التى تطلق على المماليك تشير إلى الثمن الذى دفع فيهم . ومثال ذلك لفظ « الألفى » الذى عرف به السلطان قلاوون والذى يشير إلى ألف الدينار التى اشترى بها فى صباه (٢). ومن ذلك نرى أن المماليك كانوا ينسبون إما إلى صاحبهم الأول أو إلى التجار الذين باعوهم أو إلى الثمن الذى دفع فيهم . على أنه من المعروف كذلك أنه يضاف إلى أسمائهم فى بعض الأحيان النسبة إلى الوظائف التى شغلوها أولا بين غلمان السلطان . وربما كان السبب فى هذا كله يرجع إلى الرغبة فى التمييز بين المماليك ذوى الاسم الواحد . فقد كان الاقبال على بعض الأسماء كبيراً جداً حتى لقد ورد فى المنهل الصافى لأبى المحاسن ذكر اسم نحو عشرين مملوكا باسم بيبرس فى نهاية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

وكان المملوك شديد التمسك بسيده أو أستاذه الذى اشتراه وقام بتربيته . وكانت رابطة الأستاذ بمماليكه رابطة لا انفصام لها . فقد كانوا يخلصون له فى السراء والضراء ويكونون رهن إشارته يوجههم كيفما شاء لتحقيق مآربه . وثمة علاقة أخرى كان لها شأنها وهى الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد ، فنبتت بينهم رابطة زمالة قديمة ، وكان يطلق على هؤلاء اسم « الخشداشية » على ما بينا . وهذه الرابطة كانت لها قوة واحترام . ويشهد بصحة ذلك ما تكرر فى عصر المماليك من أن السلطان كان يرقى خشداشه إلى أتابك ، بل الظاهر أنه كان يحدث كثيراً أن خشداش المملوك يستولى على موجوده عند وفاته وقد أبطل السلطان الظاهر بيبرس هذه العادة سنة ٦٦٢ هـ (٣) . على أن بعض المؤرخين ينكر وجود رابطة الزمالة أو الخشداشية ، ويذهب إلى أن وسط المماليك لم تكن فيه صداقة ولم تكن فيه أبسط أنواع الزمالة (٤) . وخاصة حين يرتقى المماليك ويصبحون على المسرح الأول ، يتنافسون فى الحصول على الوظائف الكبيرة أو على السلطنة ، حينذاك تنسى بينهم الزمالة والصداقة ، ويصبح مقياس نجاح كل منهم عدد من يحيطون به ويلوذون بحزبه من صغار المماليك (٥) .

وكان باب الترقى فى حكومة المماليك مفتوحا على مصراعيه لكل مملوك يثبت كفايته للعمل فيترقى من مملوك بسيط إلى أمير خمسة أو عشرة أو خمسين أو مائة أو ألف حتى يبلغ السلطنة نفسها . على أن المماليك لم يكونوا متساوين من حيث فرص الترقى ، فان المماليك الذين كانوا فى

---

(١) Van Berchem : Ibid. pp. 177—180.

(٢) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٣٤ .

(٣) ابن الفرات جـ ١١ ص ٢٥ .

(٤) Wiet : Précis de l'Histoire d' Egypte, t. II p. 238.

(٥) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 45.

بخدمة الأمراء كانوا يظلون مماليك أرقاء طوال حياتهم ولم تكن لديهم فرصة للترقى . أما مماليك السلطان فان باب الترقى لم يكن يفتح لهم إلا إذا أعتقهم السلطان وانضموا إلى الحرس السلطانى الذى كان نواة الجيش الحقيقية أو انضموا إلى غلمان السلطان ممن يقومون بوظائف البلاط المختلفة [١] . ولم يكن السلطان إلا واحداً من أمراء المماليك قدموه على أنفسهم primus inter pares لقوة شخصيته ووفرة أنصاره وكثرة جنده وقدرته على التغلب على المنافسين من الطامعين فى العرش أو لأنه كسب قلوبهم بكرمه وجوده وكفايته ووعوده . وبذلك كان مملوك اليوم هو سلطان الغد كما يقول ميور Muir [٢] The Slave of to-day, the Sovereign of tomorrow.

ولم يكن هناك اعتبار لنشأة المماليك أو أوطانهم الأولى . بل كانت الجامعة الكبرى بينهم أنهم مماليك غرباء فى هذا البلد الذى تطورت نظمه ، فسنحت لهم المقادير بالاستيلاء على أزمة الحكم فيه . وقيل لو أن الجنرال الفرنسى عبد الله مينو أو سليمان باشا الفرنساوى عاشا فى مصر فى عصر المماليك لما استحال عليهما الوصول إلى العرش [٣] .

وكان المملوك لا يصل إلى مرتبة سيده إلا بعد أن يتربى تربية عسكرية ويتثقف تثقيفا عاما فى مدارس خاصة أعدت لهذا الغرض ، ثم بعدئذ يلحق بجيش سيده ويتدرب على رمى النشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل [٤] .

وكانت سياسة سلاطين المماليك تقوم على الاكثار من المماليك ، فقد استكثر منهم السلطان قلاوون حتى يكونوا عونا له ولأولاده من بعده فى تثبيت عروشهم ، وبذل الأموال الضخمة فى شرائهم وأحسن اليهم ونهاهم عن التعرض لشعبه بسوء . وقد بلغ عددهم ١٢,٠٠٠ مملوك وهو عدد لم يجمعه أحد من سلاطين مصر قبله [٥] . وتعهدهم قلاوون بالتربية والتهذيب وأوصلهم الى أعلى المناصب فصار منهم الأمراء الكبار ونواب ممالك الشام والحصون الاسلامية وغير ذلك من مناصب الدولة الكبرى التى برهنوا فيها على شجاعة نادرة وكفاءة ممتازة . وقد أثر عن مماليك قلاوون أنهم كانوا يهابونه ولا يخرجون عن طاعته .

وقد أنشأ السلطان قلاوون فرقة جديدة من المماليك من الأرمن والجركس وأطلق عليها

---

(١) Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (L' Egypte Arabe), pp. 393 et seq.

(٢) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 215.

(٣) Hautecoeur et Wiet : les Mosquées du Caire, p. 48.

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر ج ١ ص ٩٥ .

اسم « البرجية » نسبة إلى أبراج قلعة الجبل(١) التى أقاموا بها كما بينا . وإذا عرفنا أن كتبغا ولاچين وبيبرس الجاشنكير كانوا من مماليك تلك الفرقة الجديدة وأنهم اغتصبوا العرش من ابنه الناصر محمد أمكننا القول أن الملك انحصر فى ذرية قلاوون ومماليكه منذ وفاته سنة ٦٨٩ ﻫ (١٢٩٠ م) حتى نهاية دولة المماليك البحرية(٢) . وعرفت تلك الطائفة باسم « الشراكسة » أيضاً وبلغ عددها ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك . وأسكن قلاوون جنس الخطا والقفچاق بقاعة عرفت باسم «القاعة الذهبية» وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم اسم «الخاصكية»(٣) وقد أدمج السلطان قلاوون ذرارى المماليك البحرية الصالحية فى طائفة المماليك البحرية التى أنشأها فى أوائل سلطنته . « فجمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق والكسوة ورسم بأن يكونوا جالسين على باب القلعة وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف بالبحرية »(٤) .

وسار الناصر محمد على سياسة أبيه قلاوون فى الاكثار من شراء المماليك الذين اعتمد عليهم فى حروبه وأصبحوا عوناً له ضد أعدائه . وقد بذل فى سبيل ذلك مابذله أبوه . وأحسن تربية مماليكه وأنعم عليهم بالملابس الفاخرة والخيول المطهمة والعطايا الوفيرة . وذاع أمر إحسان السلطان الناصر محمد لمماليكه وشدة عنايته بأمرهم فى غير مصر من الأقطار حتى تشجع تجار الرقيق وجلبوا إلى مصر فى عهده عددا وفيراً منهم من بلاد أزبك وبلاد الروم ومن مدينتى تبريز وبغداد . وكان الآباء يسارعون لبيع أبنائهم إلى هؤلاء النخاسين . وفى أيام الناصر ارتفع ثمن المماليك حتى بلغ ثمن الواحد منهم مائة ألف درهم فى بعض الأحيان أى خمسة

---

(١) كانت القلعة تعرف إذ ذاك باسم قلعة الجبل تمييزا لها عن قلعة الروضة التى أنشأها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٧٢ ﻫ . وأتم بناءها الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب سنة ٦٠٤ ﻫ وصارت منذ ذلك الوقت مقراً للدواوين السلطانية ودور الحكومة . وهى حصينة جدا تشتمل على كثير من القصور والإيوانات والطباق والأحواش والميادين والاصطبلات والمساجد والمدارس والأسواق والحمامات . وكان بها دار الوزارة وديوان الانشاء وديوان الجيش ودار النيابة وبيت المال وخزانة السلطان الخاصة والدور السلطانية والجب والأبراج التى كان يحبس بها الأمراء والمماليك الخارجون على السلطان . القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٣٣ — ٢٣٤ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ . كتاب السلوك ج ١ ص ٤٣٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٧ .

ويضيف أبو المحاسن إلى ذلك عبارة تنص على أن من وصل إلى العرش فى عهد دولة المماليك البرجية كان «إما من ذريته وإما من مماليكه أو مماليك مماليك أولاده وذريته » . وأبو المحاسن مؤرخ لا يستهان به ، وربما أنتج البحث فى المستقبل أن نساء بيت قلاوون وذراريهم وكذلك كثير من سلاطين الدولة البرجية كانوا فعلا من مماليك أواخر سلالة البيت القلاوونى .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٦٥٨ .

آلاف دينار [١] ، بواقع الدينار ٦٠ قرشاً صاغاً ذهباً حسب تقدير سمو المغفور له الأمير عمر طوسون ، فيكون ثمن المملوك إذن بالنقد الحديث ما يوازى حوالى ٣٠٠٠ جنيها ذهباً . وهذا بالطبع كثير جداً إذا روعى ما كان للنقود وقتئذ من قيمة . ولكننا لا نقبل هذا الرقم إلا بتحفظ كبير ، ونحن نحمله على ما نعرفه من مبالغة الكتاب فى العصور الوسطى ، ولا سيما إذا علمنا أن المقريزى أشار فى الموضع نفسه إلى أن نفقات المماليك بلغت فى كل شهر سبعين ألف درهم (أى نحو ٢١٠٠ جنيه) ثم تزايدت حتى صارت فى سنة ٧٤٨ هـ مائتين وعشرين ألف درهم (أى نحو ٦٦٠٠ جنيه مصرى) . والواقع أنه إذا صح هذا الرقم فان الأمراء كانوا يحتاجون إلى ثروات طائلة جداً لشراء المماليك الذين نعرف عددهم عند بعضهم .

وقد جرى سلاطين المماليك على اختيار كبار الموظفين من بين مماليكهم . ولذا عنوا بتربيتهم وتثقيفهم وتعليمهم فنون الحرب فى طباق[٢] قلعة الجبل التى كانت عبارة عن ثكنات الجيش المملوكى كله . ويقول المقريزى « كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة منها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان وأنزله فى طبقة جنسه وسلّمه لطواشى برسم الكتابة . فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم . وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر اليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمدن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار . وكان الرسم إذ ذاك الا يجلب التجار إلا المماليك الصغار . فاذا شب الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئاً من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه أساليب الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك . فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتاج اليه »[٣].

ومن هذه العبارة يتضح أن المماليك كانوا يأخذون نصيبهم من التعليم المدنى والحربى ، وكثيرا ما تفقد السلاطين بأنفسهم شئون تربية مماليكهم . فقد أثر على السلطان الملك المنصور سيف

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) شاهد المقريزى طباق القلعة فقال : « وأدركنا بالقلعة البيوت التى كان يقال لها الطباق » (الخطط جـ ١ ص ٤٤٣) . ثم قال (نفس المصدر جـ ٢ ص ٢١٣) « ان المماليك كانت تقيم دائما بهذه الطباق ولا يسمح لها بمبارحتها ليلا ونهاراً » . والمقصود هنا بطبيعة الحال صغار المماليك الذين كانوا فى مرحلة التربية والتعليم ، بدليل ما ذكره المقريزى (نفس المصدر جـ ٢ ص ٢١٣) من « أن الناصر محمد ابن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوما فى الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم . ولكن لما جلس السلطان الأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) على عرش مصر بعد أبيه قلاوون سمح المماليك بمغادرتها ليلا ، على شرط ألا يبيتوا بمكان غيرها » . (المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة) . وكان عدد طباق المماليك السلطانية اثنتى عشرة طبقة ، كل طبقة منها قدرحارة ، تشتمل على عدة مساكن ، تسع نحو ألف مملوك . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٣ .

الدين قلاوون أنه كان يخرج فى كثير من أوقاته إلى رحبه القلعة عند موعد تناول الطعام ويأمر بعرضه عليه . ويتفقد مايقدم للمماليك من الأطعمة للوقوف على مبلغ إتقانها ، فاذا رأى عيبا اشتد على المشرف ونهره وعنفه . وبلغ من شدة عنايته بأمر المماليك وحرصه على ترقية شئونهم وتوفير أسباب الراحة لهم أنه كان يقول « كل الملوك عملوا شيئا يذكرون به ما بين مال ورجال وعقار وأنا عمّرت أسواراً وعملت حصوناً لى ولأولادى وللمسلمين وهم المماليك » (١) .

ولقد أحسن قلاوون تربية مماليكه حتى صار منهم الأمراء والنواب « فكان بهم منفعة للمسلمين ومضرة للمشركين وقيامهم فى الغزوات معروف وشرهم عن الرعية مكفوف » . (٢) وقد سار الناصر محمد على سياسة أبيه فى العناية بأمر المماليك وزاد عليه ما كان يفيضه عليهم من العطاء الجزيل والمنح الوفيرة .

ومما يدلنا على أن هؤلاء كانوا موضع العطف والرعاية من سلاطين مصر وأمراءها ما أورده ابن فضل الله العمرى صاحب « التعريف بالمصطلح الشريف » فى الوصايا التى تذكر فى العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسيم . ومن « وصية مقدّم المماليك » نتبين كيف كان رؤساء المماليك يوصون بحسن معاملتهم وإكرام وفادتهم والعمل على ما فيه راحتهم وتفقد أحولهم والسهر على ما فيه خيرهم ورفاهيتهم ، لا سيما وقد تغربوا عن أوطانهم وحرموا عطف آبائهم وأمهاتهم فصاروا ينتظرون العطف والرعاية وحسن المستقبل .

وهاك بعض ما جاء فى هذه الوثيقة التاريخية الهامة :

« ليحسن إليهم . وليعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدم عليهم . وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التى يخيل إليهم أنه معهم وخلفهم وبين أيديهم . وليلزم مقدم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليهم . وليكن لأحوالهم متعهدا ولأمورهم متفقدا . وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيرة ويتعرف ماهم عليه مما لايخفى عليه فانهم إن لم يكونوا أهلا فانهم جيرة . . . وليفرق فيهم مالهم من الكساوى ويسبل عليهم رداء الشفقة . . . وليحمل النظر فى أمر الصغار منهم والكبار أصحاب الطبقات العالية . . . وليوص مقدميهم بتفقد ما يدخل إليهم فان الغش أكثره من الطعام أو الشراب . . . » (٣) .

ولكن على الرغم من هذه المعاملة الطيبة ، فان المشرفين على أمر تربية المماليك وتهذيبهم وتأديبهم كانوا لا يترددون فى توقيع أقسى العقوبات عليهم اذا بدرت من أحدهم هفوة أو قصّر فى تحصيل العلوم أو انحرف عن طريق الدين . يقول المقريزى : « ولهم (للمماليك) أزمة

---

(١) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢١٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٣٢٣ .

(٣) العمرى : التعريف ص ٩٨ — ٩٩ .

من النواب وأكابر من رؤوس النواب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته . فإن عثر أحد مؤدبيه الذين يعلمونه القرآن أو الطواشى الذى هو مسلّم إليه أو رأس نوبة الذى هو حاكم عليه على أنه اقترف ذنبا أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا قابله على ذلك بعقوبة شديدة على قدر جرمه . . . فذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون فى سبيل الله وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى »[1].

ومن ذلك كله نرى أن المماليك قد عنوا بوضع نظام خاص لتربية من يضمونهم إلى صفوفهم من الأطفال الجدد حتى يضمنوا رقيهم فى أغلب النواحى الثقافية بمدارس خاصة يتعلمون فيها القراءة والكتابة وكثيراً من مختلف العلوم بما فيها الفقه والفلسفة والرياضة وغيرها . وأهم من ذلك أنهم كانوا يدربون فى معاهد خاصة على صناعة الحرب والفروسية . وكانت الأموال الطائلة التى جمعها المماليك أكبر عون لهم فى الانفاق بسخاء على تربية صغار المماليك . ولكننا مع ذلك نجد فى بعض الأحيان من المماليك من بقى أميا أو لم يأبه باستعمال اللغة العربية فى حياته الخاصة والعامة .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ .

وهنا يلزم أن نضيف النص المشهور الذى حكم فيه المقريزى على ما آلت إليه حال المماليك فى دولتهم البرجية ، فكتب : « واستقر رأى الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم . فبدلت الأرض غير الأرض وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا وأشحهم نفسا وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أزنى من قرد وألصّ من فأرة وأفسد من ذئب . لا جرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر » . (راجع خطط المقريزى : نفس الجزء والصفحة) .

الباب الثانى

سلطنة المماليك فى مصر
الى أن اعتلى الناصر العرش

(٦٤٨ – ٦٩٣ هـ = ١٢٥٠ – ١٢٩٣ م)

١ – السلطنة المملوكية الى أن اعتلى بيبرس عرش مصر (٦٤٨ – ٦٥٨ هـ = ١٢٥٠ – ١٢٦٠ م)

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الصالح نجم الدين أيوب عدة أشخاص كان لهم أكبر الأثر فى تغيير مجرى السياسة المصرية ، من أهمهم شجرة الدر أم خليل وهى أرمينية . وكانت أم ولد فى حريم الصالح أيوب ، بعثها اليه الخليفة المستعصم من بغداد . فولدت له ابنه خليلا ، وكانت فى صحبته وهو ببلاد الشرق فى حياة أبيه الملك الكامل . ثم ظلت معه حينما حبسه الملك الناصر داود صاحب حلب بالكرك سنة (٦٣٧ هـ (١١٣٩ م)[1]. ووصفها ابن اياس بأنها كانت « صعبة الخلق شديدة الغيرة قوية البأس ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة سكرانة من خمرة العجب والتيه »[2] . وقد قامت بدور هام فى حوادث انتقال السلطنة من أيدى الأيوبيين إلى أيدى أمراء المماليك .

كانت شجرة الدر أول سلطانة على مصر من غير الأيوبيين واتفق المماليك بعد وصولها إلى العرش أن يكون عز الدين إيبك التركمانى الصالحى أحد المماليك البحرية «مقدما للعساكر» وخطب لها على منابر مصر والقاهرة . إلا أن الأحوال قد اضطربت على أثر توليها الملك فامتنع أمراء دمشق عن الحلف لها وناصرهم فى ذلك الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب ودمشق . ولما كانت الدولة الأيوبية تؤيد الخلافة العباسية ، حاول أمراء المماليك منذ إقامة شجرة الدر سلطانة على مصر أن يحصلوا على موافقة الخليفة العباسى المُستعصم بالله (٦٤٠ – ٦٥٦ هـ = ١٢٤٢ – ١٢٥٨ م) على اختيارها . ولكن الخليفة نعى عليهم إقامة امرأة فى السلطنة وكتب اليهم يقول : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلا»

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٢ .

(٢) بدائع الزهور جـ ١ ص ٩١ .

لذلك عارض الشعب فى توليها عرش الديار المصرية بعد أن علم أن الخليفة العباسى لم يوافق على تنصيبها سلطانة . إلا أن شجرة الدر احتفظت — بما أوتيت من حذق ومهارة — بالعرش فى بيتها بزواجها من الأمير عزالدين أيبك (١٩ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ = ١١٥٠ م) ونزلت له عن العرش بعد أن حكمت مصر ثمانين يوما برهنت فيها على كفايةوبراعة وحكمة فى تصريف الأمور (١) .

بعد أن زالت دولة بنى أيوب وانتقل حكم مصر إلى مماليكهم بانتخاب الأمير عز الدين أيْبَك(٢) لعرش السلطنة (٦٤٨—٦٥٥ هـ =١٢١٠—١٢٥٧م) ، نلاحظ أن الحالة لم تستقر تماما ، كما هو شأن كل دور من أدوار الانتقال فى مختلف عصور التاريخ البشرى .

على أن المماليك لم ينتخبوا من بينهم الأمير أيْبَك سلطانا لأنه كان أقواهم مراساً فى إدارة شئون البلاد ، بل على العكس من ذلك دفعهم إلى هذا الاختيار كونه من أواسط الأمراء مكانة وليس من أعيانهم ، حتى إذا بدا لهم أن مصلحتهم تقتضى صرفه عن العرش استطاعوا ذلك فى يسر وسهولة لضعف شأنه وضآلة نفوذه(٣) .

وقد اعترض ايبك فى عهد سلطنته عدة عقبات، فان الناس لم ينسوا بنى أيوب باعتلاء ايبك عرش السلطنة . فقد أورد لنا ابن اياس عبارة نستدل منها على أن كثيراً من المماليك البحرية كانوا لايزالون يذكرون حق الأيوبيين الشرعى فى عرش البلاد ، فلم يرضوا عن سلطنة ايبك ولم يطمعوا فى أن يكون المماليك حكم وادى النيل(٤) . لذلك وقع فى عهد سلطنة أيبك حادث نادر الوقوع فى تاريخ الأمم والشعوب وهو إقامة سلطانين معاً فى وقت واحد . إذ اتفق بعض أمراء المماليك بزعامة الأمير فارس الدين أقطاى مع المعز ايبك (٥ جمادى الأولى سنة ٦٤٨ هـ) على إقامة سلطان آخر من بنى أيوب ، لأنفتهم وخوفهم من المعز ايبك ... فاختاروا أن يقيموا صبياً من بنى أيوب ويكون (صحتها ويكونوا) هم الذين يدبرون الملك ويأكلون الدنيا باسمه »(٥) . فاستدعوا الناصر صلاح الدين يوسف(٦) ابن الملك المسعود

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٩ .

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن معظم أسماء أمراء المماليك عبارة عن أسماء أشياء وردت فى اللغات التركية والفارسية والتترية (Lane–Poole : The Art of the Saracens, p. 20) فلفظ أيبك يتركب من كلمتين هما : « أى » ومعناها قمر و « بك » ومعناها « الأمير » . فمعنى الاسم « أمير قمر » (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٩) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٤ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ٩٠ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب حـ ٢ ص ٣٧٨ .

(٦) ويقال له مظفر الدين موسى وقسيس ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

يوسف صاحب بلاد اليمن وبايعوه بالسلطنة ولقبوه الملك الأشرف[١].

وقد اختلف المؤرخون فى اللقب الذى تلقب به أيبك بعد وصول الملك الأشرف إلى مصر . فقال بعضهم أنه ظل يحكم مصر كأتابك للملك الأشرف . يقول ابن واصل : « فأقيم الملك الأشرف سلطانا وخطب له بالديار المصرية ويكون المعز عز الدين أيبك التركمانى أتابكه واليه تقدمة العسكر »[٢] . ويقول أبو المحاسن : « فأحضروه (أى الأشرف) وسلطنوه وخطبوا له وجعلوا الملك أيبك التركمانى أتابكه وتم ذلك . فكان التوقيع يخرج وصورته رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى »[٣] .

وقال بعض المؤرخين أنه ظل هو والأشرف يحكمان مصر كل منهما بلقب « سلطان » . يقول المقريزى « فاجتمع رأى الأمراء على إقامة الأشرف شريكا للمعز فى السلطنة فأقاموه معه فى جمادى الأولى سنة ٦٤٨ هـ »[٤]. ويقول ابن إياس : « فلما تسلطن يوسف المذكور لم يعزل أيبك عن السلطنة بل صار معه مثل الشريك وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها وضربت السكة على الدنانير باسمهما »[٥] .

على أن المؤرخين قد أجمعوا على أن الأشرف الناصر صلاح الدين لم يكن له مع أيبك سوى الاسم . وفى ذلك يقول المقريزى : « وصارت المراسم تبرز عن الملكين . إلا أن الأمر والنهى للمعز وليس للأشرف معه سوى مجرد الاسم »[٦] ، ويقول أبو المحاسن : « واستمر الحال على ذلك مدة والمعز هو المستولى بالتدبير ويعلم على التواقيع والأشرف المذكور صورة » [٧] .

وظل الناصر صلاح الدين شريكا فى السلطنة حتى قويت شوكة أيبك بانضمام عدد كبير من المماليك اليه ، فانتهز فرصة ازدياد خطر التتر فى بلاد الشام وتهديدهم مصر سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) وقطع اسم الأشرف من الخطبة وسجنه بقلعة الجبل [٨] ثم بعث به إلى عماته[٩]

(١) اختلف المؤرخون فى تقدير سن الملك الأشرف . فذكر المقريزى (الخطط حـ ص ٢٣٧ والسلوك حـ ١ ص ٣٦٩) أنه كان فى السادسة من عمره حين جاء إلى مصر . وذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٥) أن عمره كان عشر سنين . على أننا نرجح رواية ابن إياس (بدائع الزهور حـ ١ ص ٩٠) التى ذكر فيها أنه كان فى العشرين من عمره .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب (مخطوط) حـ ٢ ص ٣٧٦ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٥ — ٦ .

(٤) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ٩٠

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٧) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٦ .

(٨) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١٦٥ .

(٩) العمرى : مسالك الأبصار حـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٧١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٢ .

القطبيات [١] . وكان الأشرف آخر ملوك بنى أيوب بمصر ، ولم تقم للايوبيين بعد ذلك قائمة على الرغم من المحاولات التى حاولها كثير من الأيوبيين فى سبيل الوصول إلى عرش مصر وإحياء الدولة الأيوبية فيها .

كذلك خرج الملك الناصر صاحب الشام بجيوشه ووصل إلى الديار المصرية بقصد الاستيلاء عليها . ولكن جيوش المعز أيبك هزمته وأرغمته على العودة إلى الشام[٢] . كما أن عدداً كبيراً من الجند عزموا — فى الشهور الأولى من سلطنته — على خلعه ، وإقامة الملك المغيث عمر أحد أبناء البيت السلجوقى مكانه فى السلطنة . وهنا نرى المعز أيبك يبتكر هذه الحيلة للتخلص من منافسيه فى السلطنة ، فيستعين بالخلافة العباسية لتحقيق أغراضه ويأمر بأن ينادى فى القاهرة ومصر أن « البلاد للخليفة المستعصم بالله العباسى وأن الملك المعز نائبه فيها »[٣] .

ومما أقلق بال أيبك أن الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار مقدَّم المماليك البحرية — الذى ساعد على إقامة الناصر صلاح الدين فى السلطنة مع أيبك — ظهر إذ ذاك على مسرح السياسة المصرية ، وأخذ يعمل على التقليل من شأن أيبك حتى أنه كان يعده من أتباعه ويسميه باسمه دون لقب السلطنة تكبراً منه . كما كان يأنف من أن يتلقى أوامره من السلطان وإنما كان يقطع فى المسائل الهامة برأيه[٤] . ولما اشتد عسف أقطاى ومماليكه[٥] وتجرءوا على السلطان أيبك بعث فى طلبه وتظاهر بأنه يريد استشارته فى مهام الدولة . ولما وصل إلى قلعة الجبل (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) أغلق بابها ومنع مماليكه من الدخول معه ثم أمر به فقتل . وعلى أثر

---

(١) المقصود بلفظ « القطبيات » : بنات الملك العادل الكبير . وقد عرفن بذلك الاسم نسبة إلى شقيقهن الملك العادل . راجع ما ذكره ابن واصل صاحب مفرج الكروب عند كلامه على حوادث سنة ٦٤٨ هـ .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٧٠ .

(٤) أجمل ابن أيبك صاحب كنز الدرر المخطوط (ج ٨ القسم الأول ص ٢٢) صفات فارس الدين أقطاى وموقفه بالنسبة إلى المعز فقال : « إنه كان قد طغى وتجبر وبغا وتكبر ووصل من أمره أنه كان إذا ركب من داره إلى القلعة أن يقتل جماعة بأمره وبين يديه ولا يلتفت إلى المعز ولا غيره وأمره مطاع فى الحقيرة والكبيرة لا يرد له مرسوم . والملك المعز معه باسم الملك لا غير . . . وكانت نفسه ترى أن ملك مصر لا شىء عنده وكان كثيرا ما يذكره فى مجلسه بين خشداشية المعز ويستنقصه ولا كان يسميه إلا أيبكا . وبلغ ذلك المعز وهو يغضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية والصالحية وكانوا قد ساروا إلى القاهرة ومصر أنجس سيرة من العسف بالناس والجور » .

(٥) ليس أدل على عسف اتباع اقطاى مما رواه المقريزى (كتاب السلوك ج ١ ص ٣٩٠) عند كلامه على حوادث سنة ٦٥٢ هـ : « وكانت أصحابه [الفارس أقطاى الجمدار] تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم ، فلا يقدر أحد على منعهم . وقال المقريزى فى موضع آخر (نفس المصدر والجزء ص ٣٨٠) : « كثر ضرر المماليك البحرية [ومن بينهم مماليك أقطاى] بمصر ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد حتى لو ملك الفرنج ما فعلوا فعلهم » .

ذلك فر أنصار أقطاى من الأمراء من أمثال الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير سيف الدين قلاوون والأمير سُنقر الأشقر إلى الملك المغيث عمر بن العادل صاحب الكرك والملك الناصر يوسف صاحب دمشق.(١)

ولا يكاد عهد المعز أيبك يخلو من المنازعات التى قامت بينه وبين كبار المماليك البحرية على السلطة والنفوذ (٢). فان الأمر لم يستتب للسلطان أيبك بالتخلص من الأشرف صلاح الدين وقَتل فارس الدين أقطاى وفرار أعوانه، لأن هؤلاء الأعوان بزعامة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى صاروا حزباً ضده برغم تفرقهم فى نواحى البلاد الشامية. فخاف المعز عاقبة ذلك وكتب إلى الناصر يخوفه ممن كان عنده منهم وحذره شرهم (٣). فطلب الناصر استرداد البلاد التى كان قد أخذها منه لاقامة طائفة المماليك البحرية بها فأعادها اليه الملك المعز وتم الصلح بينهما على ذلك.

ولكن هذه المحاولات لم تجد نفعاً فقد خاف المعز، ولجأ إلى الخلافة العباسية مرة أخرى إذ أرسل إلى الخليفة ببغداد، يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر، وهو فى ذلك يرمى إلى تثبيت ملكه وجعله شرعياً بتأييد الخليفة العباسى، مترسما خطوات صلاح الدين الأيوبى حين طلب إلى الخليفة العباسى الاعتراف له بسلطان شرعى ليتقوى بذلك على القائلين بوجوب بقاء الملك فى بيت نور الدين.

صفا الجو للمعز أيبك مدة. وإلى هنا كانت السلطنة المملوكية تستند إلى القوة الحربية وتأييد الخلافة العباسية تاييداً يدل على شىء من التمية.

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٣٧٥ — ٣٧٦. المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠.

(٢) تتبين لنا درجة العداء الذى قام بين السلطان أيبك وبين المماليك البحرية من المناقشة التى بين سلطان سلاجقة الروم والأمير علم الدين سَنْجَر الباشْقَرْدى — زعيم المماليك الجدارية الصالحية الفارين من وجه المعز — على أثر الكتاب الذى أرسله المعز إلى سلطان الروم عندما التجأ إليه فريق من أولئك المماليك. وفى ذلك يقول المعز فى كتابه إلى سلطان الروم: « البحرية قوم مناحيس أطراف (جمع طرف وهو هنا الرجل الذى لا يثبت على صحبة أحد) لا يقفون عند الايمان ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم وإن استأمنتهم خانوا وإن استحلفتهم كذبوا وإن وقعت بهم غدروا فتحرز منهم على نفسك فانهم غدارون مكارون خوانون ولا آمن أن يمكروا عليك ». فخاف سلطان الروم منهم وأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم: يا أمراء ما لكم ولأستاذكم؟ « فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال: « يا مولانا من أستاذنا؟ » قال: « الملك المعز صاحب مصر ». فقال الباشقردى: « يحفظ لنا مولانا السلطان إن كان الملك المعز قال فى كتابه انه أستاذنا فقد أخطأ إنما هو خُشْداشنا. ونحن أولياء علينا وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة. فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا منه وتشتتنا فى البلاد ونحن التجأنا إليك ». المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٣٩٣.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٣٩٢.

واستمر الحال على ذلك إلى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) حين ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجرة الدر ، إذ علمت أنه أرسل يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فدب فى نفسها دبيب الغيرة والحقد فأرسلت فى طلبه وحرضت عليه من قتلوه[١] . وتم لهم ما أرادوا فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) . فاضطربت الأحوال فى مصر وطمع كثيرون إلى الجلوس على عرش السلطنة . فعضد جماعة من الأمراء الصالحية الأمير عزالدين الحلبي واتفق رأى من بقلعة الجبل على تنصيب الأمير عَلَم الدين سَنْجَر الحَلَبي — أتابك الملك المعز — سلطاناً . ولكن لم يتم لهؤلاء تولية أحدهم .

انتقلت السلطنة بعد مقتل المعز أيبك إلى ابنه علىّ ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة ، على أن يلقب بالمنصور ويعين الأمير سيف الدين قُطُز أتابكا له . ولم يكن اعتلاء علىّ عرش السلطنة احتراما لمبدأ الوراثة ، فقد كان ذلك المبدأ غريباً عن عقلية المماليك كما سيتضح فيمابلى بل لأن أتباع أبيه رأوا الاحتفاظ بالعرش فى بيته انتقاماً من قتلته . وقد بدأ هذا السلطان الشاب عهده بالانتقام لأبيه أيبك من شجرة الدر ، إذ أوعز إلى بعض الجوارى فقتلنها[٢] . وفى عهده اضطربت الأحوال فى مصر ، لأن هولاكو كان قد وصل إلى حلب وبدأ يهدد بغزو الديار المصرية .

وكان قُطُز يعمل منذ تعيينه أتابكا للمنصور على اغتصاب الملك منه . فاستغل الفرصة وأعلن أن الملك المنصور صغير السن وأنه لا يحسن تدبير أمور مصر فى مثل ذلك الوقت المضطرب الذى يحتاج إلى وجود سلطان معروف بالجرأة وسداد الرأى ، كى يتمكن من قتال التتر وردهم عن مصر[٣] . والحق أن المنصور كان شابا مستهترا بأمور الدولة فهو طائش العقل يلعب بالحمام مع الصبيان فى أحواش القلعة . بل تدخلت أمه فى شئون البلاد تدخلا ربما أعاد إلى الأذهان موقف بعض الأمراء من شجرة الدر وسلطنتها . فقبض عليه قطز واعتقله بقلعة الجبل[٤] . وأعلن نفسه سلطانا على مصر (٦٥٧ هـ و ١٢٥٩ م) . ولما أنكر الأمراء على قطز هذا العمل ، اعتذر إليهم بقوله : « انى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك . فاذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم أقيموا فى السلطنة من شئتم »[٥]

وبوصول قطز إلى الملك تتضح لنا سهولة اغتصاب الأتابكة للعرش . لم يكن الأتابكة

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٩٥ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٩٢ : المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤١٧ — ٤١٨

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤١٧ .

(٥) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

وحدهم الذين اغتصبوا عروش أولاد أسيادهم ، بل إن الأمراء الحاقدين على السلطان قد يدبر أحدهم أمر اغتياله كى يصل إلى العرش .

واجه قطز من مبدأ حكمه تهديد التتر لمصر ، وخرج للقائهم فى أواخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) وألحق بهم هزائم شائنة فى عين جالوت (بين بيسان ونابلس بفلسطين) . (١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ) ثم فى بيسان نفسها (وتقع بين حوران وفلسطين) وقتل من التتر نحو النصف[1] . وخرج بعد ذلك من دمشق عائداً الى مصر حتى وصل إلى القصير ، إحدى قرى مركز فاقوس بمديرية الشرقية ، فبقى مع بعض خواصه وأمرائه ورحل جنده الى جهة الصالحيه . وكانت جماعة من المماليك بزعامة الأمير ركن الدين بيبرس قد اتفقوا على قتل السلطان « لكمين كان فى نفس بيبرس لأجل نيابة حلب ، التى كان قطز قد أعطاها لصاحب الموصل »[2] . ولكى يصلوا إلى تحقيق ما اتفقوا عليه من الغدر بالسلطان تقدم إليه بيبرس وشفع عنده فى إنسان ، وقيل طلب منه امرأة من سبى التتار ، فأنعم عليه بها . وتقدم بيبرس يقبل يده وقبض عليها ، فانتهز الأمير أنص هذه الفرصة وضرب قطز بالسيف وتتابع الباقون عليه ورموه عن فرسه ، ورشقوه بالنشاب حتى قتلوه فى ١٧ ذى الحجة سنة ٦٥٨ هـ . وتركوه ملقى على الأرض فدفنه بعض من كان فى خدمته فى القصير[3] .

٢ — بيت بيبرس (٦٥٨ — ٦٧٩ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٧٩ م) :

انتقل الملك بعد قطز إلى قاتله بَيْبَرس . ومما رواه المؤرخون عن هذه المسأله نتبين كيف وصل بيبرس إلى السلطنه . يقول المقريزى : « لما قتل قطز ، خرج الأمراء الذين قتلوه إلى الدهليز السلطانى بالصالحية ، واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس ، فقام الأمير أقطاى المستعرب الأتابك — وكان بالدهليز — وقال للأمراء عند حضورهم : مَن قتله منكم ؟ بيبرس : أنا قتلته . فقال الأمير أقطاى : ياخوند ! اجلس فى مرتبة السلطان مكانه فجلس فقال الأمير بيبرس[4] . ويقول ابن إياس : إنه لما قتل قطز ساق الأمراء الذين اشتركوا فى اغتياله « وهم شاهرون سيوفهم إلى أن وصلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية ، فجلس الأمير بيبرس على مرتبة السلطان ، وأخذ المملكة بالقوة »[5] .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣٨ .Enc. Isl. art. Mamluk

(٢) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٩٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٤ و ١٠١ .

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٠٧ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٠ و ٣٠١

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٣٦ . وهذا يتفق مع ما أورده العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٩٨ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٤ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٧ .

من ذلك نرى أن ركن الدين أبا الفتح بيبرس البندقدارى الصالحى (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ = ١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) اغتصب العرش من قطز. وقد كفانا المؤرخون مؤونة التدليل على أن بيبرس يعد مغتصباً للعرش، فقد رأينا المقريزى فى كتابيه: الخطط والسلوك، يذكر أن فارس الدين أقطاى سأل الأمراء هذا السؤال: من قتله منكم؟ ولما علم أنه بيبرس، رد فى بساطة تستدعى الدهشة: ياخوند! اجلس فى مرتبة السلطان مكانه. كذلك رأينا ابن اياس فى عبارته التى أوردناها يقول إن بيبرس أخذ المملكة بالقوة.

وصل بيبرس الى العرش فى ١٥ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وهو بالصالحية واستدعيت الجند لحلفوا له فى اليوم الذى قتل فيه قطز[١]. ثم بايعه فارس الدين أقطاى، وتبعه بقية الأمراء على اختلاف طبقاتهم[٢]، وحلفوا له جميعا: أن لا يخونوا ولا يثبوا عليه». وتم ذلك الحلف على المصحف الشريف[٣].

حلف الجند والأمراء يمين الطاعة، وبيبرس لم يصل بعد إلى القاهرة. فلما دخلها لم يكن أهلها قد علموا بما حدث للسلطان الملك المظفر قطز، بل كانت القاهرة قد زينت أبهج زينة والناس فى فرح وسرور لعودة سلطانهم الذى قضى على التتار. لذلك كانوا متلهفين لرؤيته واستقباله بمظاهر الحفاوة والتكريم، بل ان الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بمصر خرج إلى ظاهر القاهرة لاستقبال قطز، ولم يكن قد وصل إلى علمه ما حل به، فأعلمه بيبرس بما حدث، فحلف هو أيضاً لسلطانه الجديد. وسارع إلى قلعة الجبل لاستقباله فيها. وفى ليلة الاثنين ١٩ ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وصل بيبرس ومعه الأمراء إلى القلعة وتسلمها. وفى اليوم التالى نودى فى القاهرة أن: ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسطانكم الملك القاهر[٤] ركن الدين بيبرس»[٥].

ولما جلس بيبرس بالإيوان بقلعة الجبل أمر أن يكتب إلى الأقطار بتوليه الملك، وذلك شبيه بما يتبع فى الوقت الحاضر من إعلان الدول بخبر اعتلاء امبراطور أو ملك جديد عرش ملكه، وسار على هذه الخطة من خلفه من السلاطين. ثم خلع على الأمراء خلعا سنية، وفى

---

(١) أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر حـ ١ ص ٢٠٧.

(٢) اقرأ نص اليمين التى كانت تؤخذ عند مبايعة السلطان الجديد فى العمرى: التعريف ص ١٤٦ — ١٤٨.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور حـ ١ ص ٩٨.

(٤) تلقب بيبرس بالملك القاهر أولا، ولكن الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير أشار عليه بتغيير لقبه القاهر بالظاهر. النويرى: نهاية الأدب حـ ٢٨ ص ١ والعمرى: مسالك الأبصار حـ ١٦ القسم الثالث ص ٥٩٨؛ . وقيل إنه كان يلقب أولا بالملك المجاهد. ابن أيبك: كنز الدرر حـ ٨ القسم الأول ص ٥٥ أنظر أيضا: Journal Asiatique 1. Série 11. (1829). pp. 3—4.

(٥) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٤٣٦.

ذلك يقول بيبرس الدوادار : « وأفيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمعممين على تفاوت أقدارهم . وكتب إلى صاحب المغرب وصاحب اليمن وملوك الشام وثغور الاسلام بما قدره الله له من القيام بأمر عباده وإيالة بلاده »[(١)] .

وان قصة اعتلاء عرش مصر بهذه الصورة اذا صحت دلت على أن بيبرس لم يخاطر بأى شيء فى قتله قطز وأنه تولى العرش بموافقة تامة ولم تقم فى وجهه أى معارضة قوية من جانب الأمراء ، اللهم جانب الأمير علم الدين سنجر نائب دمشق . ولم يكن من الضرورى أن يصل قاتل السلطان الى العرش . فان بيدرا حين قتل الأشرف خليل سنة ٦٩٣ ﻫ (١٢٩٣ م) وبايعه بعض الأمراء بالسلطنة تبعه الآخرون وذبحوه وقدموا العرش للناصر محمد السلطان أخى السلطان خليل . كذلك لم يتمكن كل من الأمير طغجى وكرجى قاتلى السلطان لاچين من الوصول الى العرش . ولعل عدم وصول قتلة الأشرف خليل والمنصور لاجين الى السلطنة يرجع الى أن السلاطين من بيت قلاوون كانوا محبوبين من الشعب واستقر الرأى فى الحالتين على اسناد العرش الى الناصر محمد .

ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك ، اذ اجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام . وقد أطنب المؤرخون فى مناقبه بسبب ما ابتدعه من النظم والقواعد التى قوّت أسس دولة المماليك[(٢)]. فى عهده أقيمت الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ﻫ (١٢٦٠ م) بعد أن زالت من بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨م)[(٣)]. وباحيائها اكتسبت سلطنة بيبرس صفة شرعية بفضل التقليد الذى حصل عليه من الخليفة . وأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه فى الداخل والخارج ، وأحاط بيبرس عرشه وعرش من جاء بعده من سلاطين المماليك بسياج من القداسة والتبجيل ، وأثبت أحقية المماليك فى تولى شئون مصر . وساعد ذلك على إخماد الاضطرابات وتسكين الفتن التى قد يثيرها بعض أمراء المماليك فى حكم بيبرس وكتم الاحقاد التى كانت تغلى فى صدورهم كالمرجل .

وسنّ بيبرس نظام ولاية العهد فى دولة المماليك البحرية وحصر وراثة العرش فى أسرته (٦٦٢ﻫ) وذلك بتولية ابنه محمد المسمى بركة خان[(٤)] عهده ، ليحول بذلك دون تدبير الدسائس والمؤامرات التى كان يحيك شباكها كبار الأمراء حول عرش السلطان القائم ولكى يحتفظ بالسلطنة فى بيته بعد وفاته .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٨ .

(٢) راجع G. Wiet : Le Sultan Baibars (Editions de la Revue du Caire, 1943).

(٣) راجع ما كتب عن ذلك فى الباب الخاص باحياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

(٤) سمى بركة خان على اسم جده لأمه بركة خان الخوارزمى . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٦٧ .

ذلك أنه فى ١٣ شوال سنة ٦٦٢ هـ أمر بيبرس بأن يقام لابنه محمد هذا موكب حافل ابتهاجاً بتوليته العهد وكتب له تقليد الولاية ولقب الملك السعيد . وركب الملك السعيد لابساً شعار السلطنة (١) ومشى فى ركابه كبار الأمراء يتبادلون حمل الغاشية السلطانية ، كما سار الأعيان والعلماء وعليهم الخلع الفاخرة والحلل الزاهية وزينت القاهرة زينة باهرة وتقرر أن يكون الأمير عز الدين أيدمر الحلى أتابكا لولى العهد .

ولم يكتف بيبرس فى هذا التقليد بمنح ابنه السعيد ولاية العهد ضماناً لوصوله الى عرش السلطنة من بعده ، بل عمد الى إشراكه فى حكم البلاد فمنحه كل الاختصاصات التى كان يباشرها السلطان ، بل يمكننا أن نقول إنه جعله سلطانا ثانيا يعمل تحت إشرافه دون أن يكون له حق الاستقلال بالعمل . وتتلخص السلطات التى وضعها أبوه فى يده فى الإشراف على مسائل الحرب (السيف) ، وعلى ميزانية الدولة (الرزق) ، كما أمر بذكر اسم الملك السعيد فى خطبة الجمعة بجانب اسمه ، وبأن تضرب السكة باسميهما معاً . وهذا أعظم ما تطمح إليه نفس حاكم . ولم يقف بيبرس فيما منحه لولده من الاختصاصات عندهذا الحد . بل وسّع فى سلطته حتى كادت تكون عامة فمنحه : حق تدبير شئون (العباد) ومباشرة أمر (الثغور والقلاع والبلاد) بل ما وراء مصر من الأقاليم التابعة (من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام بعد شام) وكأنه كان يخشى أن يعتقد الناس أن سلطته فى تصريف شئون الدولة مقصورة على أمور دون أخرى (٢).

وبعد أن أوضح بيبرس مدى اختصاصات ابنه خاف أن يظن الناس أنه منحه كل تلك السلطات دون أن يتعهده بنصائحه الثمينة ويفهمه ما يجب أن يتحلى به من الخصال الحميدة ، فقال « وستعاهد الولد من الوصايا بما ينشأ معه توأما ويمتزج بلحمه ودمه » ثم كشف عما اتصف به ابنه من الذكاء وسرعة الخاطر وحدة الذهن ، حتى يطمئن الناس الى أن الملك السعيد سيعى بسهولة ما يسديه اليه أبوه من النصائح والوصايا فقال : « وفى الولد بحمد الله من نقاء الذهن وصحة التصور ما تتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل » . ولكنه لم يشأ أن يذكر نصائحه لابنه مع أنه كان يهمنا الوقوف عليها حتى تعطينا الصورة التى كان يرجو أن يطبعها فى ذهنه ويعامل شعبه بها حين يصبح سلطانا عليهم .

---

(١) شرح القلقشندى (صبح الأعشى فى مواضع متفرقة) شعار السلطنة من أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها فى موكب السلطنة ونحوه من الملابس . ولم يكتب فى هذا الموضوع بهذه الإفاضة غيره من الكتّاب المعروفين .

(٢) اقرأ نص تولية السلطان الظاهر بيبرس عهده لابنه الملك السعيد فى القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١٠ ص ١٦٣ — ١٦٦ .

وعلى أثر كتابة التقليد بولاية العهد للملك السعيد وانتهاء موكب الاحتفال بذلك ، عرض السلطان الظاهر بيبرس الجيش بنفسه وأخذ على الناس الايمان الموثقة باحترام ولاية العهد لابنه « فحلف عند ذلك الأمراء والمفاردة والحلقة والبحرية وساير الناس له بآمال منبسطة وطاعة غير مشترطة وعهود بالوفا مقسطة »(١) . وأذيع هذا العهد فى سائر البلاد المصرية وفى جميع الأقطار التابعة لمصر .

وفى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) جدد بيبرس ولاية العهد لابنه الملك السعيد . وكأنه خاف أن ينقض الناس أيمانهم وينكثوا ماعاهدوه عليه بمواثيقهم المؤكدة من احترام الولاية لابنه فى سنة ٦٦٢هـ فأراد أن يجدد هذه المواثيق ثانية ، ففى ٩ صفر سنة ٦٦٧ هـ تحدث السلطان بيبرس مع الأمراء فى أمر تفويض أمور الدولة من بعده إلى ابنه الملك السعيد وتجديد ولاية العهد له فقبلوا ما أشار به بيبرس وحلفوا هم والجند على ذلك(٢) . وفى ١٣ صفر ركب الملك السعيد فى الموكب كما ركب عند منحه ولاية العهد لأول مرة . وبعد انتهاء الموكب جلس فى الايوان بقلعة الجبل للنظر فيما يباشره والده من أمور الدولة(٣) ، وفى ٢٠ صفر قرىء التقليد الجديد بالايوان بحضور الأمراء والأعيان وهو من إنشاء فخر الدين بن لقمان كاتب الانشاء ولا يخرج عن كونه توكيداً للاختصاصات التى منحها الملك السعيد فى ولاية العهد الأولى .

ولكن على الرغم من هذه السلطات الواسعة التى وضعها بيبرس فى يد ابنه يظهر لنا أن ابنه لم يباشر هذه السلطات فى حياة أبيه ، بل ظل أبوه قابضاً على أزمة الحكم يصرفها بنفسه دون منازع .

* * *

كان بيبرس إدارياً حازماً فقد دأب على ترقية شئون بلاده وتنمية مواردها . فحفر الترع وأصلح الحصون وأسس المعاهد وبنى المساجد وكان له مقام عظيم بين أمراء مصر فقد هابوه وخشوا بأسه حتى لم يكن أحدهم يجسر على الدخول عليه إلا بإذنه الخاص(٤) . لذلك لم يفكر أحد منهم فى الخروج على طاعته أو تدبير الفتن والدسائس بقصد اغتصاب عرشه اللهم إلا اذا استثنينا هذه الفتنة التى أثارها آقوش البرلى بحلب . على أن ذلك كان فى أوائل عهد بيبرس وليس فى المراجع المعاصرة ما يدل أن أميراً آخر قد حدثته نفسه بالخروج على هذا السلطان .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٠ .

(٢) اقرأ نص تجديد الحلف بتولية السلطان بيبرس العهد لابنه الملك السعيد فى النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٢٣٩ أ — ب .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٥٦٩ .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٣٧ .

كانت حكومة بيبرس حكومة استبدادية مستنيرة وكان بيبرس على رأسها صاحب السلطان المطلق ، وهو يعد بحق مؤسس دولة المماليك ومبتدع طريقة حكمها . فقد نظم الأداة الحكومية واستعان فى إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب ، واستحدث كثيراً من الوظائف الهامة ، وأدخل فى سنة ٦٦٣ هـ تعديلاجوهرياً على النظام القضائى بمصر ، ووجه عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عدة له وقت الحروب ليتمكن من القيام بالدور الذى رأى أن يقوم به من محاربة الصليبيين تقليداً لصلاح الدين ، هذا فضلا عن محاربة المغول ، كما عمل بيبرس على إعادة شأن الأسطول إلى ما كان عليه .

وقد اقتنى بيبرس عدداً كبيراً من المماليك حتى أصبحت مصر مملوءة بهم . وأكثر منهم بدليل ما ذكره المقريزى من أن بيبرس قد « جرى على عادته فى عتق ثلاثين نسمة »[1] فى كل ليلة من شهر رمضان . ومن ذلك يتبين لنا أن بيبرس كانت لديه أعداد وفيرة من المماليك حتى استطاع أن يقرر عتق مثل هذا العدد فى كل ليلة .

كان بيبرس قائداً شجاعاً ضربت الأمثال ببطولته وشهامته وقد تجلى ذلك فى كثير من المواقع الحربية التى خاض غمارها كواقعة المنصورة التى انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين سنة ٦٤٧ هـ وواقعة عين جالوت التى قاد فيها جيوش السلطان قطز ضد جيوش التتار التى أغارت على بلاد الشام . وكان بيبرس أحسن مثل للحاكم العادل فقد كان يجلس للمظالم ويعطف على الفقراء والمعوزين كما كان عالى الهمة وافر النشاط مقداماً خفيف الركاب يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع وتدبير أمور الاقطاعات التابعة لمصر[2] .

وقد توّج بيبرس إصلاحاته بعدة قوانين أصدرها لتهذيب أخلاق المصريين فأمر سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٦ م) بمنع بيع الخمور وإقفال الحانات التى بالقاهرة وجميع أعمال مصر ونفى كثيرين من المفسدين[3] .

وقد أجمل الدكتور زكى حسن مزايا السلطان بيبرس فى هذه العبارة « لم يكن بيبرس قائداً عظيما فحسب أو حاكما شديد العناية بتنظيم الجيش وإنشاء البحرية وإصلاح الثغور والحصون وإنشاء البريد وتعبيد الطرق وتخفيف الضرائب . ولم يعن فقط بعمارة الحرم النبوى وقبة الصخرة تدعيما لنفوذ مصر على الأماكن المقدسة ، وبشن الحروب على الصليبيين الذين أنهكتهم المنافسات والجرى وراء المنافع المادية والذين لم يبقوا بعد صلاح الدين إلا بفضل النزاع بين خلفائه من الأمراء الأيوبيين . ولم يكن فقط صاحب الفضل فى القضاء على طائفة الحشيشيين التى كانت تؤذى المسلمين والمسيحيين على السواء . ولم تكن لبيبرس كل هذه المزايا

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥١٣ .

(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٣٨ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٥٥٣ .

¹ Lane Poole ; The Art of the Saracens, p. 26.

فحسب بل كان سياسيا عظيما . وحسبه فخرا فى هذا الميدان أنه نجح فى تحقيق حلم احمد بن طولون فجعل مصر عاصمة الخلافة السنية[١] » .

* * *

وفى ٢٧ المحرم سنة ٦٧٦ ه (١٢٧٧ م) توفى بيبرس — على أثر عودته من واقعة قيسارية — بدمشق ودفن بها . ولما حضر الأمراء من دمشق أعلنوا موت السلطان ثم دخلوا على ابنه الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد بركة خان (٦٧٦ ه = ١٢٧٧ م) وأعلموه بوفاة أبيه . ولم يعين له أتابك إذ كان قد بلغ التاسعة عشرة من العمر حين اعتلى العرش . وقام الخلاف بينه وبين الأمراء من بدء حكمه . مما أدى فى النهاية إلى خلعه[٢] . ذلك أن بركة خان خرج فى سنة ٦٧٧ ه إلى دمشق فاتصل بأمرائها انه يريد القبض عليهم فرحلوا عنها إلى مَرْج الصُفَّر (قرب دمشق) وأقاموا هناك . فلما بلغ بركة خان ذلك أرسل اليهم « ملتمسا منهم الرجوع ومتلطفا إليهم بأنواع الخضوع وباذلا دخوله تحت مراضيهم ووقوفه عند أوامرهم ونواهيهم . . فما ازدادوا إلا جماحا عنه ونفارا منه وقالوا لاسبيل إلى مراجعته وقد انصدعت القلوب وجرت بهذه الخطوب»[٣] . ولما سار هؤلاء الأمراء إلى مصر ليعملوا على خلع بركة خان رحل هذا من دمشق ووصل إلى الديار المصرية فلما بلغ الأمراء خبر وصوله على حين غفلة خرجوا اليه يضمرون له السوء العاجل . ولولا ضباب القاهرة فى ذلك اليوم لما استطاع بركة خان

---

(١) زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٤ .

(٢) هذا يبين لنا أن خلع السلطان لم يكن دواما عن طريق الأتابك بل كان يقع أحيانا على يد أمراء الدولة الأقوياء إذا لم يرضهم السلطان القائم مهما كان حقه فى العرش واضحا . وفى ابن واصل (مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٤٠ أ) طرف عن وصية أرسلها السلطان بيبرس الى ابنه بركة خان من دمشق عند ما أحس بدنو أجله ومنها نعلم أن بيبرس لم يكن يأمن على نفسه وعلى ابنه من غدر أمراء مصر وأنه كان يعلم مدى قدرتهم على الدس وإثارة الفتن لمن لا يردعهم ويأخذهم بالشدة : « إنك صبي وهؤلاء الأمراء يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فاضرب عنقه فى وقته ولا تعتقه ولا تستشر أحدا فى هذا وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك» .

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٦٨ .

هذا القول الذى جاء على لسان المؤلف يدل على قوة شكيمة الأمراء وضعف السلطان أمامهم ورغبته فى جلب رضاهم . وكانت صفة الغدر متأصلة فى نفوس المماليك . فكثيرا ما غرر السلاطين بالأمراء الفارين وبعثوا إليهم برسائل كانت تكتب عادة بالترضية والتأمين حتى لا يستشفوا من ورائها أية نية سيئة للسلطان نحوهم فيأمنون جانبه ويعودون إليه فينفذ فيهم ما أراده من قتل أو حبس أو تشريد . ومن ثم أطلق المؤرخون على هذه الرسائل اسم ملطفات . وقد وردت كلمة « ملطف » بهذا المعنى فى كثير من مصادر عصر المماليك (راجع ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ القسم الأول ص ٣٦) . وهذا يجعل المؤرخ يلتمس العذر لهؤلاء الأمراء فى رفضهم الصلح وأخذهم جانب الحذر قبل فوات الأوان .

أن يصل إلى قلعة الجبل بسلام[١] . ولما علم الأمراء بوصوله إلى القلعة حاصروه بها وشددوا عليه الحصار حتى قبل أن يخلع نفسه من السلطنة بحضور الخليفة الحاكم بأمر الله والأمراء والقضاة وعمل بذلك محضر شرعى أمضاه الحاضرون[٢] .

ظهور الأمير قلاوون :

وفى أثناء المنازعات التى قامت بين بركة خان بن بيبرس وأمراء مصر ، ظهر أمير قوى كان له أثر كبير فى سير الحوادث الجارية فى ذلك الوقت ، هو الأمير سيف الدين قلاوون[٣] (الألفى العلائى الصالحى النجمى أبو الناصر محمد) أحد المماليك البحرية الذين نبغوا فى أواخر الدولة الأيوبية . وهو قفجاقى من قبيلة بُرْج أغْلى فجلب صغيراً واشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر الساقى العادلى — أحد مماليك الملك العادل أبى بكر بن أيوب — بألف دينار . « وغالى فى قيمته لحسنه وصورته فعرف بالألفى »[٤] . ولما مات الأمير علاء الدين فى سنة ٦٤٧هـ انتقل قلاوون وعدد من المماليك إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وأطلق على هؤلاء اسم « العلائية » نسبة إلى أستاذهم الأمير علاء الدين . وجعل الملك الصالح « قلاوون » من المماليك البحرية ومازال كذلك إلى أن اعتلت شجرة الدر عرش مصر[٥] .

وكان قلاوون أحد الأمراء الذين خرجوا من مصر مع من غادرها من المماليك البحرية عقب مقتل الأمير فارس الدين أقطاى على يد السلطان أيبك . ولكنه مالبث أن عاد إليها ،

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ١١٤ .

(٢) ابن أبى الفضائل : الدر الفريد ص ٤٥٢ . المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٦٥٥ .

(٣) لخص أبو المحاسن فى كتابه « المنهل الصافى » (مخطوط حـ ٣ ص ٣٧ ب) حياة الأمير سيف الدين قلاوون منذ ولادته إلى أن اعتلى عرش السلطنة فقال : « قلاوون بن عبد الله الاقسنقرى الكاملى الصالحى النجمى سيف الدين أبو المعالى أبو الفتح التركى الألفى سلطان الديار المصرية . اشتراه آقسنقر الكاملى من تاجره بألف دينار ثم مات اقسنقر بعد مدة يسيرة فارتجع هو وجماعة من خجداشيته إلى الملك الصالح فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وكان لهذا يعرف بالألفى . ثم ارتقى بعد موت الملك الصالح حتى صار من أمراء الألوف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية بن بيبرس البندقدارى . وكان مع بيبرس لما خاض بيبرس الفرات وفى واقعة ابلستين مع التتار والروم . ولما قدم الملك السعيد إلى دمشق فى سنة ٦٧٧ هـ جهز قلاوون هذا بنصف الجيش لغزو سيس . . . ولما خلعوا الملك السعيد من السلطنة وحلفوا لسلامش وهو ابن سبع سنين حلفوا لقلاوون هذا معه وذكرا فى الخطبة معا . وبقى الأمر على هـذا شهرين إلى أن خلعوا سلامش فى يوم الثلاثاء حادى عشرين شهر رجب » .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ . ويلاحظ أن لقب « الألفى » ظل من بين ألقاب قلاوون الرسمية حتى بعد اعتلائه عرش السلطة . وقد بينا فى الباب الأول بأن ذلك من أدلة تفاخر المماليك بأصلهم كعبيد اشتروا بالمال .

(٥) راجع تاريخ حياة قلاوون فى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٣٨ ، وأبى المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٩٢ .

وعظيم نفوذه فى عهد السلطان بيبرس حتى أصبح من أمراء مصر البارزين . وإلى ذلك يشير بيبرس الدوادار بهذه العبارة : « وارتقت فى دولة الظاهر مرتبته وارتفعت لديه منزلته ووقر فى نفس الملك الظاهر أن الملك اليه صاير »[١] .

زوج الظاهر بيبرس ابنه بركة خان من السيدة غازية خاتون[٢] ابنة سيف الدين قلاوون بدمشق فى سنة ٦٧٤ هـ . وقد رمى بيبرس بهذا الزوج إلى هذا الغرض السياسى وهو أن يصبح قلاوون عضداً لابنه فى إدارة شئون الدولة الحربية لأنه كان فى ذلك الوقت أكبر أمراء المماليك فى مصر . ويظهر أن قلاوون كان يرمى إلى اعتلاء عرش السلطنة وأنه كان يمهد لذلك بدليل ما أجمع عليه المؤرخون من أن الحصار لما اشتد على السلطان بركة خان بعث فى طلب صهره الأمير قلاوون ليستشيره فى أموره ويطلب منه المعونة فأشار عليه أن يخلع نفسه فقبل مشورته وخلع نفسه سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) .

ولم يكن المقصود من خلع السلطان بركة خان الاسراع فى القضاء على بيت الظاهر بيبرس ، بل إن شخص السلطان كان هو المقصود بالذات وأن بقاءه على عرش مصر لم يعد مرغوباً فيه . فانه لم يكن على شىء مما كان عليه أبوه من القدرة على معالجة الصعاب بالحزم والعزم وقوة الشكيمة ، بل كان شاباً لم يعد التسعة عشر ربيعاً عند اعتلائه العرش منقاداً لنفوذ والدته وآراء صغار مماليكه . « فكانت الأمور مختلة والنظام مفسود بتحكم الصبيان الجهلة »[٣]. ورحل بركة خان إلى الكرك فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ وأقام بها فلم تزد مدة سلطنته على سنتين[٤] ، وكان نفى أولاد السلاطين إلى الكرك من أهم ما يتميز به عصر السلطنة المملوكية بالديار المصرية . وكان السلطان بيبرس قد ادخر أموال وافرة أبقاها فى الكرك « فكأنه اطلع على مآل أولاده اليها من بعده »[٥] ، مما يدل على أن بيبرس إما أنه كان يشك فى مقدرة أولاده على إدارة دفة الحكم من بعده أو أنه كان يعتقد أنه لا قِبَل لهم بمقاومة الدسائس التى ستحاك حول عرشهم فأبقى لهم هذه الأموال . ولكن بركة خان « عمد إلى تلك الأموال ففرقها وإلى الحواصل فبددها وإلى الذخائر فمزقها »[٦]، مما يظهر صفة الاسراف التى تغلبت على السلطان بركة خان فى حكمه بمصر وفى منفاه بالكرك .

* * *

ولما خلع بركة خان خلفه أخوه بدر الدين سلامش . وكان صغير السن لم يزد عمره على

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ورقة ٧٥ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٦٩ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ١٥٥ .
(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٤٥٤ .
(٤) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٥٥ .
(٥) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ٥٤٤ .
(٦) نفس المصدر .

سبع سنين حين جلس على العرش . وقد تم لسيف الدين قلاوون ما أراد وأصبح صاحب النفوذ المطلق بتعيينه أتابكا أو وصياً للسلطان الجديد . وقد ذكر بيبرس الدوادار أن الأمراء عرضوا سلطنة مصر بعد خلع بركة خان على قلاوون ولكنه اعتذر عن قبولها حتى لا تخرج السلطنة من بيت بيبرس ولأنه كان يعلم أن السلطة ستصبح فى يده دون السلطان الصغير . ويظهر لنا ذلك واضحاً جليا من هذه العبارة التى ننقلها عن بيبرس الدوادار : « أنا لم أخلع الملك السعيد شرها إلى المملكة ولا طمعاً فى السلطنة ولكن حفظاً للنظام وأنفة لجيوش الاسلام أن يتقدم عليهم الأصاغر ويمتهنوا منهم الأعيان والأكابر ويضيعوا عليهم مصالح العساكر والأولى أن لا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر »[1] . وسرعان ما استدعى سلامش ونودى به سلطانا على مصر وحلف له الجند جميعا وأخذ قلاوون فى تحليف الأمراء فحلفوا له وتلقب بالعادل (٦٧٨ — ٦٧٩ هـ = ١٢٧٩ م) .

وبتولية سُلامِش نرى أن عهد استئثار الأتابكة بالسلطة ووقوع السلطان تحت نفوذهم الفعلى قد سار سيرته الأولى وأن السلطان لم يكن فى ذلك العهد سوى ألعوبة فى يد أتابكه . ولا غرو فانه لم يكن للسلطان سلامش مع أتابكه قلاوون إلا مجرد الاسم ولقب السلطنة . وظهر نفوذ قلاوون بأجلى معانيه حين ضربت السكة باسم الملك العادل سلامش على أحد الوجهين وباسم قلاوون على الوجه الآخر . وزاد نفوذه وارتفع ذكره حين خطب له وللعادل معاً[2] وغدا قلاوون المتصرف فى أحوال المملكة وفى خزائن أموالها بل لقد عامله الأمراء والجند بمثل ما كانوا يعاملون به السلطان الفعلى .

لذلك نرى أن قلاوون لم يكن يرمى بامتناعه عن تولى السلطنة الى الاحتفاظ ببيت بيبرس وحصر السلطنة فى أولاده يتوارثونها واحداً بعد واحد احتراماً لمبدأ الوراثة ، بل انه رأى أن الظروف ليست موانية له اذ كان معظم الجند من الظاهرية[3] كما ان نواب الشام كانوا من أتباع السلطان بركة خان .

ومع ذلك فقد كان قلاوون يمهد فى الباطن للوصول إلى السلطنة . واتخذ لذلك الخطوات التى كان يمنى نفسه بتنفيذها منذ عزل السلطان بركة خان وهى عزل نوابه . لذلك أمر بعزل هؤلاء النواب من البلاد الشامية وولى من يثق بهم من أتباعه وقبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وسجنهم بثغر الاسكندرية ثم تخلص من منافسيه البارزين الذين كانوا يطمحون إلى السلطنة . وبعث بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى دمشق وفوض إليه نيابة السلطنة بالشام وأحضر بعض المماليك البحرية الصالحية وأحسن اليهم وأرسل البعض الآخر إلى نيابات الشام[4].

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٧٠ . والمنهل الصافى (مخطوط) ج ٣ ص ٣٧ ب .

(٣) أى المنتمين إلى حزب السلطان الظاهر بيبرس .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٤ .

كل تلك الأعمال تدلنا على أن الوصول إلى السلطنة كان أمنية تجيش فى نفس قلاوون منذ خلع السلطان بركة خان . فانه بعد أن صفا الجو لقلاوون بمرضاته الأمراء وأتباعهم اتفق معهم على العمل لخلع السلطان سلامش ، لأنه لافائدة فى بقاء ذلك الصبى الصغير لانتشار السمعة فى البلاد وامتهان الحرمة فى أنفس الحواضر والبواد ،[1] . وفى ٢١ رجب سنة ٦٧٨هـ اجتمع الأمراء والقضاة والأعيان بقلعة الجبل وخلعوا السلطان سلامش لصغر سنه[2] . وبذلك لم تطل مدته فى السلطنة أكثر من ثلاثة أشهر . وبعد خلعه لزم داره حتى أرسله قلاوون مع أخيه خضر إلى قلعة الكرك[3] . وتم ذلك كله بتحريض قلاوون .

وهذا يدلنا على أن نظام وراثة العرش لم يكن طبيعيا عند المماليك ، لأن مقياس القرب أو البعد عن العرش كان المهارة الحربية وكثرة الاتباع . وقد كان نظام وراثة العرش فى بعض الأحيان ستاراً يسمح لكبار الأمراء المماليك بالدس والحكم من وراء ستار . فنحن نعرف مثلا أن أربعة عشر سلطانا حكموا مصر من ذرية قلاوون . ولكن علينا أن نذكر أن خمسة منهم كان سنهم أقل من عشرين سنة حين تولوا العرش وأن أربعة كانوا أقل من عشرة . وطبيعى أن السلطان كان فى مثل هذه الحالات ألعوبة فى يد الأمراء[4] .

٣ — بيت قلاوون : (٦٧٩ — ٧٨٤ هـ = ١٢٧٩ — ١٣٨٢ م)

انتقل الملك بعد سلامش إلى أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى العلائى الصالحى النجمى وتلقب بالمنصور (٦٧٩ — ٦٨٩ هـ = ١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) . ويلاحظ هنا أن السلطنة ظلت فى بيت قلاوون من أبنائه وأحفاده حتى انتهاء دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢ م) . وسار قلاوون على نهج بيبرس فى إدارة شئون البلاد وتقريب الشعب اليه . وكانت سياسته قائمة على الاكثار من المماليك ليكونوا عونا له ولأولاده من بعده فى تثبيت عروشهم . وأنشأ لذلك فرقة جديدة من المماليك أطلق عليها اسم « البرجية » نسبة إلى أبراج القلعة التى أقاموا بها . ولم ينجح قلاوون فى تحقيق الغرض الذى من أجله أنشأ فرقة المماليك البرجية ، إذ لم يكونوا دائماً عونا له ولأولاده من بعده ، بل ظهر فيها من المماليك كتبغا ولاچين وبيبرس الجاشنكير الذين اغتصبوا العرش من ابنه الناصر محمد كما سيلى . كذلك اغتصب أحد مماليكها فى النهاية العرش من أحد أحفاد الناصر وقضى بذلك على بيت قلاوون وأسس دولة المماليك البرجية .

---

(١) بيبرس الدوادار ج ٩ ورقة ٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٨٧ — ٢٨٩ . ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١١٤ .
Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe). p. 441

(٣) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر والصفحة .

(٤) Hautecoeur et Wiet ; Les Mosquées du Caire, p. 54.

وسار قلاوون على سياسة بيبرس فى إخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على ما بقى فى أيديهم سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٩ م) عدا مدينة عكا التى استولى عليها ابنه الأشرف خليل سنة ٦٩١ هـ بعد وفاة أبيه . كما تابع سياسة بيبرس أزاء التتار فهزمهم وأبعد أذاهم عن مصر والشام .

وكان قلاوون ملكا عظيما لا يميل إلى سفك الدماء إلا أنه كان محباً لجمع المال[١] . ولكن لم يكن حبه للمال بقصد الانفاق على شئونه الخاصة بل كان لانفاقه على المشروعات الحيوية التى رأى شعبه فى حاجة اليها وأشرف قلاوون على تنفيذها فى حزم وعزم . يدل على ذلك تلك المنشئات العظيمة والآثار الجليلة التى خلدها فى مصر كالمدارس والمساجد والمستشفيات والملاجىء . وقد سار الناصر محمد على نفس سياسة أبيه قلاوون كما سنرى فيما بعد .

وقد وصف ابن فضل الله العمرى قلاوون فقال انه كان « رجلا مهيبا شجاعا فتح الفتوحات الجليلة مثل المرقب[٢] وطرابلس التى لم يجسر أحد من الملوك مثل صلاح الدين وغيره على التعرض لها لحصانتها ، وكسر جيش التتر على حمص وكانوا فى ثمانين الف فارس[٣] » . وقد كشف لنا بيبرس الدوادار عن صفات قلاوون المتينة وطيب شمائله فقال إنه « كان حليما عفيفا عن سفك الدماء مقتصدا فى العقاب كارها للأذى لاجرم ان الله جازاه فى ذريته وحاشيته بالحسنى ورفع قدر عتقائه وألزامه وربط ذكر مماليكه وخدامه وصيرهم ولاة للأمور وساسة للجمهور وقادة للعساكر ونوابا للممالك وآتاهم من سداد الرأى والتئام الأهواء والمحافظة على حفظ البيت ما لم يؤته واحداً من العالمين . ولقد مررت بتواريخ الأمم وسير ملوك العرب والعجم فلم أقف على أن أحدا وفىّ كوفائهم ولا سلك فى السداد مثل أنجابهم . وكان ذلك بحسن نية الشهيد[٤] ، والمرجو لبيته الحفظ والتأييد ولأنصاره وأعوانه العون والتسديد »[٥] . وعلى

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات حـ ٢ ص ١٣٤ .

(٢) المرقب : بالفتح ثم السكون والقاف وباء موحدة ، بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت . وقد ذكر ياقوت فى معجمه وأسامة بن منقذ فى تاريخ القلاع والحصون ، أنه شيد على يد المسلمين سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) . وقد فتحه قلاوون سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) . راجع مقال مرقب Markab للأستاذ E. Honigmann فى دائرة المعارف الاسلامية وما ذكر فيه من المراجع .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٦٥٠ .

(٤) الأرجح أن استعمال كلمة « شهيد » هنا لا تفيد الاشارة إلى موت السلطان فى سبيل الدفاع عن الاسلام إذ أنها استعملت للملوك والسلاطين فى الكتابات التاريخية بمثابة « المرحوم » . أنظر :

Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 88, 317.

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ — ٧٦ . وكان بيبرس الدوادار مؤلف هذا المخطوط من مماليك قلاوون .

الجملة فقد أقام قلاوون طوال مدة حكمه منار العدل وأحسن سياسة الملك وقام بتدبير السلطنة خير قيام .

اولاد قلاوون : علاء الدين وخليل (٦٧٩ - ٦٩٣ هـ = ١٢٧٩ - ١٢٩٣م)

وفى عهد قلاوون ظهرت ولاية العهد مرة ثانية فى تاريخ دولة المماليك ولكن بشكل أعم . فان السلطان بيبرس منح ابنه بركة خان ولاية العهد وما يتبعها من اختصاصات السلطنة دون منحه لقب « سلطان » . ولكن قلاوون لما استتب له الأمر فكر سنة ٦٧٩هـ — أى فى نفس السنة التى تولى فيها السلطنة — فى تعيين ابنه علاء الدين[1] على مصر فى حياة أبيه قلاوون . فجمع لذلك الأمراء وعرض عليهم ما استقر عليه رأيه من تفويض ابنه الأكبر « ولاية العهد وكفالة الممالك » فأقروا السلطان قلاوون على رأيه وركب علاء الدين بشعار السلطنة كما ركب بركة خان بن بيبرس من قبل[2] . وكان الدافع لقلاوون على إقامة ابنه سلطانا فى حياته أنه كان دائم السفر إلى بلاد الشام لمحاربة التتار فرأى أن يقيم ابنه مكانه فى إدارة شئون مصر أثناء غيبته مع منحه لقب السلطنة حتى تكون له الهيبة فى نفوس الأمراء والأهالى .

استقر علاء الدين علىّ فى السلطنة فى رجب سنة ٦٧٩ هـ وكتب له تقليد[3] من إنشاء القاضى محى الدين بن عبد الظاهر ولقب بالملك الصالح وقرىء التقليد فى الايوان الكاملى بالقلعة بحضور الأمراء والمقدمين والوزراء ولما انتهت تلاوة التقليد خلعت عليهم الخلع ودعا الناس بالعز والتأييد له ولأبيه المنصور قلاوون . ولما انتهى قلاوون من إتمام تلك المراسم خرج إلى بلاد الشام لمحاربة التتار وتفرغ بذلك لما كان يشغله من أمر السلطنة وولاية العهد لابنه .

وأقام الملك الصالح فى دست السلطنة ثمانى سنوات (٦٧٩ — ٦٨٧ هـ = ١٢٨٠ — ١٢٨٨ م) ثم توفى فى حياة أبيه (شعبان سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨م) فأظهر السلطان قلاوون لموت ابنه جزعا بالغاً وحزناً شديداً .

وبعد موت علاء الدين عهد قلاوون من بعده إلى ابنه الثانى خليل ولقبه بالأشرف . وكتب القاضى محى الدين بن عبدالظاهر كتاب ولاية العهد للأشرف خليل[4] . إلا أن بعض المؤرخين ذكروا أن قلاوون امتنع عن تولية خليل العهد . وهاك نص ماذكره كل من المقريزى وأبى المحاسن : « طلب من القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده فأخرجه إليه مكتوباً بغير

---

(١) لقبه بعض المؤرخين باسم نور الدين . ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٣٢٠ . ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ١١٧ .

(٢) المقريزى : السلوك حـ ١ ص ٦٨٢ .

(٣) اقرأ نص هذا التقليد فى بيبرس الدوادار حـ ٩ ورقة ٨٢ — ٨٥ .

(٤) اقرأ نص هذا العهد فى القلقشندى : صبح الأعشى حـ ١٠ ص ١٦٦ — ١٧٣ .

علامة (١) الملك المنصور . وكان ابن عبد الظاهر قد قدمه اليه (إلى قلاوون) ليعلم عليه فلم يرض وتقدم طلب الأشرف وتكرر وابن عبد الظاهر يقدمه إلى الملك المنصور ، والمنصور يمتنع إلى أن قال : يافتح الدين ! ما أولى خليلا على المسلمين . فلما رأى الأشرف التقليد بالاعلان قال : يافتح الدين . السلطان امتنع أن يعطيني وقد أعطاني الله ورمى التقليد من يده »(٢) .

ويرجع سبب امتناع قلاوون عن العهد لابنه خليل إلى أنه كان مبغضا عند كثير من الأمراء لاستهانته بهم وتصغيره شأنهم ولما اتصف به من القسوة وعدم التدين ثم لاتهامه بدس السم لأخيه الملك الصالح علاء الدين(٣) . ولم يكن هذا الامتناع — إن صح — مانعا من أن يؤول الملك إلى خليل (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ = ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م) فقد جدد له الأمراء الايمان .

وفى ولاية الأشرف يعود نفوذ الأمراء الى الظهور بشكل جلى ويتضح للعيان مدى أثرهم فى تدعيم عروش السلاطين أو تقويضها . وقد افتتح خليل عهده بالغدر برجالات الدولة الذين كانت لهم السطوة والنفوذ فى عهد أبيه . فبادر الى التخلص منهم ، ولم يدرك ما للأمراء من شدة البأس وقوة الشكيمة والعناد والقدرة على الدس لمن لا يردعهم ويوقرهم ويرعى حرمتهم ومقامهم من سلاطين مصر . كما لم يتعظ بما حدث للسلطان قطز ولا بما حدث للسلطان بركة خان بن بيبرس . فإن حلف الأمراء له فى سنتى ٦٦٢ هـ و٦٦٧ هـ لم يمنعهم من الخروج عليه وإذلاله والتصميم على عزله فى سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩) . وكان من السهل عليه أن يذكر كل ذلك لأنه كان قريب العهد به .

وبمجرد اعتلاء السلطان خليل العرش بدأ الأمراء دسائسهم وكيدهم له بأن حرضوا نائب السلطنة الأمير حُسام الدين طُرُنْطاى بالقبض عليه لما كان بين خليل وطرنطاى من العداوة مذ كان خليل ولياً للعهد ، ولكن طرنطاى لم يستمع لنصحهم فقبض عليه السلطان وقتله بعد أيام قليلة من اعتلائه العرش . فهال الأمراء ما فعله خليل مع نائبه ، وزاد فى عدائهم له تعاظمه عليهم واستخفافه بهم بعد عوته من فتح عكاء — التى حاصرها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) والتى انتهت باستيلائه عليها دولة الصليبيين بالشام — فاتفق الأمراء عليه وبدءوا يدبرون له المكايد .

وكانت العداوة التى استحكمت بين الأمير بدر الدين بَيْدَرا نائب السلطنة وبين السلطان

---

(١) العلامة السلطانية : هي ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة . وكان لكل سلطان علامة وتوقيع .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٥٦ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٩٢ — ٧٩٣ .

Lane Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 284.

هى العامل الأكبر فى القضاء على سلطنة الأشرف خليل . فقد مُثلت من جديد هذه المأساة التى مثلها بيبرس مع قطز فى سنة ٦٥٦ هـ . وإن ما فعله بيبرس مع قطز قد فعله بيدرا مع السلطان خليل ، واتفق كل من بيدرا وحُسام الدين لاجين على قتله إذا أمكنتهما الفرصة . وقد حانت لهم هذه الفرصة عند ما نزل خليل فى سنة ٦٩٣ هـ بمكان يقال له الحمامات على مقربة من أبى المطامير بمديرية البحيرة للصيد . فلما وصل السلطان إلى تروجه (من أعمال مديرية البحيرة) سمح لامرائه بالتوجه إلى القاهرة حتى يعود من رحلته . وسرعان ما أرسل بيدرا الى الأمراء الناقمين على السلطان فحضروا وخرجوا متظاهرين بالرغبة فى صيد الغزال فى الصحراء مضمرين صيد السلطان نفسه والغدر به فهجموا عليه وضربوه بالسيف حتى مات وتركوه فى المكان الذى قتل فيه [(١)] .

وتشاور الأمراء قبل أن يبرحوا مكان الجريمة فى أمر السلطنة فاتفقوا على تولية بيدرا على نحو ما فعله الأمراء حين تشاوروا فى الصالحية بعد قتل قطز واتفاقهم على تولية بيبرس . وفى تروجه حلف الأمراء لبيدرا وقبّلوا الأرض بين يديه [(٢)] — على ما جرت به عادتهم عند تولية سلطان جديد — ولقبوه « الملك الرحيم » وقيل « الملك الأمجد »[(٣)] وقيل الملك القاهر » [(٤)] . ثم قصد بيدرا والأمراء فى ركابه إلى قلعة الجبل على نحو ما فعل بيبرس . ولكن مماليك السلطان الأشرف خليل ساروا فى أثر بيدرا ومن معه فلحقوهم فى الطرانة من قرى مركز كوم حمادة بمديرية البحيرة ووقعت بينهم موقعة كبيرة هزم فيها بيدرا وأصحابه وتتبعت المماليك السلطانية بيدرا وقتلوه قبل أن يصل إلى القلعة . وقد « أراد [بيدرا] السلطنة لنفسه ولكن المقادير قهرته والدنيا الغرور غدرته »[(٥)] . أما الأمير لاجين فقد اختفى ولم يعثر له إذ ذاك على أثر .

وهنا لا تتم المشابهة بين الظاهر بيبرس وبين بيدرا : فبينما نجد أن بيبرس قد قتل قطز وارتكب جريمة قتل السلطان ، نجد أن بيدرا قد ارتكب جريمة مزدوجة فقتل سلطاناً حلف على ولاية العهد له وكان هذا السلطان وارثاً شرعياً لأبيه فى السلطنة . وبينما يتمكن بيبرس من الوصول الى قلعة الجبل حيث تتم مراسم اعتلائه العرش ويصبح سلطاناً على مصر وتطول مدة سلطنته حتى يتمكن من أن يعهد بالملك لأولاده من بعده ومن تثبيت دعائم ملكه وينسى التاريخ فعلته لما كان عليه من حميد الصفات وما أتاه لخير مصر من جليل الأعمال — بينما

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٦٨ . أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ص ٦٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٢٧ .

(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ٣٠ . تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٥) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ١ ص ٥٧٤ .

يتمكن بيبرس من تحقيق ذلك كله ، نجد أن بيدرا لم يستطع الوصول الى شيء من ذلك . وسرعان ما انهارت آماله وتفرق عنه أتباعه ووقع فريسة بين مماليك الأشرف خليل الذين قتلوه شر قتلة .

حكم الأشرف خليل مصر ثلاث سنين وشهرين برهن خلالها على أنه كان حاكما شديد البأس مهيباً فى أعين الناس كفؤاً لتولى ملك مصر عارفا بأحوال المملكة [١]. وفيه يقول ابن إياس : كان الأشرف بطلا لا يكل من الحروب ليلا ونهارا . وكان مسعودا فى حركاته ولا يعرف فى أبناء الملوك من كان يناظره فى العزم والشجاعة والاقدام . . . وكان سفاكا للدماء قتل خلقاً كثيراً من الأمراء وغيرهم . . . وكان يسمع الكلام فى حق الناس بالباطل من وزيره ابن السَّلْعوس وكان ذلك سبباً لزوال ملكه » [٢] .

الناصر محمد : نشأته وتربيته (٦٨٤ — ٦٩٣ هـ = ١٢٨٤ — ١٢٩٣ م)

بوفاة السلطان خليل انتقل الملك الى محمد الابن الثانى للسلطان قلاوون . ولد الناصر قلاوون سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) . وقد مر بنا الكلام على أبيه محمد بن قلاوون . أما أمه فتسمى أشلون خاتون وهى مغولية الجنس ، قدم أبوها سكتاى بن قراجين إلى مصر فى سنة ٦٧٥ هـ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وكان من أمراء المغول الذين نزل بهم سخط ملكهم . ومن هذا نرى أن أم قلاوون كانت تنتمى إلى أسرة عريقة فى النسب ؛ فقد ذكر أبو الفدا أن بيبرس تلقى أباها وأخاه قُرمُشى بالقرب من حلب ورحب بهما وأحسن وفادتهما وأجزل لهما العطايا [٣] .

ومرت السنون والأيام وأسرة سكتاى تعيش عيشة هنيئة وتنعم بما كان ينعم به كبار المماليك من حياة الترف والبذخ ، على حين يتنقل قلاوون ، ذلك المملوك الذى اشترى بألف دينار إلى مرتبة الامارة ، ثم يرتقى إلى عرش السلطنة سنة ٦٧٩ هـ ، فيعرف لأسرة أشلون مكانتها وطيب أصلها ، فيطلب إلى عمها قرمشى — وكان قد تولاها برعايته بعد وفاة أبيها — أن يزوجها إياه . ولما تمضى على سلطنته إلا سنة واحدة . ويظهر لنا أن أشلون كانت تجمع إلى شرف محتدها أخلاقا عالية وصفات سامية ، فقدر قلاوون فيها هذه الصفات ، حتى إنه أنفق الأموال الوفيرة فى إقامة الحفلات ومد الأسمطة ابتهاجاً بزفافها إليه [٤] .

عاشت أشلون مع زوجها السلطان قلاوون فى قلعة الجبل ، حيث ولد الناصر محمد فى يوم السبت منتصف المحرم سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٤ م) . وكان أبوه يحارب الصليبيين فى بلاد الشام ،

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٨ ص ٢٧ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ١٢٦ .

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر حـ ٤ ص ٢٢٩ .

(٤) ابن إياس : حـ ١ ص ١١٥ .

وقد تم له الاستيلاء على حصن المرقب بعد أن استعصى عليه ، فى الوقت الذى طير إليه نبأ ولادة ابنه محمد ، فاستبشر بهذا النبأ العظيم ، وأيقن أن هذا الحادث السعيد سيكون فاتحة يمن وإقبال لأسرة قلاوون . وسرعان ما أذيع هذا النبأ فى كافة أرجاء البلاد المصرية ونيابات الشام وسائر الولايات التابعة لسلطنة المماليك (١) .

نشأ الناصر فى بيت الملك محاطا بالأمراء والنواب والحراس . ودرج فى مراتب العز والامارة : فهو ابن ملك ، وأمه بنت أمير من أمراء المغول . غير أنه لم يتمتع طويلا بعطف أبيه قلاوون ، إذ أنه مات وابنه لم يناهز الخامسة من عمره . الا أن الناصر لم يحرم من عطف أخيه خليل الذى اهتم بتربيته وأحسن معاملته على الرغم من أنه كان أخاه لأبيه فقط .

كان الأشرف خليل يحيط أخاه الناصر بعنايته ومحبته ويحبوه بعطفه ورعايته ، حتى أصبح ذلك معروفاً لدى العامة والخاصة من أهل مصر . فانه لما انتهى من تشييد قصره المعروف بالأشرفية اهتم بختان أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح على . وأقام لذلك احتفالا فخما أنفق فيه الأموال عن سعة ، ودعا لذلك جميع الأمراء وأنعم على كثير منهم الانعامات السنية (٢) . ولولا حب الناصر لأخيه محمد لما اهتم بأمره هذا الاهتمام الملحوظ .

تعهد الأشرف خليل أخاه الناصر بالتربية والتثقيف . ولا غرو فقد ورث خليل عن أبيه قلاوون عنايته بأمر المماليك وتثقيفهم وتنشئتهم نشأة دينية . فاتبع فى تعليمه نفس طريقة السلاطين فى تثقيف مماليكهم : لحفظ القرآن الكريم ، وتأدب بآداب الشريعة ، وداوم على الصلاة ، كما تعلم الخط . وبلغ بذلك درجة التعليم التى كان لا بد أن يبلغها كافة المماليك الذين تربوا فى طباق قلعة الجبل .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢٢ . المنهل الصافى ج ٣ ص ٢٤٣ ا .

(٢) وصف المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٢١١) قصر الأشرفية الذى بناه السلطان خليل والاحتفال الذى أقيم فيه بمناسبة ختان أخيه الناصر وابن أخيه موسى بن الصالح على ، فقال : « هذا القصر المعروف بالأشرفية ، أنشأه الملك الأشرف خليل بن قلاوون فى سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولما فرغ صنع به مهما عظيما لم يعمل مثله فى الدولة التركية وختن أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه موسى بن صالح على بن قلاوون وجمع سائر أرباب الملاهى وجميع الأمراء ووقف الخزندارية بأكياس الذهب . فلما قام الأمراء من الخاصكية للرقص نثر الخزندارية على كل من قام للرقص حتى فرغ الختان فأنعم على كل أمير من الأمراء بفرس كامل القماش وألبس خلعة عظيمة وأنعم على عدة منهم ، كل واحد بألف دينار وفرس وأنعم على ثلاثين من الأمراء الخاصكية لكل واحد مبلغ خمسة آلاف دينار وأنعم على البلبيل المغنى بألف دينار . وكان الذى عمل فى هذا المهم من الغنم ثلاثة آلاف رأس ومن البقر ستمائة رأس ومن الخيل خمسمائة اكريش ومن السكر برسم المشروب ألف قنطار وثمانمائة قنطار وبرسم الحلو مائة وستون قنطار . وبلغت النفقة على هـذا المهم فى عمل السماط والمشروب والأقبية والطراز والسروج وثياب النساء مبلغ ثلثمائة ألف دينار عينا » .

ولكن الأشرف خليل مات ، ولم يصل الناصر الى سن البلوغ بعد ، وارتقى عرش السلطنة وهو فى التاسعة من عمره . وهنا ألقيت على كاهل ذلك الطفل أعباء هـذه الدولة المترامية الأطراف ، فلم يكن بد إذن من تعليمه وتدريبه على سياسة الملك ، وكان لا بد له من أن يمر بالدور الذى مر به غيره من الملوك والسلاطين الذين تولوا العرش صغارا ، فحاول بعض الأمراء اغتصاب عرشه ، ثم يشتد ساعده ويعمل على الاستئثار بالنفوذ والسلطان . وفى وسط هذه العواصف السياسية يستكمل الناصر تعلم أساليب الحرب من رمى السهم ولعب الرمح على أيدى بعض المخلصين من أمرائه الذين يحفظون لقلاوون فضله عليهم ورعايته لهم .

ولقد أجمع المؤرخون على أن قلاوون قد أحسن تربية مماليكه ، ولقنهم أساليب الحرب والسياسة ، وأكرم وفادتهم ، وعمل على راحتهم ، وتفقد أحوالهم ، وسهر على مصالحهم . وهذه الطائفة هى التى تولت تعليم الناصر محمد وتثقيفه وتلقينه أساليب الحرب وفنون السياسة . فلا غرو إذا ورث الناصر عن أبيه صفات الحزم والعزم والشهامة والفروسية والاقدام وغيرها من الصفات .

وكان للبيئة التى عاش فيها الناصر محمد أثر عظيم فيما نشأ عليه من صفات . وانعكست عليه كثير من صفات أبيه قلاوون ، فقد كان لا يميل إلى سفك الدماء ، محباً لجمع المال ، مهتما بالمشروعات الحيوية كالمنشآت العامة من المدارس والمساجد والمستشفيات والملاجىء ، كما نشأ محباً للغزو والفتح ، ميالا للسيطرة والنفوذ .

وكان لقلاوون من الأولاد الذكور أربعة هم : الأمير نور الدين على الذى ولاه أبوه السلطنة باسم الملك الصالح لكثرة أسفاره إلى بلاد الشام ومات فى حياة أبيه سنة ٦٧٨ هـ على ما بينا ، والأشرف خليل الذى ولى الملك بعد أبيه ، والناصر محمد ، والأمير أحمد . وبعد وفاة نور الدين على كان قلاوون يميل إلى تولية محمد بدلا من أخيه خليل . ولكن صغر سنه قد حال دون تحقيق هذا الميل .

تولى الناصر محمد الملك وهو صغير ، ولقب الناصر ناصر الدين أبا الفتوح محمد ، وذلك باتفاق الأمراء : « الذين أجمعوا أمرهم على أن تكون السلطنة للسلطان الملك الناصر أخى السلطان الملك الأشرف حفظاً لنظام البيت ورعاية فى الحى حق الميت[1] » . وكان ذلك فى ١٤ المحرم سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م)

على أن ما رواه مفضل بن أبى الفضائل من أن الناصر اعتلى العرش على أساس المبدأ الوارثى ليس صحيحا فى جملته ، لأنه لم يكن بين الأمراء شخص تطغى شخصيته على الآخرين فيرتضونه سلطانا . ولأن الناصر كان صبيا فى التاسعة من عمره لا يستطيع أن يحد من سلطة الأمراء .

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٧٥ . يريد بذلك رعاية حق الميت فى شخص الحى .

الباب الثالث

سلطنة الناصر محمد[1]

(٦٩٣ – ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ – ١٣٤٠ م)

اعتلاء الناصر محمد سلطنة مصر :

ينقسم حكم الناصر محمد ثلاثة أقسام :

سلطنته الأولى (٦٩٣ – ٦٩٤ هـ = ١٢٩٣ – ١٢٩٤ م) ويتلوها اغتصاب ملكه بوصول كل من العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ – ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ – ١١٩٦ م) والمنصور حسام الدين لاچين (٦٩٦ – ٦٩٨ هـ = ١٢٩٦ – ١٢٩٨ م) إلى العرش . وفى غضون تلك الفترة يقيم الناصر بالقلعة ولا يسمح له بالظهور . ثم لا يلبث أن يرحل إلى الكرك فى عهد السلطان لاچين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . ولكن الاضطرابات والفتن التى قامت فى عهد كل من كتبغا ولاچين والضعف الذى انتاب البلاد أثناء حكمها ساعدا على عودة الناصر إلى العرش .

أما سلطنته الثانية (٦٩٨ – ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ – ١٣٠٩م) فقد اشتد الضيق عليه فيها ، كما اشتد استخفاف الناس بأمره خلالها ، حتى اضطر فى النهاية للرحيل إلى الكرك ثانية

---

(١) المراجع الثانوية التى تعرضت لسلطنة الناصر محمد أربعة هى :

1. G. Weil: Geschichte des Abbasidenchalifats in Egypten (Stuttgart 1860—1862). Vol.I, pp. 191 — 198 (سلطنة الناصر الأولى) pp. 222—279 (سلطنته الثانية) ، pp. 297—412 (سلطنته الثالثة) .

2. S. Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, pp. 316—317.

3. Ency. Isl. art. Al—Nasir.

4. G. Wiet: Histoire de La Nation Egyptienne, t. IV (L'Egypte Arabe), pp. 456—498.

ويعد الأول أوفى هذه المراجع الثلاثة بالرغم من تقادم عهده . وقد اعتمد مؤلفه على المخطوطات المحفوظة ببعض المكاتب الأوروبية ، إذ أنه وقت تحرير الكتاب لم تكن المصادر العربية الأصلية قد نشرت بعد .

وقد آثرنا ألا نبالغ فى الاعتماد على تلك المراجع الثانوية فى بحثنا هذا ، وتوجهنا إلى الأصول العربية المنشورة والمخطوطة ، لجمع شتات المادة اللازمة لتاريخ الناصر وقصرنا كلامنا فى هذا الباب على ما يتعلق بالحوادث الخاصة بانتقال السلطنة من الناصر وإليه ، وتركنا تفصيل مختلف مسائل التاريخ العام ، مثال ذلك : علاقته بالشعب وعلاقاته الخارجية ونظم الحكم فى عهده إلى الأبواب القادمة التى سنفصل فيها أمر هذه المسائل.

ليتخلص مما هو فيه من مذلة وليقيم هناك حتى تستقيم أحوال البلاد . غير أن تزوحه عن قصبة ملكه ، وخلو جوها للمتآمرين عليه ، مكن المظفر زين الدين بيبرس الجاشنكير المعروف فى تاريخ دولة المماليك باسم بيبرس الثانى (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) من اغتصاب العرش لنفسه . ولكن هذا لم يصرف أذهان الناس عن الناصر وتعلقهم به وعقيدتهم الراسخة فى أنه هو سلطانهم الشرعى ، الذى يستطيع دون سواه أن يخلصهم من الفوضى التى سادت مصر أثناء حكم بيبرس الجاشنكير . فأوفدوا إليه الرسل يرجونه العودة إلى عرش أبيه وألحوا عليه فى ذلك حتى أجاب طلبتهم وعاد إلى مصر موفور الجانب ليقبض على زمام الأمور هذه الدفعة بيد من حديد .

بذلك تبدأ سلطنة الناصر الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) [١] ، وهى التى انفرد فيها بحكم بمصر ، وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه وعلى الذين أقاموا الفتن وأثاروا الدسائس حوله . وقد استمرت هذه الفترة اثنتين وثلاثين سنة ، وهى المدة التى يعدها المؤرخون عهد سلطنة الناصر الحقيقية ، إذ أنه قبل ذلك لم يكن الا ألعوبة فى أيدى الأمراء الأقوياء يجلسونه على العرش أو يصرفونه عنه حسب أهوائهم . كما حدث فى سلطنته الأولى والثانية عند ما كان ظهور الطامحين فى العرش من أقوياء الأمراء مثل كتبغا أو لاجين أو بيبرس الجاشنكير كافياً للقضاء على ملك الناصر فترة من الزمن . ولكن هؤلاء لم تتوافر فيهم الكياسة وحسن تصريف الأمور الخصلتان اللتان اتصف بهما رجل مثل قلاوون . فلم يطل عهدهم بالحكم .

وعلى ذلك يمكن القول إن عصر الناصر يمثل عهد وراثة تخللته فترات اغتصاب لا تكاد تظهر حتى تختفى ثم يعود وارث العرش فيستمتع بحقه فى ملك أبيه . وكانت حوادث عصر الناصر تدور حول اغتصاب عرشه . فاتخذ الأمراء من صغر سنه فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم غير

(١) تولى الناصر العرش ثلاث مرات تخللتها فترات اغتصاب الملك من بعض أمراء المماليك . وعلى ذلك فان عصر الناصر يمكن تقسيمه على النحو الآتى :

سنة هجرية	السلطان	السنة الميلادية
٦٩٣	السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الأولى)	١٢٩٣
٦٩٤	« « العادل زين الدين كتبغا المنصورى	١٢٩٤
٦٩٦	« « المنصور حسام الدين لاجين المنصورى	١٢٩٦
٦٩٨	« « الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثانية)	١٢٩٨
٧٠٨	« « المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣٠٨
٧٠٩	« « الناصر محمد بن قلاوون (سلطنته الثالثة)	١٣٠٩
٧٤١		١٣٤٠

آبهين لمبدأ الوراثة الذى ظل مشكوكا فيه خلال الدولة المملوكية من أولها إلى آخرها .

* * *

سلطنة الناصر محمد الأولى (٦٩٣ هـ = ١٢٩٣ — ١٢٩٤ م) :

تولى الناصر محمد عرش مصر وهو حدث لا يتجاوز التاسعة . وهى سن لا يستطيع صاحبها أن يواجه ما يقيمه أمراء مصر فى وجهه من فتن وقلاقل ، إلا إذا كان بجانب السلطان الطفل من كبار الرجال واحد يجمع بين الاعتقاد فى وجوب المحافظة على السلطنة لوارثها حتى يبلغ أشده والمقدرة على كبح جماح الأمراء الطامعين إلى النفوذ . غير أن مثل هذا الرجل لم يكن ليوجد بين أمراء المماليك الذين تربوا فى طباق قلعة الجبل على التعسف وحب الرياسة والطموح إلى السلطنة نفسها والذين لم تكن بيئتهم ونشأة السلطان من بينهم تساعدانهم على الاقتناع بمبدأ وراثة العرش وحق السلطان الإلهى فيه . لذلك لم يستطع أحد من أبناء السلاطين أن يبقى على عرش أبيه طويلا . والأمثلة على ذلك واضحة جلية منذ قيام الحكم المملوكى فى حوادث الناصر يوسف الأيوبى وأتابكه أيبك ، وعلىّ بن أيبك وأتابكه قطز ، وسلامش وأتابكه قلاوون . ولا عجب إذا حدث للناصر ما حدث لمن سبقه ولا سيما وأنه تولى الملك فى وقت كانت البلاد تعج فيه بالاضطرابات والفتن والدسائس عقب مقتل أخيه السلطان خليل ونائبه بيدرا واختفاء كبار الأمراء أمثال حسام الدين لاچين وشمس الدين قراسنقر وما اكتنف اختفاءهما من الغموض وما كان يتوقعه الناس من ظهورهما بين حين وحين وما قد يستتبعه هذا الظهور من تقلبات خطيرة فى مجرى الأحوال التى وقعت بمصر إذ ذاك .

لما تولى الناصر محمد الملك عين الأمير زين الدين كتبغا المنصورى أتابكا للعساكر ونائباً للسلطنة ، والأمير علم الدين الشجاعى وزيراً له . وكان من الطبيعى أن يفتتح الناصر عصره بتعيين كتبغا فى هذا المنصب ، فان كتبغا هذا كان زعيم المماليك الذين أخلصوا لذكرى الأشرف خليل وذبحوا قاتله الأمير بيدرا وأجلسوا الناصر على العرش ، فتعيينه أتابكا ونائباً للسلطنة أمراً كان منتظراً . وبه يتكرر المنظر المألوف فى دولة المماليك ، وهو اختيار صبى صغير ليرث العرش ، على أن يستأثر بالسلطنة أمير قوى . ولكن قوته ليست بدرجة تفرضه على سائر المماليك وتمكنه من الاستيلاء على العرش .

كذلك عين الناصر الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيراً له . وهنا نلاحظ أنه كان نادراً جداً أن يكون الوزير فى دولة المماليك من الأمراء العسكريين . فقد كانت وظيفته إدارية لا يليها أمير مملوكى إلا فى النادر . وإنما كانت هى الوظيفة الأولى لرجال القلم ، ولكن الأمير سنجر عمل على زيادة اختصاصها .

وبتعيين كتبغا أتابكا للعساكر ونائباً للسلطنة ، نلمح من بداية عصر الناصر شبح

الاغتصاب يحاول الظهور فقد بدأ كتبغا عهده بالقيام بالدور الذى سبقه إليه الأمير قطز مع السلطان على بن أيبك فى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) وما قام به الأمير قلاوون مع سلامش ابن بيبرس فى سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) . ولكن هناك فارقاً بين ما فعله أولئك الأتابكة مع أولاد سلاطينهم وما فعله الأمراء الذين اغتصبوا عرش الناصر . ذلك أن هؤلاء المغتصبين الأولين لم يمكنوا السلاطين المعزولين من العودة إلى عروشهم على حين نجد أن مغتصبى عرش الناصر ينهار ملكهم وتقوض عروشهم بسرعة ويعود الناصر ثانية إلى دست الحكومة .

* * *

دارت حوادث عصر الناصر محمد فى سلطنته الأولى ، منذ بدأ حكمه ، حول اغتصاب عرشه . وكان أشد القائمين بتلك الحركة ثلاثة من كبار الأمراء ، هم علم الدين سَنْجَر الشجاعى[١] الوزير وزين الدين كَتْبُغا أتابك العساكر وحسام الدين لاچين .

وكان الخلاف الذى قام بين هؤلاء الأمراء أهم ما حدث فى ذلك الحين ، فقد كان لكل منهم آمال ومطامع فى اعتلاء عرش السلطنة . واتخذ كل منهم من حداثة سن الناصر فرصة سانحة لتحقيق أغراضه . واشتد التنافس على السلطنة على وجه أخص بين الأمير كتبغا والأمير الشجاعى فى شهر صفر سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) ، وانضم الى كل منهما كثير من الأتباع وأصبح القتال قريب الوقوع بين الفريقين . فبادر كتبغا وحاصر منافسه الشجاعى هو وأتباعه فى القلعة . ومن العبارات التى دارت بين خوند أشلون أم السلطان الناصر وكتبغا من ناحية ، وبين السلطان ووزيره الشجاعى من ناحية أخرى نتبين مدى احترام المبدأ الوراثى فى السلطنة المملوكية خلال ذلك العهد .

ذلك أنه لما اشتد الحصار وعرفت أم السلطان أن أسباب الخلاف قد تكون راجعة إلى تنافسهما على الوصول إلى العرش قالت لكتبغا « ايش قصدك حتى نفعله ، إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فافعل » . فرد عليها كتبغا بقوله : « أعوذ بالله السميع العليم والله لو بقى من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك[٢]

---

(١) هو علم الدين سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى « وزير الديار المصرية ومشد دواوينها ثم نائب سلطنة دمشق ... كان أولا فد ربى بدمشق ... ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم الخط وقراءة الأدب واتصل بالأمير عز الدين الشجاعى مشد الدواوين وإليه ينسب بالشجاعى . ثم اتصل بالملك المنصور قلاوون وهو فى جملة الأمراء . ولما تسلطن قلاوون تقدم سنجر المذكور عنده وجعله شاد الدواوين ثم ولاه الوزارة بالديار المصرية ثم ولاه نيابة دمشق ثم عزل عنها . وكان له ميل إلى الدين وتعظيم الاسلام وهو الذى كان مشدا على عمارة البيمارستان المنصورى بين القصرين فتممه فى مدة يسيرة . . . ثم عمل الوزارة فى أيام الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أكثر من شهر وحدثته نفسه بما فوق الوزارة فعصى ووقع له أمور فقتل وعلق رأسه على سور القلعة ... » (أنظر المنهل الصافى لأبى المحاسن) .

(٢) قارن ذلك بما قاله كتبغا بعدئذ عن عدم أهلية الملك الناصر للسلطنة لصغر سنه .

وإنما قصدنا الشجاعى[١] واخماد الفتنة »[٢]. وهذا الكلام الذى ورد على لسان كتبغا يدلنا على تظاهره باحترامه لصاحب الحق الشرعى فى الملك وإن كان فى قرارة نفسه لا يقيم وزنا لمبدأ الوارثة .

واشتد الحصار على أثر ذلك على الشجاعى بالقلعة حتى أنه لم ير بدأ من الدخول إلى السلطان لاستشارته فيما يفعل ازاء ذلك . فقال له هذا : « ياعمى ! ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه » . فقال له الشجاعى : « هـذا كله لأجلك يابن استاذنا فهم قصدوا أن يخلعوك من السلطنة ويمسكونى أنا »[٣] . فقال السلطان ، « يا عمى ! أنا أعطيك نيابة حلب لتستريح منهم »[٤]. فلم يوافق على ذلك . واذا تذكرنا صغر سن الناصر وجب علينا أن نفكر فى مصدر هذا الحل الذى اقترحه . ولسنا نستبعد أن يكون هـذا المصدر هو خوند أشلون والدته . ولم يكن قتل الشجاعى بواسطة كتبغا وأتباعه بل ان الشجاعى لما عرض عليه السلطان نيابة حلب « أغلظ على السلطان فى القول فقام اليه المماليك الذين كانوا عند السلطان وأمسكوه وقيدوه وأرسلوه الى البرج ،وبينما هو سائر فى الطريق إذ خرج عليه جماعة من المماليك البرجية فقتلوه »[٥].

وانتهت حوادث عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) والناصر لا يزال صاحب السلطان الشرعى فى مصر برغم أنه لم يكن له من الأمر شىء . ولـكن هـذه الحوادث قد ساعدت على تقريب أجل حكمه وأدت الى القضاء على الشجاعى وجعلت كتبغا صاحب النفوذ الحقيقى فى مصر .

وثانى الأمور التى أثرت فى مجرى الأحوال بمصر إذ ذاك ــ بالاضافة إلى ذلك الخلاف الذى قام بين كتبغا والشجاعى ــ هو ظهور حسام الدين لاجين[٦] فى القاهرة . وعلى أثر ظهوره اضطربت الأحوال وقام المماليك الأشرفية[٧] فى ١٠ المحرم سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م)

---

(١) يعنى القضاء على الشجاعى .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٠١ .

(٣) أراد الشجاعى أن يجلى للسلطان حقيقة الموقف فأفهمه أنهم يريدون القبض عليه [على الشجاعى] ثم خلع السلطان ثانيا . فيصل كتبغا بسهولة إلى العرش بعد زوال منافسه . وقد اتضح فيما بعد أن الشجاعى كان صادقا فيما قاله عن نوايا كتبغا وأعوانه فيما يختص بعزل الناصر .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣١ .

(٥) ابن إياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) لاجين هو أحد الأمراء الطامحين الذين اشتركوا فى تدبير مقتل الأشرف وتمـكن من الهرب عقب مقتله واستتر . وقيل إن كتبغا حماه ورعاه طوال مدة اختفائه لأنه كان مؤاخيا له منـذ الصغر (ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٨٨) . ويقول ابن إياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٣) عن مسألة اختفاء لاجين ما نصه « فاختفى لاجين مدة طويلة نحوسنة ، فـكان مقيما فى خزانة أحمد بن طولون ثم أن الأمير كتبغا شفع فيه عند الملك الناصر محمد بن قلاوون فقابله فرضى عليه السلطان وأنعم عليه بتقدمة ألف » .

(٧) المماليك الأشرفية نسبة إلى الأشرف خليل .

بثورة عنيفة استمرت طوال الليل بمصر والقاهرة ودخلوا أسواق السلاح واستولوا على ما فيها وأخذوا خيل السلطان ونهبوا الاصطبلات . فلما رأى لاجين إمارة الغدر بادية من هؤلاء المماليك أخذ يحسن للأمير كتبغا الوصول الى عرش السلطنة وخلع الناصر محمد : « لأن الأشرفية ما دام الملك الناصر فى الملك شوكتهم قائمة ، ولأن الملك الناصر « متى كبر لا يبقيك [أى كتبغا] البتة ولا يبقى أحداً ممن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف »[١].

وصادف كلام لاجين هوى فى نفس كتبغا . فجمع الأمراء ، وضربوا مشورة[٢] وقالوا : لقد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن وطمع المماليك فى حق الرعية . ومن الرأى أن نولى سلطاناً كبيراً يقمع المماليك[٣] عن هذه الأفعال »[٤] . فاستقر رأيهم جميعاً على خلع السلطان الناصر محمد من الملك وإعلان كتبغا سلطاناً فى ٨ المحرم سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤م) على أن يكون حسام الدين لاچين نائباً للسلطنة . فكانت مدة حكم الناصر محمد فى سلطنته الأولى سنة واحدة .

وطبيعى أن سلطنة الناصر الأولى كانت اسمية فقد كان غلاماً صغيراً وكان أتابكه كتبغا هو القائم بجميع أمور الدولة وليس لهذا السلطان معه تصرف البتة . واحتجب الناصر بعد عزله — ولم يتجاوز إذ ذاك العشر سنين — عن الأنظار ومنع من الاتصال بالناس . وفى ذلك يقول بيبرس الدوادار : « ولما جلس [كتبغا] فى المملكة على زعمه وخلع الملك الناصر من محله وحكمه[٥] أسكنه فى قاعة من الدور[٦] وحجبه فى أمنع الخدور[٧] فقضى الله له عليه وأخذ حقه منه ورده إليه »[٨] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٢) نلاحظ أن عبارة « ضربوا [أى الأمراء] مشورة » ترد كثيرا على لسان المؤرخين عقب حادثة قتل أو عزل سلطان قائم وتولية سلطان جديد ، مما يؤيد أن الأمراء كان لهم الشأن الأعظم فى توجيه الحوادث الجارية فى عصر المماليك .

(٣) يقصد بعبارة « يقمع المماليك » ضمان عدم قيام هذه الطائفة بثورة كالتى قاموا بها عقب ظهور لاچين بعد اختفائه مدة .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٢ .

(٥) يريد المؤلف أن يذكر أن الناصر محمد انتزع منه العرش بطريق الاغتصاب مع أنه حقه الطبيعى .

(٦) يقصد « بالدور » الدور السلطانية التى أنشأها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب بعد أن أتم بناء القلعة سنة ٦٠٤ هـ .

(٧) زاد ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٥٨٥) هذه العبارة وضوحا فقال إنه اشترط على الناصر بعد عزله « أن يقيم فى قاعة جوانية بالقلعة لا يتصرف منها » .

(٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٥ .

الاغتصاب الأول فى سلطنة الناصر محمد : السلطان كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) .

وبذا صار زين الدين كتبغا سلطاناً على مصر وتلقب بالعادل (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) . وهو مغربى الأصل ، ومن سبايا التتار ، أخذه السلطان قلاوون فى واقعة حمص الأولى سنة ٦٥٩ هـ وجعله من مماليكه وتعهده بالتربية والتهذيب . فلما آلت السلطنة إلى قلاوون رقاه فى وظائف الدولة حتى صار من كبار الأمراء . ولما قتل خليل وتولى أخوه الناصر محمد الملك سنة ٦٩٣ هـ جعله نائباً للسلطنة(١) .

ولما جلس كتبغا على العرش فى سنة ٦٩٤ هـ أقام الأمير حسام الدين لاچين نائباً للسلطنة وأعطى الأمير شمس الدين قراسنقر إقطاعاً ورقى عدداً من مماليكه إلى مرتبة الإمارة . وهذان الأميران هما اللذان اختفيا عقب مقتل السلطان خليل وعرف كتبغا موضعهما وبرهما على ما بينا . ويقول ستانلى لينبول أنه كان من الطبيعى أن يكرم كتبغا هذين الأميرين ، إذ أنه كان منذ مقتل خليل يطمح إلى عرش السلطنة ووجد كل من لاچين وقرا سنقر من عظم النفوذ وكثرة الأتباع والأنصار فى البلاد المصرية ما يسهل عليه الوصول إلى غرضه فى الملك إذا انضما إليه(٢) .

كان كتبغا سىء الطالع : فقد أصيبت البلاد عقب ولايته بالغلاء والوباء حتى تشاءم الناس من سلطانه وتمنوا زواله . وبلغ من شدة ما أصاب البلاد من الجدب أن نفدت من خزائن السلطان الغلال وعلف الدواب . وكان أهم العوامل التى أثرت فى حالة البلاد فى ذلك العصر انخفاض ماء النيل فى سنة ٦٩٤ هـ فعم الجدب معظم الأراضى وقلت المحاصيل الزراعية ولم تف بحاجة البلاد وشكا الناس شدة الجوع وفتكت بهم الأمراض وفشا فيهم الموت حتى كانوا يتساقطون صرعى فى الطرقات . ولم يقتصر هذا الأمر على البلاد المصرية بل انتقل منها إلى بلاد الشام والحجاز أيضاً ، غير أنه لم يكن بالغاً هذا الحد الذى بلغه بمصر . ثم كشف الله عن الناس تلك الكروب وهدأت الأحوال وزال الغلاء بعد أن ترك فى الدولة آثاراً سيئة(٣) .

ومن أهم العوامل التى أساءت إلى سمعة كتبغا ترحيبه بالأمراء والجند المغول الذين فروا إلى مصر من وجه غازان بعد اعتناقه الإسلام . فإن ترحيب كتبغا بهم — وهم نحو عشرة آلاف — رغم عقائدهم الوثنية ورغم القحط السائد فى البلاد وعزمه على اتخاذهم عوناً له ضد

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٩ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٠٥ . المنهل الصافى ج ٣ ص ٤٧ ب . راجع

Mayer : Saracenic Heraldry, p. 143; Van Berchem : Corpus I. P . 153

(٢) Lane - Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 289

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٤ و ٨٤٩ — ٨٥٠ . الشوكانى : البدر الطالع ج ٢ ص ٥٨ .

سائر المماليك ، كل هذا أثار حقد الجيش وسائر السكان(١) . كذلك منح كتبغا السلطة والنفوذ لأميرين من خاصة مماليكه هما بتخاص وبكتوت الأزرق(٢) . فلم يحسنا استعمالها وتحكما فى أمور الدولة وأفسدا نظام المملكة وغيرا عليه القلوب لسوء سيرتهما واستهتارهما بالأمراء وأوغرا صدره على لاجين ، أشد أمراء المماليك نفوذاً فى ذلك الوقت(٣) .

على أن المظالم الذى أتى بها هذان الأميران لم تكن من الخطورة بقدر الدسائس التى حاك شراكها لاجين . فقد طمع هذا الأمير فى السلطنة منذ اعتلاها كتبغا وبدأ يكيد له فى الباطن حتى وافته الفرصة فى سنة ٦٩٦ هـ حين غضب بعض أمراء الشام على كتبغا لعزله عز الدين أيبك الحموى نائب السلطنة بالشام وتولية مملوكه أغُرلوا العادلى مكانه ثم لعـدم منحهم الانعامات وتوزيع الهدايا حين زيارته لدمشق فى ١٧ شوال سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) (٤) ، على نحو ما جرت به عادة السلاطين عند زيارتهم بلاد الشام لأول مرة بعد توليتهم . وبذلك « ذهل كتبغا عن الصواب . وللقضاء إذا أراد إنفاذه أسباب وأى أسباب »(٥) وأشعل لاجين نار الفتنة وزاد عوامل البغضاء والكراهية فى نفوس أعوانه ، بل اتفق معهم على قتل كتبغا وهو فى طريقه إلى مصر ليحقق بذلك غرضه الأول وهو الوصول إلى السلطنة على نحو ما فعله بيبرس مع قطز .

خرج كتبغا من دمشق بجنوده متجهاً نحو الديار المصرية . ولما وصل إلى اللّجون بالقرب من طَبَرِية فى ٢٨ المحرم سنة٦٩٦ كان لاجين قد اتفق مع الأمراء على الغدر بالسلطان ، لكنه لم يتمكن من تنفيذ خطته فقتل الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق . أعز مماليك كتبغا وأقربهم إليه وأكثرهم حظوة وأوفرهم سطوة . فلما علم بذلك كتبغا فر إلى دمشق حيث جدد له نائب السلطنة بالشام الحلف ، ويقول أبو المحاسن فى هذا الصدد : « قصد لاجين [بعد قتل

---

(١) Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (L' Egypte Arabe), pp.464—465

(٢) سمى الأزرق لأنه كان أخيف العينين . والأخيف هو الذى تكون إحدى عينيه سوداء والأخرى زرقاء .

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٨٢ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ . وسنرى أنه كان لمملوكيه الحق فى تحذير كتبغا من عاقبة استسلامه للاجين وقراسنقر .

(٤) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٤٠ . ويقول ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٥٩٢ — ٥٩٤) أنه « لما وصل [كتبغا] إلى دمشق قدم له النواب والأمراء [ومن بينهم الأمير عز الدين أيبك الحموى] تقادم كثيرة بحكم أنه أول قدومه عليهم فى سلطنته ... فلم ير له ولا لما قدمه بل عزله من النيابة وأخذ منه ومن ألزامه جملة كبيرة وولى مملوكه اغرلوا مكانه . . . ولم يخلع عليهم ولا وصلهم عن ذلك بشىء من الصلات كما جرت به من الملوك العادات فان عادة الملوك إذا دخلوا إلى مدينة مثل دمشق أن يغدقوا الهدايا والصلات على الأمراء لا عن مكافأة لهم ولا بسبب تقادم صدرت منهم . لا سيما ملك فى أول دولته وبداية سلطنته » .

(٥) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ص ٥٩٤

الأمرين] مخيم السلطان فمنعه بعض مماليك السلطان قليلا وعوقوه عن الوصول إلى الملك العادل . وكان العادل لما بلغه هذا الأمر ، علم أنه لا قبل له على قتال لاجين لعلمه بمن وافقه من الأمراء وغيرهم وخاف على نفسه وركب من خيل النوبة[١] فرساً وساق لقلة سعده ولزوال ملكه راجعاً إلى الشام ولو أقام بخيمه لم يقدر لاجين على قتاله وأخذه فما شاء الله كان ! وساق حتى وصل إلى دمشق . . فتهيأ نائب الشام الأمير أغرلوا العادلى واستعد وأحضر أمراء الشام عند السلطان ورسم بالاحتياط على نواب الأمير حسام الدين لاجين ... ثم ان الملك العادل طلب قاضى قضاة دمشق وقاضى القضاة حسام الدين الحنفى وحضرا تحليف الأمراء والمقدمين وتجديد المواثيق منهم ووعدهم وطيب قلوبهم » [٢] .

وعقب فرار كتبغا استولى لاجين على دهليز السلطان وخزائنه وانضم إليه حرسه وسائر رجال جيشه دون أن يبدوا أية مقاومة . ولما تم له ذلك جمع لاجين الأمراء ورجال الجيش — وهو لا يزال فى المكان الذى حاول فيه قتل السلطان — وخاطبهم قائلا : « أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم ولست موليا عليكم من مماليكى أحداً ولا أسمع فيكم كلاما أبدا ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل[٣] وأنتم خوشداشيتى[٤] ومحل اخوتى[٥] » . ولا غرو فان بعض سلاطين المماليك كانوا يسارعون بالظهور بمظهر الملوك منذ ينجحون فى الاستيلاء على العرش . فأراد لاجين هذه المرة أن يقول للأمراء أنه ليس الا واحداً منهم ، وذلك سياسة منه وتواضعا حتى لايشعر الأمراء أنه بعد أن يصل الى السلطنة يتناساهم أو يتسامى عليهم وهو منهم ونشأ نشأتهم.

وقد عد الأمراء هذه النغمة وتلك الشروط أقصى ما يمكن أن يطلبوه ممن يتولى أمورهم . لهذا أعجبوا بقوله ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا من أنه ينوى العمل بما قال ولا ينقضه . فاشترطوا عليه عدة شروط أهمها ضمان عدم انفراده برأى أو تسليط مماليكه عليهم كما فعل كتبغا[٦] . فأجابهم إلى كل ما طلبوه وحلف لهم عليه . وعند ذلك بايعوه بالسلطنة فى المحرم سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وتلقب بعد وصوله الى القلعة بالقاهرة بالسلطان الملك المنصور حُسام الدين لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ = ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) . وهذا يدلنا على أن الاغتصاب كان أمراً مألوفاً لدى الأمراء بدليل أنهم لو كانوا يتمسكون بالمبدأ الوراثى فى الوصول الى العرش لما سمحوا لهذين الغاصبين باغتصاب عرش الناصر على هذه الصورة وهو لا يزال حياً مهما بلغت سنه .

---

(١) كانت العادة أن يحفظ بقرب حضرة السلطان بالقلعة أو فى الأسفار فرس مجهز بالسرج والغاشية لاستخدامه فى الطوارىء وقد سمى باسم فرس النوبة . المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٠٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦٣ — ٦٤ .

(٣) يقصد ما حل بالأمراء من عسف الأميرين بتخاص وبكتوت الأزرق .

(٤) سبق شرح مدلول هذا اللفظ .

(٥) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٥٩٦ . بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ص ١٦٥

(٦) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣٤ .

تم كل ذلك وكتبغا مقيم بقلعة دمشق لا يخرج منها ولا يدرى بما حدث فى مصر بعد وصوله الى الشام . ولكن لم تلبث الأخبار أن جاءت من القاهرة بأن لاجين أصبح متربعا على عرش السلطنة بالديار المصرية ، ولما اتصل ذلك بمسامع أهل الشام انصرفوا عن كتبغا . وفى ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) وصلت المراسيم إلى قضاة دمشق وأمرائها من السلطان لاجين باحضار كتبغا وإبلاغه خبر عزله عن سلطنة مصر وأصبح كتبغا أمام الأمر الواقع . وفى ذلك يقول ابن اياس : « فقام قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى هو والأمير حسام لاجين[١] ودخلوا على العادل كتبغا وهو بقلعه دمشق وتكلموا معه . فلما رأى كتبغا عين الغلبة أذعن وأشهر على نفسه بالخلع »[٢] . ويقول أبو المحاسن : « ان العادل كتبغا تكلم معهم كلاماً كثيراً بحيث انه طال المجلس كالعاتب عليهم ثم انه حلف يميناً طويلا ، يقول فى أولها : أقول وانا كتبغا المنصور — ويكرر اسم الله تعالى فى الحلف مرة بعد مرة — انه يرضى بالمكان الذى عينه السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ولا يكاتب ولا يسارر فانه تحت الطاعة وانه خلع نفسه من الملك »[٣] .

وفى ١٢ ربيع الأول سنة ٦٩٦ هـ وصل الى دمشق الأمير سيف الدين قبجق[٤] نائب الشام من قبل السلطان لاجين . وعقب وصوله أرسل إلى كتبغا وأبلغه أن السلطان لاجين يأمره بالتوجه إلى مدينة صرخد للاقامة فيها ، فذهب إليها معززا مكرما ومعه أولاده ومماليكه وغلمانه وأقام بها[٥] . وهذه ظاهرة خطيرة أن يصبح السلطان السابق واليا على بلدة من أعمال دمشق (صرخد) وهو أول مثل ينزل فيه سلطان فى دولة المماليك إلى أمير . وتتابعت حوادث نزول السلاطين عن عروشهم ، إلا أنهم كانوا إما يعزلون أو يقتلون أو يعتزلون فى مكان ما أو يقبض عليهم كأولاد الناصر .

---

(١) هو الذى أرسله السلطان لاجين رسولا إلى أمراء دمشق وقضاتها ومعه المراسيم الخاصة بخلع كتبغا . ومما يجب ملاحظته أنه ورد فى المنهل الصافى لأبى المحاسن سبعة أمراء باسم حسام الدين لاجين ، وردت تراجمهم فى هذا الكتاب المخطوط .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٥ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦٧ .

(٤) بدل اغرلوا مملوك كتبغا الذى كان السطان [كتبغا] قد سافر إلى دمشق ليوليه نيابة السلطنة بدلا من الأمير عز الدين أيبك الحموى .

(٥) قيل إن كتبغا هو الذى طلب من لاجين مكانا يقيم فيه بقية حياته . فأجابه إلى ذلك . يقول أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣٤) : « فخلع نفسه من السلطنة وقعد بقلعة دمشق وأرسل إلى حسام الدين لاجين يطلب منه الأمان وموضعا يأوى إليه فأعطاه صرخد فسار العادل إليها واستقر بها » . وظل كتبغا مقيما فى صرخد حتى جاء الناصر محمد فى سلطنته الثانية وأنعم عليه بمملكة حماة وأعمالها فاستقر بها إلى أن توفى فى ١٠ ذى الحجة سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) .

السلطان لاجين (٦٩٦ — ٦٩٨ هـ = ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) :

كان لاجين من أبناء بعض البلاد الواقعة على البحر البلطى فى الشمال الغربى من أوربا . ثم صار من بين مماليك الملك المنصور على بن ايبك . فلما خلع علىّ اشتراه الأمير قلاوون بسبعمائة درهم على أساس أنه ليس له مالك شرعى . فلما تبين أنه من مماليك المنصور على اشتراه قلاوون من جديد ثم أعتقه بعد أن رباه وبلغ أشده وقلده عدة وظائف مبدئا من « غلام » حتى وصل إلى «سلاح دار» . ولما اعتلى قلاوون العرش جعله من بين أمرائه[١]. ثم عينه نائبا على دمشق[٢]. وظل فى تلك الوظيفة حتى عزله السلطان خليل بن قلاوون وقبض عليه ولكنه عاد فأفرج عنه بعد أن شفع فيه بعض الأمراء ولما خرج من الحبس أوجس خيفة من السلطان فاتفق مع بيدرا وبعض الأمراء على قتله وتم لهم ما أرادوا[٣] . وعقب مقتل خليل اختفى لاجين عدة أشهر فى جامع ابن طولون[٤] إلى أن أخرجه الأمير كتبغا بعد أن شفع فيه عند السلطان الناصر . ولما صار كتبغا سلطانا جعله نائبه . واستمر يباشر نيابة السلطنة حتى اتيحت له فرصة الاتفاق مع جماعة من كبار الأمراء على خلع كتبغا وتم لهم ما أرادوا وتولى لاجين سلطنة مصر على نحو ما فصلناه[٥].

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٨٢٠—٨٢١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٥ ؛ Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 290.
راجع Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 48. Mayer : Saracenic Heraldry, p. 148.

(٢) ظل لاجين على نيابة دمشق حتى خرج الأمير سيف الدين سنقر الأشقر عن طاعة الملك المنصور قلاوون وأعلن نفسه سلطانا على دمشق وتلقب بالملك الكامل وملك قلعة دمشق فقبض على لاجين وحبسه وظل فى الحبس حتى هزم سنقر الأشقر وخلفه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبى فأخرجه من حبسه . ثم عينه المنصور قلاوون على نيابة دمشق فظل بها إحدى عشرة سنة . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٥ — ٨٦ . المنهل الصافى جـ ٣ ص ٦٤ ب .

(٣) يتمثل أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٨٦) بهذه المناسبة ببيتين للشاعر أبى الطيب المتنبى حيث يقول :

لا تخدعنك من عدوك دمعة   وارحم شبابك من عدو ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

(٤) نذر لاجين أثناء إقامته بجامع ابن طولون أنه إن سلم من هذه المحنة وتولى عرش مصر فانه يقوم باصلاح هذا الجامع . فلما نال ما تمناه اهتم فى أول سنة من ولايته بعمارته وأمر وزيره علم الدين سنجر بشراء الأملاك وإيقافها على المسجد . وبعد تمام العمارة رتب فى الجامع درسا للفقه والتفسير والحديث والطب كما خصص له إماما للصلاة ومؤذنين . وبلغت جملة النفقة على هذه العمارة عشرين ألف دينار . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٦٨ . وكتاب تاريخ ووصف الجامع الطولونى لمحمود عكوش ص ٩٢ — ٩٥ .
Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 303, 304, 305.

(٥) أنظر المنهل الصافى لأبى المحاسن جـ ٣ ص ٦٥ أ .

وبعد وصول لاجين الى عرش السلطنة كانت أمامه عقبتان لا بد له من اجتيازهما والتغلب عليهما ليثبت عرشه، أولاهما: كتبغا وما كان ينتظر أن يأتيه من الدسائس وما يثيرة من الفتن لاستعادة عرشه. وثانيهما الناصر محمد الذى كان لا يزال مقيما بمصر على النحو الذى تركه عليه كتبغا. وكان الناصر فى نظر الناس صاحب الحق الشرعى فى الملك. إلا أن كتبغا سلم بالأمر الواقع بعد محاولات غير مجدية وكفى نفسه شر القتال وشهد أمام قاضى قضاة دمشق بنزوله عن العرش ورضى بالمكان الذى عينه له لاجين.

أما الناصر محمد فقد فكر لاجين فى إرساله إلى الكرك وإفهامه أنه سيبقى بها حتى يبلغ سن الرشد. وعندئذ يسلمه ملكه بحجة أنه ينوب عنه فى سلطنة مصر. ويقول النويرى فى هذا الصدد: «أخبرنى قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى عن خبر إرساله [يعنى الناصر محمد] إلى الكرك، قال: طلبنى الملك المنصور حسام الدين. وقال لى أعلم أن السلطان الملك الناصر ابن أستاذى وأنا والله فى السلطنة مقام النائب عنه. ولو علمت أنه الآن يستقل بأعباء السلطنة[١] ولا تنخرم هذه القاعدة ويضطرب الأمر أقمته وقمت بين يديه[٢]. وقد خشيت عليه فى هذا الوقت[٣]. وترجح عندى إرساله إلى قلعة الكرك فيكون بها إلى أن يشتد عضده ويكون من الله الخير. ووالله ما أقصد بإرساله إليها إبعاده ولكن حفظه، والسلطنة فهى له. وأمثال هذا من الكلام. قال زين الدين فشكرته على ذلك ودعوت له. ولعل السلطان الملك المنصور إنما قال هذا الكلام تطييبا لقلب قاضى القضاة لاحقيقة[٤]. وكان فى طى الغيب كذلك»[٥]. ثم وجه لاجين كلامه بعد ذلك إلى الناصر محمد ليبين له حقيقة الدافع الذى حمله على التفكير فى الاسراع بارساله إلى الكرك. قال لاجين: «لو علمت أنهم يخلوك سلطانا والله تركت الملك لك. وأنا مملوكك ومملوك والدك أحفظ لك الملك وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل (كذا) وتتخرج وتجرب الأمور وتعود إلى ملكك بشرط أن تعطينى دمشق وأكون بها مثل صاحب حماة فيها». فقال له الناصر: «فاحلف لى أن تبقى على نفسى وأنا أروح. فحلف كل منهما على ما أراده الآخر[٦]».

أراد لاجين من هذه المناقشات أن يطمئن الناصر على أنه سيعيده إلى عرشه متى بلغ سن الرشد وأصبح قادراً على أن يحكم بنفسه. وتبدو هذه الأسباب التى تعلل بها لاجين لارسال

(١) يقصد لو علمت أنه يحسن القيام بأمرها.

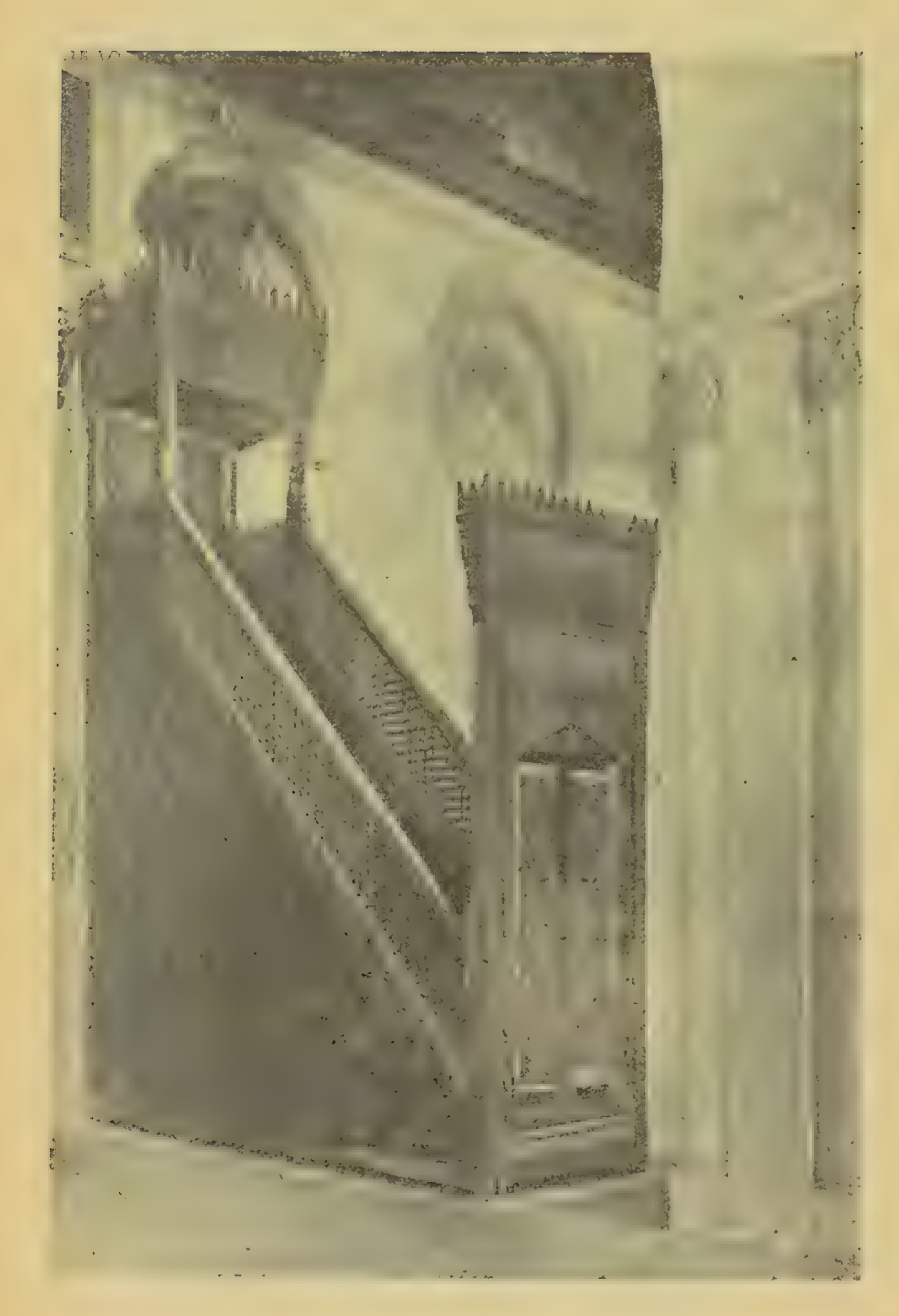
(٢) يقصد أصبحت نائبا عنه.

(٣) يقصد أنه لو أعاد الناصر إلى سلطنته وهو فى هذا السن المبكرة لعاد كتبغا من دمشق واغتصب العرش ثانية أو حاول أمير آخر اغتصاب العرش نهائياً لا نيابة عن الناصر.

(٤) يريد النويرى بهذا الاستدراك أن يوضح أن لاجين لم يكن جادا فى كلامه عن إعادة الناصر إلى ملكه بعد بلوغه سن الرشد وتخلى لاجين عن السلطنة بمحض إرادته.

(٥) النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣١٥ ب.

(٦) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٨٣٢.



منبر جامع ابن طولون من عصر السلطان لاچين

الناصر إلى الكرك معقولة .

وعلى أثر ذلك الاتفاق رحل الناصر إلى الكرك فى سنة ٦٩٦ هـ ومعه الأمير سيف الدين سلار وأقام فيها . وعامله نائبها الأمير جمال الدين أقوش الأشرفى بما يجب له من الاجلال « وتلقى أوامره ونواهيه بالامتثال ونزله المنزلة اللائقة بمثله ، وفعل فى خدمته ما يحمد على فعله »(١) .

وبعد أن اطمأن لاجين على ملكه من كتبغا والناصر ، التفت إلى تدبير شئون ملكه فعين الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى(٢) نائباً للسلطنة . ولكن لم يلبث أن قبض عليه وعين بدلا منه الأمير سيف الدين مَنْكُوتَمُر(٣) . وتعتبر تولية منكوتمر فى نيابة السلطنة إيذانا بزوال حكم لاجين الذى أخذ عليه الأمراء العهود والمواثيق ألا يعين هذا الأمير فى أى عمل من أعمال الدولة حتى لا يسير سير كتبغا حين عين بكتوت وبتخاص الذين ساما الناس الخسف والعذاب .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه هذه العبارة التى ننقلها عن بيبرس الدوادار : « لما حلف لهم على ما طلبوه(٤) ، قال الأمير سيف الدين قفجق : نخشى أنك إذا جلست فى المنصب تنسى هذا التقرير وتقدم الصغير من مماليكك على الكبير وتخول مملوكك منكوتمر فى التحكم والتدبير فتضل »(٥) .

وقد صدق حدس الأمراء . فان منكوتمر لم يكد يعتلى كرسى نيابة السلطنة وتوضع فى يده مهمة الاشراف على شئون الدولة حتى ، استحوذ على عقل مخدومه واستولى عليه وحجبه عن الخاصة والعامة وكان إذا رسم مخدومه بمرسوم لا يؤثره يوقفه هو ويؤخره وان كتب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٧٣ .

(٢) قراسنقر هو شريك لاجين فى قتل السلطان خليل ، وزميله فى الاختفاء وقد أحضر قراسنقر إلى مصر بأمر قلاوون قبل وصوله إلى السلطنة وعينه « غلاما » ثم « جوكان دار » (polo master) وتقلد بعد أن وصل قلاوون إلى العرش وظيفة حاكم حمص وذلك سنة ٦٨١ هـ وفى عهد السلطان خليل ابن قلاوون عين « أمير جاندار » وظل فى ذلك المنصب حتى تقلد فى عهد لاجين وظيفة نائب السلطنة . Mayer :Saracenic Heraldry, pp. 183—184. راجع ترجمته فى المنهل الصافى لأبى المحاسن ، وانظر Wiet : les Biographies du Manhal Safi, p. 273 No. 1845

(٣) يمكن مقارنة غضب لاجين على نائبه قراسنقر وعزله بحالة العداوة التى ظهرت وتأصلت بين السلطان خليل ونائبه بدر الدين بيدرا . فان لاجين غدر بصديقه الحميم قراسنقر على أثر دسائس منكوتمر كما غدر خليل ببيدرا بدسائس وزيره الشجاعى . ويقول مفضل بن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٥٩٩) : « فان منكوتمر كان يسعى عنده بالأمير قراسنقر وينم عليه طلبا لمنصبه وحسدا له على المامه بالسلطان وتقربه منه . فأثرت نميمته فى نفسه واستوحش باطنه بعد أنسه » .

(٤) أن يكون كأحدهم ، ولا ينفرد برأى ، ولا يستطيل أحد من مماليكه فيهم .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٧٢ .

توقيعاً لايختاره بمزقه وعلامته عليه ولا يبالى به ولا يلتفت اليه . ورسم بأن الأموال تحمل إلى داره دون بيت المال . وصار الوزير بين يديه يمثل مراسمه ويستعطف مراحمه ولا يمضى أمراً إلا بأمره»[١] . واشتد حنق الأمراء على السلطان حين علموا أنه يفكر فى جعل منكوتمر ولى عهده[٢]. وهنا يتضح أن مبدأ الوراثة فى العرش لم يكن طبيعياً ولا مفهوما عند المماليك فان لاجين لا يغتصب العرش لنفسه فقط ، بل يريد أن يتركه من بعده لأمير آخر ليست له صلة شرعية بالعرش .

وبذلك أثار لاجين حفيظة الأمراء بتعيينه منكوتمر نائباً للسلطنة حانثاً فى يمينه لهم قبل اعتلائه العرش بعدم إسناد أى منصب من مناصب الدولة إليه . وزاد فى سخط الأمراء والجند حين أمر سنة ٦٩٧ ﻫ بعمل الروك المعروف فى التاريخ باسم « الروك الحسامى »[٣] وبه صار ما يخص هاتين الطبقتين معاً من القراريط الأربعة والعشرين التى كانت تنقسم إليها أرض مصر عشرة قراريط بعد أن كان هذا القدر يخص كل طبقة منها على حدة . وأغضب لاجين الشعب باهماله شئون الدولة وسوء معاملة منكوتمر له . وإذا أضفنا إلى ذلك كله كره المماليك الأشرفية له باعتباره أحد قتلة الأشرف ، أمكننا أن نتصور حالة السخط العام على حكمه . ويقول ابن إياس تعليقاً على هذه الحوادث « فنفرت قلوبهم عن السلطان لاجين وتمنى كل أحد زواله وكثر الدعاء عليه من الناس »[٤] .

لذلك اتفق عدد من المماليك على الغدر بالسلطان لاجين وبنائبه منكوتمر ، وانتهزوا سنوح الفرصة لتنفيذ ما اعتزموه . واتصل ذلك بعلم لاجين فصار لا يبرح القلعة إلا نادراً ولضرورة قاهرة . وفى الربيع الآخر سنة ٦٩٨ ﻫ (١٢٩٨ م) تمكن من لاجين مملوكان من المماليك السلطانية هما الأمير سيف الدين طُغْجى والأمير سيف الدين كُرْجى[٥] بينما كان جالسا فى

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٠٠ . أنظر أيضا أبا المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ ص ٦٧ أ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٩ ب .

قارن ما سبق أن ذكرناه من قول لاجين للناصر حين اعتزم إرساله إلى الكرك : « أنت تروح الآن إلى الكرك إلى أن تترعرع ... وتعود إلى ملكك » ، بما عول عليه الآن من جعل منكوتمر وليا للعهد .

(٣) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٠ أ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٠ . ويلاحظ أن « الروك الحسامى » سيأتى ذكره مفصلا فيما بعد .

(٤) بدائع الزهور ج ١ ص ١٣٧ .

(٥) كان كرجى مقدم المماليك البرجية من أقرب الناس إلى السلطان لاجين وكان يدخل إليه حين يريد دون حجاب . لذلك يروى لنا ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٦١٢) أنه « لما وقف [كرجى] بين يدى السلطان سأله عما عملت ؟ قال : بيّت البرجيه وغلقت عليهم . فشكره السلطان وأثنى عليه » . وهذا ما حدا بالمؤرخ أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٩) إلى القول بأن السلطان لاجين قتل على يد من « اصطفاهم لنفسه » .

قصره وقتلاه وهو يلعب الشطرنج[١] . ثم قتلا منكوتمر بعدئذ [٢] .

التمهيد لعودة الناصر محمد الى عرشه :

قتل لاجين فى ١٠ ربيع الآخرسنة ٦٩٨ هـ بعد أن حكم مصر نحوا من سنتين وثلاثة أشهر وبقتله تجدد التفكير فى إعادة الناصر محمد إلى السلطنة . ولكن ما لبث طغجى أن طمع فى العرش ، على أن يكون كرجى — شريكه فى قتل لاجين — نائباً له . وفى ذلك يقول المقريزى : « فى يوم السبت ١٢ ربيع الآخر جلس طغجى مكان النيابة وبقية الأمراء يمنة ويسرة . ومد السماط السلطانى على العادة ، ودار الكلام فى الارسال إلى الملك الناصر ، فقام كرجى وقال : يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان وأخذت ثأر أستاذى[٣] . والملك الناصر صغير ما يصلح ولا يكون السلطان إلا هذا — وأشار لطغجى — وأنا نائبه ومن خالف فدونه[٤] » . وهذه ظاهرة عجيبة وقاعدة تكاد تكون مطردة فى عصر المماليك وهى أن قاتل السلطان يعتقد أنه لابد يصبح سلطانا . يدل على ذلك ما سبق أن ذكرنا ، عن وصول بيبرس إلى السلطنة بعد قتل قطز ، وما ذكرناه عن وصول بيدرا إلى العرش بعد قتل خليل بن قلاوون والآن تتكرر هذه الظاهرة ويتفاخر كرجى أنه قاتل السلطان لاجين ويقترح طغجى سلطاناً ويعلن نفسه نائباً له . ولكن الأمراء لم يرضوا بسلطنة طغجى ونيابة كرجى واتفقوا على قتلهما وتم لهم ما أرادوا .

وحانت للامراء فرصة قتل طغجى حين دعوه لاستقبال الأمير بدر الدين بكتاش بعد عودته على رأس الحملة التى كانت قد جردت إلى سيس ببلاد الشام . وكان الأمراء قد كتبوا إلى الأمير بكتاش وإلى من معه يعلمونهم ما حدث من قتل لاجين وعزم طغجى على إقامة نفسه سلطاناً وكرجى نائباً له . وقد أورد لنا ابن أبى الفضائل[٥] والمقريزى[٦] نص المناقشات التى دارت بين الأميرين بكتاش وطغجى بصدد مقتل لاجين . ومنها نتبين أن بكتاش لم يظهر فى بادىء الأمر معرفته بما حدث فى مصر أثناء غيبته وأنه استدرج طغجى حتى اعترف

(١) قتل لاجين بينما كان يتأهب لصلاة العشاء . وقد أسهب مفضل بن أبى الفضائل (نفس المصدر والصفحة) وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠١ — ١٠٢) وابن إياس (جـ ١ ص ١٣٧ — ١٣٨) فى وصف مقتل السلطان لاجين ومنه يتضح أنه قتل بواسطة النمجاة (أو النمشة أو النمجا أو النمشاه) وهى عبارة عن خنجر مقوس شبه السيف الصغير . انظر السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٨٥٧ .

(٢) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ص ٦١٤ . أبو المحاسن : المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٣ ص ٦٥ ب ٦٨ أ . Lane Poole : Egypt in the Middle Ages, P. 294.

(٣) يقصد السلطان خليل .

(٤) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٦٦ . أنظر أيضا .
Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe) . 486.

(٥) النهج السديد ص ٦١٥ .

(٦) السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .

أمامه بأنه هو قاتل السلطان . وقد عبر بكتاش عن سخطه بهذه العبارة التى نستدل منها على مبلغ الفوضى التى وصلت إليها مصر إذ ذاك وعدم اعتبار المبدأ الوراثى أساساً للوصول إلى عرش السلطنة : «إيش هذه الأفعال القبيحة . تريدوا كل يوم تقيموا لكم سلطان جديد ، ابعد عنى ، لا صح الله لكم بدن ، ابعد عنى . ولا تلتصق بى »[1] . وكانت هذه الكلمات كالسهام صوبت إلى صدر طغجى فتأكد من مصيره فى الحال . أما كرجى فانه لما علم أثناء مقامه بالقلعة بمقتل طغجى ، حاول الهرب ولكنه قتل[2] .

بعد قتل كل من طغجى وكرجى اتفق عدد من الأمراء هم : حسام الدين لاجين ، وعز الدين أيبك الخازندار ، وسيف الدين سلار ، وسيف الدين كرت ، وجمال الدين عبد الله ، وركن الدين الجاشنكير ، وجمال الدين الأقوش الأفرم[3] ، وسيف الدين بكتمر[4] أن يقوموا بتدبير أمور الدولة وصاروا يجلسون معاً ويكتب كل منهم علامته على الكتب والمراسيم ولا يصدر كتاب إلا وعليه امضاءاتهم جميعاً . وكان الأمير عز الدين أيبك الأفرم[5] يجلس فى مرتبة نائب السلطنة وبقية الأفراد عن يمينه ويساره . واستقر الحال على ذلك مدة خمسة وعشرين يوماً كانت البلاد تحكم فيها بغير سلطان حتى وصل الناصر محمد من الكرك إلى مصر وتسلم ملكه فى ٤ جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) . وكان عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة ، وبدأت بذلك سلطنته الثانية[6] .

سلطنة الناصر محمد الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ هـ = ١٢٩٨ — ١٣٠٨ م) :

استقبل الناصر أثناء عودته استقبالا حماسياً من جميع أهالى مصر وزينت له القاهرة أجمل زينة وأظهر الناس على اختلاف طبقاتهم سروراً يجلّ عن الوصف لعودة سلطانهم الحقيق

---

(١) النهج السديد ص ٦١٥ .

(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥١ ب — ٥٢ أ .

(٣) ذكر المقريزى (السلوك جـ ١ ص٨٦٩) إن عدد الأمراء الذين اتفقوا على تدبير شئون الدولة هو سبعة ، ولم يذكر من بينهم الأمير سيف الدين بكتمر .

(٤) أضاف كل من ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ٦١٧) وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٥) إلى هؤلاء الأمراء السبعة أميرا ثامنا هو سيف الدين بكتمر وذكرا « أن جميعهم منصورية قلاوونية ، وغالبهم قد خرج من السجن بعد قتل لاجين » .

(٥) كان الرأى قد استقر بين الأمراء على تعيين الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائبا للسلطنة بعد وصول الناصر محمد إلى العرش . إلا أنهم ما لبثوا أن اعرضوا عنه وأقاموا الأمير سيف الدين سلار بدلا منه .

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٧٢ — ١٧٣ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٩ .

إلى ملكه . وارتفعت أصواتهم بالدعاء لذاته بالحفظ والسلامة ولملكه بالعز والتأييد . وطالبوا بالانتقام من زين الدين كتبغا ومن أعوان حسام الدين لاجين . ومن ذلك الحين اشتد سخط الأمراء الطامحين على العامة لما أظهروه نحو الناصر محمد من الولاء والاخلاص وبدءوا يتدبرون الأمر فيما بينهم .

ولسنا نزعم أن الشعب المصرى كان يعنى كثيراً بنظام العرش أو حق الناصر فى عرش أبيه . ولكننا نفسر فرح الشعب فى مناسبة عودة الناصر بسخطه على الأمراء المماليك وما يحدثه التنافس بينهم من قلاقل واضطرابات لا ينجو الشعب من أضرارها وبأمله فى أن يتغير الحال على يد الناصر .

لما استقر الناصر على العرش عين الأمير سيف الدين سلار[1] نائباً للسلطنة والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا . غير أن هذين الأميرين عملا على التضيق على الناصر فلم يمكناه من الاتصال بشعبه أو التصرف فى أمواله ، بل عمدا الى الحجر عليه وتقرير راتب شهرى ضئيل لم يكن يكفيه للانفاق منه على ضرورات المعيشة . وكان اذا طلب زيادة راتبه لا يستمعان إليه ولا يأبهان لقوله ولا يوافقانه عليه[2] .

وفى سنة ٧٠٧ هـ شدد سلار وبيبرس الحجر على الناصر . فشكا لخاصته ضيق يده وعزم على التخلص منهما . ومن هنا تبدأ الفتنة بين الناصر من جهة وبين هذين الأميرين من جهة أخرى وينتهى الأمر بعزله وزوال سلطنته الثانية . ويهمنا فى هذا الصدد أن نتتبع باختصار تطورات هذه الفتنة ونتائجها لنرى أن حب الشعب للناصر وحكمه ، ذلك الحب الذى ظهر بأجلى معانيه أثناء هذا النضال لم يحل دون القضاء على ملكه وإن كان قد أطال قليلا فى فترة سلطنته الثانية .

وبلغ اليأس بالناصر مبلغا عظيما . فاستدعى الأمير بكتمر الجوكندار وأعلمه بما صح عليه عزمه من القبض على الأميرين سلار وبيبرس وكان لكل منهما أرصاد وعيون[3] عند السلطان يبلغونهما كل ما يقال عنهما[4] . لذلك أخذ كل من هذين الأميرين حذرهما . واجتمع الأمراء للتشاور فى موقفهم بعد ذلك بازاء السلطان وجهزوا عدداً من المماليك وأوقفوهم على باب الاسطبل السلطانى بقيادة الأمير سيف الدين سُمُك أخى سلار حتى لا يتمكن الناصر

---

(١) كان سلار من التتار العوايرتية . اشتراه الملك الصالح على بن قلاوون ثم أصبح بعد موته فى خدمة المنصور قلاوون . وكان شديد البأس صعب الخلق ، واليه ينسب السلارى من الملابس والآلات الحربية . السلوك جـ ٢ ص ٥٩ . راجع Mayer : Saracenic Heraldry, p. 196

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٥٤ .

(٣) هنا تلزم الاشارة إلى أثر العيون التى كان يبثها الأمراء لنقل ما يقوله السلطان عنهم إذ كان هؤلاء يعمدون إلى إيغار صدور الأمراء على السلطان . وقد رأينا ما كان لهم من التأثير على بيدرا حتى دبّر أمر مقتل السلطان خليل .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٠ — ١٧١ .

من الهرب من القلعة . على أثر ذلك تأهب المماليك السطانية للعمل على نجاة الناصر باخراجه فى الحال من الاصطبل وتوقعوا الحرب بينهم وبين أتباع الأميرين سلار وبيبرس فلم يوافق السلطان . واستمر حصارهم للقلعة ساعات طويلة . لذلك خاطب السلطان الأمراء وقال لهم : « ما سبب هذا الركوب على باب الاصطبل ؟ إن كان غرضكم فى الملك فما أنا متطلع إليه فخذوه وابعثونى أى موضع أردتم ! »(١) فكان ردهم على ذلك : « أن السبب هو من عند السلطان ومن المماليك الذين يحرضونه على الأمراء »(٢) . فنفى السلطان أن أحداً من المماليك يحاول تحريضه على الأمراء .

ولا يفوتنا هنا أن نلاحظ أن نظام المماليك البقاء فيه للأصلح ، والسلطنة فيه لأعظم الأمراء نفوذا وأكثرهم أتباعا . ولا ريب فى أن تسليم خونداشلون فى سلطنة الناصر الأولى بضعف ابنها وبأنه فى يد الأمراء يستطيعون خلعه إذا أرادوا ثم تسليم الناصر نفسه بمثل ذلك وعرضه أن يعطيهم الملك وأن يبعثوه إلى حيث يشاءون . كل ذلك يشهد بأن وراثة العرش لم يكن مقدراً له النجاح فى هذه الدولة وبأن أنصار محمد بن قلاوون بين المماليك لم يكونوا قوة يحسب لها حساب .

وتداخلت العامة فى هذا النزاع حين علموا أن الأمراء يريدون الغدر بالسلطان ، فتجمعوا حول قلعة الجبل ، وتحمسوا فى الذود عن ملك الناصر ، ولم ينجح سلار وبيبرس فى تشتيت جموعهم بالقوة(٣) ، فخضعا لمشيئة الشعب وتبعهما بقية الأمراء . إلا أنهم رجوا من السلطان أن يخرج من مصر مماليكه الذين كانوا سبب الفتنة (٤) . وعقب ذلك دخل الأمراء على السلطان وقبّلوا الأرض ثم قبلوا يده(٥) . وبذلك خمدت الفتنة وخرج الناصر منها منتصرا

(١) قارن هذا القول بما قالته أم الناصر محمد فى صفر سنة ٦٩٣ هـ فى عهد سلطنته الأولى حين اشتد حصار كتبغا للقلعة : « إيش قصدك حتى نفعله ، إن كان قصدك أن تخلع ابنى من السلطنة فافعل » .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٢ .

(٣) أمر سلار وبيبرس باستعمال الدبابيس فى تفرقة الجموع (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣) . والدبوس عبارة عن هراوة مدملكة الرأس .

(٤) اختلف أبو المحاسن مع ابن إياس فيمن أخرج من مصر : هل هم مماليك الناصر أم مماليك سلار وبيبرس ؟ يقول أبوالمحاسن (نفس المصدر والجزء ص ١٧٣) « وبعث الأمراء ثانيا إلى السلطان بأنهم مماليكه وفى طاعته ولا بد من إخراج الشباب الذين يرمون الفتنة بين السلطان والأمراء . فامتنع السلطان من ذلك واشتد . فما زال به بيبرس الدوادار وبرلغى حتى أخرج منهم جماعة . . . وقصد سلار أن يقيدهم فلم توافق الأمراء على ذلك رعاية لخاطر السلطان فأخرجوا إلى القدس من وقتهم على البريد » . أما ابن إياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٧) فيقول : « فى سنة ٧٠٧ هـ وقع نزاع بين السلطان والأمير سلار نائب السلطنة وثارت بينهما الفتنة وكثر القيل والقال . . . ثم أنه فى يوم الاثنين عمل السلطان الموكب وقبض على جماعة من الخاصكية الذين هم من عصبة الأمير سلار . . . فرسم لهم السلطان بأن يتوجهوا إلى القدس . فعز ذلك على الأمير سلار » . ويظهر لنا أن رواية أبى المحاسن أقرب إلى الصحة .

(٥) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وكان الفضل فى خضوع الأمراء للناصر هذه المرة للشعب ، وهو عامل ظهر أثره بوضوح فى ذلك العهد ، مما سنبينه عند كلامنا على علاقة الناصر بشعبه .

إلا أن اخماد الفتنة التى تأججت نيرانها بين السلطان والأمراء لم يكن إلا كالهدوء الذى يسبق العاصفة ، فإن قلوب كل من الطرفين كانت قد تغيرت وأصبح إحلال الصفاء والوئام بينهما مستحيلا . ولكن الفتنة وإن كانت قد خمدت ظاهريا ، فانها لم تؤد إلى زوال ما يشكو منه الناصر من « استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالأمور وتجاوز الحد فى الانفراد بالأموال والأمر والنهى »[١] . و « عدم تصرفه فى الدولة من كل ما يريد حتى إنه لا يصل إلى ما تشتهى نفسه من المآكل لقلة المرتب »[٢] و « حتى أنه طلب خروفا رميساً بدرياً[٣] فمنع من ذلك »[٤] .

لم يجد الناصر بازاء تحكم سلار وبيبرس الجاشنكير فى أمور الدولة وأمام هذا الاضطراب القائم فى مصر بدا من الرحيل عنها مختاراً قبل أن يضطره أعداؤه إلى مغادرتها بل ربما تمنى ذلك فلم يتمكن منه وقضى عليه . فتظاهر بالسفر للحج وغادر مصر[٥] .

سار الناصر إلى الكرك فوصل إليها فى ١٠ شوال سنة ٧٠٨ ﻫ (١٣٠٨ م) بمن معه من الأمراء والمماليك . وعندما استقر بها أبلغ الأمراء أنه قد عدل عن الحج واختار الاقامة بالكرك كما كان أولا حين أخرجه إليها السلطان لاجين (٦٩٦ ﻫ) وترك السلطنة . واستدعى القاضى علاء الدين علىّ بن أحمد بن سعيد بن الأثير ، وكان قد توجه معه وأمر أن يكتب للامراء يعرفهم ما استقر عليه رأيه من ترك السلطنة واقامته بالكرك[٦] . ثم أعطى الناصر الكتاب للامراء وأمرهم بالعودة إلى الديار المصرية . وهاك نص الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

حرس الله تعالى نعمة الجنابين العاليين الكبيرين الغازيين المجاهدين وفقهما الله تعالى توفيق

---

(١) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ص ٥٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٥ .

(٣) الرميس : هو ولد الضأن الصغير . والبدرى : أكبر من الرميس بقليل وسنه حوالى السنة .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٩ .

(٥) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٦٧ — ٦٦٩ .

Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٥٣ — ٥٤ .

(٦) يظهر أن الناصر محمد كان يفضل الإقامة بالكرك فى كل مرة يرحل فيها عن مصر : لأنها من أملاكه ، ولأنها مكان حصين يجد فيه الراحة والهدوء كما يفهم من كتابه إلى مماليكه بمصر ، ثم انه يستطيع أن يعتزل فيه ويعتصم من شر نائب السلطنة .

العارفين . أما بعد فقد طلعت إلى الكرك[١] وهى من بعض قلاعى وملكى ، وقد عولت على الاقامة فيها . فان كنتم مماليكى ومماليك أبى فأطيعوا نائبى[٢] ولا تخالفوه فى أمر من الأمور ولا تعملوا شيئا حتى تشاورونى . فأنا ما أريد لكم إلا الخير وما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أروح لى وأقل كلفة وان كنتم تسمعون منى فأنا متوكل على الله والسلام » (٣) .

تشاور الأمراء بعد وصول كتاب الناصر إليهم . فاستقر رأيهم على أن يبعثوا اليه بكتاب يدعونه فيه إلى الحضور إلى مصر هو ومماليكه وإلا خلعوه من العرش وحرموه الاقامة فى الكرك . وها هو نص هذا الكتاب :

« ما علمنا ما عولت عليه وطلوعك إلى قلعة الكرك وإخراج أهلها[٤] . وتشييعك نائبها[٥] . وهذا أمل بعيد تخل عنك شغل الصبى وقم واحضر الينا وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك وتندم ولا ينفعك الندم فياليت لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك وما عولت عليه[٦] . غير أن لكل ملك انصرام ولانقضاء الدولة أحكام ولحلول الأقدار سهام . ولأجل

---

(١) لما وصل سلار وبيبرس الى مسألة « طلوع السلطان إلى قلعة الكرك » كما ورد فى كتابه إليهما سألا الأمير جمال الدين الأقوش الأفرم نائب الكرك ورسول الناصر إليهما : من أمرك بتمكين السلطان من الطلوع إلى القلعة ؟ فقال : كتابكم وصل الى يأمرنى أن أنزل إليه وأطلعه إلى القلعة . فقالا : وأين الكتاب ؟ فأخرجه . فقالا هذا غير الكتاب الذى كتبناه فاطلبوا الطنبغا فطلبوه فوجدوه قد هرب عند السلطان فسكتوا (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٩) . ويظهر لنا من هذه الرواية أن الناصر لم يكن ليتمكن من الوصول إلى الكرك لولا أنه أظهر أنه يريد الحج ثم دبر أمر دخوله الكرك بالكتاب الذى لم يعلم أمره إلا حين وصل نائب الكرك نفسه إلى مصر .

(٢) يقصد سلار نائب السلطنة فى مصر .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٧٩ .

(٤) روى أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ١٧٨) حادثة إخراج الناصر لأهل الكرك على النحو الآتى وهى حادثة لا تخلو من طرافة . قال : « بعد ثلاثة أيام [من وصول الناصر إلى الكرك] نادى السلطان [الناصر] بالقلعة والكرك : لا يبقى هنا أحد لا كبير ولا صغير حتى يخرج فيجيب ثلاثة أحجار من خارج البلد ، فخرج كل من بالقلعة والبلد . ثم أن السلطان أغلق باب الكرك ورجعت الناس ومعهم الأحجار فرأوا الباب مغلقا فقيل لهم : كل من له أولاد أو حريم يخرج إليه فخرج الناس بمتاعهم وأولادهم وأموالهم وما أمسى المساء وبقى فى الكرك أحد من أهلها غيره ومماليكه » . ثم علل أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ١٧٩) الدافع الذى جعل الناصر يفكر فى إخراج الأهالى من الكرك فقال : « أما إخراج السلطان أهل قلعة الكرك منها لأنه قال : أنا أعلم كيف باعوا الملك السعيد بركة خان ابن الملك الظاهر بيبرس بالمال لطرنطاى فلا يجاورونى » .

(٥) يقصد الأمراء بقولهم : « تشييعك نائبها » ما قام به الناصر من صرف الأمير جمال الدين أقوش عن نيابة الكرك عقب وصوله إليها .

(٦) المقصود من هذه العبارة غامض : فاما أنهم يقصدون أنهم كانوا — إذا علموا ما اعتزمه — يمنعونه من الرحيل من مصر والتضييق عليه أو يحولون بينه وبين الوصول إلى الكرك أو يعملون على الغدر به .

هذا أمرك غيك بالتطويل وحسّن لك زخرف الأقاويل ، فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب يكون حضورك بنفسك ومعك مماليكك والا تعلم انا ما نخليك فى الكرك ولو كثر شاكروك⁽¹⁾ ويخرج الملك من يدك والسلام » ⁽²⁾ .

فلما قرأ الناصر هذا الكتاب قال : « لا إله إلا الله كيف أظهروا ما فى صدورهم » . ثم أعطى علم الدين سنجر البروانى رسول الأمراء اليه كل ما كان قد أخذه من مصر من الأموال والهجن والأدوات وقال له : « قل لسلار : ما أخذت منكم شيئا من بيت المال ، وهذا الذى أخذته قد سيرته إليكم ، وانظروا فى حالكم ، فأنا ما بقيت أعمل سلطانا وأنتم على هذه الصورة . فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلا عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره » ⁽³⁾. وهذا الكتاب الذى بعث به الناصر إلى أمراء مصر يدلنا دلالة واضحة على حالة الضعف التى سادت مصر إذ ذاك ومبلغ الظلم الذى أصابها وسوء نظام الحكم فيها .

لما تسلم سلار وبيبرس كتاب الناصر محمد اليهما قالا : ولو كان هذا الصبى يجىء ما بقى يفلح ولا يصلح للسلطنة وأى وقت عاد لا نأمن غدره »⁽⁴⁾. وعقب ذلك تشاور سلار وبيبرس مع الامراء . فرأى الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار ⁽⁵⁾ الكتابة إلى الناصر ورجائه فى العودة إلى ملكه . فلم يقبلا منه هذا الرأى لأنه « متى حصل التردد والمراجعة والتقليد والمفاوضة نخشى من اضطراب الأمور وعبث الجمهور ونفاق العربان وثورة أهل العصيان⁽⁶⁾». فاستقر رأى الأمراء على أن يعهدوا بالملك إلى الأمير سلار نائب السلطنة . على أن هذا خشى سوء العاقبة وخاف أن يحلّ به ما حل بكل من كتبغا ولاچين . فاعتذر عن قبول السلطنة⁽⁷⁾.

وقد أوضح أبو المحاسن الظروف التى دعت سلار إلى الامتناع عن السلطنة فقال: « وأعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء [بعد خروج الناصر إلى الكرك] فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلار ، فقال سلار : نعم ! على شرط كل ما أشير به لا تخالفوه . وأحضر المصحف وحلفهم على موافقته وألا يخالفوه فى شىء . فقلق البرجية من ذلك ولم يبق إلا إقامتهم الفتنة فكفهم الله عن ذلك وانقضى الحلف . فعند ذلك قال الأمير سلار : والله يا أمراء أنا ما أصلح للملك ولا يصلح له إلا أخى هذا — وأشار إلى بيبرس الجاشنكير — ونهض قائماً إليه فتسارع البرجية بأجمعهم : صدق الأمير سلار وأخذوا بيد الأمير بيبرس

---

(١) يقصدون حب الشعب له .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٠ .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ١٨١ .

(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٨١ .

(٥) صاحب مخطوط « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » .

(٦) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٧ .

(٧) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٤ .

وأقاموه كرها وصاحوا بالجاويشية فصرخوا باسمه »(١) .

بذلك وقع اختيار الأمراء على الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وبويع له بعد أن عرض كتاب السلطان الناصر محمد — الذى يقول فيه إنه خلع نفسه من الملك — على قضاة مصر . فاستقر على العرش فى ٢٣ شوال سنة ٧٠٨ ﻫ (١٣٠٨ م) ولقب بالمظفر (٧٠٨ — ٧٠٩ ﻫ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) وعين الأمير سلار نائبا له(٢) . وباقامة بيبرس الجاشنكير(٣) — المعروف فى تاريخ دولة المماليك باسم بيبرس الثانى — سلطاناً على مصر تنتهى سلطنة الناصر الثانية التى استمرت نحو عشر سنين ونصف سنة ، ويظهر الاغتصاب الثانى أثناء عصر الناصر .

الاغتصاب الثانى فى عصر الناصر محمد: السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ ﻫ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م).

على أثر جلوس بيبرس الجاشنكير على عرش مصر كتب إلى الناصر تقليدا بمنحة الكرك ظناً منه بأنه قد يكتفى بهذه المنحة ولا يفكر فى العودة إلى ملكه ، ويكون مصيره كمصير كتبغا بعد أن منحه لاجين ولاية صرخد .

ولكن الظروف التى أحاطت بكتبغا تختلف كل الاختلاف عن ظروف الناصر بعد رحيله الى الكرك : فان أمراء الشام لم يلتفوا حول كتبغا لتعضيده فى رجوعه إلى عرشه ، بل سرعان ما انفضوا من حوله حين اتصل بهم خبر اعتلاء لاجين العرش . كذلك أمراء مصر وأهلها لم يهتموا باعادة كتبغا لأنه كان قد أساء معاملتهم من جهة ولأن كلا من كتبغا ولاجين كانا فى نظرهم مغتصبين للعرش ولا فارق بين هذا وذاك لتكون له أفضلية للسلطنة . أما الناصر فان

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ﺟ ٨ ص ٢٣٤ . واستطرد أبو المحاسن فى الكلام (نفس الجزء ص ٢٣٥) فبين لنا ما كان ينويه البرجية — الذين كان ينتمى إليهم بيبرس الجاشنكير — إذا استمر سلار فى السلطنة فقال : « وبات البرجية فى قلق خوفا من ولاية سلار ، وسعى بعضهم الى بعض وكانوا أكثر جمعا من أصحاب سلار وأعدوا السلاح وتأهبوا للحرب . فبلغ ذلك سلار فخشى سوء العاقبة واستدعى الأمراء وإخوته وحفدته ومن ينتمى إليه وقرر معهم سرا موافقته على ما يشير به . . . ووقع ما حكيناه من عدم قبوله السلطنة وقبول بيبرس الجاشنكير هذا » .

(٢) كما رفض سلار العرش ، رفض كذلك فى بادىء الأمر نيابة السلطنة عند ما عرضها عليه السلطان بيبرس الجاشنكير . يقول أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٢٣٥) : « وخلع على الأمير سلار خلعة النيابة على عادته بعد ما استعفى وطلب أن يكون من جملة الأمراء وألح فى ذلك حتى قال له الملك المظفر بيبرس : إن لم تكن أنت نائبا ، فلا أعمل أنا السلطنة أبدا . فقامت الأمراء على سلار إلى أن قبل » .

(٣) ينتمى بيبرس هذا إلى طائفة المماليك البرجية الذين جاء بهم قلاوون من القوقاز وأسكنهم أبراج قلعة الجبل . وظل يترقى فى حياة أستاذه قلاوون حتى صار من كبار الأمراء فى عهد ابنه خليل ، أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٢ .

كبار أمراء الشام ومصر والشعب المصرى ، كل أولئك وقفوا فى صفه ضد بيبرس الجاشنكير تأييداً لبيت قلاوون وفرارا من الفوضى ودسائس الأمراء والمنافسات بينهم .

وتفصيل ذلك كله أنه لما وصلت الأخبار بسلطنة الجاشنكير امتنع الأمير بيبرس العلائى والأمير بهادُر آص والأمير آقجبا الظاهرى والأمير بكتمر الحاجب أولا عن الحلف لبيبرس الجاشنكير . ولكن الأفرم نائب دمشق استدعاهم وقال لهم : «اعلموا أن هذا أمر انقضى ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال . وأنتم تعلمون أن كل من يجلس على كرسى مصر كان هو السلطان ولو كان عبداً حبشياً[١] . فما أنتم بأعظم من أمراء مصر ، وربما يبلغ هذا اليه فينفر قلبه عليكم»[٢]. ولم يزل يتلاطف بهم حتى حلفوا له . ولم يكن كلام الأفرم لهؤلاء سوى وسيلة لتبرير اغتصاب عرش الناصر الوراثى . ولو أن ما قاله كان قاعدة مطردة لنظام الحكم فى عصر المماليك لما سهل أمر تغيير السلطان ولما ظهر الاغتصاب بين حين وآخر . وهذه العبارة التى جاءت على لسان الأفرم لهؤلاء الأمراء تدلنا على أنهم قد حلفوا بعد أن جاهد الأفرم فى سبيل ذلك ، وأنه استعمل للوصول إلى غرضه كثيرا من طرق الوعد والوعيد والتمنى والتهديد .

أما قراسنقر نائب حلب ، وقبجق نائب حماه ، وأسندمر نائب طرابلس — وهم كبار أمراء الشام — فلم ينجح معهم الأفرم كما نجح مع الأمراء الأربعة السابقين . ومن أقوالهم للرسولين الذين أوفدهما اليهم نتبين أنهم كانوا ثابتين على ولائهم لبيت قلاوون ، لا يرضون عن ابنه الناصر بديلا مما أقض مضجع بيبرس ونغص عليه حياته وجعله يعتقد أن عرشه قريب الزوال .

ذلك أنه لما وصل الرسولان إلى قبجق بحماه قال لهما — بعد أن قرأ كتاب الأفرم إليه — «أين كتاب الملك الناصر ؟»[٣] فسلماه إليه . فلما قرأه قال : من قال إن هذا خط الملك الناصر ؟[٤] . والله واحد يكون وكيلا فى قرية ما يعزل نفسه منها بطيبة خاطره»[٥]. وقال اسندمر نائب حلب للرسولين عند ما دخلا عليه : «يا إخواتى ! أنا على ايمان ابن أستاذنا[٦]

---

(١) يذكر ذلك بما حدث عقب انتهاء عهد الخلفاء الراشدين وقيام خلفاء لم يحكموا بالشرع أو رضاء الأمة ووجدوا مع ذلك من يبرر استمرار هذه الحالة بذكر أحاديث نسبوها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، تحض الناس على طاعة الخليفة والخضوع لحكمه مهما كان . ومن بين هذه الأحاديث : « أطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى » .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٦ .

(٣) يقصد الكتاب الذى أرسله إلى سلار وبيبرس بنزوله عن الملك .

(٤) لم يكن الكتاب الذى بعثه الناصر إلى أمراء مصر بخطه بل كان بخط القاضى علاء الدين على ابن أحمد بن سعيد بن الأثير بأمر الناصر . لذلك عرف الأمير قبجق من أول وهلة أن خط الكتاب ليس خط الناصر .

(٥) يقصد أن الناصر لا بد أن يكون قد أكره على نزوله عن العرش على نحو ما كان متبعاً إذ ذاك وإن ذلك لم يتم برضاه .

(٦) يقصد الناصر محمد ابن أستاذه قلاوون .

لا نخونه ولا نحلف لغيره ونواطيء عليه ولا نفسد ملكه فكيف نحلف لغيره ! والله لا يكون هذا أبدا ودعوا يجرى ما يجرى » . وقال لهما اسندمر نائب طرابلس مثل هذا الكلام[١]. فلما وصل الرسولان إلى مصر ، وأبلغا السلطان بيبرس الجاشنكير ما كان من أمر هؤلاء النواب استشاط غضبا وازداد حنقا .

ولم يقف تأييد هؤلاء الأمراء الثلاثة للناصر عند حد عدم تأييدهم سلطنة بيبرس بل أنهم تقدموا خطوة أخرى واجتمعوا مع بعضهم فى حلب . واستقر الرأى بينهم على مكاتبة الناصر يستأذنونه فى القدوم عليه بالكرك « وحينئذ نركب معه فاما أن نأخذ له الملك وإما أن نموت على خيولنا » . وسار محمد بن قراسنقر بكتبهم التى تتضمن لوم الناصر على نزوله عن الملك دون مشاورتهم وسؤاله عن كيفية وقوع الحادث ووعده بإعادة ملكه إليه عما قريب ، وأنهم لم يؤيدوا تولية بيبرس عرش مصر . فلما وصل ابن قراسنقر إلى الكرك سلم الناصر الكتب فقرأها[٢] ورد عليها بخطاب جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ! حرس الله تعالى المقر العالى الأبوى الشمسى ، ومتعنا بطول حياته . فقد علمنا ما أشار به وما عول عليه ، وقد علمنا قديماً وحديثاً أنه لم يزل على هذه الصورة . وأريد منك أنك تطوّل روحك علىّ ، فهذا الأمر ما ينال بالعجلة لأنك قد علمت انتظام أمراء مصر والشام فى سلك واحد ، ولا سيما الأفرم ومن معه من الشام ، فهذه عقدة لا تنحل إلا بالصبر ، وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له ، فقدّم النية انك مجبور ومغصوب واحلف . ولا تقطع كتبك عنى فى كل وقت ، وعرفنى بجميع ما يجرى من الأمور قليلها وكثيرها[٣] » .

وقد دل هذا الكتاب على بعد نظر الناصر : فهو من جهة يرغب فى انتهاز الفرصة لاعادة عرشه ، ولكنه من جهة أخرى يرى أن الوقت الذى وصل فيه كتابهم غير ملائم للقيام بحركة معادية لبيبرس ، إذ لم تكن قد مضت على توليه حكم مصر غير فترة يسيرة . ولذلك أوصاهم « بالصبر » حتى تتحرج أمامه الأمور وتتعقد المسائل وتكثر المشاكل ويظهر بوضوح استياء الطبقات الساخطة وحينئذ يسهل القضاء عليه .

وكان المظفر حين اتصل بمسامعه نبأ اتفاق قراسنقر مع كل من قبجق واسندمر عليه ارسل تقليداً بنيابة حلب لقراسنقر رغبة منه فى ضمه إلى جانبه والعمل على تأييده وذلك

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٣٨ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤١ .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

عملا بمشورة سلار [١] فقال :

« من المظفر إلى قراسنقر !

انت خشداشى ولو علمت ان هذا الأمر يصعب عليك ما عملت شيئاً حتى ارسلت إليك واعلمتك به لأن ما فى المنصورية أحداً كبر منك . غير أنه لما نزل ابن استاذنا عن الملك اجتمع الأمراء والقضاة وكافة الناس وقالوا : ما لنا سلطان وأنت تعلم أن البلاد لا تكون بلا سلطان ، فلو لم أتقدم أنا كان غيرى يتقدم وقد وقع ذلك ! فاجعلنى واحداً منكم [٢] ودبرنى برأيك . وهذه حلب وبلادها دَربست [٣] لك ، وكذا لخشداشيتك : الأمير قبجق والأمير اسندمر » [٤] .

ومن هذا نتبين مدى ما ذهب إليـــه السلطان بيبرس لاسترضاء الأمراء واستجلاب ولائهم، حفظاً لكيان عرشه مما يدل على أن سلاطين المماليك كانوا يسعون لجلب رضاء الأمراء وأن من لم يفز منهم بذلك الرضا كان مصيره العزل أو القتل إن لم يكن منيع الجانب وافر الأتباع . وبعد وصول هذا التقليد حلف [٥] كل من قراسنقر وقبجق واسندمر للملك المظفر ، وسر السلطان غاية السرور وقال : « الآن تم لى الملك » [٦].

لم يكف حلف أمراء الشام لبيبرس . والظاهر أن حلفهم له كان على الطريقة التى دلهم عليها الناصر فى كتابه إليهم ، بدليل ما قاموا به من المساعدات الجليلة للناصر فى سبيل إعادته إلى

---

(١) لما وصلت الرسل إلى مصر وأبلغت بيبرس الجاشنكير رفض قراسنقر وقبجق واسندمر تأييده « ضاق صدر المظفر وأرسل خلف الأمير سلار النائب وقص عليه القصة . فقال له سلار : هذا أمر هين ونقدر أن نصلح هؤلاء . فقال : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : تكتب إلى قراسنقر كتابا وترقق له فى الكلام وأرسل إليه تقليدا بنيابة حلب وبلادها وأنه لا يحمل منه الدرهم الفرد . وكذا لقبجق بحماه ولا سندمر بطرابلس والسواحل . فقال بيبرس : إذا فرقت البلاد عليهم ما يساوى ملكى شيئا ! فقال له سلار : وكم من يد تقبل وهى تستحق القطع ! فاسمع منى وارضهم فى هـذا الوقت . فاذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت . فمال المظفر إلى كلامه ». أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) هذه العبارة يقولها السلاطين للأمراء عادة فى بدء توليتهم حتى يحصلوا على تأييدهم ويضمنوا عدم معارضتهم . قارن قول بيبرس الجاشنكير هنا : « فاجعلنى واحدا منكم ودبرنى برأيك » بما قاله لاچين للأمراء عقب فرار كتبغا : « أنا واحد منكم ولا أخير نفسى عنكم » .

(٣) التخوم والحدود .

(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٤٢ .

(٥) ينبغى أن نذكر فيما يختص بحلف هؤلاء الأمراء لسلطنة بيبرس ما قاله الناصر لهم فى خطابه إليهم : « وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له فقدم النية أنك مجبور ومغصوب واحلف » .

(٦) نستدل من هذه العبارة التى أوردها أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٢٤٢) على عظم الأهمية التى كان يعلقها بيبرس على ضمان ولاء هؤلاء الأمراء له .

عرشه . كان بعض أمراء مصر وكثيراً من أهلها كانوا يكاتبون الملك الناصر طوال مدة إقامته بالكرك ثم رحل جماعة من المماليك الناصرية من مصر إلى الكرك تاركين أولادهم وبيوتهم [١] . فلما اتصل بعلم بيبرس أن الناصر يتصل بأمراء الشام ومصر أرسل إليه كتاباً يهدده فيه ويتوعده إذا لم يكف عن الاتصال بالأمراء « وإلا جرى عليك ما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم إلى القسطنطينية [٢] » .

فلما تسلم الناصر هذه الرساله اشتد غضبه وصمم على أن يبدأ دور العمل الجدى الذى أرجأ تنفيذ القيام به كما ورد فى مكاتباته إلى نواب حلب وطرابلس وحماة . وأول ما بدأ به أن أرسل إلى هؤلاء النواب كتاباً جاء فيه :

« لما اشتد علىّ الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر وتركت لهم الملك ورضيت من الدنيا بأحقر الاماكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من النكد . فما تراجعوا عنى وأرسل المظفر يهددنى بالنفى إلى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس ، وأرسل يطلب منى ما لا أقدر عليه ، وأنتم تعلمون ما لوالدى الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال . فإما أن تكفوا عنى أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون علىّ وإما انى أتوجه إلى بعض بلاد التتار وألتجىء إليهم قبل ما يرسلنى الملك المظفر إلى الكفار » [٣].

وقد دل ما جاء بهذا الكتاب على منتهى الحكمة والتعقل وعلى أن الناصر كان يعرف كيف يختار الوقت المناسب للعمل . فهو فى رسالته الأولى إليهم — رداً على كتبهم التى ارسلوها إليه — لم ير الفرصة ملائمة للتحرك ضد بيبرس . أما الآن فانه رأى نفسه أمام تهديد صريح من بيبرس ، ليس فقط بالقضاء على ملكه بصفة نهائية بل بطرده خارج الكرك . وكأن المظفر بيبرس أراد أن يوضح للناصر أن تقرير نفيه وتنفيذ ذلك ليس من الصعوبة فى شىء ، فان قلاوون أبا الناصر قد سبقه إلى ذلك حين اتخذ مثل هذه الخطوة إزاء ابنى الظاهر بيبرس : بركة خان وسلامش .

وقد أثرت رسالة الناصر فى نواب الشام الموالين له أيما تأثير وكأنهم كانوا رهن اشارة منه كى يقوموا لمعاضدته وتأييده وأعادته إلى ملكه . فقد ردوا عليه — على أثر وصول رسالته إليهم — أنهم « طوع يده ومماليك أبيه متى أراد أن يتحرك للتوجه إلى الديار المصرية » [٤] .
وبدأ الناصر منذ ذلك الحين يعد العدة للرحيل إلى مصر . واتصل بمسامع أهلها خبر تأهب

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥٠ .
(٢) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ .
(٣) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥١ .
Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٠ — ١٤١ .
(٤) Zetterstéen : نفس المصدر ص ١٤١ .

الناصر للرحيل إليها فعبروا عن سرورهم واغتباطهم باقامة المظاهرات فى وجه بيبرس الجاشنكير وحاصروه فى القلعة . واشتد الحال على بيبرس حين علم أن اسم الناصر محمد قد ذكر فى خطبة الجمعة على منابر دمشق .

وكان من المعقول بعد ذلك أن ينزل بيبرس الجاشنكير عن العرش . غير أنه لم يرض بهذه الخاتمة بل حاول أن ينقذ موقفه بخطوة جريئة فى سبيل تأييد ملكه . وقد ظن أنها خطوة موفقة ولكنها لم تؤد إلا إلى عكس ما كان يرجوه . وذلك أنه عمد فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) إلى تجديد البيعة وأخــذ العهود والمواثيق على الأمراء والحكام بمعونة الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان . وفيها حث الناس على طاعة بيبرس وتأييد ملكه . ويقول صاحب تاريخ سلاطين المماليك : « فاجتمع الأمراء والناس بالقصر ، وأحضروا القضاة وجددوا الايمان للملك المظفر بيبرس الجاشنكير وأنهم باقون على طاعته ونادوا فى البلد : سلطانكم الملك المظفر وطيبوا قلوبكم ومن تكلم فيما لا يعنيه قتل » [١] . وهاك نص هـذا العهد الذى منحه الخليفة للملك المظفر بيبرس الجاشنكير ننقله عن أبى المحاسن :

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم وانى رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الله بيبرس نائبا عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشامية ، وأقمته مقام نفسى لدينه وكفايته وأهليته ورضيته للمؤمنين وعزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك . ورأيت ذلك متعينا على وحكمت بذلك الحكام الأربعة . واعلموا رحمكم الله أن الملك مقيم وليس بالوارثة لأحد خالف عن سالف ولا كابر عن كابر . وقد استخرت الله تعالى ووليت عليكم الملك المظفر فمن أطاعه فقد أطاعنى ومن عصاه فقد عصانى ، ومن عصانى فقد عصى ابا القاسم ابن عمى صلى الله عليه وسلم . وبلغنى أن الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شق العصا على المسلمين وفرق كلمتهم وأطمع عدوهم فيهم ، وعرّض البلاد الشامية والمصرية إلى سبى الحريم والأولاد وسفك الدماء . فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمر على ذلك . . . . » [٢]

وأمر الخطباء بقراءة هذا العهد بالمساجد يوم الجمعة فرفض العامة الاستماع اليه . وبطلت قراءة الخطبة [٣] . لذلك فانه فى ١٦ رمضان سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) لم يجد الأمير سلار نائب السلطنة بدا من اطلاع السلطان بيبرس على حقيقة الحال لكى يتبصر فى أمره ويتخذ سبيل الحيطة . فقال له : « يامولانا السلطان ! إن غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٣ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ القسم الأول ص ١٥٢ .

القاهرة وتوجهوا إلى الملك الناصر بالكرك وقد وقع الاختيار على عوده . ومن الرأى أن ترسل إلى الملك الناصر لتسأله فى مكان تتوجه إليه أنت وعيالك[١]. فلعله أن يجيبك الى ذلك ، وان لم تبادر إلى هذا وإلا دهمتك العساكر وهجموا علينا وأنت هنا »[٢] . فاستمع بيبرس لنصح سلار وكتب إلى الناصر يستعطفه أن يمنحه الإقامة فى الكرك او صهيون أو حماة . وعلى أثر ذلك اعلن انه خلع نفسه من السلطنة بحضور قضاة مصر الأربعة بعد ان استولى على ما فى خزائن مصر من الأموال وفر هارباً ومعه مماليكه ، واتصل خبر هربه بالعامة[٣]، فأدركوه وهو خارج من القلعة وتبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة »[٤] . وعقب ذلك خطب باسم الملك الناصر على منابر مصر . كل ذلك قبل أن يتحرك الناصر من منفاه بالكرك الى مصر [٥] .

سلطنة الناصر الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) :

سار السلطان الناصر بمن معه من الأمراء والمماليك من الكرك فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م) ووصل الى قلعة الجبل وصعد إليها واستقر على سرير ملكه فى ٢ شوال سنة ٧٠٩ هـ وبدأت بذلك سلطنته الثالثه . ويعتبر المؤرخ أبو الفداء شاهد عيان لرحلة الناصر محمد من الكرك حتى وصل إلى القاهرة إذ أنه رافق الناصر فى رحلته حتى دخل القاهرة ولم يعد إلى

---

(١) يظهر أن سؤال السلطان الجديد مكانا يقيم فيه السلطان المعزول قد صار عادة لدى سلاطين المماليك ، وذلك على الأخص منذ أيام العادل كتبغا .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٥٢ .

(٣) من أظهر الأدلة على شدة كره العامة للسلطان بيبرس الجاشنكير ما رواه ابن إياس (نفس المصدر والجزء ص ١٤٩)من أن النيل لما توقف فى عهده عن الزيادة سنة ٧٠٩ هـ كان العامة يتغنون بما يأتى : سلطانتا ركين ونائبو دقين. يجبنا الماء من أين

هاتوا لنا الأعرج يجىء الماء يدحرج

والمقصود من ركين : ركن الدين بيبرس الجاشنكير . ومن دقين : الأمير سلار ، لأن لحيته كان عليها بعض الشعر . ومن الأعرج : الناصر محمد فقد كان به بعض العرج .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ القسم الأول ص١٦٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٨ ص٢٧١.

(٥) من الأبيات التى نظمها شهاب الدين أحمد بن عبد الدايم الشارمساحى يتضح لنا بأجلى بيان مبلغ كره العامة لسلطنة بيبرس الجاشنكير :

ولى المظفر لما فاته الظفر ... وناصر الحق وافى وهو منتصر

وقد طوى الله من بين الورى فتنا ... كادت على عصبة الاسلام تنتشر

فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه ... أثواب عارية فى طولها قصر

لما تولى تولى الخير عن أمم ... لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا

وكيف تمشى به الأموال فى زمن ... لا النيل أوفى ولا وافاهم مطر

(السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٦) .

الشام الا بعد أن جلس على العرش[١] . يقول هذا المؤرخ يصف رحلة الناصر إلى مصر :
«سار السلطان بمن معه من الكرك فى جمادى الآخرة من هذه السنة [٧٠٩هـ] ... ولما تحقق صدق طاعة العسكر الشامية له وبقاؤهم على طاعته ومحبته [٢] عاود المسير إلى دمشق ، وخرجت عساكر دمشق إلى طاعته وتلقوه ... ووصل إلى دمشق[٣] ... ووصل قبجق واسندمر ومن معهما من العساكر إلى خدمة السلطان بدمشق ... ثم وصل قراسنقر إلى دمشق بعسكر حلب وكان قد وصل قبل ذلك سيف الدين بكتمر من صفد ولما تكاملت للسلطان عساكر الشام أمرهم بالتجهيز للمسير إلى ديار مصر ... وسارت العساكر فى خدمة السلطان ووصلنا إلى غزة ... ثم تتابعت الأطلاب وكان يلتقى بالسلطان فى كل يوم وهو سائر طلب بعد طلب من الأمراء والمماليك والأجناد ويقبّلون الأرض ويسيرون صحبة الركاب الشريف ... وأتم السلطان السير وهرب الجاشنكير من قلعة الجبل إلى جهة الصعيد وخرج سلار إلى طاعة السلطان ... ووصل إلى قلعة الجبل وصعد اليها[٤]» . وكان وصوله اليها إيذاناً ببدء سلطنته الثالثة .

---

(١) يقول أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦) : « وسرت أنا بمن معى من عسكر حماه ، ودخلنا حماه يوم ١٣ رجب سنة ٧٠٩ هـ» . ثم يقول (ص ٥٧) « وقدمت تقدمتى [فى دمشق] ومن جملتها مملوكى طقزتمر ، فحصل من السلطان القبول والصدقة والمواعيد الصادقة بالتصدق علىّ بحماه ، على عادة أهلى وأقاربى » . ويقول (ص ٥٨) « وتصدق على [وهو فى مصر] وطيب خاطرى بأنه لا بد من إنجاز ما وعدنى به من ملك حماه وإنما أخر ذلك لما بين يديه من المهمات والأشغال المعوقة عن ذلك . فسرنا مع قبجق من مصر متوجهين إلى الشام ووصلنا حماه فى ١٠ زى القعدة من هذه السنة » .

(٢) كان الأفرم [نائب دمشق] قد سير رسولا إلى الناصر وهو فى طريقه إلى دمشق ، بقصد تشكيكه فى إخلاص جند الشام له . وبذلك يبطل مشروع توجه الناصر إلى مصر بمعونة هؤلاء الجند . وبالفعل صدقه الناصر وتوقف عن المسير وعاد إلى الكرك . ولكنه ما لبث أن تكشف له وجه الحق وتبين أنها دسيسة دبرها الأفرم وتأكد من إخلاص جند الشام فعاود المسير إلى دمشق .

(٣) عند وصول الناصر الى دمشق هرب الأفرم نائب السلطنة بها لأنه كان ضالعا مع السلطان بيبرس الجاشنكير .

(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٦ — ٥٨ .

عقب وصول الناصر إلى قلعة الجبل أنشد الشعراء مدائحهم بين يديه ومنها يتبين مبلغ حب الشعب له وتفانيهم فى الاخلاص لملكه . قال البدر محمد البزاز المجى قصيدة يجمل فيها ما مر به الناصر من الشدائد أثناء سلطنته ويحيى عودته :

نشأت فى حجر هذا الملك مرتضعا … تدبه غير مفطوم من الصغر
وحين آل إليك الملك وامتثلت … منه المراسيم فى ورد وفى صدر
أعرضت عنه لأسباب علت بها … وخبر شهرتها يغنى عن الخبر
وعدت ثانية يقظان محترسا … وبت من كيد من يخشى على حذر
وهذه العودة الغراء ثالثة … يقضى لك الحق فى أيامك الأخر

كان أول ما فعله الناصر عقب تسلمه زمام الملك أن أمر بالقبض على بيبرس الجاشنكير ، فقبض عليه بالقرب من غزة حيث كان يحاول الهرب ومعه عدد من مماليكه ولما مثل بيبرس بين يدى السلطان الناصر عنفه على ما فعل وعدد ذنوبه[1] . ثم أمر به فقتل فى ١٥ ذى القعدة سنة ٧٠٩ هـ . ثم قضى على سلار على الرغم من أنه كان قد منحه الشوبك ولم ينس تأييده لبيبرس الجاشنكير فى الحجر عليه فى أثناء سلطنته الثانية .

***

وتعتبر سلطنة الناصر الثالثة الفترة التى حكم فيها بنفسه وتخلص من أعدائه وازداد تعلق الشعب به لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه من جميل الخصال .

حكم السلطان الناصر محمد مصر ثمان وأربعين سنة (٦٩٣ — ٧٤١ هـ = ١٢٩٣ — ١٣٤٠م) . وتعتبر هذه الفترة بحق من أزهى عصور مصر . فقد كانت القاهرة فى عهده حاضرة لامبراطورية شاسعة متحدة امتد سلطانها من بلاد برقة غرباً إلى ساحل البحر الأحمر شرقاً ومن آسيا الصغرى شمالا إلى بلاد النوبة جنوباً . ولا شك أن الناصر نجح إلى حد أبعد من أسلافه من سلاطين مصر الاسلامية فى تكوين تلك الامبراطورية . حقاً إن الفاطميين مدوا نفوذهم إلى بغداد إلا أن غرضهم الأول كان نشر المذهب الشيعى ، كما أن نفوذهم على تلك المساحة المترامية الأطراف لم يدم إلا فترة قصيرة جداً ، أما الأيوبيون فقد قسموا امبراطوريتهم إلى ممالك صغيرة متنافسة ومتفرقة الكلمة .

وبسطت امبراطورية الناصر نفوذها على بلاد اليمن والحجاز ، وخطب ودها ملوك أوربا وآسيا عن طريق إبرام المعاهدات والمصاهرة وإرسال الهدايا ، وفى ذلك يقول ابن إياس : « وخطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك ، وكاتبه سائر الملوك وهادوه وهابوه . وصار جميع عسكر مصر فى قبضته »[2] .

فارقت ملكك مختارا لفرقته	بنية العود تسليما إلى القدر
وبعد ما سرت عن مصر وساكنيها	وغبت عنها وعنهم غيبة القمر
لاموك فى كل ما دبرت من حيل	بليغة نسبوها منك بالضجر
إن غبت عن وطن كادت تغيره	للبعد عنك وحشاه يد الغير
فالشمس أحسن ما تجلى إذا بزغت	من بعد غيبتها ليلا على النظر

(العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ القسم الأول ص ١٧٠) .

(١) ذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٧٤ — ٢٧٥) إن الناصر قال لبيبرس الجاشنكير : تذكر وقد صحت على يوم كذا بسبب فلان ! ورددت شفاعتى فى حق فلان ! واستدعيت بنفقة فى يوم كذا من الخزانة فمنعتها ! وطلبت فى يوم كذا حلوى بلوز وسكر فمنعتنى ، ويلك ... » وهذه الأمور ونظائرها توضح لنا ماذا كان ينغص على الناصر أثناء سلطنته الثانية .

(٢) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣ .

وراجع ماسيأتى ذكره عند كلامنا على السياسة الخارجية .

وفى عهد الناصر محمد وقفت مصر فى وجه المغول وقضت على قوات غازان محمود ايلخان بلاد فارس ، وكان قد استولى على دمشق وعاث جنده فى بلاد الشام وفلسطين . فهزمته الجيوش المصرية هزيمة منكرة فى موقعة مرج الصفر القريبة من دمشق سنة ٧٠٢ (١٣٠٣ م) . وإن وقوف مصر فى وجه المغول الذين اجتاحوا الخلافة العباسية فى بغداد وثلوا عروش الممالك التى نازلوها فى الشرق والغرب حتى أصبحت أثراً بعد عين ، قد أكسب مصر مركزاً ممتازاً عند الأمم الشرقية والغربية التى تنافس ملوكها وأمراؤها فى التودد إلى السلطان الناصر محمد وغدت أنظار الملوك والأمراء تتجه للدفاع عنهم وصد أعدائهم . وحسب الناصر فضلا أنه نجح فى طرد بقية الصليبيين وفى مقاومة ثلاث غزوات مغولية [١] .

ويمتاز ذلك العصر بما حدث فيه من تطورات جوهرية فى نظم الحكم . وذلك بدون أن تستقر هذه النظم المملوكية استقراراً تاماً . فالواقع أن عصر الناصر رأى التمهيد لكثير من النظم التى استقرت فى دولة المماليك البرجية وإنما يرجع الفضل فى وضع أساسها إلى حكومة الناصر وتجارب الحكم فى عهده . والمعروف أن المماليك نقلوا عن العباسيين بعض الوظائف التى أخذوها من الفرس عن أبى جعفر المنصور وأخذوا بعضاً آخر من الفاطميين والأيوبيين . ولكن على الرغم من ذلك فان المماليك طبعوا بلاطهم بطابع خاص لم يكن موجوداً من قبل ، فزادوا فى عدد الوظائف واختصاص شاغليها وأحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والأبهة والجلال وأرضوا بذلك كثيراً من الرغبات المتطلعة إلى الوظائف والمراكز المختلفة فى الدولة وأضعفوا من حدة الأحقاد والمنافسات التى كانت تغلى مراجلها فى صدور الأمراء .

وبلغ النظام الادارى فى عصر الناصر مبلغاً عظيما من الدقة ، والتنسيق ، على الرغم من تعقده وتشعب أطرافه . وكان طبيعياً أن ترتفع قيمة بعض الوظائف وتنحط قيمة البعض الآخر ، كل بحسب قيمة الأمير الذى يتولى المنصب . كذلك نظمت دواوين الحكومة فى ذلك العصر . وأحدث الناصر تطوراً جوهرياً فى النظام الادارى حين ألغى منصبي نائب السلطنة والوزير واستحدث وظيفة ناظر الخاص سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٦ م) .

أما موارد الدولة المالية فقد عنى الناصر بتوسيع نطاقها وجباها من نواح عدة حتى يستطيع تنفيذ المشروعات الهامة النافعة لجميع مرافق البلاد وما تتطلبه من ضروب الاصلاح [٢] .

وصفوة القول إن الناصر حكم مدة طويلة وأتيح له أن يتولى العرش فى فترة لم تكن فيها نظم الحكم المملوكية قد استقرت بعد . فكان عصر الناصر بداية الاستقرار الذى تم على يد هذا العاهل الكبير وعلى يد من خلفوه من سلاطين المماليك البرجية .

---

(١) اقرأ ذلك مفصلا فى باب السياسة الخارجية .

(٢) اقرأ كل مايتعلق بنظم الحكم فى الأبواب التى أفردناها لذلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

منشئات الناصر :

غير أن نشاط الناصر لم يكن مقصوراً على الحروب والغزوات والعناية بأمر الحكومة، بل اتجه إلى مختلف نواحى الحضارة المادية ومظاهرها داخل حدود مملكته . ونظراً لأنه كان متدينا يخاف الله على غير عادة أمراء المماليك ، نجد أن ذلك النشاط صبغ صبغة دينية كما يظهر ذلك من العمائر التى شيدها والتى ما زال بعضها قائماً يشهد له بالبر والتقوى كما يشهد لعصره بالبراعة فى الفنون والعمارة .

وكان من أشهر المبانى التى شيدها « المدرسة الناصرية »[١] . والمسجد الذى بناه بالقلعة سنة ٧١٨ ﻫ (١٣١٨ م) ثم هدمة فى سنة ٧٣٥ ﻫ (١٣٣٥م) وأعاد بناءه من جديد لتوسيع جوانبه . ولما أتم السلطان الناصر بناءه فى تلك السنة : «جلس فيه — على ما يقول المقريزى — واستدعى جميع مؤذنى القاهرة ومصر وجميع القراء والخطباء وعرضوا بين يديه وسمع تأذينهم وخطابتهم وقراءتهم فاختار منهم عشرين مؤذناً رتبهم فيه ورتب فيه درس فقه وقارئاً يقرأ فى المصحف ، وجعل عليه أوقافاً تكفيه وتفيض . وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هذا الجامع ويحضر خاصة الأمراء معه من القصر ويجىء باقيهم من باب الجامع فيصلى معه الأمراء خاصتهم وعامتهم خارج المقصورة عن يمينها ويسرتها على مراتبهم . فاذا انقضت الصلاة دخل إلى قصوره ودور حرمه وتفرق كل أحد إلى مكانه »[٢].

وفى سنة ٧٠٣ ﻫ (١٣٠٣ م) شرع السلطان الناصر محمد فى تجديد بناء « المارستان الكبير المنصورى[٣]» الذى أسسه السلطان قلاوون فى سنة ٦٨٨ ﻫ (١٢٧٤ م) . وكان سبب اقامته فى

---

(١) تقع هذه المدرسة بشارع المعز لدين الله (النحاسين) ، أنشئت على جزء من أرض القصر الصغير الفاطمى . بدأ فى انشائها السلطان كتبغا ، فقد وضع أساسها وأدخل فى عمارتها بابا رخاميا ، كان السلطان الأشرف خليل قد أحضره من احدى كنائس عكا عند فتحة لها سنة ٦٩٢ ﻫ (١٣٩٢ م) وارتفع بناؤها إلى الطراز المكتوب بواجهتها فى سنة ٦٩٥ ﻫ (١٣٩٥ م) ثم خُلع كتبغا من الملك قبل أن يتمها ولما عاد السلطان الناصر إلى عرشه للمرة الثانية اشترى هذه المدرسة وبنى قبة فكملت فى سنة ٧٠٣ ﻫ (١٣٠٣ م) وعين بها المدرسين للمذاهب الاربعة وألحق بها مكتبة حافله . ثم نقل إلى القبة رفات والدته كما دفن بها ابنه انوك المتوفى فى ١٧ ربيع الاول سنة ٧٤١ ﻫ (١٣٤١ م) . راجع مجلة العمارة ، العدد ٧ — ٨ لسنة ١٩٤١ ص ٢٩١ — ٣٠٠ . وانظر Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 260—265 لمعرفة نشأة نظام المدارس عند السلاجقة والايوبيين ثم ازدهاره فى عصر المماليك لتأييد المذهب السنى .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢١٢ .

راجع مجلة العمارة ، العدد ٧ — ٨ لسنة ١٩٤١ ص ٢٩٤ ، R. L. Devonshire : Rambles in Cairo, pp. 43—44.

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠٦ . احمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص ٩٣. راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I, p. 132 حيث تشهد الكتابات التاريخية الموجودة فيه بأن السلطان الناصر محمد جدد سنة (١٣٠٣ م) فى بناء مدرسة وقبة ومارستان قلاوون .

أول الأمر أن قلاوون لما ذهب لغزو الروم سنة ٦٧٥ ﻫ (١٢٧٦ م) فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، أصابه وهو بدمشق مرض شديد ، فعالجه الأطباء بادوية أخذت من مارستان نور الدين محمود . ولما شفى قلاوون ذهب بنفسه لمشاهدة المارستان ونذر إن هو اعتلى عرش مصر أن يبنى مارستاناً مثله [١] .

ومن مخلفات الناصر أيضا خانقاه [٢] سرياقوس ، من ضواحى القاهرة وكان سبب انشائها أن الناصر ركب كعادته للصيد ، وبينما هو فى الطريق انتابه ألم شديد كاد يقضى عليه ، فنزل عن فرسه ولكن الألم تزايد عليه فنذر ان عافاه الله ان يبنى فى هذا الموضع مكانا يتعبد الناس فيه لله تعالى . ولما عاد إلى قلعة الجبـــل وشفى من مرضه سار بنفسه الى الموضع الذى انتابه فيه المرض وصحب جماعة من المهندسين واختط هذه الخانقاه وكان ذلك فى سنة ٧٢٣ ﻫ (١٣٢٣م) وجعل فيها — على ما يقول المقريزى — « مائة خلوة لمائة صوفى وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة وبنى بها حماماً ومطبخا . . . فلما كانت سنة خمس وعشرين وسبعمائة كمل ما أراد من بنائها وخرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانك ومدت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه » [٣] .

وليس أدل على عناية السلطان الناصر بالعمارة من أنه لما أراد سنة ٧٣٨ ﻫ (١٣٣٨ م) بناء رصيف فى بولاق جمع مهندسى القاهرة والأقاليم ومهندسين آخرين من دمشق وحلب وبلاد الجزيرة لدراسة المشروع [٤] . وشيد الناصر محمد سبيلا ملحقاً بمدرسة وجامع السلطان قلاوون

---

(١) جاء وصف المارستان المنصورى فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ٤٠٦) فقال :

« هذا المارستان بين القصرين من القاهرة . وكان قاعة ست الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد ، ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية وبدار موسك ، ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين احمد بن الملك العادل أبى بكر وصار يقال لها الدار القطبية . ولم تزل بيد ذريته الى أن أخذها الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى عن مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقطبية وعوضت عن ذلك قصر الزمرد برحبة باب العيد فى ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وستمائة بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعى مدبر الممالك ورسم بعمارتها مارستانا وقبة ومدرسة فتولى الشجاعى أمر العمارة وأظهر من الاهتمام والاحتفال مالم يسمع بمثله حتى تم الغرض فى أسرع مدة وهى أحد عشر شهراً وأيام » .

(٢) الخانقاه (أو خونقاه أو خونكاه) كلمة فارسية معناها بيت . وقد اتخذت فى مصر لايواء فقراء الصوفية القادمين من البلاد الشرقية . (المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤١٥) . وقد بلغ الصوفية أوج عزهم فى أيام صلاح الدين الأيوبى وخلفائه كما يشهد بذلك العدد الوافر من البيوت التى شيدت لهم والتى تعرف باسم الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة » (راجع « مصر والحضارة الاسلامية » للدكتور زكى محمد حسن ص ٢٧) .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٢٢

(٤) Hautecoeur et Wiet ; Les Mosquées du Caire p. 127.



واجهة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين

فى بداية القرن الثامن الهجرى ، وظهرت فى هذه المناسبة كلمة « سبيل » لأول مرة فى الكتابات التاريخية الأثرية (١) . وكان تشييد العمائر دائما من الأموال الخاصة التى آلت الى السلاطين بطريق شرعى وأنهم كانوا لا يميلون الى إنفاق الأموال العامة فى هذا السبيل (٢) .

ويشرف « شد العمائر » على العمائر السلطانية وينظر فيما تحتاج إليه من إنشاء وتعمير القصور والمنازل والمساجد فى القاهرة وضواحيها . ويعاونه موظف يسمى « ناظر العمائر » يتولى شئون المهندسين والحجارين والصناع . ويختار شد العمائر من أمراء العشرات(٣)، ويشبه الآن كبير مهندسى السرايات الملكية .

وعلى الجملة فان من العمارة قد ازدهر فى عصر السلطان الناصر . كذلك تقدمت صناعة الفسيفساء وهى الموضوعات الزخرفية المؤلفة على الجدران أو السقوف أو الأرض وذلك بواسطة جمع أجزاء صغيرة متعددة الألوان من الحجر أو الزجاج يغلب أن تكون مكعبات دقيقة يثبت بعضها إلى جانب بعض فوق الأسمنت أو الجص . وقد انتشر استعمال الفسيفساء فى زخرفة العمائر .

ولا شك أن سلطنة الناصر حفلت بالمنشئات الجديدة ومنها الخوانك والمساجد والقناطر والجسور وجدد كثيراً منها . وقد اتفق المؤرخون على أن الناصر محمدا كان من أعظم الملوك شغفاً بالتشييد والبناء وأنه كان خبيراً فى فن العمارة حتى لقد قيل إنه بنى جامعه الموجود فى القلعة مرتين لأن البناء الأول لم يحز إعجابه (٤). والحق أن الالمام بكل العمائر التى شيدها الناصر أو جددها أمر ليس هينا ، فضلا عن أنه يحتاج إلى علم الاخصائيين فى الآثار الاسلامية وحسبنا أن نشير إلى ان نشاط الناصر المعمارى أيدته الكتابات التاريخية على العمائر فى أنحاء مصر والشام . وقد قيل إن الناصر كان ينفق يومياً فى حكمه الثالث — الذى دام نحو اثنتين وثلاثين سنة — زهاء ثلاثمائة وخمسين دينارا على المبانى العامة(٥).

وقد اقتدى أتباعه من الأمراء وأغنياء الدولة به فى العناية بتأسيس المبانى والتأنق فيها . ويقال إن مهندساً من تبريز دعى سنة ٧٣٠ ﻫ (١٣٣٠ م) لتشييد جامع قوصون ، فبنى فيه

---

(١) Ibid, p. 106

(٢) انظر خطط المقريزى ج ٢ ص ٤٠٧ — ٤١٦ و
Van Berchem : Corpus I. , pp. 344—355
راجع ماسنذكره عن ذلك بالتفصيل عند كلامنا على « حالة مصر المالية والاقتصادية »

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٢ .. Van Berchem ; Corpus, Egypte I. , p, 742

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٦

(٥) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 113.
راجع المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٦

منارتين شبيهتين بمنارة جامع عليّ شاه فى تبريز ، ولكن هاتين المنارتين لم تصلا إلينا لسوء الحظ (١) .

وكان بعض المسجونين يستخدمون فى تشييد العمائر . فقد اشتركوا مثلا فى إقامة قصر للأمير بكتمر الساقى ، الذى تفضل عليه الناصر بأحجار البناء وبأجر نقلها فاستطاع بذلك أن يقتصد نحو ٥٠ ٪ من نفقات البناء (٢) . وكانت السخرة شائعة فى بعض أعمال البناء ومن ذلك أن الناصر أراد فى سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٨ م) تشييد رصيف ببولاق ، فأمر بجمع العاطلين والمتسكعين فى طرقات القاهرة ومساجدها كل يوم . وكان السلطان الناصر يزور بنفسه مكان العمل وينهر آقبغا القائم بالاشراف عليه . فبالغ هذا بدوره فى انتهار العمال حتى كان يموت منهم عدد كبير من الاجهاد فى حرارة الصيف (٣) .

وقد بيّن المقريزى مبلغ حب الناصر للعمارة وعدّد كثيراً من منشئاته . فقال : « كان محباً للعمارة عمّر عدة أماكن ، منها جامع قلعة الجبل وهدمه مرتين ، وعمّر القصر الأبلق بالقلعة ومعظم الأماكن التى بالقلعة وعمر المجرى الذى ينقل الماء عليه من بحر النيل إلى القلعة على السور وعمر الميدان تحت القلعة ومناظر الميدان على النيل وعمر قناطر السباع على الخليج ومناظر سرياقوس والخانقاه بسرياقوس وحفر الخليج الناصرى بظاهر القاهرة وعمر الجامع الجديد على شاطىء النيل بظاهر مصر وجدد جامع الفيلة الذى بالرصد والمدرسة الناصرية بين القصرين من القاهرة وغير ذلك . . . وبلغ مصروف العمارة فى كل يوم من أيامه سبعة آلاف درهم فضة منها ثلثمائة وخمسون ديناراً سوى من يسخرة من المقيدين وغيرهم فى عمل ما يعمره وحفر عدة من الخلجانات والترع وأقام الجسور بالبلاد حتى إنه كان ينصرف من الأخباز على ذلك ربع متحصل الاقطاعات وحفر خليج الأسكندرية وبحر الملة مرتين وبحر اللبينى بالجيزة وعمل جسر شبين وعمل جسر أحباس بالشرقية والقليوبية مدة ثلاث سنين متوالية فلم ينجع فأنشأ بنياناً بالطوب والجير وأنفق فيه أموالا عظيمة » (٤) .

وقد استرعت هذه الظاهرة نظر المؤرخين ، حتى أن ابن إياس عبر عن ذلك فى عبارة واضحة بقوله : « ولا يُعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه . وقد تزايدت فى أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية فى العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر وغير ذلك من العمائر والانشاء » (٥) .

---

(١) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 127.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٤. Ibid, p. 119.

(٣) Iibd, p. 117.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦

(٥) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٣ .

صفات الناصر :

وإذا أردنا أن نتبين أسباب نجاح الدولة المملوكية فى هذا العهد وجب علينا الرجوع قبل كل شيء إلى صفات الناصر وتقدير شخصيته لأنه بلا شك كان العامل الأول فى وضع أسس السياسة العامة للدولة كما كان هو المنفذ الأكبر لقواعدها .

ويعد الناصر المثل الأعلى للسياسى فى دولة المماليك ، كما كان بيبرس من قبله المثل الأعلى للقائد الحربى [١] . ولا غرو فقد كان الناصر شديد البأس ، سديد الرأى ، يتولى أمور الدولة بنفسه ، مطلعاً على أحوال مملكته ، محبوباً من رعيته ، مهيباً من الأمراء حتى أنهم كانوا لا يجسرون على أن يفوه أحد منهم بكلمة واحدة إذا كانوا بحضرته [٢] . ولذلك صفا له الجو فى سلطنته الثالثة وحكم البلاد بنفسه حكما مطلقاً . وكان — على حد قول أبى المحاسن — « أعظم ملوك الترك بلا مدافعة » [٣] .

وقد أطرى صاحب كتاب « تاريخ سلاطين المماليك » سجايا الناصر ومزاياه ووصف ما يتحلى به من حزم وشجاعة ودهاء وكياسة ، فقال : « وهو موفق فى سائر حركاته ، سديد فى آرائه ، سعيد فى مشورته ، حازم فى أموره ، مقدام فى مقاصده ، شجاع فى حروبه . لا تزعجه الأراجيف ، ثابت الجأش ، كثير المعرفة ، صحيح العبارة . سالم الذهن ، حسن التدبير ، مليح الفكرة ، قوى العزم ، شديد الحزم » [٤] .

وقد ظلت سلطنة الناصر محمد الثالثة اثنتين وثلاثين سنة وتعد مدة حكمه أطول مدة حكم فيها واحد من سلاطين المماليك . يقول أبو المحاسن إنه : « أطول الملوك فى الحكم زمانا [٥] وأعظمهم مهابة وأحسنهم سياسة ، وأكثرهم دهاء ، وأجودهم تدبيرا ، وأقواهم بطشا وشجاعة . مرت به التجارب ، وقاسى الخطوب ، وباشر الحروب ، وتقلب مع الدهر ألوانا . ونشأ فى

= راجع المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ١٤٥ — ١٥١ و ١٦٥ — ١٧١ و ٤٠٦ — ٤٠٨)
R. L. Devonshire : Rambles in Cairo, pp. 37—53.
حيث تجد وصفا دقيقاً لمنشآت السلطان الناصر .

(١) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 45
راجع أيضا A. s. Atiya : Egypt and Aragon, pp 11—12.

(٢) المقريزى : الخطط : جـ ٢ ص ٣٠٥ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١٧ .

(٤) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٢ — ١٣٣ .

(٥) إن كان أبو المحاسن يقصد أن هذه أطول مدة وليها حاكم على مصر ، فغير صحيح . لأن عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى كان أطول من عهود سائر الخلفاء والسلاطين ، إذ امتد ستين سنة (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) ، على حين لم يزد حكم السلطان الناصر محمد على ثمان وأربعين سنة (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) بما فيها هذه الفترات القصيرة التى اغتصب العرش فيها كل من كتبغا ولاجين وبيبرس الجاشنكير .

الملك والرياسة ، وله فى ذلك الفخر والسعادة . خليقاً بالملك والسلطنة ، فهو سلطان ، وابن سلطان ووالد ثمانيـة سلاطين من صلبه ، والملك فى ذريته وأحفاده وعقبه ومماليكه ومماليك مماليكه إلى أن تنقرض الدولة التركية ، فهو أجل ملوك الترك وأعظمهم بلا مدافع »(١).

وامتدحه أبو المحاسن أيضا فى كتابه « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » بعبارات مملوءة بالاعجاب والتقدير لمواهبه وأخلاقه . ولكنه أخذ عليه قبضه على كثير من أمراء مصر فى ذلك العصر ، فقال : « كان الناصر ملكا عظيما ، محظوظا ، مطاعا ، مهيبا ، ذا بطش ، ودهاء ، وحزم شديد ، وكيد مديد ، قل ما حاول أمرا فانخرم عليه فيه شىء يحاوله . الا أنه كان يأخذ نفسه فيه بالحزم البعيد والاحتياط . أمسك إلى أن مات ماية وخمسين أميرا ، وكان يصبر الدهر الطويل على الانسان وهو يكرهه : تحدث مع الأمير أرغون الدوادار فى إمساك كريم الدين الكبير قبل القبض عليه بأربع سنين ، وهمّ بامساك تنكز من الحجاز سنة ثلاث وثلاثين [وسبعمائة] بعد بكتمر ثم انه أمهله ثمان سنين بعد ذلك »(٢).

وقد تناول المقريزى علاقة الناصر بأمراء مصر بشىء من التفصيل . فأوضح لنا أنه كان يقبض على من يشتبه فى اخلاصه لعرشه . وتبين أنه غلا فى مصادرة أملاك هؤلاء الأمراء إما رغبة فى جمع المال أو قصد التنكيل بهم وقد التمسنا — فيما مضى — العذر للناصر فى معاملته للأمراء على هذا النحو ، إذ أن تلك المعاملة قد ترجع إلى خوفه من تكرار ما حل به فى سلطنتيه الاولى والثانية على يد أمراء مصر البارزين . وكشف لنا المقريزى عن بعض الخصال والصفات التى تجمعت فى شخص السلطان الناصر ، فقال : « كان السلطان أبيض اللون قد خطه الشيب وفى عينيه حول وبرجله اليمنى نزع شوكة تنغص عليه أحيانا وتؤلمه وكان لا يكاد يمس بها الأرض ولا يمشى إلا متكئا على أحد أو متوكئاً على شىء ولا يصل إلى الأرض الا أطراف أصابعه وكان شديد البأس جيد الرأى يتولى الأمور بنفسه ويجود لخواصه وكان مهابا عند أهل مملكته . . . أفنى خلقاً كثيرا من الأمراء بلغ عددهم نحو المائتى أمير . وكان اذا كبر احد من امرائه قبض عليه وسلبه نعمته واقام بدله صغيراً من مماليكه إلى أن يكبر فيمسكه ويقيم غيره ليأمن بذلك شرهم ، وكان كثير التخيل حازماً حتى انه اذا تخيل من ابنه قتله . وفى آخر أيامه شره فى جمع المال فصادر كثيراً من الدواوين والولاة وغيرهم ورمى البضائع على التجار حتى خاف كل من له مال وكان مخادعا كثير الحيل لا يقف عند قول ولا يوف بعهد ولا يبر فى يمين ... وكان من الذكاء المفرط على جانب عظيم يعرف مماليك أبيه ومماليك الأمراء بأسمائهم ووقائعهم وله معرفة تامة بالخيل وقيمها مع الحشمة والسيادة . لم يعرف عنه قط أنه شتم أحدا من خلق الله ولا سفه عليه ولا كلمه بكلمة سيئة ، وكان يدعو الأمراء أرباب الأشغال

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٢٥٠ .

بألقابهم وكانت همته عالية وسياسته جيدة وحرمته عظيمة إلى الغاية . . . وهو مع ما ذكرنا مؤيد فى كل أموره مظفر فى جميع أحواله مسعود فى سائر حركاته ما عانده أحد أو أضمر له سوءاً إلا وندم على ذلك أو هلك . . . فمتعه الله من الدنيا بالسعادة العظيمة فى المدة الطويلة مع كثرة الطمأنينة والأمن وسعة الأموال »(١).

وقد أعجب ابن بطوطة فى أثناء زيارته لمصر سنة ٧٢٦ ﻫ (١٣٢٥ م) بصفات السلطان الناصر وتدينه فقال : « وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى . . . وللملك الناصر السيرة الكريمة والفضائل العظيمة . وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله فى كل سنة من أفعال البر التى تعين الحجاج ، من الجمال التى تحمل الزاد والماء ، للمنقطعين والضعفاء » (٢) . على أن ابن بطوطة — رغم ذلك — أخذ عليه أنه كانت له طائفة من الأشرار يبعثهم لاغتيال من يُريد من أعدائه (٣) .

فلا غرو إذا ختمنا كلامنا على صفات الناصر بهذه الأبيـــات التى قالها عنه الشيخ صفى الدين الحلى :

الناصر السلطان قد خضعت له ... كل الملوك مشارقاً ومغارباً
ملك يرى تعب المكارم راحة ... ويعد راحات الفراغ متاعباً
تُرجى مكارمه ويخشى بطشه ... مثل الزمان مسالماً ومحارباً
فاذا سطا ملأ القلوب مهابة ... وإذا سخا ملأ العيون مواهباً(٤)

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .
(٢) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٢٣ .
(٣) نفس المصدر والجزء ص ٤٥ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧٣ .

الباب الرابع

سلطنة أولاد الناصر وأحفاده

(٧٤١ — ٧٨٤ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٨٢ م)

وفاة الناصر :

أراد الناصر فى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) أن ينظم وراثة العرش من بعده ، فعهد بالملك إلى ابنه الأمير ناصر الدين آنوك فوافقته الأمراء على ذلك . وركب آنوك بشعار السلطنة ووزعت الخلع على الأمراء وكبار الموظفين . ولكن الناصر عاد فعدل عن رأيه وأمر أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يمنح ولايه العهد . ومهما يكن من شىء فقد توفى آنوك قبل أبيه ببضعة أشهر فى يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وعمره ثمانى عشرة سنة[١]. ولعل السبب فى عدول الناصر عن توليته العهد أنه لم يكن حينئذ قد تجاوز التاسعة من عمره .

وظل الحال على ذلك دون أن يمنح الناصر ولاية العهد لولد من أولاده حتى مرض سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) وأحس بدنو أجله ، فرأى انه ليس من الحكمة أن يترك هذه المملكة الواسعة من غير أن يعهد إلى أحد من بعده ، فجمع أمراء الدولة ، وأبلغهم أن رأيه قد استقر على أن يعهد بالملك من بعده إلى ابنه سيف الدين ابى بكر ، وأوصاهم بتنفيذ ذلك بعد وفاته ، فامتثلوا أوامره وعاهدوه على ذلك[٢]. ولما سمع أهل مصر بسوء حالة الناصر الصحية اظهروا ألمهم الشديد ، وعبروا عن حزنهم بمظاهرات نادوا له فيها بطول العمر ودعوا له بكامل الشفاء لما كانوا يعتقدونه من أن وجوده على عرش مصر يمنع عن أهلها البؤس والشقاء . وقد كان ذلك مألوفاً عند موت خيار السلاطين والأمراء ، كما كانت تشترك فيه الطوائف المختلفة فى معظم الأحيان[٣] .

وحسبنا دليلا على ثقة الناس فى حكومته الوطيدة الأركان ومخاوفهم مما قد يحل بهم من بعده ، أنهم أغلقوا حوانيتهم حين انتشر خبر مرضه وخزنوا المواد الغذائية إلى وقت الحاجة ،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٢ .

Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 154.

(٢) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣٣٠ .

Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٣) اقرأ عن الصلوات التى أقيمت فى مناسبة مرض ابن طولون

Zaky M. Hassan : Les Tulunides, p. 95.

فكأنهم كانوا يعتبرون وفاته كارثة تحل بالبلاد وإيذانا باضطراب أحوالها .

ولما اتصل بمسامع الناصر قلق شعبه عليه ، تأثر تأثراً بالغا ، وأمر عند ما شعر بشيء من النشاط والقوة باقامة معالم الزينات فى العاصمة ، لكى يفرج عن شعبه المحزون عليه ولكن دعاء الشعب لم يحل بين الناصر وبين القضاء المحتوم . وتوفى فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) (١) ، بعد أن أصبحت مصر فى عهده امبراطورية شاسعة الأرجاء ، وغدت القاهرة مركز التجارة والصناعة وكعبة العلم والفن ، وقبلة أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد وصف المقريزى جنازة السلطان الناصر وصفاً مؤثرا فقال إنها وقعت بالليل ، ولم يسر وراءها سوى عدد قليل من أمراء مصر وبذلك لم يشترك الشعب فى توديع سلطانه الذى حباه بعطفه ومحبته ، كما لم تراع فى تكفينه ومواراته التراب مراسم الاحترام والاجلال اللائقين بسلطان عظيم كالناصر ، تمتعت البلاد فى عهده بكل أنواع الراحة والطمأنينة ويظهر أن ذلك العمل كان بتدبير بعض أمراء مصر الذين نقموا على الناصر شدته عليهم وقضاءه على دسائسهم وقمعه لفتنهم التى طالما هددت عروش سلاطين المماليك ومنهم الناصر نفسه . يقول المقريزى :

« فأقام فى الملك من غير منازع له فيه إلى أن مات بقلعة الجبل فى ليلة الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة إحدى واربعين وسبعمائة . . . ولما مات ترك ليلته ومن الغد حتى تم الأمر لابنه أبى بكر المنصور فى يوم الخميس المذكور . ثم أخذ فى جهازه فوضع فى محفة بعد العشاء الآخرة بساعة وحمل على بغلين وأنزل من القلعة إلى الاصطبل السلطانى وسار به الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدى أمير جاندار والأمير نجم الدين أيوب والى القاهرة والأمير قطلوبغا الذهبي وعلم دار خوطاجار الدوادار وعبروا به الى القاهرة من باب النصر . وقد غلقت الحوانيت كلها ومنع الناس من الوقوف والنظر إليه وقدام المحفة شمعة واحدة فى يد علمدار . فلما دخلوا به من باب النصر كان قدامه مسرجة فى يد شاب وشمعة واحدة وعبروا به المدرسة المنصورية بين القصرين ليدفن عند أبيه الملك المنصور قلاوون . وكان الأمير علم الدين سنجر الجاولى ناظر المارستان قد جلس ومعه القضاة الأربعة وشيخ الشيوخ ركن الدين شيخ خانقاه سرياقوس والشيخ ركن الدين عمر ابن الشيخ ابراهيم الجعبرى فحطت المحفة وأخرج منها فوضع بجوار الفسقية التى بالقبة وأمر ابن أبى الظاهر بتغسيله . . ووضع فى تابوت من خشب وصلى عليه قاضى القضاة عز الدين عبد العزيز محمد بن جماعة الشافعى بمن حضروا . وأنزل إلى قبر أبيه فى سحلية من خشب قد ربطت بحبل ونزل معه الى القبر الغاسل والأمير سنجر الجاولى ودفع الى الغاسل ثلاثمائة درهم فباع ما نابه من الثياب بثلاثة عشر

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٢ القسم الأول ص ٤٤ .

Lane-Poole ; Egypt in the Middle Ages, p. 417.

درهما سوى القمح فانه فقد . وذكر الغاسل انه كان محنكا بخرقة معقدة بثلاث عقد . فسبحان من لا يحول ولا يزول هذا . ملك أعظم المعمور من الأرض مات غريباً وغسل طريحاً ودفن وحيدا ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب » (١) .

غير أن تلك المعاملة السيئة لجثمان سلطان من أعظم سلاطين المماليك لم تعقد لسان الشعراء من صفوف الشعب عن تأبينه والاشادة بذكره ، بدليل ما ورد فى كتاب الالمام الذى ألفه النويرى الأسكندرانى ما بين سنة ١٣٦٥ و ١٣٦٧ م ونص عبارته كما يلى :

« نعود إلى ذكر محاسن السلطان الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون . كان رحمه الله عادلا فى رعيته ، محسناً فى قصبته ، أبطل المظالم ، وكف أيدى كل ظالم ، وكان هيكلا حسناً على ظهر فرسه . كبير الوجه أحمر اللون ذو لحية كبيرة قد وخطه الشيب ، فقيل فى المعنى :

فقد الوجود بل الوجود لفقده	متحسراً أضحى شبيه الحائر
يبكى عليك بأدمع كيواقت	حمر ولؤلؤ بعضها كجواهر
زار الثرى فأضا الثرى من نوره	وأجابه أهلا بنعم الزائر
فغدا به القبر الذى قد حله	روضاً يفوح كنشر مسك عاطر
وكأنه قد حل فيه روضة	ممطورة قد نمقت بأزاهر
سقياً لترب حل فيها جسمه	قد عطرت منه بجسم طاهر
كم حجة قد حجها مبرورة	كم وقعة شهدت له ببصائر
فى شقحب حز الرؤس بسيفه	قهراً ونصراً من عزيز ناصر
قد مده بالعز منه أولا	فضلا ويتمم فضله فى الآخر (٢)»

* * *

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) راجع مخطوطة برلين « كتاب الألمام للنويرى » (ورقة ٢٣٣ ب — ٢٣٤ أ) وقد أمدنا بهذه الفقرة المستشرق السويسرى المسيو إيتين كومب مدير مكتبة جامعة فاروق الأول والأستاذ الزائر بكلية الآداب بالاسكندرية ، وقد أعد الترجمة الفرنسية للمخطوط المذكور للطبع .

أولاد الناصر (١)

بعد وفاة الناصر سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠ م) ، دخلت دولة المماليك البحرية فى طور جديد من نظم الحكم ، وذلك بسبب كثرة عدد السلاطين الذين اعتلوا العرش ، وصغر سنهم ، وبسبب ظهور نفوذ الأتابكة بشكل جلى ، واشتداد التنافس بين الأمراء على النفوذ ، وجعلهم السلطان ألعوبة فى أيديهم ، يعزلونه أو يبقونه على العرش حسب مشيئتهم . وكان مصير أولئك السلاطين الخلع ثم النفى أو القتل . وكان نفيهم فى العادة إلى قوص أعظم مدن الوجه القبلى إذ ذاك أو إلى الكرك بالشام ، وأحياناً يظل بعضهم بقلعة الجبل على أن يمنع من الاتصال بالناس . وبذلك ضعفت الدولة الملوكية واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل فى جميع أرجائها .

وقد بلغ عدد أولئك السلاطين الذين تولوا العرش من بعد وفاة الناصر محمد إلى نهاية دولة المماليك البحرية اثنى عشر سلطاناً ، وهم ثمانية من أولاد الناصر محمد وأربعة من أحفاده ، وكان مجموع مدتهم ثلاثاً وأربعين سنة ، وبذلك يكون متوسط حكم السلطان الواحد فى هذه الفترة ثلاث سنوات ونصف سنة .

بعد وفاة الناصر ، رفض الأمير بشتاك (٢) إقرار ما عاهد الأمراء السلطان الناصر عليه

---

(١) انظر البيان الخاص بأسماء هؤلاء السلاطين ، ومدة كل حكم منهم ، وسنه عند اعتلائه العرش

(٢) ذكر المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٣٤ — ٣٥) تاريخ حياة الأمير بشتاك فقال : « هو الأمير سيف الدين بشتاك الناصرى ، قرّبه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعلى محله وكان يسميه بعد موت الأمير بكتمر الساقى بالأمير فى غيبته . وكان زائد التيه لا يكلم استاداره وكاتبه إلا بترجمان ويعرف بالعربى ولا يتكلم به . وكان إقطاعه ست عشرة طبلخانة أكبر من إقطاع قوصون . ولما مات بكتمر الساقى ورثه فى جميع أحواله واصطبله الذى على بركة الفيل ... وزاد أمره وعظم محله فثقل على السلطان وأراد الفتك به فما تمكن وتوجه إلى الحجاز وأنفق فى الأمراء وأهل الركب والفقراء والمجاورين بمكة والمدينة شيئا كثيرا إلى الغاية وأعطى من الألف دينار إلى المائة دينار إلى الدينار بحسب مراتب الناس وطبقاتهم . فلما عاد من الحجاز لم يشعر به السلطان إلا وقد حضر فى نفر قليل من مماليكه وقال إن أردت إمساكى فها أنا قد جئت إليك برقبتى فغالطه السلطان وطيب خاطره ... وجرده لامساك تنكز نائب الشام فحضر إلى دمشق وبعد إمساكه هو وعشرة من الأمراء فنزلوا القصر الأبلق وحلف الأمراء كلهم للسلطان ولذريته واستخرج ودائع تنكز وعرض حواصله ومماليكه وجواريه وخيله وسائر ما يتعلق به... وأقام بدمشق خمسة عشر يوما وعاد إلى القلعة » .

وفى دار الآثار العربية لوح من الخشب (رقم السجل ٢٧٣٩) أصله من مسجد السلطان الناصر محمد وعليه كتابة باسم الأمير بشتاك الناصرى تثبت أمره بتجديد هذا المسجد وتاريخ الفراغ من ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) .

انظر J. David-Weill : Catalogue Général du Musée Arabe du Caire, Bois à Epigraphes, tome II, p. 75 et planches VI.

راجع أيضا عن تاريخ حياة بشتاك Mayer : Saracenic Heraldry, pp. 104—105, 263.

من ولاية العهد لابنه أبى بكر ؛ وصمم على منح السلطنة لابن ثان للسلطان الناصر اسمه احمد وكان مقيما اذ ذاك بالكرك . ولكن الأمير قوصون أظهر أن تلك المعارضة إن كان المقصود منها إقامة بشتاك أو قوصون نفسه على عرش السلطنة ، فان ذلك الأمر قد لا يؤيده بقية الأمراء لما جرى عليه العرف إذ ذاك من أن الجالس على العرش ينبغى أن يكون من أصل مملوكى ، أى رقيق اشترى بالمال وتدرج فى المناصب ، أو ابن سلطان تدرج فى مراتب العز . يقول المقريزى إنه « لما مات السلطان الناصر وسجى قام قوصون إلى الشباك ، وقال للأمير بشتاك يا أمير ! تعال أنا ما يجى منى سلطان ، لأنى كنت أبيع الطسما والكشاتوين فى البلاد ، وأنت اشتريت منى وأهل البلاد يعرفون ذلك منى . وأنت ما يجى منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت ذلك منك ، وأهل البلاد يعرفون ذلك كله . فما يكون سلطان من عرف ببيع الطسما والبرغالى ولا من عرف ببيع البوزا . وهذا أستاذنا هو الذى أوصى لمن هو أخبر به من أولاده[1] » .

وعلى أثر ذلك تولى سيف الدين أبو بكر عرش مصر ولقب بالمنصور (٧٤١ — ٧٤٢ هـ = ١٣٤٠ — ١٣٤١ م) وله من العمر نحو عشرين سنة . وهو أول من تولى السلطنة من أولاد الناصر . وسرعان ما ساءت العلاقات بينه وبين أتابكه قوصون لامتناعه عن تلبية بعض مطالبه ، وحرض الأمراء عليه فقد ذكر العينى أنه خاطب الأمراء قائلا : « هذا السلطان يريد أن يقتلكم ، ولا يخلى أحداً منكم ، فأجابه الأمراء قائلين . « الرأى رأى مولانا »[2] . وعلى أثر ذلك صعد قوصون إلى القلعة ، وقبض على السلطان وبعث به إلى قوص ولم يلبث أن أوعز بقتله ، فقتل بها ، ولم تزد مدته التى جلس فيها على عرش مصر عن ثلاثة أشهر[3] . ومنذ ذلك الوقت لم تظهر ولاية العهد طوال المدة الباقية من تاريخ السلطنة المملوكية الأولى ، واتبع المبدأ الوراثى فأقيم سلاطين من بيت الناصر محمد : من أولاده ثم أحفاده ، دون تقيد باستمرار السلطان على العرش حتى وفاته ، بل يصح خلعه إذا لم يرض عنه الأمراء ، وإقامة غيره من بيت الناصر مكانه .

بقتل أبى بكر اعتلى العرش أخوه علاء الدين كجك[4] ولقب بالأشرف (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) ، وعمره إذ ذاك يتراوح بين الخامسة والسابعة ، فعين الأمير قوصون الناصرى أتابكا له كما كان أيام أخيه ، « فتصرف فى أمور المملكة ، ولم يكن للأشرف من السلطنة الا

(١) الخطط جـ ٢ ٣٤ — ٣٥ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٣٤٨ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ القسم الأول ص ٤٩ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٧ .

(٤) كجك : لفظ أعجمى ، معناه باللغة العربية « الصغير » ، فقد توقع أبوه وقت تسميته أنه سيلى الملك بعده وهو صغير . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٧ .

مجرد الاسم فقط ، وليس له من الأمر شيء . . . وكانت إذا حضرت العلامة ، أعطى قوصون الأشرف كجك فى يده قلماً وجاء الفقيه الذى يقرئه القرآن ، فيكتب العلامة والقلم فى يد الأشرف (١) . » وبذلك لم يكن للأشرف من الأمر شيء ، وقبض أتابكه قوصون على زمام الأمور وكان السلطان معه مثل العصفور بين النسور » .(٢) ثم ازداد الحال سوءا ، فاشتد الخلاف بين الأمراء ، وانتشرت الفتن والقلاقل فى البلاد ، وامتد الفساد إلى بلاد الشام ، وخرج النواب على طاعة سلطان مصر .

وما لبث كجك أن خلع بعد أن حكم مصر خمسة أشهر . وخلفه أخوه احمد ولقب بالناصر (٧٤٢ — ٧٤٣ هـ = ١٣٤٢ م) ؛ وكان وقت اعتلائه العرش مقيما بقلعة الكرك ، وكان راغباً عن السلطنة فأرسل إليه الخليفة الحاكم بأمر الله يستدعيه الى القاهرة . ليعهد اليه السلطنة ، فحضر اليها (٣) . ولكنه لم يستمر طويلا فى مصر بعد وصوله الى العرش ، بل عاد الى الكرك ، وعزم على جعلها محل إقامته مع بقاء السلطنة ودواوينها وإداراتها بالقاهرة ، ولكن أمراء مصر لم يعجبهم هذا الاجراء وخلعوه « لأن أموال المملكة ضائعة ، والسلطان لا يلتفت لشيء من ذلك » (٣) . ووقع اختيارهم على أخيه اسماعيل ولقب بالصالح (٧٤٣ — ٧٤٦ هـ و ١٣٤٢ — ١٣٤٥ م) . فبدأ عهده بمحاصرة أخيه بالكرك ، ودام الحصار ثلاث سنوات وانتهى بتسليم احمد ثم قتله . وفى سنة ٧٤٦ هـ مرض السلطان اسماعيل ومات . وتولى السلطنة من بعده أخوه شعبان ولقب بالكامل (٧٤٦ — ٧٤٧ هـ و ١٣٤٥ — ١٣٤٦ م) . ولم يكن عهده خير من عهد سلفه ، وليس أدل على ذلك مما قاله له الأمير يلبغا اليحياوى نائب الشام حين اشتد الخلاف بينهما : « أنت أفسدت المملكة ، وأفقرت الأمراء والأجناد ، وقتلت أخاك ، وقبضت على أكابر أمراء السلطان ، واشتغلت عن الملك ، والتهيت بالنساء وشرب الخمر وصرت تبيع أخباز الأجناد بالفضة » (٤) . واشتد الاستياء من الكامل شعبان حين أمر سنة ٧٤٧ هـ بالقبض على أخويه الأمير حاجى والأمير حسين وسجنهما تمهيداً لقتلهما ، كما تحارب معه ملكتمر الحجازى أحد كبار الأمراء عند ما علم أن السلطان يريد القبض عليه ، وانتهى الأمر بهرب الكامل شعبان إلى القلعة .

تدهورت السلطنة المملوكية فى عصر أولاد الناصر ، وتجرأ الأمراء على السلاطين الأطفال جرأة منقطعة النظير ، فانه بعد هرب الكامل شعبان إلى القلعة ، سار الأمراء اليها وأفرجوا عن الأمير حاجى والأمير حسين وأعلنوا الأول سلطانا . ولما جدوا فى البحث عن الكامل

---

(١) : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٣٦٣ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٤٢٦ — ٤٣٠ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٨ . محمد كرد على : كتاب خطط الشام جـ ٢ ص ١٥١ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٤ .



الفسقية بصحن مسجد السلطان الناصر حسن

وجدوه « واقفاً بين الازيار ، وقد ابتلت أثوابه بالماء »[١] . فقبضوا عليه وسجنوه فى المكان الذى حبس فيه أخواه من قبل ولم يلبث أخوه السلطان حاجى أن أمر بقتله ، فقتل بعد ثلاثة أيام من حبسه .

وازداد انحلال السلطنة المملوكية بتولية حاجى (٧٤٧ — ٧٤٨ هـ = ١٣٤٦ — ١٣٤٨ م) فان هذا السلطان — الذى لم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره — كان يجتمع باوشاب الناس وطبقاتهم المنحطة ويلعبون معاً بالحمام ، « وكان السلطان يقف معهم ويراهن على الطير الفلانى والطيرة الفلانية . . . وكان السلطان إذا لعب مع الأوباش يتعرى ويلبس ثياب جلد ويصارع معهم »[٢] . بذلك اكتفى السلطان حاجى بتربية الحمام والولع به عن تدبير شئون الدولة ، « واشتغل بلعب الطيور عن تدبير الأمور ، والنهى عن الأحكام بالنظر إلى الحمام »[٣] . فلا عجب بعد هذا كله إذا قبض عليه بعض الأمراء ، وانتهى أمره بالقتل ، ولما يستكمل سنة على عرش السلطنة .

وإن ما حدث لأخيه الناصر حسن[٤] (٧٤٨ — ٧٥٢ هـ و ١٣٤٧ — ١٣٥١ م) الذى كانت سنه وقت اعتلائه العرش لم تتجاوز الحادية عشرة ، ليدلنا إلى أى حد تدهورت حالة مصر فى عهد أولاد السلاطين . فان الخلاف لما اشتد بين الناصر حسن وأمراء مصر . نزل السلطان عن العرش فلم يكتف الأمراء بذلك ، بل بعثوا اليه « الأمير صرغتمش ومعه جماعة ليأخذوه ويحبسوه وطلعوا إلى القلعة راكبين . ودخلوا إلى الناصر حسن ، وأخذوه من بين خدمه ، وصرخ الناس صراخاً عظيما . وصاحت بنت صرغتمش صياحاً منكرا ، وقالت هذا جزاؤه منك . فأخذه صرغتمش وقد غطا وجهه . فلما رآه الخدام والمماليك تباكوا عليه بكاء كثيرا ، وطلع إلى رواق فوق الأبواب ، ووكل به من يحفظه وعاد الى الأمراء »[٥] . ويعد ما فعله هؤلاء الأمراء مع السلطان الناصر حسن أقصى ما يمكن أن يلحق ملكا من المذلة والعار ، ولكننا مع ذلك لا نستغرب ما وقع قياساً على كان يحدث إذ ذاك .

ولم يكن للصالح أخى الناصر حسن (٧٥٢ — ٧٥٥ هـ و ١٢٥١ — ١٢٥٤ م) مع أتابكه الأمير طاز من الأمر شىء « وصار الملك الصالح معه مثل اللولب يديره كيف شاء ، وليس له

---

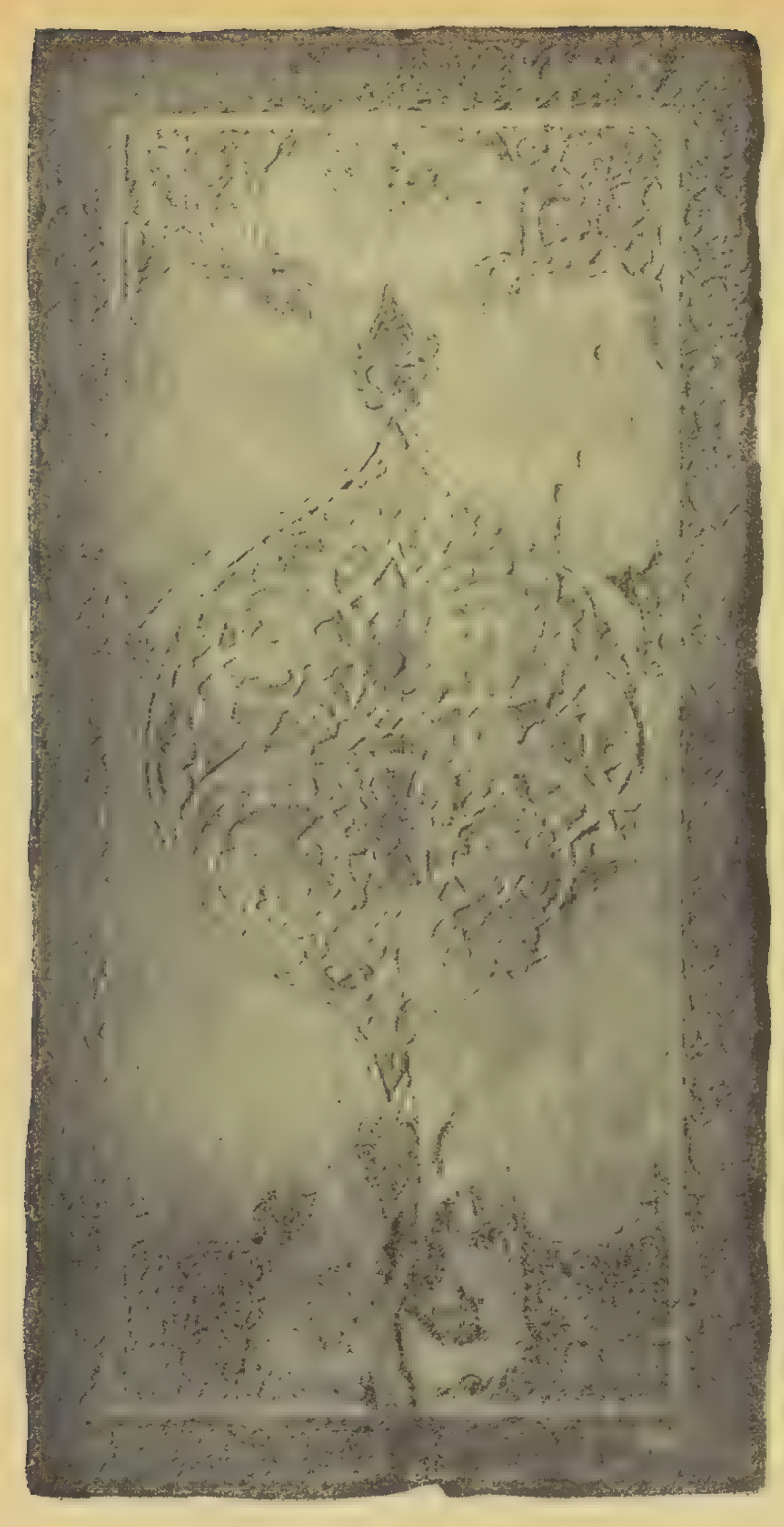
(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ الفصل الأول ص ٤١ — ٤٢ ؛

(٣) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ج ١ ص ١٨٨ .

(٤) كان « حسن » يسمى أولا « قارى » = لجماله . فلما أراد الأمراء أن يسلطنوه ، قال لهم : أنا لا أسمى إلا حسن . فوافقه الأمراء على ذلك . ابن إياس ج ١ ص ١٩٠ .

(٥) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) ج ١ القسم السادس ص ٦١٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ الفصل الأول ص ٩١ .



لوح من الرخام كان فى مدرسة الأمير صرغتمش المشيدة سنة ٧٥٧ ﻫ (١٣٥٦ م) . وفى وسطه زخارف نباتية تشتمل على صورة مشكاة من مشكايات المساجد وصور بعض الأوانى والطيور والأيادى . وهو محفوظ الآن بدار الآثار العربية فى القاهرة

فى السلطنة غير مجرد الاسم » . (١) وكان اشتداد نفوذ أحد الأمراء وتقربه من السلطان ، لا يقتصر أثره على تركيز السلطة فى يده فحسب ، بل كان من نتائجه المباشرة ظهور عوامل الحسد والغيرة والتنافس بينه وبين بقية الأمراء . لذلك وقع الخلاف بين الأمراء ، وأضمروا السوء للملك الصالح وللأمير طاز . وانتهى الأمر بالقضاء على الأمير طاز أولا ، ثم بالقبض على السلطان وحبسه بالقلعة . وأعيد الناصر حسن إلى عرش السلطنة للمرة الثانية (٧٥٥ — ٧٦٢ ﻫ و ١٧٥٤ — ١٧٦٠ م) .

وقد بلغ الاستخفاف بالسلاطين فى هـــذه الفترة حداً لا يمكن أن يتصوره العقل ، فان السماط الذى يمد للسلطان القائم ، كان يظل على حاله ليجلس عليه السلطان الجديد ، ويتناول السلطان المخلوع طعامه فى المكان الذى حبسه فيه الأمراء . وقد حدث ذلك للسلطان شعبان الذى تناول بعد خلعه طعام أخيه حاجى الذى كان مسجونا إذ ذاك ثم حمله الأمراء إلى العرش مكان أخيه ، فجلس الى السماط الذى كان معداً للكامل . وتتكرر هذه المأساة مع كل من صالح المخلوع وأخيه حسن الجديد . إذ سجن صالح حيث كان أخوه الناصر حسن « ومن غريب ما وقع مما فيه أعظم معتبر — كما يقول المقريزى — أنه عمل الطعام للسلطان الملك الصالح ليمد بين يديه على العادة ، وعمل الطعام للملك الناصر حسن ليأكله فى محبسه . فاتفق خلع الملك الصالح فى أقل من ساعة ، وسجنه ، وولاية أخيه حسن فى السلطنة بدلا منه فمد السماط بالطعام الذى عمـــل ليأكله الصالح ، فأكله حسن فى دست المملكة . وأدخل الطعام الذى عمل لحسن على الصالح ليأكله فى محبسه ، فأكله فى السجن الذى كان أخوه حسن فيه » (٢) . وتلك الأيام نداولها بين الناس .

ظل الناصر حسن على عرش الملك فى سلطنته الثانية ست سنوات ونصف ، حكم فيها بنفسه إذ كان قد بلغ سن الرشد . ولكن حدث فى نهاية عهده أن اختلف مع الأمير يلبغا الذى قبض عليه . ولم يعرف للناصر أثر بعد ذلك : قيل إنه خنق ورمى فى البحر وقيل إن يلبغا اشتط فى عقوبته حتى مات ودفنه فى مصطبة بقرب داره ، وقيل دفنه بكيمان مصر وأخفى قبره . (٣) وهـذه ولا شك نهاية محزنة لسلطان عظيم كالناصر حسن أجمع المؤرخون على : شجاعته ، وبطولته ونفاذ كلمته ، وعالى همته ، ومحبته لرعيته . وتشجيعه الفنون (٤) والآداب . ولم يكن يعيبه

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٠٩ . ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٩٤ .

(٢) كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٣ ص ٢٠ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٣ ص ٣٥ — ٣٦ . ابن إياس : نفس المصدر والجزء

(٤) انظر ص ١٠٩ .

سوى ميله إلى مصادرة الأموال . وبوفاته ينتهى عهد تولية السلاطين من أولاد الناصر ، ويأتى عهد السلاطين من أحفاده .

ومما ذكرناه عن كيفية تولية سلاطين المماليك من أولاد الناصر ونهايتهم ، نرى أن الطريقة كانت كلها واحدة : فالسلطان الطفل يأتى به الأمراء ويجلسونه على العرش ، ثم يختلفون فيما بينهم على السلطة والنفوذ ، فيصبح السلطان ألعوبة فى أيديهم ، حتى يأتى الوقت الذى يرون فيه ضرورة استبدال غيره به ، فاما أن يخلعوه أو يقتلوه . وسنرى أن حالة مصر فى عهد سلاطين أحفاد الناصر لم تختلف عما كانت عليه فى عهد أولاده من الضعف والاضطراب ، وانتشار الفوضى ، وقيام الدسائس والفتن بين السلطان والأمراء من جهة ، وبين الأمراء بعضهم مع بعض من جهة أخرى . وقد اشتد ضعف مصر فى أيام سلطنة أحفاد الناصر حتى انتهى الأمر بسقوط دولة المماليك البحرية .

ولم يكن عامل التنافس بين الأمراء على السلطة والنفوذ ، هو وحده الذى أدى إلى القضاء على عرش سلاطين المماليك ، بل ظهر بعد وفاة الناصر عامل آخر لا يقل عن سابقه أثراً ، وهو الانحلال الخلقى الذى كان عليه معظم سلاطين المماليك الذين تولوا عرش مصر من بيت الناصر مما سهل إلى حد كبير على أمراء ذلك العصر ، القضاء على عروش هؤلاء السلاطين ، فى الوقت الذى كانوا يختارونه لتنفيذ ما اعتزموه من خلعهم .

أحفاد الناصر [1] :

كان السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢ — ٧٦٤ هـ = ١٣٦١ — ١٣٦٣ م) بن المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون أول أحفاد الناصر فى السلطنة ، ميالا إلى الطرب ، مدمنا شرب الخمر ، حتى كاد لا يفيق ساعة واحدة . لذلك قبض عليه أتابكه يلبغا فى ٤ شعبان سنة ٧٦٤ هـ (١٧٦٣ م) ، وخلعه من السلطنة وحبسه فى القلعة ، « فاستمر فى دور الحرم مقيما فى غبوق وصبوح ، لا يفيق من السكر ساعة ، وعنده جوقة مغنيات نحو عشرة من الجوارى يدقون بالطارات عند الصباح والمساء » . [2] ونتبين مدى الانحطاط الخلقى الذى

---

(١) أنظر البيان الخاص بأسماء هؤلاء السلاطين ومدة حكم كل منهم وسنه وقت اعتلائه العرش فى نهاية هذا الباب .

(٢) استمر المنصور على تلك الحالة حتى مات فى المحرم سنة ٨٠١ هـ فى عهد سلطنة الظاهر برقوق ، أى بعد انتهاء دولة المماليك البحرية . وقد ذكر ابن إياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ٢١٢) أن شاعرا معاصرا وصف هذا السلطان فى هذين البيتين :

كل الملوك تسلطنوا ... بالملك والسلاح
وأنا قنعت منه ... بالراح والملاح

كان عليه هذا السلطان مما ذكره أبو المحاسن عن العوامل التى أدت الى خلعه ، اذ كتب أن المنصور كان « يدخل بين نساء الأمراء ويمزح معهن ، وكان يعمل مكارياً للجوارى ويركب هو وراء الحمار بالحوش السلطانى ، وكان يأخذ زنبيلا فيه كمك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك عليهن على سبيل المماجنة ! » (١) .

وفيما يرويه المؤرخون عن كيفية القبض على السلطان شعبان ابن السلطان حسن (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ = ١٣٦٣ — ١٣٧٦ م) ، امتهان شديد لعرش السلطنة . مما جعل الناس إذ ذاك لا يكترثون لما وقع من هذا القبيل ، ويتمنون إما إصـــلاح الحال أو زوال حكم « السلاطين الأطفال » . فان شعبان لما هرب بعد أن هزمه أعداؤه من الأمراء ، عاد الى القاهرة خفية ، ونام ليلته فى الصحراء ، ثم اختفى فى منزل سيدة تدعى آمنة . فخافت تلك السيدة على نفسها من اختفائه عندها ، لأن الأمير ايدمر الشمسى نائب السلطنة قد أمر فنودى فى القاهرة بأن من يضبط السلطان عنده ولا يبلغ عنه ، يكون جزاؤه القتل شنقاً على باب منزله . فلما سمعت تلك السيدة بذلك ، أبلغت أخبرت وجود السلطان فى منزلها للأمير أينبك البدرى ، فأرسل معها عدداً من الجنود . ولما دخلوا لم يجدوا فيـه أحدا . فصعدوا الى سطح المنزل حيث وجدوا السلطان مختفياً فقبضوا عليه وأركبوه فرساً بعد أن غطوا وجهه ، وصعدوا به الى القلعة ، ثم قتلوه عقب ذلك (٢) (٣ ذى القعدة سـنة ٧٧٨ هـ = ١٧ مارس سنة ١٣٧٧ م) .

وقد وقعت فى عهد السلطان على بن شعبان (٧٧٨—٧٨٣ هـ = ١٣٧٦ — ١٣٨١ م) حادثة نذكرها لطرافتها ، ولأنها كانت الأولى من نوعها فى عصر المماليك . فقد اعتاد الأمراء اذا ما اشتد غضبهم على السلطان أن يخلعوه ثم يحبسوه أو يقتلوه ، ولكن الأمراء هذه المرة ، أعلنوا — قبل خلع السلطان القائم — تولية سلطان آخر . هو أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون . فأصبح على عرش مصر سلطانان ، والتف حول كل سلطان فريق من الأمراء يسنده ويعضده ويعمل على تثبيت عرشه .

ذلك أن السلطان المنصور علاء الدين كان قد وعد مماليك الأمير يلبغا — عند شكواهم اليه من معاملة سيدهم — بمناصرتهم عليه . ففكر يلبغا فى إقامة سلطان آخر غيره . ومن العبارات التى ننقلها عن المقريزى فى هـذا الصدد نتبين الدرك الذى انحدرت إليه السلطنة المملوكية إذ ذاك : إذ « أمر يلبغا . فجئ اليه بالخليفة ، وأنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون ، أن يقدم اليه السلطنة . فامتنع من ذلك . واحتج بأن الشوكة للأشرف شعبان » فأمر [يلبغا]

---

(١) النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٧٧ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

بالكوسات (١) فدقت وأقام شعار السلطنة كله . وقال : أنا أعينه وأؤيده ، ومن [له] الشوكة غيرى . فلم يجد الخليفة بدأ من سلطنة أنوك فأقاموه . ولقبوه بالملك المنصور ، وأركبوه بالشعار السلطانى . وجلس المنصور أنوك بكرة يوم الجمعة ، وبين يديه أرباب الدولة والأمراء وأرباب الأقلام على العادة » (١).

وقد مر بنا فى عصر دولة المماليك فيما قبل وفاة الناصر محمد ، شذوذ فى أنظمة الحكم يماثل ذلك الشذوذ ، وهو وجود سلطانين فى وقت واحد على عرش مصر ، الأول : حين أقيم الناصر يوسف مع السلطان الملك المعز أيبك سنة ٦٤٨ هـ ، كل منهما بلقب سلطان . والثانى : حين أقام السلطان قلاوون ابنه الصالح على سنة ٦٨٧هـ سلطانا على مصر . والثالث : هو إقامة أنوك مع وجود على . إلا أننا نلاحظ أن السلطان الأشرف الأيوبى أقيم برضاء أيبك ، ولو أنه كان رضاء صورياً حتى لا يعزل عن الحكم . وأقيم الصالح على بأمر أبيه قلاوون وبمحض إرادته ، على الا يحكم مصر الا حين غياب أبيه عنها ، ولكن أنوك أقيم نكاية فى الأمير يلبغا ومن شايعه من الأمراء فى السلطان القائم وتمهيداً لعزله بوضعه أمام الأمر الواقع . وإن هتاف أنصار السلطان القائم ضد أنوك بقولهم : « سلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة » ، ثم القبض على أنوك وحبسه ، وقتل الأمير يلبغا الذى أقامه . « وأسواق القاهرة طول هذه الأيام مغلقة ، والأسباب متعطلة ، وليس للناس شغل سوى التفرج فى شاطىء النيل على المقاتلين من اليلبغاويه والسلطانيـة » ، ليدلنا على أن الدولة قد وصلت إذ ذاك إلى حالة يرثى لها من الضعف والانحلال والفوضى ، ويحق لنا أن ندرك أن دولة المماليـــك البحرية أصبحت على وشك الزوال .

وقد ظل علاء الدين على سلطاناً حتى وفاته فى ١٣ صفر سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) ، وله من العمر اثنتا عشرة سنة وكان خلفه حاجى بن شعبان (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ = ١٣٨١ — ١٣٨٢ م) هو آخر سلاطين المماليك من بيت الناصر بل آخر سلاطين دولة المماليك البحرية . وكانت سنه حين اعتلائه العرش تتراوح بين التاسعة والحادية عشرة ، فعين برقوق أتابكاله ، فعمل هذا — على ما جرت به العادة فى ذلك العصر — على الوصول إلى السلطنة ، مع أن الأتابكة لم يفكروا فى طول فترة حكم أولاد الناصر وأحفاده فى اعتلاء العرش . بل إن دولة المماليك البحرية كانت تنتهى بوفاة المنصور علاء الدين فى سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م) ، إذ أن برقوق كان يعتزم اعتلاء عرش السلطنة بعد المنصور ، ولكن كبار الأمراء رفضوا أن يحكمهم « مملوك يلبغا » الذى كان قد بلغ كره الناس له أقصاه (٢) . إلا أن برقوق لما اطمأن إلى زوال

---

(١) السلوك (مخطوط) ج ٣ ص ٥٤ — ٥٦ .

(١) الكوسات : هى صنوجات من نحاس ، تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ و ١٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ الفصل الثانى ص ٣٤٨ .

ما كان يخشاه وضمن تأييد الأمراء والنواب ، استدعى الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ، فلما اجتمعوا خطبهم القاضى بدر الدين بن فضل الله ، قائلا : « ياأمير المؤمنين وياسادتى القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية ، وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب . فاستقر الرأى على خلع الملك الصالح حاجى من السلطنة ، وجلس برقوق على العرش . وعلى أثر ذلك أدخلوا الملك الصالح الى دور الحرم بالقلعة ، وهو المصير الذى انتهى اليه اخواته السلاطين من قبل .

وفى الواقع أنه لم تكن هناك غير نهاية واحدة لهذه المجموعة من الدمى التى تبوأت عرش مصر منذ وفاة الناصر ، وقبضت على السلطة بصفة إسمية . وكان من الطبيعى أن يغتصب العرش أمير قوى ، كما فعل بيبرس وقلاوون من قبل . وكان هـذا الأمير تلك المرة برقوق ، الذى تغلب أولا على منافسيه من أمراء العصر واحدا بعد واحد ، ثم خلع آخر سلاطين بنى قلاوون سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) وأسس دولة المماليك البرجية أو الجراكسة .

ويجب أن نعرف أن حكم بيبرس الأول (١٨ سنة) وقلاوون (١١ سنة) والناصر محمد (٤٢ سنة) والناصر حسن (١١ سنة) قد استغرق ثلثى مدة حكم سلاطين الدولة الأولى ، ومجموع السنوات التى ظل فيها سلاطين تلك الدولة كلهم متربعين على عرش مصر هو ١٣٤ سنة ، فيكون الباقى وقدره ٥٢ سنة هو الذى تولى الحكم خلاله بقية سلاطين الدولة الأولى وعددهم عشرون سلطانا ، ويكون متوسط حكم السلطان الواحد منهم سنتين و نصف تقريبا .

مظاهر الضعف فى سلطنة أولاد الناصر وأحفاده :

كان السلاطين الذين اعتلوا العرش من أولاد الناصر وأحفاده أطفالا لم يبلغوا سن الرشد . يولون ويعزلون أو يقتلون حسب إرادة أمراء ذلك العهد . ولا غرو فقد بلغ سن السلطان أحيانا خمس سنوات ! وكان أضعفهم إرادة ، أكثرهم قبولا لدى الأمراء . فاذا ما بدأ يعارض رغباتهم ، بادر الأمراء إلى عزله وتدبير أمر قتله أحيانا . ومن ذلك نرى أن الأمراء ، فى تلك الفترة ، قد فهموا من معنى الوراثة أن الجالس على عرش مصر ينبغى أن يكون من أبناء الناصر ، ولكن ليس من الضرورى أن يظل فى الملك حتى يموت بل يباح عزله أو قتله إذا أساء التصرف ، ما دام من يخلفه هو من أبناء الناصر ومن أخوات السلطان المخلوع .

وقد نتج عن صغر سن السلطان وقصر مدة حكمه ، ظهور نفوذ الأتابكة بشكل جلى ، وتركز السلطة فى أيديهم ، حتى لم يعد للسلطان وجود البتة إلا بالاسم ، وتضاءلت شخصيته . حتى لم يكن يسمع عنه إلا وقت التولية وحين العزل .

وقد أدى ازدياد نفوذ الأمراء في عهد هؤلاء السلاطين إلى استمرار التنافس والتحاسد بين أمراء الدولة وتدبيرهم الفتن وإقامتهم الدسائس بعضهم لبعض ، لعدم وجود سلطان قوى

يردع هؤلاء الأمراء عن غيهم ويقفهم عند حد لا يتعدونه . فكانت عهود أولئك السلاطين لا تخرج عن سلسلة من المؤامرات التى تولدها المنافسات والمشاحنات بين أمراء تقتضيهم مصالحهم أن يلتفوا حول شخص السلطان القائم وبين أمراء ينافسونهم فى مصالحهم هذه ويرون ان فى خلع السلطان وإقامة غيره خير وسيلة للنكاية بأعدائهم . ولذا كان يصحب خلع السلطان وتولية سلطان آخر مكانه اضطراب وفوضى لم تعهدهما مصر فى عهد سلاطين المماليك الأقوياء .

وفى عهد سلطنه أولاد الناصر لم يفكر أحد الأتابكة فى الوصول إلى العرش . فقد قنعوا إذ ذاك بخلع السلطان والحجر عليه أو تدبير أمر قتله ، وذلك فى الوقت الذى كانوا يرغبون فيه فى التخلص من السلطان ، ثم يعمدون إلى تولية أحد إخوته مكانه . وكان من الغريب حقاً عدم وصول أحد الأتابكة إلى عرش السلطنة فى تلك الفترة التى اعتلى فيها العرش سلاطين لم يبلغوا سن الرشد . على أنه يظهر أن فكرة وصول الأتابكة إلى عرش السلطنة قد جالت فى أذهان بعضهم ، ولكنها لم تستمر طويلا . وسرعان ما اختفت لخوف هؤلاء الأتابكة من عدم تأييد الأمراء لهم فى تنفيذ فكرتهم . لما كان بينهم من عوامل الحقد والتنافس على النفوذ ، فلم يكونوا يرضون أن يسودهم أحدهم خوفا من أن يستبد بهم ، بل كانوا يفضلون كثيراً أن يكون سلطانهم ممن لا شخصية له ولا إرادة ، حتى يتمكنوا من أن يصلوا فى عهده إلى تحقيق كل أمانيهم . وهذه الصفات التى تطلبوها فى السلطان قد توافرت فى أولاد الناصر .

ولكن بتعيين برقوق سنة ٧٨٣ هـ أتابكا للسلطان الملك الصالح زين الدين حاجى (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ = ١٣٨١ — ١٣٨٢ م) حفيد الناصر محمد ، يعود عهد طموح الأتابكة إلى عرش السلطنة ، وذلك على نحو ما كان متبعاً منذ قيام دولة المماليك حتى وفاة السلطان الناصر محمد . فقد عمل برقوق منذ أن أصبح أتابكا على اعتلاء العرش ، ولم يمنعه من تنفيذ ذلك إلا خوفه من عدم تأييد الأمراء له . ولما اطمأن إلى زوال ما كان يخشاه ، خلع الملك الصالح حاجى من السلطنة وجلس مكانه على العرش . وبعزل الصالح حاجى وتولية أتابكه برقوق العرش ، ينتهى عصر أولاد الناصر وأحفاده ، ويزول الملك عن بيت قلاوون . بعد أن حكم مصر مائة وثلاث سنين ، قبض فيها قلاوون وابناه الأشرف صلاح الدين خليل والناصر محمد على زمام الأمور بأنفسهم ، بينما حكم الباقون من ذرية قلاوون حكما صوريا ، ولم يكن كل منهم أكثر من ألعوبة فى أيدى الأمراء .

أولاد الناصر

الرقم	أسماء السلاطين	السن عند اعتلاء العرش	ابتداء السلطنة	نهاية الحكم	سنوات التولية والعزل بالهجرة والميلادى	مدة حكم كل منهم	الأمراء القابضون على زمام السلطة
١	المنصور سيف أبو بكر	٢٠ سنة	٢١ ذو الحجة سنة ٧٤١ هـ	٢٠ صفر ٧٤٢ هـ	٧٤١ — ٧٤٢ هـ ١٣٤٠ — ١٣٤١م	٣ أشهر	الأمير قوصون
٢	الأشرف علاء الدين كجك	٥ أو ٧ سنوات	١١ صفر سنة ٧٤٢ هـ	أول شعبان سنة ٧٤٢ هـ	٧٤٢ هـ و١٣٤١ م	٥ أشهر وعشرة أيام	الأمير قوصون
٣	الناصر شهاب الدين أحمد	٢٤ سنة	١٠ شوال سنة ٧٤٢ هـ	١١ المحرم سنة ٧٤٣ هـ	٧٤٢ — ٧٤٣ هـ ١٣٤٢ م	شهران و ١٢ يوما	يلبغا اليحياوى وبلكتمر الحجازى
٤	الصالح عماد الدين اسماعيل	١٧ سنة	١٢ المحرم سنة ٧٤٣ هـ	٤ ربيع الثانى ٧٤٦ هـ	٧٤٣ — ٧٤٦ هـ ١٣٤٢ — ١٣٤٥م	سنة وعدة أيام	آقسنقر السلارى
٥	الكامل سيف الدين شعبان	سنه	٤ ربيع الثانى ٧٤٦ هـ	٣ جمادى الآخر سنة ٧٤٧ هـ	٧٤٦ — ٧٤٧ هـ ١٣٤٥ — ١٣٤٦م	سنة وشهر و٢٨ يوما	أرغون العلائى
٦	المظفر زين الدين حاجى	١٥ سنة	٤ جمادى الآخر سنة ٧٤٣ هـ	٢٧ جمادى الآخر سنة ٧٤٨ هـ	٧٤٧ — ٧٤٨ هـ ١٣٤٦ — ١٣٤٧م	سنة و ٣ أشهر	الأمير شيخو
٧	الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن (سلطنته الأولى)	١١ سنة	١٤ رمضان سنة ٧٤٨ هـ	١٧ جمادى الآخر سنة ٧٥٣ هـ	٧٤٨ — ٧٥٢ هـ ١٣٤٧ — ١٣٥١م	سنة ٣ شهر ٣ يوم ١٤	
٨	الصالح صلاح الدين صالح	١٤ سنة	٢٨ جمادى الآخر سنة ٧٥٢ هـ	٣ شوال سنة ٧٥٥ هـ	٧٥٢ — ٧٥٥ هـ ١٣٥١ — ١٣٥٤م	سنة ٣ شهر ٣ يوم ١٤	شيخو وطاز وصرغتش
٩	الناصر بدر الدين أبو المعالى حسن (سلطنته الثانية)	١٥ سنة	٨ شوال سنة ٧٥٥ هـ	١٢ جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ	٧٥٥ — ٧٦٢ هـ ١٣٥٤ — ١٣٦١م	سنة ٦ شهر ٧ يوم ٧	

أحفــاد الناصــر

الرقم	أسمـــاء السلاطين	السن عند اعتلاء العرش	ابتداء السلطنة	انتهاء السلطنة	سنوات التولية والعزل بالهجرى والميلادى	مدة حكم كل منهم	الأمير أو الأمراء القابضون على زمام السلطنة
١	المنصور صلاح الدين محمد بن المظفر سيف حاجى ابن الناصر محمد بن قلاوون	١٤ سنة	٩ جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هـ	شعبان ٧٦٤ هـ	٧٦٢ — ٧٦٤ هـ ١٣٦١ — ١٣٦٣م	سنتين وأربعة أشهر	قشتمر المنصورى
٢	الأشرف زين الدين أبو المعالى بن شعبان ابن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون	١٠ سنة	شعبان ٧٦٤ هـ	٣ ذى القعدة ٧٧٨ هـ	٧٦٤ — ٧٧٨ هـ ١٣٦٣ — ١٣٧٦م	١٤ سنة	يلبغا
٣	المنصور علاء الدين على بن الأشرف شعبان ابن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون	٦ سنة	٨ ذى القعدة ٧٧٨ هـ	١٣ صفر ٧٨٣ هـ	٧٧٨ — ٧٨٣ هـ ١٣٧٦ — ١٣٨١م	٦ سنة	أينبك البدرى وقرطاى وبرقوق
٤	الصالح زين الدين أمير حاج بن الأشرف بن ابن حسين بن الناصر محمد ابن قلاوون	١١ سنة	١٤ صفر ٧٨٣ هـ	١٩ رمضان ٧٨٤ هـ	٧٨٣ — ٧٨٤ هـ ١٣٨١ — ١٣٨٢م	سنة وتسعة أشهر	برقوق وبرخ

الباب الخامس

السياسة الداخلية

علاقة السلاطين بالمصريين

سياسة سلاطين المماليك قبل الناصر ازاء النصارى واليهود :

قاسى الأقباط ، قبل ظهور الاسلام ، كثيرا من أنواع الاضطهاد ، كغيرهم من المسيحيين : فقد اضطهدهم حكام رومه وأباطرة الدولة الرومانية الشرقية . إلا أن ظهور الاسلام أعطاهم فترة من الهدوء والاستقرار تحت حكم الخلفاء الأول الذين اتبعوا معهم سياسة عمر بن الخطاب . ومما يسترعى النظر أنه على الرغم من الاضطهاد الذى ناله الأقباط ، فان أفكارهم الدينية لم تقاوم ، بل تقدمت ، وأصبح للكنيسة القبطية القدرة على أن تعيش حرة وتحيا حتى الآن .

وفى مصر الاسلامية ، لم يتبع كل حكامها وولاتها سياسة واحدة فى معاملة الأقباط ، بل اختلفت هذه السياسة لينا وشدة ، ورأفة وعنفا . وأحسن معاملة رأوها ، كانت فى عصر الفاطميين ، فقد اتخذوا منهم الوزراء وأرباب المناصب العالية الذين جمعوا ثروة كبيرة وأصبحوا ذوى نفوذ وسلطان . وفى العصور الوسطى ، ظهر الأقباط فى مصر كطائفة محايدة ، وخاصة فى الحروب التى قامت بين المسلمين والصليبيين ، إذ لم يثبت أنهم مدوا يد المساعدة للمحاربين من الجانبين . لذلك تمتعوا بحماية الولاة الذين منحوهم أنواع الحرية الدينية .

ولكن فى عصر المماليك قاسى القبط كثيراً تحت حكمهم وان لم يتعرض المماليك لآرائهم الدينية ، وكانت الحروب الصليبية التى قامت فى أوربا ومصر فى القرنين السادس والسابع الهجرى (أى الثانى عشر والثالث عشر الميلادى) من العوامل التى ساعدت على عدم معاملة المماليك للأقباط المعاملة الطيبة التى عاملهم بها الفاطميون ، فان هزيمة قوات المماليك أمام قوات غرب أوربا ، كانت تستتبع انتقام المماليك لأنفسهم من أقباط مصر (١) .

كذلك لم يكن انتصار المماليك على الصليبيين خيراً ونعيما فى كل الأحوال للمسلمين فى مصر . فقد كان ينسب إليهم فى بعض الأحوال أنهم يشعلون النار فى أحياء القاهرة ، وكان المماليك والشعب ينتقمون منهم أشد الانتقام ، حدث ذلك مثلا لما انتصر السلطان الظاهر بيبرس على الفرنج وانتزع منهم أرسوف وقيصرية وطرابلس ويافا وأنطاكية (٢) ، فى بعض الأحيان

---

(١) A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 272 — 274.

(٢) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٨ . Marcel ; Histoire de L'Egypte, p. 163.

كانت الحرائق تنسب إلى المسيحيين فى مناسبات أخرى [١] .

وكانت طائفة الأقباط المنتشرة فى مصر فى عصر المماليك هى طائفة المسيحيين اليعاقبة . ولم تكن سياسة سلاطين المماليك فى معاملة هؤلاء واحدة ، بل اختلفت ليناً وشدة . والحق أن القبط كانوا ذوى نشاط ظاهر فى دواوين الحكومة المملوكية بل كانوا يديرون إقطاعات الأمراء المماليك فى معظم الأحيان ، فكانوا لازمين لحسن سير الأمور المالية فى البلاد . وكانت الحكومة تعرف ذلك ولكنها كانت تقصيهم عن الوظائف بين حين وآخر تحببا إلى الشعب وارضاء لروح التعصب . غير أن هذا الاقصاء كان قصير الأمد لأن وجودهم فى تلك الوظائف كان ضرورياً . وقد تكرر هذا الاقصاء فى عصر المماليك : فحدث سنة ٦٧٨ ﻫ (١٢٧٩ م) و سنة ٦٨٢ (١٢٨٣ م) و سنة ٧٠٠ (١٣٠١ م) و ٧٢١ م (١٣٢١ م) و ٧٢١ ﻫ (١٣٢١ م) و ٧٥٥ ﻫ (١٣٥٤ م) و ٨٢٢ ﻫ (١٤١٩ م) و ٨٢٥ ﻫ (١٤١٢ م) و ٨٥٢ ﻫ (١٤٤٧ م) [٢] .

ومما ذكره المقريزى وما أخذه عنه ميور يتضح مثلا أن سياسة بيبرس فى معاملة النصارى واليهود لم تكن تنطوى على شىء من العطف . وأن السلطان قلاوون أبا الناصر قد حرم المسيحيين الالتحاق بالوظائف العامة ، وكان ينزل بهم أقسى أنواع العقاب [٣] . ويقول المقريزى عن معاملة قلاوون للنصارى : « فى سنة ٦٨٢ ﻫ كانت واقعة النصارى ، ومن خبرها أن الأمير سنجر الشجاعى كانت حرمته وافرة فى أيام الملك المنصور قلاوون ، فكان النصارى يركبون الحمير بزنانير فى أوساطهم ولا يجسر نصرانى يحدث مسلما وهو راكب واذا مشى فينزله وله يقدر أحد منهم يلبس ثوباً مصقولا » [٤] .

وفى عهد السلطان خليل بن قلاوون قل اضطهاد النصارى ، وسمح لهم بالانخراط فى سلك الوظائف الحكومية والأهلية . ويظهر أن التفكير فى عودة هؤلاء إلى أعمالهم بعد إقصائهم كان يرجع إلى أنهم كانوا الفئة الوحيدة التى تصلح لادارة أعمال الدولة المالية حتى أن حكام مصر من المماليك كانوا يشعرون بخلل الأداة الحكومية بعد ترك الأقباط لها . وكان شعور المماليك يثور على رعاياهم من الأقباط بسبب استمرار ذلك العداء الذى قام بين المماليك والصليبيين .

وقد ذهب الأستاذ ڤييت إلى أن بعض ما كان يصيب القبط من اضطهاد وما كان يصدر

---

(١) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) راجع مقال الأستاذ ڤيت (wiet) عن القبط فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٢ .

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 31—38.

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٩٧ .

من أوامر تقيد من حريتهم كان يحدث عند ما تكون الحكومة فى أزمة مالية وكان يقصد به أن يدفعوا الأموال للتخلص من تلك القيود [١] ويلوح كذلك أن المسلمين كانوا لا يثقون تماماً فى إخلاص القبط لهم ولا سيما حين يسدون اليهم النصح بشأن علاقتهم مع الأمراء المسيحيين [٢]. كما يظهر أن سخط المسلمين على القبط كان ينشأ أحياناً من نجاح الأخيرين فى جمع الثروات وفى وقف قسم كبير من أراضى مصر على الكنائس والأديرة [٣] وفى التسلط على عقول السلاطين والأمراء [٤].

بيد أن سياسة السلطان الأشرف خليل التى كان قوامها الود وحسن التفاهم مع الأقباط سرعان ما تبدلت . فقد روى المقريزى عبارة نستدل منها أن كتّاب النصارى الذين التحقوا بخدمة الأمراء الخاصكية أساء بعضهم معاملة مرءوسيهم من المسلمين وأثاروا بذلك شعور الكراهية نحو أبناء هذه الطائفة . ولقد حدث أن أحد هؤلاء الكتاب — وكان بخدمة أحد أمراء الخاصكية ويعرف باسم عين الغزال — سب سمسار شونة الأمير وتوعده وأغلظ له القول لأنه تأخر فى تسليم بعض المال المستحق عليه من ثمن غلة الأمير وأمر غلامه بقيده ولم يصغ لاعتذار السمسار . وأثار بذلك سخط العامة فألقوه عن حماره وأطلقوا السمسار ثم ساروا إلى القلعة وقدموا الاحتجاجات للسلطان على ما وقع من الكاتب وما حدث للسمسار على يده [٥]. وبلغ من غضب السلطان أنه أمر بأن « ينادى فى القاهرة ومصر أن لا يخدم احد من النصارى واليهود عند أمير وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الاسلام [٦] » .

وعلى أثر وقوع ذلك الحادث أسلم كثير من النصاري وأخذت عليهم إقرارات عرضت على السلطان فاعتمدها . على أن السلطان خليل لم يرد أن يتمادى فى إنزال العقاب بأهل الذمة من أجل تلك الحادثة فأمر بعدم نهب بيوت النصارى واليهود . وهدد والى القاهرة كل من تعرض لهم بسوء بالشنق وقبض على عدد كبير من العامة وأمر بهم فشهروا وخمدت الفتنة .

عطف الناصر على النصارى واليهود :

ولكن الناصر كان أكثر عطفاً على النصارى ممن سبقه من سلاطين المماليك حتى إنه أمر باعادة كل من طرد منهم إلى وظيفته وحباهم عطفه ومنع عنهم الضر والأذى . فتمتعوا فى

---

(١) راجع مقال الأستاذ ڤيت (Wiet) عن القبط (Ḳibt) فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) العمرى : التعريف ج ١ ص ٦٣ — ٦٤ . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٦٩ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٩٧ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٩٨ .

عهده بالهدوء والطمأنينة وراحة البال. اللهم إلا إذا استثنينا بعض حوادث عارضة كانت تؤدى إلى تغير السلطان والعامة عليهم . ولكن تلك الحوادث كانت تزول بزوال الدافع إليها .

استمر الأقباط يتمتعون بتلك الطمأنينة حتى كانت سنة ٧٠٠ ﻫ ، إذ قدم فى شهر رجب من تلك السنة إلى القاهرة وزير أبى عنان فارس المرينى ملك مراكش استرعى نظره رجل يركب فرساً ، ويلبس عمامة بيضاء ، وفروجية مصقولة ، ويسير فى ركابه جماعة من الناس . يتضرعون إليه ، ويقبلون رجليه . وهو يعرض عنهم وينهرهم ويأمر غلمانه بأن يطردوهم وهم يصيحون : « يا مولاى الشيخ ! بحياة ولدك النشو ، تنظر فى حالنا » . فلم يزده ذلك إلا تجبرا وعتوا . فتساءل هذا الوزير عمن يكون هذا الرجل الذى يحاط بكل مظاهر التبجيل والتعظيم . ولما علم أنه نصرانى غضب ، وسار إلى القلعة حيث قابل الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير ، وقص عليهما ما رآه ، وهو يبكى ، ووعظ الأمراء وحذرهم نقمة الله إن هم تمادوا فى حسن معاملتهم ، وأبان لهم أنهم فى بلاد المغرب يعاملون معاملة قاسية : فلا يسمح لهم بلبس الثياب الفاخرة ولا ركوب الخيل والبغال ، ولا العمل فى الدواوين السلطانية ، وذلك كله على عكس ما رأى فى مصر [1]. وأشار عليهم بضرورة التزام « العهد العمرى » فيما يختص بمعاملة النصارى سواء من حيث الزى أو الاشتغال فى الوظائف .

هذا ما رواه المقريزى فيما يختص بالسبب الذى حدا بوزير ملك مراكش إلى إثارة حماسة الأهلين على النصارى . إلا أن كلا من أبى المحاسن وابن إياس قد روى هذه القصة على وجه آخر ، فقد ذكرا أنه بينما كان ذلك الوزير جالساً بباب القلعة ، إذ حضر بعض الكتاب النصارى ، وعلى رءوسهم العمائم البيض ، لعرض الأوراق على الأمير بيبرس الجاشنكير فقام إليهم الوزير المغربى وحياهم أحسن تحية وبالغ فى تعظيمهم . على اعتبار أنهم من المسلمين . فلما قيل له إن هؤلاء من النصارى دخل على السلطان الناصر ، وتكلم معه فى ضرورة تغيير زيهم ليتميزوا عن غيرهم من المسلمين ، وتعود مصر إلى التزام « العهد العمرى [2] » .

وقبل أن نتكلم عن المرسوم الذى أصدره الناصر وما انطوى عليه من شدة فى معاملة النصارى يجب أن نلاحظ أنه إنما صدر بتحريض رجل لا يمت إلى المصريين بصلة . ومن المؤكد أن نفس هذا الرجل لم تتشرب روح العدل والمساواة بين الأهلين مهما اختلفت أديانهم وتباينت نحلهم . تلك الروح التى سادت عهود حكم العرب منذ ظهور الإسلام والتى كانت من العوامل التى جعلت « المصريين » — وكان السواد الأعظم منهم من القبط — يرحبون بفتح مصر على يد عمرو بن العاص ليخلصهم من الاضطهادات الدينية التى حلت بهم إبان حكم الرومان . ومن الغريب أن ذلك التحريض وذلك الانقلاب قد حدث فى وقت كان فيه المصريون يعيشون

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٩٨ ؛ كتاب السلوك ج ١ ص ٩٠٩ — ٩١٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣٢ . ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٣

جميعاً فى سلام ووئام وخاصة فى قرى مصر . أما فى المدن فان المنازعات التى قامت بين المسلمين والأقباط لم تعد أن تكون حوادث فجائية لا تؤثر فى تلك الحقيقة الواضحة الملموسة ، وهى أن المصريين قبطاً ومسلمين كانوا يعتبرون أنفسم جنساً واحداً يشترك فى تحمل عسف بعض أمراء المماليك .

مرسوم رجب سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م)[١] :

ومما يدعو الى الأسف أن الناصر والأمراء تأثروا بكلام وزير مراكش . فأمر السلطان فى ٢٠ رجب سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) بعقد مجلس فى المدرسة الصالحية بين القصرين حضره حكام مصر وقضاتها وفقهاؤها . واستدعى بطرك الأقباط وديان اليهود (رئيسهم الدينى) وجماعة من الأساقفة وأكابر الكهنة وأعيان الملة المسيحية واليهودية . وندب قاضى القضاة شمس الدين احمد السروجى الحنفى لينوب عن المسلمين فى هذا المجلس . وطال الجدل بين المسلمين من جهة وبين النصارى واليهود من جهة أخرى فى مدى الشروط التى يصح أن تفرض على أهل الذمة .

وقد وردت القيود التى فرضت على النصارى واليهود بايجاز فى كتب المقريزى وابى المحاسن وتاريخ سلاطين المماليك ، كما أخذ عنهم المؤرخون المحدثون أمثال ميور Muir وليفبول Lane-Poole [٢] . على أن النويرى قد ذكر هذه القيود بالتفصيل فقال :

« وبحث الفقهاء فى ذلك ، فاقتضت المباحث الشريفة بين العلماء أن يميز النصارى بلبس العمائم الزرق ، واليهود بلبس العمائم الصفر . وتميز نساء أهل كل ملة كذلك بعلامة تظهر . ولا يركبوا الخيول ، ولا يحملوا سلاحا . ويركبون الخيول الحمر بالأكف عرضاً من غير تمييز لها ولا قيمة . ويتجنبوا أوساط الطرق للمسلمين فى مجالسهم عن مراتبهم ، ولا يرفعوا أصواتهم على أصوات المسلمين ، ولا يعلوا بناءهم على بناء المسلمين . ولا يظهروا شعانينهم . ولا يضربوا بالنواقيس ، ولا ينصروا مسلماً ولا يهودوه ، ولا يشتروا من الرقيق مسلما ، ولا من سباه مسلم . ولا ما جرت عليه سهام المسلمين ، ومن دخل منهم الحمام يميز نفسه بعلامة عن المسلمين بجرس فى حلقه . ولا ينقشوا فصوص خواتيمهم بالعربى ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا

---

(١) بخصوص هذا المرسوم راجع Journal Asiatique, Serie IV, tome 18, pp. 425 et Seq.

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ٤٩٨ — ٤٩٩ . السلوك جـ ١ ص ٩١٠ — ٩١١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٢ .

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 60—61.
Zetterstéen, p. 87.
Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 301.

يستخدموا فى أعمالهم الشاقة مسلما ، ولا يرفعوا النيران ، ومن زنا منهم بمسلمة قتل » . (١)

ومما زاد هذه الحالة سوءا ذلك المرسوم الذى صدر فى ٢٠ رجب من تلك السنة (٧٠٠ هـ) يحرم استخدام أحد من النصارى أو اليهود بديوان السلطان أو بدواوين الأمراء الا من أسلم منهم . ونودى فى القاهرة بأن كل من خالف أحد هذه القيود كان جزاؤه القتل . وقد حاول النصارى واليهود التحرر من هـذه الشروط أو من بعضها وبذلوا الأموال الوفيرة . فلم تلق هـذه الالتماسات أذناً مصغية من السلطان الذى أمر باغلاق الكنائس بمصر والقاهرة حتى اضطر كثير من النصارى الى اعتناق الاسلام ليتخلصوا من هذه القيود ويحتفظوا بوظائفهم(٢). ولم يقتصر الأمر على أفراد هاتين الطائفتين المقيمتين بديار مصر بل أمر الناصر باذاعة هذا المرسوم فى جميع الأراضى الممتدة فيما بين النوبة والفرات عدا الكرك والشوبك لقلة عدد المسلمين فى كل منهما ولذلك لم يغير النصارى لون عمائمهم (٣) .

والظاهر أن السلطان أمر بغلق كل الكنائس فى مصر ، إلا كنائس الاسكندرية . ولعله استثناها كى لا يترك مجالا لأهلها فى طلب توسط بعض الدول الأجنبية ، ومع ذلك فان المسيحيين الملكانيين أصابتهم قيود المرسوم السلطانى . وسنرى أن سفراء من امبراطور بيزنطة وملك أرجون سيفلحون فى تخفيف تلك القيود والحصول على قرار بفتح بعض الكنائس .

ويظهر أن تدخل الوزير المراكشى قد فعل فعله فى نفوس أمراء مصر حتى إننا نرى أن هذا المرسوم الذى صدر يكاد يكون صورة طبق الأصل مما أشار به هذا الوزير . وكان إصغاء أولى الأمر من المسلمين فى مصر لنصيحته ، غريبا فى بابه إذ أنهم لم يراعوا ظروف كل من البلدين من حيث درجة المدنية وموقف الطوائف بعضها من بعض وموقفها من الهيئات الحاكمة ، فان المسلمين والأقباط كانوا مصريين قبل كل شىء . يضاف إلى ذلك أن طائفة القبط كانت هى الطائفة التى درجت على إدارة شئون الدولة بوجه عام وإدارة الشئون المالية بوجه خاص ، حتى إن العرب قد أقروهم فى وظائفهم اعترافا منهم بكفايتهم لتولى مناصب الدولة . قال أحد المؤرخين المحدثين فى هذا الصدد : « وخوفا من عدم فهم الحقيقة التى دفعت المماليك إلى طرد الأقباط من الوظائف ومعاملتهم هـذه المعاملة السيئة ، نرى أن ذلك لم يكن كله نتيجة التعصب الدينى . فان المسلمين من المصريين الوطنيين كثيرا ما كانوا يقاسون ما يقاسيه القبط على يد الطبقة الحاكمة من المماليك (٤) » .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٣٣٠ أ . راجع أيضا القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٣٧٧ — ٣٨٧ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩١١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩١٢ .

(٤) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 61.
A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 274—275, footnote. 2.

وقد أثر صدور هذا المرسوم تأثيراً سيئاً فى حالة الأمن العام فى مصر : فقد اتخذه الغوغاء ذريعة لنهب الأقباط وسلبهم واغتصاب أموالهم والتحرش فى الطرقات بكل من يرى منهم بغير الزى الذى رسم له أن يظهر به . وعمد بعض العامة فى الاسكندرية الى تخريب كنيستين من كنائس النصارى بتلك المدينة (١) . وسار الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المسيطر على شئون مصر مع الأمير سلار نائب السلطنة اذ ذاك على سياسة اضطهاد النصارى واليهود . فأمر باغلاق الكنائس بمدينة القاهرة . وذكر المقريزى أن بيبرس أمر كذلك بابطال عيد الشهيد بمصر . إذ جرت عادة الأقباط بأن يلقوا فى النيل فى كل عام تابوتا من خشب بداخله إصبع من أصابع أسلافهم الموتى . وكانوا يعتقدون أن النيل لا يزيد إلا إذا ألقى فيه هذا التابوت كما كانوا يفدون من جميع جهات القطر إلى شبرا لمشاهدة رمى الاصبع . ويخرج أهالى مصر والقاهرة على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيام على شاطىء النيل وفى الجزائر القريبة منه . وأضاف المقريزى إلى ما تقدم أن إبطال هـذا العيد قد شق على النصارى وأن شكواهم لم تلق من بيبرس الجاشنكير أذنا مصغية لاعادة الاحتفال به . وغدا ذلك الأمر من العوامل التى أثارت النصارى على المسلمين فى عهد سلطنة الناصر محمد الثانية (٢) . على أن الناصر لم يكن مسئولا عن كل ما نال القبط من اضطهاد فى تلك الفترة ، فانه فى الواقع لم يكن له إذ ذاك من الأمر شىء . وكان المسئول عن تلك الحركة كلها هما الأميران سلار وبيبرس .

مفاوضات دول أوربا بشأن النصارى واليهود :

على أن تأثير قرارات رجب سنة ٧٠٠ هـ قد أخذ يتضاءل شيئا فشيئا على مر السنين والأيام وتناسى الناس كثيرا من القيود التى وردت فى ذلك المرسوم حتى كاد يهمل ويبطل العمل به . وعاد الناصر إلى العمل على تسوية المسيحيين واليهود بالمسلمين فى تقلد مناصب الدولة العامة وسمح لهم بركوب ما يشاءون من دواب . ولكن مساعيه فى السماح لهم بلبس العمائم كما كانوا من قبل ذهبت أدراج الرياح . وخاف إن هو فعل ذلك أن يناوئه المسلمون ويدبروا له الفتن والدسائس .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩١٢ .
Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٨٧ — ٨٨ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٦٩ وجـ ٢ ص ٥٠٠ راجع أيضاً العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ ص ٣٦١ . السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ١٢ .

وأعيد عيد الشهيد فى أواخر عهد الناصر محمد سنة ٧٣٨ هـ ، وما لبث أن ألغى ثانية سنة ٧٥٥ هـ فى عهد السلطان الصالح صالح بن الناصر محمد ، ولم يعد هذا العيد مرة أخرى منذ ذلك العهد . راجع المقريزى : السلوك جـ ٣ (مخطوط) ص ١٥ — ١٧ .

إلا أن العامل الأساسى الذى حدا بالناصر إلى إنصاف المسيحيين يرجع إلى مفاوضات مباشرة فى مصلحتهم من عدة جهات :

(الأولى) من جانب امبراطور القسطنطينية الذى أرسل إلى السلطان الناصر السفراء يحملون الهدايا ، كى يعامل المسيحيين الشرقيين من أبناء مذهبه فى مملكته معاملة تنطوى على العطف واللين . ويظهر أن توسط الامبراطور كان له أثره الطيب فى موقف الحكومة المصرية ازاءهم بوجه عام ، وفى مصلحة الاغريق الملكانيين بوجه خاص . وكان هؤلاء يكوّنون أقلية بين مسيحى مصر (١) .

(الثانية) من جانب البابوات . فانهم طلبوا من الناصر أن يعامل رعاياهم النصارى برفق ، ليعاملوا المسلمين المقيمين فى بلاد الغرب بمثل تلك المعاملة (٢) . وكانت النتيجة المباشرة لجميع المحاولات التى بذلها البابوات فى هذه السبيل الحصول على بعض المزايا التى قد تتمتع بها طائفة المسيحيين فى الشرق .

(الثالثة) فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، أرسل ملوك أرغونه بعض الرسائل إلى السلطان الناصر بالتوصية على جميع المسيحيين المقيمين فى المملكة المصرية ، مع إعادة فتح الكنائس فى مصر والأراضى المقدسة .

ويهمنا من هذه المفاوضات تلك الرسائل التى تبودلت بين أحد ملوك أرغونة (برشلونة) المدعو يعقوب الثانى Jaime II والسلطان الناصر محمد خلال سلطنتيه الثانية والثالثة ما بين سنتى ١٢٩٢ — ١٣٢٧ م . وقد بلغ عدد هذه الرسائل ستا ، كتبت فى سنى ١٣٠٣و١٣٠٥ و ١٣١٤ و ١٣١٨ و ١٣٢٢ و ١٣٢٧ م ، على حين بلغ عدد الرسائل التى بعث بها الناصر إلى يعقوب ثمانيا (٣) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن أخلاق الناصر محمد قد ساعدت على تقريب وجهة النظر بين أرغونة ومصر ، فيما يختص بمعاملة الحكومة المصرية للمسيحيين ، على الرغم من عداوة المصريين التقليدية للجنس اللاتينى منذ قيام الحملات الصليبية الأولى . ولا غرو فقد كان الناصر ملكا مستنيرا ، وسياسيا محنكا ، يميل إلى المسالمة التى لا تنقص هيبته أو تخفض مكانته . وملك هذه سجاياه ، لا يرفض توثيق العلاقات الودية بينه وبين الممالك الشرقية أو الغربية ،

---

(١) Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, p 375.

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 73.

(٣) تناول الدكتور عزيز سوريال عطية رسائل ملك أرغونة The Aragonese Letters بالتفصيل فى مؤلفه Egypt and Aragon .

راجع أيضا فى موضوع الناصر وأهل الذمة خلال سلطنته الثانية
Weil : Abbasidenchalifat in Egypten, pp. 269 et seq.

الاسلامية والمسيحية على السواء . ومن ثم نرى الناصر يشجع إيفاد بعثات من تلك الأمم إلى بلاده حتى لقد أصبح بلاطه مركزاً للسفراء الأجانب الذين حملوا إليه أطيب أمانى ملوكهم . وساعد على ذلك تمتع مصر فى سلطنة الناصر الثالثة بشيء كثير من الاستقرار والطمأنينة . هذا إلى أن هذه البعثات التى أوفدها يعقوب الثانى إلى بلاط الناصر قد ضمنت لسلطان مصر حليفاً عظيماً ، ساعده على فض التحالف الذى عقده البابوات وأنصارهم لاقامة العراقيل فى سبيل تجارة المماليك والحيلولة دون وصول المواد الحربية والمماليك الجدد إلى مصر (١) .

ويمكن تلخيص الغرض من هذه البعثات فيما يلى : إيجاد علاقات صداقة وحسن تفاهم بين مصر وأرغونه ، والحصول على ميزات تجارية لتجار أرغونه فى المملكة المصرية ، وتسهيل سبيل الحج إلى الأراضى المقدسة لأهالى الغرب ، وإطلاق سراح المسجونين المسيحيين فى مصر وخاصة الذين ينتمون إلى أصل أرغونى . وأهم من هذا ، وهو المحور الذى تدور عليه هذه البعثات ضمان حسن معاملة الأقباط ومسيحي الشرق (٢) .

وبينما اعتبر يعقوب نفسه فى مراسلاته مع الناصر ، حامى مسيحى الشرق ، فان الناصر قد اعتبر نفسه أيضاً مسئولا عن رفاهية المسلمين المقيمين تحت حكم المسيحيين فى اسبانيا . وهنا نرى لزاماً علينا أن نوضح سلسلة هذه المراسلات الرسمية التى تبودلت فى تلك الفترة بين الملكين : الناصر ويعقوب .

بدأ الناصر الاجابة عن أولى هذه المراسلات بكتاب مؤرخ فى ١٣ من شوال سنة ٦٩٩ ﻫ (٦ من أبريل سنة ١٣٠٠ م) . وليس فى رده ما يدل على أن الملك يعقوب فاتحه فى معاملة النصارى واليهود فى مصر ، وانما يدل رده على أن الناصر قد أجاب ملك أرغونة إلى طلبه فى توثيق عرا الصداقة بينهما مما عد تمهيداً لارسال رسائل أخرى . يقول الناصر فى هذا الصدد « وعلمنا من مضمون كتابه ومشافهته ما قصده فى معنى التجار والمترددين من بلاده بالبضائع وما سأله من أن يكونوا يترددون من بلاده إلى بلادنا آمنين مطمأنين وأجبناه إلى ما قصده فى ذلك . . . وفى معنى من يختار الحضور من بلاده لزيارة بيت المقدس الشريف وما سأله من تمكينهم من ذلك وأن يكونوا آمنين مطمأنين ، فقد علمنا بذلك وأجبناه إلى قصده من هذا الأمر . . . وإنا قد أجبنا سؤاله إلى ما طلبه فى الصحبة والمودة فنحيط علمه ونواصل بكتبه وأخباره » (٣) .

وفى أول يونية سنة ١٣٠٣ م وصلت إلى الناصر رسالة ثانية من الملك يعقوب يرجو منه

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 11—12.

(٢) A. S. Atiya : Egypt and Aragon, pp. 67—68

(٣) A. S. Atiya : Egypt and Aragon, pp. 18—19.

فيها إعادة فتح الكنائس . مقابل حرية العبادة لجميع الطوائف فى إسبانيا المسيحية ، وإطلاق سراح المسجونين من أهل أرغونة .

وقد رد السلطان الناصر على رسالة الملك يعقوب فى ١٣ شوال سنة ٧٠٣ هـ (١٩ مايو سنة ١٣٠٤ م) ، وقد خصص معظم كتابه للرد على مسألة معاملة الأقباط وإعادة فتح بعض الكنائس . وهاك رد الناصر على هذا الكتاب :

« فأما ما ذكره بسبب الكنائس بالديار المصرية ، وأنه بلغه أنه أغلقت أبوابها ومنع النصارى من الصلاة فيها . وما ذكره فى هذا الفصل وما يتعلق به . وكذلك حديث الأسرى الذى قصد قبول شفاعته فى الافراج عنهم وإطلاقهم ، فقد أحطنا على جميع ما ذكره فى هذه الأمور وسيّرنا الآن رسولنا الأمـــير فخر الدين عثمان الناصرى فيشافه الاعتماد على ذلك . ولأجل منزلته ومودته الأكيدة عندنا أجبنا سؤاله فى أمر الكنائس ورسمنا بفتح كنيستين بمدينة القاهرة المحروسة ، مع أن أمر الكنائس الرجوع فيه إلى الشرع الشريف . ومقتضى الشرع الشريف أن لا يبقى منها شىء مفتوحا إلا ما هو من العهد العُمرى ، وكلما تجددت بعد العهد العمرى يقتضى شرعنا وديننا ألا يفتح واتفق أنه تجددت بعد العهد العمرى كنائس كثيرة ، والملك يعلم أنكم كما يجب عليكم الوقوف عند شرعكم وأحكام دينكم . كذلك نحن أيضاً يجب علينا أن نقف عند شرعنا وأحكام ديننا ، وقد سيرنا له الهدية » (١) .

ويظهر أن رأى الناصر محمد فى مسألة اغلاق الكنائس التى استحدثت بعدعمر بن الخطاب اتفق مع رأى الغلاة من مفتى الديار المصرية . ولذا يجب أن يذكر بالشكر والامتنان توسط يعقوب وجهوده فى هذا السبيل ، وأن تقدر سياسة الناصر الحكيمة وآراؤه المستنيرة ، إذ أنه على أثر هذه المراسلات التى تبودلت بين الملكين ، أمر الناصر باعادة فتح كنيستين هما : كنيسة اليعقوبيين فى حارة زويلة ، وكنيسة القديس نقولا الملكانية ، وفتح الأقباط حرية العبادة(٢) . كذلك يتضح من إرسال أحد المصريين رسولا إلى بلاط أرغونة يحمل اليه الهدايا من السلطان الناصر قد أجاب مطالب الأرغونيين وأن ذلك قد أدى إلى إيجاد علاقات ودية متينة بينه وبين ملكهم .

ولم تمض على هذه الرسالة غير سنة واحدة ، حتى أرسل الملك يعقوب فى أول سبتمبر سنة ١٣٠٥ م رسولا يدعى Neymerich (Eymerich) فى بعثة ثالثة إلى السلطان الناصر وافتتح يعقوب كتابه باعلان سروره واغتباطه بوصول الأمير فخر الدين إلى برشلونة ، ثم تقدم إلى السلطان فى هذه المرة يرجوه إجابة هذين الطلبين الخاصين بالرعاية المسيحيين فى مصر : أولهما حماية المسيحيين المقيمين فى المملكة المصرية ، وثانيهما إطلاق سراح الأسرى المسيحيين

(١) Atiya : Egypt & Aragon, p. 22.

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩١٢ .

فى مصر . وقد رد الناصر على تلك الرسالة فى أول شعبان سنة ٧٠٥ هـ (١٦ فبراير ١٣٠٦ م) وكان رده من أقوى الأدلة على توثيق علاقات الود بين سلطان مصر وملك أرغونة . أما الأمر الأول فقد أكد الناصر ان المسيحيين الذين يرغبون فى السفر إلى الأراضى المقدسة لاداء فريضة الحج ، سيؤدون هذا الحج فى أمن وطمأنينة . وأما عن الأمر الثانى فقد أجاب الناصر طلب يعقوب وأبلغه أنه أمر باطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين فى مصر . وقد أشارهنا إشارات لطيفة ليبين أنه لم يكن بين هؤلاء الأسرى أحد من أهل أرغونة ، مما يدل على أن تلك المراسلات التى تبودلت بين المملكتين قد أحدثت تأثيراً طيباً من حيث معاملة رعايا أرغونة فى مصر . وقد أوحت روح الود والوئام إلى الناصر فأبلغ ملك أرغونة أنه أمر والى الاسكندرية بضمان سلامة تجار أرغونة المقيمين بتلك المدينة ، مما كان له أحسن الأثر فى نفس الملك يعقوب ، حامى المسيحيين فى مصر . وكان لهذا الروح أثره فى نفوس رعايا السلطان من الأقباط (١) .

وانتهز الملك يعقوب فرصة ذلك التحسن الملحوظ فى أحوال المسيحيين فى مصر أثراً لتلك المراسلات ، فعزم على أن يخطو خطوات أخرى فى هذا السبيل ، فأرسل فى ٨ ديسمبر سنة ١٣١٤ م إلى الملك الناصر رسولين يحملان كتاباً يطلب اليه فيه إطلاق الحرية الدينية لجميع الرعايا المسيحيين فى أراضى السلطان وحماية الحجاج إلى الأراضى المقدسة وإطلاق سراح الأسرى المسيحيين فى مصر .

وفى ١٠ من ذى الحجه سنة ٧١٤ هـ (١٧ مارس سنة ١٣١٣ م) استقبل الناصر رسل الملك يعقوب بالحفاوة والترحيب ، وبعث إليه برد لم يجبه فيه بوضوح إلى طلبيه الأولين الخاصين بمنح الحرية الدينية للمسيحيين ، وحماية الحج إلى بيت المقدس ، ولكنه تناول مسألة الأسرى المسيحيين بشىء من التفصيل والايضاح ، وخص بالذكر اثنين من هؤلاة الأسرى هما : فريركليام ifrir Killiam وفرير دالماط Ifrir Dalmàt . وهاك رد الناصر على مطالب يعقوب :

« محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون »

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك الجليل المكرم الخطير ، الباسل الضرغام الزبر (تقرأ الزائر) ، يعقوب (Jaime) العالم فى ملته ، العادل فى مملكته ، عز الأمة المسيحية ، نصرة دين النصرانية ، فخر الملة العيسوية . عمدة بنى المعمودية ، صاحب أرغون وبلنسية وجزيرة سردينية وكرسقة وكومسن ، وبرجلونه . ومقدم البحر . وأمير علم كنيسة رومية . . . فأما ما ذكره من محبته لنا ، وتقربه إلى خواطرنا ، وإيثاره العمل بما تقتضيه آراؤنا الشريفة ، فقد علمنا جميع ما ذكره من ذلك وأقبلنا على إخلاص محبته ، وشكرنا هذا القصد الجميل والنية

(١) Atiya : Egypt & Aragon. pp. 26—28.

الصالحة ، وتحققنا بذلك حسن مودته وعمله على التقرب من خواطرنا وإن كان بعيداً عنا ، وصار له بذلك عندنا المكانة الجيدة والمحل الذى يسره ، فيستمر على ما وضعه من موالاته وإخلاصه فى المحبة لأيامنا الشريفة . ويواصل بكتبه وأخباره ، وما لعله يعرض له من المقاصد والمطالب . وأما ما ذكره فى مشافهته التى تحملها رسله عنه من أمر الأسرى الذين قصد إطلاقهم بمقتضى الورقة التى أحضروها صحبتهم فقد علمنا ذلك . والذى نُعْلِمه به أن هؤلاء الذين حصل طلبهم من المفسدين وممن كانوا يوافقون على الأذية فى البلاد ، وإنما لأجل خاطر كلام حضرة الملك وإرساله بِسببهم ، وسؤاله فى معناهم . أطلقنا الموجودين منهم فى هذا الوقت ، وهم الأكابر المعتبرين (صحتها المعتبرون) منهم الأعيان وهم : فرير كليام وافرير دالماط ورفقتهم ستة نفر . . وأما ما جهزه مع رسله من الهدية المباركة المسيرة بذلك ، فقد وصل صحبة رسله ، وعرض بين أيدينا ، وقابلناه بالقبول وحسن موقعه من إقبالنا . — وقد سيرنا لحضرة الملك من أبوابنا الشريفة على سبيل البركة ما تضمنته المسيرة . . . مثالنا هذا من الخزائن العالية لما للملك أبقاه الله فى خواطرنا من علو المكانة والمنزلة . فيحيط علمه بذلك . (١) » .

ومهما قيل من أن هذه الوثيقة لم تتضمن رداً صريحاً على مطالب الملك يعقوب الأولين فان اللهجة التى كتبت بها تدلنا بوجه عام على أن الناصر كان موافقاً على مبدأ منح الحرية الدينية للمسيحيين وعلى حماية الحجاج اللاتين عند سفرهم الى الأراضى المقدسة ، كما تدلنا على نمو علاقات الصداقة والمودة بين الملكين كما يتضح من تبادل الهدايا بينهما وحسن استقبال الرسل من الجانبين ، مما يدل دلالة واضحة على أن السلطان الناصر لم يكن من المتعصبين على المسيحية عن اعتقاد وإيمان . فالحق أنه لم يشتد فى معاملتهم إلا حين تدخلت ظروف خارجية أملت عليه هذه المعاملة .

وفى ٢٧ أغسطس سنة ١٣١٨ م بعث الملك يعقوب رسالة خامسة إلى السلطان الناصر يطلب فيها تسريح الأسرى من المسيحيين وأشار يعقوب على رسله بأن يحاولوا إقناع الناصر باطلاق سراح المسيحيين من أهل أرغونه إذا حدث أنه تردد فى إطلاق سراح الأسرى المسيحيين كلهم (٢) وليس لدينا الوثائق التاريخية التى نستطيع منها أن نعرف نتيجة هذه السفارة معرفة دقيقة . ولكن الراجح أن الناصر لم يحمل الرسل رداً على تلك الرسالة كما كان يفعل قبل ذلك .

مرسوم سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) :

كان النصارى يتمتعون بعطف الناصر الذى كان يبذل قصارى جهده فى سبيل إنصافهم وإقامة العدل بينهم . وقد عوملوا فى عهده أحسن مما عوملوا به من قبل . ولا غرو فقد حاول

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon. pp. 36—38

(٢) Egypt and Aragon, p. 43.

التخفيف من وقع المرسوم المذل الذى صدر فى سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) حتى كاد يصبح فى زوايا النسيان ، وحمى الكنائس من التخريب وأعاد فتح كثير منها ، ورفض أن يصدق الوشاة بأن كل حريق أو تدمير أو إضرار يقع للأهلين يكون ناشئاً عن المؤامرات التى يثيرها النصارى (١) .

على أن بعض فقهاء المسلمين قد بدءوا يعلنون تذمرهم من المبالغة فى التراخى مع المسيحيين . وعلى الرغم من كل المجهودات التى بذلت لتهدئة خواطر المتذمرين ، فان العامة قد اقتحموا بعض الكنائس وخربوها ونهبوا أموالها (٩ ربيع الثانى سنة ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م) . ويهمنا أن نتبين موقف السلطان النـــاصر إزاء تلك الحوادث ، فان ما ذكره المقريزى تعليقاً على ما أتاه العامة يدلنا على أن الناصر لم يكن راضياً عن تلك الأعمال : « فلما خرج الناس من الجامع رأوا غباراً ودخان الحريق قد ارتفعا إلى السماء . . فبهتوا وظنوا أنها الساعة قد قامت . . . فأنكر السلطان ارتفاع الأصوات بالضجيج وأمر الأمير ايدغمش بكشف الخبر فلما بلغه ما وقع انزعج لذلك انزعاجاً زايداً ، وتقدم الى ايدغمش أمير آخور فركب بالوساقية ليقبض على العامة ليشهر بهم » (٢) .

وحاول العامة مرة أخرى القيام على النصارى . وهنا يعود المقريزى إلى توضيح موقف الناصر من تلك المحاولات بما لا يجعل مجالا للشك فى أن العامة إنما قامت بذلك العمل من تلقاء نفسها وأن السلطان وحكومته وأمراء مصر لم يكونوا راضين عن أعمالهم وأن ثورة العامة تطورت لا بدافع التعصب الدينى بل بقصد النهب والسلب والتخريب . يقول المقريزى « فلشدة ما نزل بالسلطان من الغضب همّ أن يركب بنفسه ثم أردف ايدغمش بأربعة أسرى ساروا إلى مصر وبعث بيبرس الحاجب والماس الى موضع الحفر وبعث الخيال الى القاهرة ليضع السيف فيمن وجدوه . فقامت القاهرة ومصر على ساق وفرت النهابة . فلم يدرك الأمراء منهم الا من غلب على نفسه بالسكر من الخمر » (٣) .

ومما لا يترك مجالا للشك فى أن الناصر برىء من كل ما أتاه العامة وأنه لو علم بأمر تلك المؤامرات التى دُبرت ضد النصارى لاتخذ كل احتياط يكفل منعها ، أن المقريزى عاد مرة ثالثة فبين ذلك فى عبارة واضحة : « وصار السلطان يشتد غضبه من العامة ، والأمراء تسكن غضبه . . . وهو يشتد على العامة ويريد البطش بهم فهرب كثير منهم » (٤) .

كان من الطبيعى أن تثير هذه الحوادث شعور المسيحيين فعمدوا إلى إشعال النيران فى

---

(1) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 212.

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢١٧ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

القاهرة ومصر واندلع لهيبها من ١٥ جمادى الأولى سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١ م) إلى نهاية ذلك الشهر، حتى كاد لا يخلو منها موضع فى القاهرة ومصر . وشاع أن النصارى هم مدبرو هذا الحريق (١)، انتقاماً من المسلمين الذين هدموا الكنائس وخاصة أن الجوامع ودور العبادة قد أصابها ما أصاب غيرها من الكنائس (٢) . ومن ثم أعيد تنفيذ القرار الذى أصدره السلطان الناصر فى رجب سنه ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) خاصا بمعاملة النصارى .

وقد أورد العينى المرسوم الذىأذيع بينسكان مصر وأرسل إلى ولاة الأقاليم، وهاك نصه بعد البسملة : « وبعد فاننا لما أقدمنا الله لنصرة الاسلام وأهله وصرّفنا فى كل عقد وحله ، وأيدنا بنصره ، وعصمنا بحبله ، لم يزل يعلى كلمة الايمان ، ويظهر شرائع الاسلام فى كل مكان ونقف عند الأوامر الشرعية ، لتكون كلمة الكفر هى السفلى . وكلمة الله هى العليا . وكانت جماعة من مفسدى النصارى قد تعدوا وطغوا ، وتمادوا فى المخالفة إلى ما يقتضى نقض العهود ، وبغوا ومكروا مكراً كبارا ، فأدخلوا نارا ولم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . اقتضى رأينا الشريف أن نأخذهم بالشرع الشريف . ونجدد عليهم عهود النبوة ، وأن نقرر على من شمله عفونا منهم أن يكونوا تحت سيوفنا مرتهنة ، وأن يلبسوا العمائم الزرق والجباب الزرق ، وأن يشدوا الزنانير ، وأن لا يستخدم أحد منهم إلا أن يثبت إسلامه ويصح إيمانه »(٣) .

بذلك عاد الحال بالنسبة للنصارى إلى ما كان عليه فى سنة ٧٠٠ هـ فمنعوا من أن يتزيوا بزى المسلمين وطردوا من دواوين السلطان والأمراء وأغلقت الأديرة والكنائس حتى إن كثيراً من النصارى اعتنقوا الاسلام كما فعلوا سنة ٧٠٠ هـ ليحتفظوا بوظائفهم ويتخلصوا من تلك القيود التى فرضت عليهم (٤) .

---

(١) قال أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ، مخطوط جـ ٤ القسم الأول ص ٢٣٠ — ٢٣٣) ان الناس استمروا فى شك ممن دبر هذا الحريق حتى عثروا فى ليلة ٢١ جمادى الأولى على راهبين خارجين من المدرسة الكهارية وقد أشعلا فيها النار فقبض عليهما وجيء بهما إلى علم الدين سنجر والى القاهرة ، فرأى أن رائحة الكبريت والزيت تفوح منهما . فأحضرهما فى اليوم التالى إلى حضرة السلطان الناصر ، وبينما هما كذلك إذ أحضر العامة نصرانيا آخر قبضوا عليه وهو خارج من جامع الظاهر بالحسينية ، بعد أن وضع النفط والقطران بجانب المنبر . ودل هذا الرجل على جماعة ممن عملوا النفط ووزعوه عليه وعلى زملائه ليشعلوه فى المساجد ، كما اعترف الراهبان الآخران بأنهما من دير النعل وأنهما أحرقا سائر الأماكن التى أحرقت نكاية فى المسلمين الذين هدموا الكنائس ، كما اعترفا باشتراك أربعة عشر راهبا بدير النعل معهم فى هذا الأمر . وكانت نتيجة هذا الاعتراف أن اشتد سخط العامة على الأقباط وأهانوهم .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 73—75.

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ القسم الثانى ص ٢٩٦ .

(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٣٥ .

على أنه لا يخامرنا الشك فى أن الناصر إنما أكره على إصدار هذا القانون ردعاً لجماعة من مفسدى النصارى ، كما ذكر فى مرسومه الجديد الخاص بهم وتسكيناً لثورة العامة عليهم وأن ذلك لم يكن نتيجة لتعصب دينى . ويستدل على ذلك بما ذكره ستانلى لينپول تعليقاً على هذه الحوادث : ورضخ الناصر لهذا النداء وأعيد القانون السابق وأقفلت كنائس المسيحيين الذين لم يجرءوا على الظهور الا متخفين ... ومع ذلك فقد استعمل السلطان نفوذه فى مصلحتهم وكان بعض وزرائه من النصارى الذين تظاهروا بالاسلام كما أن الناصر استخدم كثيراً من أبناء هذه الطائفة فى وظائف الدولة العامة لأنهم كانوا رجال أعمال مبررين ولأنهم كانوا أقل خطراً على عرشه من المسلمين »[1] . ويقول ميور فى هذا الصدد : « أما الناصر ووزراؤه فقد وقفوا موقفاً يذكر لهم بالثناء والحمد إذ أنهم حاولوا صد هذا التيار الجارف ولكنهم حين أخفقوا لم يروا بدا من تنفيذ القوانين بكل صرامة ... وقد هجم جماعة من المماليك على وزير كان قد انتحل الاسلام حديثاً بزعم أن ميوله لم تزل مسيحية . وفى هذا ظهر الناصر أيضاً بمظهر الثبات وأعاد المشاغبين إلى حظيرة القانون . ومما يدل على أن الناصر قد وقف من العامة موقف الحزم بعد وقوع هذا الحادث بزمن يسير . أن أحد الصوفيين المتعصبين رأى أحد المسلمين يقبل يد أحد كتاب السر المسيحيين بدمشق فهجم عليه وقتله . فأمر السلطان بشنق هذا الصوفى وتعليق جسمه على باب المدينة غير مبال بصياح العامة وحماستهم لتخليصه »[2] .

وفيما نقلناه عن اثنين من مؤرخى الفرنجة يتبين أن الناصر قد أحسن معاملة النصارى حتى بعد هذه الحوادث . ولولا ما أبداه من الحكمة وما أظهره من الحزم بسبب ما أبداه العامة من عنت فى تنفيـــذ ذلك القانون الجديد لتفاقمت حال النصارى ، وعمت الفتن وانتشرت الحروب الأهلية فى كل أرجاء دولة الناصر .

ومع أن الناصر عين بعض وزرائه من النصـارى فانه كان لا يتردد فى أخذهم بالشدة واغتصاب أموالهم وإزهاق أرواحهم إذا أساء أحدهم التصرف أو داخله الشك فى أعمالهم . ولم تكن معاملة الناصر لوزرائه النصارى مقصورة عليهم ، بل أن تلك المعاملة كان يجرى عليها مع من يحيد عن الصراط المستقيم من أمراء مصر وكبار الموظفين وغيرهم من المتصلين به لا فرق فى ذلك بين مسلم ونصرانى ويهودى .

وفى خلال هذه الحوادث التى قامت بين النصارى الساخطين وبين العامة المتحمسين ظهر على مسرح السياسة المصرية بعض النصارى الذين وقفوا حياتهم للذود عن أبناء جلدتهم ودفع الأذى عنهم . ومن هؤلاء الوزير عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصرى ويلقب « كريم الدين » الكبير أبا الفضائل وزير الناصر ومدير الدولة الناصرية » .

---

(١) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 310.

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 73—75.

أسلم هذا الوزير فى سنة ٧٠٨ هـ وهو فى سن الشيخوخة ، وذلك فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير الذى اتخذه كاتبا لسره . ويقول ابن أياس أن نفوذ هذا الوزير قد بلغ مبلغا كبيراً حتى أن السلطان الناصر كان لا يستطيع — فى تلك الفترة التى ضيق فيها عليه سلار وبيبرس الجاشنكير — الحصول على شىء من نفقاته إلا بعد موافقة الوزير كريم الدين.[١] واستمرت الحال على ذلك حتى هرب بيبرس الجاشنكير وعاد الناصر إلى القاهرة وجلس على عرشه للمرة الثالثة ، فقبض على هذا الوزير وصادر أمواله التى قيل إنها بلغت مائة ألف دينار . إلا أن جماعة من أمراء مصر شفعوا له عند السلطان حتى عفا عنـــه وعينه فى وظيفة « ناظر الخاص» التى استحدثت فى عهد الناصر ، فكان كريم الدين بذلك أول من عين فى تلك الوظيفة .

عظم شأن كريم الدين بعد ذلك حتى صار يركب فى موكبه سبعون من المماليك والأمراء . وقد بالغ فى إظهار إسلامه فعمر كثيراً من المساجد ، وكان يبذل أموالا ضخمة فى أعمال الخير ويتصدق على الفقراء الذين كانوا يزدحمون ببابه ، فيتناول كل منهم نصيبه منها[٢]. وبرغم هذا كله ، لم ينل هذا الوزير رضا العامة الذين كرهوه وحاولوا اغتياله مرات لسوء معاملته لهم ، ولأنه لم يلتزم جانب الحياد فى أثناء هذه الفتنة التى قامت بينهم وبين الأقباط ، ولما جمعه من الأموال الهائلة من الشعب بكافة الطرق مشروعة وغير مشروعة [٣].

لذلك أمر السلطان فى سنة ٧٢٣ هـ بمصادرة دوره وأمواله وأمره بأن يلازم داره بالقرافة ثم بعث به إلى الشوبك ثم إلى بيت المقدس حيث أعيد إلى القاهرة وأرسل الى أسوان حيث قتل ، ولا بأس من أن نذكر عبارة الشوكانى لنتبين مدى ثروة هذا الوزير « لما أمر السلطان بنقل موجوده إلى القلعة على بغال . كان أولها بباب بيته وآخرها بباب القلعة . . . وكان عدد الصناديق التى فيها أصناف العطر من العود والعنبر والمسك أحداً وأربعين صندوقا » [٤].

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٤٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) ج ٤ القسم الأول ص ٢٣٥ — ٢٣٦ . الشوكانى : البدر الطالع ج ١ ص ٣٧٣ .

(٣) تدلنا الحادثة الآتية على مبلغ كره العامة للوزير كريم الدين . يقول أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٣٣) إن كريم الدين لما خرج إلى الميدان على ما جرت به عادة السلطان ووزرائه رآه العامة ، وصاحوا : « كم تحامى للنصارى » وسبوه ورموه بالحجارة . فعاد إلى الميدان واستشار الأمراء فى أمر العامة ، فأشار عليه نائب الكرك بعزل الكتاب النصارى من الدواوين تسكينا للفتنة . فلم يرضه ذلك وطلب من الماس الحاجب أن يخرج فى أربعة أمراء ويضع السيف فيهم حتى ينتهى إلى باب زويلة ويمر إلى باب النصر ولا يرفع السيف عن أحد . وأمر والى القاهرة أن يتوجه إلى باب اللوق وباب البحر ويقبض على من يجده من العامة ويحمله إلى القلعة ، ثم تقدم إلى السلطان والتمس منه إجابته فى القبض على العامة . وعلى الرغم من التفاف الجند حوله فإنه لم يستطع الخروج من الميدان والسير فى الطريق المعتاد إلى القلعة ، بل تحول إلى ما وراء السور حتى انتهى إليها .

(٤) الشوكانى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٤ .

ولسنا نعرف أين كان بيته ولا بعده عن القلعة، ولكن ظاهر رواية الشوكانى أن ثروة هذا الوزير كانت طائلة جدا.

ومن وزر للسلطان الناصر من القبط الذين أسلموا رجل يقال له «شرف الدين النشو»، وقد أجمع المؤرخون على أن مدة حكمه لم تكن سوى سلسلة من الفظائع، لما ارتكبه من أعمال القسوة والوحشية فى معاملة الناس حتى أثار حنق الأهلين وسخطهم عليه(١). وقد قيل إنه كان يبتز الأموال من الناس متظاهراً بالفقر والاملاق حتى أنه كان يقترض من الواحد مبلغا يتراوح بين ثلاثين درهما وخمسين درهما. ولم يلبث أن ضخمت ثروته وكثرت أمواله حتى قاربت الأربعة والعشرين ألف دينار.

فلما اتصل بمسامع السلطان الناصر شدة عسف هذا الوزير وتلك الثروة الطائلة التى استحوذ عليها والأساليب التى اتبعها فى جمعها أمر بالقبض عليه. وقد روى أبو المحاسن أنه وجد فى بيته «خمسة عشر ألف دينار من الذهب العين وألفان وخمسمائة حبة لؤلؤ تتراوح قيمة الحبة الواحدة منها من ألفين إلى ألف وسبعمائة درهم ... وقطعة زمرد فاخر زنتها رطل، ونيف وستون قطعة من اللآلئ الكبيرة زنة كل لؤلؤة منها أربعمائة مثقال. ومائة وسبعون خاتما ذهبا وبفضة بفصوص مثمنه وكف مريم مرصع بجوهر وصليب ذهب مرصع وعدة قطع مزركشة عداعدة حواصل لم تفتح»(٢).

وهكذا آل أمر هذا الوزير الذى قتل مع أمه وأخيه فى ٢ ربيع الثانى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤١م) ودفن بمقابر اليهود تحقيراً لشأنه وأقيم الحراس على قبره أسبوعا خوفا من نبش العامة له وإحراق جسده. وكانت مدة وزارته سبع سنين وسبعة أشهر.

استئناف المفاوضات لمصلحة المسيحيين:

وقفنا بالمفاوضات التى دارت بين يعقوب ملك أرغونة وبين الناصر فى صالح المسيحيين عند سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨م). والآن بعد أن تطورت الحوادث فى مصر ضد المسيحيين وصدر مرسوم سنة ٧٢١ هـ مجدداً الشروط التى اشتمل عليها ذلك المرسوم الذى صدر فى سنة ٧٠٠ هـ والذى حوى كثيراً من القيود والشروط التى تقلل من حرية الأقباط، نرى يعقوب يجدد مساعيه لمصلحة هذه الطائفة ويجد من السلطان الناصر قبولا لمطالبة مما عده الناس فألا حسناً وبداية طيبة لعهد وئام وسلام بين المسلمين والأقباط.

بدأ يعقوب بعثاته الجديدة فى سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م). فطلب من الناصر جعل أمر حماية مقبرة المسيح عليه السلام وإدارتها من اختصاص الاخوان الدومنيكان التابعين لمملكة

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egygt, p. 75.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٦١.

أرغونة ، وأن يكون مسكن البطريرك تابعاً لتلك الادارة لقربه من القبر المقدس . كما رجا يعقوب السلطان الناصر أن يُسلم رسله بعض بقايا قيل إنها فى حوزة الناصر وتشمل بعض أجزاء من الصليب الأصلى ، وجسم القديسة بربارة Barbara عربوناً لهذه الصداقة المتبادلة بينهما. وتلك المطالب تبين لنا أن الملك يعقوب اعتبر نفسه حامى المسيحيين فى دولة المماليك. إلا أن الناصر رد عليه فى ١٥ صفر سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) رداً غامضاً غير صريح فيما يتعلق بهذين الطلبين ، على الرغم من أنه أدخل فى قلبه الطمأنينة من ناحية النصارى ووعد بحسن معاملتهم .

وأهم ما ورد فى ذلك الرد هو « وأما النصارى فهم عندنا موقرو الجانب على ما يسره لأنهم رعايانا . . . وبحمد الله ما يكون أحد من رعايانا الا موقر (وصحتها موقرا) من جميع المكاره آمناً من كل ما يسوءه (وصحتها يسوؤه) أو يشوش عليه ، فيكون مستقر الخاطر بهذا السبب . . . ونحن نعرفه أنه بلغنا أن جماعة من المسلمين الذين فى بلاده الذين استقروا بعد ما استقرت عليهم أحوالهم . لهم عوايد متقدمة بالكرامة والرعاية وعدم المعارضة فى المساجد المستقرين بها وأنهم الآن ربما تغيرت عوائدهم فى ذلك وصاروا لا يتمكنون من التأذين فى مساجدهم وإقامة الصلاة بها . والمراد من محبته الصادقة أن يتقدم بالوصية التامة بجميع من فى بلاده وإجرائهم على أكمل عوائدهم وأكمل قواعدهم، ولا يغير عليهم مغير فى مساجدهم ، والاعلان بصلاتهم ، وكف الضر عنهم ورعاية جانبهم . فهو يعلم أننا قد ألقى الله علينا مقاليد سائر أهل الاسلام حيث كانوا وأين كانوا . فأى مكان وجد به أحد المسلمين كانوا متعلقين بنا ويتعين علينا رعايتهم ، فيفعل فى أمرهم ما نتخذ له به أكمل المودة وأجمل الصحبة » (١)

وفى هذا الخطاب اتضحت نيات الناصر إزاء النصارى . وكأنه أراد أن يكون إكرام الأقلية من الجانبين ، وألا تكون المعاملة الطيبة لرعاياه من النصارى فحسب ، بل أن تقابل بمثلها للرعايا المسلمين فى أرغونه . وأن يبين أن مصر قد أصبحت فى عهده مركز الجامعة الاسلامية وان المسلمين سواء منهم المقيمون فى مصر أو فى أرغونة أو فى سائر أقاليم العالم يجب أن يعيشوا فى أمن وطمأنينة ورخاء فى كنف الناصر باعتباره حامى الاسلام فى الشرق والغرب . وتثبتاً لهذه الفكرة حج الناصر فى أثناء سلطنته ثلاث حجات : أولاها سنة ٧١٢ هـ وثانيها سنة ٧١٩ هـ وفيها كسا الكعبة كسوة حريرية صنعت فى الاسكندرية ونظف مكان الطواف بيده وأنعم على فقراء مكة وزار قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ووزع على فقراء المدينة المنورة خمسين ألف دينار(٢). والحجة الثالثة كانت فى سنة ٧٣٢ هـ وفيها صنع للكعبة باباً مصفحاً بالفضة أنفق عليه خمسة وثلاثين ألف درهم وأمر بتعبيد طريق الكعبة .(٣)

---

(١) Atiya: Egypt and Aragon p, 49.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ .

وجملة القول أن السلطان الناصر قد أحسن — فى أثناء مدة حكمه الطويل — إلى كل من الأقباط والمسلمين ، وهم الذين كانوا يعرفون باسم « المصريين » ، وعمل على إرضاء كل فريق منهم اللهم إلا اذا استثنينا هذه الظروف التى أدت إلى معاملة احدى هاتين الطبقتين معاملة فيها شيء من الشذوذ . كما أنهم عاشوا جميعا فى عهده فى أمن وطمأنينة وهدوء نسبى . ولا غرو فقد بادله المصريون حبا بحب ووفاء بوفاء وعضدوه فى محنته التى مر بها وبخاصة فى غضون هذه الحوادث التى أثارها بعض أمراء مصر فى وجهه .

وسار أولاد الناصر محمد وأحفاده على سياسة أبيهم فى العطف على المسيحيين ، إلا أنه فى عهد ابنه السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ — ٧٥٥ هـ = ١٣٥١ — ١٣٥٤ م) وقعت بضع حوادث أدت الى إصدار السلطان فى ٢٢ جمادى الآخر سنة ٧٥٥ هـ مرسوما يشبه مرسوم رجب سنة ٧٠٠ هـ نص فيه على أنهم « يمنعوا من الخدم فى جميع الأعمال ، ولا يستخدم نصرانى ولا يهودى فى ديوان السلطان ولا فى شيء من دواوين الأمراء . وأن تكون عمامة النصرانى واليهودى عشرة أذرع ويلزموا بزيادة صبغها وأن لا يستخدموا مسلماً ، وأن يركبوا الحمير بالاكف واذا مروا بجماعة من المسلمين نزلوا عن دوابهم وأن تكون قيمة حمار واحد منهم أقل من مائة درهم وأن يلجئوا الى أضيق الطرق ولا يكرموا فى مجلس وأن تلبس نساؤهن مغيرة الزى اذا مررن فى الطرقات حتى أخفافهن تكون لونين ولا يدخلن حمامات المسلمين مع المسلمات » [١] . وتبع ذلك هدم بعض كنائسهم ومساكنهم . ولكن ما لبثت الحال أن عادت الى مجراها الطبيعى ودخل كثير من النصارى فى الاسلام وعادوا الى مباشرة أعمالهم ثم تزوجوا من المسلمات وصار من بين أولادهم « قضاة وشهوداً وعلماء » [٢] . ولم تقع بعد ذلك حوادث من هذا النوع تستحق الذكر فى البقيـــة الباقية من عصر دولة المماليك البحرية وهدأت الأمور واستقرت الاحوال .

سياسة السلاطين ازاء المصريين عامة : حب الشعب للناصر .

كان سلاطين المماليك محاطين بفئة كبيرة من الأمراء على جانب عظيم من الثروة وكثرة الأتباع . ومما درسناه من حوادث عصر المماليك خاصة وعصر الناصر فى عصر سلطنتيه الأولى والثانية يتبين لنا أن خلع السلطان لم يكن دواماً عن طريق الأتابك بل كان يحدث أحياناً على يد أمراء الدولة الأقوياء إذا لم يحز السلطان القائم رضاءهم . لذلك لم يكن السلطان يأمن على نفسه من غدر أمراء مصر ، وخاصة أنه كان موقناً بقدرتهم على الدس لمن لا يردعهم .

---

(١) راجع هـذا المرسوم فى المقريزى : السلوك جـ ٣ (مخطوط) ص ١٧ . والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن (طبعة كاليفونيا) جـ ٥ القسم الأول ص ١٣٢ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٧ .

وكانت قوة شكيمة الأمراء وضعف السلطان أمامهم من الأمور الظاهرة فى عهد سلطنتيه الأوليتين ، بل لقد اتضحت للعيان رغبته فى جلب رضاهم صيانة لعرشه وتثبيتا لملكه وكانت صفة الغدر التى تأصلت فى نفوس المماليك تجعل كل فريق منهم لا يأمن جانب الفريق الآخر .

وقد رأينا سهولة اغتصاب عروش أولاد السلاطين فيما فعله الأمير قطز مع المنصور على ابن أيبك سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧م) وما قام به الأمير قلاوون مع سلامش بن بيبرس سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، وما فعله الأمراء كتبغا ولاچين وبيبرس الجاشنكير مع الناصر محمد بن قلاوون . ولكن هؤلاء المغتصبين الأولين الذين اغتصبوا عرش ابن أيبك وابن بيبرس لم يمكنوا السلاطين المعزولين من العودة إلى عروشهم ، على حين نجد أن مغتصبى عرش الناصر انهار ملكهم بعد فترة قصيرة عاد الناصر بعدها إلى عرشه .

ولعل السبب فى انتصار الناصر محمد بن قلاوون على مغتصبى عرشه ، أنه كان محبوباً من الشعب وأن هؤلاء المغتصبين لم يوفقوا فى إرضاء زملائهم من الأمراء ولم يوفقوا فى إرضاء الشعب . فكان الأمراء الآخرين وأفراد الشعب يحنون إلى الناصر ويعملون على نصرته . ولسنا ننكر أن الرأى العام لم يكن له أثر كبير فى ذلك الوقت ، ولكن حب الشعب للناصر كان يؤيده فريق كبير من الأمراء مما ظهر أثره فى إخفاق المغتصبين ورجوع الناصر إلى عرشه . والملاحظ أن هذا الحب المتبادل بين الناصر وشعبه يمكن أن يعد عاملا جديداً لم يظهر أثره بوضوح الا فى ذلك العهد .

وان استقبال الشعب للناصر عند عودته من الكرك إلى القاهره فى جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) بعد أن ذاقوا الأمرين فى أثناء حكم كل من كتبغا ولاچين — مغتصبى عرش الناصر — لأكبر دليل على تقديرهم لبيت قلاوون ومحبتهم للسلطان الناصر . يقول أبو المحاسن :

« فخرج الأمراء وجميع الناس قاطبة للقائه وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد فرحاً بقدومه . وكان خروجهم فى يوم السبت ، وأظهر الناس لعودته إلى الملك من السرور ما لا يوصف ولا يحد ، وزينت القاهرة ومصر بأفخر زينة ، وأبطل الناس معايشهم وضجوا له بالدعاء والشكر لله على عودته إلى الملك . وأسمعوا حواشى الملك العادل كتبغا والملك المنصور لاچين من المكروه والاستهزاء مالا مزيد عليه ، واستمروا فى الفرح والسرور إلى يوم الاثنين ، وهو يوم جلوسه على تخت الملك »(١)

ويتضح أمامنا من سلسلة الحوادث التى أرغمت الناصر على الخروج من مصر فى نهاية سلطنته الثانية سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) مقدار حب الشعب له وعدم رضائهم عن اعتلاء

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١٦ .

المغتصبين عرش مصر ورغبتهم فى دوام حكم بيت قلاوون لهم .

ولا غرو فقد غلا الأميران سلار وبيبرس فى التضييق على الناصر كما بينا ، فعزم على التخلص منهما ، واتصل ذلك بعلمهما فأخذا حذرهما منه ، وحاصر أعوانهما الناصر فى القلعة بضع ساعات . ويمكننا أن نتصور مقدار احترام الشعب المصرى لأسرة قلاوون ومحبتهم للسلطان من مسلك عامة الشعب حين انتشرت بينهم الاشاعة بعزم الأمراء على الغدر بالناصر بقتله أو إقصائه عن مصر ، فقد عز ذلك على الأهالى لما كانوا يكنونه له ولأبيه من حب وولاء . وساروا فى جموع غفيرة إلى القلعة واجتمعوا أمامها وعلا صياحهم وأعلنوا أنهم لا يريدون أن يلى الملك أحد من غير بيت قلاوون .

وكان من هتاف العامة الدال على ما كانوا يكنونه للناصر من حب ولأبيه قلاوون من ود قولهم : « ياناصر يا منصور ! » ، تلك العبارة التى ابتهلوا فيها إلى الله أن ينصر السلطان الناصر على أعدائه الأمراء الذين حاولوا اغتصاب عرشه . وليس من شك فى أن اجماع العامة على مؤازرة الناصر على أمرائه قدزاد فى هلع هؤلاء الأمراء حتى اضطربت أحوالهم واشتد خوفهم إذ أنهم لم يتوقعوا أن تصل حماسة الشعب فى تأييده للناصر إلى هذا الحد . فانه لما ندب سلار وبيبرس من يقمعهم بالقوة تعذر عليهم الأمر إذ أيقنوا أن حماسة الشعب كفيلة بهزيمتهم وأنهم لا بد هالكون إذا تصدوا لهذا التيار الجارف . وكان من هتافهم المدوى قولهم : ياناصر يامنصور الله يخون الخائن ، الله يخون من يخون ابن قلاوون » [١]

ويمكننا أن نتصور مدى حماس الشعب فى حماية شخص الناصر والذود عن ملكه إذا علمنا أن الأمراء قد خضعوا لمشيئتهم وخطبوا ودهم حين اشتد عنف المتظاهرين . فقد تكلم فيهم الأمير بتخاص [٢] ، قائلا : « طيبوا خاطركم ، فان السلطان قدطاب خاطره على أمرائه ! » وإذ ذاك لم يجد كل من سلار وبيبرس بدا من الاذعان والخضوع للسطان . فبعثا إليه من يبلغه أنهما « من مماليكه وفى طاعته » [٣] . وأشارا باخراج من عمل على إيقاد نار الفتنة بينهما وبين السلطان من مصر . فأخرج السلطان على كره منه عدداً من مماليكه . وعقب ذلك دخل الأمراء على السلطان وقبلوا الارض ثم قبلوا يده .

وبذلك انتهى هذا النزاع بانتصار السلطان . وهو أمر كان بعيد الوقوع قياسا على الحوادث التى كانت تجرى فى مصر إذ ذاك . إلا أن اخماد الفتنة لم يؤد إلى تصافى الفريقين ، وإعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . بل أننا نرى تحكم كل من سلار وبيبرس فى أمور المملكة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣ .

(٢) رئيس القوة التى أرسلها سلار وبيبرس لقمع ثورة العامة .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ١٧٣ .

يشتد ، حتى اضطر الناصر إلى مغادرة مصر والاستقرار فى الكرك . ونرى حب الشعب له واضحاً جليا ، حين خرج لتوديعه فى أثناء رحيله من القاهره سنة ٧٠٨ ﻫ كما نرى أن الشعب كان موقنا بعداوة الأمراء للناصر ورغبتهم فى الفتك به إذا حانت لهم الفرصة يقول أبو المحاسن عن خروج الناصر من القلعة وما أظهره العامة فى أثناء ذلك من محبة لشخصه وكراهية لأعدائه من الأمراء : « ونزل من القلعة ومعه جميع الأمراء وخرج العامة حوله وحاذوا بينه وبين الأمراء وهم يتباكون حوله ويتأسفون على فراقه ويدعون له » (١).

ومما يدلنا على مبلغ حب الشعب المصرى للسلطان الناصر ، أنه لم يهتم بزوال عهد السلاطين الذين اغتصبوا عرشه . أما الناصر فان كبار الأمراء وقفوا فى صفه . من ذلك ما أعلنه بعض أمراء الشام من رفض موافقتهم على سلطنة بيبرس الجاشنكير ، وكان أولئك الأمراء من أكبر الشخصيات بين أمراء الشام ويعد وقوفهم بجانب الناصر فى محنته من أشرف المواقف ، لأنهم صمموا على ألا يحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها له بالاخلاص لشخصه والالتفاف حول عرشه . ويعتبر ذلك الحادث الاول من نوعه ، كما يعتبر تأييد الشعب المصرى لعرشه الأول من نوعه كذلك . ومن أقوالهم التى أوردها المؤرخون بصدد امتناعهم عن الحلف لبيبرس الجاشنكير ، والتى أوردنا نصوصها فى الباب الثالث نتبين مدى تأييدهم له وتفانيهم فى حبه ونياتهم إزاء عرشه .

كذلك لما اشتد الحال على بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩ ﻫ (١٣٠٩ م) وعلم أن اسم الناصر قد ذكر فى خطبة الجمعة على منابر دمشق ، أراد أن يثبت عرشه وجددت له البيعة وحث الخليفة الناس على طاعة بيبرس والولاء له وقرأ الخطباء هذا العهد بالمساجد يوم الجمعة . وهنا يبين لنا العينى بعبارة جلية مدى حب الشعب للناصر وتلهفه لعودته . فانهم « لما شرعوا فى قراءتها بعد الصلاة وَثَبَت العامة عموما وصاحوا جميعا : لسنا لهذا الكلام سامعين ولا لقول من قاله طائعين ولا نعرف لنا سلطانا إلا الملك الناصر » (٢). لذلك أبطلت قراءة الخطبة واضطر بيبرس الجاشنكير أن يعلن أنه خلع نفسه من الملك وفر هاربا . وهنا يبرهن لنا كل من العينى وأبى المحاسن على ذلك الحب المتبادل بين الناصر والشعب المصرى ، فيذكر كل منهما أنه لما اتصل بالعامة خبر هرب بيبرس أدركوه وهو خارج من القلعة وتبعوه وهم يصيحون وراءه بهتافات عدائية ورجموه بالحجارة .(٣)

لذلك لا نعجب اذا رأينا الناصر يحكم فى سلطنته الثالثة حكما مطلقا ، حتى أنه لم يجرؤ أحد من أمراء مصر — الذين أقلقوا باله فى سلطنتيه الأولين — على مخالفة أوامره . وأصبح

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ﺟ ٨ ص ١٧٦ .

(٢) العينى : عقد الجمان ﺟ ٢٢ القسم الأول ص ١٥٢ .

(٣) العينى : نفس المصدر والجزء والقسم ص ١٦٨ . أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٧١

طول تلك المدة مهيباً فى نظر الأمراء حتى أن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يفوه بكلمة واحدة إذا كان بحضرته وحتى أنهم كانوا لا يلتفت بعضهم إلى بعض خوفا منه بل لا يستطيع أحد أن يذهب إلى بيت الآخر لزيارته أو يلبى دعوته إلى وليمة إلا باذن منه . وقد بلغ من شدة حرص الناصر أنه إذا صدرت من أحدهم هفوة كان مصيره القبض عليه والنفى من الديار المصرية(١). وكذلك كانت معاملته لكل أمير ظهر بمظهر القوة أو شق عصا الطاعة أو حاول القيام بالثورة . بذلك صفا له الجو فى سلطنته الثالثة وأتيح له أن يقوم بكثير من الاصلاحات كما سيأتى .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ص ٣٠٥ .

الباب السادس

السياسة الخارجية

حروب مصر وعلاقاتها بمختلف الدول

بعد أن تكلمنا على السياسة الداخلية فيما يتعلق بعلاقات السلاطين بالمصريين بوجه عام وعصر الناصر بوجه خاص ، ننتقل الى الكلام على علاقات مصر فى ذلك العصر بمختلف الدول والحروب التى قامت بها لنتعرف ما كان بينها وبين تلك الدول من ود وصفاء أو عداوة وجفاء . وسيتضح لنا من سياق هذا البحث ما تمتعت به مصر فى عصر المماليك عامة وعصر الناصر خاصة من مركز ممتاز بين دول العالم الهامة : شرقية كانت أو غربية . فقد نشأت بينه وبين مغول فارس ومغول الهند ومغول القفجاق علاقات عدائية أو ودية ، كما أنه أخضع أرمينية ، وبسط نفوذه على بلاد اليمن والحجاز . ووسع ملكه فى إفريقية ، وأصبح بلاطه مركزاً لسفراء الدول الأوربية الذين حضروا إلى مصر حاملين الهدايا والكتب المرسلة من ملوكهم يطلبون فيها من الناصر حسن معاملة المسيحيين ويعبرون عن تقديرهم لسلطان مصر ويعترفون باتساع نفوذه ويؤكدون حبهم وإخلاصهم له .

١ — علاقات مصر بمغول فارس [١]

علاقة المغول بالمماليك قبل الناصر :

كانت إغارة المغول على بلاد فارس فى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر الميلادى) ، إحدى الغارات التى أثرت تأثيراً عظيما فى تاريخ الأمم والبلاد الواقعة فى أواسط آسيا وجنوب شرقى أوربا ، والتى اكتسحها المغول بجحافلهم وأنزلوا بها من الويلات ما يفوق حد التصور .

---

(١) ظهر المغول فى عالم التاريخ حولى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، فى الجهات الشمالية من بلاد الصين فى الأراضى التى نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك وهم يمتون إليهم بصلة قوية . ويطلق على المغول اسم « التتر » أو « التتار » أيضا . وقد اختلفت تسميتهم باختلاف العصور . ويظهر أن الشعوب التى كانت مغولا فى الأصل واللغة كانت تسمى نفسها باسم « التتر » (أو التتار) . إلا أن تلك التسمية قد غيرت رسميا بعد جنكيزخان — وهو الثامن من سلالة مؤسس هذه الأسرة — بكلمة « مغل Moghul أو Moghol » فى بلاد منغوليا وفى أواسط آسيا وكذا فى بلاد الهند فيما بعد . الدكتور حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام بين المغول (صحيفة الجامعة المصرية ، مايو سنة ١٩٣٣ ، ص٢٣)

وكانت بلاد الفرس من البلاد التى دخلت فى حوزة المغول [١] . ولم يأت عام ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨ م) حتى سقطت بغداد فى يد هولاكو ، وصحبه ابنه أباقا [٢] الذى اشترك معه فى فتوحه . وخلفه بعد وفاته وتوج فى ١٩ يونيه سنة ١٢٦٥ م عاهلا على دولة أبيه ، فكان بذلك ثانى إيلخانات المغول فى فارس .

وقد أحسن أباقا خان معاملة المسيحيين وقرّبهم إليه . وبالغ بعض المؤرخين فقالوا إنه تعمد فى صباه واعتنق المسيحية إجابة لرغبة عروسه دسبينا Despina المسيحية ابنة الامبراطور ميخائيل پاليولوجس Michael Palaeologus . إلا أن الأستاذ براون نفى هذه الدعوى وبين أن العلاقة الودية التى قامت بينه وبين البابا وملوك أوربا وصليبى الشام هى التى دفعت هؤلاء المؤرخين إلى الاعتقاد بانه اعتنق المسيحية ، وأن عطفه على المسحيين إنما يرجع لحد كبير إلى زواجه من أميره مسيحية [٣] . وسواء أكانت هذه النظرية صائبة أم خاطئة ، فان ما يهمنا فى هذا الصدد هو أن العلاقات الودية بين المغول والمسيحيين زادت المغول قوة ضد دولة المماليك ، التى هى أقوى الدول الاسلامية وألد أعداء المغول .

وكان من حسن حظ المماليك فى مصر أن أتاح الله لهم رجلا قوى الشكيمة واسع الحيلة ، استطاع أن يدرأ عن بلاده خطر التحالف المسيحى المغولى ، ذلك الرجل هو بيبرس الذى

---

(١) نثبت فيما يلى إيلخانات فارس فى العهد المملوكى نقلا عن لينبول :

١ — هولاكو	٦٥٤ ﻫ = ١٢٥٦ م .
٢ — أباقا	٦٦٣ ﻫ = ١٢٦٥ م .
٣ — أحمد تكودار	٦٨٠ ﻫ = ١٢٨٢ م .
٤ — أرغون	٦٨٣ ﻫ = ١٢٨٤ م .
٥ — جيخاتو	٦٩٠ ﻫ = ١٢٩١ م .
٦ — بيدو	٦٩٤ ﻫ = ١٢٩٥ م .
٧ — غازان محمود	٦٩٤ ﻫ = ١٢٩٥ م .
٨ — أولجاتيو خدابنده	٧٠٣ ﻫ = ١٣٠٥ م .
٩ — أبوسعيد	٧١٦ ﻫ = ١٣١٧ م .
١٠ — أربا	٧٣٦ ﻫ = ١٣٣٥ م .
١١ — موسى	٧٣٦ — ٧٤٥ ﻫ = ١٣٣٦ — ١٣٤٤ م .

راجع E. de Zambour : Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam, p. 244.

Lane-Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 220.

والمصادر المذكورة فى مقال Olcaitu بدائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ويسميه بعض المؤرخين أبقاخان . أنظر مقال الأستاذ بارتولد Barthold عن أباقا Abaka فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia Under Tartar Dominion, Vol. II. pp. 264—268


السلطنة المصرية
في عصر دولة المماليك البحرية
مدى اتساعها وعلاقاتها الخارجية
الأندلس
المغرب
الصحراء الكبرى
بحر الروم
الدولة البيزنطية
ارمينية
بلاد الترك
بلاد العجم
مملكة الصين
بلاد الهند
بحر الهند
بلاد السودان
بلاد الحبشة
دمشق
حلب
الاسكندرية
بغداد
اصفهان
سجستان
كرمان
مكران
خراسان
العراق العجمي
اذربيجان

هزم جند هولاكو المغولية قبيل اعتلائه العرش سنة ١٢٦٠ م وطردهم من غزة وشتت شملهم في عين جالوت — خلال سلطنة قطز — كما طرد الصليبيين من سورية وبطش بالحشيشيين[١] في لبنان بطشاً ذريعاً .

ولا شك أن موقعة عين جالوت كانت ضربة عنيفة للمغول الذين لم يعرفوا معنى الهزيمة من قبل . وذلك لعظم ما فقدوه من الرجال وما خسروه من السمعة التي طبقت الآفاق حتى كانت نساؤهم تسير وسط الشوارع نائحات صارخات مرسلات شعورهن لاذكاء نيران الحماسة في قلوب الرجال . وقد عول هولاكو على إعادة الكرة على المماليك غير أن المنية عاجلته فلم يكن بد اذاً من أن يعمل ابنه وخليفته أباقا على إرضاء شعور قومه وإرضاء روح أبيه وإعادة سمعة المغول الحربية والأدبية إلى ماكانت عليه . ولا غرو فقد كان المغول منذ أيام هولاكو ينظرون إلى مصر الفتية ويتطلعون إلى فتحها لتصبح درة في جبين امبراطوريتهم . ورأى سلاطين المماليك بدورهم أن يعملوا على كسر شوكة المغول وإذلالهم والانتقام منهم دفاعاً عن مصر والشام ولما حل بالاسلام من الخطوب والويلات على أيديهم .

لذلك استحكم العداء بين إيلخانات المغول وسلاطين المماليك في مصر طوال هذا العصر ، ونفر بعضهم من بعض كل النفور لا سيما المغول الذين كانوا يبطشون بكل من حامت حوله الشكوك في الاتصال بالمماليك وهو أشد الجرائم السياسية في نظرهم . وقد اتخذ بعضهم من هـذا الشعور وسيلة للايقاع بكثير من رعايا المغول المسلمين [٢] . ومن الأمثلة المعروفة في هذا الصدد ما حدث لأسرة الجويني العريقة ، التي ذهب أفرادها ضحية هذه الريب ، بعد أن علا نجمها في أفق السياسة والادارة في فارس[٣] ، واشتهرت بالجود والكرم الذي يعيد للذهن ذكرى أسرة البرامكة وما نزل بها في بغداد . وكان الناقمون من المماليك في عصر الناصر يتصلون بالمغول ، كما كان الناقمون على حكومة الاخشيديين في مصر في القرن العاشر الميلادي يتصلون بالفاطميين في شمال افريقية .

ولما مات أباقا خان وقع الاختيار على أخيه تكودار [٤] ونودي به سلطاناً في سنة ٦٨١هـ (٦ مايو سنة ١٢٨٢م) وهو ثالث إيلخانات المغول في بلاد الفرس ، وأول من أسلم منهم . وقد شب على المسيحية وتعمد في صباه وتسمى باسم « نيقولا » ، ثم دخل في الاسلام عند ما بلغ سن الرشد . وذلك على أثر اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفاً بهم ، ورغب في أن يسمى أحمد

---

(١) يطلق عليهم أيضا اسم « الحشيشة » . انظر السلوك للمقريزي ج ١ ص ١١٦٥ .

(٢) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. II. p. 446; Vol. III. pp. 18—20;

(٣) بحث الأستاذ مرزا محمد قزويني تاريخ هذه الأسرة ومأساتها بحثا مستفيضا مبنيا على النقد الدقيق في مقدمة كتاب جهان جشا Juhan-gushà (ج ١ ص ١٩ — ٩٢) .

(٤) أو نيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة . وقد سمى احمد بعد اعتناقه الاسلام .

خان . وبذل قصارى جهده فى حمل المغول على الاسلام . فأسلم على يده كثير منهم بفضل ما منحهم من العطايا وألقاب الشرف[١] وأرسل تكودار احمد كتاباً الى فقهاء بغداد ، أعلن فيها رغبته فى حماية الاسلام والذود عنه والعمل على إعلاء شأنه ، كما أظهر رغبته فى أن يظل فى سلام ومودة مع جيرانه المسلمين . ثم بعث بنبأ إسلامه إلى قلاوون سلطان المماليك فى مصر فى كتاب مؤرخ فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١ ﻫ (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) . مع رسولين هما قطب الدين شيرازى وأتابك بهلوان [٢] .

ولكن عهد تكودار لم يطل ، فقد قتل فى سنة ٦٨٣ ﻫ (أغسطس سنة ١٢٨٤ م) . وخلفه فى اليوم التالى أرغون ابن أخيه أباقاخان ، وحكم الدولة الفارسية نحواً من سبع سنين (٦٨٣ ﻫ — ٦٩٠ ﻫ = أغسطس ١٢٨٤ — مايو ١٢٩١ م) أى بعد موت أرغون بأربعة أشهر ونصف . وكانت أيامه مليئة بالاضطرابات إلى أن قتل فى سنة ٦٩٥ ﻫ (٢٣ أبريل سنة ١٢٩٥ م) . وخلفه ابن أخيه بيدو الذى توج فى همذان (ابريل — اكتوبر ١٢٩٥ م) فآثر الدين المسيحى وجهد فى وضع العقبات فى سبيل انتشار الاسلام بين المغول . وسرعان ما تغلب عليه غازان بن أرغون وقتله .

علاقة الناصر بغازان (٦٩٥ — ٧٠٤ ﻫ = ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) :

غازان هو إيلخان المغول الذى تحارب معه الناصر . لذلك آثرنا أن نأتى بكلمة تبين أخلاقه وصفاته حتى نتعرف مدى ما صادفه الناصر فى حروبه من صعاب . كان غازان أكبر أحفاد هولاكو والسابع من أسرة إيلخانات المغول فى فارس وقد انتصر الاسلام الذى اعتنقه وجعله الدين الرسمى للدولة انتصاراً مبيناً على الوثنية المغولية وهى الشامانية كما بدأت الدولة الفارسية فى عهده تستعيد استقلالها .

وقد ولد غازان سنة ٦٧٠ ﻫ (٢٤ ديسمبر سنة ١٢٧١ م) . وكان يصحب جده أباقاخان منذ نعومه أظفاره فى رحلاته للصيد . ولما بلغ العاشرة من عمره ولاه أبوه أرغون إمرة خراسان تحت وصاية الأمير نوروز بن أرغون أغا الذى تولى كثيراً من الأقاليم الفارسية فى عهد جنكيز خان وخلفائه من بعده مدة تسع وثلاثين سنة . وإلى نوروز يرجع الفضل فى إسلام غازان . وكان غازان قد وعده بالدخول فى هذا الدين إذا وهب الله له النصر على خصمه بيدو . ولما تم له ذلك بر بوعده ، فأسلم فى ٤ شعبان سنة ٦٩٤ ﻫ (١٩ يونيه سنة ١٢٩٤ م) وأسلم معه عشرة آلاف من المغول [٣] .

---

(١) D'Hosson, Histoire des Mongols, Vol. III. p. 553 seq.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٥ — ٨٠ .

(٣) قص الشيخ صدر الدين خبر اسلام غازان فى كتاب تاريخ سلاطين المماليك لزترستين Zettesstéen ص ٣٢ — ٣٦ .

على أن كثيراً من المغول والأمراء والأشراف وغيرهم نظروا إلى تحول غازان إلى الإسلام نظرة السخط والكراهية وأدى ذلك إلى قيام المؤامرات وتدبير الدسائس . بيد أنه تمكن من القضاء عليها بغير رحمة ولا شفقة حتى لقد قيل إنه قتل فى شهر واحد عدد لا يقل عن خمسة من أمراء المغول وسبعة وثلاثين من حكامهم ، ولحق بهم نوروز نفسه لاتهامه بالتآمر سراً مع سلطان المماليك فى مصر ، وجمال الدين دستاجردانى Dastájirdáni [١]، وأخوه قطب جهان ، واستوزر غازان الطبيب والمؤرخ المشهور رشيد الدين فضل الله صاحب كتاب جامع التواريخ[٢]. ومن النادر أن ترى صفحة فى كتاب رشيد الدين خالية من ملاحظة خاصة باعدام موظف فى ذلك العهد ، مما يؤيد قول السير هنرى هورث إن غازان كان حاكماً قاسياً وان دولته قد امتازت بقائمة سوداء من الضحايا [٣].

ولقد قضى غازان قسماً كبيراً من حكمه فى محاربة المماليك فى مصر . وكانت حالة الضعف التى سادت مصر فى أثناء اغتصاب عرش الناصر على يد كل من كتبغا ولاچين ، عقب سلطنته الأولى ووصاية الأميرين بيبرس وسلار فى أثناء سلطنته الثانية ، مما شجع غازان على التفكير فى الاغارة على بلاد الشام وفتح دمشق وعزمه على فتح مصر وضمها إلى أملاكه . ولا غرو فان هذه الحالة لم تخف على غازان ، بل انتشرت فى سائر الأقطار [٤].

ومن أهم العوامل التى ساعدت على إغارة المغول إكرام السلطان كتبغا عصاة المغول الذين فروا من وجه غازان . ذلك أن انتصار غازان على بيدو واعتناقه الدين الاسلامى أدى إلى مهاجرة عدد كبير من جند بيدو إلى الديار المصرية . ويعرف هؤلاء باسم « المغول الأويراتية أو العوايرتية » . ويقول أبو الفدا أن عدد الفارين من وجه غازان زاد على عشرة آلاف بيت ولوا وجههم شطر مصر، بزعامة صهر منكوتمر بن هولاكو ويرجع سبب هجرتهم إلى ماذكره أبو الفدا من أن قائدهم طرغية صهر منكوتمر قد ناصر بيدو على جيخاتو بن أباقاخان فلما دارت الأيام دورتها واستطاع غازان أن يعتلى عرش المغول فى فارس أراد أن يأخذ بثأر عمه من منكوتمر ففر هو وجماعته يريدون مصر وأظهروا رغبتهم فى اعتناق الاسلام لكى يسمح لهم بالدخول . [٥]

ولما وصل هؤلاء إلى نهر الفرات كاتب نواب الشام كتبغا يخبرونه بأمر العوايرتية ويطلبون منه الإذن بدخولهم مصر . فجمع السلطان أمراء الدولة واستشارهم فى هذا الأمر . فاتفق

---

(١) ويلقب صدرى جهان ويشبه رئيس الوزراء .

(٢) ترجمه كترمير بعنوان Histoire des Mongols

(٣) Sir Henry Howorth : History of the Mongols, part III. pp. 426—427.

(٤) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٥ .

(٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٣٤ .

الرأى على إنزال عامتهم بساحل بلاد الشام وحضور رؤسائهم إلى مصر . فبعث إلى نائب الشام يأمره باكرامهم وتوجه بنفسه لمقابلة رؤسائهم وأحضرهم معه إلى مصر وأنعم عليهم بالأراضى وخلع عليهم وآثرهم على أهل مصر[١] . وكان كتبغا مغولى الجنس ، فلا عجب إذا مال اليهم واحتضنهم واهتم بأمرهم اهتماماً أثار فى قلوب أمراء الدولة الإحن والأحقاد عليه ، وخصوصا عند ما ظهر أنهم قد عدلوا عن الدخول فى الاسلام وتمسكوا بعقائدهم الوثنية [٢] . ولكن كتبغا قد رفض أن يتعرض لهم بسوء ، إذ كان يرمى إلى اتخاذهم عونا له على البقاء فى كرسى السلطنة .

ومن العوامل الجوهرية التى شجعت على إغارة المغول هرب سيف الدين قبجق نائب دمشق مع جماعة من الأمراء فى خمسمائة من الجند إلى غازان وإخباره بما آلت اليه حالة سورية فى نهاية حكم لاجين مما دفعه إلى العمل على امتلاك هذه البلاد ومواصلة السير إلى مصر[٢]. ويمكننا أن نتصور أهمية ذلك الحادث وما كان له من أثر فى علاقات الناصر بغازان إذا علمنا أن غازان لم يكن حتى ذلك الوقت يعلم حقيقة الحال فى سورية ، وأنه كان يتهيب المماليك بعد ما رآه من شجاعتهم وانتصارهم على ملك أرمينية . وكانت رغبة غازان متجهة إلى الاعتداء على دولة المماليك . وكان يظن أن أحوال هذه الدولة ستساعده على تحقيق مطامعه ، ولذا تلمس سبيا لبدء مشروعه وأتيح له الوصول إلى ذلك حين أرسل الأمير بلبان الطباخى نائب حلب جيشاً إلى ماردين عاث فيها فساداً فاتخذ غازان ذلك حجة فى غزو الشام[٣] .

أرسل غازان جيشاً يبلغ خمسة وعشرين ألف مقاتل بقيادة سلامش .وأمره بالتوجه الى بلاد الروم السلاجقة بآسيا الصغرى ، على أن يسير هو على رأس جيش آخر نحو ديار بكر . وإذا ما تلاقى الجيشان فى حلب أغارا على بلاد الشام[٤] . وسرعان ما شق سلامش عصا الطاعة على غازان واستولى على بلاد الروم السلاجقة . غير أنه حدث — عندما التقى جيش سلامش بجيش لولاى قائد غازان فى آخر شهر رجب سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) أن انضم التتار الذين كانوا تحت إمرة سلامش إلى لولاى . فلم ير سلامش بدأ من المسير إلى دمشق ثم إلى مصر حيث استقر بها . ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أعد غازان جيشاً آخر بلغ عدده مائة ألف مقاتل لغزو سورية (٦٩٩ — ٧٠٠ هـ = شتاء ١٢٩٩ — ١٣٠٠ م)[٥].

ولما اتصل بالسلطان الناصر خبر عبور غازان نهر الفرات ، جهز جيشاً لمقابلة المغول .

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٧ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٤٤ .

(٤) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٢٢ — ٦٣٣ و Zetterstéen ص ٥٤ .

(٥) ابن أبى الفضائل : نفس المصدر ص ٦٣٤ .

الا أن سوء الحظ قد لازم المصريين فى سيرهم من بادىء الأمر . فان العوايرتية الذين انضووا تحت لواء الناصر ماكادوا يصلون إلى غزة حتى دبروا مؤامرة خطيرة لا غتياله هو وقواده . وكانوا يرمون من وراء ذلك إلى إعادة كتبغا المغولى إلى العرش والأخذ بثأر إخوانهم الذين قتلوا فى عهد لاجين . وكان من أثر تفاقم هذه المؤامرة أن تأخر زحف الجيش المصرى ، وعمت الفوضى والارتباكات صفوف المماليك وفقد كثير من آلات الحرب على أن قواد جيش الناصر أظهروا نشاطاً عظيما وكياسة وحكمةفى احباط هذه المؤامرة وإعادة النظام الى وحدات‌الجيش ، ولقى المتآمرون جزاء ما فعلوا . ويقول المقريزى : «شنق منهم نحو الخمسين . ونودى عليهم : هذا جزاء من يقصد إقامة الفتن بين المسلمين‌ويتجاسر على الملوك » [١].

موقعة الخزندار :

ومن ثم استأنف جيش الناصر سيره حتى دخل عسقلان فى ٨ ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) . وما كادت تصل إليه الأخبار بكثرة عدد العدو حتى وقع الرعب فى قلوب الجند ، وخاصة عند ما رأوا أنواعاً من الجراد محلقة فى الجو ، فاعتبروها نذيراً بالهزيمة . ثم تقدم الجند وقد خارت قواهم وضعفت قلوبهم . والتقى الفريقان فى مجمع المروج فى وادى الخزندار بين حماه وحمص . وكان عدد المماليك عشرين ألفا ، بلغ المغول خمسة أضعافهم [٢]. وكان‌جيش‌المماليك يجمع أكفأ الأمراء والقواد وبعض‌رجال الدين‌لبث روح الحماسة والجهاد وحب النصر فى الجنود . أما غازان فقد رتب جيشه بحيث وضع الخيل فى المقدمة وأقام من ورائها الفرسان راجلين بقصد حماية رجال جيشه من هجمات العدو . ولم يمتط هؤلاء الفرسان خيولهم الا بعد أن حمى وطيس القتال .

وقد بيّـن ابو المحاسن فى عبارة جلية كيف دار القتال بين المصريين والمغول فى موقعة الخازندار ، فقال : « وعدى غازان والتتار الفرات وخرج السلطان [الناصر] لتلقى العدو وساق إلى حمص وركب بكرة الاربعاء سابع عشرين الشهر وساق إلى وادى‌الخازندار فكانت الوقعة والتحم القتال واشتد الحرب وثبت عسكر الاسلام إلى العصرولاح لهم النصرثم‌تكاثر عساكر التتار وحمل على ميمنة السلطان فانكسرت الميمنة وجاءهم مالا قبل لهم به . وكان عسكر السلطان يومئذ نحو عشرين ألفا وعسكر التتار قريبا من مائة ألف فشرع المسلمون فى الهزيمة وأخذ الأمراء السلطان وتخيروا به وحموا ظهورهم وساروا على درب بعلبك والبقاع وبعض العسكرعبر دمشق واستشهد فى المصاف جملة من الأمراء » [٣] .

---

(١) كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٧ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٩٢٨ — ٩٢٩ .

(٣) المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٤٥ ا .

كان النصر فى واقعة الخزندار حليف المغول ، على الرغم من انتصار المماليك أولا . وقد وصف مفضل بن أبى الفضائل كيف انتهت تلك الموقعة فقال : « صارت الأخبار مضطربة وأخبر قوم بأن التتار عزموا على الهروب وشنوا أعنتهم للرجوع . فأشير على السلطان (الناصر) بسرعة المسير اليهم فركضت العساكر بعد أن أقاموا على ظهور خيولهم ثلاثة أيام بعددهم وأسلحتهم ولما التقى الجمعان حملت الميسرة المنصورة على ميمنة العدو فكسرتهم وساقت العساكر خلفهم إلى خلف أثقالهم وحملت ميسرة العدو على ميمنة العساكر المنصورة فكسرتها . والتقوا على السلطان والقلب وفوقوا نحوهم سهاما كدفعة المطر أو كجرية السيل المنهمر . ثم حصل تخاذل أوقعه الله تعالى بمشيئته (فى جيش الناصر) فهربت الميمنة وهرب من كان وراء السناجق السلطانية وانفل الجيش وانفصل الأمر بعد العصر . وساق السلطان بطائفة يسيرة نحو بعلبك وبقيت الغنائم والأموال والعدد والأثقال ملقاة ملو الأرض ورموا الجند سائر عددهم ليخففوا عن خيولهم لينجوا بأنفسهم»[1] .

كانت موقعة الخزندار التى هزم فيها الناصر من أعظم المواقع التى دارت بين المماليك والمغول . وعلى الرغم من أن قبجق يعد من المحرضين على إغارة المغول ، فانه يرجع اليه الفضل فى رد غازان — بعد انتصاره — عن مطاردة جيوش المماليك المنهزمة خشية أن يكونوا قد وضعوا لهم كمينا كعادتهم فى الحروب .

فتح دمشق :

زحف المغول بعد ذلك الى حمص فنهبوا ما فيها من خزائن السلطان والمؤن والذخائر . ثم رحلوا إلى دمشق فوقع الرعب فى قلوب الأهلين وخرجت النساء سافرات وترك الناس حوانيتهم وأموالهم وازدحموا على أبواب المدينة يريدون الخروج منها ، ودفعوا الأجور الغالية لأصحاب الخيل والحمير لحمل من عجز منهم عن السير ، واعتصم بعضهم بالقرى ورءوس الجبال ، وسار البعض الآخر إلى مصر . وقد اتفق جماعة على اختيار وفد من كبرائهم وعلمائهم لمقابلة غازان والتماس الأمان منه . ومن هؤلاء ابن جماعة وابن تيمية وغيرهما من القراء والفقهاء والأعيان ولما مثلوا بين يديه قبلوا الأرض وسألوه الأمان وقدموا له طعاماً على سبيل الهدية فاعتذر عن قبوله وأخبرهم أنه أرسل الأمان لأهل دمشق مع أربعة من المغول [2] . فعادوا اليها واجتمعوا بالمسجد الأموى وتلا عليهم رجل من المغول صورة الأمان فى ٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩) . ويتضمن هذا الكتاب تأمين الأهلين جميعاً على اختلاف أديانهم ومذاهبهم والعمل على إيجاد حكومة رشيدة تقر العدل والنظام إذا ضمت مصر إلى حوزة المغول .

---

(١) النهج السديد ص ٦٣٤ — ٦٣٥ .

(٢) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٣٦ — ٦٤٠ .

وقد ورد فى هذا الفرمان بعض عبارات تشير إلى أن سلاطين مصر وحكامها قد حادوا عن جادة العدل والانصاف حتى اضطربت أحوال البلاد فى عهدهم وأن الله تعالى قد أرسل المغول إلى أهل الشام ومصر لتخليصهم مما هم فيه . وهاك بعض ما جاء بتلك الوثيقة :

« بقوة الله تعالى وإقبال دولة السلطان محمود غازان ليعلم أمراء الطومان والألوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة ممن هوداخل تحت ربقة طاعتنا ، أن الله لما نوّر قلوبنا بنور الاسلام وهدانا إلى ملة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، أفمن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه . . فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين . ولما أن سمعنا أن حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين ، غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام ، وكان أحدهم إذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد . وشاع عن شعارهم الحيف على الرغبة ، ومد أيدى العادية إلى حريمهم وأموالهم ، والتخطى عن جادة العدل والانصاف . . . حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية على أن توجهنا إلى تلك البلاد لازالة هذا العدوان وإماطة هذا الطغيان مستصحبين الجم الغفير من العساكر . ونذرنا على أنفسنا إن وفقنا إلى الله تعالى بفتح تلك البلاد أزلنا العدوان والفساد ، وبسطنا العدل والاحسان فى كافة العباد ، ممتثلا للأمر الالهى (إن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) . . . » [١] .

على أن الوعود التى تضمنتها هذه الوثيقة لم تكن إلا سراباً . فسرعان ما نزل غازان بظاهر دمشق وعاث جنده فساداً فى بلاد الشام وفلسطين واشتطوا فى أعمال النهب والتخريب وبخاصة فى بيت المقدس والكرك . كما تعرضوا لأ نفس الآثار فخربوا بعضها وأحرقوا بعضها الآخر ، ولم ينج من أيديهم إلا قلعة دمشق المنيعة التى اعتصم بها واليها أرجواش وحال دون استيلاء المغيرين عليها [٢] .

واقعة الصالحية :

سار المغول بعد ذلك إلى الشمال ونزلوا فى ١٥ ربيع الثانى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) بالصالحية ونهبوها وأخذوا ما فى مدارسها وجامعها من البسط والقناديل [٣] وقتلوا من

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٤٠ — ٦٤٤ . وازن بين هذا المنشور والعهد الذى قطعه جوهر القائد على نفسه حين فتح مصر (جوهر الصقلى للدكتور على ابراهيم حسن ص ٤٠ — ٤٢) .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٣ — ٩٣٤ و Howorth, part III. pp. 444—445 و Browne, Vol. III. p. 41.

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٥ .

أهليها زهاء تسعة آلاف . وخاف أهل دمشق أن يعود إليهم غازان بجموعه فطلبوا منه أن يفرض عليهم ضريبة فى مقابل عتق المسلمين ، ولكنه صمم على أخذ قلعة دمشق . وبالغ المغول فى أعمال النهب والسلب والاحراق فى دمشق وفى غيرها من بلاد الشام واشتطوا فى جمع الأموال وعجز الناس عن أداء ما فرض عليهم من الضرائب(١) . وأهدرت الدماء البريئة بغير ماشفقة ولا رحمة حتى إن المقريزى يقول إنه قتل فى دمشق من الجند والفلاحين والعامة مائة ألف (٢) . واشتد الغلاء فى هذه المدينة حتى بلغ ثمن الشيء سبعة أضعافه (٣) . ولم ينج من قسوة غازان وإهداره الدماء وتخريبه البلاد أحد من الناس ، لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء والصبيان والفقهاء والقراء والعلماء حتى بلغ من شدة خوف الناس أن قطعت صلاة الصبح والعشاء من المساجد أياماً كما عطلت صلاة الجمعة . ويقول مفضل بن أبى الفضائل بهذا الصدد : « وعادوا المغل يضربون الناس على ظهورهم ويمسكون أكمامهم ، وفعل ذلك بابن صصرى القاضى . وكثر النهب فى البلد وعظم الأمر وتسلقوا من الأسطحة وكسروا الأبواب . وكان ذلك فى يوم الجمعة ثامن وعشرين الشهر [ربيع الثانى] لا سيما وقت الصلاة وتهاربت الناس من سطح إلى سطح ووقعوا وتكسرت أيديهم وأرجلهم وجبى على الرءوس وعلى الدور . وكان المطلوب شيئاً كبيراً لا تحمله البلد فعسر الأمر على الناس جداً » (٤) .

عودة سورية الى سلطان المماليك :

كان الظاهر من سير الأمور وقتئذ أن البلاد السورية أصبحت فى قبضة المغول . وبلغ الضيق والشدة من الناس كل مأخذ حتى عزم غازان على العودة إلى بلاده وخلف على سورية قطلوشاه التتارى نائباً عنه ومعه ستون ألفاً من جند المغول وهدد المماليك بالعودة إلى بلاد الشام وغزو مصر فى فصل الخريف (٥) . وخرج غازان من دمشق قاصداً بلاد فارس فى ٩ جمادى الأولى سنة ٧٠٠ ﻫ (١٣٠٠ م) بعد أن كتب الى سيف الدين قبجق عهداً بنيابة الشام وفيه يقول :

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٧١ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ج ١ ص ٩٣٧ — ٩٤١ .

(٣) قال بعض الشعراء فى ذلك :

رمتنا صروف الدهر منها بسبعه ... فما أحد منا من السبع سالم
غـلاء وغازان وغزو وغاره ... وغـدر وأغبان وغم ملازم

Zetterstéen : نفس المصدر ص ٧٢ .

(٤) النهج السديد ص ٦٥٧ .

(٥) Zetterstéen ص ٧٥ .

« ... فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ومن فيها من غاصب وظالم هاجرنا لنصرة الله تعالى ونصرة الدين وبادرنا لانقاذ من فيها من المسلمين وأرسلناهم وأنذرناهم وكاتبناهم وزجرناهم ووعظناهم فلم تنفع فيهم العظة وأيقظناهم فلم يكن عندهم يقظة . فلقيناهم بقوة الله تعالى فكسرناهم وقلمنا آثارهم وملكنا الله تعالى أرضهم وديارهم وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل فلم ينج منهم الا الفريد ولا سلم الا البريد . فلما استقر تملكنا للبلاد وجب علينا حسن النظر فى العباد . فأحضرنا الفكر فيمن تقلده الأمور وأنعمنا النظر فيمن نفوض اليه مصالح الجمهور فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ويقيم ما انآد من قوامها القويم . . . فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى المؤيدى الكفيلى المشيرى المجاهدى الأميرى الهمامى النظامى السيفى ملك الأمراء فى العالمين ظهير الملوك والسلاطين قفجق هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة . . فلذلك رسمنا أن نفوض اليه نيابة السلطنة الشريفة . . » (١).

انفرد قبجق بحكومة دمشق ، إذ لم تمض عشرة أيام على خروج غازان حتى لحق به قطلوشاه . وغدر قبجق بالتتار وقتلهم وتتبع المفسدين وبطش بهم (٢). فاستبشر أهل دمشق بذلك وعادت الطمأنينة الى نفوسهم ، وأبلغ قبجق السلطان الناصر نبأ خروج غازان وقطلوشاه من دمشق وعودة سورية إلى حوزة المماليك (٣) .

وهكذا نرى أن قبجق قد خان الناصر أولا ثم خان غازان ثانيا . ولسنا ندرى كيف قابل الناصر رجوع قبجق إلى حظيرة المماليك بعد أن خانهم وانضم إلى العدو . ويظهر أن الناصر قد رحب بتوبته ليكون عضداً له ضد المغول ألد أعدائه إذ ذاك . ولعل سماع قبجق بخبر الاستعدادات الحربية الهائلة التى كان يقوم بها الناصر وتوقعه انتصار المغول على المماليك كان من العوامل التى أدت إلى خيانته غازان بعد رحيله وإلى عودته إلى حظيرة المماليك .

وهنا نقف قليلا لنتعرف العوامل التى أدت إلى عودة غازان إلى بلاده بعد هذا النصر المؤزر الذى أحرزه على المماليك فى بادىء الأمر . ذلك أنه بعد أن عاد الناصر إلى مصر أخذ

---

(١) مفضل ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦٤٨ — ٦٥٠ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٤٦ — ٩٤٩ .

(٣) يقول ابن أبى الفضائل (نفس المصدر ص ٦٦٩ — ٦٧٠) :

« وفى ذلك اليوم [الاربعاء ٢٨ ربيع الثانى سنة ٧٠٠ هـ] نودى بالبلد : طيبوا قلوبكم وافتحوا دكاكينكم وتهيئوا للقاء سلطان الشام سيف الدين قبجق بالشموع . وفى المناداة أيضا قد دفع الله عنكم العدو المخذول . . وفى عشية السبت رابع الشهر (رجب) اشتهر أنهلم يبق فى الطرقات ولا فى ضواحى دمشق أحد من التتار ونودى بذلك . . . وفى يوم الأربعاء خامس عشر رجب خرج الأمير سيف الدين قبجق من دمشق وطلب الأبواب السلطانية الناصرية هو وأصحابه بكتمر السلحدار ومن معهم . . . (وفى) يوم الجمعة أعيدت الخطبة بجامع دمشق للسلطان الملك الناصر صاحب مصر وباسم الخليفة على جارى العادة . وكان قد أسقط اسمهما من الخطبة من سابع ربيع الآخر إلى ذلك اليوم . فكانت المدة مائة يوم » .

يجمع الجيوش ويعد العدة ويجهز الأسلحة لمحو هذا العار وإعادة البلاد السورية إلى قبضته من يد المغول . وقد أمر بجمع الضرائب وحث الأغنياء على التبرع بالمال لانقاذ سورية ، ولا سيما أن قلعة دمشق صمدت للعدو على الرغم مما أبداه من المهارة فى أساليب الحرب ووسائل الترغيب فى تسليمها لغازان لهذه الأسباب إذن خاف غازان عاقبة طول مقامه فى سورية حتى لا تدركه الجيوش المصرية من الغرب وتخرج عليه حامية قلعة دمشق المنيعة فى سورية ، بينما تتعرض حدوده الشرقية لغزو الغزاة ، فتتوزع جهوده بين جهات متعددة فيذهب ضحية أطماعه الواسعة . لذلك نراه يؤثر تركيز قواه فى الشرق وترك سورية إلى المماليك حتى تأتيه فرصة أخرى لاعادة الكرة عليهم .

وقد حدث ذلك فعلا عندما بدأ غازان زحفه إلى الشام من جديد فى شتاء عام ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) . إلا أن البرد القاسى بها اضطره إلى أن يعود أدراجه بعد أن هجم على أنطاكية وجبل السماق ونهب الأموال وأسر كثيراً من الرجال حتى بيع الواحد منهم بعشرة دراهم ، وحالت الأمطار الغزيرة والثلوج المتكاثفة دون دخوله دمشق . وقد عقب صاحب « تاريخ سلاطين المماليك » على هذه الغزوة بقوله : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً » (١) وكان غازان يعتقد أن الدول المسيحية سوف تساعده على انتزاع سورية من يد المماليك ، فتوالى إرسال الوفود المغولية إلى بلاط انجلترا وفرنسا . (٢)

المراسلات بين غازان والناصر :

ولما يئس غازان من مناصرة الغربيين له عول على مهادنة المماليك ، فأرسل فى مايو سنة ١٣٠١ م (العشرة الأيام الثانية من شهر رمضان سنة ٧٠١هـ) إلى الناصر وفداً يحمل رسالة يعيبه فيها لهجومه على أطراف بلاده من غير سبب ، ثم يتوعده بالانتقام إذا لم يكف عن عدوانه إذ اتصل بمسامعه أن المماليك قد عولوا على الأخذ بثأرهم ومقاتلتهم بنواحى حلب والفرات . وأخيراً ناشده الله والدين أن يعمل على تلافى ما قد يقع ببلاده من الخراب وما يحل بالعباد من البلاء ، كما يخبره أن المغول قد عولوا على جمع الجيوش وشحذ الهمم وصنع المجانيق وآلات الحصار والمسير الى بلاده . وأخيراً يطلب إلى الناصر أن يعد له الهدايا والتحف . وختم رسالته بقوله : قد أعذر من أنذر وأنصف من حذر . وحمل هذا الكتاب الأمير ناصر الدين على خواجا والفقيه جمال الدين موسى بن يوسف القاضى .

افتتح غازان رسالته بالسلام ، ثم شرح العوامل التى سببت غزوه سورية ، وهى لا تخرج عما ورد فى الكتاب الذى قرىء على أهل دمشق بتأمين أهلها بعد فتحها ، إذ أوضح أن ذلك

---

(١) Zettersteen ص ٨٣ .

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 56—57.

كان راجعا إلى الظلم الذى عم البلاد المصرية والولايات التابعة لها (ومنها سورية) فى عهد سلطنة المماليك عامة . ثم هدد غازان بغزو الشام وما سيحل بها من تخريب وتدمير[١].

رد الناصر على هذا الكتاب بكتاب طويل ، يفند فيه أقوال غازان ويبرهن بأدلة واضحة أن المغول هم الذين بدءوا بالشر وبادروا إلى العدوان ، وأن رسل غازان جاءوا فى وقت اشتبكت فيه الأسنة والرماح . وأبى الناصر أن يرسل إليه ما طلب من الهدايا والتحف حتى يبدأ هو بارسالها إليه وحينئذ يردها عليه مضاعفة ، كى لا يقوم ذلك دليلا على خذلانه . كما عاب على غازان آباءه وأجداده الوثنيين وما كان من إذلاله المسلمين فى دمشق وما جاورها وتخريبه المساجد والآثار مع منافاة ذلك لتعاليم الاسلام . وأخيراً أكد الناصر لغازان أنه على تمام الاستعداد لقبول مصادقته إذا خفف من غلوائه وصرف الكفار الذين اتخذهم بطانة له ، وأرسل إليه الرسل مؤيدين رغبته فى الصلح وميله إلى المصافاة والعمل على ما يعود على البلدين بالخير . وعند ذلك يجنح الناصر إلى الصلح ، ويصبح الفريقان على حد قوله تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا)[٢].

---

(١) قال غازان فى لهجة حاسمة : « ... وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزائمنا المشهورة ، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار ، وعازمون بعد الانذار (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) . وقد سيرنا حاملى هذا الكتاب . . . وقد حملناهما كلاما شافهناهما به ، فلتثقوا بما تقدمنا به إليهما فانهما من الأعيان المعتمد عليهما فى الديوان ، كما قال الله تعالى (فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين) فلتعدوا لنا الهداياوالتحف ، فما بعد الانذار منعاذر ، وان لم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدميرهم (كذا) ، ومطلوبة عند الله فى طول تقصيرهم ... » (راجع هذا الكتاب كاملا فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٩ — ٧١) .

(٢) أورد القلقشندى (نفس المصدر ج ٧ ص ٢٤٣ — ٢٥٠) نص هذا الكتاب الطويل . واليك أهم ماورد فيه : « . . . أما حديث من أغار على ماردين من رجاله بلادنا المتطرفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة والآثام الشنيعة ؛ وقولهم : انهم أنفوا من تهجمهم ، وغاروا من تقحمهم ، واقتضت الحمية ركوبهم فى مقابلة ذلك ، فقد تلمحنا هذه الصورة التى أقاموها عذراً فى العدوان وجعلوها سببا إلى ما ارتكبوه من طغيان ، والجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين ، ولم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكف يدنا الممتدة ، ولا يفتر هممها المستعدة ؛ وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ماعلمتم من الكفر والشقاق ، وعدم المصافاة للاسلام والوفاق . .

وأما ما تبجحوا به مما اعتقدوه من نصره ، وظنوه من أن الله تعالى جعل لهم على حزبه الغالب فى كل كرة الكرة ؛ فلو تأملوا ماظنوه ربما لوجدوه هو الخسران المبين ، ولو أنعموا النظر فى ذلك لما كانوا به مفتخرين ... وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التى لو كانت مجتمعة عند اللقاء ما ظهر خبر عنهم ؛ فانا كنا فى مفتتح ملكنا ، ومبتدأ أمرنا ، حللنا بالشام للنظر فى أمور البلاد والعباد . فلما تحققنا خبركم ، وقفونا أثركم ، بادرنا نقد أديم الأرض سيراً ، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً ...

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا ، وأرسلوا به عنان قلمهم وأطلقوا ، وما أبدوا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكره من التهويل ، فالله تعالى يقول : (الذين قال لهم الناس =

وباستعراض هذه الرسائل الدبلوماسية يتضح أن عقد الصلح بين المغول والمماليك أصبح بعيد الوقوع . إذ نجد أن كتاب الناصر الأخير قد أوغر صدر غازان الذى لم نجد بداً من مواصلة الصراع مع المماليك . غير أن ظروفه الخاصة ألزمته بتأجيل البدء فى الحرب معهم عاماً آخر . وقد أفاد المماليك من ذلك فسنحت لهم الفرصة بتأديب من خرج عليهم من العرب والأرمن ، كما عملوا على جمع صفوفهم وتقوية مركزهم لصد أى اعتداء جديد من جانب المغول .

انتصار المماليك فى موقعة مرج الصفر :

وأخيراً استؤنفت الحرب بين الناصر وغازان فى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) . وسار قطلوشاه فى مائة ألف من التتار والكرج والأرمن لمحاربة المصريين . وعبر غازان نهر الفرات وزار كربلاء التى كان يقدسها بسبب ميوله الشيعية ، ووزع الهدايا فى ضريح الحسين بن على ، ثم تقدم إلى عانة . أما غازان فقد صحب جيشه نحو الغرب ، وعبر الفرات إلى مدينة كشف وتقع على مسيرة يومين من أردبيل التى تعد من أشهر مدن أذربيجان وأقام هنالك ينتظر نتيجة الحملة .

أما الناصر فقد خرج من مصر سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) على رأس جيش كبير لملاقاة المغول فى بلاد الشام ، وقد بلغ الحماس من الجند أشده . وصحب الخليفة العباسى فى القاهرة جيش المماليك ومعه كل من سلار وبيبرس أعظم أمراء مصر إذ ذاك . ويصف المقريزى قتال الناصر للمغول فى الشام . فيقول « مشى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة ، وصار السلطان يقف ويقول الخليفة : يا مجدون ! لا تنظروا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ والناس فى بكاء شديد ، ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض ، وتواصى بيبرس وسلار على الثبات فى الجهاد وعاد السلطان إلى موقفه ووقف الغلمان والجمال وراء العسكر صفاً واحداً وقيل لهم : من خرج عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه » [١] .

= إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ...

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف ، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها ، ولو أتحفونا بتحفة لقابلناها بأجل عوض عنها . . .

والآن لحيث انتهت الأجوبة إلى حدها ، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها ، فنقول : إذا جنح الملك للسلم جنحنا له . . . وأرسل إلينا رسولا من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا ، ويرق خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد عند عوده (ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا) صارت حجتنا وحجته على من خالف ذلك ... »

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٣٣ .

وفى شهر مارس سنة ١٣٠٣ م (رمضان ٧٠٢ هـ) تقابل المغول والمماليك عند مرج الصفر على مقربة من حمص . فهزم جيش الناصر المغول هزيمة شنيعة وهلك معظم جيش المغول ومات كثير منهم من شدة الظمأ ، وفر قطلوشاه إلى الفرات وتبعه فلول جيشه فغرق بعضهم ومات بعضهم الآخر فى الصحراء وأسر المصريون عشرة آلاف من المغول وغنموا عشرين الف رأس من الماشية [١] ، ولم تقم لغازان بعد تلك الموقعة قائمة .

وقد وصف النويرى المؤرخ المصرى المشهور الذى اشترك فى تلك الموقعة من أولها بنفسه ، ما شهده فى هذه العبارة : « وكنت يوم ذاك بدمشق ، فخرجت منها بعد أن أعددت لامة الحرب . والتحقت بالعسكر ، ووجدت الجفال قد ازدحموا بالأبواب زحاماشديداً ، وقد ذهلوا عن أموالهم وأولادهم . ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحصى ، فوجدتهم قد توجهوا الى مرج الصفر . فلحقت بالجيوش فى يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر ؛ وهو سلخه ، وأقمنا بالمرج يوم الخميس والجمعة . فلما كان فى ليلة السبت المسفرة عن ثانى شهر رمضان ، دارت النقباء على العساكر ، وأخبروهم أن العدو قد قرب منهم ، وأن يكونوا على أهبة واستعداد فى تلك الليلة ، وأنه متى دهمهم العدو ركبوا خيولهم ، ويكون الاجتماع عند قريه الهجة قرب خربة اللصوص . فبتنا فى تلك الليلة وليس منا إلا من لبس لامة الحرب ، وأمسك عنان فرسه فى يده ، وتساوى فى ذلك الأمير والمأمور ، وكنت قد رافقت الأمير علاء الدين مغلطاى البيسرى أحد أمراء الطبلخانات بدمشق لصحبة كانت بينى وبينه ؛ فلم نزل على ذلك ، وأعنة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر ، فصلينا وركبنا . واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع النهار فى يوم السبت المذكور ، ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين ثم ظهرت الشمس . ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال وأقبل التتار كقطع الليل المظلم وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية فى ساعة واحدة » [٢] .

وعلى أثر ما أحرزه الناصر فى هده الموقعة الحاسمة من نصر مؤزر على المغول ، انتقل الى دمشق ، وسار اليها — على ما يقوله المقريزى — « فى عالم من الفرسان والعامة والأعيان والنساء والصبيان . لا يحصيهم إلا من خلقه سبحانه ، وهم يضجون بالدعاء والهناء ، وتساقطت عبرات الناس ودقت البشائر وكان يوماً لم يشاهد مثله » [٣] .

وبعد أن خلع الناصر على نواب الشام سار الى مصر . وكان أهلها قد استعدوا لاستقباله .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٤٩ — ٥١ . ومما تجب ملاحظته أن أبا الفدا حضر هذه الموقعة بنفسه . المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩٣٦ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٣٣٦ ب .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٦ .

فاقيمت الزينات على المنازل والحوانيت وفى الشوارع والميادين العامة ورفعت الأعلام وأقيمت أقواس النصر[١] ابتهاجاً بقدوم السلطان وفرحاً بانتصاره . ودفعت الأجور العالية للحجر المطلة على الطرق التى مر فيها السلطان ، وبلغت أجرة البيت الواحد من خمسين درهماً إلى مائة . وفرشت الأرض بالبسط الحريرية من باب النصر إلى القلعة . ومر السلطان بين الجموع الغفيرة التى استقبلته بالبشر والسرور فى وسط هذه الزينات ، يحوطه حراسه وكبار رجال دولته ، يتبعهم ألف وستمائة من أسرى المغول ، مكبلين بالسلاسل والأغلال ، ويتدلى من رقبة كل منهم رأس مغولى آخر . وحمل ألف رأس من رؤوس قتلاهم على أسنة الرماح تعلوها طبول الحروب المغولية الكبيرة بجلودها الممزقة [٢] .

أما غازان الذى لم يقل غيظه عن فرح سلطان مصر ، فقد صب جام غضبه على قواد المغول ورؤسائهم ، وعدهم مسئولين عن هذه النكبة ويظهر أن صحة غازان قد ضعفت بسبب هذه الكارثة التى حلت بجيوشه ، وزاد فى حزنه قيام مؤامرة ترمى إلى خلعه وتولية ألافرنك Alafrank ابن جيخاتو عرش المغول فى فارس فمات كمداً وهو فى عنفوان شبابه لم يكتمل الثانية والثلاثين وذلك سنة ٧٠٤ هـ (١٧ مايو سنة ١٣٠٤ م)[٣] .

حزن المسلمون من المغول لموت غازان حزناً عميقاً ، لأنه أعاد الاسلام إلى المكانة التى كان يتبوؤها فى بلادهم قبل غزوات جنكيزخان . كما كبح جماح الوثنية وقضى على الفوضى التى كانت منتشرة فى امبراطوريتهم . وعلى الرغم من قسوته . فقد كان رحيما إذا ما قورن بأسلافه ، كما اشتهر بكراهته سفك الدماء إلا إذا اعتبر ذلك ضرورياً لإقرار الأمن والسكينة فى ربوع دولته الواسعة . وكان — كما يقول هورث — يحرص كل الحرص على نشر العدل وبسط الأمن بين رعاياه ويعمل على توفير أسباب السعادة لهم [٤] .

وقد أدخل غازان كثيراً من ضروب الاصلاح فى الادارة المالية ، وكان نصيراً للعلم والأدب . فشجع دراسة العلوم الاسلامية ، ونشر الفنون والصناعات والعلوم الطبيعية . وبخاصة فن العمارة وعلم الفلك وفن التعدين وعلم النبات ، ووقف على أحوال الأقاليم الغربية التى استمدها من الرسل الصينيين والهنود والمصريين والأسبان ، والانجليز ، وغيرهم ممن تردد على بلاطه . وكان غازان أول من خرج من بين إيلخانات فارس عن طاعة الخان الأعظم بعد أن تحول إلى الاسلام وأعلن استقلاله بصك نقود جديدة . وكان إيلخانات

---

(١) كانت أقواس النصر تسمى إذذاك القلاع .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩٣٧ — ٩٣٨ .

(٣) Browne, vol. III. pp. 42—43.

(٤) Howorth, part III. p. 491.

فارس إلى ذلك الوقت مجرد عمال اقطاعيين تابعين لخاقان منغوليا والصين ، حتى لقد أصبح هذا العهد الجديد الذى بدأ فى ١٣ رجب سنة ٧٠١ هـ (١٤ مارس ١٣٠٢ م)[١] يسمى عهد إيلخانى أو غازانى .

العلاقة بين الناصر وأولجايتو خليفة غازان :

خلف غازان على العرش أولجايتو Uljāytū محمد خدابنده بن أرغون (٧٠٥ — ٧١٦هـ = ١٣٠٥ — ١٣١٦ م) فى ٢١ يوليه سنة ١٣٠٥م . وفى عهده خف ذلك العداء الذى استحكم بين المماليك والمغول . فقد أوفد أولجايتو السفراء إلى مصر لاظهار صداقته للناصر وتأكيد حسن نياته نحوه . على أن أولجايتو لم يكن مخلصاً فى تودده هذا إلى سلطان مصر ، فقد اعتنق مذهب الشيعة وغلا فيه وعمل على نشره فى الجهات الغربية من بلاده واشتد العداء بينه وبين المماليك السنيين وطمع فى الاستيلاء على سورية ومصر . وأرسل لذلك السفراء إلى البابا كلمنت الخامس وادوارد الثانى ملك انجلترا وفليب الجميل ملك فرنسا يطلب منهم العون على أخذ مصر وسورية وانزال العقاب بالمماليك . وقد بقى من هذه الكتب كتاباً أحدهما من ادوارد الثانى بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٣٠٧م وثانيهما من كلمنت الخامس بتاريخ أول مارس سنة ١٣٠٨ م[٢] . كما لا تزال هناك بسجلات باريس رسالة الى فليب الجميل يرجع تاريخها الى شهر مايو سنة ١٣٠٥ م .

على أن هذه البعوث لم تأت بطائل على رغم اعتقاد البابا وملوك أوروبا أن أولجايتو كان يميل الى الدين المسيحى . فقد ذكر دوسون أن رسول أولجايتو Philip Ildouchi قد أخفى نبأ اعتناق مولاه الاسلام[٣] حتى يضمن مساعدتهم له فى القضاء على « جماعة المسلمين » وبالأخص المماليك فى مصر .

وفى عهد أولجايتو قام المغول فى سنة ٧١٢ هـ (١٣١٢ م) بحملة على سورية وحاصروا مدينة الرحبة . ولكنهم اضطروا الى العودة الى بلادهم لحرارة الجو وقلة المؤن . ذلك أن الناصر اتهم قره سنقر[٤] بقتل أخيه وعول على أخذ ثأره . غير أنه رأى أن الفرصة لم تكن سانحة حينذاك فلم ير بدأ من مطاولته . وفطن قره سنقر لما يراد به ، وكان يتملكه الشعور بجريمته فسار الى دمشق حيث اجتمع بنواب الشام وأخذ يؤلبهم على السلطان الناصر

---

(١) Howorth, part III. p. 486.

(٢) راجع بهذا الصدد الفصل الذى كتبه الدكتور عزيز سوريال عطيه بعنوان : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 233—259 فى كتابه Europe & the Tatars.

(٣) D'Hosson, tome I. pp. 450—451.

(٤) أحد الأمراء الذين اشتركوا مع لاجين فى قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

ثم طلب ولاية حلب ولكنه لم يطمئن على نفسه بها ، فطلب الاذن بالحج فأجيب الى طلبه . ولكنه عاد من طريقه خوفا من أن تفتك به الجيوش المصرية ، وعول على شق عصا الطاعة واصطنع بعض العرب بالأموال والهدايا ، وساروا جميعا الى بلاد فارس ، ومثلوا بين يدى أولجايتو وحسنوا له الاغارة على بلاد الشام . فمنح قره سنقر ولاية مراغة حيث بقى بها إلى أن مات . وفى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) وقعت الحرب بين المماليك والمغول فى ماردين الهزيمة مرة أخرى(١) .

تحسن العلاقات بين الناصر وأبى سعيد ايلخان المغول :

توفى أولجايتو فى ١٦ ديسمبر سنة ١٣١٦م . فخلفه ابنه أبو سعيد (٧١٧ — ٧٣٥ هـ = ١٣١٧ — ١٣٣٤ م) . وفى عهده تحسنت العلاقات بين الناصر والمغول ، ذلك أنه فى سنتى ١٣١٨ و ١٣١٩ م نزل بآسيا الصغرى قحط شديد ومجاعة مخيفة وتلتها فى سنة ١٣٢٠ م الاعاصير والزوابع . وقد راع هذا أبا سعيد فاستشار علماء الدين عن سبب تلك المحن ، فعزوها الى انتشار الموبقات والاسراف فى شرب الخمر ، لدرجة أن الحانات كانت فى كثير من الأحيان ملاصقة للمساجد ودور العلم ، ومن ثم أمر أبو سعيد باغلاق هذه الدور واتلاف الخمور . ولم يسمح إلا بابقاء حانة واحدة للرحالة فى كل مركز .

ولعل هذا العمل كان من بين العوامل التى ساعدت على توطيد العلاقات بين أبى سعيد وبين الناصر ، ومن ثم جنح الفريقان للسلم وطرح ما كان بينهما من الإحن والأحقاد القديمة(٢) ويلوح أن أبا سعيد شعر بأنه لا يستطيع مناهضة المماليك لعدم استقرار الأمور فى بلاده ولنقص استعداده الحربى . فرأى من الحكمة وبعد النظر أن يخطب ود المماليك(٣) فأرسل الى الناصر يطلب الصلح (٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م) . وكان يحمل كتابه قاضى نوروز ، فوافق هذا الطلب هوى فى نفس الناصر وبعث مملوكه سيف الدين أيتمش المحمدى يحمل كتابه إلى المغول . وفى سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) تزوجت احدى أميرات المغول من أحفاد باتو Bàtu

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٦٦ — ٦٩ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر جـ ٥ ص ٢٥ .

(٢) عن تحسن العلاقات بين الناصر وأبى سعيد . راجع المنهل الصافى لأبى المحاسن جـ ٣ ص ٢٥٠ ا

(٣) ظهر أثر هذا التودد للمماليك من جانب التتر فى الهدايا وأهمها الأقمشة الثمينة التى كان يحملها سفراء التتر إلى السلطان الناصر . أبو الفدا : نفس المصدر والجزء ص ٩٥ — ٩٦ و
A. F. Kendrick : Catalogue of Muhammadan Textiles of the Mediaeval Period (Victoira and Albert Museum), pp. 40— 41.

بالسلطان الناصر مما ساعد على توثيق أواصر الود والصفاء بين البلدين [١] . وقد أورد القلقشندى نص كتاب أبى سعيد إلى الناصر [٢] .

بذلك عمل كل من الفريقين — المغول والمماليك — على نسيان الأحقاد القديمة التى كانت بينهما . وظلت مصر بمأمن من غارات المغول إلى عهد تيمورلنك . على أن الفتن والاضطرابات التى تلت موت أبى سعيد قد شجعت الناصر على التفكير فى أخذ بلاد فارس . وظهر أثر هذه السياسة فى مناصرة الناصر لحسن الأكبر على أخيه حسن الأصغر ولدى تيمورتاش بن شوبان Chúbán حاكم آسيا الصغرى . وأرسل الناصر إلى حسن الأكبر كتابا يعده فيه بالمساعدة مقابل اعترافه بالسيادة له فى بغداد .

ب — علاقات مصر بمغول الهند

فكر العرب فى فتح بلاد الهند منذ أيام عمر بن الخطاب ، حيث وصلوا إلى خور الدَّيْبُل الذى يقع على الساحل الغربى لبلاد الهند ، ويعرف الآن باسم كراتشى . ثم توالت غزوات العرب لهذه البلاد إلى سنة ٤٤ هـ حيث غزا المهلب بن أبى صفرة الذى شملت فتوحه بلاد السند وامتدت إلى الأراضى الواقعة بين كابل والملتان (البوقان والقيقان والدَّيْبل) . وقد صُبغت بعض حملات المسلمين صِبغة الجهاد الدينى ، ولاسيما هذه الحملات التى قام بها محمود الغزنوى (٣٨٨ — ٤٢١ هـ = ٩٩٨ — ١٠٣٠ م) الذى غزا بلاد الهند اثنتى عشرة مرة (١٠٠١ — ١٠٢٤ م) والذى ضَمَّ بلاد البنجاب واتخذ لاهور مقراً له [٣]. ويقول ستانلى لينپول إن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم لاهور مقراً لهم يمكن اعتباره بدء حكم المسلمين الحقيقى فى بلاد الهند [٤] .

وقد مهدت الدولة الغزنوية فى لاهور السبيل أمام محمد بن سام الغورى [٥] وخلفائه الذين تولوا سلطنة دهلى ونشروا نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند الشمالية . ثم أخذت الأسر تتداول حكم مملكة الهندستان حتى استقرّ فى عصر الناصر محمد فى أسرة طُغْـلُق Tughliqs (٧٢١ — ٨١٥ هـ = ١٣٢٠ — ١٤١٢ م) . وكان أول ملوكها طغلق نفسه ، وثانيهما ألوك خان الذى تولى العرش فى سنة ٧٢٦ هـ (مارس سنة ١٣٢٥ م) باسم السلطان محمد بن طغلق ، وهو سلطان المغول فى الهند الذى عاصر الناصر محمداً .

---

(١) Browne, Vol. III. p. 53.

(٢) صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٥٣ — ٢٥٦ .

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, Vol. I., p. 376.

(٤) Lane Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 304.

(٥) حكمت الدولة الغورية أفغانستان وهندستان من سنة ٥٤٣ إلى ٦١٢ هـ (١١٤٨ — ١٢١٥ م) .

وكانت سياسة محمد بن طغلق ترمى إلى وحدة بلاد الهند ، وإلى التوسع فى فارس وبلاد الصين ، وجعل بلاد الهند مركزاً من مراكز الحضارة الاسلامية . واتخذ لتنفيذ مشروعه سياسة الترحيب بالسفراء والرحالة والتجار الذين كانوا يفدون على الهند من شتى الأقطار الاسلامية والمبالغة فى إكرامهم والحفاوة بهم وترغيبهم فى الاقامة فى بلاده ، حتى أصبحت دهلى قريبة الشبه ببغداد فى أيام العباسيين . وكان يرمى من تودده للمسلمين فى سائر البلاد إلى جذب عطف العالم الاسلامى وتأييده له فى مشروعه الجديد(١) .

وقد بدأت علاقة مغول الهند بمصر فى سنة (٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م) حين أرسل محمد بن طغلق إلى الخليفة العباسى بالقاهرة ، وهو المستكفى بالله ، يطلب منه أن يمنحه تفويضاً يجعل حكمه شرعياً فى بلاده ليتمكن بذلك من تسكين الفتن الداخلية التى كانت تقوم ضده بين آن وآخر وليتمكن كذلك من جمع المال عن طريق فرض الضرائب كى يستطيع تنفيذ سياسته الجديدة . فأجابه الخليفة إلى طلبه وبعث التفويض مع رسول خاص وخرج السلطان ابن طغلق بنفسه لاستقبال رسول الخليفة وأحسن مقابلته وأكرم وفادته وأمر بأن يذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبه وينقش على السكة (٢) مما ساعد على إيجاد علاقة ودية بين مصر والهند .

ومن العوامل التى ساعدت على توثيق العلاقات بين مصر والهند فى عصر الناصر ، عامل التجارة . فلقد كانت أهم الطرق الموصلة بين ثغور الشرق الأدنى والهند طريقان : أحدهما طريق البحر من القلزم إلى طور والقصير وعيذاب (٣) وعدن ومنها إلى سواحل السند . وثانيهما من حلب إلى بغداد والبصرة وعبادان وهرمز ومنها إلى السند والهند والصين (٤) . وقد أضرت غزوات المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) بسلامة الطريق بين العراق وسورية . وزادت بذلك أهمية الطريق الثانى . ونشأ تبادل تجارى بين مصر والهند : فكانت مصر تستورد منها جميع المنتجات اللازمة لها كالحمص والحنطة والسمسم والزنج

---

(١) Allan : The Cambridge Shorter History of India, p. 236.

(٢) Lane-Poole : Mediaeval India Under Muhammadan Rule, pp. 137—138.
Arnold : The Caliphate, p. 104.
H. Nelson wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi, pp.168—170.

(٣) عيذاب — بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر الآن) كانت من أشهر المراسى تأتى إليها سفن اليمن والحبشة والهند . وكانت فى الماضى طريق الحج المصرى ، تسير إليها الركاب عن طريق قبرص ثم يركبون البحر منها إلى جدة . وكانت ذات شأن عظيم للحجاج ويبدأ منها طريق القوافل إلى أسوان وأدفو وقوص . المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ . رحلة ابن جبير (طبعة دى غويا) ص ٦٥ وما بعدها . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٨٦ — ٨٧ .

(جوز الهند) وغيرها ، كما كانت الهند تستورد من مصر كثيراً من الغلات ولاسيما الكتان[١]. وبذا زادت أهمية ثغور كل من الدولتين : مصر والهند وعظم شأنها فقد كانت الاسكندرية لعظمتها تسمى فى ذلك العصر « مخزن العالم » [٢] ولم يكن يماثلها إلا كولم وقاليقوط [٣] ببلاد الهند [٤] .

ولقد ساعدت سهولة المواصلات على وفود عدد من الهنود الى مصر . وبلغ من اهتمام الناصر بهم أن ولى بعضهم مناصب هامة فى الدولة ، وتمتع بعضهم بمكانة محترمة بين أهل مصر وأسند كذلك إلى بعض المصريين مناصب فى الهند . ولا أدل على ذلك من تلك الحكاية التى يرويها ابن بطوطة عند كلامه على علماء الاسكندرية عند مروره بها سنة ٧٢٦ هـ : « ومنهم الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهاد وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالاسكندرية . وأقمت فى ضيافته ثلاثا . دخلت عليه يوماً فقال لى : أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد فقلت له : نعم إنى أحب ذلك . ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين . فقال : لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكرياء بالسند وأخى برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » [٥]. وقال فى موضع آخر عن زيارته لمدينة النحريرية [٦] : « وهى رحبة الفناء ، حديثة البناء ، أسواقها حسنة الرؤيا ، وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده فى خدمة ملك الهند » . [٧]

وانتهز ابن طغلق فرصة هذه العلاقات الطيبة القائمة بين مصر والهند . ورغب فى الاتحاد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٨٢ و٩٣ .

(٢) G. Wiet : Trois formules d'Indépendance dans l'Egypte Mediévale, p, 1. (ed. de la Revue du Caire, 1942).

(٣) كولم وقاليقوط — ثغران على ساحل الملبار بالهند .

(٤) وصف ابن بطوطة (تحفة النظار جـ ١ ص ٨ و ٩) مدينة الاسكندرية أثناء زيارته لها سنة ٧٢٦ هـ فقال « ثم وصلنا فى أول جمادى الأولى إلى مدينة الاسكندرية حرسها الله . وهى الثغر المحروس والقطر المانوس العجيبة الشأن الأصيلة البنيان بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين كرمت مغانيها ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها … الزاهية بجمالها المغرب الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب » .

(٥) تحفة النظار جـ ١ ص ١١ .

(٦) وصف المقريزى (الخطط جـ ١ ص ٢٢٦) النحريرية فقال « النحريرية قرية من أعمال الغربية أسس حكرها الأمير شمس الدين سنقر العدى نقيب الجيش فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وبالغ فى عمارتها » .

(٧) ابن بطوطة : نفس المصدر والجزء ص ١٥ .

مع الناصر على عدوهما المشترك : مغول فارس . ذلك أن بلاد الهند كانت ـ قبل أن يجلس محمد بن طغلق على عرشها ـ فى حرب مع المغول فى فارس . وكان هؤلاء لايفترون عن الاغارة على إقليم البنجاب الواقع فى الطرف الشرقى للهند . [١] ولم تنقطع تلك الاغارات فى عهد ابن طغلق بل استمرت على ما كانت عليه من قبل . وانتهز مغول فارس فرصة اشتغاله باخماد الثورات الداخلية فى بلاده وجددوا تلك الاغارات التى ازدادت عنفا وشدة . فرأى السلطان محمد بن طغلق أن يتحالف مع الناصر عليهم وبعث اليه فى سنة ٧٣٢ — ٧٣٣ ﻫ (١٣٣١ — ١٣٣٢ م) رسولا يحمل بعض الهدايا الثمينة ويعرض عليه مشروعا يقضى باتحاد مصر والهند فى القيام بهجوم على عدوهم المشترك . وذلك بأن تشترك معه مصر فى الاغارة على بلاد فارس من ناحية الغرب ، فى الوقت الذى يتقدم هو إلى مهاجمتها من الشرق . [٢]

وكان ابن طغلق يرمى من وراء ذلك المشروع إلى تحطيم قوة مغول فارس لتأمين حدود بلاد الهند من الناحية الشرقية ، وانتزاع خراسان من أيدى المغول . وكان ذلك العزم من أقوى العوامل التى جعلته يرحب بالأجانب عسى أن يمدوا اليه يد المساعدة والمعونة إذا ما بدأ فتوحه ضد مغول فارس [٣].

وعلى الرغم من أن الناصر قد عمل على تنمية علاقات المودة والصداقة بينه وبين ابن طغلق لم يجبه إلى ماطلب من الاشتراك معه فى الاغارة على بلاد الفرس من الناحيتين الغربية والشرقية . والظاهر أن الناصر كان معذورا فى عدم قبول ذلك الطلب لأن ابن طغلق بعث كتابه فى وقت قامت فيه العلاقات بين مصر وفارس على أساس المودة والصفاء إذ كان يجلس على عرش المغول اذ ذاك أبو سعيد الذى بدأ عهده بازالة أسباب العداء القائم بين مصر وفارس وعقد معاهدة صداقة بين البلدين فى سنة ٧٣٤ ﻫ (١٣٣٤ م) [٤]

وحاول ابن طغلق بعد ذلك أن يقوم بهذا المشروع وحده ، وجهّز جيشاً كبيراً أعده لفتح خراسان أولا ، ولكن قلة دخل الدولة وسوء حالة بلاده المالية أعجزه عن القيام بحملته بل عن دفع رواتب الجند . فاضطر إلى العدول عن عزمه وتسريح جيشه . [٥]

---

(١) Allan, p. 226, 227, 228.

(٢) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 307.

(٣) Allan, p. 236.

(٤) Lane — Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 307.

(٥) Allan, p. 236.

ج — علاقات مصر بمغول القفجاق .

كان للمغول دولتان عظيمتان هما : دولة بني هولاكو وتشمل بلاد العراق وفارس وخراسان وما وراء النهر ، ودولة بنى چوچى بن جنكيز خان فى الشمال ، وتعرف باسم بلاد القفچاق التى ظلت مملكة بدوية ترعى قطعانها وسط السهول الفسيحة الواقعة فى جنوب الروسيا وغربى آسيا القريبة من الروسيا . وكان ملكهم هو خان القبيلة الذهبية Golden Horde التى امتد سلطانها على سيبيريا والجزء الجنوبى من الروسيا . وكثيراً ما قامت الحروب بين هاتين الدولتين ، وكانت سياسة دولة بنى چوچى قائمة على أساس المصافاة والمسالمة لسلاطين المماليك فى مصر ليكونوا عوناً لهم على أعدائهم من بنى هولاكو (١) .

لذلك لما ولى أوزبك خان Uzbeck Khan (١٣١٣ — ١٣٤٠ م) — الذى كان زعيما للقبيلة الذهبية والذى اشتهر بميله للدين الاسلامى (٢) — عرش القفچاق فى سنة ١٣١٣ م عرض قطلغمير نائب بلاد الروم على رسل الناصر مشروع زواج الناصر من إحدى أميرات ذلك البيت ، فوجد الرسل والهدايا تتبادل من الجانبين ستة أعوام ، حضرت فى نهايتها مخطوبته طلبناش القفچاقية (٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م) مع وفد من كبار رجال تلك الدولة ومرت فى طريقها إلى مصر على القسطنطينية فبالغ امبراطورها فى إكرامها هى ومن معها . ولما وصلت العروس إلى الاسكندرية حملت إلى القاهرة على عجلة موشاة بالذهب ومزينة بالطنافس الثمينة فتلقاها الناصر بالبشر والترحيب وأكرم الوفد الذى صحبها وفى اليوم الثالث من وصولها عقد زواجها بين مظاهر الفرح والابتهاج والسرور (٣) .

بذلك توثقت عرا الصداقة بين الدولتين . وانتهز أزبك تلك الفرصة ، فطلب من الناصر العون والمساعدة على خصمه أبى سعيد إيلخان المغول فى فارس وصادف هذا الطلب قبولا من الناصر لأن مصر كانت إذ ذاك فى عداء مستحكم مع مغول فارس . على أن أبا سعيد نهج على سياسة تنطوى على التودد إلى الناصر وأبرم الصلح بينهما وزال ما كان بين المماليك والمغول من عداء مستحكم . لذلك رفض الناصر مناصرة أزبك على أبى سعيد وأوضح له أن إيلخان المغول فى فارس قد اعتنق الاسلام وأنه قد عمل على إزالة أسباب حالة العداء بين

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٤٣١ .

(٢) أورد ابن بطوطة (تحفة النظار جـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٣) صفات « السلطان المعظم محمد أوزبك خان » فقال : « وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لأعدائه » .

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ص ٤٣١ .

البلدين وعلى أثر ذلك دارت المفاوضات بين أمير أزبك وأبى سعيد وانتهت بعقد الصلح بينهما ، وأرجع كل منهما ما كان قد أخذه من الآخر وتهادنا (١) .

٢ — علاقات مصر بأرمينية

كانت بلاد أرمينية هدفاً لغارات المصريين الذين غزوها أكثر من مرة واستولوا على حصونها . وقد ظهرت هذه العلاقات بين مصر وأرمينية فى عهد السلطان بيبرس سنة ٦٦١ ﻫ (١٢٦٢ م) ، وذلك حين أغار ملك أرمينية هيثوم (Hethum (Hayton II على الحدود السورية بتحريض المغول فى فارس ومعاضدة سلطان دولة الروم السلجوقية . فسير بيبرس حملة تأديبية للاقتصاص منه واجتاح بلاد أرمينية من شمالها إلى جنوبها ، والتهمت النيران عاصمتها « سيس » (Sis) بعد أن تعرضت للسلب والنهب . وفى سنة ٦٦٦ﻫ (١٢٦٧م) أعلن الملك هيثوم قبوله حماية مصر ودفع الجزية لسلطان المماليك (٢) .

وظلت أرمينية خاضعة لمصر حتى اعتلى الناصر العرش . وكانت أرمينية قد انتهزت فرصة استيلاء المغول على بلاد الشام وطمعت فى استرداد حصونها التى خرجت عن سلطانها . واستولت على جميع هذه الحصون عدا حصن حجر شغلان . على أن الهدنة التى أبرمت بين المصريين والمغول هيأت للناصر الفرصة للاغارة على تلك البلاد ، لكى تأمن بلاد الشام شرهم . فأرسل فى سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠١ م) جيشاً سار إلى هذه البلاد وأمر كتبغا نائبه على حماه أن ينضم بجنده إلى ذلك الجيش . وتم للناصر ما أراد ، ولم تنج سيس وقلعتها من التدمير والتخريب وعادت الجيوش المصرية ظافرة إلى بلاد الشام (٣) .

على أن الأرمن لم تلن لهم قناة فامتنعوا عن دفع الجزية وانضمت جيوشهم إلى جيوش المغول فى تلك الحملة التى وجهوها إلى سورية سنة ٧٠٢ ﻫ (١٣٠٢ م) ، تلك الحملة التى انتهت بانتصار المصريين انتصاراً باهراً فى موقعة مرج الصفر على ما تقدم ، ولم ير الناصر بدأ من إنزال العقاب بالأرمن ، لمالأتهم المغول أعداء المماليك فى ذلك الوقت . فوجه إليهم فى أواخر سنة ٧٠٣ ﻫ (١٣٠٣ م) جيشاً من جند المماليك فى مصر والشام تحت قيادة أربعة من أمهر قواده وهم : بدر الدين بكتاش الفخرى ، وأيبك الخازندار ، وقره سنقر المنصورى ، وسيف الدين قبجق . ودخلت الجيوش مدينة سيس عاصمة أرمينية للمرة الثالثة وحاصروا تل حمدون

---

(١) ابن خلدون : العبر ص ٤٣١ — ٤٣٢ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٥١٠

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 23.

(٣) ابو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٥٣ . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٢٨ — ١٢٩ .

وهدموه كما هدموا وخربوا كثيراً من الحصون الأخرى ولم تترك تلك الجيوش البلاد إلا بعد أن دفع أمير سيس كل ما تأخر عليه من الجزية مضاعفة (١) .

على أن الأرمن لم يفتروا عن مناوأة المصريين وعادوا إلى الامتناع عن دفع الجزية ، فجهز لهم قره سنقر نائب حلب سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) جيشا تحت قيادة مملوكه قشتمر . وكان ضعيفاً يدمن الخمر . وأخفقت هذه الحملة لاتحاد الأرمن والمغول والفرنجة على عدوهم المشترك ووصلت جيوشهم إلى غزة حيث التقوا بجيش قشتمر وهزموه وأسروا عدداً كبيراً من جنده. ولقى جيش قشتمر كثيراً من الأهوال فى أثناء عودته الى سورية (٢) .

وقد أقلقت هذه الهزيمة بال الناصر ، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة بكتاش الفخرى ووصل الجيش إلى غزة . ولما اتصل ذلك بعلم هيثوم ملك أرمينية خشى عاقبة الأمر وبعث إلى قره سنقر نائب حلب بالجزية المتأخرة عليه ورجا منه أن يشفع له عند الناصر . فأجابه الناصر إلى ما طلب وأمر بعودة الجيوش المصرية من تلك البلاد . وحرص ملك أرمينية على إرسال الجزية إلى مصر (٣) .

الا أن الأرمن قد عاودوا العصيان فى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) فأرسل إليهم الناصر فى تلك السنة حملة من جند مصر وأمر الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام بالانضمام إليها ، فخرج بجيش صفد وحماه وحمص وطرابلس فى أول المحرم سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) وتولى هو القيادة العامة . وحاصر ملطية ودخلها فى يوم الثلاثاء ٢٣ محرم من تلك السنة ولم تلق جيوش الناصر مقاومة من نائب ملطية ، الذى كان على اتصال بالناصر من قبل ، كما سلم أعيان ملطية أنفسهم إلى تنكز دون مقاومة . فأحسن إليهم وخلع عليهم ونهى جنده عن دخول المدينة وتخريبها على أن جند تنكز لم تصغ لهذه الأوامر ، فدخلوا مدينة ملطية ونهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها . ولولا ما أبداه تنكز من حزم فى معاملة هؤلاء الجند لساءت الحال وفنى أهل المدينة (٤) . ويذكر لنا المؤرخ أبو الفداء الذى كان نائب حماه واشترك فى هذه الموقعة أنه حاول أن يحول بين الجند وبين ما أرادوه من ارتكاب هذه الشرور . ولكنه اضطر إلى العدول عن ذلك خشية اتهامه بالتشيع لأهل هذه المدينة (٥) . ورحل تنكز بعد ذلك إلى دمشق بعد أن ترك نائب حلب ليشرف بنفسه على هدم أسوارها المنيعة حتى لا تقوم سداً فى وجه المماليك مرة أخرى .

---

(١) Camb. Med. Hist Vol. IV. p. 177.

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٥٤ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٤٢٠

(٤) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٤٢ — ١٤٤ .

(٥) أبو الفدا : نفس المصدر والجزء ص ٥٤ .

توالت انتصارات جند الناصر محمد بعد ذلك ، ففتحوا مدينة عزقية من أعمال آمد فى سنة ٧١٥ ﻫ (١٣١٥ م) ، ثم فتحوا مدينة آمد بعد ذلك بسنتين وغنموا منها أموالا عظيمة[١].

وقد ساعدت الأحوال السيئة فى بلاد أرمينية الناصر محمداً على غزوها مرة أخرى فقد تولى عرشها الملك ليو الخامس Leo V. (٧٢٠ – ٧٤٣ ﻫ = ١٣٢٠ – ١٣٤٢م) . وكان طفلا قاصراً ، فطمع كثيرون فى عرشه ودسوا له الدسائس . وقد وجد الناصر فى هذه الأحوال فرصة سانحة لضم هذه البلاد إلى أملاكه ، فأرسل اليها (٧٢٢ ﻫ = ١٣٢٢م) جيشاً بحجة جمع الجزية ، ولكنه كان فى حقيقة الأمر يرمى إلى احتلال هذه البلاد . ولما لم يجد ليو من ينصره فى محنته ، لم ير بدأ من التسليم بمطالب الناصر وعقد معه هدنة أمدها خمس عشرة سنة ، على أن تدفع أرمينية لسلطان المماليك جزية سنوية قدرها خمسون ألف فلورين florins ، عدا نصف مايتحصل من الضرائب الجمركية ، وما تجمعه مدينة اياس Ayas من التجارة البحرية ، ونصف ما يجي من ثمن الملح . وتعهد الناصر من ناحيته باعادة بناء مدينة اياس وغيرها من الحصون التى هدمت ، على نفقته الخاصة [٢] .

على أن السلام لم يدم طويلا بين مصر وأرمينية . فقد أعلن البابا چون الثانى فى سنة ٧٣٦ﻫ (١٣٣٥ م) تسيير حملة صليبية إلى مصر بقيادة فليب السادس ملك فرنسا . فظن « ليو » أن الفرصة قد سنحت له ليتخلص من حماية الناصر . وامتنع عن دفع الجزية وأرسل جيشاً للاغارة على حدود مصر من ناحية سورية . ولكن سوء الحظ قد لازم أرمينية ، فمات البابا ، وأغفل مشروع هذه الحملة الصليبية . أما الناصر فقد تغير على ليو وصمم على الانتقام من ملك أرمينية لأنه لم يحرص على الوفاء بما عاهد الناصر عليه . وسرعان ما اجتاحت الجنود المصرية بلاد أرمينية مرة أخرى ودخلت مدينة سيس Sis سنة ٧٣٦ ﻫ ، وحاصرت قلعة النقير ، وهدمت مدينة أياس . ولم ير ليو بدأ من التسليم بمطالب الناصر وسلم ما تأخر من الجزية ، وقام بدفع نفقات هذه الحملة . ثم جلت جيوش الناصر عن هذه البلاد بعد أن جمعت كثيراً من الأسلاب والغنائم ، وبعد أن حلف الملك ليو ألا يناصر دولة أوربيه على سلطان مصر . [٣]

وعلى هذا أصبحت العلاقة بين مصر وأرمينية علاقة تبعية ، قوامها الاعتراف بسيادة سلطان المماليك ودفع الجزية له بانتظام ، [٤] وحل الوئام والسلام بين البلدين . ولو أن الأرمن

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٤٢٧ .

(٢) Camb. Med. History, Vol. IV., p. 180.

(٣) ابن خلدون : نفس المصدر والجزء ص ٤٣٠ .
Camb. Med. History, Vol. IV. p. 180.

(٤) ضمت أرمينية نهائيا إلى ملك مصر سنة ٧٧٥ ﻫ (١٣٧٥ م) ، ومن بعدهم إلى الأتراك ، ثم استقلت بعد الحرب العظمى سنة ١٩١٨ .

ظلوا من بادىء الأمر بعيدين عن تحريض المغول فى فارس ووعدهم إياهم بمد يد المساعدة لهم فى محاربتهم للناصر ، لظلوا آمنين مطمئنين فى ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين عليهم وتنكيلهم بهم هذا التنكيل الذى أدى إلى اضعاف شوكتهم وتشتيت شملهم[١] .

٣ — علاقات مصر ببلاد العرب

ا — بلاد اليمن

كان اسم سلطان المماليك واسم الخليفة العباسى فى القاهرة يذكران فى الخطبة وينقشان على السكة فى بلاد اليمن وكان هذان الأمران من أهم مظاهر سيادة مصر على تلك البلاد . ولم يعد الأمر هذين المظهرين ، ولكن بعض ملوك اليمن أظهروا رغبتهم فى عدم الاعتراف بسيادة سلطان المماليك على بلادهم . فامتنعوا عن أداء ما فرض عليهم من جزية ، ورفضوا ذكر اسم الخليفة العباسى فى القاهرة فى الخطبة ، كما رغبوا عن إعطاء بلاد الحجاز التى كانت تابعة لمصر إذ ذاك ما اعتادوا إرساله اليها من الغلال ، على أن يرسلوه باسم اليمن — لا باسم مصر — حتى يتقدم اسم ملك اليمن على اسم سلطان مصر فى خطبة الجمعة ، أضف إلى ذلك أنهم كثيراً ما أساءوا إلى التجار المصريين الذين كانوا يفدون على بلاد اليمن وسلبوهم أموالهم[٢].

وظهرت بوادر هذا العصيان والرغبة فى الانفصال عن مصر بجلاء فى عهد الناصر ، عندما منع الملك المؤيد هزبر الدين داود بن يوسف بن رسول الهدية التى اعتاد ملوك اليمن إرسالها إلى سلطان مصر فى كل عام . فأرسل اليه الخليفة المستكفى بالله فى سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) كتابا مسهبا يعد فى الواقع انذاراً من الخليفه إلى ملك اليمن . [٣]

استهل الخليفة كتابه إليه بهذه الآية الكريمة (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وهى تدلنا على أن بلاد اليمن كانت تعتبر من الولايات التابعة لسلطان مصر . وفى هذا الكتاب نرى الخليفة يعدد المخالفات التى ارتكبها ملك اليمن نحو مصر فيقول « قطع الميرة عن البيت الحرام ، انصبابك إلى تفريغ مال بيت المال فى شراء لهو الحديث ، ونقض العهود القديمة بما تبديه من حديث ، وتعطيل أجياد المنابر عن عقود اسمنا » . ومن ذلك نتبين مقدار ما كان لمصر من نفوذ فى بلاد اليمن فى ذلك العصر . ونرى فى نهاية الكتاب تهديداً صريحاً من الخليفة بتسيير جيش من المصريين للقضاء على ملكه ومنعه من « التصرف فى البلاد والنظر فى أحكام العباد » إن لم يذعن لارادة الخليفة والسلطان ويلبى

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 24.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٢٤ — ٤٢٥ .

(٣) أورد القلقشندى (نفس المصدر ج ١٢ ص ٤٢١ — ٤٢٦) نص هذا الكتاب .

مطالبه . قال : « وأشرط على نفسك فى كل سنة قطيعة تدفعها إلى بيت المال وإياك ثم وإياك أن تكون عن هذا الأمر من مال ، ورتب جيشاً تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار ».

ولما لم يجد هذا التهديد نفعاً عول الناصر على ارسال جيش لقتال ملك اليمن بقيادة الأمير عز الدين أيبك الشجاعى وسافرا معاً إلى قوص لاعداد تلك الحملة . على أن وقوع الخلاف بين الناصر من جهة وبين أمراء مصر وعلى رأسهم سلار وبيبرس الجاشنكير من جهة أخرى ورغبة بيبرس فى قيادة هذه الحملة بنفسه ليبتعد عن القاهرة فى أثناء اشتداد تلك الفتنة ، قد أدى الى تأجيل ذلك المشروع .

بيد أن العلاقات بين مصر واليمن قد دخلت فى طور جديد وحل الصفاء والسلام بين البلدين محل النزاع والخلاف . ولعل ذلك راجع إلى رغبة أمير اليمن فى التماس مساعدة الناصر على منافسيه فى إمارة اليمن ووفدت رسل صاحب اليمن إلى مصر يحملون الهدايا إلى السلطان الناصر من حين إلى حين ، تلك الهدايا التى عدها السلطان جزية من ملوك اليمن إظهاراً لخضوعهم لسلطان مصر . ومما يدل على صحة ما نقول أن المجاهد صاحب اليمن أرسل إلى السلطان الناصر من قبله رسلا يطلبون اليه أن ينجده بجيش مصرى يشد أزره على منافسيه فى العرش . فأمر الناصر باعداد جيش بقيادة بيبرس الحاجب وطينال وأنفق الأموال الكثيرة فى سبيل إعداد تلك الحملة . وأرسل الناصر إلى صاحب اليمن ألفا وثلثمائة فارس من مماليكه وكثيرا من عرب الصعيد عدا معدات الحرب من سلاح وخيل وغيرها .

على أن تلك الحملة كان مصيرها الاخفاق ، بسبب عدم تعاون صاحب اليمن مع الحملة المصرية فضلا عن امتناعه عن دفع الجزية الى سلطان مصر بحجة عدم قدرته [٢] . ويظهر أن أمير اليمن قد خامرته الشكوك فى نيات الناصر نحو اليمن وخاف أن يكون ثمن هذه المساعدة أن يضع المصريون يدهم على حكومة اليمن تمهيداً للاستيلاء عليها وقد أثار هذا العمل حنق الناصر ونسب إلى الحاجب تقصيره فى امتلاك بلاد اليمن ، فولاه غزة وأمره بالرحيل اليها . ثم أمر بالقبض عليه هو وحاشيته لعدم إطاعته الأمر ثم عفا عنهم . ولم يحاول الناصر فتح اليمن بعد ذلك .

بذلك انتقلت العلاقات بين مصر واليمن فى عهد الناصر إلى دور جديد ، استحكم فيه العداء . وفى ذلك يقول أبو الفداء عند كلامه على حوادث سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ م) : « وفيه قدم رسول صاحب اليمن بهدية فقيد وسجن لأن صاحب الهند بعث إلى السلطان بهدايا . فأخذها

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك ج ٣ القسم الأول ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر ج ٢ القسم الأول ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

Enc. Isl. art. Al-Nasir.

صاحب اليمن وقتل بعض من كان معها وحبس بعضهم » (١) .

وعلى الجملة فان اليمن دخلت نظريا تحت سلطان المماليك منذ جاء ذكرها فى التقليد الذى كتبه الخليفة المستنصر بالله للسلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ وفيه يقول . « وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار بكرية . والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً (٢) وفوض أمر جندها ورعاياها اليك حين أصبحت بالمكارم فرداً » (٣) .

ب — بلاد الحجاز

كان استيلاء المماليك على بلاد الحجاز (٤) راجعاً إلى عوامل سياسية أكثر منها دينية ، وتلك العوامل السياسية تقوم على حقيقتين أساسيتين ورثتهما مصر عن عهد الخلفاء الراشدين وهما : ارسال الغلال والميرة الى بلاد الحجاز كضريبة يجب أن تؤديها نحو البلاد التى تضم الحرمين الشريفين ، وإرسال كسوة الكعبة التى كانت تصنع من أجمل وأنفس منسوجات الشرق واشتهرت بها مصر منذ عهد بعيد . وقد ثبّت الظاهر بيبرس سيادة المماليك فى بلاد الحجاز ، حين قبل أشراف مكة فى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . واستطاع قلاوون أن يظفر باعتراف أمير مكة بسلطانه وحلف يمين الولاء له . وحصل الناصر بعد ذلك على امتيازات جعلته صاحب الشأن الأول فى بلاد الحجاز ، كما يتضح ذلك من تدخله فى الأمور القضائية بين أمراء البلاد ونبلائها . (٥)

وكان أشراف مكة إذا احتدم بينهم الخلاف على السيادة والنفوذ ، يلجئون إلى الناصر ليحسم خلافهم ، وأظهر الأمثلة على ذلك ، الخلاف الذى وقع بين حميضة بن أبى نمى الحسنى المكى والى مكة وبين أخيه أسد الدين أبى عرارة رميثة ، فقد لجأ الأخير إلى الناصر وأبلغه أن أخاه حميضة قد حذف اسمه من خطبة الجمعة وأحل محله اسم صاحب اليمن ، فجرد الناصر اليه حملة هزمت أتباع حميضة ، وفر هو إلى خدابنده إيلخان المغول فى فارس ، الذى أمده بجيش من خراسان بلغ عدده أربعة آلاف فارس ، سار بهم إلى مكة ، ابتغاء القضاء على سيادة الناصر فى الحجاز . إلا أن الحظ خدم سلطان مصر إذ توفى خدابنده قبل أن يصل هذا الجيش

(١) المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ١٠٤ .

(٢) النجد — ما غلظ من الأرض وارتفع . والغور — ما انحدر منها .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١٣ .

(٤) عن علاقة مصر بالحجاز — راجع

Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 413 — 418

وما ذكره فان برشم من المراجع

(٥) Wiet : Précis de l'Histoire d'Egypte, tome 2. p. 251

إلى مكة . وكان من أثر ذلك أن حملة حميضة ضد الناصر على مكة لم تعطل فحسب ، بل أن محمد ابن عيسى أخا مهنا بن عيسى الذى كان قد خرج عن طاعة الناصر وانضم إلى قرهسنقر فى فارس خرج مع جنده الذين كانوا يتألفون من العربان وهزم جند حميضة وأسره مع مائة من المغول وأعلن بسيادة الناصر على بلاد الحجاز . وكتب اليه بذلك فطاب اليه الحضور إلى مصر فوصل اليها فى ١٣ رمضان سنة ٧١٥ هـ . وأحسن الناصر وفادته وأظهر عطفه عليه وتقديره له وأجزل له العطاء . وقدم اليه — كما يقول ابن الوردى — فرسا أصيلا وضيعة كما أنعم عليه بمائتى ألف درهم وعفا عن أخيه مهنا وأذن له بالعودة الى مكة (١) .

ومن ثم أعيدت الخطبة للناصر فى المدينتين المقدستين : مكة والمدينة فى سنة ٧١٧ هـ (١٣١٧ م) ، وهنا نشير إلى أن لقب « خادم الحرمين الشريفين » الذى اتخذه الأيوبيون واحتفظ به المماليك من بعدهم كان من ألقاب الملك الناصر ، كما كان من ألقابه أيضاً « صاحب القبلتين » أى صاحب بيت المقدس ومكة (٢) . غير أن سلطة الناصر فى بلاد الحجاز كانت صورية أكثر منها حقيقة واقعة ، وأن نفوذه لم يتعد ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة أحياناً . أضف إلى ذلك أن أمراء مكة والمدينة لم يقبلوا الاعتراف بسلطة الخلفية العباسى فى القاهرة ، حتى أن اسمه لم يذكر فى الخطبة على منابرها ، وقد عزا السير توماس أرنولد (٣) عدم ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة على منابر هذه البلاد إلى أن السلطات الدينية فيها قد اعتبرت العالم الاسلامى محكوماً بغير خليفة وخامرهم الشك فى مبلغ أحقية خلفاء بنى العباس فى القاهرة فى الحصول على ذلك الشرف لأنهم كانوا يعتقدون أن هذا الخليفة صنيعة سلاطين المماليك الذين أقاموه لتثبيت سلطانهم ليس غير . وليس أدل على صحة هذا القول من أن اسم الخلفاء العباسيين فى مصر لم ينقش على السكة وأنه لم يصدر باسم أحد من هؤلاء الخلفاء ، لا فى عهد الناصر ولا فى عهد غيره من سلاطين المماليك ، مرسوم قط ، وإن كان اسم الخليفة قد ذكر فى الخطبة على المنابر ، فان ذلك لم يكن يكسبه نفوذاً فعلياً ، بدليل ذكره بعد اسم السلطان ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الخليفة العباسى فى القاهرة لم يكن له من الشأن ما كان لأسلافه فى بغداد ، وخاصة فى العصر العباسى الأول .

ومما يجدر ملاحظته أن العمرى الذى كتب نحو سنة ٧٣٥ هـ فى حكم الناصر محمد ، أشار إلى الحجاز فى عبارة دقيقة المعنى ، ختم بها كلامه عن اقليم « الكرك » فى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » . قال : « وبهذا تم ذكر النطاق بمصر والشامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية

---

(١) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٦٥ . Enc. Isl. art. Al-Nasir.

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 127, 497.

(٣) Arnold : The Caliphate, p. 100.

إلا الحجاز ، وهو قطعة من جزيرة العرب وليس أمره بمضبوط ولا بحفظ الثقة منوط » [١] مما يشهد بأن خضوع أمراء الحجاز لمصر لم يكن تاماً فى بعض فترات العصر المملوكى .

٤ — اتساع نفوذ مصر فى أفريقية

امتد نفوذ الناصر على جزء كبير من شمال أفريقية ، فذكر اسمه على منابر تونس وطرابلس فقد كان ملكها أبو زكريا يحيى (٧١١ — ٧١٧ هـ = ١٣١١ — ١٣١٧ م) من الحفصيين مديناً بعرشه لمعاضدة الناصر إياه وتأييده [٢] . وقد بلغ من تودد ملك المغرب للناصر أن بعث إليه رسلا يقال إنهم من أصل مراكشى ، يحملون إليه هدية ثمينة من الخيل العربية والبغال محملة بالسروج والذهب المصرى [٣] .

وامتدت غزوات الناصر إلى برقة فى سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) ، وذلك حين امتنع العرب النازلون فيها عن دفع الجزية له وشقوا عصا طاعته . فجهز لهم جيشاً أوقع الهزيمة بهم وقتل كثيراً منهم وشتت الباقين فى كافة أرجاء بلاد المغرب .

كذلك عمل الناصر على مد نفوذه إلى بلاد النوبة . فانتهز فرصة امتناع ملكها كربيس سنة ٧١٦ هـ (١٣١٧ — ١٣٢٦ م) عن دفع الجزية [٤] التى كان يؤديها من سبقوه من ملوك النوبة ، وجهز جيشاً بقيادة قائد يدعى عبد الله [٥] وأوقع الهزيمة بملك النوبة وساقه إلى مصر واعتنق الاسلام وتسمى عبد الله . إلا أنه ظلم الأهالى فكرهوه وثاروا عليه وقتلوه . ولما اتصل بمسامع الناصر أنهم كانوا راغبون فى عودة ملكهم السابق كربيس، حقق رغبتهم وأجابهم إلى طلبهم ، وخصوصاً أنه كان قد اعتنق الاسلام . ومنذ ذلك الحين انتشر الاسلام فى بلاد النوبة ، وأبطلت الجزية التى كانت تؤديها لمصر لدخول أهلها فى الاسلام [٦] ، ثم أخذ ملوك النوبة يعلنون بشعائر ولائهم وإخلاصهم للناصر ويرسلون إليه الهدايا والتحف . فقد ذكر أبو الفداء أن أحد هؤلاء الملوك أرسل إلى الناصر هدايا من الرقيق والهجن والأبقار ، وطلب

---

(١) العمرى : التعريف ص ١٨٤ .

(٢) Enc. Isl. art. Al - Nasir.

(٣) إبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٥٣ . راجع أيضا Weil : geschichte der abbasidenchalifats, I, pp. 337 et seq. حيث يستعرض العلاقات المصرية مع تونس .

(٤) كانت تعرف الجزية فى بلاد النوبة باسم « البقط » .

(٥) كان عبد الله أميرا نوبيا . وكان يسمى فى أول الأمر « نشلى » ولكنه تسمى بهذا الاسم (عبد الله) بعد أن حضر من بلاد النوبة إلى مصر واعتنق الاسلام وأقام بها محاطاً بعناية الناصر ورعايته . راجع المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ القسم الأول (طبعة القاهرة) ص ١٦١ Enc. Isl. art. al-Nasir.

(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٤٢٩ . Enc. Isl. art. Al-Nasir

مساعدته على منافسيه . فلبى الناصر طلب هذا الملك وأرسل إليه جيشاً بقيادة طقصبا نائب السلطنة بقوص(١) .

٥ — غزو جزيرة ارواد(٢)

باستيلاء السلطان خليل بن قلاوون سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) على حصن عكا ، انتهت دولة الصليبيين فى بلاد الشام (٣) ، فاتخذوا جزيرة أرواد مقراً لهم وبنوا لأنفسهم بها سوراً عظيما يتحصنون به من الغزاة . ولكنهم ما فتئوا يغيرون على سكان المدن الساحلية ببلاد الشام وقطعوا الطريق على السابلة ، مما جعل نائب هذا الساحل يستغيث بالسلطان الناصر . فجهز فى أول المحرم سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أسطولا بحرياً انضم إليه جيش طرابلس . وحاصر هذه الجزيرة الجيش والأسطول معاً ، وانتهى القتال بهزيمة الصليبيين وامتلاك الناصر للجزيرة بعد أن قتل من أهلها نحو ألف ، وأسروا نحو خمسمائة (٤) .

٦ — علاقات مصر بأوربا

كذلك كان بين سلاطين المماليك وبين معظم ملوك أوربا علاقات سياسية . وخاصة فى عهد الناصر محمد الذى أصبح بلاطه محط رحال السفراء الذين وفدوا إلى مصر يحملون هدايا ملوكهم وأمرائهم ، ورسائلهم التى يؤكدون فيها صداقتهم ومودتهم ، حتى صار لمصر مركز دولى ممتاز وذاع صيتها بين تلك الدول .

وفى الوقت الذى كانت تلك الكتب تؤكد توثيق عرى الصداقة بين الناصر وهؤلاء الملوك والأمراء ، فان الغرض الأساسى الذى كان يرمى اليه من وراء إرسالها ، يرجع أولا الى استنجادهم بالناصر أو استدرار عطفه على المسيحيين المقيمين فى مصر وحسن معاملته لهم وليس أدل على ذلك من أن البابا(٥) يوحنا الثانى والعشرين John XXII بنفسه أرسل فى سنة ٧٢٧ هـ

---

(١) المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٥٣ .

(٢) بالفتح ثم السكون وواو وألف ودال مهملة . اسم جزيرة على ساحل بلاد الشام على مقربة من قسطنطينية . فتحها المسلمون سنة ٥٤ هـ . أنظر لفظ ارواد فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) يلاحظ أن انتهاء دولة الصليبيين من الأراضى المقدسة لا يعنى به انتهاء الحروب الصليبية . وقد أثبت الدكتور عزيز سوريال عطية فى كتابه The Crusade in the Later Middle Ages أن تلك الحركة استمرت إلى أواخر العصور الوسطى وأرخ لجميع الحملات الصليبيه التى وقعت بعد سقوط عكا وأرواد فى سنة ١٢٩١ — ١٢٩٢ م .

(٤) أبو الفداء : نفس المصدر والجزء ص ٤٩ . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٠٨ .

(٥) يطلق النويرى فى كتابه نهاية الأرب كلة « الياب » على البابا عند كلامه على حوادث سنة ٧٢٧ هـ

(١٣٢٦ م) إلى الناصر كتابا يطلب فيه معاملة مسيحى الشرق معاملة تنطوى على العدل والرعاية ، فى مقابل معاملة البابا للمسيحيين بالمثل ، وأن الناصر قد أجابه إلى ما طلب (١) .

كذلك أرسل شارل الرابع charles IV (١٣٢٢ — ١٣٢٨ م) ملك فرنسا فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م) إلى الناصر رسالة يتوسط فيها لمصلحة المسيحيين المقيمين فى دولته ، فرد عليه الناصر رداً جميلا ووعده باجابة مطالبه . ومما تجب الاشارة اليه أنه لم تصل إلى مصر من ملك فرنسا رسالة بهذا المعنى منذ عهد السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ = ١٢٤٠ — ١٢٤٩) (٢) .

وفى ذلك الوقت بعث أندرونيق الثانى باليولوج Andronicus II Palaeologus امبراطور الدولة الرومانية الشرقية إلى الناصر بعض السفراء يحملون إليه الهدايا ، ويطلبون معاملة المسيحيين المقيمين فى مملكته . ولاسيا الملكانيين من بنى نحلته ، بالعطف والرعاية(٣). فأجابه الناصر إلى طلبه وأعاد فتح بعض الكنائس المسيحية وسمح باعادة فتح كنيسة بيت المقدس (٤) . وأبرمت بين امبراطور القسطنطينية وبين السلطان الناصر محالفة لصد الأتراك العثمانيين عن بلاده ، ولا غرو فان ابرام هذه المعاهدة على تلك الصورة إنما يرجع إلى أن انتصار الناصر على المغول وصده إياهم ووقوفه بينهم وبين ما كانوا يشتهون قد أدخل فى روع هذا الأمبراطور أن سلطان مصر كان يتمتع بنفوذ مطلق جعل لمصر مركزاً ممتازاً فى نظر ملوك أوربا . (٥)

على أن العلاقات السياسية التى توطدت بين يعقوب ملك أرغونة وبين الناصر سلطان مصر ،كانت أهم العلاقات وأعظمها شأناً . وقد أتينا على بيان تلك العلاقات عند كلامنا على سياسة الناصر الداخلية(٦) وما كان للمراسلات التى دارت بين هذين الطرفين من أثر فى عطف سلطان مصر على المسيحيين فى الشرق . وإذا دققنا النظر فى هذه المراسلات تبين لنا أنهما تبادلا الهدايا ووثقا عرا الصداقة فى كل المناسبات وحرصا على تنمية علاقات المودة والصفاء .

وقد تبودلت هذه المراسلات فى الفترة التى تقع بين سنى ٧٠٣ و ٧٢٨ هـ (١٣٠٣ — ١٣٢٧ م)

---

(١) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 54-55.

Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 73.

(٢) Ibid, L. C. وقد ورد فى كتاب Weil : Geschichte der Abbasidenchalifats I, 353. ذكر سفارة فرنسية للقاهرة من عند الملك فيليب السادس فى سنة ٧٣٠ هـ .

(٣) Atiya : The Crusade in The Later Middle Ages, p. 375.

(٤) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 301 ; Wiet : Histiore de la Nation Egyptienne, t. IV (L' Egypte Arabe), p. 473.

(٥) اقرأ Camb. Med. History, Vol. IV. pp. 735-743 لمعرفة حالة التفكك والضعف التى آلت اليها تلك الدولة إذ ذاك .

(٦) انظر الباب الخامس .

وقد بعث يعقوب ثمانيا من هذه الرسائل ورد الناصر على ست منها على ما بينا فيما سبق . ويظهر ذلك واضحاً مما جاء فى ردّ الناصر على رسالة الملك يعقوب الرابعة التى أرسلها اليه فى سنة ٧١٤ هـ (١٣١٤ م) ، مما سبق أن أثبتناه فى الباب الخامس [(١)] . ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل أن الناصر أكد فى رسالته السابعة بتاريخ ١٥ صفر سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م) أنه يبادل الملك يعقوب حباً بحب وودأ بود . [(٢)]

بينا قبل ذلك العلاقات التى قامت بين مصر وبين كل من المغول فى فارس ، وصاحب اليمن ، وملكى أرمينية والنوبة . وامتلأ بلاط الناصر برسل هؤلاء وغيرهم ، حتى أن هذه الظاهرة استوقفت نظر المؤرخ المقريزى الذى تصدي لذكرها بعبارة واضحة نقف منها على عظم مركز مصر بين الدول فى عصر المماليك عامة وعصر الناصر خاصة ، فقال :

« وفيه [٢٥ المحرم سنة ٧٢٥ هـ] اجتمع بمصر من رسل الملوك مالم يجتمع مثلهم فى الدولة التركية ، وهم : رسل صاحب اليمن . ورسل صاحب اسطنبول . ورسل الأشكرى [(٣)] ورسل متملك سيس . ورسل أبى سعيد [(٤)] ، ورسل ماردين ، ورسل ابن قرمان ، ورسل متملك النوبة ، وكلهم يبذلون الطاعة » [(٥)] . ويقول أبو المحاسن : « وكان ملوك البلاد الكبار يهادونه ويراسلونه وكان ترد اليه رسل صاحب الهند وبلاد أزبك خان وملوك الحبشة وملوك الغرب والفرنج وبلاد الاشكرى وصاحب اليمن » [(٦)] .

والخلاصة أنه كان لمصر فى العهد المملوكى عامة وعصر الناصر خاصة علاقات سياسية مع معظم دول الشرق والغرب [(٧)] . وظهرت فى بلاطه بعوث من القبيلة الذهبية ، وإيلخانات المغول ،

---

(١) راجع الباب المشار اليه فيما سبق ص ١٢٦ — ١٣٨ .

(٢) Atiya : Egypt and Aragon, pp. 47-48

(٣) صاحب اسطنبول والاشكرى شخص واحد ، وهو امبراطور الدولة البيزنطية ، اندرونيق الثانى پاليولوج . المقريزى : كتاب السلوك حـ ٢ ص ٢٥٩ حاشية للدكتور زيادة .

(٤) تناول أبو المحاسن (المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٥٠ أ) الكلام عن رسل أبى سعيد فقال : « وأما بو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لاتنقطع بينهما ويسمى كل منهما الآخر أخا وصارت الكلمتان واحدة ومراسيم السلطان تنفذ فى بلاد بوسعيد ورسله يتوجهون بأطلابهم وطبلخاناتهم بأعلامهم المنشورة وكلما بعد الانسان عن بلاده وجد مهابة أعظم » .

(٥) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ و ٢٥٩ .

(٦) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٧) ذكر أبو المحاسن (نفس المصدر والجزء ص ٢٥٢ ا) أسماء ملوك الشرق والغرب المعاصرين للسلطان الناصر وهم حسب الترتيب الذى أورده هذا المؤرخ : « كيختو بن هولاكو . المستنصر بالله يحيي بن عبد الواحد صاحب أفريقية . الملك المظفر صاحب اليمن . الملك السعيد إيلغازى صاحب ماردين المظفر تقى الدين محمود صاحب حماه . المنصور حسام الدين لاچين المنصورى . أبو عبد الله بن الاحمر صاحب =

ومن قبل بنى رسول فى اليمن ، وملك الحبشة : ومن قِبل الحفصيين فى تونس ، وامبراطور بيزنطة ، وقيصر بلغاريا [١] ، والبابا ، وملك أرغونة ، وفيليب الرابع ملك فرنسا ، ومحمد بن طغلق سلطان دهلى [٢]. وهذا أقصى ما يمكن أن تتمناه أمة من مكانة سامية بين الدول . إلا أن هذه العظمة التى شهدتها مصر فى عصر السلطان الناصر محمد ، مالبثت أن زالت ، بدخول مصر فى عهد حكم أولاده وأحفاده [٣].

= الاندلس . أبو نمى صاحب مكة . العادل زين الدين كتبغا المنصورى . غازان بن أرغون ملك التتار . أبو يعقوب المرينى صاحب المغرب . المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير . أبو عبد الله محمد بن محمد ابن صاحب الاندلس . أبو عصيدة صاحب تونس . المنصور غازى صاحب ماردين . طقطاى سلطان القبجاق وصاحب جيلان . علاء الدين محمود صاحب الهند . خدبندا بن أرغون ملك التتار . دون بدرو الفرنجى . حيضة صاحب مكة . المؤيد داود صاحب اليمن . ابن الأحمر أبو الجيوش . نصر بن محمد اللحيانى . منصور ابن جماز صاحب المدينة . الطالب بالله صاحب الأندلس . أبو سعيد عثمان صاحب فاس وغيرها . المؤيد اسماعيل صاحب حماة . ابن الأحمر محمد بن أبى الوليد صاحب الاندلس . ترمستين سلطان بلخ وسمرقند وبخارا ومرو . بوسعيد ملك التتار . أربكون ملك التتار . صاحب تلمسان أبو تاسفين عبد الرحمن . مهنا بن عيسى أمير العرب .

(١) وردت الاشارة فى كتاب :

Weil : Geschichte der Abbasidenchalifats, I, p. 352, and note 4.

إلى ثمانى سفراء جاءوا مصر من بلغاريا وذلك نقلا عن المقريزى

(٢) انظر Enc. Isl. art. Al-Nasir

(٣) راجع الباب الرابع من هذا الكتاب .

القسم الثانى

نظـــــــم الحـكم



البابُ السّابع

السلطنة والبلاط

مبدأ الوراثة فى سلطنة المماليك — ألقاب السلطان — وظائفه — البيوت السلطانية ومديروها — الحرس السلطانى .

المبدأُ الوراثى

اعتلى أولاد بيبرس وأولاد قلاوون وأحفاده عرش مصر على وفق المبدأ الوراثى . على أن المماليك — برغم ذلك — لم يقيموا لقانون الوراثة أى وزن ، كما كانت الحال عند غيرهم من الأمم . ولا غرو فقد كان ذلك المبدأ غريبا عن عقلية المماليك ، الذين أدركوا — على الأقل نظريا — أن الملك يجب أن يؤول إلى أقوى الأمراء شجاعة ومهارة فى الحروب واعتبروا السلطان واحدا منهم يختارونه من بينهم ، لأنه لا يمتاز عنهم إلا بما وهب الله له من قوة وبسالة ودهاء وسعة حيلة ، فصار له بذلك صفة الرياسة عليهم . ولذلك كان استقرار السلطان على العرش يتوقف على كثرة أتباعه وضخامة ثروته ومبلغ رضاء الأمراء عنه .

فكثيرا ما اغتصب العرش « أتابك » السلطان إذا وجد أن ابن سيده حدث لا قدرة له على مقاومته . أو أحد الأمراء الأقوياء اذا وجد أن له أتباعا كثيرين وأنه واسع الثروة ذو مقدرة سياسية عظيمة ومهارة حربية فائقة وتفنن فى أساليب الدس من وراء ستار . وكثيراً ما كان يمهد ذلك الأمير للكبير للوصول إلى غرضه باثارة الفتن والدسائس فى وجه السلطان الجالس على العرش ، ويعمد أحياناً إلى إشعال نار ثورة داخلية تنتهى بخلع سيده أو باغتياله . وحينئذ يستولى هذا الأمير على عرش السلطنة الخالى بمعاونة أنصاره دون كبير معارضة .

ولكن السلطان الظاهر بيبرس رأى أن يضع حداً لتغلب الأقوى على العرش وأن يؤسس نظاماً يضمن به بقاء المُلك فى بيته . وكان هذا أساس مبدأ « وراثة العرش » فى دولة المماليك ، تلك الوراثة التى انحصرت فى بيت بيبرس أولا ثم فى بيت قلاوون ثانياً . بيد أن هذا النظام الوراثى لم يكن مستقراً ولا ثابت الأركان ولا هو متفق مع ما نعرفه فى نظام وراثة العرش بمعناه الحديث وهو وصول الابن الأكبر للسلطان إلى العرش بعد وفاة أبيه واستقراره عليه مدى الحياة .

وترجع العوامل التى جعلت المماليك لا يفهمون المعنى المقصود من نظام الوراثة إلى صغر سن ابن السلطان المتوفى مما دعا إلى إقامة أتابك[١] عليه ، إذ كان الأتابكة ينتهزون هذه الفرصة ويجعلون هؤلاء السلاطين ألعوبة فى أيديهم . لذلك ظهر نفوذ الأمير كتبغا المنصورى" أتابك السلطان الناصر ، وتركزت السلطة فى يده ، وتضاءلت بجانبه شخصية السلطان الناصر وقد كان صبياً وقتئذ حتى إنه لم يُسمع عنه شىء إلا وقت التولية وحين خُلِـع من الملك فى ٨ المحرم سنة (٦٩٤ هـ — ١٢٩٤ م) بعد سنة واحدة من بدء سلطنته ، وخلفه أتابكه كتبغا على العرش دون أن يكون له حق شرعى فيه ، اللهم إلا ما انتحله من الأعذار من اضطراب الأحوال الداخلية ومواجهة البلاد للعدو الخارجى فى عهد السلطان الفتى التى لم تعد سنه العاشرة إذ ذاك[٢].

ومن العوامل الهامة التى أدت إلى إطالة فترة خلع السلطان الناصر وإقصائه عن عرشه ، شدة التنافس الذى قام بين أمراء ذلك العصر على الوصول إلى السلطنة بأية طريقة فقد عمل الأمير سيف الدين لاچين نائب السلطنة على قتل كتبغا . ولكنه لم ينجح فى قتله ، ففر كتبغا إلى دمشق من وجه منافسه واستقر بها وزالت سلطنته وجلس لاچين مكانه على العرش سنة (٦٩٦ هـ = ١٢٩٦ م) . إلا أن الأمور لم تستقر للسلطان لاچين سوى فترة قصيرة ، فإنه فى سنة (٦٩٨ هـ = ١٢٩٨ م) دبّر اثنان من أمراء مصر الطامحين مثله إلى العرش : وهما سيف الدين طغجى وسيف الدين كرجى أمر مقتله ، وقد نجحا فيما اعتزماه . إلا أن أحدهما لم يتمكن من الوصول إل العرش بعد لاچين فقد طالب الشعب بعودة الناصر إلى عرشه ثانية لينجيهم من ذلك الاضطراب الذى أوجدته حالة التنافس بين الأمراء على السلطة والنفوذ .

وكان يصحب خلع السلطان القائم وتولية سلطان آخر مكانه فى عهود الاغتصاب التى تخللت عصر الناصر اضطراب وفوضى ، يدبرهما الأمراء وأتباعهم. وكان ذلك الاضطراب يشتد حين كانت تظهر قوتان متعادلتان ، كلتاهما تنشد الحكم لنفسها . فقد كان أتباع كل فريق يسيرون فى مظاهرة تتجه نحو القصر السلطانى للعمل على تنحية السلطان إما بحبسه أو نفيه أو قتله . وقد ينتهز المتظاهرون الفرصة فينهبون المتاجر ويسطون على المنازل . ولذلك كان الناس يشتد هلعهم فيغلقون منازلهم ويعطلون أعمالهم لما كان يصحب أمثال هذه المظاهرات من انتشار الفوضى ، وتطوف أحزاب المماليك المتنافسة الشوارع التى لم يحكم سكانها إغلاقها

---

(١) جاء شرح لفظ الاتابك عند الكلام على « كبار موظفى الدولة فى سلطنة المماليك » . على أنه مما يجب الاشارة اليه أنه لا يصح أن يفهم من ذلك أن الأتابك هو الوصى على العرش ، بل كان كبير القواد فى الدولة وأنه كان يوجد حتى اذا كان السلطان غير قاصر .

(٢) لم يكن كتبغا أول من اغتصب عرش ابن سيده ، فقد سبقه الى القيام بهذا الدور الأمير سيف الدين قطز مع الملك المنصور نور الدين على ابن الملك المعز أيبك ، والأمير سيف الدين قلاوون مع الملك العادل بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس .

فينهبون بيوت أعدائهم . ويقترن هذا القتال بأعمال العنف فتتأثر المبانى والأعمال الفنية ويلحقها التخريب والتدمير .

وقد استمر نفوذ الأمراء فى ازدياد فى عهد سلطنة الناصر الثانية (٦٩٨ — ٧٠٨ ﻫ = ١٢٩٨ — ١٣٠٨ م) فأدى إلى ظهور عامل التحاسد بينهم بشكل جلى وتدبيرهم الفتن وإقامتهم الدسائس بعضهم لبعض لعدم وجود سلطان قوى يردع هؤلاء الأمراء عن غيهم ويقفهم عند حد لايتعدونه . لذلك كانت تلك الفترة من سلطنة الناصر عبارة عن سلسلة من المؤامرات والمشاحنات بين أمراء تقتضيهم مصالحهم أن يلتفوا حول شخص السلطان الناصر ، وبين أمراء ينافسونهم فى هذه المصالح ويرون أن فى خلع الناصر وإقامة غيره خير وسيلة لتحقيق أمانيهم والنكاية بأعدائهم . فقد انتهز الأميران سيف الدين سلاَّر نائب السلطنة وركن الدين بيبرس الجاشنكير فرصة صغرسن الناصر وحجرا عليه ومنعاه من التصرف فى شئون الدولة وتنافسا على السلطة والنفوذ ، حتى انتهى الأمر بخروج الناصر سنة ٧٠٨ ﻫ (١٣٠٨ م) متظاهراً بالحج ، ولكنه استقر فى الكرك وعزل نفسه عن الملك فى تلك السنة بعد أن يئس من اصلاح أحوال الأمراء واستقرار الأمور فى مصر . وانتهز الأمير بيبرس الجاشنكير تلك الفرصة واعتلى عرش السلطنة . إلا أن سلطنته لم تدم أكثر من سنة (٧٠٨ — ٧٠٩ ﻫ = ١٣٠٨ = ١٣٠٩م) ، فان الشعب المصرى كان قد سئم عهود الاغتصاب وماحل به خلالها من بؤس وشقاء ، فنادى للمرة الثانية بضرورة عودة الناصر إلى عرشه فلبى نداءه وهرب بيبرس الجاشنكير واستقر الناصر على عرش السلطنة للمرة الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ ﻫ = ١٣٠٩ — ١٣٤٠ م) .

وفى فترة سلطنة الناصر الثالثة ، استتب الأمن واستقر النظام داخل البلاد . فقد قبض الناصر على زمام الأمور بيده ، وحكم البلاد حكما مطلقاً ، وقضى على نفوذ الأمراء ودسائسهم واشتد فى معاملتهم وقسا عليهم . فقد تعلم فى عهد سلطنتيه الأولى والثانية أن هؤلاء الأمراء لا يعترفون بالمبدأ الوراثى الذى اعتلى الناصر عرش مصر على أساسه . ولو أنهم احترموا هذا المبدأ لما أقلقوا بال الناصر على هذا النحو ، ولما ظهر الاغتصاب بين حين وآخر فى عهد سلطنته الطويلة التى استمرت ثمانية وأربعين عاما تخللتها ثلاث فترات اغتصاب بلغت مدتها سبع سنوات غير متعاقبة وشملت حكم زين الدين كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ ﻫ = ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) وحسام الدين لاچين (٦٩٦ — ٦٩٨ ﻫ = ١٢٩٦ — ١٢٩٨ م) وبيبرس الجاشنكير (٧٩٨ — ٧٠٩ ﻫ = ١٣٠٨ — ١٣٠٩ م) . ومنذ وفاة الناصر محمد جلس على العرش ثمانية من أولاده (٧٤١ — ٧٦٢ ﻫ = ١٣٤٠ — ١٣٦١ م) وأربعة من أحفاده (٧٦٢ — ٧٨٤ﻫ = ١٣٦١ — ١٣٨٤م) . وبذلك نرى أن نظام الوراثة استمر متبعاً فى تولية السلاطين

أ كثر من قرن من الزمان (١) ولكن على هذا النحو المضطرب ، إذ كان أضعف السلاطين إرادة فى أغلب الأحيان أ كثرهم قبولا لدى الأمراء . فاذا مابدأ يعارض رغباتهم بادروا إلى عزله مهما كان حقه الوراثى فى الملك واضحاً . ولم يفهم الأمراء من معنى الوراثة إذ ذاك أن الجالس على عرش مصر يجب أن يظل فى الملك يموت بل حتى لابأس من أن يباح عزله أو قتله .

وليس بغريب أن يحدث ذلك فى بيت قلاوون الوراثى ، فان قلاوون نفسه يعد مغتصباً للعرش من العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس ومن الممهدين لخلع أخيه السعيد بركة خان من قبل .

ألقاب السلطنة

لعل صلاح الدين هو أول من اتخذ لقب السلطنة من حكام مصر (٢) واتخذ المماليك هذا اللقب من بعد الأيوبيين بمصر والشام . وكان السلطان فى العهد المملوكى يعرف باسم « سلطان الاسلام والمسلمين » . وذلك يرجع إلى أن المماليك أكدوا فى ألقابهم اعتزازهم بشرعية مُلكهم — الذى يباركه الخليفة العباسى — فتسموا بهذا الاسم وسموا أمبراطوريتهم « المملكة الاسلامية » أو « الممالك الاسلامية » (٣) . ومما يدل على ذلك أن السلطان قلاوون كان يتخذ فى معاهدته مع أهل جنوة لقب « سلطان جميع الاسلام » ومع أرغون « سلطان أهل الاسلام جميعهم » (٤) .

وكان سلطان المماليك يعتبر نفسه « زعيم أمراء المماليك » Prémier des emirs . وهذا الوصف يشبه ما كان حادثاً فى أوربا فى أوائل العصور الوسطى ببعض الممالك حيث كانت الملكية انتخابية . فاعتبر الملك « أول أقرانه » من بين أمراء الدولة أى Primus inter Pares وكان يلقب أيضاً « خادم الحرمين » و « سيد ملوك العرب والعجم » (٥) . ولم تكتمل تلك الصفات لسلاطين المماليك عفوا ، بل أتت اليهم أثر حوادث وظروف معينة . ماعدا زعامة أمراء المماليك ، فقد كانت هذه أول الصفات اللازمة لانتخاب السلطان من بين الأمراء .

---

(١) انظر — العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ القسم الاول ص ٤٩ والمقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٢
Lane-Poole : The Art of the Saracens, pp. 17 - 18.

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 290 - 291.

(٣) Ibid. pp. 216 - 217, 226 , 244 , 249 , 767.

(٤) Ibid. pp. 299 - 300

(٥) Ibid. p. 55.

ومن الألقاب التى كان يتلقب بها سلاطين المماليك لقب « قسيم أمير المؤمنين » . وكان أول من لقب بذلك السلطان الظاهر بيبرس ، حين وفد عليه بمصر الامام المستنصر بالله احمد فى رجب سنة ٦٥٩ ﻫ فبايع السلطان ولقبه بقسيم أمير المؤمنين . فاتخذ الظاهر هذا اللقب وجاء على النقود وفى الكتابات التاريخية ، ومنها كتابة على الوجهة الغربية فى جامع الظاهر[١]. وجاء ذكر هذا اللقب أيضاً عندما بايع الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ ﻫ الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله . يقول المقريزى : « فلما تمت البيعة أقبل (الخليفة) على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامه قسيمه فى القيام بالحق وفوض اليه سائر الأمور »[٢] وقد تلقب السلطان الناصر بهذا اللقب أيضاً . فقد وصلت الينا قطعة نقود ضربت بالقاهرة باسم الناصر وعليها لقب « قسيم أمير المؤمنين »[٣] .

ويشير هذا اللقب إلى طبيعة العلاقة بين الخليفة والسلطان . ولعل هذه لم تكن المرة الأولى التى منح فيها خليفة عباسى مستضعف مثل هذا اللقب إلى أمير من الأمراء . فقد سبق أن منحه الخليفة العباسى المستظهر للسلطان السلجوقى غياث الدين محمد (٤٩٨ — ٥١١ ﻫ)[٤].

وقد وردت ألقاب السلطان الظاهر بيبرس كما يلى : « السلطان الملك الظاهر ، السيد الأجل الكبير ، العالم العادل ، المجاهد المرابط ، المؤيد المظفر المنصور ، ركن الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، قاتل الكفرة والمشركين ، ناصر الحق ، مغيث الخلق ملك البحرين ، صاحب القبلة ، خادم الحرمين الشريفين ، محى الخلافة المعظمة ، ظل الله فى الأرض ، قسيم أمير المؤمنين بيبرس بن عبد الله الصالحى أعز الله سلطانه[٥] » .

أما ألقاب السلطان قلاوون أبى الناصر ، فقد استقاها فان برشم من النقوش الموجودة على المدرسة التى بناها قلاوون نفسه . ونحن نوردها هنا لايضاح ما غمض من ألقاب الناصر وعلى سبيل المقارنة بين ألقاب قلاوون والألقاب التى تمتع بها الناصر بعد أبيه : « السلطان الأعظم ، الملك المنصور العالم العادل ، المؤيد المظفر ، المجاهد المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، سلطان الأرض ذات الطول والعرض ، ملك البسيطة ، سلطان العراقين والمصرين ، ملك البرين والبحرين ، وارث الملك ملك ملوك الغرب

---

(١) Van Barchem : Corpus, Egypte I. pp. 119, 127, 144.

(٢) كتاب السلوك ج ١ ص ٤٧٧ .

(٣) Henri Lavoix : Catalogues des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie, p. 329.

(٤) راجع مصر والحضارة الاسلامية للدكتور زكى محمد حسن ص ١٩
Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 144.

(٥) Mayer : Saracenic Heraldry, p. 107.

والعجم ، صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين . قلاوون الصالحى . قسيم أمير المؤمنين أدام الله نصره » . وزاد نفس المؤلف على ألقاب قلاوون فيما بعد : « ... الآملين ، كنز العفاة والمنقطعين ، منصف المظلومين على الظالمين . قاتل الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، سيف الدين قلاوون الخ » [١] .

وكان الناصر يتلقب « بالسلطان الملك [٢] الناصر السيد العالم العادل ، المظفر المنصور ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، محي العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك سلطان العرب والعجم والترك . اسكندر الزمان . صاحب القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين . سيد الملوك والسلاطين أبى الفتح محمد ابن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون خلد الله ملكه » [٣] .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة كرسى (عشاء) من نحاس أصفر منشورى الشكل مسدس

---

(١) Corpus : Van Berchem, Egypte I., pp. 126-127
انظر أيضا Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—59, footnote 6.

(٢) « سلطان » لقب خاص . ويقال ان أول من لقب به خالد بن برمك وزير هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩ م) تعظيما لمقامه ورفعة لقدره . ولم يتلقب بهذا اللقب بعد ذلك أحد من أصحاب الدول التى نشأت فى أقاليم الخلافة الاسلامية حتى جاء بنو بويه (٣٢٤ — ٤٤٧ هـ) فتلقب به ملوكهم . وجاء بعدهم السلاجقة (٤٤٧ — ٦٠٥ هـ) فتلقبوا بلقب سلطان أيضا . (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ ، Van Berchem : Corpus I. p. 51.) وكذلك فعل خلفاء الدولة الفاطمية نفسها (المقريزى : إغاثة الأمة ص ٢٠ — ٢٢ طبعة الدكتور زيادة) . أما ماعدا ذلك من الدول الاسلامية التى لم تبلغ مبلغ البويهيين والسلاجقة من القوة وبسطة الملك فقد قنع أصحابها بلقب ملك . بل لقد أطلق لفظ ملك على بعض وزراء الدولة الفاطمية . وكان أول من بلقب منهم بلقب ملك رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى فقد كان يطلق عليه « الملك الأفضل » (٥٣٠ هـ) كما تلقب الوزير الصالح طلائع بن رزيق بالملك المنصور وتلقب ابنه رزيق بالملك العادل كما تلقب شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بالملك المنصور وتلقب صلاح الدين يوسف بن أيوب آخر وزراء الفاطميين بالملك الناصر (المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٤٠) . ومن هنا يتضح الفرق بين لفظى سلطان وملك فى مصطلح الدول الاسلامية ومنها الدولة الأيوبية فقد جرى العرف فيها على إطلاق لفظ السلطان على ملوكها الذين أصبحوا منذ تقلد صلاح الدين مقاليد الحكم أصحاب السيادة العليا على أجزاء الدولة كلها

(٣) وردت هذه الألقاب كاملة فى كتاب الناصر بتاريخ ٢٠ اغسطس سنة ١٣٢٧ م (٧٢٨ هـ) ردا على رسالة يعقوب (السابقة) ملك أرغونة . (انظر : Atiya : Egypt and Aragon, pp. 57—59) إلا أن القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٠ ص ٥٩ و Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٥ و ٥٣ و Van Berchem : Corpus, Egypte I, pp. 152-155, 167, 169 و Mayer : Saracenic Heraldry, pp. 163—164 قد أوردوا ألقابا تماثل ماورد فى تلك الرسالة خاصاً بألقاب الناصر ، إلا أنها أقصر منها وأقل وضوحا .



كرسى من النحاس على شكل منشور ذى ستة أضلاع ، مطعم بالذهب والفضة ومخرم . وسطحه وجوانبه مزينة بالزخارف الهندسية والنباتية والخطية ، وفيه صور بط يطير . وعليه كتابات فيها ألقاب السلطان الناصر محمد ، واسم الصانع محمد بن سنقر البغدادى ، وتاريخ صنعه (٧٢٨ هـ = ١٣٢٧ م) . وجد فى مارستان السلطان الناصر ، ومحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة .

(راجع الصفحة التالية حيث تجد القاب السلطان الناصر المنقوشة على هذا الكرسى)

الاضلاع مخرّم وملبس بالفضة أصله من مارستان السلطان قلاوون وعليه كتابة بها القاب السلطان محمد الناصر ونصها :

« عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، العالم العامل ، المجاهد المرابط ، المثاغر المؤيد المنصور ، سلطان الاسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، محيي العدل فى العالمين ، مجير المظلومين من الظالمين ، ناصر الملة المحمدية ، ناصر الدنيا والدين ، ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحى » (١)

وفى كتابة تاريخية على برج بقلعة القاهرة : « أمر بانشاء هذا البرج المبارك السعيد مولانا وسيدنا السلطان الملك الناصر ، الغازى فى سبيل الله الحاج الى بيت الله الزائر قبر رسول الله ، حصن الدنيا والدين ، محمد ابن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور . وبدؤه فى جمادى الأولى والفراغ فى شوال سنة ثلاث عشرة وسبعمائة » (٢) .

وكثيراً ما نجد فى الكتابات التاريخية التى ترجع إلى أواخر العهد المملوكى أن السلطان يتخذ لقب « الامام الأعظم » الذى كان يمثل سلطة الخليفة الدينية . وأقدم هذه الكتابات واحدة ترجع إلى عهد السلطان جقمق نحو سنة ٨١٥ هـ (٣).

وظائف السلطان

كان السلطان يعد رئيس الدولة الأعلى : فهو زعيم أمراء المماليك والمهيمن على شئونهم الخاصة والعامة ، وصاحب الحق فى تدرجهم فى مراتب الرقى من أمير خمسة (٤) إلى أمير عشرة (٥)

---

(١) G. Wiet : Catalogue du Musée Arabe, Objets en Cuivre, pp. 14—18.
راجع أيضا العدد ٥ من مجلة الثقافة ، مقالة للدكتور زكى محمد حسن .

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 88—89. وعن الألقاب المملوكية بوجه عام راجع
Van Berchem : Corpus, Egypte I pp. 441—452.

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 46.

(٤) كان فى خدمة كل واحد منهم خمسة مماليك ، وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين ، ويمنح الواحد منهم هذه الرتبة تقديراً لخدمات أبيه . وكانوا يعدون من أكابر الأجناد (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٠ . الخالدى : المقصد ص ١٢٣)

(٥) كانت عدة كل أمير منهم عشرة مماليك أو فرسان . وربما كان فيهم من يدخل تحت إمرته عشرون فارساً ، ولكنه مع ذلك لا يعد إلا فى أمراء العشرات الذين كان عددهم يبلغ نحو خمسين أميراً ومنهم يختار صغار الولاة وصغار الموظفين من أرباب السيوف (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥) وكان أمراء العشرات وأمراء الخمسات فى الدولة الفاطمية يعرفون باسم « أدوان الأمراء » . (القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٦) .

إلى أمير أربعين (١) ثم إلى أمير مئين (٢). وكان الناصر يطفر بمماليكه فى بعض الأحيان إلى المناصب العالية حتى « يملأ أعينهم بالعطاء الكثير » . ولم يكن يتبع عادة أبيه قلاوون فى تدرج المماليك فى المراتب والوظائف(٣) برغم أنه كان يراعى فى رقيهم مواهب كل منهم وكفاءته وخبرته . وكما كان الناصر يكافىء الأمراء المخلصين ، كذلك كان من حقه عقاب من يثبت لديه إدانته . وكان أمير جاندار(٤) ينفذ فيهم العقوبة ، التى كانت تصل فى بعض الأحيان إلى القتل . ومن هنا جاءت تسميته « أمير جاندار » ومعناها « الأمير الممسك للروح(٥) » .

كذلك كان من اختصاص السلطان توزيع الاقطاعات على الأمراء والأجناد وتحديد أنصبتهم فيها . وتجلى نفوذ كل من السلطان لاچين والسلطان الناصر حين راكا البلاد فى

---

(١) يطلق على أمراء الأربعين أيضاً « أمراء طبلخاناه » لحقهم فى دق الطبول على أبواب قصورهم كما يفعل السلطان وأمراء المئين ولكن على صورة مصغرة . ويظهر أنهم سموا كذلك تمييزاً لهم عمن هم أقل منهم فى الرتبة وليس لهم حق دق الطبول . وقد تزيد رتبة أمير أربعين إلى إمرة سبعين أو ثمانين ، بمعنى أن يكون فى خدمته ما يساوى أحد هذين العددين . وهذه الطبقة لاضابط لعدد أمرائها فقد يتفاوت عددها فى الزيادة والنقص (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥ . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ Demombynes : La Syrie, p. XXXVII.) . وكان يطلق على هؤلاء فى عهد الفاطميين « أرباب القضب » لأن كلا منهم كان يحمل فى يده عند خروجه فى المواكب قضيبا من الفضة (القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٦) .

(٢) كان عدد أمراء المئين فى دولة المماليك أربعة وعشرين أميراً . وهى مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف ، وتقرن عادة بلقب مقدم ألف ، فيقال أمير مائة مقدم ألف . والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة إذ يكون فى حوزة هذا الأمير مائة مملوك وهو فى نفس الوقت مقدم فى الحروب على ألف جندى من أجناد الحلقة (المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ ؛ كتاب السلوك جـ ١ ص ٢٣٩ حاشية للدكتور زيادة . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٣ . Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3.) وكان يطلق على هذه الطبقة من الأمراء فى عهد الفاطميين « الأمراء المطوقون » نسبة إلى أطواق الذهب التى كانوا يضعونها فى أعناقهم . (القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٦) . وجاء فى بعض الكتابات التاريخية لقب « عين مقدمى الألوف » . ولسنا نعرف هل المقصود بعين فى هذا اللقب « الرئيس » أو كما ظن : Van Berchem Corpus, Egypte I, pp. 545-546 إن فى ذلك إشارة الى أمير انتخب قائداً أو مبعوثا فى مهمة معينة .

(٣) أشار بيبرس الدوادار (زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ — ٧٦) إلى ذلك بقوله : « ونقل [قلاوون] أولياءه على التدريج نقلا يدل على رصانة عقله . . فانتقلوا إلى الزيادات على تعاقب السنين وأخذوا فيها أخذوا أخيار المئين فكانوا بالأمرة مدربين وفى التدبير مجربين » . ومما تجب ملاحظته أن بيبرس الدوادار كان من مماليك قلاوون .

(٤) هذا الاسم يتركب من ثلاث كلمات : احداها عربى وهو أمير ، والثانية جان ومعناها بالفارسية والتركية الروح ، والثالثة دار ومعناها ممسك . فيكون المعنى المقصود من أمير جاندار « الأمير الممسك للروح » . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٦١ .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٢ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٤ .

سنة ٦٩٦ هـ وسنة ٧١٥ هـ الروك المعروف باسم « الروك الحسامى » والروك المعروف باسم « الروك الناصرى »[١] .

وكان الناصر يتحرى العدل ما أمكنه فى مكافأة أمرائه وأجناده وتوزيع الاقطاعات عليهم، إذ كان خبيراً بأحوال كل منهم باعتباره القائد الأعلى لجيوش المماليك ، الذى طالما خاض غمار الحروب وقاد تلك الجيوش بنفسه نحو الأعداء وخاصة مغول فارس ، وشاهد ما أظهره بعض أمرائه من شجاعة وتفان فى القتال وما أبداه أجناده من استبسال وشهامة فى الدفاع .

وكان السلطان يتولى تعيين كبار موظفى الدولة مثل نائب السلطنة والوزير وكاتب السر والمحتسب ونظار الدواوين ، كما كان له حق عزلهم وتأديبهم . كما كان يتولى أيضاً النظر فى المظالم[٢] .

كان السلطان مطلق الحكم والتصرف . ولكنه إذا أراد البت فى مشروع من مشروعات الدولة الحيوية أو إعلان حرب أو إبرام صلح ، عقد « مجلس السلطنة » — وهو المجلس المعروف باسم « المشور » [٣] — برياسته وعضوية أتابك العساكر والخليفة والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرون أميراً . وما كان السلطان يتكلم فى هذا المجلس بنفسه وإنما كان يتكلم بلسانه « المشير » . والغرض من استعانة السلطان بالمشير الاحتفاظ بأبهة الملك ، لأن السلطان إذا أدلى برأى فى المجلس ثم نقضه الأعضاء كان فى ذلك انتقاص من هيبته وإحراج لمركزه[٤] . ومما هو جدير بالذكر أن أمراء المشورة لم يكتسبوا حقاً يخولهم حضور مجلس السلطنة وإنما كان السلطان هو الذى يستدعيهم فكان عليهم واجب الحضور[٥].

ويتولى أمير مجلس الأمور الخاصة بمجلس السلطنة . ويختار صاحب هذه الوظيفة من بين أمراء المئين[٦] . ويشبه منصبه فى كثير من الوجوه منصب كبير الأمناء فى عصرنا هذا ، إذ كان يهيمن على شئون البروتوكول . ويتمتع بحكم وظيفته بالجلوس فى حضرة السلطان[٧].

---

(١) راجع ما سنذكره عن الاقطاعات المملوكية فى باب « الحالة المالية والاقتصادية » .

(٢) سيأتى ذكر هيئة جلوس السلطان للنظر فى المظالم عند الكلام على « القضاء » .

(٣) Zettersteen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦ .

(٤) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٦ .

(٥) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٥ .

(٦) ابن شاهين : نفس المصدر ص ١١٤ .

(٧) كان السلطان الظاهر بيبرس أول من حدد اختصاصات صاحب هذه الوظيفة . وعرفت وظيفة أمير مجلس فى عهد الفاطميين ، إلا أن متوليها كان يطلق عليه اسم « صاحب المجلس » . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٨١ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٥ .
Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (L'Egypte Arabe), p. 396.

وقد ازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجرة نومه(١) . وإذا انعقد مجلس السلطنة جلس رأس نوبة عن يسار السلطان ، إذ كان يعتبر أكبر طائفة الأمراء مقاماً وأعلاهم مركزاً بحكم زعامته للماليك السلطانية(٢) .

وكما كان أمير جاندار يتولى إدخال النـاس على السلطان وهو جالس بالايوان بقلعة الجبل ، كذلك كان الحاجب(٣) يقوم بهذه المهمة إذا جلس السلطان فى قصره بالقلعة ، على أن يراعى مقام هؤلاء الناس وأهمية أعمالهم . وعلى الرغم من أن هذه الوظيفة كانت معروفة فى مصر فى العصر الطولونى(٤) وزمن الدولة الفاطمية وأن صاحبها أطلق عليه فى عهدها « صاحب الباب » ثم عرفت من بعدهم فى عهد الدولة الأيوبية(٥) فإن أهميتها عظمت فى عهد السلطان الناصر محمد حتى أصبحت فى مرتبة نيابة السلطنة حتى لقد انتقلت إلى من يشغلها اختصاصات النائب عند ما ألغى الناصر هذا المنصب فى سنة ٧٢٧ هـ (١٣٢٧ م)(٦) كما سيأتى . وكان هناك خمسة حجاب : اثنان منهم من أمراء المئين وهما حاجب الحجاب ونائبه(٧).

---

(١) Lane-Poole : The Art of he Saracens, 31.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٥ ،

(٣) كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلافهم بلا حجاب . ولما انتقل الحـكم إلى بنى أمية اتخذ معاوية بن أبى سفيان « الحجاب » بعد حادثة الخوارج مع على ومعاوية وعمرو بن العاص ثم سار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء ، وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس وتلافيا لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة . راجع الـكلام على الحجابة فى مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٦ — ٢٠٩ . وقد ذكر السيوطى (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٥) أن الحجابة كانت أقدم عهداً من عبد الملك ابن مروان ، اذ كان لعمر بن الخطاب حاجب يدعى مرفأ .

قارن ذلك بأسباب اتخاذ المقصورة فى المساجد . وراجع فى هذا مادة « مسجد » بدائرة المعارف الاسلامية

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٣ . راجع لفظ « حاجب » فى :
Zaky M. Hassan : Les Tulunides, pp. 194.

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٩٩ . الخالدى : المقصد ص ١٢٦ .

(٦) كان الحاجب فى ذلك العهد لا تقتصر مهمته على ادخال الناس على السلطان ، بل صار يقضى بين الأمراء والجند إما بنفسه أو بعد استشارة السلطان أو النائب ، كما كان يفصل فى خصومات الجند الخاصة بالإقطاعات . غير أنه لم يكن له حق النظر فى الأمور الشرعية كالفصل فى الخصومات التى تقوم بين الزوجين أو الحـكم فى قضايا الديون لأن ذلك كان من اختصاص القضاة . وكان الحاجب يقف أحيانا بين يدى السلطان فى المواكب ليبلغه رغبات رعيته كما كان يركب أمامه وهو يحمل عصا فى يده وينظر فى المظالم . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٢١٩ .

Van Berchem : Corpus I. p. 567

Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV (l Egypte Arabe), p. 396

(٧) برز فى عهد سلطنة الناصر محمد الثالثة طائفة من الحجاب المتازين فـكثيرا ما كان السلطان =

البيوت السلطانية :

كان السلطان يقيم هو وأسرته وحاشيته ورجال بلاطه[١] فى قلعة الجبل التى كانت تشتمل على خزانة السلطان ومطابخه وبيوته واصطبلاته . كما كانت تضم دور المماليك السلطانية وخاصة الأمراء ، الذين كان لكل منهم بيوت كبيوت السلطان يعيش فيها كما يعيش السلطان وسط مظاهر الفخامة والأبهة . وقد ظل هؤلاء الأمراء يقيمون بالقلعة إلى آخر عهد السلطان الناصر[٢]. وكان القصر السلطانى المملوكى منظما تنظيما دقيقاً . فقد كان يحوى عدة بيوت (خانات أو ادارات) . لكل منها مهمة خاصة بها ، ويقوم بادارتها موظفون معينون .

من ذلك ان جميع الحاجيات اللازمة للمطبخ السلطانى [٣] كاللحوم والخضروات والتوابل والوقود والزيوت كانت تحفظ فى بيت يعرف باسم الحوائج خاناه (أو بيت الحوائج) . كما كان يحفظ مايصرف من هذه الأصناف للدور السلطانية وماهو مرتب للأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند وغيرهم من أصحاب الرواتب حسبما هو مدون فى السجلات المشتملة على أسماء المستحقين ومقدار استحقاق كل منهم . وكان ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين الف درهم

= يوليهم هذه الوظيفة ما داموا حائزين لرضاه . فاذا غضب عليهم عزلهم واستبدل بهم غيرهم أو أمر بالقبض عليهم . ونتبين ذلك من كثرة عدد الحجاب الذين تولوا هذا المنصب فى تلك الفترة (٧٠٩ — ٧٤٠ هـ) إذ بلغ عددهم أربعة عشر حاجبا على ما رواه صاحب « تاريخ سلاطين المماليك » وهم : سنقر الكمالى ، بكتمر الحسامى ، لاچين العمرى ، الطنبغا ، محمد ابن لوزيرى ، طينال بيبرس أمير آخور ، ألماس الحاجب كبير ، قطلوبغا المعزى ، أمير مسعود ابن الخطير ، جاريك قفجق ، أيدغدى الخوارزمى أقول ، محمود ابن خطير ، برسبغا . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٦

(١) يقصد بالبلاط : « بلاط السلطان » أى قصره ومجلسه وزعمائه (محيط المحيط) وكلمتا بلد وبلاط دخيلتان فى اللغة العربية إحداهما قديمة وهى « بلد » وقد ذكرها القرآن الكريم ، والأخرى أحدث منها وهى بلاط بمعنى حاشية . لأن الكلمتين وإن اختلفتا فى الظاهر ، إلا أنهما ترجعان إلى لفظ لاتينى واحد وهو Palatium ومعناه الجبل البلاتينى الموجود فى رومة وجزء المدينة الذى شيده روميلوس Romulus عليه من ناحية والمساكن التى شيدها أوغسطس لنفسه ولحاشيته على نفس الجبل من ناحية أخرى . ومن هنا جاء معنى « بلاط » . ومن اللفظ اللاتينى بالتيا Palatia نجد فى سائر اللغات الهندية الأوربية باليه Palais فى الفرنسية وپالاس Palace فى الانجليزية وبالست Palast فى الالمانية وبالازو Palazzo فى الايطالية وكلها بمعنى قصر . انظر مجلة الثقافة عدد ١٤٧ ص ١٢٠ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٥ Lane - Poole : The Art of the Saracens, p. 17

(٣) كان المطبخ السلطانى يقع فى موضع جامع الناصر بالقلعة ، ثم نقل الى موضع آخر منها . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣ .

فى كل يوم ، وذلك عدا ما كان يصرف على ألوان الطعام الأخرى (١) وكانت الحوائج خاناه تعرف فى عهد الفاطميين باسم « خزانة الطعم » (٢) .

وكانت تحفظ فى الشراب خاناه أصناف السكر والفواكه والشراب والحلوى والبلح والمياه المفيدة والسفوفات المسهلة والمقبضة والمبردة . كما كانت تحفظ فيها أيضاً الأوانى النفيسة التى تستخدم فى تقديم هذه الألوان للسلطان وزائريه (٣) . وقد عرفت فى عهد الفاطميين باسم « خزانة الشراب » (٤)

أما جميع مايخص السلطان من ثياب وجواهر وسيوف ، فكان يحفظ فى « الطَّسْت خاناه » (٥) التى كانت تحتوى أيضاً على كثير من المقاعد والوسائد التى يستعملها السلطان ، والبسط التى يصلى عليها (٦) . وسميت بذلك لأن بها الطست الذى يغسل فيها القماش . وقد أخذ هذا النظام عن العباسيين فى بغداد الذين نقلوه عن آل ساسان من قبل (٧) . وقد عرفت الطست خاناه فى عهد الفاطميين فى مصر باسم « خزانة الكسوة » (٨).

وتشتمل الفراش خاناه على أنواع المفروشات من البسط والخيام (٩)، وتهيئة مايختار السلطان استعماله منها فى أثناء سفره (١٠) .وقد أخذ سلاطين مصر هذا النظام عن الفاطميين والعباسيين

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص١٣ — ١٦. المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٦
Demombyes : La Syrie, p. L IV.

(٢) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٩ — ١٠

Lane — Poole : The Art of the saracens, p. 32

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٥) شاع بين رجال الطست خاناه استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء ، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٠ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ١١ . Demombynes : Le Syrie, p LII.

(٧) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٢ .

(٩) وصف القلقشندى (نفس المصدر جـ ٤ ص ٩) هذه الخيام فقال : « ولهذا السلطان من ذلك المدد الكبير تتخذ له الخيام العظيمة الشأن المختلفة المقادير والصنعة من القطن الشامى الملون بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها ، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان مما يدهش العقول لينوب مناب قصورهم فى الاقامة . وكانت الخيمة التى تنصب للسلطان أثناء السفر تعرف باسم الدهليز » .

(١٠) القلقشندى نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٧٠ . الخالدى : المقصد ص ١٣٠

من قبل[١] . وكان يطلق على الفراش خاناه فى عهد الفاطميين اسم « خزانة الفرش »[٢] .

وينزل السفراء والعربان الذين يفدون على السلطان فى دار الضيافة ، كل منهم فى المكان اللائق بمركزه . ويصرف عليها مما يتحصل من سوق الخيل والرقيق وغيرها . ولهذه الدار أهمية خاصة فى عهد الناصر إذكان يفد اليها كثير من الرسل حاملين الى سلطان مصر الكتب والهدايا من ملوك أوربا وأمرائها .

وكذلك أفرد مكان خاص لحفظ الطبول والأبواق وما يتبعها من الآلات ، أطلق عليه اسم الطبلخاناه وهى كلمة فارسيه يقصد بها أيضاً فرقة الموسيقى السلطانية ، وقد جرت العادة بأن تدق مدة فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة السلطان فى الأسفار والحروب[٣]. وكان مقرها دار العدل بقلعة الجبل ، ولكن السلطان الناصر هدم تلك الدار سنة ٧٢٢ﻫ (١٣٢٢م) ثم بناها تحت قلعة الجبل بين باب السلسلة والمدرج وكانت عبارة عن ساحة مسورة من غير سقف[٤] .

وكانت فرقة الطبلخاناه السلطانية تتكون من أربعة طبول وأربعين من الكوسات وأربع زمارات وعشرين نقارة . ولم يسمح بتكوين فرقة موسيقية غير الفرقة السلطانية إلا لأمراء المماليك البارزين وهم الذين كان يطلق عليهم لقب أمراء الطبلخاناه[٥] ، وقد بلغ عددهم — كما ذكرنا — ثلاثين أميراً . وتتكون فرقة كل منهم من عشرة رجال وزمارتين وأربع نقارات[٦] .

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ﺟ ٣ ص ٤٧٣ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ﺟ ٤ ص ٢٢ . Demombynes : La Syrie, p. LIII.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٨

(٥) من الالقاب الخاصة بأمراء الطبلخاناه فى دولة المماليك لقب اسپاسلار وهوفى الأصل إسم لوظيفة معروفة فى الأنظمة الحكومية بمصر منذ عهد الدولة الفاطمية . وكان صاحبها فى عهد تلك الدولة ، كما يقول القلقشندى (نفس المصدر ﺟ ٣ ص ٤٨٣) « زمام كل دار واليه أمر الأجناد والتحدث فيهم وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم » . وأسپاسلار تحريف عامى للفظ « اسفهسلار » . ويتركب هذا اللفظ من كلمتين : أولاهما فارسى وهو أسفه ومعناها المقدم ، وثانيهما تركى وهو سلار ومعناه العسكر . فيكون اسفهسلار هو مقدم العسكر (القلقشندى : نفس المصدر ﺟ ٦ ص ٨) . على أن أمراء الطبلخاناه قد عدلوا عن تلقيب أنفسهم بهذا اللقب زمن القلقشندى ، بعد أن تبين لهم أن العامة كانت « تقول لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان اسباسلار . وكأن أمراء الطبلخاناه كرهوا مشاركة بعض الأعوان فيه فأضربوا عنه لذلك أو لم يفهموا معناه فتركوه » (القلقشندى : نفس المصدر ﺟ ٦ ص ٧ — ٨) .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ﺟ ٤ ص ٨ . Lane—Poole : The Art of the Saracens, p. 31

ويرجع أصل نظام نوبات الطبلخاناه الى عهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه الذى خرج على الخليفة الناصر العباسى واعتزم المسير الى العراق ، فضرب لنفسه نوبة الاسكندر ذى القرنين تعاظما واختار لضربها سبعة وعشرين ملكا من أكابر الأمراء وأولادهم . وتصنع آلات النوبة عادة من الذهب . وكانت النوبة حتى ذلك الوقت تضرب خمس مرات فى أوقات الصلوات الخمس فجعلها خوارزم شاه مرتين وفوضها لأولاده يضربونها فى الولايات التى ولاهم عليها ، فاتخذوا الطبلخاناه لأنفسهم أيضاً . وقد سار على ذلك سلاطين المماليك بعد خوارزم شاه ولذلك كان نور الدين يضرب بدمشق النوب الخمس[(١)].

وكان للاصطبلات السلطانية ادارة خاصة عرفت باسم الركاب خاناه ، يحفظ فيها ، عدد الخيـــل من السروج واللجم والكنابيش ، وغير ذلك من نفائس العدد والمراكيب ما يحير العقول ويدهش البصر مما لايقدر على مثله إلا عظماء الملوك »[(٢)]. وكانت هذه الدار[(٣)] من أهم البيوت السلطانية ، فقد كان عدد الاصطبلات التابعة لها وفيراً : فمنها اصطبل الخاص الذى يضم الحيوانات التى تسير فى المواكب . واصطبل الحجوره وينتخب منه ما يلزم للعب الكرة ، واصطبل البيمارستان وتوضع به الخيول الضعاف . واصطبل البغال ، واصطبل السباع . واصطبل الفيلة ، واصطبل البريد . كذلك كان يتبع الاصطبلات السلطانية « المناخات » وهى الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية ومنها مناخ الجمال البخاتى ومناخ الهجن والنياق[(٤)] .

وقد شغف الناصر بشراء الخيل العربية الأصيلة ، وبذل فى شرائها أموالا ضخمة حتى كان ثمن الواحد منها أحياناً ثلاثين ألف درهم ، وقد قدر ثمن ما دفعه لبعضها فى يوم واحد مليون درهم وكان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء والإخلاص لعرشه وعلى أفراد حاشيته المقربين إليه وخاصة طائفة الخاصكية[(٥)]. واشتهر بشدة العناية بأمرها ، حتى صارت له دراية عظيمة بأنواع الخيل التى يشتريها فيذكر أسماء بائعيها وتاريخ شرائها وثمن كل منها[(٦)] .

---

(١) Demombynes : La Syrie, p, L IV
راجع أيضاً كتاب السلوك للمقريزى ج ١ ص ٤٦ حشيه للدكتور زيادة .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٢ .

(٣) كانت هذه الدار يطلق عليها فى عهد الفاطميين اسم « خزانة السروج » المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٨ . زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٩ — ٦١ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٤ — ٢٥٢ . Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٩٩ و ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٦) راجع عن ركوب الخيل والفروسية عند المماليك كتاب :
Le Mercier : La Chasse et les Sports Chez les Arabes, pp. 212-228
وكانت كتب البيطرة نادرة فى اللغة العربية . ولكن من أعظمها كتاب قدمه إلى الناصر محمد بن

وبلغ عددها فى عهده أربعة آلاف وثمانمائة من الخيل وخمسة آلاف من الهجن والنوق . وعرف سباق الخيل فى عهده وكثرت حتى بلغت مائة وخمسين[١] .

وقد أوضح المقريزى شدة عناية الناصر بالخيل فقال : « وكان من عنايته بالخيل لا يزال يتفقدها بنفسه ، فاذا أصيب منها فرس أو كبر سنه بعث به إلى الجشار وتنزى الفحول المعروفة عنده على الحجور بين يديه وكتاب الاصطبل تؤرخ تاريخ نزوها واسم الحصان والحجرة فتوالدت عنده خيول كثيرة اعتنى بها عن الجلب ، ومع ذلك فلم تكن عنده فى منزلة ما يجلب منها . وبهذا ضخمت سعادة آل مهنا وكثرت أموالهم وضياعهم فعز جانبهم وكثر عددهم وهابهم من سواهم من العرب . وبلغ عدد خيول الجشارات فى أيامه نحو ثلاثة آلاف فرس وكان يعرضها فى كل سنة ويدوغ أولادها بين يديه ويسلمها للعربان الركابة وينعم على الأمراء الخاصكية بأكثرها ويتبجح ويقول هذه فلانة بنت فلان وهذا فلان بن فلانة وعمره كذا وشراء أم كذا وكذا وكان لا يزال يؤكد على الأمراء فى تضمير الخيول ويلزم كل أمير أن يضمر أربعة أفراس »[٢] .

مديرو البيوت السلطانية ومعاونوهم :

وكان على رأس كل من هذه البيوت (أو الخانات) موظف كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين كل لكل منهم اختصاص محدود . وكان اختيار هؤلاء الموظفين يتطلب كياسة ومرونة من جانب الناصر : فان سلطان المماليك كان ذا أتباع كثيرين ذوى ميول ومآرب مختلفه . ولذلك كان لزاماً عليه أن يعمل على إرضائهم جميعاً . فأكثر من عدد الوظائف فى القصر حتى يتمكن من الاقلال من عوامل الغيرة والحسد بينهم ويضمن دوام تأييدهم له ويقضى بذلك على ما يمكن أن يثيروه فى وجهه من الدسائس والفتن .

وقد استحدث السلطان الناصر محمد ، وأبوه قلاوون من قبل ، بعض هذه الوظائف . وهذه الوظائف — سواء ما أنشىء منها وما أعيد تنظيمه — كانت مقتبسة من نظام البلاط عند العباسيين فى بغـــداد وعند الفاطميين والأيوبين فى مصر [٣] . إلا أن سلاطين المماليك

= قلاوون طبيب كان له الاشراف على اصطبله وخيوله . واسم الكتاب : كامل الصناعتين — البيطرة والزرطقة لأبى بكر بن المنذر البيطار (المتوفى سنة ١٣٤٠ م) . وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية فى ثلاث مجلدات بباريس بين عامى ١٨٥٢ و ١٨٦٠ بعنوان :

Le Nacerie : La perfection des deux arts ou traité complet d'hippologie et d'Hippiatrie Arabes, traduit par le docteur perron.

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥ .

(٢) الخطط جـ ص ٢٢٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦ . الخالدى : المقصد ص ١٢٦ .



قناطر أبي المنجا وعليها رنك (شارة) السلطان الظاهر بيبرس .

البارزين كالظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون وابنه الناصر محمد قد وفقوا إلى اقتباس أحسن النظم القائمة فى عهد هذه الدول حتى أصبح نظامهم يفوق كل ما كان سائداً عند هذه الدول دقة ونظاما .

وكان يتولى وظائف البلاط والحاشية فى القصر السلطانى طبقة خاصة من الأمراء[1] ، ولم يكن للشعب سوى نصيب ضئيل فيها . وكانت للأمراء أصحاب الوظائف الرئيسية أشعرة خاصة تعرف باسم « الرنوك » وهى كلمة فارسية الأصل ، مفردها « رنك » بمعنى لون ، استعملت فى العصور الوسطى للدلالة على الأشعرة . وكان جل الاعتماد فى دراسة هذه الرنوك يرجع إلى ما نقش منها على التحف الزجاجية والمعدنية وعلى العمائر خاصة . وذلك للعناية التى كانت تبذل فى دقة إظهار هذه الرنوك ، إذ أنه كلما كانت المادة المراد نقش الرنك عليها من معدن نفيس أو مادة غالية الثمن زادت العناية برقمه . وقد نقش المماليك رنوكهم على التحف من مختلف المواد على الحجر والخشب والمعدن والخزف والزجاج والورق والنسيج والعاج .

وقد بلغ عدد الأشعرة المملوكية المعروفة إلى الآن خمسين شعاراً عرف مدلول بعضها. ومن أهمها : الكأس والمقلمة والقوس والبقجة والخونجة (المنضدة) وعصا البولو وزهره اللوتس والصولجان . ولم يقتصر الأمر على تلك الأشكال الرمزية بل تعداها إلى الطيور والحيوانات وأهمها النسر والأسد . أما غيرهما فمشكوك فى صحة اتخاذه رنوكا كالبط المنسوب إلى قلاوون والسمك المنسوب إلى ابنه محمد .

ومن المعترف به أن بعض الرنوك يدل على الوظائف الصغرى وهى التى لم يتولها قط أمير عظيم ، ومثل هذه الجاشنكير والجوكندار والعلم دار . أما تلك الوظائف التى يصاحبها لفظ أمير أو كبير كوظيفه أمير سلاح ودوادار كبير . فان ذكر تلك الألفاظ أو عدم ذكرها لا يغير من قيمة الوظيفة نفسها لأن هذه الوظائف معدودة من الوظائف السلطانية الكبرى والتى يتولاها الأمراء العظام .

وإذا علمنا أن الأمراء لم يكن من عادتهم تناسى مراكزهم البسيطة يوم أن كانوا أجناداً بل كانوا يعتزون بها ويفخرون بتلك الأيام ، اتضح لنا السبب فى عدم ذكر تلك الوظائف الكبرى على الرنوك لأن هذه الوظائف لا ينالها الأمير إلا بالترقية فى مراتب الامارة ولأنه لم يغير شعاره بترقيه فى مناصب الامارة . وبذا تكون تلك الرنوك دالة على الوظائف الكبرى والصغرى على السواء . ولو لم تذكر الوظائف الكبرى على الرنوك أو تصاحبها .

ولم يكن للنساء حق فى الوظائف ولم يشغلنها ، ولكن بالرغم من ذلك ، وجدت رنوك تصاحبها أسماء سيدات . وبفحصها اتضح أنها لم تكن خاصة بهؤلاء السيدات بل انها خاصة بآبائهن أو أزواجهن الذين كانوا يشغلون تلك المناصب السلطانية التى تشير إليها . ومن هذا نرى أن النساء كن يستعرن أشعرة آبائهن أو أزواجهن وينقشنها على ما يشيد لهن من عمائر أو يصنع لهن من تحف .



اناء من الفخار المطلى بالميناء الصفراء مزين من الداخل والخارج بكتابة صفراء منقوشة تحت طبقة من المينا ومقسمة إلى مناطق بدوائر بها رنوك مموهة بالميناء باللونين الأحمر والبنى الغامقين . والـكتابة باسم أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المتوفى سنة ٧٤١ هـ .

ولا نستطيع الجزم بان الأشعرة كانت متوارثة إطلاقا ، وذلك لقلة المعلومات عن أبناء أمراء المماليك . غير أننا إذا ما عرفنا النظام الذى سار عليه الأمراء نحو أبنائهم من حيث انهم لم يسمحوا لهم بالانخراط فى سلكهم ولم يقبلوا ضمهم إلى زمرتهم للاختلاف بين النشأتين : فالأمراء أصلهم أرقاء ، وأبناؤهم غير أرقاء وأن المماليك لم يكن عندهم نظام وراثة العرش وإن كان قد وجد فى أسرة قلاوون وفى تولية بركة خان بعد والده بيبرس فانها حالة شاذة ولم تكن القاعدة المتبعة ، لذلك يمكن القول أن الأشعرة لم تكن متوارثة اللهم إلا فى الأبناء الذين ينشأون نشأة حربية ويقتفون آثار آبائهم أو يتمكنون من الاحتفاظ بعروش آبائهم . أما باقى الأبناء وهم الأغلبية العظمى فكانوا يوجهون وجهة غير حربية ويعدون للوظائف الدينية والدنيوية وبذلك يحرمون حمل أشعرة آبائهم وتوارثها [١] .

ومن بين الأمراء الذين يشغلون مناصب البلاط والحاشية رجال اختيروا للاشراف على القصور السلطانية وإدارة شئونها والعناية بشخص السلطان وقضاء أموره الخاصة .

وكان أكبر موظفى القصر السلطانى ، موظف يعرف باسم « الأُستادار »[٢] . ويشرف على البيوت السلطانية كلها من الحوائج خاناه والشراب خاناه والطست خاناه والفراش خاناه ورجال الحاشية . وله حق تأديب خدمْ السلطان . ويعهد اليه جلب ماتحتاجه البيوت والكساوى[٣] واصدار الأمر بدفع ثمنها بعد وصولها . وقد جرت العادة فى دولة المماليك أن يكون عدد الاستادارية[٤] أربعة : أحـــدهم من أمراء المئين ، وثلاثة من أمراء

---

(١) راجع مقالة « الرنوك المملوكية » — مجلة المقتطف ، العدد الخامس ، المجلد الثامن والتسعين (مايو سنة ١٩٤١) ص ٤٦٠ — ٤٦٨ .

وعن رسوم الرنوك التى تشير إلى الوظائف التى كان يشغلها الأمراء فى بداية عهدهم ، انظر :
Hautecœur et Wiet : Mosquées du Caire, pp. 49-50.

(٢) هذا الاسم يتركب من كلمتين فارسيتين : أولاهما — استد ومعناها السيد أوالـكبير ،وثانيهما دار ومعناها ممسك . وبذلك يكون المقصود من كلة استادار : الذى يتولى قبض المال (القلقشـندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٧ . الخالدى : المقصد ص ١٢٦) . وقد يكتب هذا الاسم « أستاذ الدار » باعتبار أن المقصود من اللفظ العربى هو حقيقة الدار ، وأن أستاذ بمعنى السيد أو الـكبير . وتجد نص وصية الاستادار (أو أستاذ الدار) فى العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٦ — ٩٨ .

وخلاف الألقاب الأخرى (جوكندار — سلاحدار — دوادار) حيث نرى أن دار مشتقة من الفارسية داشتن بمعنى يحمل أو يمسك ، نجد أن استادار فيها كلة دار العربية بمعنى منزل ، كما يتجلى فى بعض هجاياتها العربية (أستاذ الدار — أستادار) وكما يتجلى فى لقب « أستاذ الدار العالية » . راجع كترمير القسم الأول ص ٢٥ وما بعدها و Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 159.

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٢ . Demombynes : La Syrie, P. 4xI.

(٤) ممن تقلد وظيفة الاستادار فى دولة الناصر الثانية بيبرس الجاشنكير الذى ضيق على الناصر محمد وحرمه ما يشتهيه من المأكل والملبس حتى اضطر إلى الرحيل إلى الـكرك معـتزلا العرش . وتولى

الطبلخاناه ، وربما نقص عـددهم عن ذلك فى بعض الأحيان[1] . ويعـاون هؤلاء فى أعمالهم جماعة من أمراء العشرات[2] . وكانت الأستادارية من الوظائف الكبرى فى عهـد الفاطميين ، ويعرف متوليها باسم « ناظر البيوت والحاشية[3] » .

ويتولى « الخازندار[4] » الاشراف على حفظ مايأمر الاستادار بجلبه إلى البيوت السلطانية من المؤن والكساوى والصرف منه على قدر حاجة تلك البيوت ، فهو بمثابة مدير مخازن البيوت السلطانية ، ويعين عادة من أمراء الطبلخاناه . ثم ارتقت وظيفته فى دولة الناصر حتى صار يعهد بادارتها الى أمير من أمراء المئين[5] . وكان يقوم باعباء بتلك الوظيفة ثلاثة أشخاص : الأول يسمى « خازندار الصنف » ويشرف على خزائن القماش المزركش والمذهب والحرير والسروج الذهب وأنواع الوبر ، والثانى ويسمى « خازندار العين » ويتولى أمر ضبط الوارد والمنصرف والثالث يسمى « الخازندار الكبير » وهو المكلف بحمل كيس المال المقرر للصدقة وتوزيعه على الفقراء عند ركوب السلطان فى الموكب[6] . وكان يطلق على الخازندار فى عهد الفاطميين اسم « صاحب بيت المال »[7] .

وكان يرأس كل بيت من البيوت السلطانية على حدة موظف كبير يختلف اسمه باسم البيت الذى يرأسه ، ويعمل تحت يده طائفة الموظفين الذين يشتغلون فى ذلك البيت ، ويتلقى أوامره من الاستادار .

ويرأس « الحوائج خاناه » موظف معروف باسم « أُستادار الصحبة » وهو المشرف على المطبخ السلطانى وموظفيه ، ويخاطب السلطان فى كل مايتعلق بالأطعمة الخاصة بمطابخه . كما

الاستادرية فى عهد سلطنة الناصر الثانية أيضاً الأمير سيف الدين بتخاص . ومن أشهر الاستادرية من أمراء المئين فى سلطنة الناصر الثالثة : قرالاجين (٧١٥ — ٧٢٣ هـ) وبكتمر العلائى (٧٢٣ — ٧٣٢ هـ) ومغلطاى الجمالى (٧٣٢ هـ) وآقبغا عبد الواحد . ومن الاستادرية الصغار من أمراء الطبلخانات أو العشرات (فى دولة الناصر الثالثة) طرنطاى المنصورى وبلتان القبجقارى وكيكلدى اللقمانى وهم من أمراء العشرات ويغمور والطنقش وكيكلدى أبو غرة ولؤلؤ الزدركاش وعـلاء الدين الرحبى وهم من أمراء الطبلخاناه . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٤٨ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠ : السيوطى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٢ و ٢٢٤ .Van Berchem, Corpus, p. 89

(٣) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣١ .

(٤) هذا الاسم يتركب من كلمتين : أولاهما عربية وهى خزانة أى ما يخزن فيه ، وثانيهما فارسية وهى دار ، فيكون الخازندار هو ممسك الخزانة . ومما هو جدير بالملاحظة أن بعضهم كان يكتبها « الخزندار » بعد حذف الألف . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٢١ .Van Berchem : Corpus I., pp. 271-272

(٦) الخالدى : المقصد . ص ١٢٧ .Demombynes ;La Syrie, p. LIX

(٧) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٨١ .

كما كان يسير امام الطعام حتى يوضع على المائدة السلطانية و يقف بجانب السماط [١] كما عهد إلى صاحب هذه الوظيفة فى الاشراف على مايحتاجه السلطان من الأدوية والعقاقير والتحدث إلى الأطباء فى هذا الشأن[٢] ويختار هذا الموظف من بين أمراء العشرات أو العشرينات[٣] وكان يطلق على من يتولى أمر طعام الخليفة فى عهد الفاطميين اسم « زم الرجال»[٤].

وكان يساعد استادار الصحبة موظف يعرف باسم « المشرف » ويتولى أمر المطبخ ويشرف على طهى الطعام وإعداده[٥]. أما المُشْرف على ما يشوى للسلطان من أصناف اللحوم والطيور فكان يعرف باسم « أمير مَشوى » وهو فى مرتبه أمير عشرة . وكان هناك أميران يقومان بهذا الاشراف بالتناوب[٦].

وكان يقوم بذوق الطعام والشراب قبل تقديمه للسلطان موظف خاص يعرف باسم « الجاشنكير[٧] » وذلك خوفا من أن يتمكن أحد من دس السم له فى الطعام . وكانت مهمته الاشراف على اعداد الأسمطة مع استادار الصحبة ، ويقف معه بجانب السماط[٨] ويتمتع بحكم وظيفته بمكانة سامية عند السلطان ونفوذ كبير وشهرة واسعة فى انحاء الدولة [٩] ، ويظهر أن هذه الوظيفة لم يكن يتولاها واحد فقط بل كانت تسند الى أكثر من واحد على رأسهم أمير من أمراء المئين [١٠]. وليس غريباً أن يكون فى رنك هذا الأمير رسم مائدة ترمز إلى طبيعة عمله . [١١]

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢١ . الخالدى : المقصد ص ١٣٨ .

(٢) Demombynes : La Syrie, p. LXII.

(٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٥ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨١ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٤ .

(٦) الخالدى : المقصد ص ١٢٩ .

(٧) هذا الاسم يتركب من كلمتين فارسيتين : إحداهما جاشنا ومعناها الذوق والثانية كير ومعناها المتعاطى . فيكون الجاشنكير « الذى يذوق » . ولذلك أطلق عليه العامة اسم الشسنى . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠ ' الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

Demombynes : La Syrie, p. LXI.

(٩) Lane-Poole : The Art of the Saracent, p. 30.

(١٠) الواقع أن وظيفة متذوق الطعام لم تكن من مستحدثات المماليك . وإنما وجدت فى دول متعددة فى عصور متباينة . من ذلك مثلا فى أيام البطالسة موظف يحمل اسم Edeatros مهمته تذوق الطعام قبل تقديمه إلى بطليموس خوفا من دس السم له .

(١١) انظر Mayer : Saracenic Heraldry, p. 4,15.

وكان كبير الخدم المكلفين بالسماط السلطانى يعرف باسم « الخوان سَلاّر »[١]، وعمله إعداد الموائد السلطانية وتنظيمها والخدمة مع رجاله عليها أثناء الطعام . وممن تولى هذا المنصب علىّ بن الطباخ الذى نشأ بمصر وسهر على خدمة السلطان الناصر محمد أثناء مقامه بالكرك . فلما حضر الى مصر سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) سلمه شئون السماط السلطانى وعينه فى وظيفة خوان سلار وظل ابن الطباخ على ذلك سبعاً وثلاثين سنة ، وأثرى من وظيفته لطول مدة توليه إياها . فقد كان يتولى كذلك أمر الأفراح والأعراس التى كانت تعمل فى الدور السلطانية وفى دور الأمراء [٢] .

ومن أظهر معاونى « الخوان سلار » الموظف المعروف باسم « السَّاقى » . وكان يتولى أمر مد السماط الخاص بالسلطان وتقطيع اللحم وسقى الشراب بعد الانتهاء من الأكل ورفع الخوان . وكانت وظيفته الرئيسية — كما يتضح من الاسم الذى أطلق عليه — سقى الشراب . ولكن الأعمال الأخرى أضيفت الى اختصاصه الأول . ويظهر انه لقب بذلك اللقب لأن سقى الشراب كان آخر عمل يقوم به[٣] .

ويساعد فى رفع الخوان السلطانى موظف يعرف باسم « المُرَقّدار » . وقد سمى بهذا الاسم لأنه — كما يقول القلقشندى — « يتصدى لخدمة مايحوز المطبخ وحفظه . . . (و) لكثرة معاطاته لمرق الطعام عند رفع الخوان ونحو ذلك »[٤] . وقد أشار تاج الدين السبكى إلى آداب الساقى فذكر أمرين : إحداهما انه لايحل له أن يحضر لمخدومه منكر يشربه ، وثانيهما أن يحفظ حقوق مخدومه ويخشى عليه من عدو يضع له فى المشروب مايهلكه »[٥].

ولكل بيت من البيوت السلطانية « مِهْتار »[٦] ، يرأس طائفة غلمان[٧] (أو خدم)

---

(١) هذا الاسم يتركب من كلمتين : الأولى معربة وهى خوان وهو ما يؤكل عليه ، والثانية سلار وهى فارسية ومعناها المقدم ، فيكون الخوان سلار هو « مقدم الخوان » . وكانت العامة إذ ذاك تنطقه « اخوان سلار » . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٧١ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣١٥ . ويقول المقريزى أيضاً (نفس المصدر والجزء والصفحة) أن السلطان شعبان بن الناصر لما صادر سنة ٧٤٦ هـ أموال على بن الطباخ الكثيرة ، وجد فى حوزته خمسا وعشرين داراً تشرف على النيل . راجع أيضا المقريزى (نفس المصدر والجزء ص ١٣١) حيث تجد معلومات أخرى عن ثروة على بن الطباخ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٥٤ . الخالدى : المقصد ص ١٢٤ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤٧٠ .

(٥) السبكى : معيد النعم ص ٥٣ — ٥٤ .

(٦) المهتار : لقبٌ يطلق على كبير كل طائفة من غلمان (أو خدم) البيوت السلطانية . ويتركب من كلمتين : أولاهما مه ومعناها بالفارسية الكبير وتار بمعنى أفعل التفضيل . فيكون المهتار « الاكبر » القلقشندى نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٧٠ .

(٧) مفردها غلام ، والغلام هو الصبي الصغير . ولذلك أطلق هذا اللفظ على من يكلف بالاعمال

البيت الذى يعمل فيه . ويتولى هذه الوظيفة أحيانا اثنان يتناوبان العمل فيما بينهما .

ويرأس مهتار الشراب خاناه طائفة الشراب دارية [١] وهم الغلمان المكلفون بالخدمة فى تلك الدار . أماشد الشراب خاناه [٢] فكان يدير شئون هذا البيت ، ويختار عادة من بين أمراء المئين أوأمراء الطبلخاناه ، وهو المسئول عن الأصناف الواردة الى خزانة الشراب من السكروالفواكه والحلوى والشراب ونحوها .

وكان مهتارالطست خاناه يرأس طائفة « الطست دارية » [٣] و « الرَّخْتَوانية » [٤] . وكان لهاتين الطائفتين خبرة بترتيب الأحمال على ظهور البغال للزينة فى المواكب العظيمة ونحوها . وقد أفتنوا فى ذلك وأظهروا من بديع الصناعة وجمال التنسيق ما كانوا يتباهون به [٥] ، وكان كل واحد من رجال الطست خاناه يلقب بلقب « بابا » وهو لفظ رومى معناه « الأب » . وقد أطلق أولا على مهتار الطست خاناه تعظيما له وإظهاراً لما كان يقوم به من الترفيه عن السلطان بتنظيف ملابسه وتحسين هيئته وهو فى ذلك يشبه الأب الشقيق [٦] .

ويتولى « المهتار » شئون الفراش خاناه ويعهد اليه بتسلم القماش الخاص بصنع الخيام وتهيئة مايختار السلطان استعماله منها أثناء سفره [٧] . ويرأس عدداً من الغلمان يعرفون باسم « الفراشين » عرفوا بالمهارة والدربة فى نصب الخيام وربما تمكن أحدهم من نصب الخيمة بمفرده دون أن يساعده أحد فى ذلك . كما كانوا يقومون بعملية الكنس وفرش البسط ومد الأسمطة داخل الخيام . وكان هذا المهتار يخضع فى تصرفاته للأوامر التى يتلقاها من الاستادار [٨] .

ويشرف على الطبلخاناه موظف يعرف باسم « مهتار الطبلخاناه » ، ويعهد اليه بحفظ آلات

البسيطة لصغره فى النفوس . القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٧١ : قارن استعمال لفظ page فى البلاط فى اللغه الانجليزية .

(١) هذا الاسم يتركب من كلمتين : الأولى شراب وهو ما يشرب من ماء أو نحوه وحذفت منه الألف استثقالا ، والثانى دار فيكون الشرابدار هو حامل الشراب . القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤٦٩ .

(٢) المقصود من كلمة « شد » : الأمين . وبذلك يكون شدالشراب خاناه هوالأمين على بيت الشراب

(٣) يتركب هذا الاسم من كلمتين : الأولى الطست وهو مايغسل فيه . والثانية دار ومعناها ممسك. فيكون المعنى « حامل الطست » .

(٤) نسبة إلى « رختوان » : ويتركب من كلمتين : الأولى فارسية وهى الرخت وهو اسم للقماش والثانية وان ويقصد بها ياء النسب . فيكون الرختوان هو المتولى لأمر القماش .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١١ و ج ٥ ص ٤٦٩ — ٤٧١ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧٠ .

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧٠ . الخالدى : المقصد ص ١٣٠ .

(٨) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٦ . Demombynes : Le La Syrie, p. III.

الضرب والاشراف على المطبلين والزمارين والمنقرين وغيرهم . وكان عدد مهاترة الطبلخاناه اثنين وقد يصل عددهم الى ثلاثة [١] . ويرأس المهتار أعضاء فرقة الموسيقى السلطانية ومن بينهم الدنبذار ويختص بالضرب على الطبل والمُنَقِّر ويضرب بالنقارات [٢] والكوسى ويضرب بالكوسات [٣]

ويتولى « أمير عَلَم » أمر الأعلام فى الطبلخاناه السلطانية ، ويختار من طبقة أمير عشرة ، ويشترط فيه أن يكون حسن الوجه رضى الخلق [٤] . ويقف أمير علم فى الطبلخاناه بالقلعة فى كل ليلة وقت الضرب ويشرف عليها فى أثناء السفر [٥] .

ويقوم « المَهْمَنْدار »[٦] باستقبال السفراء والعربان الذين يفدون على السلطان ، وينزل كلا منهم فى المكان اللائق بمركزه فى دار الضيافة ، ويعين من يقوم على خدمته ، ويرتب لهم مايحتاجون اليه ولا يمكن أحداً من الاجتماع بهم إلا بأمر السلطان ، كما يشرف على الخدم الذين يعهد اليهم بخدمة هؤلاء السفراء ويعمل على توفير أسباب الراحة لهم [٧] .

وإذا أهدى أحد السفراء الى المهمندار هدية قبلها منه بعد أن يستأذن السلطان فى ذلك [٨] . وكان يختار من أمراء العشرات على حين كان يختار فى عهد الدولة الفاطمية من أرباب العمائم ويعرف باسم « نائب صاحب الباب » [٩] .

---

(١) الخالدى ; المقصد ص ١٣٠ .

(٢) النقارات : جمع نقارة وهى من الآلات الملكية المختصة بالمواكب العظيمة وكانت تحمل فى ركاب السلاطين إلى الحرب فتستخدم فى اصدار الأوامر . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٥ ،
Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٣) الكوسات : هى صنوج نحاس يدق بأحداها على الأخرى بتوقيع خاص مرتين فى القلعة كل ليلة ثم يدار بها فى جنباتها مرتين مرة بعد العشاء وأخرى قبل التسبيح . وإذا كان السلطان مسافراً تدور الكوسات حول خيامه . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٩ — ١٣ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ و ج ٥ ص ٤٥٦ .

Demombynes : La Syrie, p. LXIII.

(٥) قضى على نظام الطبلخاناه فى مصر بعد الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ م .

Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 248.

(٦) المهمندار : يتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين احداهما مهمن ومعناها الضيف والثانية دار ، فيكون المهمندار هو ممسك الضيف أى المكلف بخدمة الضيف والسهر على راحته . القلقشندى ؛ نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ و ج ٥ ص ٤٥٩ . الخالدى : المقصد ص ١٢٨ .

(٧) المقريزى : الخطط ج ٥ ص ٤٦٣ . السبكى : معيد النعم ص ٣٥ — ٣٦ .

(٨) كان احمد المهمندار فى بلاط الناصر محمد بن قلاوون، ممن أغدق عليهم أحد ملوك السودان، الهدايا حين زار بلاط الناصر ، فان الأخير منح المهندار عطايا كثيرة منها سبائك من ذهب . انظر
Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 146.

(٩) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨٤ .

وقد أتى القلقشندى بوصف شامل عن طريقة استقبال السفراء الذين كانوا يفدون على مصر فى مهمات رسمية من قبل الملوك وعن كيفية نزولهم فى دار الضيافة ومقامهم فيها ، وكيف كانوا يمثلون بين يدى السلطان لعرض مامعهم من الكتب عليه . قال : « وقد جرت العادة أنه اذا وصل رسول من ملك من الملوك الى أطراف مملكته كاتب نائب تلك الجهة السلطان وعرفه بوفوده واستأذنه فى أشخاصه اليه . فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره فيحضر فاذا وقع الشعور بحضوره فان كان مرسله ذا مكانة عظيمة من الملوك : كأحد القانات من ملوك الشرق خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقائه وأنزل بقصور السلطان بالميدان الذى يلعب فيه بالكرة وهو أعلى منازل الرسل ، وان كان دون ذلك تلقاه المهمندار واستأذن عليه الدوادار وأنزله دار الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر رتبته . ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بايوانه وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ويحضر ذلك الرسل وصحبته الكتاب الواردين (وصحتها الواردون) معه فيقبل الأرض ويتناول الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه الرسول ثم يدفعه الى السلطان فيفضه ويدفعه إلى كاتب السر فيقرأه على السلطان ويأمر فيه بأمره[١] .

ويشرف « الزمام دار[٢] » على شئون الحريم السلطانى ، ويعتبر رئيس الخدم والخصيان المكلفين بالاشراف على ستارة السلطان ، ويتولى أمر زواج الخوندات[٣] والمعتقات[٤] ويختار من بين أمراء الطبلخاناه ، ويرأس عدد كبيراً من الموظفين ينفذون أوامره فيما يوكل اليهم من المهمات[٥] وأول من أنشأ هذه الوظيفة السلاجقة[٦] .

أما الاصطبلات السلطانية . فكان يديرها موظف يسمى « أمير آخُور »[٧] وكانت وظيفته من الوظائف الكبرى فى القصر السلطانى ، لما كان للفروسية من المقام الأول فى حياة المماليك .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) الزمام دار : تحريف من الزنان دار ، يتركب من كلمتين إحداهما زنان ومعناه النساء وثانيهما دار ، فيكون المعنى ممسك النساء . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٥٩ .

(٣) لعلها من الفارسية « خوند » بمعنى « سيد » أو « أمير » .
F. Steingass : Persian-English Dictionary : p. 489.

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٢٧ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٢١ .Demombynes : La Syrie, p. LIX

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٥ .

(٧) يتركب هذا اللفظ من كلمتين : أولاهما « أمير » والثانية « آخور » . وهى كلمة فارسية معناها المذود أو المعلف . وبذلك يكون أمير آخور هو أمير المذود الذى يأكل فيه الخيل أو أمير المعلف أى المتولى لأمور الدواب ، ومن أهمها المعلف . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٦١ .
راجع ماجاء عن تطور هذه الوظيفة فى : Van Berchem : Corpus, Egypt I. p. 301.
واقرأ نص وصية أمير آخور فى العمرى : التعريف ص ٩٩ — ١٠١ .

وهى من الوظائف التى أنشأها السلطان الظاهر بيبرس ، ولم تكن معروفة قبل عهده . وكان المغول يطلقون على من يتقلد تلك الوظيفة اسم «آق طاشى[١] » ويختار أمير آخور من بين أمراء المئين ويتخذ مسكنه فى الاصطبل السلطانى وكان يسمى أولا « أمير آخور » . ولما ارتفعت مرتبة وظيفته أضيف اليه « الكبير » وهو مقدم الف وأصبح له أعوان : أمير آخور الثانى ثم أمير آخور ثالث وهكذا حتى بلغوا أربعين [٢] .

ويلى « أمير آخور » فى الرتبة « السّراخور »[٣] ويتولى أمر علف الدواب من الخيل وغيرها وكانت الغلال التى يصرف منها ما يلزم للاصطبلات والمناخات السلطانية تحفظ فى « الأهراء السلطانية » وهى الأماكن التى تخزن بها الغلال[٤] .

ويعاون أمير آخور عدد كبير من الموظفين من مرتبة أمراء العشرات والجند ، وصلوا أحيانا إلى ثمانمائة موظف ، منهم أوجاقية (أو أوشاقية) الخاص به وكان عددهم ستة عشر شخصاً ، يصحب اثنان منهم السلطان عند خروجه فى المواكب ، ويركب كل منهما فرساً أشهب برقبة [٥] وعدة ويلبس قباء أصفر من حرير مطرز ومزركش[٦] . ويقوم المهمرد[٧] بحفظ قماش الجمال والخيل والسقائين ونحوهم . ويرأس مهتار الركاب خاناه طائفة الركاب دارية[٨] والسواس والغلمان .[٩]

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٣٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨ .

Wiet : Histoire de la Nation Egyrptienne, tome IV (L'EgypteArabe), p. 396

(٣) هذا اللفظ يتركب من كلمتين : سرا ومعناها الكبير وآخور ومعناه العلف . فيكون السراخور هو كبير العلف أى كبير الموظفين الذين يشرفون على علف الدواب . ويطلق عليه اسم « سراخورى » أو « سلاخورى » . القلقشندى . نفس المصدر جـ ٥ ص ٢٤٦ .

Lane—Poole : The Art of the Saracens p. 30

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٣ .

(٥) الرقبة — هى رقبة من أطلس أصفر مزركش بالذهب بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها » وتوضع على رقبة الفرس تحت أذنيه إلى نهاية عرفه . القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٨ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٨ .

(٧) هذا اللفظ يتركب من كلمتين فارسيتين : مه وهى الكبير ومرد وهى الرجل . فيكون المهمرد هو الرجل الكبير . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٧١ .

(٨) يتركب هذا الاسم من كلمتين : أولاهما ركاب ومعناه الغاشية (وهى السرج) والثانية دار فيكون الركاب دار هو حامل السرج . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٧ . Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٩) وكان يطلق على الركاب دارية فى عهد الفاطميين اسم « الركابة » أو « صبيان الركاب الخاص » . القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨٠ .

وقد ذكر ابن شاهين وظائف الاصطبلات السلطانية. وهى على العموم تعطينا صورة واضحة عن هذه الوظائف فى ذلك العهد ، لأن هذا المؤرخ وان كان قد توفى فى سنة ٨٧٣ هـ إلا أنه قد نسب ماذكره إلى عصر تقدم عصره . فقال : « أما بقية مايتعلق بالاصطبل من الوظائف : فالأوجاقية كانوا قديما جملة مستكثرة ، قل كانوا ثمانمائة نفر ومنهم أوجاقية الخاص ستة عشر نفراً ، والسلاخورية ، وسواق البريد والشحن الذى على المناخات ، والجمالة ، والنقرية ، والعرب الذين يركبون السايرات (كذا) كان عدتهم ثلاثمائة نفر ، الخاص منهم ثلاثون نفراً والسواس . وسواس الخاص والهجانة الذين يتعلق بهم الهجن كان عدتهم أيضاً قديماً ثلاثمائة نفر ومكارية البغال والدشارية والبياطرة ، والسقاءون ، والخول وغير ذلك مما يطول شرحه والمتكلم عن ذلك جميعه : أمير آخور الكبير » [١] .

الحرس السلطانى :

وكان للسلطان مماليك خاصة ، به تقيم معه فى القلعة ، أطلق عليهم اسم « المماليك السلطانية » وقد وصف القلقشندى هذه الطائفة من المماليك بأنها كانت عند السلطان « أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعا ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة » [٢] وأهم طوائف المماليك السلطانية « الخاصكيه » وهم الذين يختارهم السلطان من المماليك الذين تولى تربيتهم منذ الطفولة [٣] . وإنما عرفوا بذلك الاسم لأنهم كانوا يلازمون السلطان فى خلواته وأوقات فراغه وينالون من خيره وعطاياه ما لا يناله أكابر الأمراء المقدمين . فقد ذكر المقريزى أنه كان « لخاصة السلطان المقربين إنعام من الانعامات كالعقارات والأبنية الضخمة التى ربما انفق على بعضها زيادة على مائة ألف دينار . ووقع هذا فى الأيام الناصرية مرارا ، ولهم أيضاً كساوى القماش المنوع ، ولهم عند سفرهم إلى الصيد العلوفات والأنزال »[٤]

وقد بلغ عدد الخاصكية فى عهد السلطان الناصر أربعين خاصكياً [٥] ، كانوا يختارون من بين أمراء الخمسات أو أمراء العشرات [٦] ، وفى سجلات جيش المماليك فى عهد سلطنة الناصر الثالثة سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) كانت كلمة « خاصكية » يقصد بها الأمراء الكبار والصغار

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ١٢٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٥ .

(٣) Demombynes : La Syrie, p. XXX III, XCIX.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٥) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢١٥ — ٢١٦ .
وقد بلغ عدد الخاصكية فى عصر الفاطميين قرابة خمسمائة كان يطلق عليهم اسم « صبيان الخاص »
القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٧ .

(٦) Demombynes. La Syrie, p. XXX III.

من مختلف الرتب[١]. وكان لهذه الطائفة آداب مرعية وتقاليد خاصة يتميزون بها عن غيرهم. فانهم كانوا إذا التحقوا بخدمة القصر وقف كل منهم فى مكانه المعين له دون أن يسمح له ولا لأحد من المماليك أن يحدث زميله بكلمة واحدة فى أى أمر من الأمور ولا يلتفت اليه، كما كان محرماً عليهم أن يجتمع كل منهم بالآخر فى الرحلات أو الصيد، وإذا بلغ السلطان عن أحدهم أنه فعل ذلك دون استئذانه أمر بنفيه أو القبض عليه [٢].

وكان الخاصكية يظلون معظم النهار وجانباً من الليل فى خدمة القصر السلطانى. ومن هنا جاءت تسمية رئيس المماليك السلطانية جميعاً — ومنهم الخاصكية — باسم « رأس نَوْبة »، إذ كان المفروض أن مماليك السلطان يسهرون بالتناوب على راحته. وكلما انقضت نوبة جماعة منهم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم. ويتشاغل أصحاب النوبة الأولى عن النوم بالقراءة فى المصاحف أو لعب الشطرنج أو تناول الطعام حتى يأتى ميعاد نوبتهم مرة أخرى [٣]. لذلك بلغت درجة قربهم من السلطان مبلغاً كبيراً حتى أنهم كانوا يدخلون عليه بدون استئذان. وصار رأس نوبة أول من يدخل على السلطان فى النهار ليعرض عليه الأمور الخاصة بالمماليك، ومن اختصاص هذا الموظف الكبير الاشراف على مماليك السلطان والفصل فى خصوماتهم وعقاب من يهمل منهم فى واجباته أو يقصرفيها، ويقبض على من يأمره السلطان بالقبض عليه منهم. ويرجعون اليه فى كل أمورهم، وهو الواسطة بينهم وبين السلطان. وقد بلغ من تكريم السلطان لهذا الموظف الكبير أنه كان يخاطبه « الجناب العالى الكريم » بل كان يسميه أحيانا « الأخ » [٤]. وقد جرت العادة أن يتقلد وظيفة رأس نوبه أربعة أمراء، يختار أحدهم من أمراء المئين والثلاثة من أمراء الطبلخانات [٥].

وقد عرفت وظيفة رأس نوبة فى مصر فى عهد الأيوبيين [٦]. ولكنها لم تدخل على نظام الحكم فى دولة المماليك إلا فى عهد السلطان الظاهر بيبرس، ويظهر انه أدخله على النحو الذى كانت عليه عند التتار، فقد كانت هذه الوظيفة من أكبر وظائف الحاشية فى قصورهم.

---

(١) Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3.

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٦.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥. الخالدى : المقصد من ١٢٥—١٢٦.

(٤) Lane-Poole : The Art of the saracens, p. 3.

ولعل استعمال هذا اللفظ يشير الى بعد نظام المماليك عن نظرية الحق الالهى وقربه من النظام الجمهورى، الذى يجعل ارئيس، الأول بين نظراء له : Primus inter pares.

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٠. ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٤.
Demombynes : La Syrie, p. LV.

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٨.

ويطلق على من يليها عندهم « يسقول » (١) .

وكانت وظيفة « مقدم المماليك » قريبة الشبه بوظيفة « رأس نوبة » إذ كان القائم بتلك الوظيفة ينظر فى تربية المماليك السلطانية تربية عسكرية والحكم بينهم والفصل فى أمورهم (٢) . وكان يختار عادة من أمراء الطبلخاناه . ويعاونه فى عمله نائب برتبة أمير عشرة ، يقوم مقامه عند غيبته ، كما كان له أتباع يفصلون فى بعض الخصومات بأمره (٣) .

* * *

هذا هو الحرس السلطانى داخل القصر . أما خارج القصر فقد كان لهذا الحرس أهمية خاصة فى المواكب السلطانية التى كانت من أظهر ما يتميز به ذلك العصر ، اذ تعددت تلك المواكب حتى شملت موكب السلطنة والاحتفال بجبر الخليج وصلاة الجمعة والعيدين ولعب الكرة والخروج الى سرياقوس والسرحات أىّ الصيد الذى كان يخرج له السلطان سبع مرات فى فصل الربيع .

أما موكب السلطنة فقد ظل سلاطين مصر من المماليك بعد بيبرس يتبعون نفس النظام الذى كان يتبع عند اعتلاء كل منهم العرش وتقليد الخليفة لهم أمور البلاد . وفى ذلك الموكب كان يركب السلطان والخليفة والوزير والأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة إلى خيمة تقام خارج باب النصر وهناك يلبس الخليفة السلطان خلعة السلطنة . ويعود السلطان بموكبه بعد ذلك الى القاهرة لابساً تلك الخلعة ، ومخترقاً طريقاً مفروشاً بالبسط ، يمتد من باب النصر إلى القلعة .

وفى عهد أولاد الناصر أدخلت تعديلات جوهرية على نظام موكب السلطنة وأصبح أكثر روعة وبهجة ، فضلا عما أحيط به من مظاهر الفخامة والأبهة . وفى المقريزى وصف شائق لهذا الموكب ، حيث يقول : « كانت العادة أنه اذا تولى السلطنة أحد من أولاد الناصر

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٥

ولما استحدثت وظيفة الأمير الكبير « فى عهد السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد صار رأس نوبة من مرتبة هذا الأمير . والأمير الكبير هو أكبر الأمراء وأعظمهم وأقربهم إلى السلطان . وكان يستشيره فى مهام الأمور ويأخذ برأيه (السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥ . الخالدى . المقصد ص ٢٢٤) . وكان يلى الأمير الكبير فى المرتبة : أمير سلاح . أمير مجلس . الدوادار الكبير . أمير آخور الكبير . أمير نوبة النواب . أمير حاجب الحجاب . الخازندار الكبير . أمير الحاج . وكان هؤلاء كلهم من مقدمى الالوف . انظر دائرة المعارف الاسلامية ، مادة الأمير الكبير .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٦ Demombynes : La Syire p. LXII.

(٣) القلقشندى : نفس المصدر . ج ٤ ص ٢١ . الخالدى : المقصد ص ١٣٧ .
Van Berchem : Corpus , Egypte I. pp. 250, 310.

محمد بن قلاوون فانه عند توليته يحضر الأمراء الى داره ، وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء ومن تحتها فرجية خضراء وعمامة سوداء مدورة ويقلد بالسيف العربى ويركب فرس النوبة ويسير الأمراء بين يديه والغاشية قدامه والجاويشية تصيح والشبابة السلطانية ينفخ بها والطبردارية حواليه ، إلى أن يعبر من باب النحاس إلى درج الديوان المعروف بدار العدل ، فينزل عن الفرس ويصعد الى التخت فيجلس عليه ويقبّل الأمراء الأرض بين يديه . ثم يتقدمون إليه ويقبّلون يده على قدر رتبهم ثم مقدمى الحلقة . فاذا فرغوا حضر القضاة والخليفة فتفاض التشاريف على الخليفة ويجلس مع السلطان على التخت ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء »(١) .

وهنا يجب أن يلاحظ أن السلطان الناصر كان آخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخلافة والتقليد من سلاطين مصر . وكان أول من ركب بها منهم السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، ولم يركب بها من سلاطين المماليك أحد قبل بيبرس(٢) .

أما هيئة السلطان فى « الركوب لكسر الخليج » . فسنقتصر فى وصفها على بيان الحرس السلطانى وأنواع الأدوات التى كان يخرج ويعود بها فى مثل هذا الموكب . يقول القلقشندى : «واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج ، ولم تجر العادة بركوبه فيه بمظلة ولا رقبة فرس ولا غاشية ولا ما فى معنى ذلك . بل يقتصر على السناجق والطبردارية والجاويشية ونحو ذلك . ويركب من القلعة عند طلوع صاحب المقياس بالوفاء فى أى وقت كان ويتوجه الى المقياس فيدخله من بابه ويمد هناك سماطاً يأكل من معه من الأمراء » (٣) .

أما صلاة العيدين وهيئة السلطان فيها فقد وصفها القلقشندى بقوله : « وأما صلاة العيدين ، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من منفذه من الاصطبل إلى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيه دهليز على أكمل ما يكون من الهيئة ، ويحضر خطيب جامع القلعة الى الميدان فيصلى به العيد ويخطب . فاذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والأمراء والمماليك يمشون حوله ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، والغاشية محمولة أمامه ، والجتر وهو المظلة محمول على رأسه مع أحد كبار الأمراء المقدمين وهو راكب فرساً الى جانبه ، والأوشاقيان الجفتة راكبان أمامه ، وخلفه الجنائب وأرباب الوظائف من السلاح دارية كلهم خلفه ، والطبردارية أمامه مشاة بأيديهم الأطبار . ويطلع من باب الاصطبل

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٩ . يلاحظ أن الألفاظ الغريبة فى هذه العبارة مثل : فرس النوبة ، والجاويشية ، والشبابة ، والطبردارية ، جاء تفسيرها فى موضعها من الكتاب .
لمعرفة تفاصيل حفلات « تخليق المقياس وفتح الخليج »

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨ . الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٣) صبح الاعشى جـ ٤ ص ٤٧ — ٤٨ . انظر كذلك خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٧٠ و ٤٨٩ — ٤٩٣ .
لمعرفة تفاصيل حفلات « تخليق المقياس وفتح الخليج »

ويطلع الى الايوان الكبير . ويمد السماط ويخلع على حامل الجتر وأمير سلاح والاستادار والجاشنكير وجماعة من أرباب الوظائف ممن لهم خدمة فى مهم العيد كنواب استادار وصغار الجاشنكيرية وناظر البيوت ونحوهم»[١].

وكان السلطان يخرج للعب الكرة «على الهيئة المذكورة فى العيد . ما عدا الجتر فانه لا يحمل على رأسه ، وتحمل الغاشية أمامه فى أول الطريق وآخره ، ويصير الى الميدان»[٢].

ووصف المقريزى «رسوم السلطان فى خروجه الى سرياقوس وغيرها من الأسفار» فقال ان السلطان كان فى مثل تلك الحالات «لا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة . بل يكون الشعار فى موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن . وأما هو نفسه فانه ركب ومعه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص وجملة من خواص مماليكه ولا يركب فى السير برقبة ولا بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه . ويقصد فى الغالب تأخر النزول إلى الليل ، فاذا جاء الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل . فاذا قارب مخيمه تلقى بشموع موكبيه فى شمعدانات كفت وصاحت الجاويشية بين يديه ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فانهم وراءه والوشاقية أيضاً وراءه ، وتمشى الطبردارية حوله حتى [يصل] القصور بسرقاقوس أو الدهليز من المخيم . . . فاذا نام السلطان طافت به المماليك دائرة بعد دائرة وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهليز فى كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر فى كل ليلة مرتين : الأولى منذ يأوى الى النوم والثانية عند قعوده من النوم . وكل زفة يدور بها أمير جاندار وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم»[٣].

بذلك كان لكل من هذه المواكب نظام خاص وترتيب معين . فقد كان يخرج فى معية السلطان أعيان الدولة وكبار موظفيها ويسير خلفه كثير من المماليك السلطانية ، ويصحبه الخاصكية مرتدين الثياب المزركشة ومتمنطقين بالسيوف اللامعة مما كان يكسب تلك المواكب جلالا وأبهة .

وكان السلطان يظهر فى تلك المواكب بأنواع مختلفة من الملابس ، كانت تعرف فى مصطلح عصر المماليك بشعائر السلطنة . وكان للملابس السلطانية موظفون يختارون للسلطان الملابس المناسبة له فى المواكب والحفلات ومنهم الجمدار[٤] والبشمقدار[٥]. وكان أولهما

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٦ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٤٧ .

(٣) الخطط جـ ٢ ص ٢٠٠ .

(٤) أصل هذه الكلمة جامادار فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالا وقيل جدار . ويتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين أولاهما جاما ومعناها الثوب أو البقجة والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون المعنى : حامل البقجه أو الثوب . القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٥٩ .

(٥) يتركب هذا الاسم من لفظين : أحدهما تركى وهو بشمق ومعناه النعل والثانى فارسى وهو دار =

يعين من أمراء الطبلخاناه (١) ويقوم على أمر الملابس والثانى يحمل نعل السلطان . وكانت الجمدارية أقل فى المرتبة من الخاصكية (٢) ، ويتولى وظيفة البشمقدار رجلان يتناوبان العمل بينهما فى المواكب السلطانية (٣).

ويتألف الحرس السلطانى فى تلك المواكب من فئات مختلفه ، على رأس كل منها أمير يحافظ على شخص السلطان فى أثناء خروجه فى المواكب . ومن هؤلاء الموظفين : أمير طبر ، والجمقدار ، والسنجقدار ، والعلم دار ، والركاب دار ، والمحفدار ، والجوكان دار ، وصاحب المظلة .

واذا خرج السلطان فى المواكب سار فى ركابه أمير يحمل الطبر ، ويسمى «أمير طبر» وهو رئيس طائفة الطبردارية (٤) ، التى بلغ عددها عشرة ، عليهم أمير برتبة أمير عشرة (٥) ، وكانوا ينتخبون من أبناء الجند ومهمتهم مرافقة السلطان والاحاطة به لحمايته فى أثناء تجواله فى أنحاء المملكة .

وفى المواكب السلطانية يسير الجمقدار (٦) على يمين السلطان يحمل دبوسا (massue) ، له رأس ضخم . ويتجه نظره إلى السلطان من أول خروج الموكب إلى نهايته . ويشترط فيه أن يكون مهيباً حسن الشكل ضخم الجسم (٧) .

وهناك طائفة من الموظفين كانوا يقومون بحمل السناجق والأعلام على رأس السلطان فى المواكب : فيحمل السنجقدار (٨) ورجاله السناجق وهى رايات صفر صغار . ويحمل

= فيكون البشمقدار هو حامل النعل . وكان هذا الاسم يحرف أحيانا إلى بصمقدار على اعتبار أن بشمق وبصمق معناهما فى اللغة التركية واحد وهو النعل . ولكن كان الشائع فى دولة المماليك كلمة البشمقدار . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٩ .

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢٤ .

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٤
Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 31.

(٣) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٤) يتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين : أولاهما طبر ومعناها البلطة hâche ، والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون طبردار هو حامل البلطة . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٨ . السبكى : معيد النعم ص ٥٠ . Demombynes : La Syrie, p. LXIII.

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ . Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 31.

(٦) لفظ الجمقدار مركب من كلمتين : أولاهما تركية وهى جمق ومعناها الدبوس ، والثانية فارسية وهى دار ومعناها ممسك . فيكون الجمقدار حامل الدبوس Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٧) الخالدى : المقصد ص ١٢٣ .

(٨) يتركب هذا اللفظ من كلمتين : أولاهما السنجق وهو لفظ تركى يطلق فى الاصل على الرمح =

العلم دار[١] العلم وهو راية مصنوعة من الحرير الأصفر مطرزة بالذهب وعليها ألقاب السلطان واسمه، ويطلق عليها اسم العصابة، ويختار عادة من بين أمراء الخمسات. ويحمل الرِّكاب دار الغاشية وهى «سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب» توضع على ظهر الفرس فوق البرذعة، ويلفتها الركاب دار يميناً وشمالا. وكان يطلق على الركاب دارية فى عهد الفاطميين اسم «الرِّكابية» أو «صبيانَ الركاب الخاص»[٢].

ويتولى أمر المحفة السلطانية فى المواكب المِحَفَّدار[٣] ومهمته استجلاب الآلات والأقمشة اللازمة لتلك المحفة[٤].

وإذا خرج السلطان فى موكب لعب الكرة خرج معه الجُوكان دار[٥] يحمل له الجوكان وهو المحجن الذى تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضاً. والجوكان عصى مدهونة طولها نحواً من أربعة أذرع، برأسها خشبة مخروطة محدودبة تزيد عن نصف ذراع. وهى لعبة البولو Polo الحالية.

وكان صاحب المظلة[٦] يحمل مظلة السلطان أثناء سيره فى الموكب. ويعبر عن المظلة بالجتر

= والمراد به هنا الراية التى تربط به والثانية دار فيكون السنجقدار حامل الراية. القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ ، ج ٥ ص ٤٥٨ . الخالدى: المقصد ص ١٢٩ .

(١) يتركب هذا اللفظ من كلمتين: أولاهما العلم وهو لفظ فارسى معناه الراية، والثانية دار. فيكون العلم دار هو حامل العلم. القلقشندى: نفس المصدر ج ٤ ص ٨ و ج ٥ ص ٤٥٦ و ٤٦٣ .

(٢) القلقشندى: نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨٠ .

(٣) هذا الاسم يتركب من كلمتين: أولاهما محفة وحذفت منها التاء استثقالا ومعناها الهودج والثانية دار ومعناها ممسك. فيكون المحفدار هو الذى يمسك مقود الجمل الذى يحمل المحفة. القلقشندى: نفس المصدر ج ٥ ص ٤٧٠ .

(٤) الخالدى: المقصد ص ١٣٠ .

(٥) هذا الاسم يتركب من كلمتين فارسيتين: أولاهما الجوكان (المحجن أو الصولجان) والثانية دار ومعناها ممسك، فيكون الجوكان دار هو حامل الجوكان. ويطلق عليه العامة اسم الجكندار بحذف الواو بعد الجيم والألف بعد الكاف. القلقشندى: نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٨ . الخالدى: المقصد ص ١٢٩
Lane-Poole : The art of the Saracens, p. 31.

(٦) جاء فى تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية. وترجم كترمير Quatremère المظلة بكلمة parasol ، ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات. ولكن الأفضل استعمال لفظ Umbrella الدال على المظلات التى يستعملها الرجال لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة. الدكتور حسن ابراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ص ٢٣٥ .

راجع فى معنى مظلة وجتر: صبح الأعشى للقلقشندى ج ٣ ص ٤٦٣ و ج ٤ ص ٧ و ٨ وكتاب السلوك للمقريزى ج ١ فى المواضع المذكورة أمام جتر فى فهرس الألفاظ الأصطلاحية وأسماء الدواوين عمل الدكتور زيادة وكتاب الصين وفنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن ص ٢ والتصوير عند العرب لتيمور باشا (ونشره وعلق عليه الدكتور زكى حسن) ص ٦٤ ، ٨٥ ، ١٩٥ و =

وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر مصنوع من فضة مطلية بالذهب ، وتوضع على رأس السلطان عند خروجه فى المواكب لصلاة العيدين . وقد استحدثت هذه الوظيفة فى مصر منذ عهد الدولة الفاطمية(١). وكان لا يتولاها عندهم إلا كبار الأمراء ، لأنه يعهد إلى من يتقلدها فى « حمل ما يعلو رأس الخليفة »(٢) .

أما إذا خرج السلطان للصيد ، فتصحبه جماعة خاصة على رأسها « أمير شِكار »(٣) . وعمله الاشراف على الجوارح السلطانية والعناية بأمرها ، فضلا عن سائر أمور الصيد ، ويعين من أمراء المئين ثم صار يختار من أمراء الطبلخاناه(٤) .

ويشرف أمير شكار على طائفة البَازْدَارِيّة والحَوَنْدَارِيّة . والبازدار(٥) هو الذى يحمل جوارح الطير المعدة للصيد على يده . والباز أهم الطيور الضارية التى كان العرب يستخدمونها فى صيدهم(٦) . أما الحون دار فهو الذى يكلف بخدمة طيور الصيد ويحملها إلى المكان الذى تدرب فيه وأصلها « حيوان دار »(٧) .

وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد ، وهى حِرَاسة الطَّيْر . ويشرف صاحبها على حراسة الطيور فى الأماكن والمزارع التى يقصدها السلطان للصيد(٨). ويراقب الطيور التى يقوم السلطان بصيدها حتى تستقر فى مكان تألفه ، وعندئذ يحظر على الناس القرب منها أو التعرض لها . وكان لذلك يعرف باسم «حارس الطير» أو «كَاشِفْ الطير» ويختار من بين أمراء العشرات(٩).

F. Steingass : Persian — English Dictionary.

Quatremère. : Histoire des Mongols de la Perse, pp. 206 et seq.

R.L.Devonshire : An Egyptian Mameluke Feature in a persian Miniature

فى مجلة Apollo (ج ١٤ عدد ٨٣ نوفبر ١٩٣١)

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٩ .

(٣) شكار : لفظ فارسى معناه الصيد . فيكون المراد « أمير الصيد » . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦١ . السبكى : معيد النعم ص ٥٢ .

Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 31. Demombynes : La Syrie. p. L X III.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ . الخالدى : المقصد ص ١٢٨ .

Zaki Hassan : Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages, pp. 14-15

(٥) هذا الاسم يتركب من كلمتين أولاهما الباز وهو أحد أنواع الطيور الجوارح ومعناها ممسك . فيكون البازدار هو حامل الطير الجارح .

(٦) راجع : L. Mercier : La chasse et les sports chez les Arabes, pp. 81—104.

Zaky M. Hassan : Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages, pp. 12—13.

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢ .

(٩) الخالدى : المقصد ص ١٢٨ Demombynes : La Syrie. p. L X III.

ويحمل البُنْدُقْدَار[1] جراوة البندق خلف السلطان عند خروجه للصيد ، ويقوم بهذا العمل شخصان فى بعض الأحيان[2] .

وكان الناصر من أشهر سلاطين المماليك تعلقا بالصيد . ويعرف المكان الذى كان يجتمع فيه مع هواة الصيد باسم « الشِّكارخاناه » ، وبه عدد وافر من جوارح الطير . وكانت أماكن الصيد عبارة عن أحواش عديدة منتشرة فى أنحاء الديار المصرية ويشتمل كل منها على عدة شباك وصيادين . وقد عرف الصيادون بالمهارة حتى انهم كانوا يجذبون فى الضربة الواحدة ثمانمائة بطة ، وبلغ طول الشّباك أحياناً مائة وعشرين ذراعاً . ولم يكن جذبها بالأمر اليسير حتى لقد كان يقوم بهذا الأمر عددٌ لا يقل عن ستة عشر شخصاً[3] .

* * *

ومن استعراض أسماء وظائف البلاط والحاشية التى ذكرناها ، نرى أن معظمها مشتق من كلمات فارسية ، وهذا يدلنا على أنها قد أخذت عن العباسيين الذين نقلوها عن الفرس كما نعلم . ويقول القلقشندى : « والوظائف منقولة عنها الى هذه المملكة إما مضاهاة كما فى الدولة الفاطمية على قلة ، وإما تبعاً كما فى الدولة الأيوبية »[4]. كذلك نقلت بعض هذه الوظائف عن السلاجقة الذين كان يمتد حكمهم إلى إيران أيضا[5] . واقتبس البعض الآخر عن التتار مثل وظيفة رأس نوبة وكان من يليها عندهم يطلق عليه اسم « يسول »[6] .

ولم يكن جميع شاغلى هذه الوظائف من طبقة الأمراء كما قد يتبادر الى الذهن ، بل كان بعضها لا يشترط فيه لقب الامارة . وبعضها كان يتقلده موظفون من غير طبقه الأمراء . وكانت الوظائف التى يشترط فى شاغليها أن يكونوا من أمراء المئين هى : حاجب الحجاب ، أمير مجلس ، أمير خازندار الكبير ، أمير آخور الكبير . أما أمراء الطبلخانات فكانوا يشغلون وظائف : أمير جاندار ، الحاجب الثانى ، أمير شكار ، رأس نوبة الثانى ، شاد الشراب خاناه ، الخازندار الثانى . أمير آخور الثانى . وأما أمراء العشرينات والعشرات فكانوا يشغلون وظائف الحاجب الثالث ، رأس نوبة الثالث ، استادار الصحبة . أمير آخور الثالث .

أما الوظائف التى كان يشغلها رجال من طبقة الأمراء أو من غير هذه الطبقة فمنهم :

---

(١) يتركب هذا الاسم من كلمتين فارسيتين : أحدهما بندق ومفردها بندقية ، والثانية دار ومعناها ممسك . فيكون البندقدار هو حامل البندقية . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٨ .

(٢) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٣) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٥٣ .

(٥) راجع الصفحات المذكورة أمام مادة Seljoukide فى الـ Corpus .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١٥ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٨٩ .



قطع من الفخار المطلى بالميناء الصفراء عليها رنوك من عصر المماليك .
محفوظة بدار الآثار العربية فى القاهرة .

المهمندار . كما كانت هناك وظائف يشغلها موظفون من غير طبقة الأمراء وهى : أمير علم ، كاشف الطير ، شاد السواقى .

وكانت للأمراء أصحاب الوظائف أشعرة خاصة : فشعار الدوادار (السكرتير) ، المقلمة . والطست دار (المشرف على المخازن) والسلاح دار (حامل السلاح) ، السيف . والبندقدار ، السهم . والأمير آخور (أمير المعلف أو المتولى الاشراف على الاصطبلات) ، حدوة الفرس . والجمدار (المتولى امور الملابس) ، بقجة . والجاويش (أحد أربعة من جنود الحلقة ووظيفتهم السير أمام السلطان أو النائب فى مواكبه للنداء وتنبيه المارة) ، قبة مذهبة . والساقى (متولى السقاية والاشراف على الموائد) ، كأس . والجوكندار ، عصا البولو . والجاشنكير (ذائق الطعام) ، خونجة (أى منضدة) . والعلم دار (المتولى أمر أعلام السلطان) ، علم . والطبل دار ، الطبلة والعصا . والبشمقدار (حامل الأحذية) ، الحذاء . والجقدار (حامل الدبوس) ، الدبوس . والبريدى ، دائرة ذات ثلاث شطف [١].

وهذه الوظائف — برغم كثرتها — أكسبت بلاط السلاطين رونقا وبهاء وعظمة أكثر مما كانت عليه الحال قبل اعتلائهم عرش السلطنه . كما أن هذه الكثرة الملحوظة فى عدد تلك الوظائف كان لها أكبر الأثر فى تخفيف حدة الأحقاد التى كانت نيرانها تتأجج فى نفوس كبار المماليك بين آن وآخر من أجل السلطة والنفوذ ومكنتهم من إبقاء عدد كبير من الأتباع فى خدمتهم وضمنوا بذلك نصرتهم لهم فى شدتهم ورضاهم عن حكمهم .

---

(١) انظر مقالة « الرنوك المملوكية » بمجلة المقتطف ، العدد الخامس من المجلد الثامن والتسعين (مايو سنة ١٩٤١) ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .

الباب الثامن

الخلافة العبَّاسية فى القاهرة

الخلفاء العباسيون فى مصر ، والسلاطين المعاصرون لهم :

(٦٥٩ — ٧٨٤ هـ ١٢٦١ — ١٣٨٢ م)

السنوات	سلاطين المماليك	الخلفاء العباسيون
٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م	المعز أيبك	المستعصم
٦٥٥ هـ = ١٢٥٧ م	المنصور نور الدين على	
٦٥٧ هـ = ١٢٥٧ م	المظفر سيف الدين قُطُز	
٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م	الظاهر بيبرس	
٦٥٩ هـ = ٢٢٦١ م		المستنصر بالله أبو القاسم أحمد
٦٦٠ هـ = ١٢٦٢ م		
٦٦١ هـ = ١٢٦٣ م		الحاكم بأمر الله أبو العباسى أحمد
٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م		
٦٦٩ هـ = ١٢٧١ م		
٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م	السعيد بركة خان	
٦٧٨ هـ = ١٢٧٩ م	العادل بدر الدين سلامش	
	المنصور سيف الدين قلاون	
٦٨٩ هـ = ١٢٩٠ م	الأشرف صلاح الدين خليل	
٦٩٣ هـ = ١٢٩٤ م	الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الأولى]	
٦٩٤ هـ = ١٢٩٤ م	العادل زين الدين كتبغا	
٦٩٦ هـ = ١٢٩٦ م	المنصور حسام الدين لاچين	
٦٩٨ هـ = ١٢٩٩ م	الناصر محمد [سلطنته الثانية]	
٧٠١ هـ = ١٣٠٢ م		المستكفى بالله أبو الربيع سليمان
٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م	بيبرس الجاشنكير	

السنوات	سلاطين المماليك	الخلفاء العباسيون
٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م	الناصر محمد [سلطنته الثالثة]	
٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م		
٧٢٧ هـ = ١٣٢٠ م		
٧٤٠ هـ = ١٣٣٩-١٣٤٠م		الواثق بأمر الله
		الحاكم بأمر الله أبو العباس احمد بن المستكفى
٧٤١ هـ = ١٣٤٠-١٣٤١م	المنصور سيف الدين أبو بكر	
٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م	الأشرف علاء الدين كجك	
٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م	الناصر شهاب الدين أحمد	
٧٤٣ هـ = ١٣٤٢ م	الصالح عماد الدين اسماعيل	
٧٤٦ هـ = ١٣٤٥ م	الكامل سيف الدين شعبان	
٧٤٧ هـ = ١٣٤٦ م	المظفر زين الدين حاجى	
٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م	الناصر حسن [سلطنته الأولى]	
٧٤٩ هـ = ١٣٤٨ م		
٧٥٢ هـ = ١٣٥١ م	صلاح الدين صالح	
٧٥٣ هـ = ١٣٥٢ م		المعتضد بالله أبو الفتح أبو بكر المستكفى
٧٥٥ هـ = ١٣٥٤ م	الناصر حسن (سلطنته الثانية)	
٧٦٢ هـ = ١٣٦١ م	المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى	
٧٦٣ هـ = ١٢٦٢ م		المتوكل على الله أبو عبد الله محمد
٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م	الأشرف زين الدين شعبان	
٧٧١ هـ = ١٩٦٩-١٣٧٠م		
٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ م	المنصور علاء الدين علىّ	
٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م		
٧٨٠ هـ = ١٣٧٨ م		
٧٨٢ هـ = ١٣٨١ م	الصالح زين الدين حاجى	

الخلافة العباسية فى القاهرة الى أن اعتلى الناصر محمد العرش :

خدم بيبرس السلطنة المملوكية خدمة لا مثيل لها عند ما أقام الخلافة العباسية بالقاهرة سنة ٦٥٩ ﻫ ، إذ أصبحت مصر مقر الخلافة ومركز الرآسة العامة على المسلمين ، وأفادت السلطنة المملوكية من ذلك المركز فائدتين هما : أن سلاطين المماليك من بيبرس فصاعداً ظهروا أمام العالم الإسلامى حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء . وأن السلطنة المملوكية كسبت شرعية ما كانت لتكسبها من أى مصدر آخر .

والسلطان الظاهر بيبرس — على الرغم من أنه كان أول من نجح فى اجتذاب الخلفاء العباسيين إلى القاهرة — لم يكن أول من فكر فى هذا ، فقد حاول ذلك قبله بعض ولاة مصر الاسلامية كأحمد بن طولون الذى أراد فى سنة ٢٦٩ ﻫ (٨٨٢م) أن يكسب حكمه صفة شرعية باجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر هرباً من الموفق الذى كانت له السلطة العليا فى الجيش والحكومة والذى اغتصب السلطان حتى لم يبق للخليفة منه شىء . وطبيعى أن وجود الخليفة فى وادى النيل كان من شأنه أن يزيد نفوذ ابن طولون . ولو نجح هذا المشروع لتغير إلى حد كبير مستقبل الخلافة ومستقبل مصر . ولكن المعتمد لم يفلح فى الهرب إلى مصر إذ قبض عليه عيون أخيه الموفق وأرجعوه إلى عاصمته شبه سجين[١]. كذلك فكر محمد بن طغج الأخشيد حين ذهب إلى الشام سنة ٣٣٣ﻫ (٩٤٤م) لإنجاد الخليفة المتقى من جور الحمدانيين بالموصل ، واستبداد الأتراك الذين تنازعوا على الاستئثار بالسلطة فى بغداد[٢].

وعمد السلطان قطز إلى تحقيق هذه الفكرة نفسها سنة ٦٥٧ ﻫ . فانه لما قدم إلى دمشق بعد انتصاره على التتر فى واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ ﻫ ، أخبره الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً يدعى أبا العباس أحمد[٣] قد وصل أخيراً إلى دمشق، فقال له قطز: «إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله»[٤] ويقال إن قطز بايع هذا العباسى بالفعل وهو فى دمشق[٥]. وفى هذا كله ما يدل على سبق هذا السلطان إلى فكرة نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة[٦].

---

(١) زكى حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ١٨ — ١٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : Relations between Egypt and the Caliphate, pp. 9—10, 15. Extract from the Bulletin al-'Ulùm, Cairo, jan. Febr., 1940.

(٣) اختفى هذا الأمير فى أثناء هجوم التتر على بغداد ، ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بنى خفاجة ، ثم ذهب إلى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٤) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٩٣ . ابن ايبك : كنز الدر ج ٨ القسم الثالث ص ٧٦.

(٥) السيوطى : نفس المصدر ص ٣١٨ .

(٦) يقال ان الملك الناصر يوسف صاحب دمشق أراد إحياء الخلافة العباسية قبل أن يفكر قطز فى ذلك ، فانه ما كاد يعلم من الأمير عيسى بن مهنا أن أميرا عباسيا (وهو أبو العباس احمد) قدم الى =

ثم آلت سلطنة مصر بعد قطز إلى السلطان الظاهر بيبرس ، فأخذ فى السنة التالية من توليته عرش مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية إلى مكانتها الأولى وعلى أن يكون مقرها القاهرة .

وقد اضطر بيبرس إلى التعجيل باحياء الخلافة بمصر ، ليجعل منها سنداً للسلطنة المملوكية . ومهما قيل فيما نالته هذه السلطنة من توفيق فى الحوادث الداخلية والخارجية ، فقد كانت لا تزال بحاجة إلى دعامة قوية تجعلها مهيبة الجانب . ولا غرو فقد كان الأيوبيون فى مصر والشام يعملون للاستيلاء على مصر ، كما أن التتار . على الرغم مما أحرزه قطز من الانتصارات الباهرة عليهم ، كانوا لا يزالون يهددونها بالغزو . والصليبيون يدأبون على مناوأتها والعمل على طرد المماليك منها . أضف إلى ذلك أن البلاد الشامية كانت أشبه بعدة ممالك يتنازعها الصليبيون والتتار الذين احتلوا جزءاً عظيما منها .

لذلك لا نعجب إذا رأينا بيبرس يعمد إلى إحاطة عرشه بسياج من الحماية الروحية ، يقيه شر أعدائه من الصليبيين والتتار ، وشر الطامعين فى ملك مصر من أمراء الشام ، ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك بمصر . الذين أيقنوا أن الوصول إلى العرش لا يأتى إلا عن طريق الدسيسة والغدر .

هذا إلى أن بيبرس كان يرمى من وراء احياء الخلافة العباسية بمصر إلى هذا الغرض ، وهو أن تنظر إليه الشعوب الاسلامية الأخرى نظرة حامى الاسلام[١] ، كما رأى أن إقامة خليفة من السنيين من شأنه أن يؤدى حتما إلى القضاء على هذه المحاولات التى بذلها الشيعيون لاعادة الخلافة الفاطمية قبل أن يستفحل خطرها[٢] . كذلك رأى أن وجود الخليفة العباسى فى القاهرة ، وهو مصدر السلطات فى العالم الإسلامى كله ، يجعل « سلطان » المماليك فى مرتبة أعلى من سلاطين البلاد الإسلامية الأخرى ، بل لا يحق لهؤلاء الحكام بعدئذ أن يتخذوا لقب سلطان ، لأن هذا اللقب إنما منح لبيبرس من الخليفة ، الذى يُعد فى نظرهم ظل الله فى الأرض.[٣]

ولم يكن غرض بيبرس من إحياء الخلافة فى مصر دينياً فحسب . بل كان يرمى من وراء ذلك أيضاً إلى بسط سلطانه بمعاونة الخليفة العباسى وتأييده ، على البلاد المجاورة لمصر[٤] ، وبخاصة بلاد الحجاز ليقوى بذلك مقام مصر الأدبى فى نظر المسلمين حتى يرفرف لواؤها على الحرمين الشريفين ، وليؤمن حدود مصر الشرقية ويمدها إلى نهر الفرات[٥] .

= دمشق حتى أرسل يستدعيه . غير أنه فوجىء بقدوم التتار ، فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا . السيوطى : نفس المصدر ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(١) Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, pp. 264—265.

(٢) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 14—15.

(٣) Arnold : The Caliphate. p. 99.

(٤) حسن ابراهيم حسن : Relations between Egypt and The Caliphate.

(٥) Wiet : Précis de l' Histoire d' Egypte, tome II. p. 250 .

فى سنة ٦٥٩ ﻫ (١٢٦٠ م) استدعى بيبرس الأمير أبا العباس أحمد الذى كان قطز بايعه فى دمشق[1]. غير أنه لم يحضر ، وسبقه الأمير أبو القاسم أحمد إلى القاهرة ، بعد فراره من وجه التتار المتغلبين على بغداد . فقد ذكر المقريزى أنه نزل بالعراق ثم رحل إلى دمشق ، فكتب إلى بيبرس الأميران علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق وعلاء الدين أيدكين البندقدار كتاباً يذكران فيه أن رجلا وصل إلى دمشق يدعى أنه أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الامام الناصر العباسى ومعه جماعة من عرب خفاجة . فكتب إليهما السلطان يوصيهما به خيراً كما « كتب إلى النواب بالقيام فى خدمته (كذا) وتعظيم حرمته ، وأن يسير معه حجاب من دمشق »[2].

وصل أبو القاسم أحمد[3] إلى القاهرة فى ٨ رجب سنة ٦٥٩ﻫ فأعد السلطان العدة لاستقباله ، وخرج للقائه . ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حِنا وقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر والعلماء والمؤذنون والشهود واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الانجيل ، وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته . ولما وقع نظر الظاهر بيبرس على هذا الأمير العباسى ترجل إجلالا وتقدم فعانقه . ثم ركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس [4] . وركب معه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى

---

(١) ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٢١٨) أن هذا سار فى جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار ، وانتصر على التتار ، ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشق ليذهب إلى الملك الظاهر ، غير أنه امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن أميراً عباسيا آخر قدم اليها ورجع الى حلب ، فبايعه صاحبها شمس الدين البرلى .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص٤٤٧ .

(٣) هو الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى ، وهو عم الخليفة المستعصم ، وأخو المستنصر . وقد لقبه العامة باسم الزرواتيقى (تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص٢١٣ . كتاب المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٨) . كما عرف كذلك باسم الزرابينى (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٢) . ولقبه ابن أبى الفضائل (النهج السديد ص ١٥٠) باسم « المستنصر بالله الاسود » . وقد وصف المقريزى (نفس المصدر والجزء ص ٤٥١) وابن اياس (بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٠) هذا الخليفة بالسمره . ولعل كل ذلك هو الذى رجح لدى الدكتور زيادة (مقالته المنشورة بمجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع ، الجزء الاول ص ٨٦) أن يكون المقصود من لفظ الزرواتيقى أو الزرابينى هو اللفظ العامى « زربون » المستعمل فى مصر للدلالة على الشخص الاسود .

(٤) شعار العباسيين هو السواد . وقد أوضح القلقشندى (صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٠) السبب فى اتخاذ العباسيين السواد شعاراً لهم ، فقال إن النبى صلى الله عليه وسلم « فى يوم حنين ويوم الفتح عقد لعمه العباس رضى الله عنه راية سوداء . وقيل أيضاً إن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حين أراد قتل ابراهيم الامام بن محمد العباسى قال لشيعته : لا يهولنكم قتلى ، فاذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العباس (السفاح) . فلما قتله مروان لبس شيعته عليه السواد فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم » . =

القلعة(١). وهنا « تأدب السلطان الظاهر ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسى »(٢) بحضرة الخليفة

وفى يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) عقد الظاهر بيبرس مجلسا فى قاعة الأعمدة بالقلعة دعا اليه القضاة والعلماء والأمراء، وشيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام وسائر أرباب الدولة . والعرب الذين قدموا الى مصر مع أبى القاسم احمد (٣) ، وذلك : « لاثبات نسبه وتقرير بيعته ، لأن الخلافة قد شغرت منذ مقتل المستعصم بالله . فسُر السلطان باتصال أسبابها وتجديد أثوابها وإقامة منارها وإظهار شعارها ، لتكون ثابتة الأساس متصلة فى بنى العباس . كما سبقت الوعود النبوية بأنها تالدة خالدة فى هذه الذرية » (٤) .

ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس بين يدى الامام أبى القاسم احمد ، واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد ، « وسئلوا عنه فى ذلك المجلس : هل هذا هو الامام احمد بن أمير المؤمنين الظاهر محمد بن الناصر احمد ؟ فأجابوا بنعم . وشهد جماعة بالاستفاضة عند القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز بذلك » . فأقر ذلك أيضا بعض الفقهاء والقضاة ، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة (٥) . ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس وبايعه « على كتاب الله وسنة رسول الله . والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ الأموال بحقها ، وصرفها فى مستحقها » (٦) . وبايعه بعد السلطان شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء ، وكبار رجال الدولة . ثم الناس على اختلاف طبقاتهم وتلقب أبو القاسم احمد بلقب « الخليفة المستنصر بالله » (٧) .

= انظر كتاب السيادة العربية والتشيع والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٢٤ — ٢٢٦ .

(١) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ القسم الأول ص ٦٣ . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٤٩

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٦٠٥ .

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٩ .

(٥) أجمع المؤرخون على نسبة الخليفة المستنصر بالله إلى الخلفاء العباسيين ، فلم يشك فى انتمائه إلى بنى العباس : بيبرس الدوادار (نفس المصدر جـ ٩ ورقة ١٩ — ٢٠) والنويرى (نهاية الأرب جـ ٢٨ القسم الاول ص ١٨ — ٢٠) والمقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ — ٣٠٢ . كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٤٩ — ٤٥٠) وأبو المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١٠) والسيوطى (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤٤ وتاريخ الخلفاء ص ٣١٧) وابن اياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠١) والخالدى : المقصد ص ٥٥ . غير أن أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢١٢ — ٢١٣) لم يقطع بصحة هذا النسب حين ذكر « أنه [فى سنة ٦٥٩ هـ] قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد وزعموا أنه الامام الظاهر ابن الامام الناصر » :

(٦) بيبرس الدوادار : نفس المصدر جـ ٩ ورقة ٢٠ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٥٠ .

(٧) يعد الخليفة المستنصر بالله الثامن والثلاثين من خلفاء بنى العباس ، وصار بينه وبين العباس =

ولما تمت البيعة قلد الخليفة المستنصر بالله السلطان « الملك الظاهر البلاد الاسلامية ، وما ينضاف اليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار (١) » وكتب السطان الى النواب والحكام فى سائر الولايات التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله ، والدعاء له فى خطبة الجمعة على المنابر ، والدعاء للسلطان من بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما . ثم دعاه السلطان ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة . فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء ، وخطب الخليفة أبو القاسم احمد خطبة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى رد الخلافة الى بنى العباس استهلها « بقراءة سورة الأنعام ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وترضى عن الصحابة وذكر بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر » (٢) فامتدح الناس خطبة الخليفة ، وزادت عناية السلطان به .

وفى ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وكبار رجال الدولة إلى خيمة أقيمت خارج القاهرة ، وهناك ألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة ، وهى : عمامة سوداء مذهبة مزركشة (٣) ، وجبة حرير سوداء(٤) ، ودُرّاعة بنفسجية اللون (٥) ، وطوق ذهب ، وقيد من ذهب وضع فى رجليه ، وسيف(٦) ، ولواءان منشوران على رأسه ، وسهمان كبيران ، وترس ، وقُدِّم له فرس أشهب (٧) ، فى عنقه مشدة (٨) سوداء ، وعليه كنبوش (٩) أسود . وعلى أثر ذلك عقد

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠١ .

(٣) كان أول من لبس العمامة السوداء النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم لبسها جماعة من الصحابة ، وتبعهم الخلفاء العباسيون . وهى عبارة عن عمامة مدورة ، من حرير ، بعدبة قدر ذراع ، ترسل بين الكتفين . القلقشندى . صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٦ . الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٤) كان أول من لبس هذه الجبة من الصحابة عبد الله بن العباس ، وتوارث الخلفاء العباسيون لبسها .

(٥) الذراعة : جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من صوف .

(٦) قدم الخليفة للملك الظاهر عدة سيوف تقلد واحداً منها ، وحمل الباقى وراءه . وهو سيف ينسب تجميله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يتقلده من أعلى كتفه الأيمن كالعرب . وأول من تقلده بعصر الملك الظاهر بيبرس . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٥٢ . الخالدى : المقصد ص ١٢٢ .

(٧) هذا الفرس هو الذى عرف باسم فرس النوبة ، وصار تقديم مثله منذ ذلك الحين لكل سلطان جديد قاعدة اطردت فى عصر المماليك .

(٨) الشد عند العامة شال من الحرير يعتم به أو يتمنطق . والمشدة مرادفة للفظ الرقبة . وكون المشدة سوداء راجع إلى رغبة السلطان بيبرس فى احياء شعائر العباسيين وهو السواد . الدكتور زيادة .

(٩) الكنبوش : البرذعة تجعل تحت سرج الفرس ، يقابلها لفظ housse الفرنسى وهو غاشية الفرس . الدكتور زيادة .

اجتماع تلا فيه فخر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الانشاء — تفويض الخليفة العباسى للملك الظاهر بيبرس [١] ، وذلك تقوية لعرشه على أعدائه من أمراء المماليك . واثباتاً لأحقية المماليك فى تولى شئون مصر . وسنرى أن الخليفة قد تصور نفسه فى هذا التفويض حاكما على أراض لم تحكمها الدول العباسية منذ قرون . بل ادعى لنفسه السيادة الشرعية على العالم الاسلامى ، مع أنه لم يكن له بيت مال يعتمد على موارده . ولا تحت تصرفه جيش ينفذ أوامره ويحقق رغباته . كما أنه تدخل — وهو غريب عن المماليك — فى الأمور الادارية التى هى من اختصاص الحكومة المصريه القائمة على أساس النظام البيروقراطى [٢] .

ولما فرغ فخر الدين بن لقمان من قراءة هذا التفويض سار السلطان وعليه الخلعة[٣] ، يتقدم موكب السلطنه ، عائداً الى القاهرة حتى وصل إلى باب النصر ، ثم سار فى طريق مفروش بالبسط يمتد من باب النصر إلى القلعة . ومر بشوارع القاهرة الرئيسية ؛ وتقدم السلطان الموكب ، وتلاه الخليفة ، فالوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه . وتبعهم الأمراء وسائر الناس مشاة . وقد سادت ذلك الموكب مظاهر الابتهاج والانشراح ، واصطف الناس على جانبى الطريق يكبرون ويهتفون ، « وضجّ الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يخلعها خلع الرضا إلى أن خرج من باب زويلة ، وسار الى القلعة . فكان يوماً مشهوداً تقصر الألسنة عن وصفه [٤] » .

وإن دعاء الشعب للسلطان بخلود أيامه وإعزاز نصره ، وهذه الخلعة التى قال عنها بيبرس الدوادار أنها « خلعت من العداة قلوبهم »[٥] ليدلنا على أن هذه الخلعة التى أفيضت على الظاهر بيبرس قد ساعدت إلى حد بعيد على تثبيته على عرش السلطنة ، وباعدت بين العدو الطامح وبين تحقيق آماله فى الوصول إلى العرش ، بل كان لها فى نفوس عامة الشعب تأثير روحى . وهذا كله قد ساعد على إخماد الاضطرابات وتسكين الفتن التى نوى أمراء هذا العصر القيام بها فى حكم بيبرس ، وكتم الأحقاد التى كانت تغلى بها صدورهم كالمرجل .

كذلك كان لأنواع الملابس التى ظهر بها الخليفة فى الموكب أثر بالغ فى محبة الشعب

(١) اقرأ نص هذا التفويض فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١١٢ — ١١٦ .

(٢) Arnold ; The Caliphate. p. 94.

(٣) كان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول من ركب من سلاطين مصر بخلعة الخليفة . وكان الظاهر بيبرس أول من ركب بها من سلاطين المماليك . كما كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون آخر من ركب بشعار السلطنة وخلعة الخليفة والتقليد عند رجوعه الى القاهرة من بلاد الشام بعد فرار السلطان لاجين من الديار المصرية سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨) . المقريزى . الخطط جـ ٢ ص ١٠٧ — ١٠٨ . انظر أيضا الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٤) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٥٧ .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٥ ورقة ٢٤ .

لشخص بيبرس والالتفاف حول عرشه . فقد ظهر الخليفة المستنصر بالله فى ذلك اليوم لابساً البردة[١]، وعلى رأسه عمامة ، وكان حاملا القضيب[٢].

وبعد أن خرج الموكب من باب زويلة ، سمح للأمراء بالركوب ، واستمر الموكب فى سيره حتى وصل إلى القلعة . وهناك جلس بيبرس على عرش ملكه[٣]. ثم أمر بالاحتفاء بهذا اليوم الميمون فمد سماط[٤] فخم جلس إليه الأمراء والقادة وسائر رجالات الدولة . وهكذا تمت مراسيم اعتلاء بيبرس عرش السلطنة المصرية بصفة رسمية ، تؤيدها الصفة الشرعية التى نالها من قبل الخليفة ، فأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه فى الداخل والخارج وازدهرت الخلافة العباسية فى مصر ، بعد أن قضى عليها سنة ٦٥٦ ﻫ . وباحيائها أحاط بيبرس عرشه بسياج من القداسة والتبجيل .

عزم السلطان بعد ذلك على إعادة الخليفة إلى بغداد . ولم يتضح تماما الغرض الذى كان يرمى إليه هذا السلطان من ذلك . فذكر بعض المؤرخين أن ذلك كان « قصداً منه فى تقرير ما تغير من القواعد وإعادة الأحوال بدار السلام وممالك الاسلام على العوايد »[٥]. وذكر البعض الآخر أن بيبرس قد شك فى قيمة ما أقدم عليه من الترحيب بأحد أبناء البيت العباسى فى عاصمة ملكه وإقامة خلافة عباسية فى مصر[٦].

---

(١) البردة : هى بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، التى اعتاد الخلفاء لبسها فى المواكب . وهى شملة مخططة ، وقيل كساء أسود مربع فيه صغر . وقد اختلف فى وصولها إلى الخلفاء : فقيل إن النبى قد وهبها لكعب بن زهير حين امتدحه بقصيدته التى أولها : بانت سعاد ، ثم اشتراها معاوية بن أبى سفيان منه أو من ورثته بعشرين ألف دينار . وقيل إن النبى أعطاها أهل أيلة أماناً لهم ، فأخذها منهم عبد الله ابن خالد بن أوفى عامل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على أيلة ، وبعث بها إليه ، فظلت فى خزائنه حتى آلت إلى أبى العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسيه . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٩ .

(٢) بقى القضيب والبردة عند خلفاء بنى العباس ببغداد إلى أن انتزعها السلطان سَنْجَر السلجوقى من الخليفة المسترشد بالله ، ثم أعادهما إلى المقتفى بالله عند توليته الخلافة سنة ٥٣٥ ﻫ ، فاحتفظ بهما من جاء بعده من خلفاء بنى العباس حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ ﻫ . القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٠ . Demombynes : La Syrie, p. XXI.

(٣) عرش الملك أو سرير الملك هو من رسوم الملك وآلاته ، متخذ من رخام . وأول من اتخذ ذلك فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان ، ثم اتخذه من جاء بعده من خلفاء بنى أمية وبنى العباس . وصار مكانه فى عهد المماليك بقلعة الجبل بالإيوان ، وبلغ ارتفاعه سبعة أذرع . القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٦ . الخالدى : المقصد ص ١٢٢ .

(٤) السماط هو المائدة الملكية . انظر وصف الأسمطة السلطانية على النحو الذى كانت عليه زمن المماليك فى المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٢١٠) .

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٢٦ .

(٦) Arnold : The Caliphate, p. 94.

وكان بيبرس قد عزم على أن يرسل مع الخليفة عشرة آلاف فارس ويجهزه بالمال والسلاح، لمعاونته فى إعادة الخلافة العباسية وإقامة نفسه خليفة فى بغداد. وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق، غير أن أحد أمراء الموصل أسر إلى السلطان أن يعدل عن هذا الرأى وقال له : « إن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر »[1]. فخاف بيبرس عاقبة هذا الأمر ، ولم يجهز الخليفة إلا بثلثمائة فارس سار على رأسهم إلى بلدة الرحبة الواقعة على نهر الفرات ، حيث انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق الذين لجأ إليهم عقب هربه من بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم ، وتقدم الخليفة إلى مشهد على، حيث التقى بأبى العباس أحمد يقود سبعمائة فارس من التركمان ، فاتفقا معاً على إعادة الخلافة العباسية فى بغداد ، واتجها نحو الحديثة الواقعة على نهر الفرات يريدان هيت حيث أحاطت بهم جنود التتار وهزموهم وقتلوا معظمهم ، ولم ينج منهم سوى الأمير أبى العباس أحمد ونحو الخمسين فارساً[2]. أما الخليفه أبو القاسم أحمد فلم يقفوا له على أثر .

وصل بيبرس الى مصر فى ١٧ ذى القعدة سنة ٦٥٩ هـ ، فلما علم بمقتل الخليفة المستنصر بالله تأسف غاية الأسف ، لأن ما بذله فى سبيل اقامة خلافة عباسية فى القاهرة « قد راح فى البارد » على حد تعبير ابن اياس[3]. وحزن بيبرس على مقتل الخليفة إذ لم يستفد من ارساله لاسترداد بغداد سوى ضياع الأموال التى بذلها فى سبيل إعداد هذه الحملة والتى قدرها كل من ابن الوردى وأبى الفداء بنحو مليون دينار[4]. كما أن بيبرس بقتل هـذا الخليفة قد فقد الأمل فى استمرار قيام خلافة عباسية فى مصر ، تجعل سلطانه وسلطان خلفائه شرعيا. ولكن سرعان ما تبددت همومه وسنحت له الفرصة باحياء الخلافة العباسيه فى مصر فى شخص أبى العباس احمد الذى كان قد بايعه قطز فى دمشق واستدعاه بيبرس عند جلوسه على العرش. ولكن أبا القاسم احمد كان قد سبقه الى مصر كما تقدم .

شَهِد أبو العباس أحمد[5] موقعة هِيت التى قُتِل فيها الخليفة المستنصر بالله وقصد بعد ذلك عيسى بن مهنا ، فكاتب الظاهر بيبرس فى شأنه ، فأمر السلطان بارساله إلى القاهرة . « فلما كان الثانى من المحرم من هذه السنة (٦٦١ هـ = ١٢٦٢ م) أحضره السلطان ليقرر له الامامة ويبايعه على الخلافة ، بحكم وفاة المستنصر بالله شهيدا بسيوف التتار ، قتيلا بأيدى الكفار ،

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ القسم الثالث ص ٧١ — ٧٥ . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٥٨ الخالدى : المقصد ص ٥٦ .

(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٢ وهذه العبارة تدلنا على أن بيبرس كان جادا فى إحياء الخلافة العباسية فى مصر ، وأنه كان فى نيته استمرارها . ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٤) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢١٣ .

(٥) أورد السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨ ترجمة دقيقة لأبى العباس احمد .

فلم يرد أن يبقى منصب الخلافة شاغراً وفوها فاغرا »[١]. وأحضر السلطان أبا العباس أحمد راكبا إلى الايوان الكبير بقلعة الجبل ، حيث أجلسه ، وجلس بجانبه ، وقرىء نسبه[٢] — بحضور القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة — بعد ما ثبتت صحة هذا النسب لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الذى بايعه من فوره . ثم بايعه السلطان على العمل بكتاب الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الى آخر الصيغة التى ذكرت فى بيعة الخليفة ابى القاسم أحمد المستنصر بالله . فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد وجعل اليه تدبير الخلق وإقامة قسيمة فى القيام بالحق وفوّض إليه سائر الأمور وعدق به صلاح الجمهور »[٣]. بعد ذلك بايعه الوزير ، فالأعيان ، فالناس على اختلاف طبقاتهم ، ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين[٤]. ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها[٥] وأن يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه ورتّب له ما يكفيه كل يوم هو وأولاده[٦]. وفى يوم الجمعة ١٠ المحرم سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) خطب الخليفة وصلى بالناس بالقلعة ، ثم ألقى خطبة ثانية[٧]. وفى الخطبتين ذكر الجهاد والامامة وتعرّض إلى ما حدث من زوال الخلافة العباسية وفضل الظاهر بيبرس فى إقامتها بعد زوالها .

على أنه يظهر لنا أن السلطان الظاهر بيبرس بدأ يفكر فى تلك الآونة فى استمرار قيام الخلافة العباسية بمصر ، إذ أنه لم يفكر بعد مبايعة الحاكم بأمر الله فى إعادة الخلافة العباسية فى

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٥ .

(٢) أورد بيبرس الدوادار (نفس المصدر جـ ٩ ورقة ٣٥) سلسلة نسب أبى العباس كاملة إلى عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . أما العمرى (مسالك الأبصار جـ ١٦ القسم الثالث ص ٦٠٨ — ٦٠٩) وأبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢١٥) فقد أوضحا انه كان هناك اختلاف فى نسبه حيث قالا : فالذى هو مشهور بمصر عند نسابة مصر انه احمد بن حسن بن ابى بكر ابن الأمير ابى على القبى ابن الأمير حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر . وأما عند الشرفاء العباسيين السلمانيين فى درج نسبهم الثابت فقالوا هو احمد بن ابى بكر على بن ابى بكر احمد ابن الامام المسترشد الفضل بن المستظهر .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤١٠ . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٧٧ .

(٤) كان عمر بن الخطاب أول من تلقب بهذا اللقب لما فيه من معنى السلطتين الحربية والادارية . ومعنى ذلك اللقب أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة وأن الخليفة قد صار أميرا لهذه القوة . لأن « الأمير » عند العرب فى الجاهلية كان يقصد به « قائد الجيش » . وكان الخلفاء العباسيون فى مصر يلقبون بلقب « إمام » و « أمير المؤمنين » .

(٥) خطب للحاكم بأمر الله فيما بعد على منابر دمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٢ .

(٧) اقرأ نص الخطبتين الأولى والثانية فى ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤١٠ — ٤١١

بغداد كما فعل مع سلفه المستنصر بالله . هذا إلى أنه رحب بجماعة من مماليك الخليفة المستعصم كانوا قد فروا إلى الحجاز من وجه التتر وببعض شيوخ عرب العراق ، وكانوا قد كاتبوا بيبرس يستأذنونه فى الحضور إلى مصر فسمح لهم . وإن رغبة هذه الطوائف فى الاقامة بمصر تبين لنا بأجلى بيان أن العباسيين كانوا يعدون مصر مكاناً أميناً يلجأون إليه ويتخذونه داراً لاقامتهم .

كما أنه يظهر لنا أنه كان هناك تنافس بين أبناء البيت العباسى الفارين من وجه التتر على الوصول إلى عرش الخلافة ، فقد رأى بعض هؤلاء أنهم أحق بها من الحاكم بأمر الله . يتضح ذلك من قدوم رجلين إلى بيبرس سنة ٦٦٤ ﻫ حين كان ببغداد ، أحدهما ادعى أنه مبارك ابن الخليفة المستعصم ، والثانى ادعى أنه من أولاد الخلفاء ، يريدان بذلك إثبات أحقيتهما فى الخلافة دون الحاكم بأمر الله . وقد أجمع المؤرخون على أن بيبرس قد أرسل هذين الرجلين إلى مصر لبحث هذه الدعوى ، فاتضح له كذبها وأمر بحبسهما [١] .

وبعد أن صار الحاكم خليفة أنزله بيبرس بالبرج الكبير داخل قلعة الجبل [٢] ، موسعاً عليه فى النفقات والكساوى ، يتردد إليه العلمـــاء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الاكرام ، وملاحظة جانب الاجلال والمهابة » [٣] .

وقد قصر بيبرس سلطان هذا الخليفه على الأمور الدينية دون سواها وضيق حدود سلطته حتى جعلها لا تتعدى ذكر اسمه فى الخطبة فى مصر والأقطار التابعة لها [٤] . وقد شملت مدة خلافة الحاكم بأمر الله عهود السلاطين بيبرس وأبنيه بركة خان وسلامش وقلاوون وابنيه خليل والناصر محمد (فى عهد سلطنته الأولى) وكتبغا ولاچين والناصر محمد (فى عهد سلطنته الثانية) ، وظل فى الخلافة حتى توفى سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠١ م) . فكانت مدة خلافته أربعين سنة ، وهو أول من دفن بمصر من الخلفاء العباسيين . وظل الخليفة الحاكم بأمر الله مقيما كالسجين بالبرج الكبير فى قلعة الجبل منذ سنة ٦٦١ ﻫ (١٢٦٢ م) إلى سنة ٦٩٠ ﻫ (١٢٩١ م) أى مدة ثلاثين سنة . وظل لا يجتمع بأحد من أهل الدولة إلى أن أفرج عنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأعاد إليه خطبة الجمعة ، وكان قد حرم حتى من القيام بهذا الواجب [٥] . ثم عهد

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) كنز الدرر ج ٨ القسم الأول ص ٧٥ و ٨٣ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٨ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨ .

(٤) وبذلك قلل بيبرس نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله مع أنه أمر بنقش اسم سلفه الخليفة المستنصر بالله على السكة .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٨٨ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨ .

إليه بالدعوة إلى الحث على قتال التتار واستخلاص بلاد العراق من أيديهم [١] . وفى عهد السلطان لاچين نقل الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٦٩٦ ﻫ من البرج الكبير بالقلعة إلى القصر المعروف باسم « مناظر الكبش » التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حول سنة ٦٤٠ﻫ على جبل يشكر بجوار جامع ابن طولون وأصبحت بعده من المنازل الملوكية . وأذن له بالخروج من القصر للنزهة كيفما شاء ، كما سمح له بأن يخطب يوم الجمعة بجامع القلعة وصار يركب مع السلطان فى المواكب ثم أذن له بالذهاب إلى القلعة مرة فى كل شهر ليهنىء السلطان بحلول الشهر الجديد[٢] .

وقد سار هؤلاء السلاطين إزاء الخليفة الحاكم بأمر الله على خطة السلطان الظاهر بيبرس ، فلم يجعلوا للخليفة شيئاً من السلطة وأصبح كل عمله إسباغ الصبغة الدينية على السلاطين لتوطيد دعائم مُلكهم . واتخذ السلاطين المماليك لقب « قسيم أمير المؤمنين » الذى يشهد بمشاركة السلاطين المماليك فى نفوذ الخلفاء أو بمعنى أوسع باستيلائهم على هذا النفوذ . وجدير بنا فى هذه المناسبة أن نذكر أن صلاح الدين بعد كل أعماله الجليلة فى القضاء على مذهب الشيعة وفى نشر المذهب السنى لم يستطع أن يحصل من الخلافة العباسية فى بغداد — وكان الانحطاط قد دَبّ إليها — إلا على لقب « محيي دولة أمير المؤمنين » [٣] الذى كان الخليفة العباسى فى بغداد يمنحه لبعض سلاطين السلاجقة . وظاهر أن هذا اللقب على ما فيه من عظمة وجلال لا يفيد المشاركة فى شىء .

الخلافة العباسية فى مصر منذ عهد عصر الناصر إلى نهاية الدولة :

فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠١ م) أوصى الخليفة الحاكم بأمر الله — بحضور القضاة — بولاية العهد من بعده لابنه ابى الربيع سليمان ، وتوفى الحاكم بعد ذلك بيومين ، فاستشار السلطان الناصر قاضى القضاة تقى الدين بن دقيق العيد فى أمر توليه سليمان الخلافة بعد أبيه فأفتى بصلاحيته . وعلى أثر ذلك استدعى السلطان أبا الربيع سليمان [٤] إلى القلعة وعقد مجلساً حضره القضاة والأمراء وبايع أبا الربيع بالخلافة ولقبه المستكفى بالله [٥] . وهنا نلاحظ أن الخلافة فى مصر أصبحت منحة يمنحها السلطان لمن يشاء ويصرفها عمن يشاء .

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٨ القسم الثالث ص ١٤٧ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٢

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 88—84

(٤) أورد العينى (عقد الجمان جـ ٢٣ القسم الثانى ص ٣٨) سلسلة نسب الخليفة أبى الربيع سليمان المستكفى بالله ابن الخليفة أبى العباس احمد الحاكم بأمر الله كاملة إلى عبد المطلب بن عبد مناف أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام .

(٥) اقرأ نص هذه البيعة فى السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٤٩ — ٥٠ .

وعقب ذلك أقر الخليفة المستكفى بالله أنه « ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوضه اليه » (١) أى أنه منح السلطان الناصر تفويضاً بحكم البلاد .

ثم أمر السلطان الناصر بأن يقيم المستكفى فى قصر الكبش وبأن يمنح ما كان مقرراً لوالده الحاكم من الرواتب (٢) . كما حدد له اختصاصاته على نحو ما كان متبعاً فى أيام أبيه ، فأمر بأن يخطب له فى الجوامع وأن ينقش اسمه على الدينار والدرهم (٣) . ومن الغريب حقا أن الناصر كان يعلم تمام العلم أن اسم الحاكم لم ينقش قط على السكة مع أن بيبرس منحه هذا الحق ولكن الناصر برغم ذلك رأى إظهار احترامه للخليفة المستكفى بن الحاكم بتقرير تمتعه بهذا الأمر الصورى .

أقام الخليفة المستكفى بالله بمناظر الكبش حتى نقل إلى القلعة فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٨٣٦ هـ (١٣٣٥ م) ومنذ ذلك الحين سكن الخليفة بالقلعة حيث أقام أبوه الحاكم من قبل . ولكن الناصر حد بعد ذلك من حريته « ورسم على الباب جاندار كالنوبة .. ومنع عن الاجتماع بالناس ، كل ذلك لأمر قيل (٤) » . ولتفسير الدافع الذى حدا بالناصر إلى نقل المستكفى بالله إلى القلعة نقول : إن العلاقات بين الناصر والمستكفى كانت قد توطدت إلى حد بعيد حتى سارا معاً لقتال التتار (٥) . وقد اصطحبه السلطان معه لمباركة الجيش والدعوى له بالنصر والتأييد وهو اختصاص منحه السلاطين للخليفة الحاكم بأمر الله وصار بعد ذلك تقليداً اتبع مع من جاء بعده من الخلفاء . ولم تقف علاقات المودة التى سادت بين الناصر والمستكفى عند هذا الحد بل زادت هذه العلاقات وثوقا حتى كان السلطان لا يرى إلا والخليفة معه « كأنهما أخوان » (٦) . وقدتوثقت عرى المودة والصفاء بينهما إلى أن حدث أن الخليفة رفع إلى السلطان « قصة عليها خط الخليفة بأن يحضر السلطان بمجلس الشرع الشريف » (٧) فغضب عند ذلك السلطان وأمر برحيله الى مدينة قوص فى أواخر سنة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥١ .

(٢) كان راتب الخليفة الحاكم بامر الله فى الشهر خمسمائة دينار وثمانى أرادب قمح وثلاثة أرادب شعير وفى كل يوم أربع جرايات خبز وعشرين رطلا من اللحم عدا الكسوة . Zettersteen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢٠٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤٩ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٣ . Zettersteen : نفس المصدر ص ٢٠٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الرابع ص ٢٥٢ .

(٥) السيوطى حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٢ . الخالدى : المقصد ص ٥٦ .

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكره جـ ٩ ورقة ٢٠٩ . المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٠

(٧) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٠ .

٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م [١] وقيل فى سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧ م) [٢] . فوصل إليها هو وأولاده وسائر أفراد أسرته الذين بلغ عددهم نحو مائة نفس . وفى هذا منتهى الدلالة على أن الخليفة العباسى فى مصر كان خاضعاً لأهواء السلطان من رضاً وغضب .

ولكن الناصر على الرغم من غضبه على الخليفة المستكفى ونفيه إياه لم يحرمه الحق الذى تمتع به من سبقه من الخلفاء إذ أمر بأن يخطب له على المنابر وهو مقيم فى قوص كما كان فى القاهرة [٣] . وعلى الرغم من أن الناس كانوا يعتقدون أن بُعد الخليفة عن حاضرة الملك لا يحدث فراغاً محسوسا ، فقد أسفوا لذلك الحادث وحزنوا له [٤] . وتوفى الخليفة المستكفى بمدينة قوص وله من العمر ست وخمسون سنة ونصف .

ولما مات الخليفة المستكفى بالله لم يلتفت الناصر الى ابنه احمد ، وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة من بعده « وثبت عهده على يد قاضى قوص بشهادة أربعين رجلا من العدول » [٥]. وذلك أن الناصر كان يريد تحويل الخلافة إلى عباسى آخر اسمه ابراهيم بن محمد بن المستمسك بن احمد الحاكم بأمر الله ، وجمع لذلك القضاء بدار العدل (رمضان سنة ٧٤٠ هـ = ١٣٣٩ م) . وأمرهم بمبايعته ، ولكنهم رفضوا ذلك لعدم أهليته من جهة ولأن المستكفى قد عهد الى ابنه احمد بشهادة قاضى قوص . ولكن السلطان أمر باحضار ابراهيم ولما رآه وعرفه قبح سيرته فأظهر التوبة منها والتزم سلوك طريق الخير ، فاستدعى السلطان القضاة وعرّفهم أنه قد أقام ابراهيم فى الخلافة . فأخذ قاضى القضاة عز الدين بن جماعة يعرّفه عدم أهليته فلم يلتفت السلطان إليه وقال إنه قد تاب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » [٦] . فبايعه ولقب الواثق .

اضمحل شأن الخلافة فى عهد الواثق وانحطت قيمتها عما كانت عليه . فقد اتصف الخليفة الجديد بسوء التدبير وانصرف الى اللهو واللعب ومخالطة السفهاء من الناس . وكان يستدين المال دون أن يرده الى صاحبه [٧] . ومن العبارة التى وصفه بها السيوطى نستدل على الدرك

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٩٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٢ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥١ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر جـ ١ ص ١٧٠ . Zetterstéen : نفس المصدر ص ٢٢٥ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٦٧ .

(٧) حكم فى بغداد فى نهاية العصر العباسى الاولى الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م) بن المعتصم . ولذا فان السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣٠٥) قد أتى بمقارنة لطيفة بين الخليفتين العباسيين فى بغداد والقاهرة اللذين كان يطلق عليهما هذا الاسم . ومنها نتبين أن هذا المؤرخ قد نزل بالواثق العباسى فى مصر الى الحضيض . يقول السيوطى : « أين هو من صاحب هذا الاسم الذى طالما سرى رعبه فى القلوب وأعيت هيبته مضاجع الجنوب ، وهيهات لاتعد من النسر التماثيل ولا الناموسة وان طال خرطومها كالفيل وإنما سوق الزمان قد ينفق ما كسد والهر يحكى انتفاخا صورة الأسد » .

الذى انحط إليه هذا الخليفة : « أغرى بالقاذورات وفعل مالم تدع اليه الضرورات وعاشر السفلة والأراذل وهان عليه من عرضه ما هو باذل ، وزين له سوء عمله فرآه حسنا وعمى عليه فلم ير مسيئاً الا محسنا وغواه اللعب بالحمام وشرى الكباش للنطاح والديوك للنقار ومثله مما يسقط المروءة ويثلم الوقار . وانضم هذا إلى سوء معاملة ومشترى سلع لا يوفى أثمانها واستئجار دور لا يقوم بأجرها وتحيل على درهم يملأ به كفه وسحت يجمع (هكذا) به فمه وحرام يطعم منه ويطعم حرمه حتى كان عرضة للهوان وأكلة لأهل الأوان »[١] . فلا عجب إذا أطلق عليه بعض المعاصرين اسم « المستعطى » لأنه كان يستعطى من الناس ما ينفقه [٢] .

ويهمنا أن نتتبع اختصاصات هذا الخليفة . فقد عرفنا أن أسلافه من الخلفاء العباسيين فى مصر منحوا حق ذكر أسمائهم فى الخطبة والسكة وإن كان الأمر الثانى ظل صوريا بعد رحيل المستنصر بالله عن مصر ومقتله . إلا أن الواثق قد حرم حتى ذكر اسمه فى الخطبة . ذلك أن السلطان الناصر لما لم يقبل تولية احمد الخلافة اتفق هو وقاضى القضاة على « ترك الخطبة للاثنين » ، واقتصر على اسم السلطان . وبذلك « رحل بموت المستكفى اسم الخلافة عن المنابر كأنه ما علا ذروتها وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومروتها »[٣]

ظل الخليفة الواثق فى منصبه سنة وأربعة أشهر . فلما دنا أجل السلطان الناصر أوصى بتحويل الخلافة إلى أحمد وفق وصية أبيه المستكفى بالله وندم على تولية الواثق بالله ابراهيم . فلما اعتلى أبو بكر بن الناصر عرش السلطنة عقد مجلساً فى ذى الحجة سنة ٧٤١ هـ (١٣٤٠م) حضره الخليفة ابراهيم وأحمد بن المستكفى والقضاة ، وأقر المجلس وصية الناصر . ومنذ ذلك الحين استقرت الخلافة للحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد بن المستكفى .

ولم يعهد الخليفة أحمد بن المستكفى بالله بالخلافة لأحد بعد موته . فأمر الأمير شيخو — وكان يومئذ أتابك العساكر وصاحب السلطة الفعلية فى الدولة فى عهد السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ — ٧٥٣ هـ) — أن يجتمع القضاة والأمراء والأعيان للمشاورة فيمن يلى الخلافة . فوقع اختيارهم على أخى الخليفة أحمد المتوفى واسمه أبو بكر ، فبايعوه[٤]

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٦٧ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧٠ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٤ .

(٤) اختلف المؤرخون فيما إذا كان الخليفة احمد بن المستكفى بالله قد عهد ، قبل وفاته ، بالخلافة لأخيه ، فقال السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣) إن أبا بكر لم يعهد اليه أخوه قبل موته . ولكن السيوطى نفسه (حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٨) قد نفى روايته التى ذكرها فى « تاريخ الخلفاء » وقال إن الخليفة احمد بن المستكفى لم يعهد بالخلافة لأحد .

سنة ٧٥٣ ، ولقب المعتضد بالله ، وكنى أبا الفتح[١] وضم إلى اختصاصاته نظر المشهد النفيسى[٢].

وكان المعتضد بالله « عارفا ، مهاباً (كذا) ، واسع الفكرة ، محباً لأهل الخير والعلم » . وقد ظل خليفة على مصر حتى توفى سنة ٧٦٣ ﻫ (١٣٦١ م) ، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه أبى عبد الله محمد[٣] الذى تلقب « بالمتوكل على الله » . وقد حدث لهذا الخليفة حادث يعد الأول من نوعه فى تاريخ الخلافة العباسية فى مصر ، إذ عرض عليه أمراء مصر أن يضم إلى خلافته عرش السلطنة . ذلك أنه فى سنة ٧٧٨ ﻫ (١٣٧٦ م) سافر السلطان الأشرف شعبان لحج بيت الله الحرام ومعه الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء . وفى الطريق اتحد الأمراء ضد الأشرف وأرادوا الغدر به ، ولكنه عاد خلسة إلى القاهرة . فلم يتمكن الأمراء من تنفيذ ما اعتزموه من قتله . وعلى أثر هربه استقر رأى الأمراء على عرض السلطنة على الخليفة المتوكل على الله ، وقالوا له : « يا أمير المؤمنين ! تسلطن ونحن بين يديك » . فامتنع الخليفة من قبول السلطنة . وقام الأمراء بذلك العرض دون أن يكونوا قد علموا بوصول المنصور علىّ إلى العرش[٤] .

وعلى الرغم من أن هذا الحادث قد عد غريباً ، فان وقوعه لم يكن مستبعداً ، لما اتصف به هذا الخليفة من جميل الصفات وحميد الخلال التى حببته إلى نفوس الشعب والأمراء . وقد وصفه الخالدى[٥] فقال « إنه كان حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، عظيما ، مهاباً تهابه الملوك فمن دونهم ، قوى الحجة والملكة » . ولكن ذلك لم يمنع تحكم الأمراء فى الخلفاء كتحكمهم فى السلاطين ، فقد رأوا أن يخضع الخليفة لمشيئتهم فيمنع التفويض لمن يريدون . فان الأمير يلبغا — الذى كان متصرفاً فى شئون الدولة فى عهد المنصور علاء الدين على بن شعبان بن حسين — اختلف سنة ٧٧٨ ﻫ (١٣٧٦ م) مع السلطان وتحاربا . فعمد يلبغا إلى إقامة سلطان جديد هو أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وطلب إلى الخليفة المتوكل أن يقدم إليه تفويضاً بالسلطنة . ولكن الخليفة امتنع . وهنا كان يصح أن يثنى يلبغا عن عزمه لو أنه كانت لشرعيه عرش المنصور علىّ وتقليد الخليفة قيمة فى نظره . ولكن يلبغا قال : « أنا أعينه وأؤيده ومن [له] الشوكة غيرى » . فلم يجد الخليفة بدأ من إعلان أنوك سلطاناً ولقب بالملك المنصور . ولكن هذا السلطان الجديد لم يلبث أن هرب وقبض عليه بعد هزيمة يلبغا

---

(١) أورد أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ١٨٣ سلسلة نسب المعتضد كاملة إلى « أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس » .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٨ .

(٣) اقرأ نص هذا العهد عن السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥٩ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الاولى ٢٣٣ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٥) المقصد ص ٥٧ .

وثبّت المنصور على عرشه[1] . وفى هذا منتهى الدلالة على أن منح الخليفة تفويضاً للسلطان بالحكم إنما كان أمراً صورياً لا قيمة له طالما كانت السلطة والنفوذ فى يد الأمراء .

وقد ظل المتوكل على الله فى منصب الخلافة إلى أن قتل الأشرف شعبان ، وأقيم بعده المنصور على . ونظراً لصغر سن ذلك السلطان ، كان أينبك البدرى هو المهيمن على شئون الدولة على نحو ما كان متبعاً فى عصر السلاطين الأطفال . وكان هذا الأمير يحقد على المتوكل موقفه من خلع الأشرف شعبان وقتله وما كان من عرض السلطنة عليه عن طريق بعض الأمراء ، فبعث إلى عباسى آخر اسمه زكريا وأقامه خليفة ستة ٧٧٩ ﻫ بغير مبايعة ولا اجماع ولقبه « المستعصم بالله » [2] . وأمر بنفى الخليفة المتوكل إلى قوص ليبقى بها بقية حياته [3] كما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكفى بالله . ولكن شفع فى الخليفة بعض الأمراء لدى أينبك ، فلم يرحل إلى قوص ، بل اكتفى بخلعه وبقى مقيما فى داره بالقاهرة . ثم عاود الأمراء كلامهم مع أينبك فى أمر عودة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، فعاد إليه وعزل زكريا . وبذلك كانت مدة خلافة زكريا خمسة عشر يوماً أو على حد تعبير ابن اياس « كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم » [4] .

كانت حياة الخليفة المتوكل فى مصر ، مع ما اتصف به من جميل الصفات ، سلسلة متتابعة من العزل والحبس إذ لم يكتفى بما كان من عزله سنة ٧٧٩ ﻫ على يد أينبك ، بل أن برقوق مؤسس دولة المماليك الثانية المعروفة بدولة المماليك الشراكسة أو البرجية عزله سنة ٧٨٥ ﻫ وحبسه بقلعة الجبل [5] وعقد البيعة للامام أبى حفص عمر الواثق بالله ، فظل خليفة إلى أن توفى فى ١٨ شوال سنة ٧٨٨ ﻫ ، وعين برقوق مكانه أخا محمد زكريا الذى ولى الخلافة مدة يسيرة فبويع ولقب « المستعصم بالله » ، واستمر فى منصبه إلى ٢ جمادى الأولى سنة ٧٩١ ﻫ ، وإذ ذاك ندم برقوق على ما فعل بالمتوكل وأخرجه من حبسه وأعاده إلى كرسى الخلافة وخلع

(١) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) ج ١ القسم السادس ص ٥٥ — ٥٦ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٩ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٤) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤١ .

(٥) اختلف المؤرخون فى السبب الذى حدا ببرقوق إلى خلع الخليفة المتوكل وحبسه . فقال أبوالمحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٥ الفصل الثانى ص ٣٧٣ إنه « فى أوائل رجب سنة ٧٨٥ ﻫ طلع الأمير محمد بن محمد بن تنكز إلى السلطان ونقل له عن الخليفة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد أنه اتفق مع بنى عمر التركمان وهم نحو ثمانمائة فارس أنهم يثبون على السلطان إذا نزل من القلعة إلى الميدان فى يوم السبت للعب الكرة ويقتلونه ويمكنون الخليفة من الأمر والاستبداد بالملك » . وقال الخالدى : المقصد ص ٥٠ إن المتوكل « أغلظ على برقوق فى أول مملكته ، وامتنع عن مبايعته ، فأخافه السلطان فلم يخف وحمل منه فسكه وقيده » .

زكريا واستمر المتوكل فى الخلافة إلى أن مات سنة ٨٠٨ هـ. فكانت مدة خلافته خمسا وأربعين سنة، بما تخللها من خلع وحبس.

وظائف الخليفة :

بقيام الخلافة العباسية فى مصر وجد بها حاكمان : أحدهما « السلطان » وهو الذى يرأس حكومة مصر، وثانيهما « الخليفة » الذى كانت سلطته صورية. ولما كان من الصعب القول بأنه كان هناك إذ ذاك حد فاصل بين الأمور الدينية التى كان يصح أن تكون من اختصاص الخليفة وحده، والمسائل السياسيه التى كان يباشرها السلطان، فان الخليفة لم يكن إلا مظهراً خداعا جهد المماليك لايجاده ذراً للرماد فى العيون حتى يقضوا على شهوة الطامحين فى مُلك مصر ويبددوا السحب التى كانت تحوم حول مبلغ شرعية حكمهم للبلاد. ولو أن المماليك علموا أن المعارضة لحكمهم قد تأتيهم من ناحية الشعب المصرى وحده لما اهتموا باحاطة أنفسهم بهذا النوع من الحماية الروحية الممثلة فى شخص الخليفة. ولا غرو فان سلطان المماليك كان يحكم شعبه وهو آمن مطمئن من ناحيته لأن الشعب المصرى اشتهر بالهدوء والطاعة وكان نادراً ما يعمد إلى ثورة يقوم بها أو أحزاب يكوّنها تعمل على معارضة السلطان[١]. ولكنهم رأوا أن الشر قد يأتيهم من ناحية أعدائهم الذين كانوا ينادون بأن المماليك فئة من الرقيق لاحق لها فى حكم البلاد[٢] : فأوجدوا لذلك سلطة أخرى بجانب السلطان تؤيده وتثبت عرشه وهى سلطة الخليفة، الذى كان من أغراض الظاهر بيبرس من إيجادها هو التذرع لاستبقاء نفوذ مصر على الأراضى المقدسة بالحجاز والحيلولة دون انتفاع أمراء مسلمين آخرين بسقوط العباسيين فى بغداد مثل بنى حفص[٣].

---

(١) كانت الحكومات الأجنبية الأصل والتى يدافع عنها جند مأجورون أو مماليك متعددو الجنسيات سببا فى ميل الشعب المصرى إلى السكينة وانصرافه عن الاشتراك فى الأحداث السياسية أو الثورة على الظلم اللهم إلا احتجاجا على الضرائب. فكانت الأسرات الحاكمة تتغير دون أن يتأثر المصريون بذلك كثيرا. ولم يتم فى وادى النيل شعور وطنى صحيح لأن الجيش والطبقه الحاكمة لم يكونا من صميم الشعب المصرى الصحيح. ولقد ذهب بعض المستشرقين بعيدا فى هذا السبيل فزعموا أن المصريين فى عصر المماليك كانوا على استعداد لقبول المغول بدلا من المماليك، وأن المماليك لم يهتموا بالرأى العام أو يهيبوا بالشعب المصرى للدفاع عن نفسه بل قاموا هم بالدفاع عن مصر كما دافع البريطانيون عنها ضد تركيا فى الحرب العظمى

انظر Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, pp. — 66 — 67

(٢) راجع ماسبق ذكره عن محاولات الايوبيين فى مصر والشام الاستيلاء على مصر، وتهديد التتار لمصر بالغزو، ودأب الصليبيين على مناوأة المماليك وعملهم على طردهم من مصر.

(٣) Wiet : Précis de L'Histoire d'Egypte, t. II (L' Egypte Arabe) pp. 250—251

راجع أيضا Van Berchem : Titres Califiens d'Occidents (Etrait du Journal Asiatique, Mars— Avril, 1907, p. 47.

وكان أهم مظاهر السيادة التى تمتع بها الخلفاء العباسيون فى مصر ثلاثة وهى : السماح لهم بمنح السلطان تفويضاً يجعل حكمه شرعيا ، وذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة ، ونقشه على السكة . إلا أن سلطة الخليفة كانت فى الواقع سلطة صورية ، كما كانت وظائفه وهمية أكثر منها حقيقة واقعة .

ذلك أن السلطان حرّم على الخليفة التدخل فى شئون الدولة السياسية إذ اعتبرها من حق السلطان وحده دون سواه . ورأى أن تدخل الخليفة فى مثل تلك الشئون قد يؤدى إلى استئثاره بالسلطة والنفوذ بتأييد الشعب له باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين . وبذلك يعود الحال إلى ما كان عليه فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حين كانت السلطتان الزمنية والروحية تتمثلان فى شخص الخليفة . وزاد السلطان من انتقاص النفوذ الذى كان يصح أن يتمتع به الخليفة ، فحرّم عليه الاتصال بالشعب ، لأنه كان يخشى أن يؤدى ذلك إلى تقريب الخليفة من الشعب ، فينسى السلطان ويؤيد الخليفة باعتباره « حامى الدين ، وخليفة رسول الله » . ومن ذلك نرى أن السلطان لم يرد أن تعدو معاملته للخليفة مراعاة جانب الاكرام والاجلال اللازمين لمقامه الدينى ، لأنه يستمد شرعية سلطنته منه ولأنه يعتقد أن فى إحياء الخلافة قربى إلى الله وخدمة للاسلام .

حقيقة إن قيام الخلافة العباسية بمصر أصبح أمراً واقعاً وأنه كان يصحب اعتلاء كل خليفة منصبه عدة مظاهر غاية فى الأبهة والعظمة : من فحص عن نسبه وتقليد السلطان له أمر الخلافة بالديار المصرية وتولية الخليفة للسلطان أمور البلاد فى حفل يجمع الأمراء والقضاة وكبار رجال الدولة ثم حمل ذلك التقليد على رأس الوزير فى موكب علنى يطوف أرجاء مدينة القاهرة مما يدل على تلهف السلطان وابتهاجه بحصوله على مثل ذلك التقليد الذى يجعل سلطانه فى نظر الشعب شرعيا ولكن كل ذلك لم يعد المظاهر التى لا تنطوى على أى نفوذ فعلى فى تصريف أمور الدولة أو التعرض لشئونها . ولم يكن الخليفة إلا العوبة فى يد السلطان : إن أراد وسّع الرزق عليه ومنحه حرية التنقل وسمح له بالاجتماع مع الناس على أن لا يتكلم فى أمور الحكم ، وأباح له تبادل الزيارات ، وان غضب السلطان حرم الخليفة من كل شىء وجعله أشبه بالسجين . وأظهر الأمثلة على ذلك ما فعله السلطان الناصر مع الخليفة المستكفى بالله حين أمر بنقله الى القلعة سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) فحد من حريته ، وحين نفاه إلى قوص سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) بعد أن غضب عليه على ما بينا .

وفى الحق أن جل عمل الخلفاء العباسيين فى القاهرة انما كان إعطاء السلاطين تفويضاً بالحكم . وعلى الرغم من أن السلطان قلاوون لم يهتم بالحصول على ذلك التفويض ولم يحفل بأن يطلب من الخليفة الحاكم بأمر الله أن يقلده السلطنة [1] فان ابنه الناصر اعتبر هذا التفويض

(١) يظهر ان الخليفة الحاكم بأمر الله قد منح السلطان قلاوون تفويضا بالحكم من تلقاء نفسه ، على =

أمراً ضرورياً لجعل حكمه شرعياً وحصل عليه فعلا من الخليفة الحاكم عند اعتلائه عرش السلطنة سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٢ م) [١] ، كما حصل السلطان لاجين على مثل هذا التفويض من هذا الخليفة نفسه سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤م) على الرغم من أنه كان مغتصباً للعرش من السلطان الناصر محمد [٢] .

غير أن هيبة ذلك التفويض الشرعى بدأت تزول من نفوس المماليك بعد أن رأوا إقدام كبار الأمراء على اغتصاب العرش كلما واتتهم الفرصة ، وذلك على الرغم من حصول السلطان المخلوع على تفويض الخليفة . وأظهر الأمثلة على ذلك ما حدث فى سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩ م) حين عمل المماليك على عودة الناصر محمد من الكرك واضطربت أمور الدولة فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير ، فان الخليفة المستكفى بالله الذى كان قد منح هذا السلطان تفويضاً بجعل حكمه شرعياً [٣] ، جدد له هذا التفويض مرة ثانية حين أبلغه سيف الدين بهادر حُسْنكى رحيل معظم جند مصر الى السلطان الناصر بالكرك ، « وسلّمه كتاب الأمير برلغى ، فلما قرأه (بيبرس الجاشنكير) ابتسم وقال : سلم على بُرُلْغى وقل له : لا تخش من شىء فان الخليفة أمير المؤمنين (المستكفى) قد عقد لنا بيعة ثانية ، وجدد لنا عهدا ، وقد قرىء على المنابر وجددنا الايمان على الأمراء ، وما بقى أحد يجسر أن يخالف ما كتب به أمير المؤمنين ، وقال : امض به إليه يقرأه على الأمراء والجند ثم يرسله لى فاذا فرغ من قراءته يرحل بالعساكر إلى الشام [٤] . وهنا كان يصح أن تستقيم الأمور لبيبرس الجاشنكير ، لو كان لبيعته قيمة فى نظر الناس . وتتبين لنا قيمة مركز الخليفة من رد برلغى على سيف الدين بهادر حين قرأ كتاب بيبرس الجاشنكير إليه بتجديد البيعة له إذ قال : « يا بارد الذقن . والله ما بقى أحد يلتفت إلى الخليفة » وانتهى الأمر بفرار بيبرس الجاشنكير وعودة الناصر إلى ملكه .

وعلى الرغم من أن الخليفة والقضاة الأربعة كانوا هم الذين يباركون السلطان عند اعتلائه العرش ، لم يكن ذلك يتم الا بعد أن يعلن أمراء مصر موافقتهم على اختياره وارتياحهم لتوليته وبعد أن يأخذ عليهم السلطان الجديد العهود والمواثيق بأن يخلصوا له ويلتفوا حول عرشه . وقد رأينا عند كلامنا على سلطنة الناصر أن موافقة الأمراء وتأييده كانت العامل الأساسى الذى يسهل للسلطان الوصول الى العرش والاحتفاظ به مدة تطول أو تقصر تبعا

= نحو ما اتبعه مع السلاطين الذين سبقوه . اقرأ نص هذا التقليد فى السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٢ — ٧٤ .

(١) اقرأ نص تقليد الخليفة الحاكم للسلطان الناصر فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٠ ص ٥٤ — ٥٨ .

(٢) اقرأ نص تقليد الخليفة الحاكم للسلطان لاجين فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٥٤ — ٥٨

(٣) اقرأ نص البيعة فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٥٩ — ٧٥ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٦٢ .

لمبلغ ذلك التأييـــد . أما مبايعة الخليفة للسلطان وحضور القضاة الأربعة عند تلاوة البيعة والشهادة على صدورها من الخليفة فقد كان أمراً صورياً لا يقدم ولا يؤخر فى توطيد عرش السلطان أو زعزعته . ولكنه كان تقليداً اتبع منذ عهد بيبرس وعادة اصطلح عليها فى تلك الفترة من تاريخ مصر فى العصور الوسطى .

كان من أهم مظاهر السيادة لخلفاء بنى العباس منذ إحياء خلافتهم فى القاهرة ذكر أسمائهم فى الخطبة ونقشها على السكة بجانب السلطان . وتمتع المستنصر بالله (٦٥٩ — ٦٦١ هـ = ١٢٦١ — ١٢٦٣ م) أول الخلفاء العباسيين فى مصر بتلك الميزات وسار الناصر على هذه السياسة إزاء من عاصره من الخلفاء ، فقد أمر بذكر اسم الخليفة المستكفى بالله (٧٠١ — ٧٤٠ هـ = ١٣٠١ — ١٣٣٩ م) فى الخطبة ونقشه على السكة . غير أنه قيد ذكر اسم الخليفة مع اسم السلطان فى الخطبة بقيود واعتبارات شتى ، فأمر بذكر اسم الخليفة على المنابر وقت حضوره منفرداً ، أما إذا حضر مع السلطان فلا يذكر اسمه ويدعى للسلطان وحده (١) .

وإذا عرفنا أن ذكر اسم الخليفة فى الخطبة هو المظهر الذى يدل دلالة واضحة على أنه كان له اعتبار روحى وكيان دينى ، أمكننا أن نتصور درجة التدهور التى انحدر إليها مركز الخليفة إذ ذاك . كذلك جعل الناصر ظهور اسم الخليفة على السكة بجانب اسمه أمراً صورياً (٢) .

وفيما عدا ذلك لم يباشر الخليفة العباسى فى القاهرة أى عمل من أعمال الدولة ، بل كان يقضى وقته فى العبادة وزيادة بعض العلماء وذوى الحيثية . وكان يؤتى به فى الحفلات الرسمية وبخاصة عند تولية سلطان جديد ليعترف بلقب السلطان باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين ولكنه لم يمنح سلطة غير ذلك . وقد كتب المقريزى فى هذا الصدد . « وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة فأقيم فى تلك السنة خليفة فى مصر قدم إليها من بغداد لُقب المستنصر بالله احمد بن الظاهر بن الناصر وسار يريد بغداد لحاربه التتار وقتلوه قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر . فصار من بعده ملوك مصر من الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ويلقبونه بلقب الخلفاء وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ بل يتردد إلى أبواب الأمراء

---

(١) Demombynes : La Syrie, p. XX III

(٢) كان السلطان بيبرس أول من فكر فى جعل حق نقش اسم الخليفة بجانب السلطان على السكة أمرا صوريا . فقد عمل على التقليل من نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله (٦٦١ — ٧٠١ هـ = ١٢٦٢ — ١٣٠٢ م) فلم يمنحه حق نقش اسمه على السكة ، وهو الحق الذى منحه لسلفه المستنصر بالله . ويظهر أن بيبرس أمر أولا بمنح الخليفة الحاكم هذا الحق حين وصوله الى مصر سنة ٦٦١ هـ ثم عاد فعدل عن ذلك . يقول السيوطى : (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨) : « وكتب (بيبرس) بيعته إلى الآفاق ليخطب له وتكتب السكة باسمه . فخطب له بجامع دمشق وبسائر الجوامع فى يوم الجمعة ٦ المحرم سنة إحدى وستين وستمائة ونقش اسمه على السكة وضرب بها الدينار والدرهم . ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر » .

وأعيان الكتاب والقضاة لتهنئتهم بالأعياد والشهور (١).

ومهما بلغ مركز الخليفة العباسى فى مصر من ضعف ، فقد كان يشترك فى تولية السلطان الجديد بمنحه تفويضاً شرعيا بالحكم ويخطب فى الجمع والأعياد ويخرج مع الجيوش ليباركها ويحث على الجهاد فى سبيل الله والدين ويحرّض على التتار ويدعو الله بتفريج الكروب وتخفيف البلاء إذا نزل بها ضر أو انتشر وباء . وهذه كلها أدنى مراتب الاختصاصات التى يصح أن تعهد إلى شخص يستمد منه السلطان التفويض الشرعى بالحكم .

ويوضح لنا القلقشندى مدى علاقة الخلافة العباسية فى القاهرة بسلطنة المماليك فيقول : « والذى استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ويكتب له عهداً بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة . ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الاقطاعات حتى للخليفة نفسه ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك » (٢) .

* * *

بذلك لم يكن الخليفة العباسى فى القاهرة أكثر من « دمية يوجهها السلطان كيفما شاء ، بل ان السلطان لم يكن يعتبره سوى تابع من أتباعه (٣) » . ولم يكن هذا الخليفة فى نظر ميور Muir غير صنيعة السلطان فحسب (٤) . كما لم يكن خلفاء العباسيين فى مصر — على قول المؤلف نفسه — سوى فئة من أشباح الخلفاء لم يكن لهم من الخلافة إلا اسمها (٥) . ومصداق ذلك قول السير توماس ارنولد « إن الخلافة لم يكن لها اعتبار وأن الخلفاء لم يكن لهم كيان فى

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٣٢ . وانظر
Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe), p. 401.
Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 58.

(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٥ .

ومما يشهد بطبيعة العلاقة بين السلطان والخليفة كتابتان تاريخيتان باسم السلطان قايتباى فى ضريح شيد نحو سنة ٨٨٦ هـ ويعرف الآن باسم « قبة الفداوية » . ففى الكتابة الاولى يلقب قايتباى بألقاب منها « ناصر دين الله حافظ بلاد الله قيم خليفة الله » . وفى الثانية يذكر بين ألقابه : « ناصر الملة المحمدية الحنيفية والخلافة العباسية سيد الملوك والسلاطين قسيم أمير المؤمنين »
Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 748—749.

(٣) Sanhoury : Le Califat, p. 316.

(٤) عبر ميور عن ذلك بقوله
« A mere creature of the Court » (The Caliphate, p. 594)

(٥) عبر ميور عن ذلك بقوله
« A race of mock-caliphs, having the name without the substance, a mere spectre as it were » (The Caliphate, p. 593.)

مصر ، وإنما كانت الخلافة شبحا ليس إلا (١) ، كما أوضح لنا هذا المؤلف نفسه أنهم كانوا أضعف من خلفاء العصر العباسى الثانى فى بغداد وتكلم عن وظيفتهم التى وجدوا من أجلها فى القاهرة فى نوع من السخرية والازدراء ، فقال إن الخليفة إنما كان يؤتى به من عزلته عند تولية كل سلطان جديد ليقلده السلطة ويمنحه تفويضا بالحكم يجعل سلطانه شرعيا .

وعلى الرغم من حالة الركود التى صارت إليها الخلافة العباسية فى القاهرة عمل بعض أمراء المسلمين للحصول على تفويض بالحكم يجعل عرشهم شرعيا على نحو ما كان يحدث حين كانت الخلافة العباسية قائمة فى بغداد (٢) . فقد منح الخليفة المستكفى بالله سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢١م) محمد بن طغلق حاكم دلهى تفويضا بالحكم ، بعث به مع رسول خاص . وبلغ من سرور ابن طغلق بوصول هذا التفويض إليه أن خرج بنفسه لاستقبال رسول الخليفة المستكفى وأكرم وفادته وبعث بالهدايا الثمينة إليه وزاد على ذلك أن أمر بذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقشه على السكة فى بلاد الهند (٣) ، وقد استمر نفوذ الخليفة العباسى الاسمى عظيما فى تلك البلاد ، فانه على الرغم من وفاة الخليفة المستكفى بالله سنة ٧٤١ هـ (١٤٣٠) استمر اسمه يذكر فى الخطبة وينقش على السكة حتى سنة (٧٤٤ هـ ١٣٤٣ م (٤)) .

ومهما يكن ما نال الخلافة العباسية فى بغداد من التقتيل والتشريد على أيدى التتار ، ومهما آلت إليه الخلافة العباسية فى القاهرة من المذلة والهوان ، فقد تمكنت هذه الخلافة بفضل سلاطين المماليك من أن تحيا بعد موتها مدة قرنين ونصف قرن من الزمان .

---

(١) Arnold : The Caliphate, pp. 98-99

(٢) Ph. Hitti : History of the Arabs, pp. 676-677

(٣) عثر على سكة هندية عليها الاعتراف بخلافة العباسيين فى مصر راجع مقال السير ولسلى هيج فى

Journal of the Royal Asiatic Society, July 1922, p. 351.

H. Nelson Wright : The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi (Delhi 1936), pp. 168—170 and plate VI.

(٤) Arnold : The caliphate, p. 104. S. Lane-Poole : Mediaeval India under Muhammadan Rule, pp. 137—138.

الباب التاسع

الحكومة المصرية

طبيعة الحكومة المصرية :

كانت الحكومة المصرية فى سلطنة المماليك بوجه عام وسلطنة الناصر بوجه خاص حكومة بيروقراطية بمعنى أن السلطان كان يعتمد فى إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين الاداريين ويمنح كلا منهم حرية التصرف فى الأمور التى يباشرها ، على رغم مراقبته له ومحاسبته إياه على أعماله . وكان أهم هؤلاء الموظفين : نائب السلطنة والوزير والمحتسب ووالى القاهرة وولاة الأقاليم .

وكان السلطان هو الرئيس الأعلى للدولة ، يختار كبار الموظفين من أقرب الناس إليه وأخلصهم له وممن يثق فى كفايتهم ومقدرتهم الادارية . وعرف عن الناصر محمد أنه كان يبادر إلى عزل من ينحرف منهم عن جادة الصواب أو تثبت عليه الرشوة والخروج على قوانين البلاد المرعية . ولم يقتصر فى عقاب الموظفين على عزلهم من مناصبهم بل كان يأمر بمصادرة أملاكهم وأموالهم (١) إذا اتضح له أنهم جمعوها بطرق غير مشروعة .

وكان هناك بمصر فى ذلك العصر عدة دواوين حكومية يشرف كل منها على ناحية معينة من نواحى الادارة العامة . وأهم هذه الدواوين ديوان الانشاء ومن بين اختصاصاته تنظيم العلاقات الخارجية للدولة ، وديوان الأحباس ويشبه وزارة المالية ، وديوان الخاص ويدير الشئون المالية التى تتعلق بالسلطان . وقد سارت تلك الدواوين على نسق واحد من حيث التنظيم الادارى ، فكان على رأس كل ديوان منها ناظر ، ووكيل يطلق عليه مستوفى الصحبة ، ويليه فى المرتبة مستوفى الدولة ثم عدد من المستوفين .

وعلى الجملة فان النظام الادارى فى السلطنة المملوكية قد بلغ شأوا بعيدا من الدقة والاتقان ، إذ كانت هناك إدارة مركزية مقرها القاهرة وعمادها كبار الموظفين الاداريين ونظار الدواوين ، وإدارة محلية ممثلة فى ولاة الأقاليم ، وإدارة بريد محكمة تابعة لديوان الانشاء ربطت أجزاء الدولة المصرية بعضها ببعض وساعدت على تسهيل الاتصال بينها و بين الولايات التابعة لها .

---

(١) راجع المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠٦ . وأبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٥٠ ا
واقرأ ما سنذكره فى هذا الباب عن الأمير سيف الدين تنكر نائب السلطنة بدمشق ، وما ذكرناه عن شرف الدين النشو وكريم الله بن هبة الله وزيرى الناصر عند كلامنا على الوزراء القبط فى الباب الخامس .

أولا ـ كبار الموظفين الاداريين

وكانت المناصب الادارية الكبرى فى ذلك العصر هى : نيابة السلطنة والأتابكية والوزارة وولاية القاهرة ، وولاية الأقاليم .

١ — نائب السلطنة (١) :

أما نيابة السلطنة فهى وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحياها بيبرس مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية(٢) . وكان نائب السلطنة فى ذلك العهد — كما يقول القلقشندى — « سلطاناً مختصراً بل هو السلطان الثانى » (٣) . فقد كان يشترك مع السلطان فى منح لقب الاماره وتوزيع الاقطاعات وتعيين الموظفين ويعرض عليه كشفاً بأسماء الأشخاص الذين كان يرى ترشيحهم لهذه المناصب فيقرها ولا يرفض تعيين أحد المرشحين الا فى القليل النادر (٤) . ومن أعمال النائب توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين(٥) ، والركوب على رأس فرق الجيش فى المواكب الرسمية يحف به الأمراء عند دخوله أو خروجه من قصر السلطان (٦) . ولم يكن هذا كل ما كان يتمع به نائب السلطنة من نفوذ ، بل كان سائر نواب الشام يكاتبونه فى مهام الأمور المتعلقة بنياباتهم (٧) ، ويجتمع ديوان الجيش برياسته (٨) .

واذا مثل النائب فى حضرة السلطان وقف فى ركن الايوان بقلعة الجبل إلى أن ينتهى وقت العمل الرسمى فيخرج إلى دار النيابة يحيط به الأمراء . وهناك يعقد مجلساً يحضره كبار موظفى الدولة ويقف الحجاب بين يديه ثم تقدم اليه القصص (٩) بشكايات الناس ، إذ كان من اختصاصه الجلوس لكشف المظالم (١٠) وعلى هذا فانه كان ينوب عن السلطان

---

(١) راجع ما كتبه Van Berchem عن نائب السلطنة فى Corpus, Egypte I. pp. 20 et seq. حيث أتى بأمثلة عديدة لتطور هذا اللقب ومدى استعمال بعض الأقاليم وغيرهم له .

(٢) انظر نص تقليد نيابة السلطنة فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٣٥ — ١٣٨ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٦ ١٧ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ . تاج الدين السبكى : معيد النعم ص ٣٤ .

(٥) العمرى : التعريف ص ٦٥ — ٢٦ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٧ Lane-Poole : The Art of the saracens, p. 29.

(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٦ . المقريزى نفس المصدر والجزء ص ٢١٤ .

(٩) القصص جمع قصة وهى الطلب أو الالتماس Dozy : Supp. Dict. Ar.

(١٠) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٤ .

فى تصريف مهام الدولة التى تدخل فى دائرة نفوذه وأحياناً يصدر القرارات باسم السلطان وأحياناً أخرى يصدرها باسمه هو [١] .

ونستطيع أن نتبين مبلغ أهمية نائب السلطنة فى مصر إذ ذاك ومدى اختصاصاته ، من هذه العبارة التى ننقلها عن المقريزى : «كان يستخدم الجند ، ويخرج الاقطاعات من غير مشاورة السلطان . وكان النائب هو المتصرف المطلق فى كل أمر فيراجع فى الجيش والمال والجند وفى البريد وكل ذى وظيفة لا يتصرف إلا بأمره ولا يفصل أمراً معضلا إلا بمراجعته وهو الذى يستخدم الجند ويرتب الوظائف» [٢]. وقد كتب Van Berchem أن نائب السلطنة كان على رأس الموظفين فى مصر وله كل الاختصاصات التى لنواب السلطنة فى الأقاليم الأخرى من دولة المماليك [٣].

ويُعد نائب السلطنة أكبر أمراء المئين ويضعه صاحب «المقصد الرفيع المنشا» على رأس أرباب الوظائف بالعاصمة [٤] . ومن وصية نائب السلطنة التى أوردها العمرى نتبين مدى السلطة الواسعة التى وضعت فى يد هذا الموظف الخطير . واليك هذه الوصية :

« يوصى بتقوى الله وتنفيذ الأحكام الشرعية ومعاضدة حكامها واستخدام السيوف لمساعدة أقلامها ، وتفقد العساكر المنصورة وعرضها وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها والتخير للوظائف ، وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف والملاحظة الحسنى للبلاد وعمارة أوطانها وإطابة قلوب سكانها ومعاضدة مباشرة الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها وتحصين كل ما أمره اليه واستطلاع الأخبار والمطالعة بها والعمل بما يرد عليه من المراسم المطاعة والتمسك بسببها . وأنه مهما أشكل عليه يستضىء فيه بنورآرائنا العالية فهو يكفيه ومن قتل من الجند أو مات وخلف ولداً يصلح لاقطاعه يعين له ليقوم بمخالفيه ، ويقال من هذا مايقوم بتمام الفرصة ويوفيه » [٥] .

ومن هذا نتبين مدى سلطة النائب وما كان يحاط به من عظمة وسلطان . على أن ذلك كان ظاهريا بسبب استبداد السلاطين الأقوياء واستئثاره بالنفوذ ، ثم لتدخل كل من الوزير وكاتب السر فى أعمال نائب السلطنة والحد من نفوذه .

وكان نائب السلطنة يلقب «كافل المملكة الشريفة الاسلامية» لأنه كان يتكفل بتصريف

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ١٧ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. p. 226

(٤) الخالدى ص ١٢٤ .

(٥) التعريف بالمصطلح الشريف ص ٩٢—٩٣ . ونقله عنه القلقشندى فى «صبح الأعشى» ج ١٠ ص ١٤٨ .

أمور الدولة العامة سواء أكان السلطان فى القاهرة أم كان متغيباً عنها ، كما كان يطلق عليه لقب « ملك الأمراء » (١) . وقد ذكر صاحب « التعريف بالمصطلح الشريف » عن ألقاب نائب السلطنة هذه العبارة وهى « نائب السلطنة المعظمة وكافل الممالك الشريفة الاسلامية ، الأميرى الآمرى » . أما تعليل تلقيب نائب السلطنة « الأميرى الآمرى » وجمعه بين النيابة والكفالة فقد كفانا العمرى مئونة البحث فى هذه المسألة حيث يقول : « فأما كتابته فى ألقابه الآمرى فليست بشىء إنما حمله عليها إفراط الملق وأما جمعه فى تعريفه بين ذكر النيابة والكفالة فمقبول منه فيه . والذى أراه أن يجمعا فى تقليده فيقال فيه أن يقلد نيابة السلطنة المعظمة وكفالة الممالك الشريفة مصرا وشاما وسائر الممالك الاسلامية » (٢) .

وهناك نوع آخر من النيابة هو « نيابة الغَيْبة » . فنائب الغيبة هو « الذى يترك إذا غاب السلطان والنّائب الكافل . وليس إلا لاخماد الثوائر وخلاص الحقوق وحكمه فى رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء » (٣) . ويقوم نائب الغيبة بمهام الدولة إذا خرج السلطان للصيد أو سار على رأس الجيش فى حرب خارجية (٤) ، ويتمتع بالسلطة والنفوذ اللذين يتمتع بهما السلطان نفسه (٥) . والملاحظ أن النائب الكافل أو نائب الحضرة هو الذى ينوب عن السلطان حال وجوده فى مصر . أما إذا غاب عنها فيقوم مقامه نائب الغيبة ويلوح أنه أقل مقاما من نائب الحضرة فقد جاء فى Corpus « أنه الذى يتخلف بالأبواب الشريفة إذا غاب السلطان والكافل ، ولا يعبر عن الكافل بمصر إلا إذا ناب بحضرة السلطان ، فاذا ناب فى الغيبة فلا يعبر عنه بالكافل » (٦) .

ومن أشهر نوّاب السلطنة فى القاهرة فى دولة المماليك البحرية الأمير سيف الدين قطز الذى تولاها فى سنة ٦٥٦ هـ فى عهد علىّ بن المعز أيبك ، والأمير فارس الدين اقطاى المستعرب الذى تولى هذا المنصب فى عهد المظفر قطز ثم عين أتابكا للعساكر فى عهد الظاهر بيبرس . وولى بيبرس بدلا منه الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار ، الذى استقر به نائب السلطنة وفوّض اليه جميع أحوال المملكة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية وصار ينفذ الأمور

---

(١) Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 29, Van Berchem : Corpus, I. p. 216.

(٢) العمرى ص ٦٥ — ٦٦ . ويلاحظ أنه لا يستحق لقب « كافل » إلا من كان كافلا أو نائبا على إحدى الممالك التى كانت تتكون منها امبراطورية المماليك . أما النواب على الحصون والقلاع فلم يستحقوا لقب « كافل » . أما النيابة العظمى فهى نيابة الحضرة ويسمى هذا النائب « كافل الممالك » . Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 215.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٧ — ١٨ جـ ٧ ص ١٥٧ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٠ .

(٥) بيبرس الدودار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٣ .

(٦) Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 211. Demombynes : La Syrie, p. LVI.

من غير مشورة السلطان»[١]. وقد توفى بدر الدين الخازندار فى ٦ ربيع الاخر سنة ٨٧٦ هـ بعد وفاة بيبرس بقليل.

ولما جلس قلاوون على العرش سنة ٦٧٩هـ عيّن الأمير عز الدين الأفرم الصالحى نائباً للسلطنة، فتولى أمورها مدة، ثم طلب الاقالة منها فأجيب إلى طلبه، وعيّن بدلامنه الأمير حسام الدين طرُنْطاى، الذى عرف بالشهامة والكفاية وعُلوُ الهمة ولكنه على رغم ذلك كان لايتقن القراءة والكتابة، بل كان يستعين «بذكائه وثقوب فطنته وقوة سعادته، فأحسن التدبير وحفظ النظام ومكن الله مهابته من قلوب الخاصة والعوام وقام بأمر نيابة السلطنة أحسن قيام ونزل الجيوش منازلهم على طبقاتهم ونظر فيما يجب النظر فيه من إقطاعاتهم»[٢].

ولما تولى السلطان خليل أقر الأمير حسام الدين طرُنْطَاى نائباً للسلطنة وأتابكا للعساكر ولكنه مالبث أن قبض عليه، وسجنه فى القلعة ثلاثة أيام، ثم أمر بقتله. وفيما رواه ابن إياس عن معاملة السلطان لأسرة نائبه طرنطاى بعد قتله ومصادرته لأمواله، مايدلنا على مدى الاضطهاد الذى كان يستهدف له النائب إذا غضب السلطان عليه: «رسم [السلطان] الشجاعى بأن يحتاط على موجود الأمير طرنطاى، ورسم على مباشريه وقبض على جميع من كان فى حاشيته وقبض على نسائه وسراريه وقررهم على الأموال والذخائر، فظهر له من الأموال والتحف مالم يسمع بمثله فطلعوا بذلك جميعه الى الخزائن الشريفة»[٣].

وفى سنة ٥٨٩ هـ فوض السلطان خليل نيـــابة السلطنة إلى الأمير بدر الدين بَيْدَرَا المنصورى. ونجد فيماحدث بين بيدرا والسلطان خليل مثلا حياً لما كان يقع أحياناً بين السلاطين ونوابهم من نفور شديد وعداء مستحكم، يرجع السبب فى إثارته إلى عظم سلطان النائب وحسد الوزير القائم فى الحكم له على ما يتمتع من ثروة واسعة ونفوذ وجاه. ويفسر لنا ذلك، الدور الذى قام به الوزير الصاحب شمس الدين بن السلعوس بين السلطان خليل ونائبه بيدرا، إذ أنه انتهز فرصة سفره إلى الاسكندرية — لما اعتزم خليل القيام برحلة اليها — ليعد العدة لاستقباله فيها، فوجد للامير بيدرا فيها كثيراً من الأموال والغلات، فكتب إلى السلطان يبلغه ماسمع. فغضب السلطان على بيدرا وأضمر له الشر. ولما اعتذر بيدرا عن السفر مع السلطان إلى الاسكندرية، انتهز ابن السلعوس هـذه الفرصة وأوغر صدر السلطان عليه بقوله: «هذا بيدرا، قد أكل البلاد واستولى عليها. وما ترك للسلطان شيئاً»[٤]. ولما اتصل بعلم بيدرا نية الأشرف خليل نحوه، دبر له مؤامرة انتهت بقتله على مابينا.

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٩.

(٢) بيبرس الدواذار: زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧.

(٣) ابن اياس: نفس المصدر جـ ١ ص ١٢٢.

(٤) ابن أبى الفضائل: النهج السديد جـ ١ ص ٥٦٢.

ومن الذين تولوا منصب نائب السلطنة فى دولة المماليك البحرية ، وكان لهم أثر ظاهر فى سير الحوادث التى وقعت بمصر فى عهد السلطان الناصر محمد ، الأمير زين الدين كتبغا المنصورى الذى تولى منصب نائب السلطنة وأتابك العساكر سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) فى عهد سلطنة الناصر الأولى . ومنهم أيضاً الأمير حسام الدين لاچين المنصورى الذى شغل هذا المنصب فى عهد السلطان كتبغا حين اغتصب العرش من الناصر سنة ٦٩٤ هـ والأمير شمس الدين قراسنقر ثم الأمير منكوتمر ، وقد توليا هذا المنصب فى عهد السلطان لاچين والأمير سيف الدين سلاّر الذى تولاه فى عهد سلطنة الناصر الثانية سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م)(١) وفى عهد الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) . وكانت دار النيابة التى بناها السلطان قلاوون سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٧ م) بقلعة الجبل مركزاً لنيابة السلطنة فى القاهرة .

وقد ظهر نفوذ نائب السلطنة بجلاء فى عهد السلطان شعبان بن حسين أى فى أواخر دولة المماليكَ البحرية ، إذ تولى هذا المنصب سنة ٧٧٥ هـ الأمير منْجَك الذى قلده السلطان معظم مهام الدولة . وفى ذلك يقول أبو المحاسن(٢) : « خلع السلطان علىَ منجك باستقراره نائب السلطنة بالديار المصرية ، وفوض اليه النظر فى الأحداث والأوقاف والنظر فى الوزارة والنظر على ناظر الخاص . وقرىء تقليده بالايوان ، وأن السلطان أقامه مقام نفسه فى كل شيء وفوض إليه سائر أمور المملكة وأنه يخرج الاقطاعات التى عبرتها سبعمائة دينار إلى مادونها ، وأنه يعزل من شاء من أرباب الدولة وأنه يخرج الطبلخانات والعشرات بسائر الممالك الشامية ، ورسم للوزير أن يجلس قدامه فى الدركاه مع الموقعين » .

* * *

أما نواب السلطنة فى نيابات الشام فقد كان كل منهم ينوب عن السلطان ويمثله فى حدود اقليمه فحسب . وكانت بلاد الشام أهم الولايات التابعة لمصر فى دولة المماليك البحرية . وقد انقسمت تحت الحكم المصرى ستة أقسام إدارية كبرى عرفت باسم « النيابات » ، وهى : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك . وكانت دمشق أكبر هذه النيابات وأعظمها شأناً .

---

(١) توجد كتابة باسم الأمير سلار نائب السلطنة تشير إلى انشاء بناء كان الفراغ منه فى رجب سنة ٧٠١ هـ وقد لقب فيها بالمقر العالى السيفى سلار نائب السلطنة المعظمة .

J. David Weill : Catalogue Général du Musée Arabe. Objets en Cuivre, tome II. pp. 112—114.

وأورد Mayer : Saracenic Heraldry, p. 196. ألقاب سلار كما يلى :

المقر العالى السيفى سيف الدين سلار بن عبد الله الناصرى نائب السلطنة المعظمة وكفيل الممالك الشريفة بالديار المصرية والشامية .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ؛

وقد أتى لنا مؤرخو مصر الاسلامية الذين عنوا بتدوين أخبار دولة المماليك بوصف نيابات الشام والأقسام الادارية التى اشتملت عليها كل نيابة منها وتعيين موضعها بالضبط . ومن هؤلاء المؤرخين الأقدمين ابن فضل الله العمرى[١] والقلقشندى[٢] والخالدى[٣] وابن شاهين الظاهرى[٤] ومن المحدثين ديموميين[٥] وجاستون فييت[٦] .

وكان نظام الحكم فى كل من هذه النيابات يماثل نظام الحكم فى مصر . فكل نيابة منها عبارة عن مملكة مستقلة تنتظم الدواوين الحكومية والموظفين الذين يتولون شؤنها ولكن بصورة مصغرة . ويرأس كلا من هذه النيابات نائب السلطنة كمصر نفسها ، وللنائب حاشية ومماليك وأتباع . وبذلك كان كل حاكم سلطانا صغيرا فى منطقة حكمه مع تبعيته لسلطان مصر بدليل هذه النقود المضروبة باسم السلطان الناصر محمد فى حماه ودمشق وطرابلس[٧] .

وكان المماليك يقسمون امبراطوريتهم إلى جملة أقاليم أو مديريات ، كل منها يسمى مملكة وتسمى الأمبراطورية كلها « الممالك الاسلامية » . ولعل أصل هذه التسمية يرجع إلى تقسيم صلاح الدين دولته بين أبنائه ، وكان كل منهم يحمل لقب « ملك » وكان إقليمه يسمى « مملكة » وقد ظلت هذه التسمية قائمة فى عصر المماليك على الرغم من أن هذه الممالك الصغيرة أصبحت أقاليم إدارية .[٨]

وكان نائب دمشق أهم نواب الأقاليم وأعظمهم شأناً حتى إن رتبته لم تكن تقل عن رتبة نائب السلطنة بالقاهرة ، فقد كان أوسع نواب الأقاليم الشامية نفوذا بل كان الوحيد الذى يستحق لقب نائب السلطنة غير النائب بمصر[٩] ويطلق عليه « اسم النائب الكافل » أو « كافل الممالك الاسلامية (أو الشامية) » [١٠] ويصدر بتعيينه فى وظيفته تقليد خاص . وينوب عن سلطان مصر فى إدارة شؤن نيابته ويتمتع بالسلطة الكاملة والنفوذ المطلق اللذين يتمتع بهما السلطان نفسه .

---

(١) التعريف ص ١٧٦ — ١٨١ .

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٧٢ وما بعدها .

(٣) المقصد ص ٨٧ و ٩٠ — ٩٣ .

(٤) زبدة كشف الممالك ص ٤١ — ٤٥ و ١٣١ — ١٣٥ .

(٥) Demombynes : La syrie, pp. XIII—XVIII.

(٦) G. Wfet : Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV. (L'Egype Arabe), pp. 396—398.

(٧) Henri Lavoix : Catalogues des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie, pp 323—336.

(٨) Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 213—214.

(٩) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٩ . Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 212.

(١٠) Demombynes : La Syrie, p. 141, note 2. Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 212,note 4.

ونتبين مدى نفوذ ذلك النائب من هذه العبارة التى أمدنا بها القلقشندى حيث يقول إنه « قائم بدمشق مقام السلطان فى أكثر الأمور المتعلقة بنيا باته ويكتب عنه التواقيع الكريمة ويكتب عنه المربعات [١] بتعيين إقطاعات الجند وتجهز الى الأبواب الشريفة فيشملها الخط الشريف السلطانى »[٢].

وكان نواب السلطنة فى الأقاليم يختارون من أصحاب الوظائف الحربية الذين كانت لهم الكلمة العليا فى الدولة . وكان نائب السلطنة فى دمشق يعمل على السيطرة على كل أصحاب الوظائف فى هذا الاقليم . وكان السلطان يراقب ذلك بعين ساهرة ويشعر النائب بوجود السلطة المركزية بالتدخل أحياناً فى ملء وظائف شاغرة ليست من اختصاص السلطان أو بإصدار الأوامر مباشرة الى مرءوسى النائب ، ومن أجل ذلك أيضاً كان السلطان يولى صاحب ديوان الانشا فى الأقاليم ليكون عيناً للسلطان على النائب فيبلغ الحكومة المركزية مايريد النائب اخفاءه عنها من الأمور[٣].

وقد أورد الأمير بيبرس الدوادار الذى تولى نيابة السلطنة فى دولة المماليك البحرية أسماء نواب الشام فى عهد السلطان خليل بن قلاوون وبين مدى نفوذ هؤلاء النواب فى هذه العبارة وهى « وهم آخذون من مهامها ، ضابطون لنظامها » . ومن هذا البيان يتضح لنا أن تعيين النواب لم يكن مقصوراً على النيابات الست التى ذكرناها ، بل كان يعين فى بعض أعمال الشام التى تقل أهمية عن هذه النيابات نواب للسلطنة تختلف سلطتهم ونفوذهم باختلاف الأعمال التى يتولون شئونها :

الأمير	حسام الدين لاجين السلحدار	نائب	السلطنة	فى	دمشق
«	شمس الدين قراسنقر الجوكندار	«	«	«	حلب
«	سيف الدين بلبان الجوكندار	«	«	«	صفد
«	بيبرس الدوادار	«	«	«	الكرك
«	علم الدين سنجر أراجوس	«	«	«	قلعة دمشق
«	شمس الدين آقسنقر	«	«	«	غزة
«	بدر الدين كيملدى المنصورى	«	«	«	حمص
«	علاء الدين كشتغدى المنصورى	«	«	«	الشوبك
«	شمس الدين بلبان السلحدار	«	«	«	الحصون الساحلية[٤]

(١) عن « المربعات » راجع ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٦٥ و ٣١٩ .
Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 724.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨٤ .

(٣) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 56

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٣ .

ومن التقليد الذى منحه السلطان كتبغا للأمير سيف الدين أغُرْلو العادلى بتعيينه فى نيابة السلطنة بدمشق والذى رواه القلقشندى ، يتبين مدى النفوذ الذى كان يتمتع به هؤلاء النواب والشروط التى يجب أن تتوفر فيمن يرشح لهذا المنصب السامى : « وأن ننشر أمرها إلى من ينشر بها على الأمة لواء عدلنا ويبسط فيها بالرأفة والرحمة رداء فضلنا ويحى بها سنن الاحسان التى مبدأ أيامها غاية من سلف من قبلنا ، ويقيم منار الملك من بأسه على أرفع عماد ، وينيم من عدله فى أوطأ مهاد ، ويكف أكف الظلم الى من يتجاسر إلى إعادة يده اليها عادٍ ومن عاد ، ويجرد إلى العدا من خياله وخيله سرايا تطرد عن موارد جفوفهم بقوائمها الرقاد وتستعيد عوارى أرواحهم من مستودعات أجسادهم ، فهى بحكم العارية غير مستقرة فى الأجساد ، ويصون الرتب عن تطرق من يفسد حولها لعدم أهليته . . . وينظر فى أمور الممالك الشامية نظراً عاماً ويعمل فى سداد ثغورها وسداد أمورها رأياً ثاقباً وفكراً تاماً ويلاحظ أموال ما بعد من البلاد كملاحظته أموال ما دَنا » (١) .

ومن أشهر نواب دمشق الأمير سيف الدين تنكز (٢) الذى نال حظوة كبيرة لدى السلطان الناصر محمد منذ تعيينه فى هذا المنصب فى شهر ربيع الأول سنة ٧١٢ هـ حتى أنه زوج ابنى تنكز من ابنتى السلطان نفسه . ولما عاد تنكز الى الشام بعد تمام مراسم الزواج كتب له الناصر تقليداً « بتفويض الحاكم فى جميع الممالك الشامية بأسرها وان جميع نوابها تكاتبه وأن تكون مكاتبته : أعز الله أنصار المقر الشريف بعد ما كانت : أعز الله أنصار الجناب ، وأن

---

(١) اقرأ نص تقليد الامير سيف الدين أغرلو نيابة السلطنة بدمشق فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٢ ص ٨ — ١٢ .

(٢) أورد المقريزى (الخطط جـ ٢ ص ٥٤) تاريخ حياة تنكز فقال : « سيف الدين أبو سعيد خليل جلبه إلى مصر وهو صغير الخواجا علاء الدين السوسى . فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون فلما ملك السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمره إمرة عشرة قبل توجهه إلى الكرك وسافر معه إلى الكرك وترسل عنه منها إلى الافرم فاتهمه أن معه كتبا إلى الأمراء بالشام وعرض عليه العقوبة ، فأرجف منه وعاد إلى الناصر فقال إن عدت الى الملك فأنت نائب دمشق . فلما عاد إلى الملك جهزه إلى دمشق فباشر النيابة وتمكن فيها . . . وعظم شأنه وأمن الرعايا حتى لم يكن أحد من الأمراء يظلم ذميا فضلا عن مسلم خوفا من بطشه وشدة عقوبته . وكان السلطان لا يفعل شىء بمصر الا ويشاوره فيه وهو بالشام وقدم غير مرة على السلطان فأكرمه وأجله . . . وكان الناس فى أيامه قد أمنوا كل سوء الا أنه كان يتخيل خيالا فيحتد خلقه ويشتد غضبه فهلك بذلك كثير من الناس . . . ولم يزل إلى أن أشيع بدمشق أنه يريد العبور إلى بلاد التتر فبلغ ذلك السلطان فتنكر له وجهز اليه من قبض عليه فى ثالث عشر ذى الحجة سنة أربعين [وسبعمائة] وأحيط بماله . فلما وصل تنكز الى قلعة الجبل جهز الى الاسكندرية واعتقل فيها نحو الشهر وقتل فى مجلسه ودفن بها فى حادى عشر المحرم سنة احدى وأربعين وسبعمائة » . راجع ترجمة حياة تنكز أيضا فى ابن أياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢ .

يزاد فى ألقابه الزاهدى العابدى العالمى كافل الاسلام أتابك العساكر »(١) .

ويلى نائب دمشق فى المرتبة نائب كل من حلب وطرابلس وصفد والكرك . ويطلق على كل منهم اسم « نائب السلطنة الشريفة » ولم يكن لهؤلاء من السلطنة والنفوذ ما كان لنائب دمشق ، كما يقول المقريزى : « وبالحقيقة ما كان يستحق اسم نيابة السلطنة بعد النائب بمصر سوى نائب الشام بدمشق فقط وانما كانت النيابة تطلق أحياناً على أكابر نواب الشام وليس لأحد منهم من التصرف ما كان لنائب دمشق . (٢) وكان يطلق على كل من نواب السلطنة ببلاد الشام اسم « ملك الأمراء » لقيامه مقام الملك فى التصرف والتنفيذ وقيام الأمراء على خدمته كخدمة السلطان (٣) .

ومن أشهر نواب الشام الأمير قَرَاسُنقر نائب حلب والأمير اسَنْدَمُر نائب طرابلس والأمير قَبْجَق المنصورى نائب حماه . وقد عرفوا بمناصرتهم للناصر وتأييدهم له حتى عاد بفضلهم الى السلطنة بعد أن اغتصبها منه لاجين ثم كتبغا على ما تقدم . على أن هؤلاء النواب لم يسيروا جميعاً فى حكم أهل الشام بالعدل والقسطاس المستقيم بل حكم بعضهم البلاد حكما جائرا . فقد ذكر العينى عند كلامه على حوادث سنة ٧١٠ ﻫ عن اسندمر نائب طرابلس فى عهد سلطنة الناصر الثالثة أنه أثار سخط الأهالى حتى حاصروه فى دار النيابة وقبضوا عليه وأرسلوه إلى الاسكندرية فسجن بها حتى مات . ثم كتب أهل الشام إلى السلطان الناصر « يشكون من نظام قراسنقر ، حتى قيل إن نهاراً واحداً عرضت على السلطان خمسون مطالعة بل أكثر منها كلها فى قراسنقر (٤) واسندمر » . فلما نظر السلطان الناصر فى هذه المظالم قال « واحسرتى قد خربت والله الشام ودعت الناس علينا بعد أن كانوا يدعون لنا . وهؤلاء الأمراء الذين فى الشام لو بعثت وراءهم بالطلب ما يجيئون وربما يفسدون على الأمر وإن خليتهم أخربوا البلاد وأهلكوا العباد »(٥). ومن قول الناصر « لو بعثت وراءهم ما يجيئون » نستدل على سطوة نواب الشام حتى فى عهد سلطنته الحقيقية . وليس أدل على صحة هذا القول من هذه العبارة التى أوردها أبو المحاسن على لسان السلطان كتبغا الذى قال بعد أن علم

---

(١) راجع ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢ حيث تجد تفصيلا لتاريخ حياة تنكز وعلاقته بالسلطان الناصر وما تمتع به من ألقاب .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٥٥ Demombynes : La Syrie, p. 141

(٤) أورد Mayer : Saracenic Heraldry, p.183—184 ألقاب قرا سنقر كما يلى : « المولى الأمير الكبير المجاهد المرابط الخاضع لربه المنان المفتقر الى عفو الله والرضوان شمس الدنيا والدين قراسنقر » .

(٥) العينى : عقد الجمان ج ٢٢ القسم الأول ص ٢١٢ و ٢١٤ .

بأن نواب الشام قد حلفوا له يمين الطاعة والولاء بعد امتناعهم وابائهم «الآن تم لى الملك»(١).

ومن أشهر الذين تولوا منصب نيابة السلطنة المملوكية: سيف الدين قُطُز وعز الدين الأَفْرَم، وحسام الدين طرنطاى وبدر الدين بَيْدَرَا، وزين الدين كتبغا، وسيف الدين سلاّر، وركن الدين بيبرس الدوادار، وبكتمر الجوكندار الكبير، وسيف الدين أرغون الدوادار، ولم يتول النيابة أحد بعده فى عصر الناصر محمد، وآخر من تولاها فى مصر فى عهد الناصر الأمير طُقُزُ دمر الحموى الساقى (٢). وتولى منصب نيابة السلطنة فى دمشق: الأمير عز الدين أيبك الحموى وجمال آقوش الأفرم، وشمس الدين قراسنقر، وسيف الدين كراى، وجمال الدين آقوش نائب الكرك، وسيف الدين تنكز. وعلاء الدين الطنبغا (٣) وسيف الدين منجك.

وقد ضعفت نيابة السلطنة فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ثم الغيت مع الوزارة سنة ٧٢٧ ﻫ ولكنها أعيدت ثانية سنة ٧٤٢ فى عهد ابنه أبى بكر وذلك سنة ٧٤٢ ﻫ (٤). ثم زالت نهائيا أثناء حكم السلطان الظاهر برقوق (٥). ويظهر أن وظيفة النيابة قد انحطت فى عهد دولة المماليك البرجية، بدليل ما ذكره المقريزى من أنه قد «اختلت الآن الرسوم واتضعت الرتب وتلاشت الأحوال وعادت أسماء لا معنى لها وخيالات حاصلها عدم» (٦).

وكان آخر من تولى نيابة السلطنة الأمير سودون الشَّيْخى. ولم يل أحد هذه الوظيفة فى عهد السلطان برقوق حتى جاء السلطان الناصر فرج فأقام الأمير تمراز فى النيابة ولكنه لم يقم فى دار النيابة فى القلعة ولم يتعد نفوذه نفوذ حاجب الحجاب ولم يتولها أحد من بعده (٧).

٢ — الأتابك : (٨)

والأتابك هو القائد العام لجيوش الدولة. وأتابك لفظ تركى مركب من كلمة «أطا» بمعنى أب، وكلمة «بك» بمعنى السيد أو الأمير، فيكون الأتابك هو السيد الأب أو الأمير

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٣ .

(٢) أورد Mayer : Saracenic Heraldry, p.235

(٣) أبو المحاسن : المنهل الصافى ج ٣ س ٢٥١ ب .

(٤) اقرأ نص تولية نيابة السلطنة للامير طقزدمر فى عهد السلطان أبى بكر محمد الناصر سنة ٧٤٢ ﻫ فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ١٤٣ — ١٤٨ . انظر أيضا المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٤

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ١٧ .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢١٥ .

(٧) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢١٥ . وأشار ابن شاهين (زبدة كشف الممالك ص١١٢) الى أن آخر من ولى وظيفة نائب السلطنة هو الأمير الطنبغا العثمانى .

(٨) رأيت أنه مَن الأفضل تقديم وظيفة نائب السلطنة على وظيفة الأتابك، بغض النظر عن أن الأتابك كان فى بعض الأحيان تطغى سلطته على سلطة نائب السلطنة .

الأب أى أب الأمراء. (١) وقد أطلق السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقى (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) لفظ أتابك على وزيره نظام الملك حين فوض اليه تدبير أمور المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقبه بعدة ألقاب من بينها هذا اللقب. وبذلك كان نظام الملك هو أول من تلقب بلقب أتابك(٢) وكان السلاجقة يطلقون هذا اللفظ على كبير من أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير. وكثيراً ماتزوج الأتابك من أم الموصى عليه، فتصبح العلاقة بين السلطان وبين وصيه شبه أبويه.

وقد أطلق هذا اللقب فى عهد المماليك على مقدم العساكر أو القائد العام، لأنه كان يعتبر أبا العساكر والأمراء جميعا، وكان يسمى أتابك العساكر. ويعد الأتابك أكبر أمراء المئين ويليه فى المرتبة نائب السلطنة. ولم تكن له وظيفة «ترجع إلى حكم وأمر ونهى وغايته رفعة المحل وعلو المقام». (٣)

وكثيرا ما اغتصب الأتابكة عروش أبناء سادتهم. وباعتلاء الناصر العرش، نرى أن عهد استئثار الأتابكة بالسلطة ووقوع السلطان تحت نفوذهم الفعلى قد سار سيرته الأولى وأن الناصر أصبح فى ذلك العهد ألعوبة فى يد أتابكه الأمير زين الدين كتبغا المنصورى سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) الذى استحوذ على السلطة والنفوذ وانتهى الأمر باعتلائه العرش سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ م).

٣ — الوزير

ويلى نائب السلطنة فى المرتبة الوزير (٤). والوزارة ليست من مستحدثات الحكم فى دولة

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨. الخالدى: المقصد ص ١٣٤.
وكان هذا اللقب يطلق فى البداية على المؤدب والوصى على الأمراء الترك فى الأسرة السلجوقية. وقد كان هؤلاء الأمراء يعهد بهم منذ صغرهم الى أمير كبير يقوم بتربيتهم ويكون لهم بمثابة الأب. ثم أصبح هذا اللفظ لقباً دائماً منح لبعض الأمراء الأقوياء (راجع مادة «أتا» فى دائرة المعارف الاسلامية)
وفى بعض المصادر أن هذا اللقب كان لا يمنح إلا عند ما لا يكون هناك نائب للسلطنة. ويستنتج من ذلك أن مرتبة الأتابك كانت تلى مرتبة نائب السلطنة. انظر:
Van Berchem : Corpus, Egypte I, 276, 290
Demombynes : La syrie, p. LV.

(٢) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر جـ ٤ ص ١٨.

(٤) «الوزير» كلمة مشتقة من الوِزْر وهو الثقل لأن الوزير يحمل أعباء المملكة أو من الوَزَر الملجأ والمعتصم، بمعنى أنه يلجأ اليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره. ابن طباطبا: الفخرى ص ١٣٧. وقيل إنها مشتقة من الأوزار وهى الأمتعة لأنه يتكفل بأمتعة الملك وما فى خزانته. وقيل أيضا من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى به تقوى البدن بالظهر. الخالدى: المقصد ص ١٢٥. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٩٣ — ٩٤.

المماليك ، فهى فارسية الأصل . أخذها العباسيون عن الفرس ضمن ما اتخذوه من نظم الحكم [١].
ولم تعرف الوزارة فى مصر قبل عهد الاخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، حيث وليها الوزير جعفر بن الفرات . وكانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٦٢ — ٤٦٥ هـ) « وزارة تنفيذ » [٢] . وأصبحت فى العصر الفاطمى الثانى (٤٦٥ — ٥٦٧ هـ) « وزارة تفويض » فتمتع الوزراء بسلطة مطلقة . واعتلى الوزارة فى أواخر أيام العاضد الفاطمى (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) أسد الدين شيركوه ثم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية فيما بعد . واتخذ سلاطين الأيوبيين فى مصر وزراء لم تعد سلطتهم سلطة وزراء التنفيذ ، بمعنى أن هؤلاء السلاطين قد عملوا على الحد من نفوذهم باستحداث نظام نيابة السلطنة فأصبح النائب تبعاً لهذا النظام يلى السلطان فى المرتبة ويتمتع بكل ما كان يتمتع به الوزير من قبل ، على أن سلطة الوزير فى عهد الأيوبيين — رغم هذا — لم تضعف إلى حد كبير ، بدليل ما ذكره بعض المؤرخين من أمثال العمرى والقلقشندى والمقريزى ، فالوزارة فى نظرهم « أعلى الوظائف وأسناها بعد السلطنة وصاحبها هو باب الملك المقصود ولسانه الناطق ويده الباسطة » [٣] . و « أجل الوظائف وأرفعها رتبة فى الحقيقة » [٤] و « أجل رتب أرباب الأقلام لأن متوليها ثانى السلطان إذا أنصف وعرف حقه » [٥]

ولننتقل الآن إلى الكلام على نظام الوزارة فى ذلك العصر ، لنرى الى أى حد قد تطور هذا النظام فى ذلك العصر . وقد هدانا البحث إلى أن وزراء هذا العصر لم يتمتعوا بنفوذ مطلق لاستمرار نظام نيابة السلطنة الذى استحدث فى مصر وسار عليه المماليك ، ولأن الذين شغلوا هذا المنصب الأخير احتفظوا بسلطانه وكانوا ذوى شخصية عظيمة . وقد ذكر العمرى أن الوزارة تضاءلت وتأخرت بسبب ذلك ، وقعدبها مكانها حتى صار المتحدث فيها كناظر

---

(١) كانت الوزارة فى عهد العباسيين نوعين : وزارة التنفيذ وتكون فيها مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه . ووزارة التفويض وهى أن يعهد الخليفة بالوزارة الى رجل يفوض اليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع اليه . ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٦ — ١٣٧ . الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢١ — ٢٨ . مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٢) كان أول وزراء الفاطميين فى مصر يعقوب بن كلس . وبوفاته تحولت الوزارة إلى مايسمونه « الوساطة » . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ هـ) ثم عادت الوزارة فى عهد الخليفة الفاطمى الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ هـ) . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٤٩ . المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٣٩ — ٤٤٠ .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار جـ ٥ ص ٤٣٩ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٨ .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٣ .

المال لا يتعدى الحديث فيه ولا يتسع له فى التصرف مجال ولا تمتد يده فى الولاية والعزل لتطلع السلطان الى الاحاطة بجزئيات الأحوال » [١].

على أن الحد من سلطة الوزير لم يجعل هذا الموظف كمية مهملة . فقد حرص الظاهر بيبرس على اختيار وزرائه من أرباب الأقلام والسيوف[٢] فاذا كان الوزير من أرباب الأقلام أطلق عليه اسم « الصاحب » [٣] ، ثم أضيف الى هذا اللقب لقب آخر هو « الوزير » وغدا يطلق عليه « الصاحب الوزير » [٤] أو « وزير الصحبة » ، وهو وزير متنقل يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شئون الوزاره . واذا كان الوزير من أرباب السيوف اكتفى بتلقيبه بالوزير دون الصاحب ، وهو بهذا الاعتبار الوزير الأصلى الذى يحضر مجلس السلطان مع أمراء المئين ويتصرف فى جميع أمور المملكة [٥]، ويتميز عن غيره بدق الطبلخاناه على بابه [٦] .

ومن ذلك نرى أن سلاطين المماليك كانوا يعينون وزيرين فى وقت واحد : أحدهما وزير الصحبة ويعين من أرباب الأقلام ، والثانى الوزير ويعين من أرباب السيوف . على أن السلطان الناصر لم يعن بتمكين وزرائه من معاونته فى إدارة شئون الدولة — كما كانت الحال فى عهد الفاطميين والأيوبيين — بل أضعف نفوذهم حتى إن اختصاصهم لم يعد تنفيذ أوامر السلطان والنائب والنظر فى أمور الدولة المالية بالاشتراك مع ناظر الدولة الذى يشبه وزير المالية اليوم بعد أن كانت سلطته تتناول كافة شئون الدولة . ويقول ابن خلدون عن مركز الوزير فى عهد المماليك : « ثم جاءت دولة الترك آخراً بمصر ، فرأوا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها

---

(١) مسالك الأبصار ج ٥ ص ٤٣٩ .

(٢) عن « ارباب الاقلام والسيوف » راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I. , p. 243.

(٣) راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I. , pp. 403 - 404.

(٤) لم يكن اطلاق لقب الصاحب على الوزير من مستحدثات المماليك وانما يرجع الى ايام بنى بويه الذين استبدوا بالسلطة فى بغداد (٣٣٤ — ٣٤٧ هـ) فقد اطلق لقب الصاحب على الوزير اسماعيل بن عباد الذى كان يصحب مؤيد الدولة ابا منصور بويه بن ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمى صاحب بلاد الرى فسماه الصاحب لأنه كان يخصه بعطفه ومحبته . ومن ثم تلقب الوزراء من بعده بالصاحب (الخالدى : المقصد ص ١٢٦) . ولم يطلق لقب الصاحب على أحد من وزراء الخلفاء العباسيين فى بغداد او الفاطميين فى مصر الى ان جاء الأيوبيون . فلقب السلطان العادل والسلطان الكامل الوزير صفى الدين عبدالله بن شكر بلقب « الصاحب » الذى اصبح يطلق على وزراء مصر من ارباب الأقلام (المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣) . وقد علل الخالدى سبب تلقيب الوزراء بهذا اللقب بقوله إن « الوزير صاحب رأى الملك وتدبير أمره » (المقصد ص ١٢٦) .

(٥) انظر وصية وزير فى العمرى : التعريف ص ٩٣ — ٩٤

(٦) الخالدى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور . ونظرُه مع ذلك متعقّب بنظر الأمير، فصارت مرءوسة ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية فى الدولة من اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد . وبقى اسم الحاجب فى مدلوله ، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية » (١) .

على أن ذلك لم يكن حال جميع الوزراء الذين تولوا منصب الوزارة فى ذلك فقد تولاها رجال عرفوا بالكفاءة وحسن تصريف الأمور . وكان بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم المعروف بابن حِنا أول من تقلد الوزارة فى دولة المماليك البحرية وقد وزر للسلطان الظاهر بيبرس . فكان بيبرس يرجع إليه فى أمور الدولة ويعتمد عليه فى تنفيذ رغباته وأوامره . على أنه لم يتمتع بما كان يتمتع به وزراء التفويض مثلا فى الدولة العباسية من نفوذ وجاه ، لاستبداد بيبرس بالسلطة وقيام نائب السلطنة مقامه فى أثناء غيابه ، وتدخله فى تعيين كبار موظفى الدولة . ومع ذلك فان هـذا الوزير كان ينعم — على رغم هذا — فى ظل بيبرس بمنزلة سامية ومقام رفيع . ويتبين لنا ذلك واضحاً جلياً من تلك الرسالة التى خاطبه بها محى الدين ابن عبد الظاهر فى أثناء وجوده مع السلطان بيبرس فى قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ، تلك الرسالة التى عبر فيها ابن عبد الظاهر عما كان يتمتع به هذا الوزير من منزلة لم يصل اليها غيره إلا القليل من وزراء مصر ، على مانراه مبسوطا كل البسط فى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى (٢) . ولما توفى بيبرس وتولى سلطنة مصر الملك السعيد أقر ابن حنا فى الوزارة وكتب له تقليداً أشاد فيه بمواهبه وكفايته وأطنب فى صفاته العالية وما امتاز به من سعة العلم والتفقه فى الدين والتحلى بآدابه والتمسك بأهدابه . وتوفى هذا الوزير سنة ٦٦٧ هـ

ومن أشهر وزراء مصر أيضاً الأمير علم الدين سنجر الشجاعى فى عهد السلطان قلاوون . وهو أول من ولى الوزارة من الأمراء ، وأول من ضرب على بابه الطبلخاناه ، كما كانت الحال بالنسبة إلى وزراء الخلفاء العباسيين فى بغداد . (٣)

على أن الوزراء لم يتمتعوا طوال هذا العهد بقسط وافر من النفوذ . وظل الحال على ذلك حتى تولى الأمير شمس الدين محمد بن عثمان المعروف بابن السَّلْعُوس ، وهو الذى عهد إليه السلطان خليل بن قلاوون تصريف شئون البلاد ؛ فكان هو الحاكم بأمره ، يخشاه كبار رجال الدولة ويأتمرون بأمره ويضعون أنفسهم رهن إشارته . وفى ذلك يقول بيبرس الدوادار

---

(١) مقدمة ص ٢٠٨ .

(٢) ج ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥ .

(٣) انظر نص تقليد الوزارة للصاحب بهاء الدين بن حنا فى عهد السلطان سعيد بركة خان بن الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧ هـ . (١٢٦٨ م) فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٢ ص ٢٧٠ — ٣٧٤ .

إنه لما تسلطن الأشرف فى ذى القعدة سنة ٦٨٩ هـ أرسل فى طلب ابن السلعوس من الحجاز وحثه على الحضور برسله وكتبه حتى لقد قيل إنه كتب اليه بخطه فى أثناء كتابه : « ياشقير ياوجه الخير تعجل بحضورك لتسلم وزارة الديار المصرية والشامية . فساعة وصوله أفاض عليه خلعة الوزارة وقدمت له الدواة والبغلة من غير مهلة . فبسط يده و لسانه وقوى جنابه وجنانه وأظهر من العظمة والكبرياء والعجب والخيلاء أمراً كبيراً وجرد فى خدمته بعض المماليك السلطانية فكانوا يركبون فى خدمته ويقفون إذا جلس فى مجلسه وصار يركب فى موكب كبير من الجند وأصحاب الدواوين وغيرهم من المتعممين ووسع له السلطان فى الجامكية والرواتب وألقى مقاليد الدولة إليه وأحال الأمراء والكبراء فى أشغالهم عليه فكان منهم من يقبل يديه إذا عرضت له حاجة الى غير ذلك من أمور تعاطاها وأحوال من الكبر والزهو أتاها »[1]. وأضاف المقريزى الى ما ذكره بيبرس الدوادار عن عظمة هذا الوزير واتساع نفوذه أنه « تمكن تمكناً لم يتمكنه وزير قبله فى الدولة التركية ، وصار اذا أراد الركوب الى القلعة اجتمع ببابه نظار الدولة ومشدّ الدواوين ووالى القاهرة ومصر ومستوفو الدولة ونظار الجهات ومشدو المعاملات ونحوهم من الأعيان ثم يحضر قضاة القضاة الأربعة وأتباعهم ، فاذا تكامل الجميع ببابه دخل اليه حاجبه وقال : أعز الله مولانا الصاحب . قد تكمل الموكب »[2]. وقد عظم أمر الوزير ابن السلعوس حتى صارت تقرأ عليه الظلامات ويبت فى أمرها دون عرضها على السلطان ، وأصبح صاحب الكلمة العليا فى مصر والشام[3]. وانتهت حياته بالقتل .

وفى عهد السلطان لاجين تولى الوزارة الأمير شمس الدين سُنْقُرْ الأعسر (جمادى الأولى سنة ٦٩٦ هـ) ، وهو من أظهر وزراء دولة المماليك . وقد أراد التشبه بابن السلعوس ، فقبض على زمام الأمور بنفسه ، وتعاظم على الأمراء وكبار رجال الدولة . وتعدى ذلك الأمر إلى السلطان نفسه ، حتى إنه كان إذا أراد أن يستشيره فى أمر من أمور الدولة أجابه إجابة مقتضبة تنم عن عدم الاكتراث لمقام مولاه ، حتى انه اضطر الى عزله عن منصبه ، وعبر عن استيائه منه وسخطه عليه بقوله : « ماله عندى ذنب غير كبره فانى كنت إذا دخل علىّ أحسب أنه هو السلطان وأنا الأعسر ، فصدره منقام وحديثى معه كأنى أحدث أستاذى[4] » .

وفى سلطنة الناصر الثانية تولى الوزارة الأمير عز الدين أيبك البغدادى (١٠ المحرم سنة ٧٠١ هـ) . وفى عهده ظهرت عظمة الوزارة حتى صارت فى مرتبة نيابة السلطنة . يدل على ذلك ما ذكره Zetterstéen من أنه فى يوم توليه « جلس بالقلعة وحكم وطلع إليه جميع أرباب

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ورقة ١٤٥ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٦١ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢٣ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨٤ .

المناصب والأعيان والأمراء والمقدمين وهنوه وقبّلوا أياديه ، وفى ثانى يوم قعد حكم وأمر ونهى وطلب من المستخدمين ما ينبغى طلبه من الحساب » [١] . والأمير عز الدين أيبك هو رابع الوزراء الذين سمح لهم بدق الطبلخاناه على أبوابهم [٢] .

وألغيت الوزارة مع نيابة السلطنة سنة ٧٢٧ هـ ، وأعيدت سنة ٧٤٤ هـ كما تقدم . فكان أول من تولاها الأمير سيف الدين بكتمر فى عهد السلطان أبى بكر بن الناصر . وقد أورد لنا القلقشندى نص تقليد هذا الأمير الوزارة [٣] . ومنه نتبين العوامل التى أدت إلى إعادة هذا المنصب بعد أن ظل شاغراً سبع عشرة سنة ، وظن الناس أن الوزارة قد زالت زوالا لا رجوع بعده .

ومن أشهر وزراء مصر فى عهد أولاد الناصر محمد الأمير سيف الدين مَنْجَك الذى تقلد هذا المنصب سنة ٧٤٨ هـ فى عهد السلطان الناصر حسن ، والذى أمر على أثر اضطلاعه بأعباء الحكم « أن لا يستقر فى المعاملات سوى شاهد واحد وعامل وشاد بغير معلوم ، حتى إن كتاب الدواوين خشوا عاقبة إهمالهم واتفقوا على أن يجمعوا مبلغ من المال يسلمونه إلى منجك سراً فعدل منجك عن رأيه وصار الكتاب وأرباب الدواوين من أقرب الناس وأحبهم إليه . على أن هؤلاء لم يكتفوا بذلك بل زينوا له الاستيلاء على أموال الناس بغير حق وسمع بذلك الولاة وأصحاب الحاجات . فهرع الناس إليه من مصر والشام وقصدوا واتخذ الوزير لنفسه وسطاء لجمع الرشوة ، وأخذ يولى من يشاء ويعزل من يشاء ويستحوذ على أموال الناس بالباطل . وأصبح بقاء العمال فى ولاياتهم متوقفاً على ما يقدمونه اليه من المال [٤] » ، وظل الحال على ذلك حتى عزل عن الوزارة . فكان أسوأ مثال للوزير فى ذلك العصر .

وكان لكل من نيابات الشام وزير يتمتع فى نيابته بما يتمتع به الوزير فى مصر ، بمعنى أنه كان يتمتع بكثير من النفوذ تارة ويضعف شأنه تارة أخرى وكان لا يسمح له بأن يلقب بالوزير بل يطلق عليه اسم « ناظر المملكة الشريفة » ، وإن كانت العامة مع ذلك تجرى على عادتها فى إطلاق لفظ الوزير عليه على حين كان يطلق عليه فى مصر « ناظر النظار » [٥] حتى أنه لا يوجد فى القلقشندى سوى تعريف بصاحب وظيفة ناظر النظار بدمشق فقط ونصه :

---

(١) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٩٧ .

(٢) الثلاثة الأول هم الأميرَ علم الدين سنجر الشجاعى المنصورى ، والأميربدر الدين بيدرا ، والأمير شمس الدين سنقر الأعسر .

(٣) انظر نص تقليد الوزارة للامير سيف الدين بكتمر فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ١٤٩ — ١٥٣ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ٣١٩ .

« وهو الذى يقوم بها بالديار المصرية »[١]. ويستنتج من هذا التعريف أن ناظر النظار بالديار المصرية يسمى أيضاً ناظر الدواوين أو ناظر الدولة ، ويعبر عنه فى مصطلح الدواوين باسم صاحب « الصحبة الشريفة » أى أنه يتحدث مع الوزير فى كل ما يتحدث فيه ويشاركه فى الكتابة فى كل ما يكتب ويوقع فى كل ما يوقع فيه . وإذا كان الوزير صاحب سيف تولى « الناظر » الإشراف على شئون الدولة المالية واقتصرت مهام الوزير على التنفيذ[٢] . وكان الوزير يعين من قِبل السلطان مباشرة ، ويصدر بتعيينه تقليد سلطانى ، وإن تقلد الوزارة أحد من أرباب السيوف عين معه « ناظر عملكه »[٣].

وفى سنة ٧٢٧ ﻫ (١٣٢٦ م) ألغى السلطان الناصر كلا من منصبى الوزارة ونيابة السلطنة فى وقت واحد « وعطل جيد المملكة من عقودها »[٤] . ومن ثم لم يتخذ الناصر وزيراً بل اعتمد على « ناظر الدولة » ، ثم استحدث وظيفة « ناظر الخاص » ليستعين به على إدارة شئون البلاد . على أن المصادر التى بين أيدينا لم تبين لنا سبب عدول السلطان الناصر عن هذا النظام الذى كان قائماً فى عهده وفى عهد من سبقه من سلاطين مصر ، بيد أن هذا لا يمنع من أن ندلى بالرأى الذى نراه وهو أنه إنما ألغى نظام الوزارة لينفرد بالسلطة ويستبد بالنفوذ والسلطان ويحول بذلك دون تدخل بعض الوزراء فى أمور الدولة تدخلا قد يؤدى إلى الحد من نفوذه أو ينتهى بعزله . ومن أظهر الأدلة على صحة هذا الرأى الوزير الشجاعى الذى كان له ضلع كبير فى إثارة الفتنة التى انتهت بخلعه عن سلطنته الأولى سنة ٦٩٤ كما ذكرنا .

على أن الوزارة لم تلبث أن أعيدت بعد وفاة الناصر بقليل . ومر هذا النظام بعد إعادته بأدوار يكتنفها التقلقل والاضطراب إذ سرعان ما كانت توأد عقب احيائها ثم لا تلبث أن تعود حتى تموت . ذلك أن الوزارة قد أعيدت فى سنة ٧٤٤ ﻫ ثم ألغيت سنة ٧٤٦ ﻫ وعادت بعد قليل . ثم ألغيت فى سنة ٧٤٧ ﻫ حيث استمرت إلى آخر دولة المماليك البحرية .

وفى عهد السلطان الناصر برقوق أول سلاطين دولة المماليك البرجية ألغيت الوزارة وتناوبتها الاعادة تارة والالغاء أخرى واضمحل شأنها وضعف نفوذ شاغلها و « تقاصرت حتى لم يبق منها إلا الاسم دون الرسم »[٥] .

وكان أشهر وزراء عصر دولة المماليك البحرية هم علم الدين الشجاعى وتاج الدين بن حنا ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٥ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦٥ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ١٢ ص ٣٣ . الخالدى : المقصد ص ١٤٥ .
Demombynes : La Syrie, p. 140, note 4.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢٨ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٥) المقريزى . الخطط ج ٢ ص ١٢٤ .

وفخر الدين الخليلي (مرتين) وشمس الدين سنقر الأعسر ، وسيف الدين البغدادى ، وناصر الدين الشيخى ، وأيبك الأشقر وسمى المدبر ، وابن عطايا ، وابن النشابى ، وابن التركمانى ، وسمشك ، والصاحب أمين الدين (عدة مرات) ، والأمير سيف الدين بكتمر الحاجب ، والأمير علم الدين مغلطاى الجمال وغيرهم[١] .

وكان الوزير يتناول راتباً شهرياً قدره مائتان وخمسون ديناراً ، عدا ما خصص له فى كل يوم من مقادير وفيرة من الغلال واللحوم والخبز والشمع والزيت وعليق دوابه ، ومقادير اللحم التى ترسل إلى داره فى شهر رمضان والعيدين والكسوة التى تخلع عليه فى كل سنة[٢].

٤ — والى القاهرة :

غير أن شئون الادارة والحكم استلزمت تعيين موظف كبير عرف باسم « والى القاهرة » ويُعد فى الواقع من أهم الموظفين الإداريين ، فقد كان — على ماذكره القلقشندى — « الذى يستعلم عن متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك فى كل يوم من نوابه ثم تكون مطالعة جامعة بذلك وتحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها »[٣] . وهو الذى ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر ، يعاقب كلاً من هؤلاء على حسب جريمته . ومن اختصاصه أيضاً مراقبة أبواب القاهرة والطواف بأحياء التجارة والمال . وكان « لا يمكنه النوم خارج المدينة إلا بمرسوم خوفاً من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك ، وتدق له طبلخاناه وكان يكتب له مرسوم بالولاية »[٤].

ومما رواه المقريزى عن أعمال الأمير قدادار والى القاهرة فى عهد السلطان الناصر نتبين مدى السلطة التى تمتع بها ذلك الموظف . ذلك أن السلطان الناصر كان قد عزل الأمير علم الدين سنجر الخازن والى القاهرة عن منصبه لأنه لم يتمكن من إعادة الأمن إلى نصابه حين « توقف الحال وطمع السوقة فى الناس » ، وعين الأمير قدادار والى البحيرة مكانه سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧ م) ، فبدأ عهده بتعقب المفسدين ومثيرى الفتن والقلاقل فى البلاد واشتد فى معاقبة اللصوص ومدمنى الخمر حتى إنه « أخذ يتتبع من عصر الخمور وأحضر عريف الحمالين وألزمه إحضار من كان يحمل العنب . فلما حضروا عنده استملاهم أسماء من يشترى العنب ومواضع مساكنهم ثم أحضر خفراء الحارات والأخطاط ولم يزل بهم حتى دلوه على سائر من عصر الخمور فاشتهر ذلك بين الناس وخافوه . . . ثم ركب وكبس خط باب اللوق وأخذ منه شيئاً

---

(١) المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٥١ أ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٠ .

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٢٨ .

كثيراً من الحشيش وأحرقه » (١) . وعظم شأن الأمير قدادار فقسا فى معاملة الناس واشتد سفكه للدماء . وأمر ألا يفتح التجار حوانيتهم بعد العشاء ولا يمشى أحد بالليل فى الأسواق ولا يخرج الناس من بيوتهم فى المساء فامتنعوا عن الخروج حتى صارت الطرقات موحشة مقفرة ورتب الأمير قدادار الخفراء للسير ليلا فى جميع الحارات فضاق الناس به ذرعا وحنقوا عليه وكرهوه . ولكن السلطان الناصر لم يأبه لذلك وأصدر مرسوما لعماله وولاته يقضى بأن « أحداً منهم لا يقتص ممن وجب عليه القصاص فى النفس أو القطع إلا أن يشاور فيه ويطالع بأمره ماخلا قدادار متولى القاهرة » . فاشتد الكرب على الناس وكثرت الشكايات منه فعزله الناصر سنة ٧٢٩ هـ وعين بدلا منه الأمير ناصر الدين بن المحسنى فأقام فى ولايته إلى أن مات سنة ٧٣٠ هـ (٢) .

وكان والى القاهرة يطلق عليه أحياناً « صاحب العسس » (٣) أو والى الطوف (٤) وهو الاسم الذى عرف به عند العامة وكان يجلس بعد صلاة العشاء أحياناً بمحطة المطافئ التى اتخذها المماليك بسوق الجمالون الكبير بالقرب من حارة الجودرية بالغورية ويوضع أمامه مشعل يشعل طول الليل ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال حتى إذا حدث الحريق بالليل بادروا إلى اطفائه . وكان والى الطوف يتولى محاكمة كل من يقبض عليه من اللصوص أو السكارى والحكم عليه بما يناسب الجريمة التى ارتكبها . على أن الطواف فى هذا السوق ليلا قد بطل بعد قليل (٥) .

ويعمل بجانب والى القاهرة الذى اقتصر نفوذه على العاصمة وضواحيها عدة ولاة آخرين لكل منهم عمل خاص به ، وأهمهم : والى الفسطاط ويحكم بمصر (أى فى الفسطاط والعسكر والقطائع) ، ويختار من أمراء العشرات . ووالى القرافة ومقره القاهرة ويشرف على إدارة الأمن فى جهات القرافة ويحكم نيابة عن والى الفسطاط ويعين من بين أمرات العشرات . ومن هؤلاء الولاة والى القلعة أو « نائب القلعة » ويختار من أمراء الطبلخانات ويشرف على فتح وإغلاق باب القلعة الكبير المخصص لخروج الجند ودخولهم (٦) كما يتفقد أسوار القلعة ومنافذها ويعمل على إصلاحها ثم أصبح من اختصاصه الفصل فيما يقع بين العامة من

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٨ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٨—١٤٩ .
(٣) العسس : الطواف بالليل لتتبع أهل الريب .
(٤) كان والى القاهرة يسمى بأسماء متعددة تختلف باختلاف الأقاليم التى يقيم فيها فيطلق عليه فى أفريقية (بلاد تونس الحالية) اسم « الحاكم » ، كما كان يسمى فى الأندلس « صاحب المدينة » .
(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٠٣ . السبكى : معيد النعم ص ٩٣ .
(٦) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢—٢٣ .

الخصومات [١] وكان لنائب القلعة نظير فى نيابات الشام حيث كان يصدر بتعيينه مرسوم سلطانى يكتب بديوان الانشاء ، كما كان يختار من أمراء الطبلخاناه . وقد أجمل القلقشندى اختصاصات نائب القلعة فى هذه العبارة فقال إنه كان يتولى « أمر حفظها وصونها ولا يسلم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه أو لمن يأمره السلطان بتسليمه له »[٢] . وكان من واجب نائب القلعة أو الحصن الموجود فى الاقليم أن يتجسس على النائب ويقاومه إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان [٣] .

وبذلك كان لكل قلعة أو حصن حاكم حربى أو نائب . وكان هـذا النائب فى معظم الأحيان مستقلا عن نائب السلطنة فى الاقليم وتابعاً للحكومة المركزية رأساً . ومن هذه قلاع القاهرة ودمشق وحلب وصفد والكَرَك [٤] .

وقد أورد العمرى نص اليمين التى كانت تؤخذ على نواب القلاع عند تعينهم فى وظائفهم فقال : « وانى أجمع رجال هذه القلعة على طاعة مولانا السلطان وخدمته فى حفظ هذه القلعة وحمايتها وتحصينها والذبّ عنها والجهاد دونها والمدافعة عنها بكل أنواع ما فيها من الأقوات والأسلحة . وانى لا أخرج شيئاً منها إلا فى أوقات الحاجة والضرورة الداعية المتعين فيها تفريق الأقوات والسلاح على قدر ماتدعو الحاجة إليها . وانى أكون فى ذلك كواحد من رجال هذه القلعة ، وكل واحد ممن يتبعنى كواحد ممن يتبع أتباع رجال هذه القلعة لا أتخصص ولا أمكن التخصيص . وانى والله والله والله لأفتح أبواب هذه القلعة إلا فى الأوقات الجارى بها عادة فتح أبواب الحصون وأغلقها فى الوقت الجارى به العادة ولا أفتحها إلا بشمس ولا أغلقها إلا بشمس . وانى أطلب الحراس والدراجة وأرباب النواب فى هذه القلعة بما جرت به العوائد اللازمة لكل منهم بما فى ذلك جميعه مصلحة مولانا السلطان[٥] .

٥ — ولاة الاقاليم : الادارة المحلية .

يمثل هؤلاء الموظفون الذين سبقت الاشارة إليهم الادارة المركزية فى القاهرة وضواحيها . أما فى الأقاليم فكانت الادارة المحلية ممثلة فى الوالى ، إذ كان يشرف على كل عمل من أعمال الوجهين البحرى والقبلى فئة من الموظفين على رأسهم والى الاقليم . وكانت مهمة الوالى — سواء فى القاهرة أم فى الأقاليم — العمل على استتباب الأمن والنظام وبث الطمأنينة فى النفوس والمحافظة على أموال الناس وأرواحهم .

---

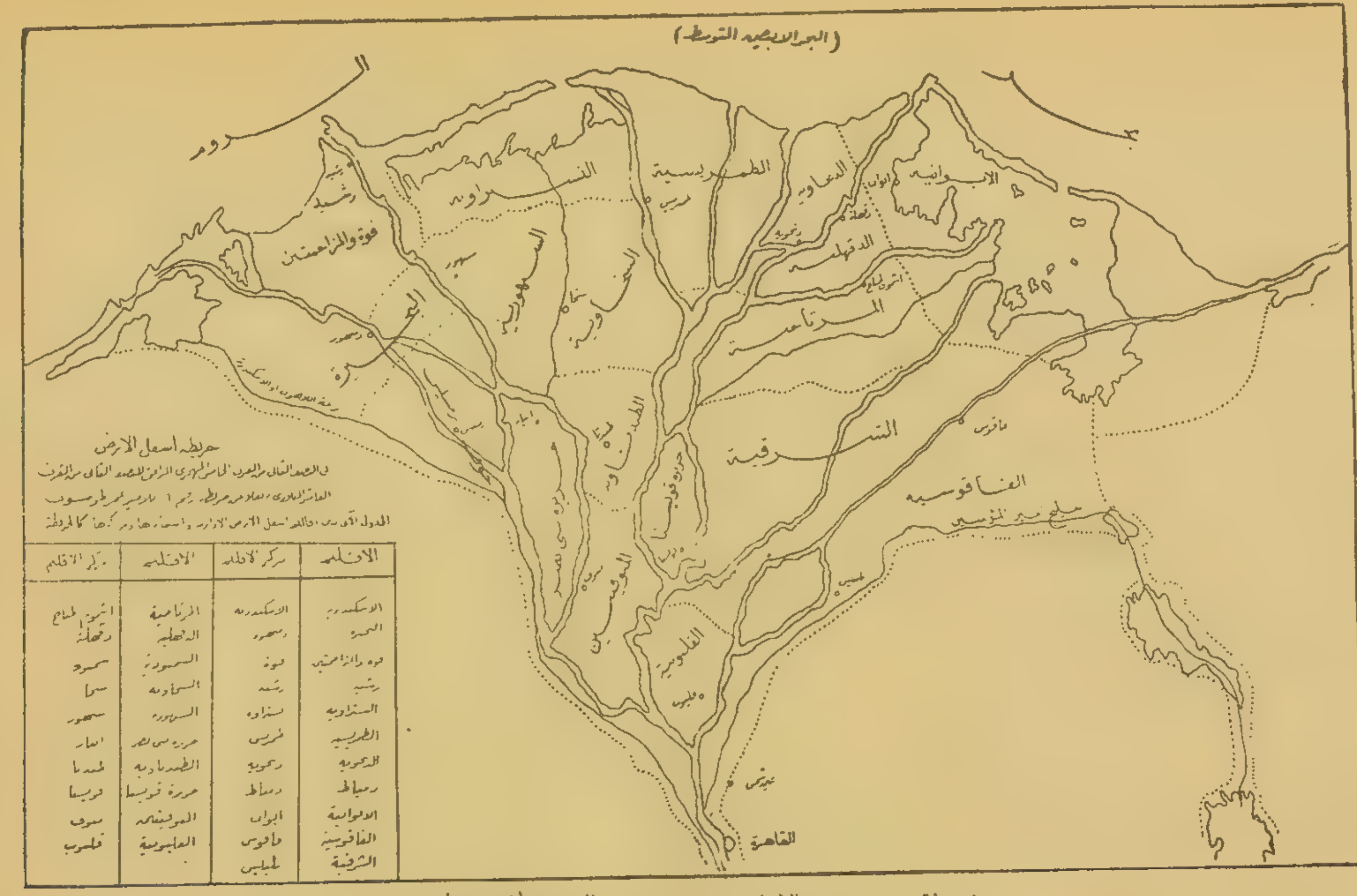
(١) الخالدى : المقصد ص ٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨٥ .

(٣) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 56.

(٤) Van Berchem : Corpus, Egypte I , pp. 210—211

(٥) العمرى : التعريف ص ١٤٨—١٤٩ .



الاقليم	مركز الاقليم	الاقليم	مركز الاقليم
الاسكندرية	الاسكندرية	المرتاحية	اشموم طناح
البحيرة	دمنهور	الدقهلية	دقهلة
فوه والمزاحمتين	فوة	السمنودية	سمنود
رشيد	رشيد	السخاوية	سخا
النستراوية	نستراوه	السنهورية	سنهور
الطريسية	طريس	جزيرة بني نصر	ابيار
الدعاوية	دمحويه	الطندتاوية	طندتا
دمياط	دمياط	جزيرة قوسنيا	قوسنيا
الابوانية	ابواب	المنوفية	منوف
الفاقوسية	فاقوس	القليوبية	قليوب
الشرقية	بلبيس		

خريطة تقسيم مصر الادارى من منتصف القرن الخامس الهجرى



خريطة تقسيم مصر الادارى فى عهد السلطان الأشرف شعبان (٧٧٧ هـ = ١٣٧٥م)

وكان تقسيم الوجه البحرى إداريا فى أوائل عصر المماليك جاريا على النحو الذى تمّ فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى) حين كانت مصر مقسمة الى اثنين وعشرين إقليما، بيناها على المصور الذى نلقناه من الخريطة رقم ٦ للأمير عمر طوسون وهى :

اسم الاقليم	مركز الاقليم	اسم الاقليم	مركز الاقليم
الاسكندرية	الاسكندرية	المرتاحية	اشموم طناح
البحيرة	دمنهور	الدقهلية	دقهلية
فوة والمزاحميتين	فوة	السمنودية	سمنود
رشيد	رشيد	السخاوية	سخا
النستراوية	نستراوة	السنهورية	سنهور
الطمريسية	طمريس	حوف رمسيس	رمسيس
الدنجوية	دنجوية	جزيرة بنى نصر	ابيار
دمياط	دمياط	الطندتاوية	طندتا
الابوانية	ابوان	جزيرة قويسنا	قويسنا
الفاقوسية	فاقوس	المنوفيتان	منوف
الشرقية	بلبيس	القليوبية	قليوب

وفى سنة ١٧١٥ ﻫ (١٣١٥ م) مسحت أرض مصر فى عصر الناصر وعرف ذلك باسم « الروك الناصرى » وأصبح عدد الأقاليم الادارية بالوجه البحرى وفق هذا التقسيم اثنى عشر إقليما [١] كما يتضح من المصور الذى أفردناه لتوضيح هذا التقسيم وهذه الأقاليم هى :

أسماء الأقاليم	العواصم	عدد البلاد	أسماء الأقاليم	العواصم	عدد البلاد
ضواحى مصر	القاهرة	٢٦	المنوفية	منوف العلا	١٣٣
القليوبية	قليوب	٦١	ابيار وجزيرة بنى نصر	ابيار	٤٩
الشرقية	بلبيس	٣٩٩	البحيرة	دمنهور	٢٣١
الدقهلية والمرتاحية	اشموم طناح	٢١٤	فوة والمزاحميتين	فوة	١٦
دمياط	دمياط	١٤	النستراوية	نستراوة	٦
الغربية	المحلة الكبرى	٤٧٧	الاسكندرية	اسكندرية	١٤

(١) راجع ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ص ٣ — ٤ .
Tousson : La Géographie de l'Egypte, t. 1. pp. 1—4,217.
وفى عهد الفراعنة كانت مصر تنقسم إلى أقسام إدارية ، أقرب إلى المديريات فى حجمها ، يسمى

وكان ولاة الوجه البحرى موزعين على الوجه الآتى : والى الغربية [1] ومقره المحلة الكبرى، ووالى الشرقية[2] ومقره بلبيس، ووالى المنوفية ومقره منوف، ووالى البحيرة ومقره دمنهور، وكانوا ينتخبون من أمراء الطبلخاناه . ثم والى القليوبية ومقره قليوب ، ووالى الدقهلية والمرتاحية ومقره أشموم ، ووالى دمياط ومقره دمياط ، ووالى قطيا ومقره بلدة قطيا الواقعة بمنطقة الحدود بين شبه جزيرة طورسينا وفلسطين . وكان أولئك الولاة يعينون من أمراء العشرات . أما البحيرة فكان لا يعين لها فى بعض الأحيان والى بل يشرف عليها نائب [3] . وكانت الاسكندرية تعد ولاية من ولايات الوجه البحرى يعين عليها وال من أمراء الطبلخاناه [4] وذلك قبل أن تتحول إلى نيابة فى سنة ٧٦٧ هـ . ولا شك فى أن نائب الاسكندرية لم يكن فى مرتبة نائب السلطنة فى مصر أو نيابات الشام . ولسنا ندرى لماذا عين نائب للبحيرة دون سائر الولايات ، لأنه إذا كان قد روعى كثرة العرب فى اقليم البحيرة فان هؤلاء العرب كانوا كثيرين فى اقليم الشرقية كذلك .

وقد وصف القلقشندى أقسام الوجه القبلى أو أعلى الأرض ، فقال إنه كان يتكون من : عمل الجيزية وهو أقرب هذه الأعمال إلى الفسطاط والقاهرة ومقره مدينة الجيزة كما هى الحال الآن ، وعمل الاطفيحية ويمتد شرقى النيل من جنوب الفسطاط ومقره مدينة اطفيح التى تقع بين المقطم والنيل وهى الآن تابعة لمركز الصف بمديرية الجيزة ، وعمل البهنساوية ويلى عمل الجيزية جنوباً ومقره البهنسى وهى الآن احدى قرى مركز بنى مزار مديرية المنيا وتقع على الشاطىء الغربى للنيل، وعمل الفيومية ويلى البهنسى ومقره مدينة الفيوم . وكان من أعمال الصعيد أيضا عمل الأشمونين والطحاوية ويقع جنوبى البهنقى ومقره مدينة الأشمونين وموضعها الآن مدينة المنيا ، وعمل المنفلوطية ويلى الأشمونين جنوباً ومقره مدينة منفلوط ، وعمل الأسيوطية ويلى منفلوط جنوباً ومقره مدينة أسيوط ، وعمل الاخميمية ويلى أسيوط من ناحية الجنوب ويقع غربى النيل ومقره اخميم ، وعمل القوصية ويقع جنوبى أسيوط ويمتد

كل واحد منها Hesepu . وقد بقى هذا التقسيم الادارى كما هو فى مصر البطلموسية والرومانية ، وكان كل واحد من هذه الأقسام يسمى Nome . أنظر Bevan : The Ptolemaic Dynasty و Moret : Le Nil . وجاء فى استرابون Strabon (Vol. III, Chapter 17, p. 221) ذكر للاقسام الادارية فى مصر التى كان عددها فى رأيه ستة وثلاثون قسما .

(١) اقرأ صورة تقليد والى الغربية فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٤٥—٤٧ .

(٢) اقرأ صورة تقليد والى الشرقية فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤٣—٤٧ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٢٦—٢٧، ٦٦ . الخالدى : المقصد ص ١٤٣ .

(٤) اقرأ صورة تقليد والى الاسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٥٧—٥٩ .

إلى أسوان ومقره مدينة قوص ، وعمل أسوان وكان تابعاً لعمل قوص ، ثم صار بعد عصر الناصر مستقلا بنفسه لا حكم لوالى قوص عليه[1]. وقد وردت أقسام الوجه القبلى فى كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية [2] على النحو الآتى :

أسماء الأقاليم	العاصمة	أسماء الأقاليم	العاصمة
الجيزة	الجيزة	الاطفيحية	أطفيح
الفيومية	الفيوم	البهنساوية	البهنسا
الأشمونين	الاشمونين	الاسيوطية	أسيوط
الأخيمية	أخميم	القوصية	قوص

وكانت الواحات فى زمن الناصر محمد ثلاثا : واح الأولى وواح الوسطى وواح القصوى . ثم عرفت واح الأولى فى زمن القلقشندى بالواح الخاص وبواح البهنسى أيضاً لوقوعها قبالة الأعمال البهنساوية ، وعرفت الواح الواسطى بالواح الداخلة ، والقصوى بالواح الخارجة . وأصبحت هذه الواحات ضمن إقطاع الأمراء الذين كانوا يولون عليها ولاة من قبلهم بخلاف سائر ولايات مصر وأعمالها اذ كان ولاتها يعينون من قِبل السلطان الناصر ، ومن ثم لم تعتبر هذه الولايات من ولايات مصر[3] .

وعلى ذلك فان ولاة الوجه القبلى كانوا موزعين على النحو الآتى : والى البهنساوية ومقره البهنسى ، ووالى الأشمونين والطحاوية ومقره الأشمونين ، ووالى القوصية والاخميمية ومقره قوص . وكانوا يعينون من أمراء الطبلخاناه . ثم والى الجيزية ومقره الجيزة ، ووالى الاطفيحية ومقره اطفيح ، ووالى المنفلوطيه ومقره منفلوط ويعينون من أمراء العشرات . وكان والى قوص أعلى ولاة الوجه القبلى مكانة حتى انه كان يركب بالشبابة السلطانية [4] فى المواكب أسوة بنواب السلطنة ببلاد الشام بل كان يفوق والى الغربية — وهى أعظم ولايات الوجه البحرى — مكانة ، وقد أضيفت ولاية أسوان إلى أعمال والى قوص . ولم يكن فى أسيوط وال ولكنها ما لبثت أن أصبحت فى عهد دولة المماليك البرجية مقراً لنائب الوجه القبلى . وقد عين وال لثغر عيذاب أحد ثغور مصر الواقعة على البحر الأحمر وكانت تمر منه تجارة الشرق وذلك فى عهد السلطان الناصر محمد . ولكن المعروف أن أهميتها قلت فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) اذ بدأت تجارة الشرق تتحول الى موانى البحر الأحمر الشمالية .

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٢ — ٣٩٨ .

(٢) ابن الجيعان ص ٤ — ٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٩٣ — ٣٩٤ . المقريزى : كتاب السلوك ج ٢ ص ٥٢٠ — ٥٢١ حاشية للدكتور زيادة .

(٤) سبق شرح مدلول هذا اللفظ .

ويختار هذا الولى من أمراء العشرات . على أنه كان تابعاً لوالى قوص فى الأعمال الخاصة بولايته ويختص بتصريف الشئون التى تتعلق بما يصدره التجار من ثغور سواكن وعيذاب والقصير [١].

وهناك طبقة أخرى من الموظفين الاداريين . ظهرت فى أواخر عهد دولة المماليك البحرية حين أصبحت الاسكندرية فى عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٧ ﻫ نيابة بعد أن كانت ولاية يعين لها وال من أمراء الطبلخاناه . وقد تحولت الاسكندرية إلى نيابة لأنها كانت أهم ثغور مصر التجارية على البحر الأبيض . وعين لها نائب اختير من أمراء المئين [٢]. وتمتع بما كان يتمتع به نواب السلطنة المملوكية فى نيابات طرابلس وصفد وحماه من نفوذ وعظمة وأبهة ، ثم ما لبث أن أصبحت مرتبته تعادل مرتبة نائب السلطنة بالديار المصرية [٣] .

ويتضح من الوصف الذى كتبه القلقشندى فى موكب نائب الاسكندرية وجلوسه بدار النيابة ونظره فى القصص بحضور كبار رجال الثغر ، أن هذا الموظف كان يتمتع بسلطة واسعة فقد كان يجلس أيام المواكب بدار النيابة ، ثم يخرج منها فى موكبه عند طلوع الشمس يصحبه مماليكه وأجناد الحلقة والأمراء والشبابة السلطانية بين يديه . ويقول القلقشندى : « وإذا كان فى ذلك الموكب سماط ، وضع الكرسى فى صدر الايوان مغشى بالأطلس الأصفر . ووضع عليه سيف نمجاة [٤] سلطانية ومد السماط تحته ، وأكل مماليك النائب وأجناد المئين ، وجلس النائب بجنبة من الايوان ، والشباك مطل على مينا البلد . ويجلس القاضى المالكى عن يمينه ، والقاضى الحنفى عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع بين يديه . ورءوس البلد على قدر منازلهم وترفع القصص فيقرؤها الموقع على النائب ، فيفصلها بحضرة القاضى ثم ينصرف الموكب » [٥]

وكان أول من تولى وظيفة نائب الاسكندرية الأمير بكتمر الشريف أحد أمراء المئين . وقد ظهرت عظمة هذه الوظيفة بعد أن تحولت إلى نيابة ، وزال عنها أولئك النواب الأصاغر ، على حد قول ابن اياس [٦] .

ولم يكن فى مصر فى عهد دولة المماليك البحرية إلا نيابة واحدة ، هى نيابة الاسكندرية . كما لم يكن للوجه البحرى أو الوجه القبلى نواب . وإنما كان يشرف على كل من الوجهين

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٦ .Demombynes : La syrie, p. LXIV

(٢) اقرأ صورة تقليد نائب ثغر الاسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٤٠٥ — ٤٠٧

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٠٤ وج ٤ ص ٢٤ .
Demombynes : La Syrie, p. LXIV

(٤) ورد ذكر النمجاة عند كلام المؤرخين على الآلة التى قتل بها السلطان لاجين . وهى عبارة عن خنجر مقوس شبه السيف الصغير . ويقال لها أيضاً النمشة أو النمجا أو النمشاه . ابن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٦١٢ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٦٤ .

(٦) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٢١٥ .

موظف كبير يعرف باسم « الكاشف » . ويطلق عليه اسم « والى الولاة » [١] وبذلك كان هناك كاشفان : أحدهما كاشف الوجه القبلى ويمتد نفوذه من الجيزة إلى جنادل النيل ، وكاشف الوجه البحرى ويمتد نفوذه إلى جميع أراضى الوجه البحرى عدا نيابة الاسكندرية . وقد تمتع كل من هذين الكاشفين بنفوذ كبير فى إقليمه . كما كانت الحال بالنسبة إلى ولاة الأقاليم ونائب الاسكندرية . ولما وجدت النيابة فى عهد الدولة البرجية فى الوجهين البحرى والقبلى وعين لكل منهما نائب كالحال فى الاسكندرية . تعدد الكشاف ، فأصبح هناك كاشف الجيزة وكاشف القليوبية والمنوفية ومقره منوف وقليوب ، وكاشف الغربية ومقره المحلة الكبرى ، وكاشف الشرقية ومقره بلبيس . وهؤلاء جميعاً كانوا يعينون من أمراء الطبلخاناه [٢] .

ثانيا — دواوين الحكومة

كان أهم الدواوين [٣] : ديوان الانشاء ، وديوان الأحباس ، وديوان النظر ، وديوان الخاص وغيرها مما سيرد ذكره .

١ — ديوان الانشاء :

أما ديوان الانشاء فهو أول ما وضع فى الاسلام من الدواوين . ويمكن تقسيم تاريخ هذا الديوان بمصر الاسلامية خمسة أقسام : أولها من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية (٢٠ — ٢٥٤ هـ) . وهنا نلاحظ أن ولاة مصر فى هذا العصر لم يولوا هذا الديوان ما يستحقه من عناية واهتمام ، إذ لم يصدر عنهم ما يدون فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة . ولعل ذلك راجع إلى أن مصر كانت فى هذا العصر ولاية من ولايات الخلافة الاسلامية ليس لها نصيب من الاستقلال . وثانيها عهد الدولتين الطولونية والإخشيدية (٢٥٤ — ٣٥٨ هـ) . وفى ذلك العصر نرى تطوراً محسوساً فى نظام هذا الديوان ، لترتيب المكاتبات التى تصدر عنه أو ترد إليه [٤] . وثالثها عهد الفاطميين (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ، وهنا يوجه الفاطميون كل اهتمامهم إلى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٤ . Demombynes : La Syrie: p. LXIV.

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٥ و ٦٥ ؛ ج ٧ ص ١٥٧ ، الخالدى : المقصد ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٣) الدواوين — جمع ديوان وهى كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر . وقد أطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذى يحفظ فيه الديوان . ويقول الماوردى (الأحكام السلطانية ص ١٩١) : « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

(٤) راجع عن ديوان الانشاء فى العصر الطولونى :
Zaky M. Hassan: Les Tulunides, pp. 279—283.

تنظيم ديوان الانشاء الذى أصبح يعرف صاحبه باسم «كاتب الدست الشريف»، وغدا يتولى شئونه جماعة من أكابر الكتاب وأرباب الأقلام فينهضون به ويعملون على بلوغه حد الكمال. ورابعها عهد الأيوبيين (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) وقد أسند صلاح الدين ديوان الانشاء إلى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى، وكان آخر من ولى هذا الديوان فى عهد الدولة الأيوبية الصاحب فخر الدين بن لقمان الاسعردى. وخامسها عهد دولة المماليك البحرية (٦٤٨—٧٨٤ هـ = ٢٥٠ — ٣٨٢ م)، وفيها تم تنظيم هذا الديوان (١). وكان مقره قاعة الصاحب بقلعة الجبل (٢) حيث ترد المكاتبات اليه من جميع أنحاء الولايات والممالك التى بينها وبين مصر علاقات سياسية، كما كانت تحرر فيه الكتب التى يرسلها السلطان إلى الملوك والأمراء. وفى كتاب صبح الأعشى للقلقشندى وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى كثير من المكاتبات التى تبودلت بين سلاطين مصر فى عهد دولة المماليك البحرية وبين ايلخانات المغول فى فارس وخانات مغول القفجاق وملوك أوربا وأمرائها. وتعتبر هذه الوثائق على جانب عظيم من الأهمية من الناحية السياسية، لأنها تمدنا بكثير من المعلومات الطريفة عن نظم الحكم فى مصر فى عهد سلطنة المماليك عامة وعهد الناصر خاصة.

كان صاحب ديوان الانشاء فى أوائل عهد المماليك يلقب تارة باسم «صاحب الدست الشريف» كما كانت الحال أيام الدولة الفاطمية. ويعبر عنه تارة باسم «كاتب الدرج» وتارة أخرى باسم «كاتب الدست». وبقى الأمر على ذلك إلى أن تقلد هذا الديوان القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر فى أيام السلطان قلاوون. فتلقب بلقب «كاتب السر»، لأنه كان يكتم سر السلطان (٣). كما كان يلقب أيضاً بلقب صاحب ديوان الانشاء أو ناظر الانشاء الشريف (٤).

وكانت مهام هذه الوظيفة قبل عهد قلاوون تدخل فى اختصاص الوزير. وظل الحال على ذلك حتى جاء السلطان السعيد بركة خان (٦٧٧ — ٦٧٨ هـ) بن الظاهر بيبرس. إذ رأى هذا السلطان أنه ينبغى أن يكون للملك «كاتب سر» يتلقى المرسوم منه شفاها». وكان قلاوون وقت ذلك أكبر الأمراء، فأيد رأى السلطان بركة خان. غير أن المشروع لم ينفذ إلا بعد أن صار قلاوون سلطاناً (٥).

كان صاحب ديوان الانشاء معظماً فى كل زمان، مقدماً على من عداه من أصحاب المنازل

(١) القلقشندى: صبح الاعشى جـ ١ ص ٩٥ — ٩٧

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥.

(٣) الخالدى: المقصد ص ١٣.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥. ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ٩٨.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٣. السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣١.

العالية . وكان السلاطين « يلقون إليه أسرارهم ويخصونه بخفايا أمورهم ويطلعونه على ما لا يطلعون عليه أولادهم ولا أخص الأخصاء من الأمراء والوزراء وغيرهم »[١] . وكان ينظر فى معظم أمور الدولة حتى زاد نفوذه « واتسع له مجال التدبير والتصرف إلى أن صار أمير المملكة ورأس أعيانها لا يضع الملك فى أمر مملكته حرفا إلا على ما يخرج من مشورته بعد إطلاعه عليه »[٢] .

وكانت وظيفة كاتب السر فى عهد المماليك من أعظم الوظائف الديوانية وأجلها قدراً[٤]، ويلقب صاحبها باسم « الجناب الكريم »[٣]. وليس أدل على صحة هذا القول مما ذكره الخالدى حيث يقول : « ناهيك بعلو شأنه إنه سالك سبل أجل الصحابة رضى الله عنهم لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم فلا يولى صحابة دواوين الانشاء إلا خاصة خواص الناس . ومن تكون القلوب على أهليته متكاتفة والألسن بكفايته ناطقة »[٤]. ولا غرو فقد كان كاتب السر أول من يدخل على السلطان وآخر من يخرج من حضرته من كبار موظفى الدولة . كما كان لا يستغنى عن مشورته والافضاء إليه بأسراره فى كل آن ولا يثق فى أحد من الموظفين ثقته به ولا يركن إلى أحد ركونه إليه ، ولعله يشبه رئيس الديوان فى بلاط الملك فى العصر الحديث .

وليس أدل على علو مركز كاتب السر إذ ذاك من أنه كان يحضر بحكم منصبه حلف اليمين التى يؤديها ولاة الأقاليم على أثر تعيينهم فى مناصبهم الجديدة ، ويقوم بكتابة مراسيم تولية الولاة وتزويدهم بنصائحه لرفع الظلم عن أهالى ولاياتهم . واذا انتهى إلى صاحب هذا الديوان خبر يتعلق بمصلحة السلطان أو الرعية بادر إلى إطلاع مولاه دون تردد أو إبطاء حتى لا تضيع الفرصة ويحدث مالا تحمد عقباه . وفى ذلك يقول ابن فضل الله العمرى الذى تقلد هذا الديوان فى عهد السلطان الناصر محمد : « واننى مهما أطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان ... أوصله إليه واعرضه عليه ولا أخفيه شيئا منه ولو كان على ولا أكتمه ولو خفت وصول ضرره إلى »[٥]. ومن ذلك يمكن القول أن كاتب السر كان ناصحاً أميناً للسلطان وأنه كان من واجبه أن يمده بصائب رأيه وسديد مشورته ، وأن يشيد بجميل أفعاله وحميد خصاله ليتألف بذلك قلوب رعاياه فتلهج ألسنتهم بالدعاء له .

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢ .
(٢) الخالدى : نفس المصدر ص ١١ .
(٣) راجع Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 507.
(٤) الخالدى : المقصد ص ١٢ . وانظر القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ١٠١ .
(٥) العمرى : التعريف ص ١٥٠ .

وكان كاتب السر يوقع على الرّقاع والقَـصَـص ويشترك فى الفصل فى بعض المظالم ويقرأ الـكـتب الواردة على السلطان من مصر وغيرها ويتولى الرد عليها ويذيل هذه الرسائل بتوقيعه كما كان يفعل الوزير من قبله ، ويجلس فى مجلس السلطنة عند اجتماع الحكام للفصل فى شئون الدولة كما كان يتوسط بين السلطان والأمراء اذا اختلفوا فى أمر من الأمور ، ويتولى الفصل فى شئون القضاة والعلماء (١) .

وكان كاتب السر يرد على الـكـتب الواردة إلى ديوان الانشاء بعد أن يستشير فيها السلطان ويأمر بارسال الرد فى يوم وصولها . ويجب أن يكون ملماً بقواعد البلاط وأصوله ورسوم التشريفات . فيتولى بنفسه تحديد الألقاب التى يرد بها على أصحاب الـكـتب المرسلة إلى السلطان ويُشير بنوع الورق الذى يُستعمل فى ذلك ، ويصلح أخطاءها حتى يكون « كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطاً ولفظاً ومعنىً وإعراباً حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً ، فربما زلّ الكاتب فى شىء فزل بسببه متولّى الديوان بل السلطان بل الدولة بأسرها » (٢) . وكان كاتب السر يجيب عن الرسائل السلطانية وما يتفق مع مصلحة السلطان ومصلحة الدولة(٣). ومن الصفات التى يجب أن تتوافر فى كاتب السر أن يكون — على ما رواه القلقشندى — « صبيح الوجه فصيح الألفاظ طلق اللسان أصيلا فى قومه رفيعاً فى حيه وقوراً حليماً مؤثراً للجد على الهزل كثير الأناة والرفق قليل العجلة والخرق نزر الضّحك مهيب المجلس . . . سريع الرضا بطىء الغضب . . . محباً لأهل العلم والأدب . . . وأن يكون محباً للشغل أكثر من محبته للفراغ » (٤) .

وكان كاتب السر فى نيابات الشام يماثل كاتب السر فى مصر فى علو منزلته ورفعة مكانته وسعة اختصاصاته ، ويولى بمرسوم سلطانى يصدر من القاهرة . ويختلف اللقب الذى يطلق على كتاب السر بدواوين الانشاء فى نيابات الشام . فقد كان لقب «صاحب ديوان الانشاء» يطلق على كاتب السر بدمشق وحلب ، اما فى حماه فقد كان يلقب « صاحب ديوان المكاتبات » ، وفى طرابلس وصفد يطلق عليه اسم « كاتب السر » ، وفى غزه وسيس والكرك يعرف باسم « كاتب الدرج » ، وربما أطلق على الثلاثة الآخرين لقب « كاتب الانشاء » ان كان اصلهم من موقعى الانشاء بمصر أو الشام (٥).

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٥ . Demombynes : La syrie, p. LXIX

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ١ ص ١١٣ .

(٣) العمرى : التعريف ص ١٥١ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١ ص ١٠٤ — ١٠٥

(٥) الخالدى : المقصد ص ١٤٦ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٣١ . Demombynes : La Syrie, p. 152. n. 2

وكان كاتب السر فى نيابات الشام يختار ممن يثق السلطان فى إخلاصهم وتفانيهم فى خدمته « يطالعه بخفيات أمور المملكة ومايحدث بها مماقد يخفيه النائب عن السلطان » . ويرأس — كما هو الحال فى مصر — طبقة كتاب الدست وكتاب الدرج الذين كان تعيينهم بيد نائب السلطنة . ولا يحضر كاتب السر إلى دار العدل مع نائب السلطنة بالشام بل يحضر اليها كتاب الدست فقط ويقومون بتنفيذ مايصدر من القرارات ثم يبلغونها إلى كاتب السر . وكان بعض كتاب الدرج يتعمدون إخفاء القرارات التى يصدرها نائب السلطنة بحضورهم عن كاتب السر حتى انه لم يتعرف الروح الذى أوحى باصدارها ومايجب أن يتخذ فى شأنها : لذلك تكررت شكوى كتاب السر ورأوا ضرورة حضورهم مجلس النيابة بدار العدل بعد أن كانوا لا يسمح لهم بالدخول على النائب الا عند عرض المكاتبات الخاصة بديوانهم [١].

وتولى ديوان الانشاء فى عهد السلطان الناصر محمد القاضى شرف الدين بن عبد الوهاب ابن فضل الله الذى خلف ابن عبد الظاهر . وتقلد ديوان الانشاء بعد ذلك بعض أفذاذ الكتاب من أسرة ابن فضل الله العمرى بنوع خاص حتى إن رياسة هذا الديوان لم تكن تخرج عنهم الا فى القليل النادر [٢]. ومن هؤلاء القاضى محى الدين بن فضل الله وشرف الدين ابن الشهاب محمود ومحى الدين (للمرة الثانية) وولده القاضى شهاب الدين [٣] الذى ظل فى منصبه حتى تغير عليه السلطان الناصر وعزله سنة ٧٣٨ ﻫ (١٣٣٧ م) ، ثم سأل القاضى محى الدين ابن فضل الله السلطان فى العودة إلى دمشق ، فأجابه إلى ما طلب وقلده ديوان الانشاء فى الشام وفوض اليه الأشراف على أمور هذه البلاد حتى اتسع نفوذه وأصبح لا يقل فى الرتبة عن نفوذ « كافل المملكة الشريفة » . وقد نص المرسوم الذى يتضمن تقليد القاضى محى الدين بن فضل الله أمور هذا الديوان ببلاد الشام أن « يكون جميع المباشرين بهذه الوظيفة بالباب الشريف فمن دونهم نوابه . وأنه حيث حل يقرأ القصص ويقرر الولايات والرواتب والعزل وغيرذلك ويوقع فيها بما يراه ويجهز ذلك إلى مصر ليشملها بالخط الشريف » . وممن تولى ديوان الانشاء من بيت ابن فضل الله العمرى القاضى علاء الدين بن فضل الله الذى اضطلع بمهام هذا الديوان بقية عهد الناصر وطوال عهد أولاده أبى بكر وكجك واحمد حتى سنة ٧٤٣ ﻫ (١٣٤٢ م) [٤] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٨٩ . جـ ١٢ ص ٨٩

(٢) يذكرنا ذلك بنفوذ أسرة المادرائيين فى حكم مصر فى نهاية القرن التاسع والنصف الاول من القرن العاشر بعد الميلاد . راجع Zaky M. Hassan : Les Tulunides, p. 284—286 وما جاء فيها من مراجع .

(٣) انظر نص تقليد بكتابة السر للقاضى شهاب الدين بن فضل الله فى القلقشندى : نفس المصدر جـ ١١ ص ٢٩٨ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٥٦ — ٥٧ و ٧٧ — ٧٨ و ٢١٨ . أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٥٢ ا

وعلى الجملة فقد كان عصر المماليك زاهراً برجال العلم والأدب فازدان بكثير من أفذاذ الكتاب الذين ضربوا فى الأدب بسهم، واتصل كثير منهم بديوان الانشاء فكان لهم القدح المعلى فى تحرير التفاويض والعهود. ومن هؤلاء القاضى شمس الدين ابراهيم بن القيسرانى الذى كتب تفويض الخليفة الحاكم بامر الله أمور البلاد للسلطان الناصر محمد سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م)، وشهاب الدين محمود الحلبى الذى كتب تفويض الخليفة الحاكم بأمر الله أمور البلاد للملك المنصور لاچين سنة ٦٩٦ هـ، والقاضى علاء الدين بن عبد الظاهر الذى كتب نص تفويض الخليفة المستكفى بالله أمور البلاد للسلطان بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨ هـ.

كان كاتب السر يشرف على كتاب الدواوين الذين يستنيرون بآرائه ومشورته. ومن أعظم معاونيه «متولى ديوان الرسائل» ويعرف باسم «كاتب السر». ويتولى الرد على الكتب التى ترد إلى ديوان الانشاء اذا اضطر كاتب السر الى التخلف لحضور مجلس السلطان ويشترط فيه أن يكون ملماً بأمور الديوان، مطلعاً على خفاياه حتى لا يخفى عليه شىء منها. ويتصرف كما يتصرف كاتب السر، فيقرأ الكتب ويرد عليها ويذيلها بامضائه ويشرف على كتاب الديوان ويوزع العمل عليهم. (١)

ويلى نائب كاتب السر فى المرتبة «كتّاب الدَّست» (٢) المتصلون بديوان الانشاء، وكانوا يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى أيام المواكب ويطلق عليهم اسم «الموقعين» (٣) لتوقيعهم على جانب القصص (٤).

وقد وزعت أعمال ديوان الانشاء على كتاب الدست (٥)، فاضطلع كل منهم بعمل هام يقوم فى حدود اختصاصه، على نحو ما نراه اليوم فى الدواوين الحكومية. فمن هؤلاء كاتب يقوم بتحرير البيعات والعهود وما إليها ويشترط فيه أن يكون واسع الاطلاع مبتكراً للعبارات البليغة والألفاظ الفصيحة. وهناك كاتب آخر يتولى كتابة الكتب التى ترسل إلى الملوك ويشترط فيه أن يكون ملماً بكتاب الله وسير الأنبياء والخلفاء والملوك ويراعى فى اختياره أن يكون من فحول الشعراء جيد الخط بليغ العبارة. وكاتب آخر يقوم بكتابة المراسيم ويشترط فيه أن يكون خبيراً بألقاب الملوك والأمراء وما يستعمل فى مخاطبتهم من صفات ونعوت

---

(١) الخالدى: المقصد ص ١٣٤

(٢) سموا كذلك إضافة إلى دست السلطان، وهو مرتبة جلوسه، لجلوسهم للكتابة بين يديه. القلقشندى: صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧.

(٣) كان هؤلاء يتولون الاشراف على ديوان الانشاء قبل أن يستحدث السلطان قلاوون وظيفة كاتب السر. وكانوا يختارون من أعلام البيان وأفذاذ الكتاب. القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص ١٣٨.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) انظر نص تقليد بكتابة الدست فى القلقشندى: نفس المصدر ج ١١ ص ٣٣٣ — ٣٣٥.

منزهاً عن الأغراض حتى لا يبخس أحداً حقه أو يعطى أحداً فوق ما يستحقه . ومن بين كتاب الدست كاتب اشتهر بجودة الخطوط على اختلافها لأنه قل أن يجتمع الانشاء وحسن الخط فى شخص واحد . واختص لتحرير المنشورات (١) الخاصة بالاقطاعات التابعة لديوان الجيش كاتب يشترط فيه أن يكون حسن الخط عارفا بقدر كل من الأمراء وأولاد الملوك والسلاطين حتى يستطيع مخاطبتهم ، كل حسب رتبته وأهميته . أما المكاتبات التى تحرر إلى ملوك الفرنجة فقد كان لها من كتاب الدست كاتب خاص يتولى شئونها ، ويتعين أن يكون ملماً بكثير من اللغات الأجنبية . ومن بين كتاب الدست أيضاً موظف عهد اليه بتعريب الكتب الواردة من البلاد الأجنبية وتلخيصها قبل عرضها على السلطان (٢) .

وهناك نوع آخر من الكتاب المتصلين بديوان الانشاء ، يعرفون باسم « كتاب الدرج » (٣) ومهمتهم الاطلاع على الملاحظات التى يبديها كاتب السر أو أحد كتاب الدست أو نائب السلطنة أو الوزير على المكاتبات والمراسيم والمنشورات والرد عليها وفق ما جاء بهذه الملاحظات التى تعتبر أساسا لهذه الاجابة . ولا يجوز لهؤلاء أن يتخذوا لأنفسهم صفة « الموقعين » أسوة بكتاب الدست ، إذ أن « التوقيع » معناه التأشير على الكتب أى ابداء الرأى فيما تضمنته هذه الكتب ورسم الطريقة التى تحرر بمقتضاها الردود . وكان يطلق عليهم اسم كتاب الانشاء وهم الذين يصوغون هذه الردود ، مستعينين فى ذلك بآراء كتاب موظفى ديوان الانشاء ويضمنونها العبارات الشائعة التى تستعمل عادة عند الرد على هذه الكتب . ومن ثم لم يعتد عمل هؤلاء عمل كتبة الدواوين العاديين الآن ، بدليل أن عدد هذا النوع من الكتاب المتصلين بديوان الانشاء فى عهد دولة المماليك البحرية قد بلغ أربعين ، بل تجاوز ذلك حتى بلغ مائة وثلاثين (٤) .

وعلى الرغم من أن القلقشندى يعتبر مصدراً أصلياً فى هذا الموضوع الذى نتكلم عليه ، فقد أمدنا الخالدى فى مخطوطه « المقصد الرفيع المنشا الهادى إلى صناعة الانشا » ، بمعلومات وافية عن كتّاب الدست والمهام التى كانوا يضطلعون بها فى ذلك العصر . ويجب ألا نغفل أيضاً ما ذكره خليل بن شاهين الظاهرى فى كتابه « زبدة كشف الممالك » عن عمل كتاب الدرج ، فقد أوضح لنا هذا المؤرخ أنهم كانوا يقومون بنسخ « العهود للخلفاء والسلاطين

(٢) المنشورات — جمع منشور وهو كل مايصدر عن سلطان أو ملك من المكاتبات مما لايحتاج الى ختم . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٧ .

(٢) الخالدى : المقصد ص ١١٧ — ١١٨ و ١٣٤ .

(٣) سموا بذلك لتحريرهم كتبهم على دروج . والمراد بالدرج الورق المستطيل المركب من عدة أوصال ، وهو عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة . القلقشندى : نفس المصدر ج ١ ص ١٣٨ . الخالدى : نفس المصدر ص ١٣٥

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ١ ص ١٣٨ . Demombynes : La Syrie. p. LXIX

على النهج الواضح والأسلوب المبين ، والتقاليد لقضاة أهل الحل والعقد بما يليق بكل منهم من براعة المطلع والختام الدالين على عظم القصد ، ولكفال الممالك الشريفة ذوى الرتب العوالى والمناصب المنيفة ، وللصاحب الوزير الذى وظيفته قوام الملك فى التصرف والتدبير ، وللسادة المباشرين أركان الدولة الشريفة أولى الأقلام الموضحة والأيدى العفيفة ، ومناشير الاقطاعات للأمراء والأجناد المؤيدين لنصرة الدين وحماية البلاد ، والتواقيع لأرباب المناصب الموصلة كل ذى حق حقه وقاطعة من كل ظالم سببه ، والمراسلات والمكاتبات المشتملة على طلب الحوائج وذكر الأشواق والمعاتبات والمربعات بالأرزاق والأمثلة المبلغة كل راج سؤاله وأمله »(١) .

وقد سبق أن أوضحنا الشروط التى يجب أن تتوافر فى كاتب السر على ما ورد فى القلقشندى والخالدى . على أن ابن مماتى قد تصدى لذكر الصفات التى يعرف بها كتاب الدواوين عامة. ولا بأس من أن نأتى بها هنا بعد أن انتهينا من الكلام على الكتاب المتصلين بديوان الانشاء على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم . قال هذا المؤرخ : « يجب أن يكون الكاتب حراً ، مسلماً ، عاقلا ، صادقاً ، أديباً ، فقيهاً ، عالماً بالله تعالى ، كافياً فيما يتولاه ، أميناً فيما يستكفاه ، حاد الذهن ، قوى النفس . . . جميل الذكر ، طويل الروح ، كثير الاحتمال ، حلو اللسان ، له جراءة يبت بها الأمور على حكم البديهة . . . ويعامل الناس بالحق من أقرب طرقه وأسهل وجوهه ، ولا يحتشم من الرجوع عن الغلط فالبقاء عليه غلط ثان ، ويفصح عما يشرع فيه من الأقوال والأفعال ، ولا يكون حوطته على اليسير بأيسر من حوطته على الكثير ، ويكون شديد الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق . . . لا يقبل هدية ولا يقبل من أحد عطية . . . ومما يجب عليه لمن يكون بين يديه أن لا يبتدىء بما لا يسأل عنه إلا بما يخشى فوات الأمر فيه ، وأن لا يجب عما يسأل عنه غيره ، وألا يقع فى أحد بغيبة ولا بنميمة ، ولا يظهر ما بينه وبين أحد من صداقة ولا عداوة . . . وإذا تكرر حضوره بين يدى السلطان فلا يسلم عليه ... ومما يجب لمن اجتمعت هذه الصفات فيه أن يقبل عليه ويوجه إليه ويبالغ فى إكرامه وينتهى إلى الغاية فى احترامه وأن يرفع عنه الحجاب ويوسع عليه الرزق فى كل باب وتقال له العثرة فيما لعله يخطىء فيه باجتهاده ويظهر للناس قبول قوله والرجوع إلى شهادته ولا يسمع فيه كلام حاسد له على ما رتبه فيه حسن حظه »(٢) .

ومن أهم معاونى كاتب السر فى عمله موظف كبير اسمه « الدوادار »(٣) ، وكان يقوم

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٠ .

(٢) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٥ — ٧

(٣) الدوادار : اسم مركب من لفظين : أحدهما عربى وهو الدوا ، والثانى دار ومعناه ممسك . فيكون المعنى ممسك الدواة ، وحذفت الهاء من آخر كلة استثقالا . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٢ . الخالدى : المقصد ص ١١٩ .

بتبليغ الرسائل عن السلطان وتقديم القصص اليه ، كما كان يقوم هو وأمير جاندار وكاتب السر بتقديم البريد . وكان البريد فى عصر المماليك البحرية تحت إشراف الدوادار ، ثم لوحظ أن الدوادار من الأمراء المماليك الذين قد يطمعون فى العرش ، فروعى أن وقوع الأسرار فى يده أمر غير مرغوب فيه . ولذا فان البريد نقل فى نهاية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادى) إلى إشراف ديوان الانشاء حيث كان المشرف من رجال العلم الذين لا خطر منهم على السلطان ولا يمكن أن يطمعوا فى السلطنة[١] .

كان الدوادار يقدم إلى السلطان كل ما « تؤخذ عليه العلامة السلطانية من المناشير والتواقيع والكتب »[٢]. وقد جرت العادة أن يكتب السلطان بخطه على كل ما يأمر به ، وأما المنشورات الخاصة بالأمراء وأصحاب الاقطاعات ، فقد كان يذيلها بما يسمى « العلامة » .

والعلامة السلطانية هى الاشارة التى كان يذيل بها السلطان الأوراق لاعطائها الصفة الرسمية . ويظهر أن المماليك قد اتخذوا العلامة عن الفاطميين ، فقد كان القضاعى الذى نبغ فى الكتابة حتى صار من كبار رجال البلاط فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى يعهد إليه فى أن يكتب العلامة نيابة عن الوزير أبى القاسم الجرجرائى الذى تقلد الوزارة سنة ٤١٨ هـ وتوفى سنة ٤٣٦ هـ . وكانت العلامة فى ذلك العصر ، تشمل هذه الكلمات : « الحمد لله شكراً بنعمته »[٣]. وفى عهد السلطان قلاوون عهد إلى أحد الدوادارية باستعمال علامة السلطان ، فقد ذكر المقريزى أنه : « فى ٦ جمادى الآخرة سنة ٦٧٩ هـ خلع على الأمير سيف الدين بلبان الرومى وجعله دوادار العلامة لا غير مع القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر »[٤] . وكان السلطان الأشرف خليل يكتب فى علامته على المراسيم حرف الخاء فقط إشارة الى الحرف الأول من إسمه . وقد أثر عن السلطان الناصر محمد أنه كان يستعمل « العلامة » فى الأمور التى تعرض عليه . أما تقاليد النواب وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب فانه يكتب عليها اسمه واسم أبيه ، وبذلك كان يوقع عليها « محمد بن قلاوون »[٥] .

ويلاحظ إن وظيفة الدوادار قديمة ، فقد اقتبسها العباسيون عن الفرس ، ثم أدخلت

---

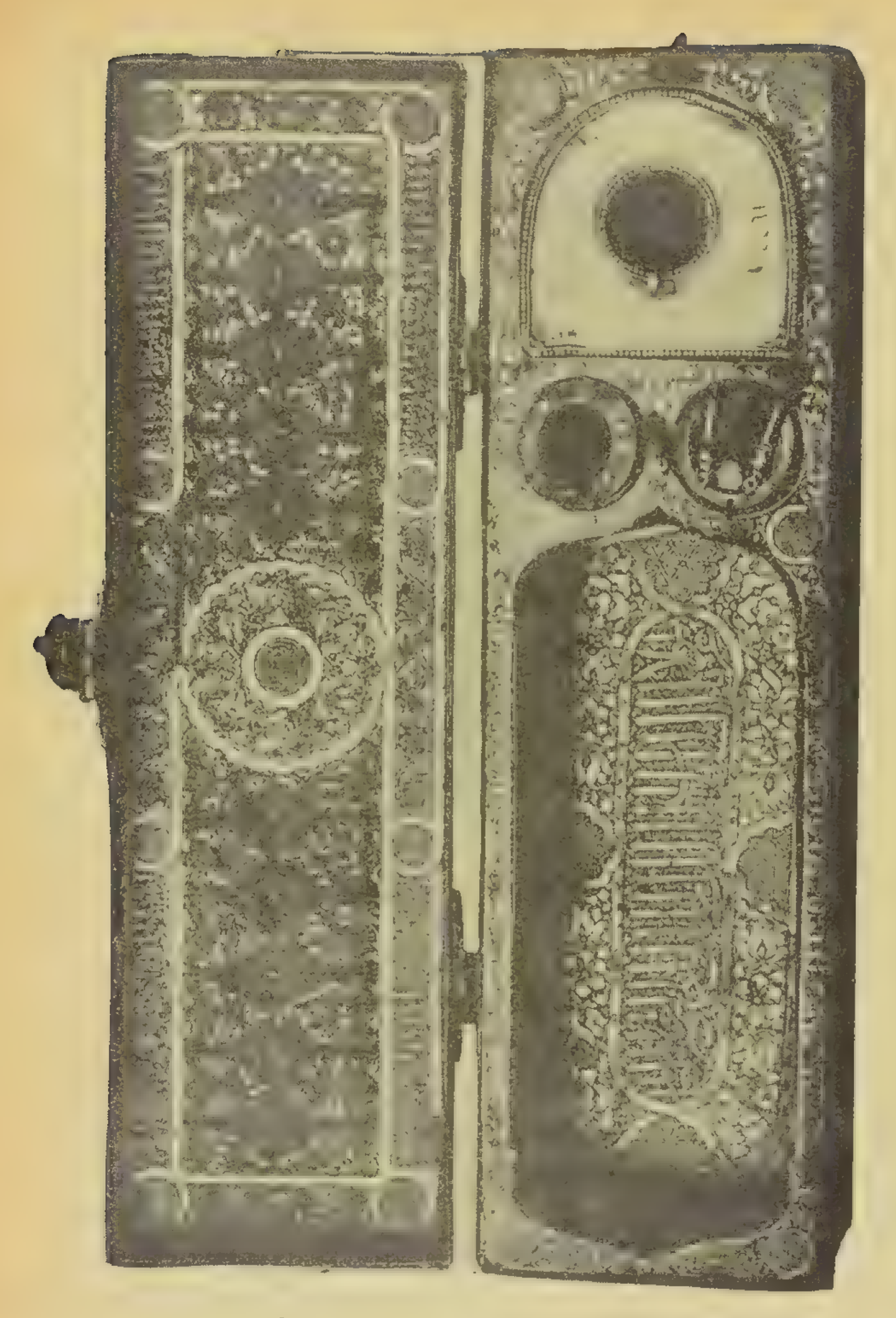
(١) Wiet : Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II., pp. 246—247

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١١ . الخالدى : المقصد ص ١٢٥ .

(٣) ابن منجب الصيرفى : الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ و ٣٧ . الدكتور حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٢ :

(٤) كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٨١ .

(٥) أما إذا لم يكن أبو السلطان الجالس على العرش سلطانا ، فان السلطان يكتب اسمه فقط ، وربما شمل المكتوب اليه بعطفه وكتب اليه « أخوه فلان » أو والده فلان .



مقلمة ومحبرة من عصر المماليك من الفضة المكفتة

على نظام الحكم فى مصر ، وارتفع شأنها فى دولة الناصر (١) ، حتى أصبح الدوادار يعين من أمراء العشرات أو أمراء الطبلخاناه .

على أن إصدار الدوادار للمراسيم كان يتم بعد استشارة السلطان ، بدليل ماذكره ابن فضل الله العمرى على لسان أحد الدوادارية فى عهد السلطان الناصر محمد حيث يقول : « إننى لا أؤدى عن مولانا السلطان رسالة فى إطلاق مال ولا استخدام مستخدم ولا إقطاع إقطاع ولا ترتيب مرتب ولا تجديد مستجد ولا سداد ثاغر ولا فصل منازعة ولا كتابة توقيع ولا مرسوم ولا كتاب صغيراً كان أو كبيراً إلا بعد عرضه على مولانا السلطان ومشاورته ومعاودة أمره الشريف ومراجعته » (٢) .

وكان الدوادار — بحكم وظيفته — يحيط بكل مايصدر من ديوان الانشاء ومايرد عليه من المكاتبات ، ويختمها بخاتم الدولة الذى كان يختلف فى حجمه باختلاف رتبة المرسل اليه بمعنى أن الدوادار كان يقوم فى دولة المماليك بأعمال صاحب ديوان الخاتم فى عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين ، فيحافظ على أوراق الديوان ، ويعد مايحتاج اليه الكتاب من الورق « وأقلام العلامة والمداد والرمل والدفاتر والمساطر والكتب الواردة من عظماء الملوك (٣) » .

وكان الدوادار يقوم بعمل بيان عن المكاتبات الهامة وتقييدها فى دفتر (٤) خاص وضم جميع ماورد منها إلى بعضه وجعلها فى سجلات عرف كل منها باسم « أضباره » (٥) مع بيان اسم اليوم والشهر الذى قيدت فيه . وإذا انتهى الشهر حفظت تلك الاضبارات فى مكان أمين وكتب عليها اسم الشهر الذى جمعت فيه ، وإذا انتهى العام ضمت أوراق شهور السنة بعضها إلى بعض مع بيان السنة ، ويبدأ بالكتابة فيه من أعلاه مع بيان اليوم إلى أن ينتهى الشهر ، فيترك ورقة بيضاء تفصل بين أوراقه وأوراق الشهر الذى يليه وهكذا إلى آخر السنة . فيجعل فى الاضباره ويتخذ دفتر جديد . وظل الدفترضابطا لأعمال ديوان الانشاء من أوائل دولة المماليك البحرية إلى أيام الظاهر برقوق (٦) .

ومن أشهر الدوادارية الذين ظهروا فى سلطنة الناصر محمد : الأمير عز الدين أيدمر

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

(٢) العمرى : التعريف ص ١٥٠ .

(٣) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢١ .

(٤) يتخذ الدفتر من طومار جلد وقاية مخروم فى وسطه بخيط . الخالدى ؛ نفس المصدر ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٥) الاضبارة : عبارة عن ورقة تلف فيها الكتب التى تجمع بعضها إلى بعض وتلصق أطرافها بالنشا . القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٤٤٥ .

(٦) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢١ .

والأمير بهاء الدين أرسلان والأمير سيف الدين الجارى والأمير صلاح الدين يوسف والأمير سيف الدين بغا والأمير سيف الدين طاجار (١) .

ويلى الدوادار فى الرتبة حامل المزرة أو خادم المزرة وينوب عنه إذا غاب، ويقوم بترتيب الأوراق بعد اعتمادها من السلطان . وطريقته فى ذلك أن يفرش فوطة ، يضع عليها أولا قطع الورق الكبير ثم القطع الأصغر منها وهكذا . ثم ترتب المناشير فى قطع الورق وتوضع فى الفوطة حتى لا يختلط بعضها مع بعض ، ثم توضع المراسيم المربعة والتذاكر ، ثم التواقيع الصغار ، وتلف كلها بعد ذلك وتوضع فى المزرة(٢)، فتحمل الى القصر وتعرض على الترتيب الذى انتهت إليه . ولا يوضع فى الفوطة التى تحمل الأوراق التى تقدم إلى السلطان لاعتمادها ورق ملون حتى لا ينطمس مداد العلامة . وكان يشترط فى حامل المزرة أن يكون خبيراً بالألقاب والعلامات وحجم الورق ، وأن يقترح على الدوادار إحضار ما يلزم منها (٣) .

وكان أول من اتخذ المزرة قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز قبل أن يلى القضاء والوزارة فى أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب . وكان يضم فيها كل صنف إلى صنفه فى ملف حاجز وهو عبارة عن منديل أو فوطة من الغزل ، ويوضع كل صنف مما حوته هذه المزرة فى كيس من الحرير الأصفر الأصلس (٤) .

وكان للدوادار غير حامل المزرة أعوان ويطلق على كل منهم اسم الدوادار أيضاً مع تمييز عددى ، فيقال الدوادار الثانى والدوادار الثالث وهكذا إلى الدوادار العاشر . ولكل من هؤلاء عمل يتولاه باشراف الدوادار الكبير(٥).

ويعاون كاتب السر عدا من تقدم من الموظفين فئة أطلق عليها اسم المُدَرا (جمع مدير) . وهذه التسمية إنما استعملت — على ما ذكره الخالدى — « لدورانهم على بيوت الكتّاب لاحصاء ما عندهم من الكتابة المتعلقة بالدوان»(٦) .

وكان يستعمل بديوان الانشاء من الورق . ثلاثة أنواع : أولا — الورق البغدادى ، وكان أجود هذه الأنواع وأكثرها اتساعاً ، وقد خصص لكتابة المصاحف وعهود الخلفاء وبيعتهم ومكاتبة الملوك ، سمى بذلك لأنه كان يجلب من مدينة بغداد . ثانياً — الورق الشامى وهو

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ص ١٢٥٢ .

(٢) جاء وصف المزرة فى الخالدى : المقصد ص ١٢١ ، فقال : « مزرة متخذة من القماش المخرز الصافى ببطانة فى صفه الكبير ، طولها ذراعان وثمن ، مثنية ، وعرضها ذراع وثلث ، بعلامة من الخيط المحفر تجتمع به فوهتها » .

(٣) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٠ .

(٤) الخالدى : نفس المصدر ص ٢٢١ .

(٥) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٥ .

(٦) الخالدى : نفس المصدر ص ١٢٠ .

على أنواع منها : الحموى وقد عرف بذلك لأنه كان يجلب من حماه ثم ينقل إلى دمشق . ومنها الورق الشامى المشهور الذى كان يستعمل بدواوين الانشاء والىمن والحجاز وبلاد الروم ، كما يستعمل أيضاً فى عمل الدفاتر التى تقدمت الاشارة إليها ، ولا يقدم كاتب السر على استعمال هذا النوع من الورق إلا بإذن السلطان وبعد أن يصدر بذلك مرسوم سلطانى يجيز له ذلك حتى لا يكون سبباً فى إهمال استعمال الورق المصرى . وآخر أنواع الورق الشامى هو ورق الطير ويقال له ورق البطائق وكان رقيقاً جداً بحيث يمكن وضعه تحت أجنحة الحمام الزاجل . ثالثاً — الورق المصرى ومنه الورق المنصورى ويُعتبر أوفى الورق قطعا وأعظمه حجما ويعمل منه الدرج(١) .

البريد (٢) :

كان البريد واسطة الاتصال بين الدولة المملوكية فى القاهرة وبين نياباتها فى الشام وغيرها من الأقاليم . وكان البريد إذ ذاك إدارة تابعة لديوان الانشاء . وقد تنبه المماليك إلى منفعة البريد وعظم شأنه فى سياسة الدولة وإصدار الأوامر للجيوش وحَمْل المكاتبات إلى الجهات النائية فى أسرع وقت . فرتبه السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٩ ﻫ ووضع له نظاماً ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة من خطوط البريد البرى والجوى. كما نظم البريد بواسطة الخيل فى أنحاء سلطنته المترامية الأطراف بين البحر الأبيض وصحراء العرب وبين أعالى النيل وضفاف الفرات . وارتقى نظام البريد فى مصر فى عهد بيبرس وأصبحت قلعة الجبل مركزاً لخطوط البريد حتى كانت تخرج منها أربعة طرق بريدية يمتد أحدها إلى قوص ، والآخر إلى عيذاب ، والثالث إلى الاسكندرية ، والرابع إلى دمياط ومنها إلى غزة (٣) . ومن هذا المكان تتفرع سائر خطوط البريد فى بلاد الشام وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء السلطنة .

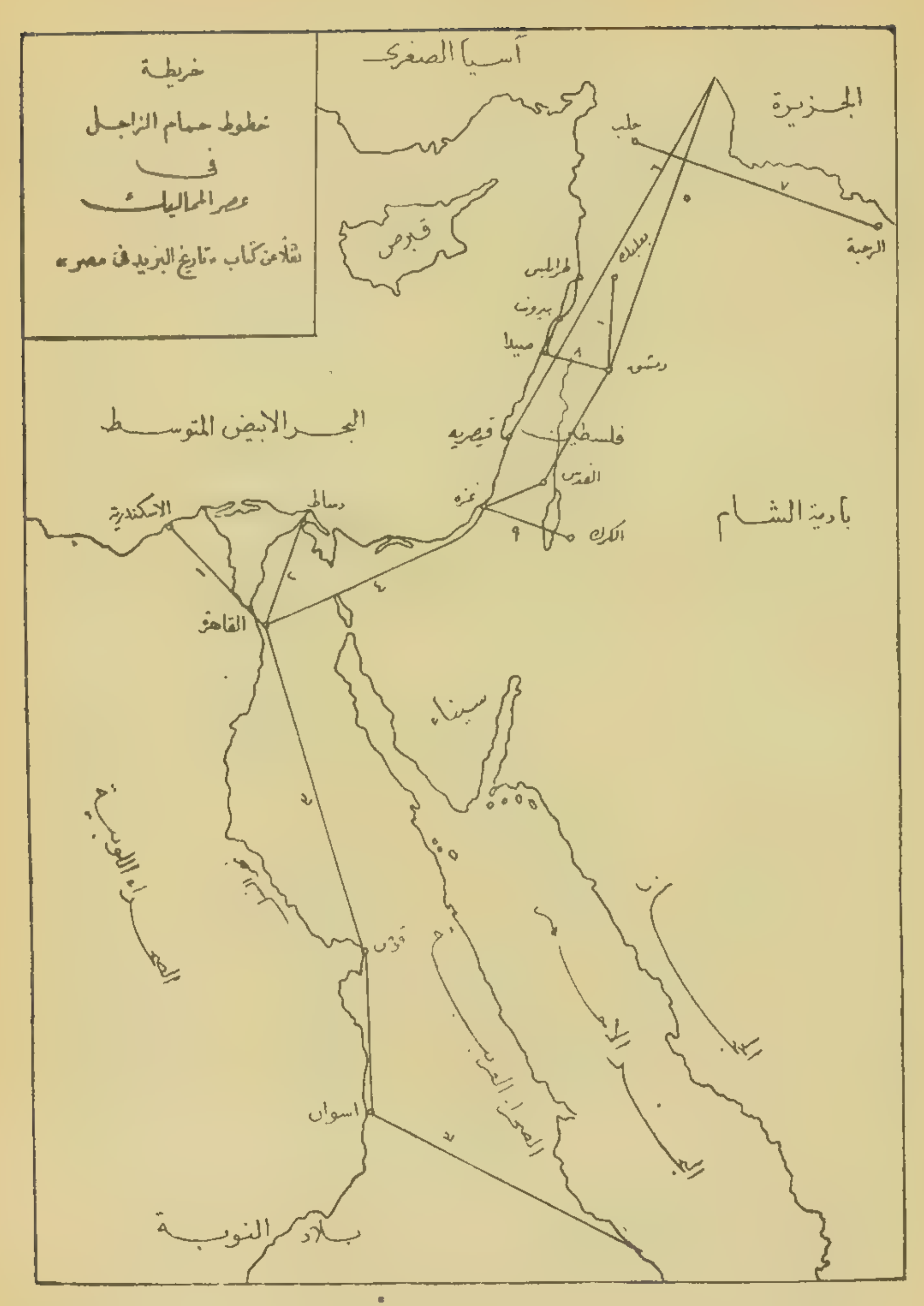
ويقع على طول خطوط البريد كثير من المحطات على مسافات لا تزيد إحداها على ثمانية وعشرين ميلا . وكانت هذه المحطات تزود بما يحتاج إليه الموظفون والخيل من ماء وطعام

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٦ . ج ٦ ص ١٩٠ . الخالدى : المقصد ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢) بريد كلمة فارسية معناها « مقطوع » ويقال إن الفرس استخدموا فى نقل البريد دواب مقطوعة الذنب تمييزاً لها عن غيرها ، فسميت « بريد ذنب » ، ثم حذف العرب كلمة ذنب واقتصروا على لفظ بريد (القلقشندى : نفس المصدر ج ١ ص ٨٥) . ويقال إن « بريد » مأخوذة من كلمة veredus اللاتينية (كتاب البريد فى مصر ص ٣٤) . والبريد فى الأصل اسم لمسافة مقدرة بأربعة فراسخ (الفرسخ ثلاثة أميال) . القلقشندى : نفس المصدر ج ١٤ ص ٣٦٦ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ج ١٤ ص ٣٧٣ . راجع مقال الاستاذ فييت عن « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » (فى كتاب « فى مصر الاسلامية » الذى أخرجه الدكتور زكى محمد حسن والبكباشي عبد الرحمن زكى) ص ٤٤ وما بعدها .



خطوط حمام الزاجل في عصر المماليك

وعلف ومبان لسكنى الموظفين . ومن هذه المحطات يستطيع البريديون أن يغيروا جيادهم بجياد أخرى . وكان لقرب هذه المسافات بعضها من بعض أثر كبير فى تسهيل مهمة الرسل على اجتياز هذه المسافات بسرعة فائقة . ولكل محطة من محطات البريد عدد من الخيل تعرف باسم « خيل البريد » ، يشرف عليهـــا ويهتم بأمورها عدد من الموظفين . ومن هؤلاء « البَـريدىّ » ، وهو الذى يحمل معه البريد و « السَّواق » ، وقد عرف بذلك لأنه يسوق خيل البريد . ولكل محطة عدد من السواس يعنون بأمر الجياد لتكون صالحة لقطع المسافات المقررة على أكمل وجه وأسرعه[١] . ولم يكن يسمح بركوب خيل البريد إلا بمرسوم سلطانى[٢] .

وكان البريديون يختارون من الأشخاص الذين عرفوا بإخلاصهم للعرش واتصفوا بالفطنة والذكاء لأنهم لم يكونوا مجرد رسل يحملون إلى الملوك رسائل مختومة بل كانوا يضطلعون أحياناً بمهمة توصيل أخبار السلطان مشافهة إلى بعض الملوك والأمراء[٣] . وفيما يلى وصف القلقشندى للبريدى وما يجب أن يتحلى به من الصفات ، إذ يقول إن من صفات البريدى أن يكون « قديرا على تنميق الكلام وتحسين العبارة وسماع شبهة المرسل إليه ورد جوابه وإقامة الحجة عليه . . . صحيح الفكرة والمزاج ذا بيان وعارضة ولين واستحكام ممنعة وأن يكون بصيراً بمخارج الكلام وأجوبته مؤدياً للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صدوقا ، بريئاً من الطمع »[٤] .

على أن البريديين لم يكونوا فى هذا العصر طبقة واحدة : فمنهم من يحمل البريد العادى إلى الوُلاة والنواب ، فاذا أحسنوا القيام بأعمالهم وأصبحوا موضع ثقة السلطان ومحل سره عهد إليهم بحمل الرسائل الهامة إلى الملوك . لهذا لا نعجب إذا أصبح للبريديين فى عصر المماليك مكانة كبرى حتى كانوا يمنحون الأرزاق السنية والخلع الثمينة أسوة بكبار رجال الدولة[٥] .

وكان للبريد ألواح من الفضة حفظت بديوان الانشاء ، وكتب على أحد وجهى كل لوح : « (لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدَى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ضرب بالقاهرة المحروسة » وعلى الوجه الآخر : « عز لمولانا السلطان الملك . سلطان الاسلام والمسلمين »[٦] . وبكل لوح من هذه الألواح ثقب به شرابة صفراء من الحرير

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٢ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١١ . ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٨

(٣) كان رجال البريد تابعين للدوادار الذى كان من أمراء المماليك وربما يطمع فى العرش ويعادى السلطان . ولكنهم ألحقوا فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) بديوان الانشا . ومنذ ذلك الحين كانت الأسرار البريدية يقوم بها موظف من أرباب القلم لا مطمع له فى العرش .

Hautecœur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 56

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٢ ص ١١٥ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ١ ص ١١٤ . ج ١٤ ص ٣٧١ .

تربط حول عنق البريدى ، على أن يظهر اللوح من الأمام والشرابة من الخلف ، وهذه الشارة تميز البريدى عن سائر موظفى الدولة ، فاذا سافر فى مهمة خاصة كان موضع الرعاية والتقدير وإذا عاد بعد أداء مهمته رد هذا اللوح إلى ديوان الانشاء .

وكان يشرف على البريد صاحب ديوان الانشاء أو كاتب السر كما كان يسمى منذ أيام السلطان قلاوون كما تقدم [١] . وقد عهد إلى صاحب ديوان الانشـــاء حفظ ألواح البريد بالديوان والحرص على ارسال بريد السلطان وإذاعة أوامره [٢]. ومما يدل على ما كان للبريد من شأن وخطر فى ذلك العصر أنه اذا وصل البريدى إلى القاهرة تلقاه كاتب السر والدوادار على أثر وصوله وصحباه إلى السلطان ، فيسلم ما معه من البريد بحضور هؤلاء جميعا .

وقد ذكر الخالدى أنه كان للبريديين رئيس مباشر أطلق عليه اسم « مقدم البريدية » ، يضطلع بمهام البريد ويشرف على شئونه ويعمل على النهوض به ويرجع فى النهاية إلى كاتب السر للموافقة على ما يقدمه هذا الموظف من الاقتراحات . وكان مقدم البريدية يقوم بعمل صاحب البريد عند الأمويين والعباسيين . ويليه فى الرتبة سبعة من الموظفين ، أطلق عليهم اسم « المقدمين » يتولى كل منهم أعمال البريد يوماً فى كل أسبوع ، ويعرض أعماله فى نهاية كل يوم على مقدم البريدية [٣] .

وقد بلغ نظام البريد فى عهد المماليك عامة وعصر بيبرس والناصر خاصة مبلغاً عظيما من الدقة حتى إن السلطان كان يشرف بنفسه على سفر البريد فى مواعيده المحددة . وكان لهذا النظام وما وصل إليه من دقة وإحكام أثر كبير فى صد غارات التتار التى طالما هددت مصر وما وليها من البلاد ، كما ساعد على تفقد الأحوال فى مختلف أنحاء السلطنة والالمام بكل كبيرة وصغيرة من أعمال الولاة والنواب .

ولم يقتصر سلاطين المماليك على البريد العادى فى إرسال الرسائل ، بل استخدموا « حمام الزاجل » ، وكان له براجون يعنون به ويدربونه ، فيأخدونه بعيداً عن برجه ويتركونه حتى يعود إليه ثم يزيدون المسافة شيئاً فشيئا حتى يستطيع الحمام أن يقطع مسافات بعيدة [٤] .

وكانت القلعة مركزأبراج حمام الزاجل ، كما كانت له مراكز معينة فى جهات مختلفة كمراكز البريد الجوى ، لكنها تزيد عليها فى المسافة . وكانت له محطات أشبه بمحطات البريد البرى ، ولكن قدتصل المسافة بين كل محطة وأخرى من محطات البريد الجوى إلى ثلاثة أمثال محطات

(١) وذلك بعكس ما كانت عليه الحال فى عهد العباسيين فى بغداد حيث كان للبريد ديوان كبير أشبه بمصلحة البريد الآن .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١١٤ .

(٣) الخالدى : المقصد ص ١٢٩ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ١٤ ص ٣٩١ .

البريد البرى وخصص لكل محطة عدد من الحمام يعنى بشئونه موظفون إخصائيون . وإذا أراد السلطان إرسال رسالة مع الحمام ، وضعت تحت جناحه ، فاذا وصل إلى المحطة التالية نزع البراج هذه الرسالة وعلقها فى جناح طائر آخر فيوصلها إلى المحطة التى تليها [١] ، فيكون أشبه بخيل البريد ولكنه أكثر سرعة وأعظم أمناً .

وفى كل محطة من محطات الحمام برْج أوأكثر، يحفظ فيه الحمام الذى يستخدم فى حمل الرسائل إلى المحطة التالية . ولا شك أن تسلم الرسالة من الطائر وشدها إلى أخرى فى كل محطة يستغرق الكثير من الوقت . ولكن كان لهذه الطريقة ، بالاضافة إلى ذلك مزايا لايستهان بها ، فقد وجد بذلك بريد يربط حاضرة السلطنة بسائر الولايات . وكانت إدارة بريد الحمام تحت إشراف حكام الأقاليم . أما رواتب البراجين فلم تقل عن رواتب زملائهم فى البريد البرى[٢].

وكان الايجاز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام فيستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل فى ذلك العصر ، ويكتفى فيها بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة موجزة كصيغ البرقيات فى وقتنا هذا . ولا عجب فى هذا فقد كان يراعى فى استعمال الورق الذى يربط إلى جناح الطائر أن يكون رقيقاً حتى لاينوء بحمله أو يكون سببا فى تقليل سرعته التى هى من أخص مميزاته . وتشد الرسالة تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها[٣] . ويطلق على هذا الورق اسم « ورق بريد الحمام » .

وقد جرت العادة — لزيادة الاطمئنان والثقة — أن تكتب الرسالة من صورتين تُرسلان مع حمامتين ، يُطلق إحداهما بعد إطلاق الأخرى بساعتين ، حتى إذا تأخر أحد الطائرين ووصل الآخر أُخذت البطاقة من تحت جناحه وترك حتى يعثر على رفيقه لئلا يكون قد نزل فى برج من أبراج المدينة أو افترسته الجوارح أو وقع فى أيدى الأعداء [٤] .

ويميز حمام البريد السلطانى بعلامات خاصة كبصم منقاره أو قص ريشه بنظام معين . فاذا وصل الحمام إلى قلعة الجبل ببطاقة ، أخذه البراج (وفى جناحه البطاقة) وجاء به إلى الدوادار الكبيرَ وعرضه عليه فيخرج هذا البطاقة من تحت جناحه . فاذا لم يكن هناك ما يدعو لعرض البطاقة على السلطان تصرف فيها الدوادار بنفسه ، وإلا عرضها على كاتب السر ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ﺟ ١٤ ص ٣٩١ . — ٣٩٢ . المقريزى : الخطط ﺟ ٢ ص ٢١١
Lane—Poole : The Art of the Saracens, p. 25.

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ﺟ ٢ ص ٢٣١ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ﺟ ١ص ١١٨. المقريزى : نفس المصدر والجزء ص٢٣١ — ٢٣٢ راجع مقالة « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » للاستاذ ڤييت ، وترجمة محمد وهبى افندى ص ٣٢ — ٥٤ .

فيعرضها بدوره على السلطان على نحو ما كان متبعاً فى البريد البرى تماماً[١] . وكانت للسلطان عناية شديدة بالرسائل التى يحملها الحمام ، حتى أنه كان يأمر بادخاله عليه حين وصوله ، بل لقد كان يترك طعامه أو يستيقظ من نومه فى الحال عند وصول رسائل الحمام الزاجل[٢] .

وقد نظّم نقل البريد بواسطة الحمام حسب الخطوط الآتية :

١ — بين القاهرة والاسكندرية .

٢ — بين القاهرة ودمياط .

٣ — بين القاهرة والوجه القبلى (قوص وأسوان وعيذاب) .

٤ — بين القاهرة ودمشق عن طريق غزة وأورشليم .

٥ — بين دمشق وبَرْثة[٣] على نهر الفرات .

٦ — بين برثة وقيصرية .

٧ — بين حلب والرحبة على نهر الفرات .

٨ — بين دمشق وصيدا وبيروت وطرابلس

٩ — بين غزة والكرك على البحر الميت .

١٠ — بين دمشق وبعلبك[٤] .

وكان الحمام يقطع المسافة بين المحطة والتى تليها — وهى سبعة أميال تقريباً — فى ثلث الوقت الذى يقطعها فيه الخيل . وبلغ عدد الحمام الزاجل من الكثرة بحيث أنه وصل فى بعض الأحيان إلى ألف وخمسمائة حمامة . وأدى هذا النوع من البريد خدمات جليلة لسلطنة المماليك واستطاع كل سلطان أن يتصل بولاته ونوابه بفضل هذا الحمام الذى كان يرافقهم أينما سار .

٢ — ديوان الأحباس :

ومن الدواوين الهامة فى عصر المماليك ، ديوان الأحباس ، ويشبه وزارة الأوقاف اليوم . ويتولى صاحبه الاشراف على الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس ، والأراضى والعقارات المحبوسة عليها ، والاحسان على الفقراء والمعوزين . وكان أول من أدخل ديوان الأحباس بمصر القاضى الليث بن سعد ، فقد أثر عنه أنه اشترى بعض الأراضى التابعة لبيت المال فى جهات عدة وحَبَّسها على وجوه البر ، فسميت « الأحباس » ثم أضيفت إلى هذه

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٣١ . Lane-Poole: Egypt in the Middle Ages, p. 246.

(٣) برثة — موضع بنواحى الكوفة . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٤) انظر خريطة خطوط حمام الزاجل فى عصر المماليك نقلاً عن كتاب « تاريخ البريد فى مصر » .

الأراضى بعض الرباع والدور فى مدينة الفسطاط وغير ذلك من مصادر الاحسان [١] .
وقد ظل النظر فى شئون الأحباس من اختصاص القاضى فى عهد الدولة الأيوبية ، فلما جاء المماليك ، قسموا ديوان الأحباس ثلاثة أقسام أو إدارات رئيسية . الأولى هى : «الأحباس» ، ويشرف عليها الدوادار وناظر الخاص والمدير وعدد من الكتاب ، ويتولى صاحبها توزيع الصدقات التى تأتى من ريع الأراضى الموقوفة على المساجد والزوايا .

والثانية تسمى «الأوقاف الحكيمة» ، ويقصد بها الرباع الموقوفة على الحرمين وعلى الأسرى ويشرف عليها قاضى قضاة الشافعية ويعرف باسم «ناظر الأوقاف» ، وكان ينيب عنه رجلا يتولى شئون أوقاف القاهرة ومصر . وقد ينيب عنه رجلين : يتولى أحدهما الاشراف على أوقاف القاهرة والآخر على أوقاف مصر . ولكل من أوقاف القاهرة ومصر ديوان يعمل فيه عدد كبير من الكتاب والجباه . وكان هذا القسم يدر الأموال الوفيرة على طلبة العلم وعلى الفقراء والمعوزين [٢].

أما الادارة الثالثة وهى «الأوقاف الأهلية» ، فقد كان لها ناظر خاص يدير شئونها ويختار من أولاد الواقف وقد يوليه السلطان أو القاضى ، ويشرف ناظر الأوقاف الأهلية على الخوانق والمدارس والجوامع والمقابر . وكانت موارد هذا القسم وفيرة لاتساع الأراضى التى وقفها السلاطين واهتمام المماليك عامة ببناء المدارس والمساجد والخوانق ونحوها حتى إنهم وقفوا عليها كثيراً من أراضى مصر والشام ، لسد نفقات هذه المنشئات العلمية والخيرية . على أن كثيراً من هذه الأراضى لم يوقف على هذه الأعمال عن طريق مالكيها وإنما لجأ السلطان إلى طريقة لا تتفق وشروط الواقف ، ذلك أنه كان يوعز إلى بعض القضاة باثبات تحول هذه الأراضى إلى أراض موقوفة على هذه المنشئات [٣].

٣ — ديوان النظر

أما «ديوان النظر» فكان بلا شك أهم دواوين الحكومة إذ ذاك شأنا . وكان يشبه وزارة المالية اليوم ، ترجع اليه سائر الدواوين فى كل ما يتعلق بالمسائل الخاصة بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة ، ولهذا الديوان فوق ذلك الاشراف على حسابات الدولة ، وعلى أرزاق (مرتبات) الموظفين الدائمين والمؤقتين ، وهم يعملون بالسنة أو بالشهر أو باليوم . وكانت

---

(١) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٣٧٢ . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٨
المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ . Zaky M. Hassan : Les Tulunides, p. 260.
Amedroz : The Office of Kadi (Journal of the Royal Asiatic Society, July 1910, p.785).
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٩٦ . الخالدى : المقصد ص ١٣٢ .
(٣) المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٩٦ . Demombynes : La Syrie. p.LXXIX.

أرزاق أرباب الأقلام تدفع مشاهرة . وتدفع عيناً وغلة معاً . هذا عدا ماكان يصرف لكبار الموظفين من هذه الطبقة من أصناف معينة من الأطعمة والملابس ، إذ يمنحون فوق رواتبهم مقادير من اللحم والتوابل والخبز والسكر والزيت والشمع ، وتوزع عليهم الكسا فى كل سنة . وتمنح هذه الرواتب لكل موظف تبعا لمكانته وأهمية العمل الذى يضطلع بأعبائه(١) .

وكان مقر ديوان النظر فى القلعة . وأطلق عليه اسم « بيت المال » أو « ديوان نظر الدولة » . ويشرف عليه « ناظر المال » ، ويسمى أيضاً « ناظر النظّار » و « الصّاحب الشريف » و « ناظر الدواوين » . وكان هذا الموظف الكبير يساعد الوزير فى تصريف شئون الدولة المالية فى مصر والشام ، ويقوم مقامه إذا غاب . فلما ألغيت الوزارة فى عهد السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٧ هـ انتقلت سلطة الوزير إلى ناظر المال . فكان يلقب بلقب « ناظر الدولة » . وصار « شادّ الدواوين » هو المتصرف فى الشئون الماليه باشراف ناظر الدولة . واستمر الحال على ذلك حتى توفى السلطان الناصر محمد سنة ٧٤١ هـ وأعيدت الوزارة واقتصر نفوذ ناظر المال على ما كانت عليه قبل إلغائها .

وكانت وظيفة ناظر المال من أهم وظائف الدولة . ومما يدل على خطر متولى هذه الوظيفة ما رواه المقريزى من أنه « يصعد ومعه شهود بيت المال ، وصيرفى بيت المال ، وكاتب المال إلى قلعة الجبل . . . فيكون له أمر ونهى وحال جليلة ، لكثرة الحمول الواردة ، وخروج الأموال المصروفة فى الرواتب لأهل الدولة وكانت أمراً عظيما(٢) » .

ويلى ناظر المال فى الرتبة موظف يعرف باسم « مستوفى الصحبة »(٣) ، وهو بمثابة وكيل ديوان النظر . ومهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شئون الدولة المالية فى مصر والنيابات التابعة لها ، واقتراح تعيين الموظفين . ويساعد مستوفى الصحبة فى عمله موظف آخر يعرف باسم « مستوفى الدولة »(٤) ، وهو أشبه بمساعد لوكيل بيت المال . وقد يساعد مستوفى

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٢٤ .

ألغى ديوان النظر فى عهد دولة المماليك البرجية رغم ما كان يؤديه للبلاد من خدمات وما يضطلع به صاحبه من أعباء فى دولة المماليك البحرية . وقد أثر هذا الحادث فى نفس شيخ مؤرخى مصر الاسلامية وهو تقى الدين المقريزى الذى رثا بيت المال وناظر المال فى هذه الكلمات فقال : « تلاشى المال وبيت المال وذهب الاسم المسمى ولا يعرف اليوم بيت المال من القلعة ولا يدرى ناظر المال من هو (نفس المصدر والجزء والصفحة) .

(٣) اقرأ نص وصية « مستوفى الصحبة » فى ابن فضل الله العمرى . التعريف بالمصطلح الشريف ص ١١٥ .

(٤) اقرأ نص تعيين « مستوفى الدولة » فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٥٥ — ٣٥٦

الصحبة مستوفيان أو أكثر[١].

ويعاون مُسْتوفى الصحبة ومستوفى الدولة كثير من الموظفين ، يعرفون باسم «المستوفين». ويطلق ذلك اللقب على كبار الكتاب المتصلين بدواوين الحكومة عامة . وكانت مهمة المُسْتَوْفى الاشراف على الديوان التابع له ، والسهر على تنفيذ القوانين التى تكفل ضبط أموره وزيادة موارده[٢] . وقد أورد ابن مماتى الأعمال التى كان يتولاها « المستوفى » فى هذه العبارة : « هذا كاتب يكون صاحب مجلس فى الديوان ، يطالب معامليه بما يجب عليهم ، من حساب يُعمل ومال يُحْمل ، وينبه متولى الديوان على ما ينبغى تنبيهه عليه فى أوقاته من أمور خدمته ، ويستوفى الحسابات (فى الأصل الحسبانات) [٣] ويخرج ما يجب تخريجه فيها ، ويعمل المطالعات والتذاكر [٤] (فى الأصل التذاكير) ويخرج الأموال ويحقق الحسابات »[٥] . حقا إن هذه العبارة التى نقتبسها من ابن مماتى تشير إلى العصر الأيوبى ، ولكن أكبر الظن أنها تنصرف أيضاً إلى عصر المماليك لأنه لم يحدث فى هذا الميدان أى تغيير ملموس .

٤ — ديوان الخاص

أنشأ الناصر محمد فى سنة ٧٢٧ هـ ديواناً خاصا بشئون السلطان المالية ، عرف باسم « ديوان الخاص » . وتولى الاشراف عليه موظف كبير مسئول أطلق عليه اسم « ناظر الخاص »[٦]. على أن السلطان الناصر محمد لم يكن أول من استحدث منصب « نظارة الخاص » فقد عرف بمصر فى عهد الفاطميين [٧] وفى عهد الأيوبيين من بعدهم[٨] . ولكن هذا المنصب لم يبلغ القدر الذى بلغه فى سلطنة الناصر ، حيث أصبح ناظر الخاص فى مرتبة « ناظر الدولة »

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩ — ٣٠ . المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٢٤ . الخالدى : المقصد ص ١٣٥ . Demombynes : La Syrie, LXVIII

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦٦ .

(٣) الحسبانات جمع حسبان — وهو نوع من دفاتر الحساب المستعملة عندهم . انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى .

(٤) التذاكر — جمع تذكرة وهى كل مكتوب يصدر من السلطان إلى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام أو إلى قصاده الذين يرسلهم فى مهام الدولة لتذكيرهم بتفاصيل ما يوكل اليهم ولتكون بمثابة ورقة اعتماد وحجة عند الجهات التى يقصدونها . القلقشندى : نفس المصدر ج ١٣ ص ٧٩ — ٨١ ، المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٨٠ حاشية للدكتور زيادة .

(٥) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٧ .

(٦) اقرأ نسخة تقليد ناظر الخاص فى القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٣١٧ — ٣١٩ ، يقابل « ناظر الخاص » فى مصر الرومانية الموظف المعرف باسم Idiologos

(٧) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٨) القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٦٥ — ٤٦٦ .

وغدا من اختصاصه تعيين موظفى هذا الديوان والبت فى مهام الأمور بعد استشارة السلطان وتلقى أوامره [١] كما كان ينوب عن السلطان فى كل مايباع ويشترى من أملاك الخاصة السلطانية وازداد نفوذه لكثرة تقربه منه حتى أصبح يتدخل فى أموره الخاصة [٢] .

وكان يساعد ناظر الخاص فى ادارة شئون هذا الديوان موظفون مماثلون لموظفى ديوان بيت المال من حيث تسميتهم وعددهم ، وأهمهم « مستوفى الخاص » ، ويشرف على كل مايرد إلى الديوان أو يصدر منه ويفصل فيه بمايراه .

ويتولى ناظر الخاص الاشراف على الخزانة السلطانية التى كان مقرها قلعة الجبل ويشرف على الخزانة فى البداية موظف كبير يسمى « ناظر الخزانة » [٣] يختار من القضاة وغيرهم من موظفى الدولة المشهود لهم بالعدالة والأمانة وحسن السمعة ، ويؤتمن على مافى القصر من الأموال والجواهر والخلع والتحف ونحوها . فلما استحدث السلطان الناصر محمد نظام ديوان الخاص سنة ٧٢٧ ﻫ على ما ذكرنا ، انتقلت سلطة ناظر الخزانة إلى ناظر الخاص [٤] ، ولم يبق بالخزانة إلا الخلع التى تخلع على الأمراء وكبار رجال الدولة فى الأعياد والمواسم . وظلت الخزانة بقلعة الجبل حتى اتخذها الأمير نبطاش سجنا لمماليك السلطان الظاهر برقوق سنة ٨٠٩ ﻫ فأصبحت الخلع تودع بعد ذلك فى ديوان الخاص [٥] .

وكان ديوان الخاص يتولى الانفاق على شراء اللحوم والكسا لموظفى القصر السلطانى وكبار رجال الدولة ، ونواب السلطنة فى الشام ، والأمراء والقضاة ، والمماليك السلطانية وغيرهم [٦] .

الدواوين الأخرى :

وهناك دواوين أخرى أقل شأنا من الدواوين التى تقدمت الاشارة اليها مثل « ديوان الأهراء » وهى شون الغلال السلطانية ، و « ديوان الطواحين » ويتولى صاحبه طحن الغلال ، و « ديوان المرتجعات » ويشرف صاحبه على الأمور الخاصة بتركات الأمراء . [٧] وهناك

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٠ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ﺟ ٢ ص ٨٤ . الخالدى : المقصد ص ١٣٥ .

(٣) اقرأ صورة تقليد ناظر الخزانة فى القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ . وراجع أيضا صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١ .

(٤) اقرأ صورة تقليد ناظر خزانة الخاص فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٣٤٠—٣٤٢

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣١ ؛ والمقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣٧ ؛ والخالدى : المقصد ص ١٣٧ ؛ Demombynes : La Syrie : p. LXXII. Van Berchem : Corpus, I, p. 347

(٦) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٣ . الخالدى : المقصد ص ١٣٥ . Demombynes : La Syrie, p. LXXIV.

دواوين أخرى ذكرها القلقشندى على أنها مستقلة، ولكنها لم تكن فى حقيقة الأمر سوى ادارات تتصل اتصالا مباشرا بالقصر السلطانى أو بالدواوين التى تكلمنا عنها. ومن ذلك: ديوان الاصطبلات، وديوان الخزانة، وديوان العمائر، وديوان المستأجرات، وديوان المواريث الحشرية للاشراف على ميراث من يموت ولا وارث له أو من يموت وله وارث لايستغرق ميراثه[١].

وكان يتولى شئون الأموال التى تجبى من الاسكندرية موظف يسمى «ناظر ثغر الاسكندرية»[٢]. وكانت تجارة البهار وغيرها من مستوردات الهند والبلاد الشرقية يتولى شئونها موظف كبير ولكنها كانت تضاف أحيانا إلى الوزارة وأحيانا إلى نظارة الخاص[٣].

ومن الموظفين البارزين فى ذلك العصر «شيخ الشيوخ» ويعد رئيس الخانقاه التى شيدها الناصر سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) فى سرياقوس من ضواحى القاهرة، وأصبح لرئيس هذه الخانقاه الاشراف العام على خانكات مصر[٤]، ومن الوظائف الدينية فى عصر المماليك وظيفة «ناظر الكسوة»[٥] وكان يتولاها القضاة ورجال القلم.

التنظيم الادارى:

كانت دواوين الحكومة فى عصر المماليك على نسق واحد من حيث التنظيم الادارى[٦]

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٣.

(٢) اقرأ صورة تقليد ناظر ثغر الاسكندرية فى القلقشندى: نفس المصدر جـ ١١ ص ٤٢٠ — ٤٢١ وعن «ناظر ثغر الاسكندرية» راجع الخالدى: المقصد ص ١٣٥ — ١٣٦.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٧ — ٣٣. الخالدى: نفس المصدر ص ١٣٥ — ١٣٦

(٤) Hautecoeur et Wiet: Les Mosquées du Caire, p. 104

(٥) Van Berchem: Corpus, Egypte I. pp. 346—347.

جاء وصف دوران المحمل واشتراك ناظر الكسوة فيه فى القلقشندى (نفس المصدر جـ ٤ ص ٥٧ — ٥٨) فقال: «ويكون دورانه فى يوم الأثنين أو الخميس لا يتعداها ويحمل المحمل على جمل وهو فى هيئة لطيفة من خركاة وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قبة من فضة مطلية ويبيت فى ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور ويسير الى تحت القلعة فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم».

وقد شاهد ابن بطوطة أثناء زيارته القاهرة سنة ٧٢٦ هـ «موكب المحمل أو دوران الجمل» وأتى بتفصيل دقيق لسير هذا الموكب. راجع تحفة النظار لابن بطوطة جـ ١ ص ٣٦.

(٦) كان موظفو الدواوين فى أوائل عهد الدولة الأيوبية — على ما ذكره ابن مماتى فى «كتاب قوانين الدواوين» الذى نشره الدكتور عزيز سوريال عطيه — «المستخدمين من حملة الأقلام لا يتجاوزون سبعة عشر رجلا بمن فيهم من يلزمه رفع الحساب وإن لم يدخل فى عداد الكتاب وهم: ناظر، متولى ديوان، مستوفى، معين، ناسخ، مشارف، عامل، كاتب، جهبذ، شاهد، نايب، أمين، ناسخ، دليل، حايز، خازن، حاشر».

=

فكان على رأس كل ديوان موظف كبيرهو « الناظر »[1] ويقوم بمهام الوزير اليوم . ويليه فى الرتبة « مستوفى الصحبة » و « مستوفى الدولة » ويشرفان على موظفى الديوان على اختلافهم . ويلى هؤلاء طبقة من الموظفين مثل الشاد والمستوفين والكتاب وغيرهم .

ويظهر أن بعض الموظفين كانت اختصاصاتهم مشتركة بالنظر فى بعض الأمور ، كما كان يحدث بين والى القاهرة والمحتسب مثلا ولسنا ندرى ماذا كان يحدث فى مثل هذه الحالات . ولكن الباحث يصل إلى أن سلطة الوظائف كانت تتوقف إلى حد كبير على شخصية شاغليها ، وأن بعضهم كان يقوى نفوذه وتبرز مواهبه فيطغى على اختصاص غيره ، وأن الناصر محمد كان يعمل على إلغاء بعض الوظائف إذا لم يرض عن أصحابها أو يعمد إلى إيجاد وظائف أخرى تنازعها السلطة والاختصاص إذا أثبت أصحاب الوظائف الأولى عجزاً عن القيام بأعبائها من ناحية أو استقلالا فى الرأى من ناحية أخرى . ومثل هذا الاضطراب فى الوظائف واختصاصها أمر غير مستغرب فى بيئة كان باب الخلاف فى الرأى مفتوحا بين الفقهاء فيها ولم تكن النظم الادارية قدوضعت على أسس وقوانين لا تقبل التفسيرات المختلفة .

وإن الذى يدرس الكتابات التاريخية ، يلاحظ أن الألقاب العديدة التى تشهد بتشعب الوظائف الادارية موجودة فى عصر دولتى المماليك وتبدأ فى الزيادة السريعة منذ سنة ٧٠٠ ﻫ حتى تختفى نحو سنة ٩٣٠ ﻫ وترتفع فى هذه الفترة مرتين : بين عامى ٧٠٠ و ٧٥٠ ﻫ وبين عامى ٨٥٠ و ٩٠٠ ﻫ أى فى حكم السلطان الناصر محمد والسلطان قايتباى . ويدل ذلك على أن عصر المماليك رغم عيوبه وبدء دلائل الاضمحلال فيه ، كانت له إدارة قوية : فالسلطان قطز والسلطان الظاهر بيبرس يؤسسان الدولة على أنقاض هزيمة التتار والأيوبيين والصليبيين . والسلطان قلاوون والسلطان خليل يتمان القضاء على المملكة اللاتينية فى الشام . ومنذ ذلك الحين تستقر إدارة المماليك التى نستطيع أن نكشف كثيراً من أمورها المتشعبة بفضل ما جاء فى المصادر العربية وبفضل الألقاب التى جاءت فى الكتابات التاريخية وبفضل مراسلات المماليك مع الدول الأوربية فضلا عما جاء فى كتب الرحالة الغربيين فى الشرق[2] .

وكان سلاطين المماليك فى البداية يعينون المماليك فى كل الوظائف أو معظمها . وقد احتفظوا بهذه القاعدة إلى نهاية حكمهم فيما يختص بالوظائف الكبيرة . ولكنهم اضطروا إلى أن يتخذوا فى وظائف كاتب السر وصاحب ديوان الانشا وما إلى ذلك موظفين من غير المماليك ، بل

= ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم الوظائف الديوانية قد ظل فى دولة الناصر بالاضافة إلى ما استحدثه المماليك من الوظائف المختلفة .

(١) انظر صورة توقيع لناظر الديوان فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٦٦ — ٦٨

(٢) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp. 227–228

كانوا يلحقون بها المسيحيين واليهود من أهل الذمة لأن المماليك لم يكونوا يتقنون مثل هذه الأعمال .

ولم يكن العرب أو أولاد المماليك يستطيعون الوصول إلى المناصب العالية أو إلى مرتبة مقدم ألف فانهم لم يتعدوا مرتبة أمراء الطبلخاناه . ولسنا نعرف شواذ لهذه القاعدة فى عصر الناصر .

وكان معظم الموظفين الماليين من القبط ، فقد اشتهروا بالنشاط والكفاية فى تولى هذه الأعمال . ولكن فى عصر قلاوون اضطهد المسيحيون وأبعدوا عن الوظائف ، إذا صح ما ذكره أبو المحاسن عن حوادث سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) : « ثم فى هذه السنة رسم السلطان ألا يستخدم أحد من الأمراء وغيرهم فى دواوينهم أحدا من النصارى واليهود وحرض على ذلك فامتثل ذلك الأمراء جميعهم »(١).

ومن العقوبات الخفيفة التى كانت توقع على الموظفين فى ذلك العصر الاحالة على الاستيداع ، وكان الموظف فى هذه الحالة خاضعاً لرقابة إدارية وملزما الاقامة فى القدس أو دمياط أو قوص أو مكة (٢) . وكانت الاحالة على التقاعد بعد الخدمة الطويلة أمراً طبيعياً بين صغار الموظفين ، ولكنها كانت نادرة جداً بين كبار رجال الدولة(٣) .

ولم تكن هناك قواعد محترمة أو حقوق لأصحاب الوظائف فى الترقى . ويلفت النظر فى نظام المماليك عامة عدم الاستقرار فى الوظائف : كثرة التولية والعزل والحبس والاعدام . وقد درس الاستاذ ڤيت (Wiet) تراجم ٢٢٠ موظفا كبيراً فى عصر المماليك ، فوجد أن ٨٤ منهم أعدموا و ٥ ماتوا فى السجن و ٨ قتلوا و ٢ ماتا فى الخارج بعد الخروج على السلطان الحاكم و ١٦ ماتوا فى قتال العدو و ٨٨ ماتوا موتاً طبيعيا أثناء توليهم الوظيفة و ٦ أحيلوا إلى التقاعد ، ولم يستطع أن يجمع البيانات الكافية عن ١٦ منهم(٤).

ودرس الأستاذ فيت تراجم ٧٤ نائبا للسلطنة فى دمشق فتبين له أن ٢٩ منهم أعلنوا الثورة على السلطان الحاكم ووصل منهم اثنان إلى مرتبة السلطان وهما لاچين وشيخ ونجح اثنان فى الهرب خارج الدولة وحصل خمسة على عفو السلطان وسجن خمسة ثم أفرج عنهم وأعدم خمسة عشر .(٥) ولم يكن عصر الناصر أكثر استقراراً من ذلك ،

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٤ .

(٢) Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire. p. 57.

(٣) Ibid p. 57.

ويقول ابن اياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ١١٥) بصدد استعفاء كبار الموظفين إن « الأمير أيبك الأفرم عين نائباً للسلطنة [سنة ٦٧٨ هـ] وأقام مدة يسيرة ثم استعفى من ذلك فأعفاه السلطان ورتب له ما يكفيه ولزم بيته » . راجع فى هذا الصدد بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ .

(٤) Hautecoeur et Wiet : les Mosquées du Caire, p. 56

(٥) Ibid. p. 56.

كان الموظفون فى عصر المماليك عامة وفى عصر الناصر خاصة على نوعين : أرباب السيوف وهم رجال الجيش ، ولم يكونوا مصريين ، وهم الذين ينفذون أوامر السلطان وينصرونه ويعتمدون عليه فى أمورهم المعاشية ، وفى بعض الأحيان كانوا يسيئون استعمال النفوذ الذى يتمتعون به . ومن حسن حظ المصريين أن أولئك المماليك كانوا يقضون جزءاً كبيراً من وقتهم فى القتال ، فانهم حين كانوا يقيمون فى العاصمة فى أوقات السلم ، يعمدون إلى إثارة الفتن والدسائس وتدبير المؤامرات ويستهترون بأرواح المدنيين كاستهتارهم بأرواحهم أنفسهم فى ميادين القتال (١).

أما أرباب القلم فكان معظمهم من المصريين . ولكن لم يؤثر عنهم أنهم استطاعوا خلع سلطان أو تغيير أسرة حاكمة ، مع أن كل الأسرات الحاكمة كانت تعتمد عليهم فى إدارة شئون البلاد حتى ليمكن القول بأن السلاطين والأمراء كانوا يعتبرون وادى النيل ضيعة كبيرة يديرها الموظفون من أرباب القلم ورجال الادارة المالية (٢) .

وعلى الجملة فانه ظهر فى مصر اذ ذاك نظام إدارى على جانب عظيم من الدقة والاتقان . وساعد على ذلك أن الناصر حكم فى سلطنته الثالثة منفردا لمدة اثنتين وثلاثين عام وهو أطول حكم لسلطان فى دولتى المماليك فهدأت الأحوال فى عهده مما ساعد على استقرار النظم الادارية وخاصة بعد أن تخلصت دولته من المغول والصليبيين . وحسبنا دليلا على دقة النظام الادارى فى مصر فى ذلك العصر مارواه المقريزى من أن السلطان الناصر «كان لا يرتشى ويمقت من يرتشى ويعاقبه أشد العقوبة» (٣).

---

(١) Ibid, p. 184.

(٢) Ibid, p. 184—185.

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ القسم الرابع ص ٤٤٤ .

الباب العاشر

الجيش والبحرية

ديوان الجيش :

كان ديوان الجيش أحد دواوين الحكومة التى تكلمنا عليها فى الباب الذى أفردناه عند الكلام على الحكومة المصرية . ولكننا رأينا أن نفرد لنظام الجيش باباً خاصاً . لأن الدولة المملوكية نشأت وقامت وترعرعت وتوطدت أركانها فى ظل ذلك النظام الحربى الذى هو من أخص مميزاتها وأبرز صفاتها . ولا عجب فى ذلك فقد نشأ المماليك نشأة عسكرية ، واشتهروا بالفروسية ومهروا فى ركوب الخيل وفى رمى النشاب والرماح . واتصفوا بالشجاعة والبسالة . تلك الصفات التى ميزتهم عن غيرهم وساعدتهم على الاحتفاظ بدولتهم . لذلك لم يكن بد من أن نبحث نظام الجيش وديوان الجيش باعتباره المركز الرئيسى الذى يهيمن على شئون الجند فى مصر وفى الولايات التابعة لها .

كان ديوان الجيش أول ديوان وضع فى الاسلام ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب . ويشرف فى عصر المماليك على شئون الاقطاعات ، حتى إقطاعات السلاطين وأولادهم . وكان أضبط الدواوين وأكثرها نفعاً[1] ، وفيه تحفظ الأوراق الخاصة بأسماء الجنود والأمراء ، ومركزه قلعة الجبل . ويقول القلقشندى : « ومن قاعدة هذه المملكة أن أحفاد الأمراء كافة كانت تعرض بالديوان . أما الآن فقد ترك ما هنالك واكتفى بأوراق تكتب فى دواوين الأمراء بأسماء أحفادهم وتخلد بديوان الجيش . ثم كلما مات واحد منهم أو فصل من الخدمة عرض بديوان الجيش واحد مكانه يتناول ما كان يتناوله الأول من ديوان ذلك الأمير »[2] .

من ذلك نرى أن ديوان الجيش لم يكن يدون أسماء الجنود إلا بواسطة أمرائهم . ولم يكن الجندى يتمكن من الانتقال من خدمة الأمير التابع له إلى خدمة أمير آخر إلا باذن السلطان وبعد صدور مرسوم خاص منه أو من نائبه[3] . وكان الجندى فى سلطنة المماليك يتبع أميره فى كل شىء .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٥ . الخالدى : المقصد ص ٢٠٥ .
Demombynes : La Syrie, p. LXXII.

(٢) صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٢ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة . عن نظام الجيش فى ذلك العصر راجع :
Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, pp. 48—51.

وكان برأس هذا الديوان موظف كبير يعرف باسم « ناظر الجيش »[١] . ويتولى أمر الاقطاعات بمصر والشام ، ويصدر أوامره بتدوين كل ما يختص بهذه الاقطاعات فى سجل خاص ، ويستشير السلطان فى شئونها[٢]. وكان ناظر الجيش يشبه فى الوقت الحالى وزير الدفاع ، وتعد وظيفته من الوظائف العالية فى الدولة ، لأنه يشرف على الجيوش وما يتعلق بها فى ذلك العهد الذى كان للجندية فيه مكان رفيع . وليس أدل على صحة هذا القول مما رواه خليل ابن شاهين الظاهرى : « وقد اجتمع أهل الدراية بتدبير الممالك ، ومن انتصب لاصلاحها بايضاح الطرق والمسالك ، أن من فراسة المملكة وسياقة الدولة ضبط أمور الجيش وحفظ أحوال الجند ، فانه قطب مدارها وسبب استقرارها ، فيتعين الاعتناء به والنظر فى مصالح كتابه ، فان شأنه أرفع وديوانه أجمع وعمله أوسع . لا سيما فى دولة فسيحة الأطراف واسعة الأكناف قد دلت جريدة جيشها على الآلاف فتحتاج إلى ترتيب منازلها على قدر طبقاتهم وضبط مقادير إقطاعاتهم ورعاية مبادىء مددهم وأوقاتهم . ومعظم هذه الأمور مغدوقة بناظر الجيوش المنصورة المشار إليه الذى مداره جميع أحوال المملكة على مايصدر عنه ويرد إليه »[٣].

وكان أشهر من تولوا وظيفة ناظر الجيش فى عهد السلطان الناصر هم : ابن الحلى والقاضى فخر الدين (مرتين) والقاضى قطب الدين بن الشيخ والقاضى شمس الدين موسى بن تاج الدين اسحق والقاضى مكين الدين بن قروينة والقاضى جمال الدين الكفاة[٤] .

وكان يعاون ناظر الجيش أربعة من كبار الموظفين : أولهم صاحب ديوان الجيش ، ويلى ناظر الجيش فى الرتبة وينوب عنه فى تصريف شئون هذا الديوان إذا غاب ، فهو بمثابة وكيل وزارة الدفاع الآن . وثانيهم مستوفى الجيش ومهمته تحديد مرتبات الجنود وتدوينها فى كشوف خاصة ، ويشرف على تنفيذ ماجاء بها بعد اعتمادها من السلطان ، وكان يقوم بهذا العمل شخصان : الأول يسمى مستوفى إقطاعات الديار المصرية ، ويطلق على الثانى مستوفى إقطاعات البلاد الشامية ، وقد وزع اختصاص هذين الشخصين على هذا النحو ، لأن ديوان الجيش كان منقسما إلى ديوانين : الأول يعرف باسم ديوان الجيش المصرى والثانى يعرف باسم ديوان الجيش الشامى . وكل منهما يتولى أمور الجيش فى مصر أو الشام حسب اختصاصه[٥] .

وثالث هؤلاء الأعوان يسمى مستوفى إقطاع العرب ، ويتصرف فى شئون إقطاعات العرب وربما ألغيت وظيفته وأضيف اختصاصها إلى مستوفى إقطاعات البلاد الشامية . أما

---

(١) اقرأ نص وصية « ناظر الجيش » فى القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٩ ص ٣٢٣ — ٣٢٤
(٢) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ٣٠ — ٣١ .
(٣) زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ .
(٤) أبو المحاسن : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٢٥٢ .
(٥) الخالدى : المقصد ص ١٣٦ ؛ Poliak : Feudalism in the Near East, p. 20.

الموظف الرابع فهو مستوفى الرزق ويشرف على صرف مرتبات الجنود . ويشترط فى هؤلاء الموظفين أن يكونوا على جانب عظيم من الأمانة والدقة فى تصريف الأمور التى يكلفونها والدراية بدقائق أعمالهم (١) . ويعمل معهم عدد وافر من الكتاب والشهود . إذ كان هذا الديوان يشرف على جميع جنود الدولة ، بما فيهم المماليك السلطانية الذين يؤلفون قسما هاماً من جيش المماليك(٢) .

ويساعد ناظر الجيش فى عمله موظف كبير يعرف باسم « نقيب الجيش » (٣). ويعهد اليه بأمر حراسة السلطان أثناء سفره أو حين خروجه فى المواكب . ويقوم باستدعاء من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ، ويشرف على الجند فى أثناء عرضهم كما يتكلم عنه وقت محاكمة الخصوم من المماليك فى طباق القلعة وينقل إجاباتهم إليه (٤) . ومن اختصاصه الحكم فى الأمور البسيطة ، وبذلك لم تعد وظيفته وظيفة أحد صغار الحجاب (٥) .

وكان نقيب الجيش يختار من أمراء العشرات . وتمتع صاحب هذه الوظيفة بنفوذ كبير حتى خافه الناس وخشوا بأسه وجبروته . وفى ذلك يقول المقريزى : « وأخذ أموالهم بالباطل على سبيل القهر عند طلب أحد إلى باب الحاجب ، ويضيفون إلى أكلهم أموال الناس بالباطل افتراءهم على الله تعالى بالكذب ، فيقولون على المال الذى يأخذونه باطلا : هذا حق الطريق ، والويل لمن نازعهم فى ذلك »(٦) .

ومن أبرز نقباء الجيوش من الأمراء : علاء الدين طيبرس الخزندارى وشهاب الدين احمد الهمندار وعزالدين أيدمر العلائى وشهاب الدين صاروجا وبكتوت الشيرازى وبدر الدين بكتاش الفاخرى(٧) . ويظهر أن وظيفة نقيب الجيش كانت تضم أحياناً إلى من يشغل وظيفة نقيب المماليك السلطانية ، بدليل أن كلا من أيدمر العلائى وبكتاش الفخرى قد شغل هاتين الوظيفتين فى وقت واحد (٨) .

---

(١) الخالدى : المقصد ص ١٣٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣١ ؛ Demombynes : La Syrie, p. LXXII.

(٣) النقيب لغة هو الأمين أو العريف أو ضمين القوم . ويعبر عن نقيب الجيش باسم مقدم الجيوش أو أمير الجيوش أو نقيب نقباء الجيوش أو أتابك العساكر . القلقشندى : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٦
Van Berchem : Corpus, I. p. 77,175.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٢١ — ٢٢ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤ . Demombynes : Op. Cit. p. LIX.

(٦) المقريزى : الخطط : ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٧) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٩ — ١٥٠

(٨) عرف النقيب منذ عهد الرسول عليه السلام ، حين دعا أهل يثرب إلى الاسلام واختار منهم اثنى عشر نقيبا لنشر الاسلام فى هذه المدينة . وكذلك استعان العباسيون بالنقباء فى نشر الدعوة لهم =

فرق الجند :

أما الجيش الذى كان يقوم على شئون هذا الديوان ، فكان يتكون من ثلاث فرق نظامية كل أفرادها من الأرقاء الذين جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأسود . وأول تلك الطوائف طائفة المماليك السلطانية : وقد سموا بذلك الاسم لأن السلطان القائم كان يجلبهم إلى مصر ، ولذا كانوا يعرفون باسم «الأجلاب» وباسم «الاحداث» . على أنه كان من بين المماليك السلطانية طائفة من المماليك القدماء ، أطلق عليهم اسم «القرانصة» أو «القرانيص» وهم مماليك السلاطين السابقين . وكانت تفرد لهم بديوان الجيش سجلات خاصة ، وتجرى عليهم الأرزاق ، ولم تبلغ منزلة هؤلاء منزلة المماليك السلطانية(١) .

ويلى القرانصة طائفة المماليك الخاصكية وهم مماليك السلطان القائم قبل اعتلائه العرش ويمتازون عن بقية المماليك السلطانية بأن السلطان يتولى أمر تربيتهم وعتقهم كما أنهم يلازمون السلطان فى خلواته وبذلك كانت لهم المنزلة الأولى حتى إنهم كانوا يرشحون قبل سواهم للامارة . ويظهر أنه كان هناك فرقا بين طوائف المماليك المختلفة . فقد كان بعضهم تصرف لهم مرتبات شهرية ، بينما كان البعض الآخر يعيش من دخل أرض اقطعت له بما يستلزم أن يكون حراً قادراً على التملك(٢) .

ويطلق على مماليك السلطان عامة اسم « مماليك الطباق» لأنهم كانوا يسكنون طباق القلعة وهناك تمييز بين المماليك الذين ينتسبون إلى السلطان الجالس على العرش أى الذين اشتراهم لنفسه ، وبين المماليك الذين ينتسبون إلى السلاطين السابقين ثم تركوهم . فقد كان يطلق على الطائفة الاولى اسم «المشتروات» وعلى الثانية اسم «السيفية»(٣) .

وكانت المماليك السلطانية عامة تعتبر طوال مدة التهذيب والتدريب مماليك مؤقتة يطلق عليها اسم «المماليك الكتابية» . وكان مركزهم الاجتماعى أرقى بكثير من مركز الأرقاء السود (العبيد والغلمان) ولو أنهم كانوا مساوين لهم من الناحية الشرعية(٤) . وهؤلاء المماليك الكتابية هم الذين كانوا يعرفون فى عهد الفاطميين باسم « صبيان الحجر» لأنهم كانوا يقيمون فى حجرات منفردة لكل حجرة منها اسم خاص وبلغ عددهم حينئذ خمسة آلاف (٥)

═ وقد عرف النقيب فى الدولة الفاطمية . ولكن هؤلاء النقباء كانوا رؤساء وزعماء عامة ولم تكن لهم مسحة عسكرية . راجع « الفاطميون فى مصر » للدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٤١ و٤٢ و١٤٢ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٦ .Demombynes : La Syrie, p. XXIII

(٢) Wiet : Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II .p. 242.

(٣) Demombynes : La Syrie, p. XXX et seq.

(٤) Poliak : Feudalism in the Near East, p. 3

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٧٧ .

أما الطائفة الثانية من الجنود النظامية فهم أجناد الحلقة . وتتكون من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم وهى أقرب الطوائف إلى نظام الجيش فى العصور الحديثة وهم على هذا الاعتبار جيش الدولة الذى لايتغير بتغير السلطان ويشرف على كل ألف منهم أحد أمراء المئين ولكل مائة منهم «نقيب» و «باش» ولكل أربعين «مقدم» وكانت تصرف مرتباتهم من ديوان الجيش (١) .

والطائفة الثالثة هى مماليك الأمراء ، وتشبه طائفة المماليك السلطانية ، إلا أن أفرادها يتبعون أمراءهم مباشرة . فقد كان كل أمير يشترى عدداً من الاتباع بقدر ماتسمح به حالته المالية حتى أصبح لكل أمير جيش صغير . ومن هؤلاء تكونت الوحدات الحربية التى سار على رأسها الأمراء بصحبة السلطان فى حروبه (٢) . وليس أدل على أهمية هذه الطائفة من المماليك لأمرائهم من هذه العبارة التى رواها المقريزى وفيها يقول : «إن مقام الأمراء بمماليكهم» (٣) .

وفى عهد المماليك كانت جيوش المماليك فى مصر خليطاً من الأتراك والجركس والروم والأكراد والتركمان (٤) . ولم يكن فى هذه الجيوش من العناصر المصرية أو الشامية سوى ماالحق بالحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع والأتباع ، لأن همة هؤلاء ونشاطهم فى هذا العصر كان مقصوراً على الاشتغال بالزراعة والتجارة والصناعة وغيرها . وقد انصرفوا عن الأعمال الحربية إلى الاشتغال فى الوظائف الحكومية (٥) .

وكان هناك فرقة من فرق الجيش المملوكى تسمى فرقة «أولاد الناس» . وقد شملت هذه الفرقة أبناء أمراء المماليك فقط ، وهى نوع من الاحتياطى الحربى ، يدعى إلى السلاح فى حالة الحرب . وكان عليه أن يضع نفسه تحت تصرف السلطان فى حالة الحرب . وفى مقابل ذلك كان لكل منهم إقطاعات أو كان يعطى مبلغ الف دينار دفعة واحدة أو مرتباً سنويا زادت قيمته تدريجياً حتى بلغ الف درهم فى عصر السلطان قايتباى ، وكانت أجورهم تدفع لهم فى أيام السلم . وكان والد ابن إياس من أولاد الناس فى القاهرة (٦) .

وقد ظلت فرق الأجناد من المماليك تقيم فى قلعة الروضة التى بناها السلطان الصالح نجم الدين

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ ٥ ص ١٦٦ . القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ١٦ .

(٢) Domombynes : La Syrie p. XXX.

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ٢ القسم الرابع (مخطوط) ص ٤٣٤ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٥) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٩ .

(٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٩٠ حاشية للدكتور زيادة Enc. Isl. art. Ibn Iyas.

أيوب حتى أمر السلطان المعز أيبك بنقل جميع المماليك إلى قلعة الجبل . على أن السلطان الظاهر بيبرس لما اعتلى العرش اهتم بعمارة قلعة الروضة ثانية وأعادها إلى ما كانت عليه وأمر بتوزيع أبراجها على الأمراء الذين اتخذوا بيوتهم واصطبلاتهم فيها . ولما جلس السلطان المنصور قلاوون على العرش (٦٧٩ هـ) نقل المماليك إلى قلعة الجبل ثانية . وفى عهد السلطان الناصر محمد بنيت الطباق بساحة الإيوان بالقلعة واتخذها المماليك السلطانية مقراً لهم [١] . وكانت القلعة وقتئذ عبارة عن مدينة غاصة بطوائف الأجناد والأمراء من مختلف الأجناس التى ترد إلى البلاد المصرية رغبة فى الاندماج فى سلك الجندية [٢]. ولم تكن الجيوش تقيم كلها فى القلعة ، بل كان منها ما يلحق بولاة الأقاليم ، إذ كان لكل وال أو كاشف نفر من المماليك يعاونونه فى عمله ، ويكونون على أهبة الاستعداد إذا دعاهم داعى القتال .

وكان مماليك الأمراء يقيمون مع أمرائهم فى مساكنهم فى المدينة أو فى الاقطاعات المقطعة لهم فى مصر وفى البلاد الشامية حيث كانوا يقيمون فى الحصون والقلاع ، فاذا لم يكن فيها قلاع اتخذوا لهم مكاناً بجوار مقر الوالى . وكانت القلاع التى يقيمون فيها ، على نسق قلعة الجبل ، تحوى كل ما يحتاج اليه الجندى من سلاح وعتاد وزاد استعداداً للطوارىء التى قد تهدد سلامة البلاد . أما فى زمن الحرب فقد كانوا يتخذون المعسكرات فينصبون الخيام بترتيب محكم : فى الوسط خيمة أمير الجيش وهو القائد للفرقة تحيط به خيام كبار رجال الأمراء ، ومن يلونهم فى الرتبة وهكذا . وقد سمى المعسكر « الوطاق » ، واتخذ فى مكان بعيد عن ميدان القتال حتى يكون آخر ما يلحق به التخريب . وكان رجال الجند جميعاً من أدنى جندى إلى السلطان نفسه مماليك اشتروا بالمال ، اللهم إلا أولاد من حكم من السلاطين .

وقد أورد المقريزى عدد الجند على اختلاف طوائفهم ورتبهم فى مصر ، وهو إن لم يبين لنا اسم السلطان الذى وصل فى أيامه الجيش المملوكى إلى هذا العدد ، إلا أنه على العموم يعطينا فكرة عن عدد الجيش فى ذلك العصر بصفة عامة ، خصوصاً إذا علمنا أن عدد مماليك الأمراء لم يكن يتناوله التغيير عادة فى الزيادة أو النقصان . ونحن ننقل هذا البيان فيما يلى :

٢٤	أمير مائة مقدم ألف
٢٤٠٠	مماليكهم بمعدل ١٠٠ لكل أمير
٢٠٠	أمراء طبلخاناه

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٧ — ١٨٥

(٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٢٧ .

٨٠٠٠	مماليكهم بمعدل ٤٠ لكل أمير
١٤	كشاف وولاة بالأقاليم
٥٦٠	مماليكهم بمعدل ٤٠ لكل أمير
٢٠٠	أمراء عشرة
٢٠٠٠	مماليكهم بمعدل ١٠ لكل أمير
٧	ولاة عشرات الأقاليم
٧٠	مماليكهم بمعدل ١٠ لكل أمير
١٣٤٧٥	جنود أمراء
٢٠	مقدمو المماليك السلطانية
٢٠٠٠	المماليك السلطانية
١٨٠	مقدمو الحلقة
٨٩٣٢	أجناد الحلقة
٢٤	نقباء ألوف
١١١٥٦	المماليك السلطانية وأجناد الحلقة
١٣,٤٧٥	جنود أمراء
٢٤,٦٣١	مجموع الجند فى مصر[1]

أما نيابات الشام فلم يتعرض المقريزى لذكر عدد الجند فيها . ولكن خليل بن شاهين الظاهرى أوضح عدد الجند فى مصر والشام على النحو الآتى :

٤٢,٠٠٠	الجنود المصرية : مماليك سلطانية . أجناد حلقة . مماليك أمراء .
١٥,٠٠٠	أجناد الحلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء .
٨,٠٠٠	حلقة حلب ومماليك الكافل والأمراء .
٥,٠٠٠	حلقة طرابلس ومماليك الكافل والأمراء .
٢,٠٠٠	حلقة صفد ومماليك الكافل والأمراء .
١,٠٠٠	حلقة غزة ومماليك .
٧٣,٠٠٠	حلقة ومماليك بمصر والشام .
٦٠,٠٠٠	أجناد النواب بمصر والشام .
١٣٣,٠٠٠	مجموع

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

أما العربان فى الأقاليم التابعة لمصر — عدا الشام — فقد ذكر خليل بن شاهين أن عددهم وصل إلى ٣١٤,٠٠٠ . وبذلك أحصى هذا المؤلف جند الجيش المملوكى فى مصر ونيابات الشام والأقاليم التابعة لمصر كما يلى :

٣١٤,٠٠٠ جنود العربان فى الأقاليم التابعة لمصر .

١٣٣,٠٠٠ حلقة ومماليك بمصر . أجناد النواب بمصر والشام .

٤٤٧,٠٠٠ المجموع الكلى للجيش المملوكى[١] .

وكانت أرزاق الجند إذ ذاك تدفع من مستغلات الإقطاعات ، وفى شهر شعبان سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) عمل الناصر الروك الذى عرف فى التاريخ باسم « الروك الناصرى » نسبه اليه ، وبه زيدت أنصبة الأمراء والجند عما كانت عليه فى « الروك الحسامى » الذى عمله السلطان لاجين سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . فأصبحت تلك الأنصبة أربعة عشر قيراطا ، بعد أن كانت أحد عشر قيرطاً . وبدأ الناصر فى توزيع أنصبة الأجناد فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٧١٥ هـ وتم ذلك فى قلعة الجبل [٢]

أساليب الحرب :

هذا ما كان من أمر الجيش ، وديوانه ، وإقطاعات فرق الجيش فى عهد المماليك . أما أساليب المماليك فى الحرب فى ذلك العهد فقد كان المعتاد أن يعقد « مجلس الجيش » ، برياسة السلطان وعضوية أتابك العساكر والخليفة وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين الذين بلغ عددهم أربعة وعشرين أميراً . وكان الغرض من عقد هذه المجالس الاستنارة بآراء كبار الدولة قبل الاقدام على حرب من الحروب وجعل إعلان الحرب أمراً مشروعاً . وهنا يأمر السلطان باستدعاء الجنود من مختلف جهات مصر ، فيحلفون يمين الطاعة والولاء فى حضرته ، فيتسلمون ما يلزمهم من عتاد الحرب من خزانة السلاح التى يطلق عليها إسم « السلاح خاناه » . ثم يعرضهم السلطان بنفسه وهو مرتد لباس الحرب . ويعرف ذلك فى مصطلح المماليك الحربى باسم « النفير » [٣] .

وإذا ما عرض السلطان الجند وتفقد أحوالهم وسلاحهم عين من كبار قواده قائدا يسير

---

(١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٠٣ — ١٠٦ . ويظهر أن فى مجموع الجند فى الجيش المملوكى حسب رواية هذا المؤرخ شيئا من المبالغة . على أنه لا يستبعد أن يصل عدد الجيش الى هذا الرقم فى عهد السلطان الناصر محمد ، إذ فى عهده تمت هزيمة التتار وقضى على البقية الباقية من الصليبيين .

(٢) اقرأ ماسيأتى ذكره عن الاقطاعات والروك الحسامى والروك الناصرى فى باب « الحالة المالية والاقتصادية » .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ٢١٠ . Demombynes : La Syrie,p. CIII.

على رأس الحملة الحربية . ويشترط فى هذا القائد أن يكون جنديا خبر الحروب وخاض غمارها غير مرة وظهرت كفايته الحربية فيها . وقد جرت العادة أن يتخذ القائد مركزه فى القلب حتى يراه جميع الجند وينفذون جميع أوامره . وقد يتخذ مركزه فى المقدمة ليثير الحماسة فى نفوس جنده ويلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائه .

وكان المماليك يتبعون فى حروبهم طريقة قتال الصفوف ، فيسير الجندى بجانب صاحبه حتى يكاد يلتصق به ، ثم تنظم الصفوف كما تنظم صفوف الصلاة ، ويسيرون على هذا النحو حتى يصلوا إلى حيث استقر العدو ، وهذه الطريقة التى كانوا يتبعونها فى حروبهم أصدق فى القتال وأرهب للعدو . ويصف ابن خلدون طريقة القتال عند المماليك بقوله : « وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد وقتالهم مناضلة بالسهام ، وأن تعبئه الحرب عندهم بالمصاف ، وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف . يضربون صفاً وراء صف ، ويترجلون عن خيولهم ، ويفرغون سهامهم بين أيديهم ، ثم يتناضلون جلوساً ، وكل رد للذى أمامه أن يكبسهم العدو إلى أن يتهيأ النصر لاحدى الطائفتين على الأخرى وهى تعبئة محكمة غريبة »[1] .

ومما يدلنا على أن المماليك قد عملوا فى كل الحروب التى خاضوا غمارها على أن يقاتلوا عدوهم وهم صفوف متراصة وتوعدوا كل من يخرج عن الصف بأقسى أنواع العقاب . تلك العبارة التى ننقلها عن المقريزى عند كلامه على خروج السلطان الناصر محمد سنة ٧٠٢ ﻫ فى عهد سلطنته الثانية لقتال التتار ، إذ نودى فى العسكر : « من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلاحه وفرسه »[2] . ويقول نفس المؤلف فى موضع آخر بصدد الحرب نفسها إن الأمراء الأكابر ظلوا « طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يرصونهم ويرتبونهم ، ويكثرون من التأكيد عليهم فى التيقظ وأخذ الأهبة . فما طلع فجر يوم الأحد إلا وقد اجتمع شمل عساكر السلطان ووقف كل أحد مع مصافه مع أصحابه »[3] .

وكان الخليفة يصحب الحملات الحربية أحياناً لحث الجند على الجهاد وبث الروح الدينى فى نفوسهم . يقول المقريزى عند كلامه على خروج السلطان الناصر محمد لقتال التتار : « مشى السلطان والخليفة بجانبه ، ومعهما القواد يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة . وصار السلطان يقف ويقول الخليفة : « يامجاهدون ! لاتنظروا إلا لسلطانكم ، قاتلوا عن حريمكم وعن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم »[4] .

وقد اعتمد المماليك على الخيل فى حروبهم . لذلك عنوا بأمرها كل العناية ، واتخذوا لها

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٦ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٣٣ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٥ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٣٣ .

الأدوات الفاخرة من اللجم والسروج والكنابيش ، التى صنعت من القماش الفاخر الموشى بالذهب والمطرز والمزركش بالحرير . (١) وقد أوضح النويرى ، أهمية الخيل عند المماليك فى أثناء القتال ، فيما أورده بصدد واقعة مرج الصفر (سنة ٧٠٢ هـ) التى اشترك فيها والتى دارت بين السلطان الناصر وبين غازان زعيم المغول فى هذه العبارة « وأقمنا بالمرج يوم الخميس والجمعة ، فلما كان فى ليلة السبت المسفرة عن ثانى شهر رمضان دارت النقباء على العساكر ، وأخبروهم أن العدو قد قرب منهم ، وأن يكونوا على أهبة واستعداد فى تلك الليلة وأنه متى دهمهم العدو يركبوا خيولهم . . . فبتنا فى تلك الليلة وليس منا الا من لبس لامة الحرب وأمسك عنان فرسه فى يده ، وتساوى فى ذلك الأمير والمأمور ، وكنت قد رافقت الأمير علاء الدين مغلطاى البيسرى أحد أمراء الطبلخانات بدمشق لصحبة كانت بينى وبينه فلم نزل على ذلك وأعنة خيلنا بأيدينا حتى طلع الفجر فصلينا وركبنا . واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع النهـــار فى يوم السبت المذكور . ثم أرسل الله مطراً شديداً نحو ساعتين ، ثم ظهرت الشمس ولم نزل على خيولنا إلى وقت الزوال ، وأقبل التتار كقطع الليل المظلم . وكان وصولهم ووصول السلطان بالعساكر المصرية فى ساعة واحدة »(٢) .

وقد صارت الفروسية فى عهد المماليك فناً عظيم الشأن فى حروبهم أفردوا لدراسته الكتب والرسائل الكثيرة الموزعة بين خزائن المخطوطات الأوربية والتى لم يسترع أمر نشرها حتى الآن نظر المؤرخين والمستشرقين . ونورد من بينها على سبيل المثال كتاب « نهاية السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية » تصنيف بكتوت الرماح خازندار الملك الظاهر (٣) الذى توفى عام ٧١١ هـ (١٣١٢ م) . وهنالك مخطوط آخر اسمه « كتاب الفروسية برسم الجهاد » تأليف محمد بن احمد بن لاچين الحسامى الطرابلسى (٤) المتوفى عام ٧٨٠ هـ (١٣٧٩ م) والباب الأول منه « فى ركوب الخيل والنزول بالرمح » والباب الثانى « فى المناصب الحربية » وتشمل « الطعن الحجازى والطعن الرومانى والكهرْد الصغير والكبير والنارود الصغير والكبير والمقابلة والمقلوبة والمجادلة والمنصوبة والمفارقة والملازقة والمخارجة والمضايقة والكر والفر ، والهزل والجد والأخذ والرد والطلوع والنزول »(٥) ، وهى من صنوف الأوضـــاع والحركات المختلفة فى حومة القتال . والباب الثالث « فى الحروب وعلم الفروسية » إلى آخر

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٢٤ .

واجع البيانات عن كتاب البيطرة المعروف باسم « كامل الصناعتين » لأبى بكر بن بدر البيطار فى اصطبل الناصر فى كتاب « التصوير عند العرب » لأحمد تيمور باشا (نشره الدكتور زكى حسن) ص ٣٦

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٣٣٦ ب .

(٣) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٣٦٣١ Orient

(٤) مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨ .

(٥) مخطوط برلين السابق ذكره ورقة ١٤ .

ماجاء بالكتاب ، ومادته فى مجملها تشبه ماورد فى « كتاب الفروسية » الذى نجهل اسم مؤلفه والمحفوظ بالمكتبة الأهلية فى باريس[١] . ويضيق المقام عن الالمام بكل ما كتب فى هذا الباب من تلك الرسائل[٢] .

وكانت الموسيقى تصحب جيوش المماليك وقت القتال ، وتوزع الفرق الموسيقية فى أنحاء المعسكرات ، بحيث يكون كل أمير بطبله الخاص ، وكان لها أنغام متعددة ودقات اصطلاحية . وتحفظ الطبول فى أيام السلم فى الطبلخاناه التى تكلمنا عليها . ويشرف أمير علم على شئون الموسيقى فى السفر ، ولها مهتار يعرف باسم مهتار الطبلخاناه تحفظ فى عهدته جميع الآلات الموسيقية[٣]. ويظهر أن الطبول كانت جزءاً أساسياً من معدات الجيش فى عهد المماليك ، بدليل هذه العبارة التى ننقلها عن المقريزى فى وصف جيش المماليك قبل التحامه بالتتار فى موقعة مرج الصفر : « بات السلطان وسائر العساكر على ظهور خيولها ، والطبول تضرب وتلاحق به من انهزم شيئاً بعد شىء ، وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية والكوسات (الصنوج) الحربية »[٤] . وكانت النقارات ، وهى من الآلات الخاصة بمواكب السلطنة منـــذ عهد الفاطميين ، تحمل فى ركاب السلاطين إلى ساحة الحرب ، فتستخدم فى إصدار الأوامر وفى الايذان ببدء القتال . وكانت تحمل على عشرين بغلا ، على كل بغل ثلاث منها مثنى مثنى[٥] .

واتخذت الجيوش المملوكية الأعلام فى الحروب شعاراً يلتف حولها الجند ويدافعون عنها . وكان للسلطان من الأعلام ثلاثة : أحدها من الحرير الأصفر المطرز بالذهب ، ينقش عليه ألقاب السلطان واسمه ويسمى « العصابة » . والثانى كبير أبيض ، تعلق فى أعلاه خصلة من الشعر ويسمى « الجاليش »[٦] ، وهو مقدمة القلب . وسمى بذلك لأن ترتيب جاليش السلطان فى المواقع التى يحضرها يكون عادة فى ذلك الوضع من جميع الصفوف . والثالث راية صفراء صغيرة تسمى السنجق . ويظهر أن السلطان كان يركب فى المواكب فى زمن السلم

---

(١) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس عربى رقم ٢٨٢٩ ، راجع دى سلين ص ٥٠٩ .

(٢) A. S. Atiya : The Crusade in the Later Middle Ages, pp. 545—544 حيث يستعرض المؤلف عدداً من تلك الرسائل الموجودة بالمكتبات الأوربية والتى ذكر لنا من بينها ما سردناه فى هذا البند . راجع أيضا عن الفروسية وفن الحرب كتاب « التصوير عند العرب » لأحمد تيمور باشا (أخرجه الدكتور زكى حسن) ص ٤٣ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١١٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٩ — ١٣ . ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص٦٣ . Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 25.

(٤) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٣٥ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧٥ Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٧ . ج ٥ ص ٤٥٨ . المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٣

بالسناجق فقط ، أما فى زمن الحرب فكان يخرج بالأعلام الثلاثة معاً[١] .

وكان جنود المماليك يتدربون على إسعاف المرضى وتضميد الجراح . ومع ذلك فقد كان الأطباء يصطحبون الجيوش لمداواة الجند مما قد يحل بهم من أمراض أو يلحقهم من جراح فى أثناء القتال . وقد اقتبس المماليك ذلك عن الأيوبيين ، فقد أثر عن السلطان صلاح الدين الأيوبى أنه كان ملماً بمبادىء الاسعاف والتمريض ، حتى إنه سارع إلى مداواة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، الذى كان ينازل صلاح الدين فى الحروب الصليبية ، ولم يزل يعنى بأمره حتى شفى من مرضه[٢] .

ولم يكن القتال يدور بواسطة أجناد الحلقة أو مماليك الأمراء فقط ، بل إن المماليك السلطانية كانت تقوم بدور هام فى حروب المماليك . فقد ذكر المقريزى عند كلامه على قتال السلطان الناصر محمد للتتر أن قطلوشاه التترى « شرع فى ترتيب من معه ونزلوا مشاة وفرسانا وقاتلوا العساكر ، فبرزت المماليك السلطانية بمقدمها وعملوا فيهم عملا عظيما : تارة يرمونهم بالسهام وأخرى يهاجمونهم . واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من فى جهتهم ، وصاروا يتناوبون القتال أميراً بعد أمير ، وألحت المماليك السلطانية فى القتال واستقتلوا »[٣] .

الأسلحة الجيسمة :

أما الأسلحة[٤] التى كان يستعملها المماليك فى حروبهم فى ذلك العهد . فمنها السيف ، ولقد

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ . ج ٥ ص ٤٥٦ — ٤٥٨ . عن الاعلام فى العصر الفاطمى ، راجع « كنوزالفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ٦٥ — ٦٦ وما جاء فيها من مراجع .

(٢) محمد بن منكلى : الأحكام الملوكية (مخطوط) ص ٨٧و٩٥ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٣٥ .

(٤) لايفوتنا هنا أن نشيد بذكر المجموعة الكبيرة المسماة Description d'Egypte التى كتبها علماء الحملة الفرنسية على مصر وأحوالها سنة ١٧٩٨ م فى وقت كانت فلول المماليك لاتزال متحكمة بالبلاد محتفظة بتقاليدها وكثير من عاداتها القديمة والصور التى فيه تمثل إلى حد كثير الملابس والأسلحة التى كانت مستعملة فى أيام المماليك . وليس بدار الآثار العربية أية ملابس أو أسلحة ممايتسب إلى هذا العصر وكل ماهنالك سيفان أحدهما باسم السلطان طومان باى والآخر باسم السلطان الغورى وهما معاصران لأواخر دولة المماليك البرجية ، وقد عاشا قبيل الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ م . ونجد كذلك بدار الآثار العربية تحفاً مختلفة عليها رنوك تنسب إلى العصرين المملوكيين الأول والثانى وتمت إلى الناحية الحربية بصلة .

وفى كتابى « التاريخ الحربى لمحمد على وأبنائه للجنرال فيجان Weygand (جزءان) ، والمعارك البحرية لمحمد على وابراهيم للاميرال دوران فيل Durand Viel (جزءان) صور تمثل حالة المماليك الحربية فى مصر فى عصر محمد على وتوضح العدد الحربية من أسلحة وخيل وغيرها مما كان مستعملا =

استعمله المماليك كما استعملته الأمم الأخرى واتخذوا منه الطويل والقصير والعريض والدقيق وكانوا يعلقونه فى الجنب كما كان متبعاً فى عهد الدولة الأيوبية[١] . واستعمل المماليك الخنجر والطبر والبلطة والفأس فى حروبهم . فالخنجر آلة تشبه السكين الكبيرة المنحنية النصل أو المستقيمة ، ويوضع فى جانب والسيف فى الجانب الآخر . والطبر وهو لفظ فارسى معناه الفأس . وحملة الأطبار بمثابة الحرس الخاص للسلطان يلازمونه فى الاحتفالات والمواكب ويسمون الطبردارية ويرأسهم أحد أمراء العشرات ويسمى « أمير طبر »[٢]. والبلطة وتختلف عن الفأس فى أن امتداد سلاح البلطة يستقيم مع يدها ، أما الفأس فامتداد سلاحها يتعارض مع يدها ، وكانت تستعمل فى قطع الأخشاب وتمهيد الطرق أمام الجيوش فى الغابات والحراج . والرُّمح وكانت تعقد على الرماح الألوية التى يقال لها السناجق . والدبوس وهو آلة من حديد ذات أضلاع[٣] .

وكان المماليك يستعملون فى حروبهم القوس والسهم والمقلاع أيضا . فالقوس[٤] عبارة عن قضيب من الخشب شد طرفاه بخيط أقصر من القضيب فيتقوس ، والسهم قطعة من الخشب تركب فيها من الأمام قطعة مدببة من الحديد . والمقلاع عبارة عن كفة من الجلد أو القماش إما بيضاوية أو مستديرة ، لها حبلان فى الأولى أو ثلاثة فى الثانية ، وطول هذه الحبال يتراوح بين خمسين وستين سنتيمترا ، وتربط من طرف فى الكفة ويترك الثانى مرسلا . وطريقة استعماله هى أن يجعل لكل حبل عروة عدا حبلا واحد يظل متروكا ويمسك بالأصابع ، فتصير الكفة معلقة . ثم يوضع الحجر فى هذه الكفة وتلف فى الهواء بحركة روحية ، ثم يفلت طرف الحبل من الأصبع فينطلق الحجر[٥] . ولم يفت المماليك استعمال النبال والنشاب فى حروبهم .

= فى عصرهم . وهى على كل حال تعطينا فكرة لما كان عليه الجند فى العصر المملوكى عامة وعصر الناصر خاصة . راجع عن السلاح عند الفاطميين كتاب « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ٥٤ — ٥٨ وما جاء فيها من مراجع .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٢ . لاچين : كتاب الفروسية (مخطوط برلين رقم ٥٨٨) ورقة ١٣٦ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٥٨ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٢٨ . لاچين : نفس المصدر ورقة ٣٦ ب

(٤) من أمثلة الرسائل التى اختص فيها بعض مؤلفى المماليك الحربيين فى القوس والسهم واستعمالهما « كتاب غنية الطلاب فى معرفة الرمى والنشاب » تأليف طيبغا الأشرفى البلقميشى اليونانى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) (مخطوط بكمبردج رقم الصورة ١٧٨ ، ٢٤٠) . ومن هذه الرسائل أيضا « شرح ديوان التونية فى صناعة الرمى والقوسية » (مخطوط ليدن) . راجع دى يونج ودى جوية جزء ٣ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ . انظر أيضا ابن منكلى : الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية (مخطوط) ص ٢٥

(٥) عبد الرازق بركات : الرسالة الفنية ص ١٦٧ .

وهناك أدوات حربية استعان بها المماليك فى حروبهم ضد الصليبيين والتتر . ومنها المنجنيق وهو أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء . ويتركب من ثمان وعشرين قطعة من الخشب يعمل منها القاعدة وفوقها القائمتان على الجانبين ، وتتصل هاتان القائمتان بعرضة ، ثم يركب على هذه العرضة سهم يراعى فى وضعه عليها أن يكون أحد طرفيه قصيرا والآخر طويلا ، وتثقل الجهة القصيرة حتى يصير وضع السهم رأسيا ، وفى الجهة الطويلة تركب الكفة التى يوضع فيها الحجر المعد للقذف بعد أن يجذب حتى يجعل عاليه أسفله ، وعندئذ يخلى السهم فينطلق الحجر نحو الهدف [١] ولم يكن يرمى من المنجنيق الأحجار فقط ، بل كان يقذف منه الحديد وقدور فخارية أو زجاجية تملأ بالنفط والزرنيخ والأفيون ، وترسل على الأعداء فتقوم مقام الغازات الخانقة فى يومنا هذا [٢] . ومن هذه القذائف مايرمى باليد كالقوارير المصنوعة من الزجاج التى تملأ بالنفط والصبر وبذر القرطم المقشور . فاذا أريد القاؤها أشعلت ثم رمى بها بواسطة سلسلة ، فاذا انكسرت على شىء أشعلت النار فيه [٣] . وكانت المجانيق تحمل على الابل بعد فصل أجزائها بعضها عن بعض ، ثم تركب عند الحصار [٤] .

وقد استعان المماليك فى هدم أسوار الحصون التى تعترضهم فى القتال بعدة آلات مثل الدبابات ذوات العجل والضبور والكبش . أما الدبابات فيدخل المحاربون فى جوفها ، ويدفعونها إلى جدار الحصن فينقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من مطاردة العدو . وقد عرف الضبور فى عهد المماليك وهى كالدبابة تقريبا تصنع من الخشب المغطى بالجلد ويكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن ، فيقاتلون أهله وهم فيها ، وتعرف بالسيارات المصفحة اليوم . أما الكبش فهو عبارة عن حجرة صغيرة مركبة على عجل مصنوعة من الخشب المحكم مغلقة بلبود أو جلود منقوعة فى الخل ، وبداخلها الجند الذين يحركونها بدفعها حيث لا أرض لها ، وقد يعلق فى سقفها سلاسل يربط فيها عمود أفقى له رأس كرأس الكبش وتقرب هذه الآلة إلى أسوار الحصن أو القلعة ، وتعمل الرجال فى الأسوار لنقبها إما بالآت عندهم أو بواسطة رأس الكبش بتحريكها حتى تصطدم بحائط السور [٥] .

---

(١) ابن ارنبغا الزردكاش : الأنيق فى المجانيق (مخطوط) ص ٣٧ و ٣٨ . عبد الفتاح عبادة : كتاب سفن الأسطول الاسلامى ص ٥ حاشية ٢ .

(٢) ابن ارنبغا : نفس المصدر ص ٩٠و٩١

(٣) ابن أرنبغا : نفس المصدر ص ١٠٣ . جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٤١ — ١٤٢ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) ج ٦ ص ٢٥٦ . انظر رسالة « الجندية فى الاسلام » للاستاذ أمين الخولى (رسالة لم تطبع) ص ١٦ — ٣٩ .

(٥) جورجى زيدان : نفس المصدر ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ . أمين خولى : الجندية فى الاسلام ص ٣٩ — ٤٠ .

ومن الأدوات الحربية التى استعان بها المماليك فى حروبهم «القلاع المتحركة» وهى أبراج من الخشب مرتفعة مغلقة باللبود والجلود مثل الكبش . وتدار حركتها بواسطة لوالب أو مشاقص[1] تدفع بها لتساعدها من أسفل ، وهى ضيقة فى أعلاها وفى أسفلها بكر مركب عليه يتصل بعضه ببعض بأضلاع من الخشب ، فيأتى الرجل بالمشاقص فيدخلها بين تلك الخشب ثم يقيمها بدفعة قوية فتندفع وتجرى بسهولة ، ويصعد الرجال إلى أعلاها وقد أديرت حولهم الستائر . ويحمل على هذه القلاع المجانيق الصغيرة حتى يشرف الرماة على أماكن المحصورين . وتستعمل هذه القلاع إذا لم يكن هناك أكمة أو مرتفع يمكن اعتلاؤه بالمجانيق فاذا وجد استغنى به عن هذه الآلة . ويساعد القلاع مجموعة من السلالم الخشبية ترمى على الأسوار عند الهجوم على أسوار الحصن من أعلاه [2] . واستعمل المماليك النار اليونانية فى كثير من المواقع الحربية التى خاضوها . وكان يسمى القائمون على استعمالها النفطية كما عنوا بأمر المدافع واستكثروا من عددها .

وكانت هذه الأسلحة على اختلافها تحفظ فى دار أطلق عليها اسم « الزردخاناه » أو « السلاح خاناه » ومعناها بيت السلاح[3]. وتحتوى هذه الدار على مختلف أنواع الأسلحة كالسيوف والقسى العربية والنشاب والدروع المتخذه من الزرد ، ويحمل إليها كل عام ما يصنع من الأسلحة فى مختلف الجهات . وقد أفرد لهذه الدار فى قلعة الجبل عدة قاعات ، خصص كل منها لنوع معين من هذه الأسلحة ويرأسها أمير من أمراء المئين يطلق عليه اسم « أمير سلاح » ، يعاونه جماعة من الموظفين عرفوا باسم « السلاح دارية » . ويشتغل فيها جماعة من الصناع يختص كل منهم بنوع من أنواع السلاح فيعهد إليه بأمر صنعه ومهمة إصلاحه إذا أصابه تلف ، ويطلق على كل منهم اسم الزردكاش وهو لفظ أعجمى معناه صانع الزرد ، وكانوا يعملون فى الزردخاناه باستمرار سواء أكانت البلاد فى حالة حرب أو فى حالة سلم[4]. وكان لكل أمير من الأمراء زرد خاناه خاصة به وبجنوده ، ولكنها لم تكن مثل زرد خاناه القلعة ، بل كانت صورة مصغرة منها [5] ولهذه الدار شادّ يعرف باسم « شاد الزردخاناه » وقد أوضح الخالدى اختصاصات هذا الموظف فقال إنه هو « المتحدث على استعمال الآت

---

(١) شقص الذبيحة فصل أعضاءها سهاما معتدلة بين الشركاء . والمشاقص سهام ترمى بها الوحوش فى الصيد .

(٢) ابن ارنبغا الزردكاش : الأنيق فى المجانيق (مخطوط) ص ٧٢ — ٨٨ .

(٣) عرفت تلك الدار فى عهد الفاطميين باسم « خزانة السلاح » . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٣ .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٤ ص ١١ — ١٢ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٥ ص ٤٦٢ .

Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV (L'Egypte Arabe), p. 396.

الحرب والمخاطب للملك عن المقصود ، ويستدعى الأصناف من جهاتها مصراً وشاماً ، وله الأمر على النفطية والبارودية وصناع الزردخاناه والفولاذية ونحوهم »[١].

وقد زاد نفوذ أمير سلاح فى عهد السلطان الناصر حتى أصبح يعين من أمراء المئين كما كان يقوم مقام رأس نوبة فى غيابه ويجلس على رأس الميسرة السلطانية[٢] . وغدت وظيفته من الوظائف الكبرى فى الدولة حتى أصبح يلى الأتابك فى المرتبة أحياناً . وكان السلطان يلقبه « الأخ » ، وهو نفس اللقب الذى كان يمنحه رأس نوبة الأمراء[٣] . ولفظ « أخ » — كما يظهر — يدل على التكريم والتعظيم فقد أثر عن السلطان الناصر أنه كان يخاطب المؤرخ المشهور أبا الفداء صاحب حماه بلقب « أخ » فى مكاتباته له . ومن هنا نتبين مبلغ تكريم سلاطين المماليك للأشخاص الذين شغلوا منصب أمير سلاح . وكانت تلك الوظيفة من الوظائف الكبرى فى عهد الخلفاء العباسيين الذين أخذوها عن الدولة الساسانية[٤].

ونتبين وصف الآلات الحربية التى كان يستعملها المماليك وأساليب الحروب فى ذلك العصر مما ذكره المؤرخ أبو الفداء عن فتح السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩٠ هـ لمدينة عكاء وقد رافق هذا المؤرخ قريبه المظفر صاحب حماه فى هذه الحملة . وإليك هذا الوصف بنصه : « فى هذه السنة فى جمادى الآخرة فتحت عكا وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق فتوجه الملك المظفر صاحب حماه وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماه صحبته إلى حصن الأكراد وتسلمنا منه منجنيقاً عظيما يسمى المنصورى حمل مائة عجلة ففرقت فى العسكر الحموى وكان المسلم إلى منه عجلة واحدة لأنى كنت إذ ذاك أمير عشرة وكان سيرنا بالعجل فى أواخر الشتاء واتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة . وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة . وكذلك أمر السلطان بجر المجانيق وآلات الحصار من جميع الحصون إليها فاجتمع على عكا من المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها . وكان نزول العساكر الاسلامية عليها فى أوائل جمادى الأولى من هذه السنة واشتد عليها القتال . ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها . وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا . وكان يحضر إلينا مراكب مقبية بالخشب الملبسين

(١) المقصد ص ١٢٨ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) Lane-Poole : The Art of the Saracens, p. 30.

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٢١ .

جلود الجواميس وكانوا يرمونتنا منها بالنشاب . وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا على البحر وأحضروا بطسة[١] وفيها منجنيق يرمى علينا وعلى خيمتنا من جهة البحر فكنا منه فى شدة عظيمة حتى اتفق فى بعض الليالى هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذى فيه بحيث أنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك . وخرج الفرنج فى أثناء هذا الحصار بالليل وكبسوا العساكر وهزموا اليزكية واتصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب وتكاثرت عليهم العسكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد وقتل عسكر حماه عدة من رؤوس الفرنج فى رقاب خيلهم التى كسبها العسكر منهم وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف »[٢]. وهكذا ضاع حصن عكا آخر معقل للصليبيين فى الشام .

وفى سنة ٦٩١ هـ فتح السلطان الأشرف خليل قلعة الروم الواقعة غربى نهر الفرات وأرسل عقب فتحه لها كتاباً إلى شهاب الدين بن النحوى قاضى قضاة مصر إذ ذاك يقول فيه : « أنا ركبنا لغزوها من مصر وما زلنا نصل السرى بالسير ونرسل الأعنة إلى نحوها فتمد الجياد أعناقها إليها مداً ينقطع بين قوتها وقوته السير واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى وهو المنتقى شاهق لا يلقى به مسلك ولا يلتقى فما زالت العزائم الشريفة تسهل حزونه والشكائم تفجر بوقع السنابك على حجارته عيونه والجياد المطهمة ترتقى مع امتطاء متونها بدروع الحديد متونه فلما أشرف عليها منا أشرف سلطان جعل جبلها دكا . . . ونصب عليها عدة مجانيق تنقض حجارتها انقضاض النسور وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد المصور »[٣] .

ومن ذلك الكتاب نستدل على مبلغ قوة سلاطين مصر ورغبتهم فى مد نفوذها إلى ما حولها من البلاد ونتبين منه ما وصل إليه جيش مصر فى عهد المماليك من قوة عدته ومهارة جنده واستبسالهم فى الحروب . ولقد كانت هذه الروح الحربية العامل الأكبر فى دفع غارات التتار عن مصر ونجاة البلاد مما اعتادوا أن يحدثوه من أعمال التخريب والتدمير فى الأقاليم التى فتحوها .

* * *

وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها أحصيت الغنائم والأسرى ، فكان كل أمير يستولى على غنيمته . عدا الأسلحة فانها كانت كلها تؤول إلى السلطان ، وليس للجنود أو لقوادهم أن يأخذوا شيئاً منها إلا باذنه . أما الأسرى فكانوا من نصيب السلطان

---

(١) البطسه جمعها بطس وهى سفن حربية بحرية عظيمة الحجم كثيرة القلاع . عبد الفتاح عباده : سفن الاسطول المصرى ص ٦ .

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٣) اقرأ نص هذا الخطاب فى Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١١ — ١٢ .

الذى كان يأخذ منهم ما شاء لنفسه ويأمر بتوزيع ما بقى من النساء والغلمان على الأمراء[١]. أما الرجال فقد كان السلطان لا يتصرف فى أمرهم بشىء إلا بعد معرفة مراتبهم ومكانتهم بين أهلهم ، فمن كان منهم ذا مقام خاص طلبت منه الفدية ، وأخلى سبيله بعد أدائه المبلغ المقرر . أما من كان منهم من العامة ولا ينتظر منه فدية ، فكان يرسل إلى معتقلات خاصة بالأسرى أو يوزع على الأمراء .

ولسنا نعرف شيئاً عن نظم هذه المعتقلات . ولكن يظهر أن سلاطين المماليك قد أساءوا معاملة الأسرى ، حتى إن المقريزى عدّ معاملة السلطان الناصر محمد للأسرى بالحسنى أمراً شاذاً ، فقد قال إن السلطان الناصر لما عاد إلى السلطنة الثالثة : « صار يتحدث بنفسه فى الجليل من الأمور والحقير ، ويستجلب خاطر كل أحد صغير أو كبير ، ولا سيما حواشيه . فلذلك عظمت حاشية المملكة وأتباع السلطنة وتخولوا فى النعم الجزيلة حتى الخولة والكلابزة والأسرى من الأرمن والفرنج[٢] » .

وكانت تلك المعاملة الحسنة من جانب الناصر للأسرى غير مألوفة فى ذلك العصر ، إذ أن سلاطين مصر الذين اعتلوا العرش قبل الناصر قد درجوا على معاملتهم معاملة تشبه على وجه الاجمال معاملة المسجونين اليوم . فقد كان الأسرى يستخدمون أحياناً فى بناء العمائر والمساجد والمارستانات وغيرها . ويستدل على صحة هذا القول مما ذكره المقريزى فى مواضع متفرقة من كتابه « الخطط » ، فقد قال عند وصف بناء المارستان الذى شيده السلطان قلاوون : « وأخذ ثلثمائة أسير وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم »[٣] . وقال عند كلامه على بناء فناء القلعة : « فحضر من عند كل أمير من الأمراء استاداره ، ومعه جنده ودوابه للعمل وأحضر الأسرى »[٤].

ومن الغريب أن السلطان الناصر الذى اعتزم عند عودته إلى ملكه سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) أن يحسن معاملة جميع سكان مصر ، ومن بينهم الأسرى على ما بيناه ، قد سار فى سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩ م) على خطة من سلفه من سلاطين المماليك فى معاملة الأسرى وتكليفهم الاشتراك فى أعمال البناء . فقد ذكر المقريزى عند كلامه على بناء مسجد قوصون فى عهد السلطان الناصر

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٠١ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٣٠٥ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٠٦ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٩ .

سنة ٧٣٠ هـ ، وتولى بناءه شاد العمائر واستعمل فيه الأسرى »[1].

وقد أصبحت خزانة البنود[2] منازل للأسرى من الفرنج الذين كانوا يؤسرون من بلاد الشام ، وذلك سنة ٧٠٩ هـ فى عهد السلطان الناصر محمد بعد عودته إلى ملكه فى سلطنته الثالثة ، وأبطل السجن بها ، فأقام فيها الأسرى هم وأسراتهم . ويظهر أن هؤلاء الأسرى لم يحسنوا السيرة فى أثناء إقامتهم فى خزانة البنود ، وأن الشكوى قد عات من سوء خلقهم حتى وصلت إلى مسامع السلطان ، ولكنه كان يخشى أن يشتد فى معاملتهم وقت الهدنة التى كانت قائمة بينه وبين ملوك الفرنج إذ ذاك . وفى ذلك يقول المقريزى « فصار لهم فيها أفعال قبيحة وأمور منكرة شنيعة من التجاهر ببيع الخمر . . . وحماية من يدخل إليها من أرباب الديون وأصحاب الجرائم وغيرهم ، فلا يقدر أحد ولو جلّ على أخذ من صار إليهم واحتمى بهم والسلطان يغضى عنهم لما يرى فى ذلك من مراعاة المصلحة والسياسة التى اقتضاها الحال من مهادنة ملوك الفرنج »[3] . فكأن هؤلاء الأسرى كان لهم — بفضل الهدنة بين دولهم وبين المسلمين — نوع من الامتيازات أساءوا استعماله وكان السلطان فى بعض الأحيان لا حيلة له فى دفع ضررهم .

ملابس الجند :

نهض المماليك فى صناعة المنسوجات التى كانوا يصنعون منها ملابسهم ، حتى كان للمصريين شهرة عالمية فى ذلك المضمار . وكان المماليك يستعملون الفراء ولهم سوق عرفت بسوق الفرائين ، يسكن فيها صناع الفراء وتجاره ، فعرف بهم . وكان يوجد فى سوق الجمالون الصغير بالقاهرة كثير من البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان ، وأصناف ثياب القطن . وبه عدد من الخياطين والغزالين . وكانت سويقة أمير الجيوش فى عصر المماليك أكبر أسواق القاهرة ، بها عدة حوانيت فيها الرفاءون والحياكون والرسامون (أى حوانيت التطريز) والفراءون والخياطون ومعظمها لسكنى البزازين والخلعيين (الذين يصنعون الخلع) . ويباع فى هذا السوق سائر الثياب المخيطة (وهى أشبه بشركات الملابس)[4] .

من ذلك نرى مبلغ اهتمام المماليك بالملابس الثمينة ، وكان الجند فى ذلك العصر يلبسون على

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢) وصف المقريزى (الخطط ج ١ ص ٤٢٣) خزانة البنود بقوله : « كانت خزانة البنود ملاصقة للقصر الكبير . بناها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله . وقد اتخذت فى عهد الفاطميين مكانا تحفظ فيه البنود أى الأعلام » . عن خزانة البنود فى العصر الفاطمى راجع « كنوز الفاطميين » ص ٦٥ — ٦٦ وما جاء فيها من مراجع .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٢٥ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

رءوسهم الكلّوتات[1] التى استحدثت فى مصر فى عهد الأيوبيين الذين اتخذوها من الجوخ الأصفر بغير عمائم ، وذوائب شعورهم مرخاة من تحتها . ولما انتقل الحكم إلى المماليك لبس جندهم الكلوتات الصفر بغير عمامة ، وظل ذلك متبعاً فى عهد السلطان الناصر[2].

وفى عهد السلطان الناصر محمد استحدثت العمائم الناصرية ، وكانت عمائم صغيرة حتى لا تعوق الجندى فى أثناء القتال ، وأصبح لبس العمامة أمراً قومياً حتى صار نزعها أو تغييرها من العار ، ولكن بطل إرخاء ذوائب الشعر حين حلق السلطان الناصر رأسه بمناسبة رحيله إلى الحج فبادر الأمراء والجند إلى تقليده وحلقوا رءوسهم[3] .

وكان الجند يلبسون أقبية [4] بيضاء ضيقة الأكمام مصنوعة من القطن البعلبكى ، وهى زرق أو حمر . ومن فوق هذا القباء كران [5] بحلق وأبزيم [6] كما كانوا يشدون على أوساطهم بنودا من القطن . ويلبسون فى أرجلهم خفا فوقه خف آخر يقال له السقمان [7]. ويتخذ من الجلد البلغارى الأسود . ويثبت فى هذه الأخفاف المهاميز التى كانت تصنع من الحديد أولا . ولما زادت ثروة الجند عن طريق الاقطاعات اتخذوها من الفضة ، ثم من الفضة المكفتة بالذهب ، ثم اتخذت المهاميز أخيراً من الذهب الخالص [8] .

ومما كان يستعمل فى عصر الناصر حقائب كبيرة من الجلد البلغارى تسمى الصوالق (واحدها صولق) [9] تعلق بالمنطقة إلى الجانب الأيمن من الحزام . وكانت الواحدة منها

---

(١) الكلوتات — جمع كلوتة ، بتشديد اللام ، وهى كلمة فارسية معناها الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠ ، حاشية Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٢) أخذت طريقة لبس الكلوتة أشكالا مختلفة كما كان لونها يتغير حسبما يراه كل سلطان . ففى عهد السلطان قلاوون أضيف لبس الشاش على الكلوتة ثم فى عهد ابنه السلطان خليل تغير لون الكلوتات من الصفرة الى الحمرة وأصبحت العمائم تلبس فوقها مع بقاء لبسها فوق ذوائب الشعر المرخاة فى أكياس من الحرير الأحمر والأصفر ، يطلق على كل منها اسم الدبوقة وتعلق فى الرأس الى الخلف وتوضع فيها جدائل الشعر بعد تصفيفها وضبطها على نحو ما كان سائداً فى عهد الأيوبيين . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠ . السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٤. راجع R. Dozy : Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes, pp. 387—388

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٧ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢٠ .

(٤) الأقبية جمع قباء وهو ثوب يلبس فوق الثياب .

(٥) كران هى جمع كر وهى كلمة فارسية معناها الحزام المفرّغ من وسطه لحشو النقود ونحوها . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠

(٦) الابزيم ، كما ورد فى اللسان ، حديدة تكون فى طرف الحزام يدخل فيها الطرف الآخر .

(٧) السقمان — خف ثان يلبس فوق خف آخر . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٨ .

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٨ ص ٤١ . المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٨ .

(٩) راجع المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٨٩ .
R. Dozy : Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes, pp. 248-249.

تسع نحو نصف ويبة ويعلق فيها منديل طوله نحو ثلاثة أذرع . ولعل الصوالق تشبه ما يستعمله الجندى الآن فى رحلاته من حمل حقيبة وراء ظهره يأخذ فيها زاده وذخيرته . ويظهر ان الدافع لهم على تكبير حجم هذه الصوالق إنما يرجع الى احتياجهم لها وقت جمع الأسلاب والغنائم (١) .

ويمكننا أن نقول إن زى الجندى فى عهد الناصر خاصة قد بلغ درجة كبيرة من حسن الرونق وبديع التنسيق ، حتى أصبح جمال هندامهم مضرب الأمثال فى غير مصر من الاقطار . ويستدل على ذلك بما ذكره أبو المحاسن عند كلامه على وصول رسل غازان محمود ايلخان المغول فى فارس الى القاهرة فى سنة ٧٠١ هـ لمقابلة السلطان الناصر محمد حيث يقول : (وكان الرسل قد سفروهم من القاهرة وأنزلوهم بالصالحية ، حتى إنهم يجتمعون بالسلطان عند حضوره من الصيد . فلما حضر الأمراء قدام السلطان بالخلع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة ، أذهل عقول الرسل بما رأوا من حسن زى عسكر الديار المصرية بخلاف زى التتار (٢) » .

البحرية

عظمت عناية المصريين بالأسطول منذ أيام الفاطميين ، الذين شعروا بالحاجة الملحة الى أسطول قوى يصد البيزنطيين عن بلاد الشام . ومن ثم أنشأ المعز داراً لصناعة السفن فى المقس (٣) بنى فيها ستمائة مركب . وعنيت حكومة الفاطميين بالغابات وزرع الشجر لاستخراج الخشب اللازم لمراكب الاسطول (٤) .

وكان على رأس الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى عشرة قواد ، على رأسهم رئيس يسمى « أمير الجيوش » ، واشتهرت الروضة والاسكندرية بصناعة السفن الحربية ، كما كانت هناك مرافئ لرسو السفن فى الاسكندرية ودمياط وحيفا وصيدا وعكا . وكان بجانب الاسطول الحربى اسطول تجارى تشق سفنه عباب البحرين الأبيض والأحمر ، ويحمل منسوجات مصر ومنتجاتها إلى بلاد المشرق عن طريق جدة وعدن . كما كان يسير إلى بلاد الغرب وبخاصة الى جزيرة صقلية .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٧ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر جـ ٨ ص ١٤٢ .

(٣) المقس — ضيعة كانت تعرف باسم أم دنين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأ صناعيا وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لاقامة صاحب المكس والعشار بها ثم قلبت فقيل المقس . والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق . المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٢١ . راجع أيضا كتاب « جوهر الصقلى » للدكتور على ابراهيم حسن ص ٩٢ .

(٤) راجع Aly Bey Bahgate : Les forêts en Egypte بمجلة المعهد المصرى سنة ١٩٠٠ وكتاب « الفن الاسلامى فى مصر » للدكتور زكى محمد حسن جـ ١ ص ٩١ .

ولم يزل الأسطول المصرى محل عناية الخلفاء الفاطميين ، حتى قام النزاع بين الصليبيين ومصر فأمر شاور باحراق الفسطاط . ليحول دون وصول العدو ، كما أحرق مراكب الاسطول ولما زالت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ ﻫ وانتقلت السلطة إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية ، أهتم بأمر الأسطول اهتماما كبيرا لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانى الاسلامية . فخصص له ديوانا كبيرا ، عرف باسم ديوان الأسطول وأقر له ميزانية خاصة وعهد بهذا الديوان الى أخيه العادل .

ولم تقتصر عناية المماليك على الجيوش البرية ، بل عنوا كذلك بأمر القوة البحرية ، فان السلطان الظاهر بيبرس عمل منذ سنة ٦٥٨ ﻫ (١٢٦٩ م) على إعداد قوة بحرية يستعين بها فى صد أعدائه الذين كانوا يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فاهتم بأمر الأسطول ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر بانشاء الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وكان يذهب بنفسه إلى « صناعة الجزيرة » ويشرف على تجهيز هذه الشوانى ، واستطاع بذلك أن يعد أسطولا مكونا من أربعين قطعة حربية سيرها إلى جزيرة قبرص سنة ٦٦٩ ﻫ (١٢٧٠) . ولكن هذا الأسطول قد تحطم قرب هده الجزيرة . ولما علم بيبرس بذلك شرع فى انشاء أسطول آخر وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده [(١)].

وقد نسج على منوال بيبرس من حيث عنايته بالأسطول السلطان خليل بن قلاوون. فقد أنشأ أسطولا مكونا من خمسين مركبا جهزها بالآلات الحربية والجند ثم سار إلى دار الصناعة بجزيرة الروضة لعرض الأسطول . وأقام لذلك احتفالا كبير أقبل عليه الناس من كل حدب وصوب قبل الاحتفال بثلاثة أيام ، وبنوا لهم أماكن من الخشب وأخصاصا من القش على شاطىء النيل وعلى شاطىء جزيرة الروضة . وقد ازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة الاحتفال ، ولما أقبل السلطان خرجت الشوانى والحراريق والطرائد واحدة بعد أخرى ، وعلى كل من الشوانى برج وقلعة . وتبارى الجند « ومامنهم إلا من أظهر فى شونته عملا معجبا ، وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه » . ثم رجع السلطان فى عسكره إلى القلعة . وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم فى لهو ومرح [(٢)]

وسار السلطان الناصر محمد على منوال الظاهر بيبرس والأشرف خليل بن قلاوون من حيث عناية كل منهما بالأسطول ، حتى صار لمصر فى عهده قوة بحرية هائلة .

وكانت أهم القطع التى يتألف منهـا الأسطول المصرى إذ ذاك الشوانى والحراريق

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٩٤ .

Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 272.

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٩٤ — ١٩٥ .

والطرادات والأغربة والبطس والقراقير[١] . وكانت الشوانى أكثرها استعمالا وهى عبارة عن سفن حربية كبيرة ذات أبراج وقلاع تستعمل للدفاع والهجوم ، وتجهز فى أيام الحرب بالسلاح والنفطية وتحشد بالمقاتلة والجنود البحرية[٢] . ويليها فى الأهمية الحراريق أو الحراقات ، وهى سفن حربية كبيرة ، تقل فى الحجم عن الشوانى وتستخدم فى حمل الأسلحة النارية كالنار الاغريقية ، وبها مواضع خاصة تلقى منها النيران . والظاهر أن معظم الحراريق كان يستخدم فى النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية[٣] . وفى المقريزى ما يدل على أن معظم هذه الحراريق كان يستعمل لتلك الأغراض المحلية . من ذلك أنه فى سنة ٧٠٢ ﻫ أعد السلطان الناصر محمد حملة بحرية لغزو جزيرة أرواد وجهزت الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة ، و « زينت الشوانى أحسن زينة تخرج معظم الناس لرؤيتها وعدى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة »[٤] .

وهناك أنواع أخرى من السفن الحربية كانت شائعة فى عصر المماليك مثل الطرادات ، وهى سفن حربية صغيرة الحجم سريعة السير ، تستخدم فى حمل الخيول وتسع عدداً يتراوح بين أربعين وثمانين فرساً . ومن السفن الحربية القديمة التى أخذها المماليك عن القرطاجنيين والرومان « الأغـْربة » ، وقد سميت بهذا الاسم لأن رأسها يشبه رأس الغـُراب أو الطائر ، وتمثل فى الماء الطير فى الهواء . كذلك أخذ المماليك عن الصليبيين نوعاً من السفن الحربية الكبيرة ، عرف باسم « البطس » ، ويستعمل لحمل المجانيق والمقاتلة والسلاح وسائر آلات الحرب ، وقد بلغ عدد قلاعها الأربعين . ومن هذه السفن « القراقير » وتستعمل فى تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح . ومن سفن الأسطول المصرى فى عهد المماليك العشاريات وهى مراكب تسير فى النيل ، والشـّبـَّاك وتسير فى البحر الأبيض المتوسط عادة ، والفلائك ، والقوارب ، والحمـّالات التى تحمل المؤونة والزاد لرجال الأسطول[٥] .

---

(١) خص ابن مماتى وزير صلاح الدين الأيوبى فى كتاب « قوانين الدواوين » الذى نشره الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطيه فصلا فى الأسطول المنصور أوضح فيه أنواع المراكب التى كانت تستعمل فيه وأسماءها وهى « طريدة ، شينى ، مسطح ، حراقة ، مركوس ، شلندى ، أعزارى » . ثم تكلم ابن مماتى عن ثلاثة من الدور التى كانت تصنع فيها تلك المراكب وتسمى « صناعة العمائر » أو « صناعة الانشاء » وكانت مراكز هذه الصناعة فى مصر والاسكندرية ودمياط وفى كل منها مستخدمون ومباشرون .

(٢) المقريزى : الخطط ﺟ ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥ . عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول المصرى ص ٤ . Dozy : Supp. Dict. Ar. (٣) عبد الفتاح عباده : نفس المصدر ص ٥ — ٦ . محيط المحيط .

(٤) المقريزى : الخطط ﺟ ٢ ص ١٩٥ . انظر رسالة الاستاذ أمين الخولى عن « الجندية فى الاسلام » ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٥) ابن منكلى : الأحكام الملوكية (مخطوط) ص ١٩ . عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول الاسلامى ص ٥ — ٧ . أمين الخولى : الجندية فى الاسلام ص ١٠٦ — ١٠٧

راجع بعض البيانات عن « أنواع المراكب المصرية » فى كتاب « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ١١٢ .

وقد استعملت هذه السفن فى أوائل عهد السلطان الناصر محمد فى غزو جزيرة رودس. ففى سنة ٧٠٢ هـ جهزت الشوانى بالسلاح والنفط وعين عليها أمير الأسطول سيف الدين كَـهَـرْدَاش المنصورى(١). وقد سار ذلك الأسطول إلى ميناء طرابلس، حيث انضمت إليه السفن الحربية الراسية فيه. وهاجم الأسطول المصرى جزيرة رودس واستولى عليها وهدم أسوارها(٢). وليس أدل على مبلغ اهتمام مصر بالقوة البحرية من هذه العبارة التى ننقلها عن المقريزى يصف بها الاحتفال بانزال الشوانى إلى البحر استعداداً للسفر إلى طرابلس: «وفى محرم (سنة ٧٠٢ هـ) تنجزت عمارة الشوانى، وجُـهِّـزت بالمقاتلة والآلات مع الأمير جمال الدين أقوش القارى العلائى والى البهنسا. واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم فى البحر، فركب أقوش فى الشينى الكبير وانحدر تجاه المقياس... وكان قد نزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك، واجتمع من العالم ما لم يحصيهم إلا الله تعالى، وبلغ كراء المركب الذى يحمل عشرة أنفس إلى مائة درهم، وامتلأ البرَّان من بولاق إلى الصناعة بالناس، حتى لم يوجد موضع قدم خال. ووقف العسكر على برّ بستان الخشب، وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة. وبرزت الشوانى للعب كأنها فى الحرب: فلعب الأول والثانى والثالث، وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً، لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب. ثم تقدم الرابع وفيه أقوش، فما هو إلا أن خرج من منية الصناعة بمصر وتوسّط النيل، إذا بالريح حرّكه، فمال به ميلة واحدة انقلب وصار أعلاه أسفله. فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها ذات الأحمال، وتكدَّر ما كانوا فيه من الصفو، وتلاحق الناس بالشينى وأخرجوا ما سقط منه فى الماء، فلم يعدم منه سوى أقوش، وسلم الجميع، وعاد السلطان والأمراء إلى القلعة وانفض الجميع. وبعد ثلاثة أيام أخرج الشينى... ووقع العمل فى إعادته حتى تنجز وندب الأمير سيف الدين كهرداش الزرّاق المنصورى للسفر عوضاً عن أقوش القارى، فسافر إلى طرابلس بالشوانى، واستجد منها ستين مقاتلا من المماليك سوى البحرية والمطوّعة»(٣).

وقد ذكر النويرى صاحب «كتاب الإلمام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الأسكندرية»(٤) سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) من صنوف السفن التى كانت تجرى فى بحر

---

(١) راجع ترجمة سيف الدين كهرداش المنصورى فى المنهل الصافى لأبى المحاسن. واقرأ بعض أخباره فى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٦٤ و ١٣٩ و ١٩٥ و ٣٠٦.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ١٩٥. كتاب السلوك جـ ١ ص ٩٢٨.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٩٢٨.
قارن ذلك بالاحتفال الذى أقامه السلطان الأشرف خليل عقب انشائه الأسطول المصرى. راجع المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥.

(٤) مخطوط ببرلين. راجع اهلواردت Ahlwardt رقم ٩٨١٥ ورقة ١٢٤ ا وما يتلوها. قارن ذلك بما ورد فى H. Kindermann : «Schiff» im Arabischen. Untersuchung über Vorkommen und Bedeutung der Termini, Zwickau i. Sa, 1934.

الروم : « القراقر والزوارق والطرايد والغربان والشوانى والشـــياطى (واحدها شيطى) والسلالير (واحدها سلورة) والعشاريات (واحدها عشارى) لكل منها مكانته فى الحرب ونقل الجيوش والخيول ووسق البضائع ومستلزمات الجند . والقراقير لحمل البضائع ومنها ما هو بثلاثة ظهور ولها ثلاثة قلاع تسير بها فى الريح العاصف . وأما الطرايد فانها مفتوحة المواخير بأبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب . وأما الغربان فتحمل الغزاة وسيرها بالقلع . والمجاذيف منها ما له ماية وثمانين (كذا) مجذافاً وأقل من ذلك . والشيطى يجر بثمانين مجذافاً ووظيفته كشف المين ويرد بالخبر للقراقير والغربان وغيرها (وتشبه سفن الاستطلاع اليوم) . وأما العشارى فيجر بعشرين مجذافاً وهو الذى يعدى بالبضائع والرجال من الساحل لأن القراقر لا تقف إلا فى المكان الغزير الماء ، والسلورة بين الشيطى والعشارى . والقوارب نافعة لغزاة المسلمين وقت الحرب فى البحر يكون فى كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة يعينوا غربان المسلمين على القتال لغربان الفرنج وقراقرها وذلك بسرعة دورانها وخفتها وتعزقها على مراكب الفرنج »[١] .

ومن هنا نتبين مبلغ ما وصلت إليه مصر الاسلامية فى عصر المماليك من التقدم فى ميدان الصناعة الحربية والبحرية ومقدار اهتمام السلاطين بأمر هذه الأساطيل ، حتى ظهرت هذه البلاد بالمظهر اللائق بها بين الدول الحربية فى ذلك الوقت ، أضف إلى ذلك ما كان من تعظيم الأهلين لرجال الأسطول حتى أطلقوا عليهم « المجاهدين فى سبيل الله » و « الغزاة فى أعداء الله » كما كانوا يتبركون بدعائهم . وليس أدل على ذلك من اشتراك الأهالى مع الحكومة عند استعراض الجيوش الحربية والأساطيل أو عند توديعها للغزو[٢] .

= وقد لفت نظرنا إلى هذه الرسالة الدكتور عزيز سوريال عطيه . وقرأنا الاشارة اليها فى كتاب « كنوز الفاطميين » للدكتور زكى محمد حسن ص ١١٢ حاشية ٧ .

(١) نقلا عن النويرى — راجع الحاشية السابقة .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩٥ . انظر كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن ص ٢٥٣ .

الباب الحادي عشر

الحالة المالية والاقتصادية

بينا أنه كان بمصر فى دولة المماليك ديوان يطلق عليه إسم « ديوان النظر » ويشبه وزارة المالية اليوم ، وعلى رأسه ناظر المال (أو ناظر الدولة أو ناظر النظار أو الصاحب الشريف أو ناظر الدواوين) ويعاونه فى القيام بمهام هذه الوظيفة « مستوفى الصحبة » ويشبه وكيل المالية ، و « مستوفى الدولة » ويشبه وكيل المالية المساعد ، و « المستوفون » ويقومون بأعمال مديرى الحسابات الذين يشرفون على الحسابات الخاصة بدواوين الحكومة والذين يتبعون وزارة المالية اليوم ، ويقومون بتنفيذ القوانين واللوائح المالية فى شتى الوزارات والمصالح الحكومية .

وكان الغرض من إنشاء هذا الديوان تحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها ، وذلك بالقيام على صيانة المال وحفظه والتصرف فيه حسبما تقتضيه مصلحة البلاد العامة . وكان معظم موظفى هذا الديوان من القبط كما بينا ، وبفضل نشاطهم كان دخل الاقطاعات يصل إلى أصحابها ، وكانت الضرائب المباشرة تجمع بنظام .

موارد الدولة :

تعددت طرق جمع المال فى عهد المماليك : فان السلطان قطز غلا فى جبايته ليتمكن من صد التتر عن مصر . ويقول المقريزى إنه فرض ديناراً على كل مصرى وأخذ ثلث التركات الأهلية . ولما اعتلى بيبرس عرش السلطنة من بعده أبطل هذه الضرائب [1] . وزاد السلطان قلاوون على مافعله بيبرس أن أبطل عدة ضرائب منها زكاة الدولة وهو ما كان يؤخذ من الرجل عن زكاة ماله ، وما كان يؤخذ منهم إذا تم فتح أحد الحصون المنيعة ، وما كان يجبى من أهل الذمة وهو دينار فى كل سنة نظير حماية الجنود لهم ، وما كان يجبى من كل تاجر عند رحيل عسكر مصرفى حرب من الحروب ويطلق على ذلك « مقررجباية الدينار » ، وزاد على ذلك أن أبطل ما كان يجبى عند وفاء النيل لصرفه فى شى اللحوم وشراء الحلوى والفواكه وأمر بصرف مايختص بذلك من ديوان النظر [2] .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ١٠٥ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٦ .

وقد ذكر المقريزى أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون « أبطل من دمشق مكسا كان يؤخذ فى باب الجابية على كل جمل قمح خمسة دراهم »[١]. وقال السلطان خليل فى هذه المناسبة : « لنكشف عن رعايانا هذه الظلامة ونستجاب الدعاء لنا من الخاصة والعامة »[٢]. ومن عبارة المقريزى يتضح لنا أن هذه ضريبة كانت تفرض على الدواب التى تحمل إلى مدينة دمشق لتباع فى أسواقها . وقد كانت على باب الناصر بالقاهرة كتابة فيها إشارة إلى مثل هذه الضريبة ترجع إلى القرن التاسع الهجرى ونصها : « بحسب مارسم به نائب السلطنة المعظمة المقر العالى السيفى سودون من عرافة الجمال بأن يؤخذ على كل جمل خمسة وملعون من يأخذ أكثر من ذلك أو يحدث مظلمة فى أيام الدولة »[٣] .

ولما اعتلى السلطان الناصر عرش مصر كانت موارد بيت المال تتكون من عدة أشياء :

أولها — ضريبة الأرض أو الخراج[٤] ، وتختلف باختلاف البلاد : فالوجه القبلى كان أكثر خراجه عيناً مما يؤخذ من غلة الأرض كالقمح والشعير والحمص والفول والعدس والبسلة أردبين إلى ثلاثة عن كل فدان ، أما الوجه البحرى فكان أغلب ضرائب أرضه نقداً . وكانت الضريبة تزيد وتنقص تبعاً لزيادة الغلة أو نقصانها[٥] .

---

(١) كتاب السلوك ج ١ ص ٧٩١ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) Van Berchem : Corpus, Egypte I. pp 59—60

(٤) الخراج هو مقدار معين من المال أو الحاصلات ، ويفرض على الأراضى التى صولح عليها المشركون . وكان يؤخذ الخراج : أولا عن الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين بعد أن عوّض المحاربين عن نصيبهم فيها ، أواسترضاهم كما فعل عمر بن الخطاب . ثانيا عن الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين (استحوذوا عليها دون قتال) ، فملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت المال . ويقول المقريزى (الخطط ج ١ ص ١٠٣) : اعلم أن مال مصر فى زماننا ينقسم قسمين أحدهما — يقال له خراجى وهو مايؤخذ مشافهة من الأراضى التى تزرع حبوباً ونخلا وعنباً وفاكهة وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف ، والآخر يقال له المال الهلالى عدة أبواب كلها أحدثوها ولاة السوء شىء بعد شىء » .

وكان الموكلون بأمور الخراج فى البلاد الاسلامية يقومون بتحويل السنة العربية بعد فترات معينة من السنين القمرية لما هنالك من التفاوت بين السنة القمرية المعتمد عليها فى استخراج الخراج ، والسنة الشمسية التى تضبط بها الزروع والثمار ومواعيد استحقاق الجباية ، إذ تنقص السنة القمرية عن السنين الشمسية سنة تقريبا كل ثلاث وثلاثين سنة ، فيقضى النظام الخراجى تقديم السنة الهلالية سنة ، كلما انقضت ثلاث وثلاثين سنة منها . وقد أفرد القلقشندى (صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥٤) فصلا وافياً فى هذا الموضوع . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب : ج ٢٩ ص ١٣١٨) والمقريزى (الخطط ج ١ ص ٢٧٣) .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٥٢ — ٤٥٤ . انظر أيضاً Enc. Isl. art. Egypt.

أما المورد الثانى فمن المعادن وأهمها ثلاثة : الزمرد والشب والنطرون . أما الزمرد فقد هجرت مناجمه فى أواخر عصر السلطان الناصر لقلة ما كان يتحصل منه . وكان معدن الشب يستجلب من الوجه القبلى والواحات ويحمل إلى قوص أو إلى أسيوط وأخميم والبهنسا ، ومنها ينقل فى النيل الى الاسكندرية ، ويُباع للتجار الأوربيين خاصة ، ويتراوح ثمن القنطار بين خمسة دنانير وخمسة دنانير ونصف ، وقد خصصت الحكومة ثلث ثمنه لدفع رواتب الأمراء وبعض نفقات الجيش . أما النطرون [١] فكان يستخرج من ناحية الطرّانة بمديرية البحيرة وخصص ثلث ثمنه لنفقة الجيش[٢] .

وهناك موارد أخرى ، من بينها الزّكاة التى كان يدفعها أصحاب الأموال ، وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك ضريبة معروفة باسم « الجوالى »[٣] ، وهى ما يجبى من أهل الذمة بنسبة تتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرين درهما عن كل شخص قادر [٤] . ومن هذه الموارد التركات التى لاوارث لها وتعرف باسم « المواريث الحشرية[٥] » وما يتحصل من دار الضرب على النقود فى القاهرة ، وما كانت تجبيه الحكومة على عروض التجارة الواردة إلى الأسكندرية والصادرة منها [٦] ،

ومن أهم موارد بيت المال المكوس [٧] أو الرسوم الجركية . عن البضائع الواردة إلى الاسكندرية أو إلى دمياط ويتراوح مقدارها بين ١٠ ٪ و ٢٥ ٪ من قيمة البضائع الواردة .

---

(١) حدد المقريزى (الخطط جـ ١ ص ١٠٩) الجهات التى يوجد فيها النطرون فى القطر المصرى فقال : « أما النطرون فيوجد فى البر الغربى من أرض مصر بناحية الطرانة وهو أحمر وأخضر ويوجد منه بالفاقوسية شىء دون ما يوجد فى الطرانة وهو أيضا مما حظر عليه ابن مدبر من الأشياء التى كانت مباحة وجعله فى ديوان السلطان ، وكان من بعده على ذلك إلى اليوم ، وقد كان الرسم بالديوان أن يحمل منه فى كل سنة عشر آلاف قنطار » .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٥ — ٤٥٧ . انظر أيضا Enc. Isl. art. Egypt.

(٣) الجالية — ما يفرضه العدو على بلد منهزم من المال والمحاصيل . والجالية أيضاً أهل الذمة ، سموا بذلك لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عن شبه جزيرة العرب ، ثم أطلق هذا الاسم على كل من فرضت عليه الجزية من أهل الذمة والمجوس وإن يجلوا عن أوطانهم . ويقال استعمل فلان على الجاليه اذا ولى أخذ الجزية منهم . والعامة تطلق الجالية على نفس الجزية وجمعها جوال . محيط المحيط . السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٩٢٠ حاشية للدكتور زيادة Dozy : Supp.Dict Ar.

(٤) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٥٨ — ٤٥٩ .

(٥) المواريث الحشرية — هى مال من يموت وليس له وارث معين أو — كما يقول القلقشندى (نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٦٠) — « الباقى بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له » .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٦٠ . أنظر أيضا Enc. Isl. art. Egypt.

(٧) عن المكس والمقس — راجع خطط المقريزى جـ ٢ ص ١٢١ و ٢٢٣ — ١٢٤ وانظر ص ٣٢٦ من هذا الكتاب .

وكانت الضرائب فادحة فى عصر المماليك عامة حتى إن السفينة التى كانت تصل من أوربا إلى ميناء الأسكندرية [١] تدفع ضريبة تربو على الأربعين ألف دينار. ولم يسر المماليك على نظام ثابت فى تقدير هذه الرسوم بل كانت تخفض أحيانا الى أقل من ذلك تشجيعا للتجارة [٢].

أما موارد الديوان الخاص الذى استحدثه الناصر فكانت تأتى من الأموال التى تجمع باسم السلطان فى الاسكندرية، وتروجة الواقعة بمديرية البحيرة، وفوة، ونستروه، (أى بحيرة البرلس). ويودع هذا المال ديوان الخاص الذى يشرف عليه ناظر الخاص [٣].

وقد تناول ابن شاهين فى كتابه «زبدة كشف الممالك» مصادر إيرادات ومصروفات ديوان الخاص بشيء من التفصيل، فى هذه العبارة. فقال: «وله جهات عديدة من جملتها متحصل ثغر الاسكندرية المحروسة من وادى الفرنج، ومتحصل مقايضات البهار، وبيع السمك البورى والبطارخ وجهات الرسوم من أناس متعددة، والتراجمة. وضمان الجمال بثغر الاسكندرية، ورسم البهار الوارد من جدة إلى الطور، ومتحصل جهات ثغر دمياط .... ومتحصل فوة وبلاد البرلس ونستروه، وثغر رشيد ... ومتحصل المواريث الحشرية المنسوبة لأعمالهم لأعيان الناس بالديار المصرية، ومتحصل جهات آدر الضرب [٤]».

ويظهر لنا أن الناصر لم يقتصر فى تحصيل الأموال على هذه الموارد التى بيناها، بل كان يعمد أحياناً إلى شراء البضائع قسْراً بثمن بخس ثم يبيعها بثمن مرتفع كما فعل غيره من سلاطين المماليك، ولا يمكننا الجزم بأن بعض موارد الخزانة فى عصر النّاصر ناشئة من احتكار بعض الأصناف والاتجار فيها كما حدث فى عصر غيره من سلاطين المماليك. ولسنا نعرف كذلك هل كان النّاصر يحصل على بعض الأموال بزيارة أكابر رجال الدولة واغتصاب مبالغ كبيرة منهم كما كان يفعل بعض السلاطين ولا سيما قايتباى. إلا أننا لا نستبعد أمر

---

(١) كانت ثغور مصر فى ذلك الوقت هى: دمياط وتنيس ورشيد وعيذاب وأسوان والاسكندرية وكانت الأخيرة أكثرها أهمية، فقد كان بها على ما يقوله المقريزى (الخطط ج ١ ص ١٠٩) «عدة جهات فيها الخمس والمتجر — فالخمس: ما يستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع للمتجر بمقتضى ما صولحوا عليه، وربما بلغ مايستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون ديناراً، وربما انحط عن عشرين ديناراً، ويسمى كلاهما خمسا. ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر، وطبيعى أن المقصود بالثغور هنا الموانى والبلاد الواقعة على الحدود. راجع مقال الاستاذ Honigmann عن الثغور فى دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٥٩ — ٤٦٠ Enc. Isl. art. Egypt.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر ج ٣ ص ٤٥٢ Demombynes : La Syrie, p. LXXI.

(٤) ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ص ١٠٩.

اغتصاب الناصر للأموال من كبار رجال الدولة بأية وسيلة ، وخاصة أن الناصر كان يعتقد أن هذه الثروات الطائلة التى استحوذ عليها بعض أمراء مصر ، قد جمعوها بطرق غير مشروعة .

وعلى الجملة فان موارد الدولة فى عصر المماليك كانت تأتى من الخراج ، والجزية . والزكاة ، ومحصولات الاقطاعات بعد حجز اللازم للجند والموظفين ، ومكوس الجمارك ، والضرائب الاستثنائية على الأسواق .

نفقات الدولة :

وكانت الأموال التى تجمع من تلك الموارد تدفع منها أرزاق الموظفين والولاة والوزراء والقضاة ونظار الدواوين والمستوفين والكتّاب والجند ونواب الأقاليم ، وتوزع العطايا والمنح على الأدباء والعلماء . وينفق على ما تتطلبه البلاد من وجوه الأصلاح من كرى الأنهار وإصلاح مجاريها وحفر الترع لتحسين حال الزراعة التى هى مصدر ثروة البلاد الأساسية ، والنفقة على المسجونين والأسرى ، وبناء المساجد والمدارس والخوانك والمقابر[١] وكان يصرف على هذه المنشآت العلمية والخيرية من الأوقاف الأهلية أحياناً حتى تميز ذلك العصر بتلك المبانى الخالدة من قصور مشيدة وقلاع شاتخة ومساجد ضخمة تشهد لهم بالقوة والثروة والجاه .

---

(١) يغلب على الظن أن السلاطين كانوا يعملون على أن تكون الأموال التى ينفقونها فى تشييد المساجد من أموالهم الخاصة التى آلت اليهم بطريق شرعى وأنهم كانوا لا يميلون إلى إنفاق الأموال العامة فى هذا السبيل . ويذكرنا ذلك بما جاء فى الكتابات التاريخية الانشائية التى وجدت على لوح خاص بجامع احمد بن طولون ومنها : « أمر الأمير أبو العباس احمد بن طولون مولى أمير المؤمنين أدام الله له العز والكرامة والنعمة التامة فى الآخرة والأولى ببناء هذا المسجد المبارك الميمون من خالص ما أفاء الله عليه وطيبه » . وقد فطن الأستاذ فان برشيم Van Berchem والاستاذ فييت إلى مالهذا النص من شأن فى الدلالة على الحرص الذى أشرنا اليه . ولعل هذه الرغبة كانت سبباً فى نشأة القول بأن ابن طولون عثر على كنز استخدمه فى بناء هذا الجامع .

راجع Wiet : Corpus, Egypte II., pp. 79,80

و Zaky Hassan : Les Tulunides, p. 54

و Van Berchem : Corpus, Egypte I., p. 38.

وتاريخ ووصف الجامع الطولونى لمحمود عكوش ص ٢٣ ؛

ومما نلاحظه فى التاريخ الاسلامى عامة أن مشيدى العمائر الاسلامية كانوا يحرصون على أن يثبتوا فى الكتابات التاريخية على هذه المساجد أنهم شيدوا تلك العمائر من أموالهم الخاصة التى أنعم الله بها عليهم . راجع مسالك الأبصار للعمرى ج ١ ص ١٨٧ — ١٨٨ . وخطط المقريزى ج ٢ ص ٤٠٧ و ٤١٦ .

Van Berchem : Corpus, Egypte I., pp. 344—345.

وكان من أثر هذه الثروة الطائلة أن وجَّه المماليك عنايتهم إلى الجيش وكان لنشأتهم الحربية أثر بليغ فى تأسيس أول جيش ثابت منظم فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق . فعملوا على تدريب الجيوش وتزويدها بالمعدات الحربية على اختلافها ، وعنوا عناية خاصة بصناعة السفن الحربية حتى أصبح للاسطول المصرى فى عصر المماليك شأن عظيم .

ولسنا نستطيع أن نأتى ببيان دقيق عن ميزانية الدولة العامة فى عصر المماليك ، لأن المصادر التى بين أيدينا لم تتعرض لهذا الموضوع بصورة نطمئن اليها[1] . بيد أن هذا لا يمنعنا من القول بأن موارد الدولة كانت وفيرة وأنها ساعدت على تحقيق سياسة المماليك التى كانت ترمى إلى توسيع رقعة أملاكهم وظهور سلطنتهم بالمظهر اللائق بها بين الدول الشرقية والغربية[2].

وليس أدل على صحة هذا القول من مظاهر الأبهة والعظمة التى تجلت فى بلاط معظم سلاطينهم، ومن هذه الأموال الضخمة التى كانت تنفق على الأسمطة السلطانية[3]، تلك الأسمطة التى كانت تمد بالايوان الكبير بدار العدل فى أيام المواكب فتقدم فيها مقادير ضخمة من اللحوم والدجاج والأوز وسائر الأطعمة الفاخرة . كذلك كانت تصرف الأموال الوفيرة فى الهبات التى كان يجود بها السلطان على الأمراء المقربين[4] ، وعلى شراء الخيول التى كان يخلع بعضها على الأمراء الذين يأنس فيهم الولاء لشخصه والاخلاص لعرشه وعلى أفراد حاشيته وخاصه طائفة الخاصكية[5].

---

(١) ذكر ابن أياس (بدائع الزهور ج ١ ص ٦٦) أن « الخراج » فى مصر بلغ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس اثنى عشر مليون دينار . وقد بين سمو الأمير عمر طوسون فى كتابه « مالية مصر منذ عهد الفراعنة إلى الآن » ، ميزانيات متعددة لمصر ، غير أنه لا يوجد به سوى ما هنالك من إشارة لميزانية الدولة فى عصر الظاهر بيبرس .

(٢) اقرأ وصية أرباب التصرف فى الأموال فى « التعريف » للعمرى ص ١٤٩ — ١٥٠

(٣) وصف القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٦) الأسمطة السلطانية فقال :
« اعلم أن أسمطة هذا السلطان تكون بالإيوان الكبير أيام المواكب . وإذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدمة مد السماط بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة الملونة الفاخرة ويجلس السلطان على رأس الخوان والأمراء يمنة ويسرة على قدر مراتبهم فى القرب من السلطان فيأكلون أكلا خفيفا ثم يقومون ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ، ثم يرفع الخوان ، وأما فى بقية الأيام فيمد الخوان فى طرفى النهار لعامة الأمراء خلا البرانيين فانه لا يحضره منهم إلا القليل النادر » .

(٤) قال القلقشندى (نفس المصدر ج ٤ ص ٥٥) : « ولخاصة الأمراء المقدمين أنواع من الانعامات كالعقار والأبنية الضخمة التى ربما أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار ، وكساوى القماش المنوع ، وفى أسفارهم فى وقت خروجهم للصيد وغيره العلوفات والأموال »

(٥) مما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٤ — ٥٥) نتبين مقدار الأموال الطائلة التى كان ينفقها السلطان فى شراء الخيول التى ينعم بها على أمرائه ومماليكه : « قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين فى كل سنة ؛ المرة الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله على =

حالة مصر الاقتصادية :

كانت حالة مصر الاقتصادية فى ذلك العصر حسنة بدليل الانتعاش الذى شمل جميع مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة . فقد اهتم معظم سلاطينهم بالزراعة ، فعنوا بأمر مقاييس النيل وأمروا بانشاء الجسور فى كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهى الجسور التى يعود نفعها على البلاد عامة ، وتتولى صيانتها الحكومة التى كانت تنفق عليها من مال الخراج ، أما النوع الثانى فهو الجُسور البلدية وهى الجسور التى تعود منفعتها على ناحية من النواحى . ويتولى صيانتها الفلاحون المقطعون ، أى الذين يقطعون الأراضى وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر [1]

وكانت جميع أرض مصر تُقاس بالفدان الجيشى أو الاقطاعى وهو أكبر بقليل من الفدان المعروف لدينا ، وكان يزرع من الأصناف الشتوية بأرض مصر القمح والشعير ، وتكثر زراعة القمح ببلاد الصعيد ، وتتراوح غلة الفدان الواحد منه من أربعين إلى عشرين . وبلغ ما كان يتحصل من فدان الفول عشرين أردبا . وكذلك من فدان العدس . ويستخرج من فدان الحمص من أربعة أرادب إلى عشرة أرادب . وكان الكتان من أهم مزروعات مصر فى ذلك العصر : فاذا طال قلعت قضبانه ويُسمى حينئذ أسلافا وينشر فى موضعه حتى يجف ، ثم يحمل ويهدر ويعزل جوزه فيخرج منه بذر الكتان ويستخرج منه الزيت ، وكان الفدان الذى يزرع كتانا يؤجر بخمسة دنانير فى الصعيد وثلاثة عشر دينارا فى دَلاَص [2]،

= القرط فى أواخر ربيعها ، فينعم على الأخصاء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم ، ويكون خيول المقدمين منهم مسرجة ملجمة بكنابيش من زركش ، وخيول أمراء الطبلخانات عريا من غير قماش . المرة الثانية عند لعبه الكرة بالميدان ، وتكون خيول المقدمين والطبلخانات مسرجة ملجمة بفضة يسيرة بلا كنابيش ، وكذلك يرسل إلى نواب الممالك الشامية كل أحد بحسبه ، وليس لأمراء العشرات فى ذلك حظ إلا ما يتفقدهم به على سبيل الانعام .

ولخاصة الأمراء المقربين من الأمراء المقدمين والطبلخانات زيادات كثيرة فى ذلك بحيث يصل بعضهم الى مائة فرس فى كل سنة وله أوقات أخرى يفرق فيها الخيل على مماليكه ، وربما أعطى بعض مقدمى الحلقة ، وكل من مات له فرس من مماليكه دفع اليه عوضه وربما أنعم بالخيول على ذوى السن من أكابر الأمراء عند الخروج الى الصيد ونحوه .

والخيول الأمراء فى كل سنة اطلاقات أراضى بالأعمال الخيرية لزرع القرط لخيولهم من غير خراج ، وللمماليك السلطانية البرسيم المزروع على قدر مراتبهم» .

انظر أيضا ماجاء بهذا الصدد فى خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٠١ .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٦ — ٤٤٧ . المقريزى: الخطط ج ٢ ص ١٦٥ — ١٧١

(٢) دلاص (بفتح أوله وآخره صاد مهملة) كورة بصعيد مصر على غربى النيل ، وهى الآن تعد من بلاد مركز بنى سويف .

وفيما عدا ذلك بثلاثة دنانير. ويزرع القرْط[١]، وهو غذاء الدواب، إذا ما أخذ ماء النيل فى النقصان، وكان يتراوح محصول الفدان ما بين ويبة وأربع وَيبات، وكان محصول الفدان المزروع بصلا عشرة أرادب. ويصل ما يجمع من الفدان المزروع من الترمس عشرين أردبا[٢].

ومن الأصناف الصيفية البطيخ واللوبيا والسمسم، وكان محصول الفدان يتراوح بين أربعة وستة أرادب، والقطن ويصل محصول الفدان إلى ثمانيه قناطير، وقصب السكر وكانت أرضه تروى مرة فى كل سبعة أيام، فاذا نبت القصب وصار أوراقا ظاهرة نبتت معه الحلفاء والبقلة الحمراء التى يسميها أهل مصر الرِّجلة، عندئذ تغرق أرضه وينظف ماينبت مع القصب. وكانت الأرض البعيدة عن مجرى النيل تنبت مقداراً من القصب يتراوح بين أربعين «أبلوجه قند» إلى ثمانية أبلوجة، والأبلوجة تسع قنطارا. ويزرع مع القصب القلقاس فينبت الفدان عشرة قناطير. وكان يزرع أيضاً فى ذلك العصر الباذنجان والميقاتى كالخيار والفجل واللفت الخسّ والكرنب والكروم، كما كان يغرس بحدائقها من الفاكهة التين والتفاح والخوخ والموز والسدر أو النبق والمشمش، ومن الزهور النرجس والياسمين والريحان[٣].

وكان لمرور التجارة الهندية إذ ذاك عن طريق مصر أثر كبير فى رواج تجارة مصر فى عصر المماليك وزيادة ثروتها، كما كانت مصر مصدر رزق وفير لمصر والمصريين. وهذه الثروة الضخمة التى تدفقت على خزائن المماليك تفسر لنا حياة البذخ والترف والنعيم فى ذلك العصر. وكان الناصر فى ذلك العصر يشجع التجارة فى داخل البلاد وخارجها: فقد عقد المحالفات الودية والتجارية مع امبراطور القسطنطينية وملوك أسبانيا وأمراء نابلى وجنوه وسلاجقة آسيا الصغرى. وكانت نتيجة ذلك انتشار التجارة بين مصر وتلك الأقاليم.

وَيتبين لنا بوضوح درجة رواج التجارة فى مصر إذ ذاك من تلك الأسواق العامرة بالفراء على اختلاف أنواعها وأثمانها، وبحوانيت البزازين الذين يبيعون ثياب الكتان وأنواع الطرح، وأصناف ثياب القطن، وحوانيت الرسامين (أى حوانيت التطريز) والخياطين[٤]. ولاغرو فقد عنى المماليك بصناعة المنسوجات[٥]، والفرُش والبسط حتى حذق

---

(١) القرط (بالضم) هو البرسيم.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر ج ٣ ص ٤٥٠ — ٤٥٢.

(٤) راجع ما كتبه المقريزى (الخطط ج ١ ص ٨٥ — ١٠٥) عن أسواق القاهرة وما كان بها من الحوانيت فى عصر المماليك.

(٥) فيما يختص بتفوق المصريين فى صناعة المنسوجات راجع: «كنوز الفاطميين» للدكتور زكى محمد حسن ص ١١٠ — ١٤٦. وانظر: «فهرس مقتنيات دار الآثار العربية» تأليف مكس هرتس بك وترجمة على بك بهجت ص ٢٦٥ وما بعدها، «دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية» تأليف الاستاذ ڤييت (G. Wiet) وترجمة الدكتور زكى محمد حسن ص ٨٣ — ٨٨: Aly Bey Bahgat
="Les Manufactures d'étoffe en Egypte, au Moyen âge (Le Caire, 1904)



قطعة من النسيج من عصر المماليك

المصريون هذه الصناعات وغدت لهم شهرة عالمية فى هذا المضمار . ومع ذلك يلاحظ بوجه عام أن الصناعات التى ازدهرت بمصر فى عصر الفاطميين — كصناعة النسج مثلا — فقدت كثيراً من عظم شأنها فى عصر المماليك . ولعل السبب الأساسى فى ذلك يرجع إلى الأزمة الاقتصادية الشديدة التى حلّت بمصر فى عصر المستنصر بالله الفاطمى ، ثم كثرة الضرائب فى عصر الأيوبيين والمماليك (١) .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة ، فلا نعجب إذا كانت خزائن أمراء المماليك تفيض بالأموال ، حتى صارت حياتهم الخاصة والعامة حافلة بكثير من ألوان البذخ والترف والنعيم . ويظهر ذلك من عنايتهم بالصيد والسباق والرماية وتربية الخيل والموسيقى والغناء ، ومن فرش منازلهم بأنفس الطنافس والبسط وتزيين أبوابها وسقوفها بالعاج وتطعيم أوانى الشراب والطسوت بالذهب والفضة أوتكفيتها كما يقولون فى مصطلح الفنون الاسلامية ، ومن ذلك سوق الكفتيين الذى أشار اليه المقريزى (٢) .

ومن أمثلة الثروات الطائلة التى خلفها بعض أمراء المماليك . ماخلفه الأمير سيف الدين بكتمر الساقى (٣) فانه لما توفى سنة ٧٣٣ ﻫ وجد لديه « الأموال والقماش والأمتعة والأصناف

= وفى دار الآثار العربية قطعة نسيج يحتمل أنها كانت للسلطان الناصر إذ عليها عبارة « عز لمولانا السلطان الملك الناصر » (رقم السجل ٨٧٠٠) . انظر « التصوير عند العرب » تأليف احمد تيمور باشا (أخرجه الدكتور زكى محمد حسن) ص ٢١٨ .

وهناك قطعة نسيج من الحرير الأخضر باسم الناصر محمد ، فى زخارفها تأثر بالأساليب الفنية الصينية ، وهى محفوظة بمتحف فكتوريا والبرت ، وعليها عبارة « ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون » (رقم السجل ٩٥٧)

انظر A. F. Kendrick : Catalogue of Muhammadan Textiles of the Mediaeval Period (Victoria and Albert Museum), p. 39, plate XII.

(١) راجع مقال « القبط » للاستاذ فييت بدائرة المعارف الاسلامية Enc. Isl. art. "Kibt"

(٢) الخطط ج ٢ ص ١٠٥ . راجع عن التكفيت : كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٢٠ و ٢٣٣ .

(٣) أورد المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٤٢٤) تاريخ حياة الأمير بكتمر الساقى فقال :

« كان بكتمر الساقى أحد مماليك السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير . فلما استقر الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المملكة بعد بيبرس أخذه فى جملة من أخذ من مماليك بيبرس ورقاه حتى صار أحد الأمراء الأكابر وكتب إلى تنكز نائب السلطنة بدمشق بعد أن قبض على الأمير طغاى الكبير يقول له : هذا بكتمر الساقى يكون بدلا من طغاى ، أكتب إليه بما تريد من حوائجك . فعظم بكتمر وعلا محله وطار ذكره . وكان السلطان لا يفارقه ليلا ولا نهاراً إلا إذا كان فى الدور السلطانية ، ثم زوجه بجاريته وحظيته ، فولدت لبكتمر ابنه احمد ، وصار السلطان لا يأكل إلا فى بيت بكتمر مما تطبخه أم أحمد فى قدر من فضة وينام عندهم ويقوم واعتقد الناس أن أحمد ولد السلطان لكثرة ما يطيل حمله وتقبيله . ولما شاع ذكر بكتمر وتسامع الناس به قدموا إليه غرائب كل شىء وأهدوا إليه كل نفيس . وكان السلطان =



قطعة من النسيج من عصر المماليك

الزردخاناه مايزيد على العادة والحد ويستحى العاقل من ذكره . فأخذ السلطان من خيله أربعين فرساً وقال هذه لى ماوهبته إياها وبيع الباقى من الخيل على ما أخذه الخاصكية بثمن بخس بمبلغ الف الف درهم فضة ومائتى الف درهم وثمانين الف درهم فضة خارجاً عما فى الجشارات وأنعم السلطان بالزردخاناه والسلاح خاناه التى له على الأمير قوصون بعـــد ما أخذ منها سرجا وسيفاً ، القيمة عن ذاك ستمائة الف دينار . وأخذ السلطان ثلاثة صناديق جوهرا مثمناً لاتعلم قيمة ذلك ، وبيع له من الصينى والكتب والختم والربعات ونسخ البخارى والروايات الفولاذ والمطعمة والبصم بسقط الذهب وغير ذلك من الوبر والأطلس وأنواع القماش السكندرى والبغدادى ، وغير ذلك شىء كثير إلى الغاية المفرطة . ودام البيع لذلك مدة شهور . وامتنع القاضى شرف الدين النشو الخاص من حضور البيع . واستعفى من ذلك فقيل له لأى شىء ذلك قال : لا أقدر أصبر على غبن ذلك لأن المائة درهم تباع بدرهم »(١) .

وقد أورد ابن اياس بيانا عن ثروة الأمير سيف الدين ســلاّر نائب السلطنة فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير ، والذى أمر السلطان الناصر بقتله عقب رجوعه إلى سلطنته الثالثة . فقال : « كان سلار فى سعة من المال . . . مما لايحصى لكثرته . ولما مات سلار . . . أحتاط السلطان على موجوده ، فظهر له من الأموال والتحف مالم يُسمع بمثله فى خزائن الملك . قال الشيخ محمد الكتبى : وقفت على قوائم بخط القاضى جمال الدين بن الغويرة تتضمن ماقد اشتملت عليه تركة الأمير النائب وذلك أول ماضبط فى أول يوم وهو يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى من سنة سبعمائة وعشر هجرية : فمن ذلك صناديق افرنجى مصفحة بنحاس ضمنها فصوص ياقوت احمر بهرمان رطلا وفصوص بلخش رطلان ونصف وفصوص زمرد بابى عشرون رطلا وفصوص ألماس وعين الهر بلثمائة قطعة ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال وخمسون حبة ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا الف دينار ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم . ثم فى يوم الاثنين سابع عشر وجد من الذهب الثمين خمسة وخمسون ألف دينار ومن الفضة ألف ألف درهم ومن الفصوص المختلفة رطلان ووجد له مصاغ من ذهب مابين خلاخيل وأساور وزن أربعة قناطير مصرى ووجد عنده طاسات فضة وأطباق وأهوان ذهب وطشوط فضة الوزن ستة قناطير . ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشر

= إذا حمل إليه أحد من النواب تقدمة لابد أن يقدم لبكتمر مثلها أوقريباً منها والذى يصل إلى السلطان يهب له غالبه فكثرت أمواله وصارت إشارته لا ترد وهو عبارة عن الدولة ، وإذا ركب كان بين يديه مائتا عصا نقيب وعمر له السلطان القصر على بركة الفيل » . وتوفى سـنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٣ م) . راجع ترجمة ركن الدين بكتمر الساقى الناصرى فى المنهل الصافى ، وانظر أيضا Wiet : Les Biographies du Manhal Safi, p. 97, No. 670.

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤٢٤ .

وعن التحف الفنية التى كانت بقصر الأميربكتمر الساقى راجع أيضا : Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire, p. 75.



إناء من الخزف المصرى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) .
محفوظ بالمتحف البريطانى .

وجد له من الذهب العين خمس وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف وثلاثون الف درهم . . . ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشر وجد عنده من الذهب الفالف دينار ومن الفضة ثلثمائة الف درهم ووجد عنده أقبية حرير عمل الدار ملون بفرو سنجاب العدة أربعمائة قباء ووجد عنده من السروج الذهب مائة سرج . . . ووصل صحبته من الكرك من الذهب العين مائة الف دينار ومن الدراهم أربعمائة الف درهم ومن الخلع الملونة ثلثمائة الف خلعة . . . ووجد عنده من الخيول الخاص ثلثمائة رأس ومن البغال مائة وعشرون قطار ومن الجمال مائة وعشرون قطارا . وهذا كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوار » .(١)

وقد استرعت هذه الثروة الطائلة التى كان يملكها الأمير سلار نظر المؤرخ ابن أياس فتساءل من أين له هذه الثروة ومتى جمعها ولم يمكث فى نيابة السلطنة سوى أحد عشر عاما ؟ وأجاب على ذلك بانه « إما أنه كان قد ظفر بكنز من كنوز القدماء . وإما أنه كان أخذ هذه الأموال والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه الملك الناصر الى الكرك وكانت مفاتيح بيت المال بيد سلار ولا يمكن منها الملك الناصر بشىء »(٢) وبذلك يبرئ ابن أياس السلطان الناصر من تهمة اغتصاب هذه الأموال فقد أوضح أن سلار قد جمعها بطرق غير مشروعة منتهزا فرصة اضطراب أحوال مصر أثناء عهود الاغتصاب . ومهما يكن من شىء ، فإن تلك الثروة قد آلت كلها إلى السلطان الناصر ، وكأن ابن إياس يعتبر ذلك أمراً طبيعياً فيقول « ولكن لما مات سلار رجع كل شىء الى أصله » .(٣)

وقد خلف الأمير سيف تَنكِز (٤) — الذى تولىّ نيابة السلطنة بدمشق فى عصر السلطان الناصر وتوفى فى سنة ٧٣٥ هـ — « من الذهب العين ثلثمائة ألف وست وثلاثون ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة ألف ألف وخمسون ألف درهم ، ومن الجوهر واللؤلؤ والزركش والقماش ثمانمائة حمل ، ثم استخرج بعد ذلك من بقايا أمواله أربعين ألف دينار والف ألف ومائة درهم »(٥).

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر جـ ١ ص ١٥٦ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٤) راجع ترجمة الأمير سيف الدين تنكز الحسامى الناصرى فى المنهل الصافى لأبى المحاسن . وانظر
Wiet : Les Biographies du Manhal Safi, p. 114, No, 786.
واقرأ ما كتبناه عنه فى الباب الخاص « بالحكومة المصرية » .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٤ . راجع أيضا ابن اياس : نفس المصدر ج ١ ص ١٧٢ .



علبة صغيرة من النحاس من عصر المماليك

ومن الأمراء الذين خلَّفوا وراءهم ثروات طائلة الأمير سيف الدين بهادُر المعزى(١)، فانه لما مات فى ٩ شعبان سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ م) ترك أموالا وفيرة، من بينها: «ثلاثة عشر ألف دينار، وستمائة ألف درهم نقرة، وأربعمائة فرس، وثلثمائة جمل، ومبلغ خمسين ألف أردب غلة، وثمان حوايص ذهب، وإثنى عشر طراز زركش وعقاراً كثيراً. فأخذ السلطان الملك محمد بن قلاوون جميع ما خلَّفه(٢)».

ومما يدل على انتعاش حالة مصر الاقتصادية فى عصر السلطان الناصر ندرة وقوع حوادث القحط والأوبئة على رغم كثرة حدوثها فى العصور التى سبقته أو تلته(٣). وطبيعى إن قسطاً وافراً من الفضل فى هذا يرجع إلى عناية الناصر وحكومته بالزراعة وزيادة المحاصيل وتحسين الرى، فضلا عن حُسن حظ البلاد فى مقدار الفيضان. ولا ننسى حزم النَّاصر فى معالجة الأزمات، فقد حدث فى سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) أن ساءت أحوال البلاد الاقتصادية فى عصر الناصر وارتفعت أثمان الغلال، وساعد الأمراء على ازدياد الحالة سوءاً بامتناعهم عن البيع طلباً لزيادة الربح. فخاف السلطانَ الناصر العاقبة وأمر نجم الدين محمد بن حسين بن

---

(١) أورد المقريزى (الخطط جـ ٣ ص ٧٧) تاريخ حياة الأمير بهادر المعزى فقال: «كان أصله من أولاد مدينة حلب من أبناء التركمان. واشتراه الملك المنصور لاجين قبل أن يلى سلطنة مصر وهو فى نيابة السلطنة بدمشق فترقى حتى صار أحد أمراء الألوف. وكان جميل الصورة معروفا بالفروسية ورمى فى القبق والنشاب بيمينه ويساره ولعب الرمح لعبا جيدا. وكان لين الجانب حلو الكلام جميل العشرة إلا أنه كان مقتراً على نفسه فى سكنه وسائر أحواله لكثرة شحه بحيث أنه اعتقل مرة فجمع من راتبه الذى كان يجرى عليه وهو فى السجن اثنى عشر الف درهم نقرة أخرجها معه من الاعتقال»

راجع ترجمة الأمير سيف الدين بهادر المعزى فى المنهل الصافى لأبى المحاسن. وانظر.

Wiet : Les Bioqraphies du Manhal Safi, p. 101, No. 696.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٧٦

(٣) اقرأ حوادث القحط التى سبقت عصر المماليك فى خطط المقريزى جـ ١ ص ١٩٨ و ٣٦٥، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن جـ ٧ ص ٢١٣ — ٢١٤.

واقرأ حوادث القحط والغلاء التى وقعت سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) عصر السلطان كتبغا (٦٩٤ — ٦٩٦ هـ — ١٢٩٤ — ١٢٩٦ م) فى: ابن أبى الفضائل — النهج السديد ص ٥٩١ — ٥٩٢ والمقريزى: السلوك جـ ٦ ص ٨١٣ — ٨١٤. كتاب إغاثة الأمة (طبعة الدكتور زيادة) ص ٣٢ — ٤١ Zetterstéen: تاريخ سلاطين المماليك ص ٣٦

وعن المجاعات التى حدثت فى عصر السلطان بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ — ٧٠٩ هـ) اقرأ ابن اياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٩ — ١٥٠

واقرأ حوادث القحط والغلاء التى وقعت فى سلطنة أولاد الناصر وأحفاده وذلك فى سنة ٧٤٩ هـ فى عصر السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد فى المقريزى: السلوك (مخطوط) جـ ٢ القسم السادس (أول) ص ٥٧٨ — ٦١٤ وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ القسم الأول ص ٦٦ — ٧٦ و ١٥٤ وابن اياس: بدائع الزهور جـ ص ١٩١ — ١٩٢

على محتسب القاهرة وعلاء الدين على بن المرواني والى القاهرة بالطواف معاً على الطواحين. فاشتدا على الخبازين بقصد الوصول إلى انفراج الأزمة، إلا أن تلك الحالة زادت سوءاً حتى أغلقت الحوانيت وتعذر على الناس شراء ما يلزمهم من الخبز. ولكن السلطان أمر بأن ترسل الغلال إلى مصر من دمشق وغزة والكرك والشوبك وزاد على ذلك أن « نودى بالقاهرة ومصر ألا يباع القمح بأكثر من ثلاثين درهما الاردب ومن باع بأكثر من ثلاثين نهب ماله »، وطلب إلى الأمراء عدم مخالفة ذلك. واشتد على المخالفين حتى قيل إنه عاقب سمسارى الأميرين قوصون وبشتاك بالضرب المبرح لبيعهما الخبز بأكثر من السعر الذى حدده، مما يدل على قوة شكيمة الناصر ومواجهته الصعاب بالحزم والعزم اللازمين فى مثل تلك الظروف التى كان فيها الشعب على حافة الهلاك (١). وفى ذلك يقول المقريزى: « طلب (الناصر) الأمير قوصون بحضرة الأمراء وصرخ عليه: ويلك! أنت تريد أن تخرب علىّ مصر وتخالف مرسومى، وسبّه ولعنه وشهر عليه السيف وضربه على رأسه وأكتافه. وصاح: هاتوا استاداره، فتسارع النقباء لاحضاره. ومن شدة غضب السلطان صار يقوم ويقعد ويقول: هاتو استاداره، حتى خرج أمير مسعود الحاجب إلى باب القلعة... وارتجت القلعة بأسرها وخاف الأمراء كلهم لشدة ما رأوه من غضب السلطان. فلم يكن أسرع من حضور قطلو استادار قوصون، فأمر بضربه بالمقارع ثم أمر به فبطح بين يديه وضرب... فلم يتجاسر من بعدها أحد من الأمراء أن يفتح شونته إلا بأمر المحتسب » (٢).

ولم تقف محبة الناصر لشعبه عند حد تخليصه من أخطار المجاعات التى طالما هددت البلاد فى العصور السابقة، بل انه انتهز فرصة شروعه فى عمل الروك الناصرى فى سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) وألغى كثيراً من الضرائب التى أثارت شكوى المصريين. وبلغ مجموع ما ألغاه منها الأربعة عشر ضريبة من بينها « مقرر السجون » وهو ستة دراهم كانت تؤخذ من كل من يسجن، و« مقرر طرح الفراريج »، وبمقتضاه لم يكن يتمكن بائعو الدجاج من شرائه إلا من الضامن ومن اتضح أنه اشترى أو باع دجاجة من غير الضامن عذب عذاباً أليماً. و« مقرر الأقصاب والمعاصر » وهو مايجبى من مزارعى قصب السكر ومن المعاصر. و« مقرر رسوم الأفراح » و« حماية المراكب » (٣) و« ضريبة نصف السمسرة » (٤).

وكان أهم ما ألغى من المكوس « مكس ساحل الغلة » الذى كانت تباع فيه غلال مدينة القاهرة. وقد بلغ مقدار مايستخرج منه ٤,٦٠٠,٠٠٠ درهم فى العام، وكانت هذه الجهة

(١) ابن اياس بدائع الزهور جـ ١ ص ١٦٤ و ١٦٩.
(٢) المقريزى: كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٢ القسم الرابع ص ٤٤٦.
(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢٠ — ٢٢٣.
(٤) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٨٨ — ٨٩ وكتاب « إغاثة الأمة » (طبعة الدكتور زيادة والأستاذ الشيال) ص ٧٧.

— أى ساحل الغلة — مقطعة لأربعمائة جندى من أجناد الحلقة ولعدد من الأمراء . وكان هذا المكس مصدر شكوى مستمرة من أهالى القاهرة لما كان ينالهم من عسف المشرفين عليه وإرهاقهم بالرشوة . وقد وصف لنا المقريزى الأموال التى كانت تجبى من هذا الساحل والمظالم التى كانت تحل بالجمهور، فقال : « وكانت جهة عظيمة لها متحصل كثير جداً ، وينال القبط [١] منها منافع كثيرة لاتحصى ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم . فان مظالمها كانت تتعدد ما بين نواتية تسرق ، وكيالين تبخس ، وشادين وكتاب يريد كل منهم شيئاً ، وكان مقرر الأردب درهمين للسلطان . ويلحقه نصف درهم ، غير ماينهب ويسرق . [٢] » ومما يدل على أهمية هذا المكس أنه كان له ديوان خاص فى بولاق ، وله خص عرف باسم « خص الكيالة » ويعمل فى هذا الديوان نحو ستين رجلا مابين نظار ومستوفين وكتاب وثلاثين جندياً للشد [٣] .

وقد علق أبو المحاسن على مافعله السلطان الناصر محمد حين أبطل المكوس التى كان يئن منها الشعب تعليقاً يدلنا على أن أهالى مصر قد قدروا هذا العمل وأشادوا بمآثر هذا السلطان : « ومافعله الناصر من إبطال هذه المظالم والمكوس دليل على حسن اعتقاده وغزير عقله وجودة تدبيره وتصرفه حيث أبطل هذه الجهات القبيحة التى كانت من أقبح الأمور وأشنعها وعوضها عن جهات لايظلم منها الرجل الواحد ، ومثله فى ذلك كمثل الرجل الشجاع الذى لايبالى بالقوم كثروا أو قلوا فهو يكر فيهم فان أوغل فيهم خلص وإن كر راجعاً لايبالى بمن يوفى أثره كمن يعلم ما فى يده من نفسه ، بطل لذلك ماقبح وأحدث ماصلح من غير تكلف وعدم تخوف . فلله دره من ملك عمر البلاد وغمر بالاحسان العباد » [٤] .

الإقطاعات :

كانت أرزاق الجند فى عهد الأيوبيين [٥] والمماليك تدفع من مستغلات الإقطاعات . وقد حدث قبل ذلك أن مصر كلها كانت تعطى إقطاعاً لبعض الأمراء أو قواد الجند فى البلاط

---

(١) يشهد ذلك بنصيب القبط الوافر فى إدارة الأمور المالية فى البلاد كما مر بنا .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢٢ .

(٤) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٢٣ .

(٥) ورد فى « كتاب قوانين الدواوين » لابن مماتى وزير صلاح الدين (الذى نشره الدكتور عزيز سوريال عطيه) فصل خاص بتفصيل الحبس الجيوشى يتناول فيه المؤلف الكلام على النواحى التى خصص إيرادها للجيوش السلطانية وما يزرع بتلك النواحى من مختلف المحاصيل .

كذلك ورد فى نفس الكتاب فصل بالقواعد الشرعية المتعلقة باقطاعات الجند ، وفصل آخر « فى المقرر عن عبرة الاقطاعات للاجناد والأتراك والأكراد والتركمان والكتابية والعاقلة (كذا) والغزاة والقواد والعربان » .

العباسى ، بعد أن عظم نفوذ الجنـد الترك . وقد كتب المقريزى فى هذا الصدد : « وقد كان خلفاء بنى أمية وبنى العبّاس يقطعون الأراضى من أرض مصر النفر من خواصهم ، لا كما هو الحال اليوم (أى فى زمن المقريزى) ، بل يكون مال خراج أرض مصر يُصرف منه أعطية الجند وسائر الكلف ، ويحمل ما يفضل إلى بيت المال ، وما أقطع من الأراضى فإنه بيد من أقطعه . وأما منذ كانت أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وقتنا هذا ، فإن أراضى مصر صارت تقطع للسلطان »[1] .

ولكننا لانعرف إقطاعاً ظاهراً فى وادى النيل إبان العصر الأموى بل « المعروف إن سنة جديدة بدأت فى حكم بعض الأقاليم التابعة للخلافة حين عظم نفوذ الجند من الترك فى البلاط العباسى ، إذ بدأ الخلفاء يقطعون تلك الأقاليم أولياء عهدهم ثم بعض قواد الجند . وطبيعى أن هؤلاء القواد الترك كانوا يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر الدسائس لهم وكان الخليفة نفسه يرحب ببقائهم فى العاصمة مخافة أن يستقلوا بما يولونه من الأقاليم . فكان هؤلاء لا يحكمون بأنفسهم بل يوفدون إلى الأقاليم نواباً عنهم ويتلقون منهم ما يتبقى من الجزية والخراج بعد دفع نفقات الإدارة ، فيدفعون إلى بيت مال الخلافة جزءاً منه . وبدأ هذا النظام فى مصر منذ سنة ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) وبقى إلى أن وفد أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها القائد التركى »[2] .

وكان الجند فى عصر بنى بويه يمنحون إقطاعات من الأرض بدلا من مرتبات نقدية . وكان ذلك أساس نظام إقطاعى نما فى عصر السلاجقة ، وبلغ أوجه فى عصر المماليك[3] .

وكان الإقطاع فى العرف المملوكى — وفى عرف الدول الاسلامية جميعاً — أمراً شخصياً بحتاً ، لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه ، فكان المقطع يحل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته فحسب ، بل يؤول الاقطاع إلى السلطان بمجرد انتهاء المدة المتفق عليها ، أو بسبب وفاة المقطع اذا كان الاقطاع مدى الحياة ، أو بسبب إخلال المقطع بشروط العقد القائم . وسواء فى ذلك ما يسمى إقطاع التمليك وهو الاقطاع العادى ، أو إقطاع الاستغلال وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة[4] .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية ص ٤ ، انظر أيضا :

S.Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 59.

(٣) Ph. Hitti : History of the Arabs, p. 329.

(٤) هذه الصفة الشخصية تجعل الاقطاع فى البلاد الاسلامية مشابها للاقطاع الأوربى فى أوائل العصور الوسطى ، أى حتى القرن العاشر الميلادى إذ كان الاقطاع هبة من الملك لأتباعه ، وليس ثمة حدود مقررة تعين حقوق كل من الطرفين سوى مشيئة الملك أو قوة المتمتع بالاقطاع . غير أن الاقطاع الأوربى تطور فيما بعد القرن العاشر الميلادى ، فصار للمقطع ملكية انتفاع واستغلال معينة ، وصار بينه =

وقد جرت العادة أن يتولى السلطان بنفسه إلحاق المماليك بالخدمة وترتيب درجاتهم ، فاذا حضر أمامه من يطلب الاقطاع ، ووقع اختيـاره على أحد ، أمر ناظر الجيش بالكـتابة ، فيكـتب ورقة تسمى المثال[١] ، وهو أول ما يُكـتب من الأوراق الرسمية إيذاناً باعطاء أحد المماليك إقطاعاً من الاقطاعات الخالية . وكان المثال يخرج من ديوان الجيش ويقدمه ناظر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل ، فاذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان الجيش إلى ديوان النظر لتسجيله وحفظه فيه . ويكـتب بذلك ما يسمى فى اصطلاح ذلك العصر باسم « مربعة » وهى فى الواقع ورقة مربعة الشكل ، يكـتب فيها اسم المُـعَـيَّـن على الاقطاع ورتبته ، وغير ذلك من التفصيلات اللازمة . ثم ترسل المربعة إلى ديوان الانشاء ، فيحيلها كاتب السر على مَنْ يكـتب بها « منشور » الاقطاع ، وهو آخر الأدوار التى يمر بها « المثال » . ويُسمى المنشور أيضاً فى مصطلح الدولة الأيوبية توقيعـاً ، وهذه الوثيقة الأخيرة هى التى تجعل الاقطاع — أو الخبز كما كان يسمى أحياناً — شرعياً بيد المقطع الجديد[٢].

وكانت إقطاعات الحلقة التى تخرج بها المنشورات من ديوان الجيش وقفاً على أجناد الحلقة دون سائر طوائف الجيش المملوكى ، مثل المماليك السلطانية الذين يمنحون الرواتب المنتظمة ، ومماليك الأمراء الذين يعيشون فى كنف أساتذتهم وكان مملوك الأمير علم الدين سنجر الخياط والى القاهرة هو أول مَن أخذ من مماليك الأمراء إقطاعا فى الحلقة[٣].

وكانت أرض مصر فى عهد الدولة الأيوبية تنقسم أربعة وعشرين قسما أو قيراطا : منها أربعة قراريط للسلطان ، وعشرة للأمراء ، وعشرة للأجناد[٤]. وظلت الحال كذلك فى صدر دولة

= وبين المالك الأصلى أو الأول عقد شامل لالتزامات كل من الطرفين . ومع أن توريث الخلف الشرعى المقطع لم يكن من شرط العقد الاقطاعى فى أوربا ، فان العادة قد جرت بأن يخلف الوارث سلفه باذن المالك الأصلى ، بعد تأدية مبلغ معين من المال بمثابة رسم دخول إلى الاقطاع . المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٠٩ حاشية للدكتور زيادة .

على أننا لانستطيع هنا أن نستطرد فى الموازنة بين الاقطاع فى عصر المماليك والاقطاع الأوربى لأن هذا موضوع متشعب واسع الأطراف .

(١) المثال : عبارة عن ورقة أى وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبينا بها مقدار ماخصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الاقليم والقرية والقبالة أى الحوض الكائنة فيها الأرض التى خصصت له . المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩١ حاشية .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٣ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٧ ؛ كتاب السلوك ج ١ ص ٤٩٠ حاشية للدكتور زيادة ؛ Demombynes : La Syrie. p. XLIV.

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٦٧٣ — ٦٧٤ ؛ راجع Demombynes : La Syrie. p. XXXII.

(٤) المقريزى الخطط ج ١ ص ٨٧ ؛ Poliak : Feudalism in the Near East, p. 24.

المماليك البحرية حتى آلت السلطنة إلى المنصور حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦ هـ فمسح البلاد وقسمها تقسيما آخر ، عرف فى التاريخ باسم « الروك الحسامى » [١].

وقد مسحت أرض مصر فى العصور الاسلامية الأولى خمس مرات : المرة الأولى على يد عبد الملك بن رفاعة عامل الخراج فى مصرفى خلافة الوليد بن عبد الملك الأموى وأخيه سليمان وذلك حول سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) ، والمرة الثانية كانت على يد عبيد الله بن الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى حول سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م) ، والمرة الثالثة كانت على يد ابن مدبر فى خلافة المعتز بالله العباسى حول سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧م) . والمرة الرابعة كانت فى عهد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ — ١١٠٨م) [٢]، والمرة الخامسة فى عهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وذلك سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) [٣].

وكان الروك الحسامى أول روك للأراضى المصرية فى عهد المماليك . ويرجع السبب فى هذا الروك إلى « أن الأمراء كانوا يأخذون كثيراً من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شىء ، ويصير ذلك الاقطاع فى دواوين الأمراء ، ويحتمى بها قطاع الطريق ، وتثور بها الفتن ، وتقوم بها الهوشات [٤] ويمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصير مأكلة لأعوان الأمراء ومستخدميهم ومضرة على أهل البلد التى تجاورها . فأبطل السلطان ذلك ورد تلك

---

(١) الروك هو مسح أرض الزراعة فى بلد من البلاد ، لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال .
Bibliothèque des Arabisants Français, 1ère Série, tome 2, p. 200.
والروك كلمة قبطية اصطلح على استعمالها للقيام بعملية قياس الأرض وحصرها فى سجلات وتثمينها أى تقدير درجة خصوبة تربتها لتقدير الخراج عليها . ويقابل الروك فى الوقت الحاضر عمليتا فك الزمام وتعديل الضرائب . المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٩١ حاشية .
Poliak : Feudalism in the Near East, p. 23.

(٢) أبو عمر الكندى : كتاب الولاة (طبعة رفن جست — بيروت) ص ٦٦ — ٦٧ و ٧٥ — ٧٧ . المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٣ حاشية للدكتور زيادة .

(٣) يلاحظ أن أغلب الباحثين فى مالية مصر لم يتعرضوا لموضوع « الروك الصلاحى » (نسبة إلى صلاح الدين الأيوبى) الذى ظل أمره غامضا عليهم . غير أن أمر هذا الروك يتضح جليا من الاطلاع على الباب الثالث من « كتاب قوانين الدواوين » للأسعد بن مماتى وزير صلاح الدين . فقد أحصى فيه بلاد القطر المصرى التى كانت تعتبر وحدات مالية فى ذلك العهد وإن لم يكن قد نص على « عبراتها ومسايحها » على نسق ما جاء بعدئذ فى « كتاب التحفة السنية » لابن الجيعان وكتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لابن دقماق نظراً لأن ابن مماتى — وكان من رجال الدولة المسئولين — اعتبر أن مثل هذه المعلومات على حد قوله « من أسرار الدولة التى لا يجوز اذاعتها » . ونرى من كل ذلك أن « الروك الصلاحى » له أصل تاريخى لا يحتمل الجدل . راجع « كتاب قوانين الدواوين » الذى نشره الدكتور عزيز سوريال عطيه) .

(٤) بمعنى مشاجرات ، انظر فى شرحها Dozy : Supp. Dict. Ar.

الاقطاعات على أربابها ، وأخرجها بأسرها من دواوين الأمراء » [١] . وكانت الاقطاعات قد اضطرب أمرها منذ عهد السلطان خليل بن قلاوون ، بدليل ما أورده بيبرس الدوادار بصدد بدرالدين بيدرا نائب السلطنة فى ذلك العهد . ذلك أن السلطان خليلا قد فوض هذا الأمير نيابة السلطنة فى سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) « فتحدَّث فيها وأخذ إقطاع الأمير حسام الدين طُرُنطاى وعدته وما كان له من المشتروات والحمامات بنواحى الأعمال ، واستضاف إلى ذلك شيئاً كثيراً من نواح اشتراها لديوانه من مُقطَعيها ، وبلاد استحوذ عليها وانبسطت يد نوابه فى الأعمال ، واحتجنوا له كثيراً من وجوه الأموال ، بحيث لم يبق إقليم إلا ومعظمه فى أيديهم ، والمقطعون لايصلون من إقطاعهم إلا مايتصدقون به عليهم ، فتضرروا وتضوروا وكرروا الشكوى وأكثروا » [٢] . ولا بد أن ذلك وأمثاله كان سبباً لما تقدمت الاشارة اليه من اضطراب فى أحوال الاقطاع فى عهد لاچين .

فلما أيقن السلطان لاچين بصحة هذه الشكاوى ، أمر بمسح البلاد المصرية للمرة السادسة فى تاريخ مصر الاسلامية أو للمرة الأولى فى دولة المماليك ، وقسمها تقسيما آخر جعل بمقتضاه للأمراء والأجناد أحد عشر قيراطا وزَّع عشره منها ، وأبقى القيراط الحادى عشر لزيادة إقطاع من يتضح فيما بعد أنه قد حاق به شىء من الغبن ، وجعل للسلطان أربعة قراريط كما كانت الحال فى الروك السابق ، وخُصصت التسعة القراريط الباقية ليكوّن فرقا جديدة فى الجيش[٣] .

وانتهى هذا الروك بعد مجهود دام ثمانية وخمسين يوما . وفى يوم ٨ رجب سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) وزعت مثالات الأمراء ، وفى اليوم التالى وزعت مثالات مقدمى الحلقة ، وفى اليوم الثالث وزعت مثالات أجناد الحلقة . وأقطعت البلاد تبعا لهذا الروك للأمراء والأجناد كاملة ، لم يستثن منها سوى الجوالى والمواريث الحشرية ، لأنها عدت من المخصصات السلطانية ، ولم تدخل الأحباس ضمن الاقطاعات باعتبارها وقفا على أعمال البر والخير .

ولم يرض الأمراء عن هذا الروك ، فقد ذكر المقريزى [٤] أن السلطان لاچين « تولى تفرقة المثالات على الأمراء والمقدمين ، فبان له فى وجوههم التغير لقلة العَبرة [٥] » . أما

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٨ ؛ كامل مرسى بك : الملكية العقارية فى مصر ص ٧٢ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٠ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٣ ؛ الخطط جـ ١ ص ٨٨ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٧ ؛ و Lane—Poole : The Art of the Saracens, p. 16. Poliak : Feudalism in the Near East, p. 24.

(٤) كتاب السلوك جـ ١ ص ٨٤٥ .

(٥) العبرة : كلمة اصطلاحية معناها « مقدار المساحة » . وقد تطلق على مقدار ما يكون فى حيازة كل شخص من الأرض ، كما تطلق على مقدار مساحة كل ناحية أو اقليم . ويقابل ذلك فى وقتنا الحاضر =

مثالات الأجناد فقد تولى أمر توزيعها منكوتمر نائب السلطنة . فلم يجسر أحد أن يعترض على مقدار اقطاعه خوفا منه ، واستمر منكوتمر فى عملية التوزيع هذه عدة أيام .

وكانت إقطاعات الأمراء والجند إما بلاداً يستغلها مقطعها كيفما شاء أو نقوداً يحصلها من بعض البلاد . إلا أن الجند لم يرضوا عن مقدار نصيبهم فى الاقطاعات وشكوا محتجين على ما أصابهم من حيف ، فتصدَّى لهم منكوتمر وأمر بالمحتجين فسجنوا . ويقول المقريزى : « شق ذلك على الأجناد ، وتجمعت طائفة منهم ورموا مثالاتهم ، وقالوا إنا لم نعتد بمثل هذا ، فاما أن تعطونا ما يقوم بكفايتنا وإلا تخذوا أخبازكم (أى إقطاعاتكم) وإما نخدم الأمراء أو نقيم بطالين . فحنق منهم منكوتمر وأمر الحجاب فضربوهم وأخذ سيوفهم وسجنهم وبالغ فى الفحش وصار ينظر إلى الأمراء ويقول : أيما قواد يجى يشتكى من خبزه ويقول أعَرِّف السلطان فانى أعرف إيش يقول له السلطان فاما أن يرضى يخدم وإلا فالى لعنة الله . فعرف الأمراء أنه يعنيهم فسكتوا على مضض »[1] . ويقول أبو المحاسن إن منكوتمر « جلس ليفرقها (المثالات) على العساكر فكان كل من يقع له مثال لا سبيل له المراجعة فيه فمن الجند من سعد ومنهم من شقى »[2] .

وكان متحصل الإقطاع الواحد فى عهد السلطان قلاوون يتراوح بين عشرة آلاف درهم عن كل من الاقطاعات الصغيرة ، وثلاثين ألف عن كل من الإقطاعات الكبيرة . فأصبح ما يُتحصل من أكبر الإقطاعات بعد عمل الروك الحسامى عشرين ألف درهم ، تتناقص كلما صغرت مساحة الاقطاع . لذلك قلَّت أرزاق الجند ولم يرض الأمراء عما نزل بهم من الظلم فى هذا الروك . ومما زاد هذه الحال سوءاً أن منكوتمر لم يقبل شفاعة الأمراء فيمن حبسه من الأجناد فعوَّلوا جميعاً على شق عصا الطاعة ونشر روح التذمر والسخط فى البلاد والقضاء على كل من السلطان لاجين ونائبه منكوتمر . ولم يجد إفراج السلطان عن هؤلاء الأجناد المحتجين ووعده بزيادة إقطاعاتهم وإقطاعات الأمراء نفعاً . بل كان هذا الروك من أهم العوامل التى أدت إلى القضاء على السلطان لاجين . ويقول أبو المحاسن فى ذلك : « وكان عمل هذا الروك وتفرقته من أكبر الأسباب وأعظمها فى فتك الأمراء بالسلطان الملك المنصور لاجين وقتله وقتل نائبه منكوتمر . وكان هذا الروك أيضاً سبباً كبيراً فى إضعاف الجند بديار مصر وإتلافهم فانه لم يعمل فيه عمل طائل ولا حصل لأحد منهم زيادة يرضاها وإنما توفر من البلاد جزء كبير . فلما قتل الملك المنصور لاجين تقسمها الأمراء زيادة على ما كان بيدهم »[3] .

= عبارة مساحة أو زمام ناحية كذا أو مديرية كذا : المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨١ و ٨٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٩٣ حاشية .

(١) كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٥ — ٨٤٦ .

(٢) المنهل الصافى ج ٣ ص ٦٧ ب .

(٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٩٥ .

وفى شهر شعبان سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) شرع الناصر محمد فى عمل الروك الذى عرف باسم « الروك الناصرى » [١] نسبة اليه وهو الروك الثانى فى تاريخ دولة المماليك البحرية والسابع فى تاريخ مصر الاسلامية . وكان سبب هذا الروك ، أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلار وجماعة من البرجية ، كان خبز الواحد منهم مائتى ألف مثقال فى السنة إلى ثلاثمائة ألف مثقال، فأخذ السلطان أخبازهم وخشى الفتنة وقرر مع فخر الدين ناظر الجيش روك البلاد » [٢] . وأشرف على تقسيم الأرض أربع لجان ، تضم كل لجنة منها ثلاثة أو أربعة من الأمراء يعاونهم عدد من المستوفين والكتّاب والقياسين . وقامت هذه اللجان بما عهد اليها خير قيام، فضبطت الأرض ومسحتها وأحصت غلتها وخراجها ، وما فرض عليها من الأشياء الأخرى ، من الدجاج والعسل والخراف والكشك والكعك والبرسيم والعلف للدواب . وانتهت هذه اللجان من مهمتها بعد عمل متواصل دام خمسة وسبعين يوما [٣] . وكان من أثر ذلك أن زيدت أنصبة الأمراء والأجناد عما كانت عليه فى الروك الحُسامى ، فأصبحت أربعة عشر قيراطا بعد أن كانت أحد عشر ، وخصصت العشرة القراريط الباقية للسلطان ومماليكه . وكتبت مثالات بقراريط الأمراء والأجناد ، وبدأ السلطان الناصر فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥م) بتوزيعها فى قلعة الجبل . وكلما جاء أحد المستحقين فى الاقطاعات يسأل عن إسمه واسم التاجر الذى أحضره إلى مصر ، والأمير الذى التحق بخدمته فى حداثة سنه ، والوقائع الحربية التى اشترك فيها ، حتى يستوثق من شخصيته ، ثم يسلمه مثاله وكان ذلك يتم بحضور كبار الأمراء . فان حاول أحدهم التأثير على السلطان أثناء توزيع المثالات بالإطناب فى شجاعة أحد الأجناد حتى يزيد مقدار ما يمنح له من الاقطاع ، عمد السلطان إلى إعطائه دون ما يستحق ، حتى لا يجسر أحد على التكلم فى حضرته ، فلم يكن للوساطة أو الأغراض أثر فى مقدار ما يمنح للأجناد من الإقطاعات . وانتهى توزيع هذه المثالات فى آخر المحرم

---

(١) يعد « كتاب التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لمؤلفه الشيخ شرف الدين يحيي علم الدين شاكر بن الجيعان — مستوفى (رئيس حسابات) ديوان الجيش فى عهد الملك الأشرف قايتباى فى سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٧م) — أوفى مصدر فى هذا الموضوع بين الكتب القديمة ، فهو جامع لأسماء المدن والقرى المصرية التى كانت بمصر فى ذلك الوقت ، وهو آخر حصر رسمى عمل عنها فى عهد دولة المماليك أساسه الروك الناصرى أى فك الزمام الذى عمل سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) بأمر الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد طبع هذا الكتاب مرتين الأولى فى باريس سنة ١٨١٠ م والثانية فى القاهرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٩٨ م . انظر أيضا Enc. Isl. art. Egypt.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الأول ص ٢٢١ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٥٩ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ٢٣ القسم الأول ص ٥٤ ؛ المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٨٨ .

سنة ٧١٦ هـ (١٢١٦ م) [١].

اشتد الناصر فى معاملة كل من حاول رد « مثاله » أو تقدم بالشكوى من جراء ماأصابه من الإقطاع . فكان جزاء من يحتج الضرب والحبس والحرمان من نصيبه ، كما فعل السلطان لاجين ونائبه منكوتمر مع المحتجين على أنصبتهم فى الروك الحسامى . كما ان نتيجة هذا الروك — على الرغم من زيادة عدد القراريط التى منحها الأجناد من الأرض — كانت هى نفس النتيجة التى أدى اليها عمل الروك الحسامى ، إذ أنه قد « غبن فى هذا الروك أكثر الأجناد فانهم أخذوا إقطاعا دون الاقطاع الذى كان معهم » [٢] . كما أن كثيراً من الأمراء ممن بلغ إقطاع الواحد منهم الف دينار قد هبط إلى مائتى دينار ، على حين زادت أنصبة الكثيرين منهم رغم عدم استحقاقهم لتلك الزيادة . وقد عبّر المقريزى عما حاق بالأجناد من غبن يرجع سببه إلى عدم مراعاة الناصر جانب الدقة فى توزيع « المثالات » فى هذه العبارة : « فانه كان يُعطى المثال من غير تأمل ، كيفما وقعت يده عليه » [٣] .

ومما أورده المقريزى [٤] وأبو المحاسن [٥] عن إحجام الأمراء عن تبليغ السلطان استياء الأجناد من هذا الروك ، وعما نال أحد أتباعه من التعذيب البالغ على أثر إبلاغه مولاه أمر هذا الاستياء ، نتبين أن عدم إعلان الأجناد تذمرهم من أنصبتهم فى هذا الروك ، كان راجعاً قبل كل شىء إلى ماعرف عنه من الصلابة والتمسك بتنفيذ هذا القانون .

ومهما قيل فى الروك الناصرى ، فمما لاشك فيه أن مصر كان يسودها الاضطراب والفوضى قبل عمله ، وخاصة إذا عرفنا أن السلطان الناصر اعتبر ما كان يقدمه الفلاحون إلى الأمراء من الزجاج والعسل والخراف والكشك والكعك والبرسيم والعلف للدواب ، وهو ماعرف باسم « حق الضيافة » كان جزءا مقرراً من القيمة المستحقة لكل من الأمراء والأجناد فى إقطاعاتهم ، كما أن الناصر أبطل عدة ضرائب بلغ مجموعها أربعة عشر ، منها « مكس ساحل الغلة » الذى كانت تباع فيه غلال مدينة القاهرة . وقد مر بنا أن مقدار مايستخرج منه بلغ ٤,٦,٠٠,٠٠٠ درهم فى العام ، وكانت هذه الجهة (أى ساحل الغلة ببولاق) مقطعة لأربعمائة من أجناد الحلقة و لعدد من الأمراء [٦] . وقد أعجب المغفور له الأمير عمر طوسون بهذا الروك أيما إعجاب ووصفه

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٨٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) ج ٤ القسم الأول ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٠ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٢١ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩٠ — ٩١ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٩١ .

(٥) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٢٦ .

(٦) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٨٩ ؛ أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء والقسم ص ٢٢٢ — ٢٨٢ .

فى كتابه « مالية مصر » ، فقال إنه كان « محكما فى بابه ، ولم يكن فقط أكثر استيفاء من المساحات التى سبقته فى العهد العربى ، بل كان عملا متقناً تفتخر به أى مصلحة من مصالح المساحة الحالية » (١) .

ولما كان الروك حدد مقدار ماتناله طبقة الأمراء والأجناد معا من حيث عدد القراريط التى تخصهم من أرض مصر ، فلا بأس من أن نبين مقدارما كان يخص كلا منهم على حدة . فقد كان المثال الذى يمنح للأمير يحدد فيه للأمير ثلث الإقطاع وللأجناد المتصلين به الثلثان . ولم يكن للأمير أو لأحد من أتباعه أن يطلب إلى أحد الأجناد النزول له عن شىء من إقطاعه اللهم إلا إذا رضى بذلك عن طيب خاطر . بل حُتم على كل أمير أن لايفصل أحداً من أجناده من غير أن يعرض أمره على نائب السلطنة بالقاهرة أولا ، فان رأى مايستدعى إخراجه من حاشية الأمير التابع له ، أمر باخراجه وعين من يحل محله فى خدمة ذلك الأمير (٢) . ويظهر لنا أن ذلك الإجراء قد اتبع وصار كأنه قانون ، لضمان عدم التجاء أحد من الأمراء إلى طرد أجناده بقصد زيادة نصيبه فى الإقطاع المخصص له .

وقد قدرت مخصصات الأمراء من مستغلات الإقطاعات بحسب رتبهم فى الجيش وفى خدمة السلطان بما يأتى :

أمير مائة من	٨٠,٠٠٠	دينار	إلى	٢٠٠,٠٠٠ دينار
أمير طبلخاناه من	٢٣,٠٠٠	»	»	٣٠,٠٠٠ »
أمير عشرة من	٧,٠٠٠	»	»	٩,٠٠٠ »
مقدم الحلقة من	٢٥٠	»	»	١,٥٠٠ » (٣)

هذا إلى ما كان مقرراً للأمراء المعينين فى خدمة السلطان من الرواتب السلطانية من اللحم والتوابل والعليق والزيت والكسوة والشمع . كما كان للمماليك السلطانية وأجناد الحلقة رواتب مماثلة من عند السلطان ، ولكن مقاديرها كانت تتفاوت زيادة ونقصانا . ومما هو جدير بالملاحظة أن رواتب هؤلاء الأمراء والمماليك والأجناد لم تكن لها علاقة بما يمنحونه من إقطاع ، وإنما كان يمنحها لهم السلطان على سبيل الهبة . ولذلك كانت تمنح أحيانا لمن لا إقطاع له كأبناء الأمراء فيطلق له من لدن السلطان « دنانير وخبز ولحم وعليق إلى أن

(١) الأمير عمر طوسون : مالية مصر ص ٢٥٩ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٠ ؛ و Demombynes : La Syrie, p. XLII.

انظر أيضا ; Michel : L'Organisation Financière de l'Egypte, p. 142.

يتأهل للاقطاع فى جملة الحلقة »(١) .

أما فى الشام فقد بلغ إقطاع الأمير ثلثى إقطاع زميله فى مصر . ولم يكن يصل إلى مرتبة أمراء مصر فى الاقطاع والرواتب من أمراء الشام سوى نائب السلطنة بدمشق .

وقد جرت العادة أنه إذا مات أمير بمصر أو الشام أصبح إقطاعه شاغراً ، وعمل السلطان على منح الإقطاع أحد المستحقين من الأمراء ، فتكتب « رقعة » فى ديوان الجيش بذلك الإقطاع وترسل إلى ديوان الجيش بالقاهرة ، فيتولى ناظر الجيش عرضها على السلطان ، فان أقرها كتب عليها كلمة « يكتب » . وعلى أثر ذلك تحرر مربعة من ديوان الجيش تمهيداً لكتابة منشور لصاحب الإقطاع الجديد(٢) .

ومن ذلك نرى أنه كان لكل أمير إقطاع بحسب درجته . وفى عصر السلطان الناصر كانت الامبراطورية الاسلامية مقسمة إلى أربعة وعشرين قسما : عشرة منها للسلطان وكان ينفق منها على مماليكه وغلمانه ، وأربع عشرة لسائر الأمراء والجند . وكان للجند ديوان مستقل يعرف باسم « ديوان الجيش » . وكان للأمراء موظفون لإدارة إقطاعاتهم . ولم يكن للدول نفوذ عليها أو إشراف إلا حين تقطعها إلى أمير آخر . على أن عصر المماليك لم يقع فى خطر الاقطاع الأوربى لأن أرض الإقطاع لم تكن وراثية ، وفضلا عن ذلك فان الأمراء لم يقيموا فيها مما أضعف كثيراً من نظام الحكومة المركزية(٣) .

ولم يكن جائزاً لمن يقطع إقطاعاً فى عصر المماليك أن يتصرف فيه بالبيع أو ينزل عنه لغيره لأنه لم يعد أن يكون أرض استغلال . وظل هذا النظام متبعاً طوال هذا العصر . غير أنه لما ساءت الأحوال فى عهد أولاد الناصر حدث فى أثناء سلطنة شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ — ٧٤٧ هـ = ١٣٤٥ - ١٣٤٦ م) أن كثيراً من أجناد الحلقة كانوا ينزلون عن إقطاعاتهم للآخرين « بمال أو مقايضة الإقطاعات بغيرها فكثر الدخول فى الأجناد بذلك وانتشرت السوقة والأراذل فى الإقطاعات حتى صار أجناد الحلقة أكثرهم أصحاب حرف وصناعات وخربت منهم أراضى إقطاعاتهم »(٤) . ولقد حدث فى ذلك العهد أيضاً أن رخص لمن أراد أن يندمج فى الحلقة من جند الأمراء أن يدفع لبيت المال رسماً بقدر إيراده فى الحلقة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥٠ — ٥١ ؛ Wiet : Histoire de la Nation Egyptienne, tome IV. (L'Egypte Arabe) p. 395.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٥١ .

(٣) Hautecoeur et Wiet : les Mosquées du Caire, p. 50.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٩ .

Poliak : Feudalism in the Near East, p. 28. Demombynes : La Syrie, p. IXV.

سنة كاملة. وكان المقصود بذلك إيجاد مورد جديد من موارد بيت المال . ولكن الأمراء أدركوا خطر هذا العمل ورأو أن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى تحول معظم جندهم إلى أجناد فى الحلقة. وبذلك يقل عدد جندهم فلجأوا إلى السلطان وأبلغوه وجهة نظرهم فأقرهم عليها وأبطل العمل بهذا النظام[١].

وفى عهد السلطان حسن بن الناصر محمد فتح باب المقايضات مرة أخرى. وأخذ الجند يبيعون إقطاعاتهم قصد الحصول على المال واستولى بذلك كثير من العامة على بعض الإقطاعات وبلغ ثمن الاقطاع الواحد أحياناً عشرين ألف درهم . ولكن ذلك لم يستمر طويلا حتى كانت أيام السلطان صالح بن الناصر محمد الذى سمح للأجناد ببيع إقطاعاتهم والمقايضة عليها بالأموال. ولم يقف الأمر عند هذا بل كانت هناك جماعة من الوسطاء عرفوا باسم « المهيسين » مهمتهم ترغيب الأجناد فى بيع إقطاعاتهم لمن يدفع ثمناً مناسباً . وبلغت عدة هؤلاء نحو ثلاثمائة « مهيس » كانوا يتقاضون على الصفقة الوحدة ١٠ ٪ من ثمن البيع . وأصبح بيع الاقطاعات أمراً مألوفاً فى ذلك الحين حتى صار معظمها ملكا لأصحاب الحرف على حين ترك معظم الأجناد اقطاعاتهم وأصبح عدد الجند الذين يملكون اقطاعات أقل بكثير مما كان من قبل. وظل هذا النظام متبعاً حتى ألغى فى عهد السلطان الصالح زين الدين حاجى (٧٨٣ — ٧٨٤ هـ).

ولقد تقدم القول بصدد أبناء الأمراء أن السلطان كان يخصص لهم رواتب من المال واللحم والخبز والعلف لدوابهم . ويستمر الحال على ذلك حتى يكبروا ويثبتوا أهليتهم للاقطاع والاندماج فى سلك أجناد الحلقة ، ثم يتدرجون فى المناصب بقدر ما يبدونه من ضروب الكفاية والاستقامة . وكان السلاطين لا يمنحون الاقطاعات للأمراء أو أجناد الحلقة إلا بقدر شجاعتهم وشهامتهم فى الحروب[٢].

ولم ينص على سن معينة للتقاعد بل كان يراعى قدرة الأمير أو الجندى على العمل. وإذا وصل أحد أفراد هاتين الطبقتين إلى حالة لاتسمح له بالاستمرار فى مزاولة عمله ، التمس من السلطان ان يجعله « طرخانا »[٣] ، ويصدر بذلك مرسوم سلطانى . ومن العبارة التالية التى أوردها القلقشندى فى أحد المراسيم التى كان يصدرها السلطان بمنح « الطرخانية » لأحد الأمراء او الجنود ، تتبين طريقة التقاعد فى ذلك العصر: « ولما كان فلان ممن توفر فى الخدمة الشريفة قسمه وكبرت فى الساعة سنه ووهن عظمه . . . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر المذكور طرخانا

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٩ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢١٦ .

(٣) المراد بلفظ « الطرخانية » : أن يسمح للشخص بالاندماج فى سلك الخدم السلطانية ، على أن يقيم حيث شاء ، ويرحل متى شاء . وتمنح الطرخانية للأمراء أو الأجناد وبخاصة لمن كبرت سنه وضعفت قدرته على العمل وعجز عن الخدمة السلطانية . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٤٨ .

لا يطلب لخدمة فى نهار ولا ليل ولا يلزم بالقيام بنزك(١) ولا خيل»(٢).

ويظهر أن الأمير الطرخان كان لا يتمتع باقطاعه القديم، بل يعين له السلطان مبلغاً من المال. والدليل على ذلك أنه لما مسح الناصر محمد البلاد المصرية سنة ٧١٥ هـ جعل جهة مكس قَطْيا لضعفاء الأجناد الذين لم يقووا على الاستمرار فى العمل، وجعل لكل منهم ثلاثة آلاف درهم وهو ما يُساوى مائتى جنيه تقريباً(٣). على أنه كان من الممكن أن يبقى الأمير الطرخان متمتعاً باقطاعه إذا رأى السلطان ذلك. ففى سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) شكا الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى كبر سنه وعجزه عن الاستمرار فى العمل والتمس إعفاءه من الخدمة فأجيب إلى طلبه وسمح له بالاحتفاظ بإقطاعه، وأضيفت أجناده إلى أجناد الحلقة(٤).

---

(١) النزك: الطعن بالنيزك، وهو رمح صغير.

(٢) اقرأ مرسوم سلطانى بمنح الطرخانية لأحد الأمراء فى القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٣ ص ٥١ — ٥٢.

(٣) Zettersteén: تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٢.

(٤) المقريزى: الخطط ج ١ ص ٩٠.

الباب الثانى عشر

القضاء والمظالم والحسبة

١ – القضاء

القضاء بمصر قبل عهد بيبرس :

كان منصب القضاء فى مصر فى أيام الفاطميين يسند إلى رجل من الشيعة يُلقب باسم « قاضى القضاة »[١] له حق تعيين قضاة فى جميع المدن المصرية ، ويستمد أحكامه من فقه الشيعة الذى انتشر فى مصر منذ فتحها الفاطميون فى سنة ٣٥٨ هـ ، إذ عمل جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى على نشر مذهب الشيعة فى الديار المصرية ، وأمر بالعمل به فى القضاء والفتيا . ومع هذا فقد كانوا لا يصادرون أهل السنة والجماعة فى إقامة شعائرهم الدينية وفق مذاهبهم ، تأليفاً لهم واكتساباً لودهم . فظهرت فى أيامهم مذاهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد ، ومُنع العمل بمذهب الإمام أبى حنيفة لأنه كان مذهب منافسيهم من العباسيين . وقد أقام الفاطميون إلى جانب قضاتهم الشيعيين قضاة آخرين من الشافعية والمالكية . فإن الوزير أبا علىّ بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى عين فى سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة : اثنين من الشيعة واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إمامياً ويدعى ابن أبى كامل ، والثانى إسماعيليا وهو أبو الفضل محمد بن الأزرق . أما السنيان فكان أحدهما شافعياً ويسمى سلطان بن رشاد ، والآخر مالكياً وهو أبو محمد عبد المولى بن الليثى[٢] .

ولم يكن نفوذ قاضى القضاة أيام الفاطميين مقصوراً على الديار المصرية ، بل كان يمتد أحياناً إلى سائر الولايات التابعة للامبراطورية الفاطمية شرقا وغرباً (مصر وبلاد المغرب والشام وغيرها) . ولم يكن اختصاصه يقتصر على قضايا الأحوال الشخصية ، بل كان يتناول

---

(١) لم يكن لقب قاضى القضاة معروفا فى أيام الخلفاء الراشدين ولا فى عهد الدولة الأموية ، وإنما عرف فى أيام الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد ، أدخله البرامكة عن الفرس . وأول قاضى عباسى نال هذا اللقب هو القاضى أبو يوسف صاحب أبى حنيفة ومؤلف كتاب الخراج . عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ١ ص ١٩١ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

جميع القضايا المدنية والجنائية ، ويقوم بإمامة المسلمين فى الصلاة ويشرف على دار الضرب ، ويتفقد أحوال نوابه فى الأقاليم ويشرف عليهم ويسأل عنهم الثقات . وكان أول من تلقب بلقب قاضى القضاة فى مصر أيام الدولة الفاطمية القاضى على بن النعمان وذلك فى سنة ٣٦٦ هـ . وقد عظم منصب قاضى القضاة فى ذلك العصر حتى ان العزيز بالله أجلس معـه على المنبر يوم العيد القاضى أبا عبد الله محمد بن النعمان (١) .

وظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الفاطمية وتأسست دولة الأيوبيين سنة ٥٦٧ هـ وقد افتتح صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٤ هـ مدرستين لتعليم الفقه إحداهما على مذهب الامام الشافعى والأخرى على مذهب الإمام مالك ، وصرف جميع القضاة الشيعيين وعين بدلهم قضاة من الشافعية السنيين الذين كان يتبع مذهبهم ، وبذلك اقتصر القضاء على مذهب الشافعى ، فقد كان قاضيه صدر الدين بن عبد الملك بن درباس شافعى المذهب ، فلم ينب عنه فى أقاليم مصر إلا من كان شافعى المذهب كذلك . وانتشر مذهب الشافعى فى مصر وما يتبعها من الأقاليم (٢). ولما تولى الملك السلطان نورالدين محمود سلطان حلب وابن عماد الدين زنكى ، وكان حنفياً نشر هذا المذهب ببلاد الشام ، ومنها انتشر فى مصر . أما فقهاء الحنابلة فقد كانوا أقلية فى الديار المصرية بالنسبة إلى غيرهم من الفقهاء . ولم يسمع بذكرهم إلا فى القرن السابع الهجرى وما بعده . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الامام احمد رضى الله عنـه عاش فى القرن الثالث ، ولم يظهر مذهبه خارج العراق إلا فى القرن الرابع ، على حين كان الفاطميون فى مصر يطاردون فقهاء المذاهب غير الشيعية (٣) ..

وكان يتولى منصب القضاء فى عهد الأيوبيين فى القاهرة وسائر أعمال الديار المصرية قاض واحد ، له حق إنابة نواب عنه فى بعض الأقاليم ، وأحياناً كان يعين قاض للقاهرة والوجه البحرى ، وأشهر من تولاه فى ذلك العهد القاضى تاج الدين بن عبد السلام الخراط ، وقاض آخر للفسطاط والوجه القبلى . وممن تولاه القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن السنجارى (٤) .

تنظيم القضاء فى عهد بيبرس :

وبقى الأمر كذلك فى مصر طوال عهد الأيوبيين وشطراً من عهد المماليك حتى أوائل

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٤ — ٣٥ . ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠١ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبـار الدولتين جـ ١ ص ١٩١ . حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٢٣١ .
(٣) حسن ابراهيم حسن : نفس المصدر والصفحة . عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ٦٠ .
(٤) عرنوس : نفس المصدر ص ١٠٤ — ١٠٥ .

أيام السلطان بيبرس . ذلك أن بيبرس لم يشأ أن ينفرد قاضى القضاة الشافعية — وهو تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن بنت الأعز [١] — بوظيفة القضاء فى مصر كلها [٢] ، بل أشرك معه القاضى برهان الدين السنجارى ، فاختص الأول بقضاء القاهرة والوجه البحرى ، والثانى بالنظر فى قضاء الفسطاط والوجه القبلى ، وذلك على نحو ما كان متبعاً فى عهد الأيوبيين. وفى سنة ٦٦٠ هـ عزل برهان الدين السنجارى ، فعاد تاج الدين ابن بنت الأعز إلى تولى القضاء منفرداً بالديار المصرية كلها [٣] .

وقد عرف ابن بنت الأعز بالتشدد فى أحكامه ، فأمره السلطان أن ينيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، للفصل فى بعض القضايا . ولم يكن ذلك معروفاً فى مصر من قبل . ويظهر أن هؤلاء المدرسين كان فيهم من الكفاية والجدارة ما يؤهلهم للاضطلاع بأعباء المناصب القضائية ، مما جعل بيبرس يعهد إليهم بالنظر فى القضايا على اختلاف أنواعها . فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى ، والقاضى شرف الدين عمر السبكى ، والقاضى شمس الدين محمد ابن ابراهيم الحنبلى فى أول ذى القعدة سنة ٦٦٠ هـ وحكموا بين الناس ، كل وفق مذهبه [٤] .

وما زال بيبرس يتعهد النظام القضائى بالاصلاح والتعديل . وكأنه رأى فى تقسيم مناصب القضاة بين قضاة من المذاهب الأربعة ما يضمن ضمان العدل بين الناس والتسهيل عليهم ، فجعل هذا المبدأ رسمياً فى سنة ٦٦٣ هـ ، وعين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة [٥] .

أما السبب المباشر الذى حدا بالسلطان بيبرس إلى تعيين قضاة يمثلون المذاهب الأربعة فيرجع إلى أن الأمير جمال الدين أيدغدى كان يحقـــد على قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، ويحط قدره عند السلطان ، ويرميه بالتشديد فى أحكامه والتوقف فى القضايا التى لا تتفق مع مذهبه . فلما جلس السلطان بيبرس بدار العدل فى ٢٢ ذى الحجة سنة ٦٦٣ هـ ، شكا إليه بنات الملك الناصر الأيوبى صاحب الكرك ودمشق أن ورثة هذا الملك اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات هذا القاضى ذكر ورثته أنها موقوفة ، وعند ذلك أخذ الأمير ايدغدى ينتقص قدر الفقهاء ، فقال السلطان للقاضى

---

(١) اشتهر باسم « ابن بنت الأعز » نسبة إلى جده لأمه ، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام ابن القاضى كمال الدين أبى السعادات احمد بن شكر ، أحد وزراء السلطان الملك العادل أبى بكر ابن أيوب . النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٦٢ . ابن حجر : رفع الإصر ص ١٧٦ ب — ١٨٧ ا.

(٢) اقرأ نص تفويض تاج الدين ابن بنت الأعز قضاء القضاة بالديار المصرية . النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٨ ص ٢ — ٤ .

(٣) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ١٢.

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٤٧٢ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٥ . المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٣٤٤ .

تاج الدين : « يا قاضى ! هكذا تكون القضاة ! » فقال تاج الدين : « يا مولانا ! كل شاة معلقه بعرقوبها » . قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : « فاذا لم يكن مع الورثة شىء ؟ » قال القاضى : « يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن » . فغضب السلطان من هذا الجواب . ولم تتم المناقشة فى هذا الموضوع حتى تقدم رسول أمير المدينه وقال : « يا مولانا السلطان ! سألت هذا القاضى أن يسلم إلىّ مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده ، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل » . فسأل السلطان القاضى عما قاله الرسول ، فقال : « نعم » . قال السلطان : « أنا أمرته بذلك ، فكيف رددتَ أمرى ؟ » قال : « يا مولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فان كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه » . فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى ؟ » قال : « نعم » . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن تختاره » ثم تقدم بعض الأمراء ، وقال : « شهدتُ عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته » ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك ، فقال : « ما شهد أحد عندى حتى أثبته » فقال الأمير : « إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ » قال السلطان : « لم لا سمعت قوله ؟ » فقال : « لا حاجة فى ذكر ذلك » . فقال الأمير أيدغدى : « يا قاضى ! مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضياً »[1] .

ولقد أعجب السلطان الظاهر بيبرس برأى الأمير أيدغدى ، ولم يمض أسبوع حتى كان الرأى قد استقر على أن يكون منصب قاضى القضاة لكل من المذاهب الأربعة . فى ١٩ ذى الحجة سنة ٦٦٣ ﻫ أمر السلطان بيبرس أن يكون تاج الدين ابن بنت الأعز على قضاء الشافعية وعهد إليه بالنظر فى أموال اليتامى[2] والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال ، وأن يكون الشيخ شهاب الدين أبا حفص عمر بن عبد الله بن صالح على قضاء المالكية ، والقاضى بدر الدين بن سليمان على قضاء الحنفية ، والقاضى شمس الدين محمد بن عماد الدين ابراهيم القدسى على قضاء الحنابلة ، وجعل السلطان لكل من هؤلاء الرؤساء حق تعيين نواب عنهم فى سائر أقاليم الديار المصرية[3] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ﺟ ٤ ص ٣٥ — ٣٦ ؛ المقريزى : السلوك ﺟ ١ ص ٥٣٨ — ٥٣٩ .

(٢) كانت أموال اليتامى القصر وأموال الغائبين توضع فى صندوق فى عهدة قاضى القضاة الشافعى . وكان ذلك الصندوق يعرف باسم « المُودَع » . ولقد كان مودع الحكم فى زمن المقريزى فندق مسرور الكبير الواقع على يسرة السالك من سوق باب الزهومة إلى الحريريين بالقاهرة . المقريزى : الخطط ﺟ ٢ ص ٩٢ . كتاب السلوك ﺟ ١ ص ٨٦٤ . اقرأ أيضا نص تقليد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز النظر فى أموال الأيتام والأوقاف بمفرده بالديار المصرية سنة ٦٦٣ ﻫ فى النويرى : نهاية الأرب ﺟ ٢٨ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) النويرى : نفس المصدر والجزء ص ٣٥ — ٣٦ . القلقشندى : نفس المصدر ﺟ ٤ ص ٣٦ .

وقد صار منصب قاضى القضاة بين أربعة بالشام كما حدث فى مصر . وكان القاضى الشافعى هو الذى يولى القضاة على البلاد الشامية كما كان المتبع فى مصر. فقد كان فى كل نيابة من النيابات الست التى أشرنا إليها آنفاً أربعة قضاة من المذاهب الأربعة أعظمهم الشافعى ، ويفصل فى المسائل المتعلقة بالميراث والأوقاف ، ويليه فى الرتبة الحنفى ، ثم المالكى ، ثم الحنبلى . وكان قضاء العسكر موجوداً كذلك فى بلاد الشام . فقد كان بها قاضيا عسكر أحدهما شافعى والآخر حنفى ، وبذلك لم يوجد قضاة عسكر من المذهب المالكى أو الحنبلى ، وكان يصدر بتعيينهما مرسوم سلطانى . ووجد نظام الإفتاء فى نيابات الشام ، حيث فى كل منها مفتيان أحدهما شافعى والآخر حنفى ، كما هو متبع فى قضاء العسكر ، ويعينهما نائب السلطنة فى النيابة التابع لها المفتيان[1] .

اختصاصات القضاة :

ولم يكن عمل قاضى القضاة فى ذلك الوقت مقصوراً على النظر فى قضايا الأحوال الشخصية بل كان يتناول أيضاً النظر فى جميع القضايا المدنية والجنائية وإمامة المسلمين فى الصلاة والإشراف على دار الضرب وعلى نوابه فى الأقاليم[2] .

وما لبث اختصاص قاضى القضاة وقضاة الأقاليم أن زاد واتسع نفوذهم فتناول النظر فى دعاوى إثبات الحقوق والأموال التى ليس لها وارث، كما تناول النظر فى أوصياء اليتامى وأموال المحجور عليهم من المجانين والمفلسين وأهل السفه وفى وصايا المسلمين وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهن وتعرف أحوال الشهود والأمناء والنواب ، وكان القضاة ينظرون فى الأوقاف ويعملون على تنمية مواردها واستلام ريعها وصرفه فى وجوهه . وعهد إلى القضاة فى تسلم أموال المواريث المتنازع عليها وأموال من يموتون من الغرباء ويحفظونها وديعة أو أمانة لديهم حتى يحضر ورثتهم[3] .

وكان القاضى فى مدن الأقاليم يعتبر نائباً لقاضى القضاة فى القاهرة ، ومما يدل على ذلك قول عز الدين بن جماعة : « ان الخليفة المستكفى المتوفى بمدينة قوص أوصى بالخلافة من بعده لولده أحمد وأشهد عليه أربعين عدلا بمدينة قوص وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على نائبى بمدينة قوص »[4].

وقد مرّ بنا أن الحاجب أتيح له أن يتدخل فى اختصاصات القاضى وأن ينظر فى خصومات

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٩٢ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ج ٩ ص ٣٤ — ٣٥ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠١ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٩٢ ؛ عرنوس : تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١١٢ — ١١٣ و ١١٨ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٣ .

المدنيين ، فضلا عن خصومات المماليك التى كانت من اختصاصه بحكم وظيفته . فقد كان مكلفاً فى بداية العصر الملوكى بحلّ الخلاف الذى يقوم بين الأمراء والجند ، وفى عصر أبنائه أصبح رئيس المحكمة الإدارية فى الجيش . وكان السلطان يستشيره فى الحالات الخطيرة الشأن . والظاهر أن نفوذه امتد تدريجاً من القضاء الحربى إلى القضاء المدنى فتدخل فى اختصاص القاضى . وقد شكا المتقاضون من ذلك فى البداية ، ولكنهم لم يلبثوا أن اعتادوه بل أصبحوا أحياناً يفضلون قضاء الحاجب على قضاء القاضى[١] .

وكان القضاة يقومون أحياناً بمهام أخرى زيادة على ما كانوا يضطلعون به من شئون القضاء . فقد كان القاضى تقى الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعز يتولى الوزارة مضافة إلى القضاء (سنة ٦٨٧ هـ) فى عهد السلطان قلاوون[٢] . ولما صرف عن الوزارة فى عهد السلطان خليل بن قلاوون ، بقى فى يده سبعة عشر منصباً ، من أهمها : قضاء القضاة بالديار المصرية كلها ، وخطابة الجامع الأزهر ، ونظر الخزانة ، ونظر الأحباس ، ومشيخة الشيوخ ، ونظر التركة الظاهرية بيبرس ، وأولاده وأوقافه وأملاكه ، والتدريس فى عدة مدارس[٣] .

وكانت جلسات المحاكم فى دولة المماليك تنعقد فى المساجد عادة أول النهار وفى آخره . وإذا أراد القاضى مشاورة أعضاء المحكمة فى الأحكام انصرف الحاضرون ، وكانت الجلسات تنعقد أحياناً فى دور القضاة . وكان للقضاة بعض مميزات فى لباسهم عند الجلوس للنظر فى القضايا[٤] .

وإذا جلس القاضى للفصل فى الخصومات رتّب القضايا على حسب حضور الخصوم ، فمن حضر أولا نظر قضيته ، ثم نظر قضية من يليه وهكذا[٥] . ولسنا ندرى هل كان القاضى يدرس القضايا قبل النظر فيها ثم يحدد لنظرها يوماً معيناً يحضر فيه الخصوم ، أم كان أول عهده بكل منها حين يقف الخصوم بين يديه .

وقد جرت العادة أن ينظر القضاة فى القضايا المتعلقة بالغرباء أولا ، أما إذا كثُر عددهم فقد كانت تنظر قضاياهم بحسب ترتيب حضور أصحابها . وكان الرجال يجلسون إلى ناحية والنساء إلى ناحية أخرى . ولم يكن هناك تمييز أو مفاضلة بين المتقاضين فى المعاملة مهما علا مقامهم ، بل كانوا يجلسون فى مجلس واحد على بعد ذراعين من القاضى الذى كان يقوم أعوانه بين يديه بتنظيم مجلس القضاء[٦] . وقد عنى سلاطين المماليك عناية خاصة بمعاملة المتقاضين معاملة تنطوى على المساواة حتى انهم كانوا ينصون على ذلك فى تقاليد القضاة .

(١) المقريزى : الخطط ﺟ ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٢ ؛ القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٢٧ .
(٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٤٩ أ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ﺟ ٢ ص ١٠١ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب (مخطوط) ﺟ ٢٩ ص ٢٩٩ أ ؛ المقريزى : السلوك ﺟ ١ ص ٧٧٢ — ٧٧٣ . اقرأ نص « وصية قاض » فى العمرى : التعريف ص ١١٦ — ١٢٣ .
(٤) راجع صفحة ٣٥٩,٣٦٠ من هذا الكتاب .
(٥) عرنوس : تاريخ القضاة ص ١٣٦ .
(٦) عرنوس : نفس المصدر ص ١٣٧ — ١٣٩ .

مساعدو القاضي :

وإذا جلس القاضي للحكم ساعده على تنظيم قاعة الجلسة عدد من الموظفين ، نذكر منهم : الجلواز وحاجب القاضي والأعوان والعدول والأمناء والكاتب والترجمان . فالجِلْواز[1] يقوم بحفظ النظام وترتيب الخصوم بحسب حضورهم ومنعهم من التقدم إلى القاضي في غير دورهم ويلزمهم مراعاة الآداب في مجلس القضاء ، وكان يحمل بيده سوطاً يقرع به كل من يحاول الخروج على النظام . وكانت الأمانة أهم صفاته حتى لا يجد الخصوم سبيلا إلى التأثير فيه عن طريق الرشوة[2] .

ومن أعوان القاضي « حاجب القاضي » ومهمته حراسة باب القاضي وطلب الإذن منه للزائرين سواء أكانوا من أرباب القضايا أم من غيرهم[3] .

وكان للقاضي موظفون يطلق عليهم اسم « الأعوان » . ومهمتهم إحضار الخصوم إلى المحكمة والقيام بين يدي القاضي عند نظره في القضايا احتراماً لمركزه . ويراعى في اختيار أعوان القاضي أن يكونوا من أهل الصلاح والتقوى حتى يعاملوا الناس بالرفق واللين في غير ضعف ولا تقصير[4] .

ومن أعوان القاضي أيضاً « العُدُول » ويقومون بالشهادة ويراجعون السجلات والعقود للوقوف على مبلغ دقتها ومطابقتها للشرع وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضي لأن القاضي إنما يحكم بالبينة التي تحضر أمامه وليس له أن يلزم المدعي إحضار من يزكي شهوده . ويشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون عادلا نزيهاً ملماً بأحكام الفقه . أما القاضي فمن واجبه أن يتصفح أعمال هؤلاء العدول ويتحقق من حسن سيرتهم ليطمئن إلى عدالتهم وخصوصاً بعد أن اتسعت رقعة الدولة المملوكية . ولم يجد القضاة بداً من الاعتماد على شهادة العدول . وهذه الوظيفة ليس لها وجود الآن في المحاكم المصرية[5] .

ويقوم « الأمناء » بحفظ أموال اليتامى والغائبين . وكانوا يُبالغون في القيام بهذه الوظيفة فيرعون حق اليتامى ويحفظون أموالهم ويدفعون نفقاتهم إلى أمهاتهم ، ويحولون دون اقتراض القضاة أو غيرهم شيئاً من هذه الأموال . ويقول تاج الدين السبكي : « ومن أحوج أم اليتيم أن ترددت إلى بابه لأخذ نفقة اليتيم من ماله فقد ظلم ظلماً عظيما »[6] . وكان الدافع إلى

(١) الجلواز ــ « جمعه جلاوزه لجلوزتهم وهي شدة سعيهم بين يدي الأمير وهو بمعنى الشرطي » . وكان يطلق عليه كذلك أسماء أخرى منها صاحب المجلس والعون محيط المحيط .

(٢) عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٣) تاج الدين السبكي : معيد النعم ص ٨٦ .

(٤) عرنوس : نفس المصدر ص ١٢٩ .

(٥) عرنوس : نفس المصدر ص ١٣١ — ١٣٢ و ١٣٤ .

(٦) معيد النعم ص ٨٧ .

استحداث نظام « الأمناء » فى المحاكم المصرية أن أيدى بعض القضاة امتدت إلى مال اليتامى ، فقد روى ابن بطوطة أن شرف الدين عبد الرحيم قاضى أسيوط فى عهد السلطان الناصر محمد كان يُلقب « حاصل ما تمّ » ، لأنه كان إذا أتاه أحد اليتامى يطلب شيئاً من استحقاقه قال له « حاصل ما تمّ » أى لم يبق من المال المتحصل باسمه شىء « فلزمه ذلك اللقب »[١]. ولا شك أن هذه الحوادث ونظائرها قد تكررت بما دعا إلى التفكير فى منع القضاة من الإشراف على أموال اليتامى ومنح « الأمناء » وحدهم السلطة الكافية المحافظة على هذه الأموال .

ومن أعوان القاضى « كاتب المجلس » ، ويقوم بكتابة الدعاوى ويجب أن يتوافر فى هذا الموظف شروط منها : العلم بالفقه الاسلامى والعفة والصلاح والأمانة حتى لا يحذف أو يختصر فى كلام الخصوم[٢] . ويَشترط فيه القاضى تاج الدين السبكى معرفته « بمدلولات الألفاظ العرفية واللغوية وأن يكون حسن الفهم عن اللافظين من العوام الواقفين والمقرّين وغيرهم وأن ينبه كل لافظ على ما لعله يشك فى إرادته له »[٣] .

كما كان يعاون القاضى أيضاً « تُرجُمان » ينقل إليه أقوال المتقاضين الذين لا يتكلمون العربية ، كما ينقل إليهم أقوال القاضى وأسئلته . ويشترط فيه أن يكون مسلماً أميناً لا يحرف الكلم عن مواضعه بل ينقله بتحفظ ودقة[٤].

السلطات القضائية الأخرى :

غير أن سلطة هؤلاء القضاة الأربعة ونوابهم كانت مقصورة على المدنيين[٥] ، أما الجيش المملوكى فكان له قضاة يختصون بشئون العسكر ، وكان الواحد منهم يُعرف باسم « قاضى العسكر »[٦]. وكان عددهم ثلاثة : أحدهم شافعى ، والثانى حنفى ، والثالث مالكى. وأحياناً كان يوجد قاض حنبلى ، ولكن الغالب خلو منصب قاضى العسكر من الحنبلى : إما لعدم وجود رجل من الحنابلة يصلح لهذا المنصب ، وإما لعدم وجود حنابلة فى الجيش المملوكى . ولا يبعد أنه أضيف ما عساه يوجد من قضايا الجنود الحنابلة إلى القاضى الحنبلى العام بالديار المصرية .

وكان هؤلاء القضاة يحضرون مع القضاة الأربعة بدار العدل ، ولكن مجلسهم كان دون

---

(١) تحفة النظار ج ١ ص ٢٨ .

(٢) عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٣٩ .

(٣) معيد النعم ص ٢٥ .

(٤) عرنوس : نفس المصدر والصفحة .

(٥) استمر نظام العمل بقضاة المذاهب الأربعة حتى سنة ٩٢٧ هـ أى بعد الفتح العثمانى لمصر ، وانحصر منذ ذلك التاريخ فى مذهب أبى حنيفة . وما زال هذا المذهب حتى الآن هو المذهب الرسمى فى القضاء الشرعى .

(٦) اقرأ نص وصية قاضى العسكر فى العمرى : التعريف ص ١٢٣ — ١٢٤ .

هؤلاء القضاة . وكانوا يصحبون السلطان فى أسفاره[١] . ولم يكن لقضاة العسكر ولاية على غير العسكر ، ومن يتصل بهم من الصناع والعمال وغيرهم ، فقد كانوا يفصلون فى القضايا الخاصة بالعسكر أو التى تقوم بين العسكر والمدنيين . فاذا ما أراد العسكرى أن يتحاكم إلى قاضى العسكر جاز ذلك على الاختلاف بين أبى يوسف ومحمد بن الحسن صاحبى أبى حنيفة فى أن العبرة بمحل المدعى أم المدعى عليه عند تعدد القضاة[٢].

ويلى قضاة العسكر فى الأهمية مفتو دار العدل ، وهم أربعة ، يختار كل واحد منهم من مذهب[٣]. ويختلف اختصاص هؤلاء عن اختصاص القضاة ، فانهم لا يفصلون فى خصومات المدنيين والعسكريين ، وانما يبينون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل ، كل على حسب مذهبه . وبهم يستنير الطريق أمام القضاة عند نظرهم القضايا ، كما يتبين أفراد الشعب أحكام دينهم ويعرفون ما أشكل عليهم من مسائله[٤] . ولسنا نعرف هل كان مفتو دار العدل يجلسون مع القاضى عند النظر فى القضايا أو كان لهم مقر خاص يرسل إليه القاضى ما يشكل عليه من المسائل طالباً رأيهم فيها . ولكننا نرجح الوجه الأخير .

وبجانب هذه السلطة القضائية الممثلة فى قضاة القاهرة والأقاليم وقضاة العسكر توجد سلطتان أخريان للمحتسب ووالى القاهرة . فالمحتسب ينظر فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام ، كما كان يقضى فى الجنايات التى تستدعى السرعة فى الفصل فيها . فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وأما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة[٥]، ومراعاة أحكام الشرع . فهو يحاكم كل من يثبت عليه أنه غش فى المأكولات بأن أوهم الناس أن لحم الكلاب أو لحم الخنازير لحم ضأن ، ومن أدخل فى المشروبات خمراً . وقد أجمل قاضى القضاة تاج الدين السبكى المسائل التى يشتد فيها المحتسب ولا يتهاون ، فقال : « وعليه النظر فى القوت ، وكشف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم إليه من ذلك ، والاحتراز فى المشروب فربما أوهم

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ . انظر أيضا Demombynes : La Syrie. p. LXXVII.

(٢) بقيت وظيفة « قضاة العسكر » فى السلطنة المصرية إلى أن دخلت مصر تحت الحكم العثمانى ، فأصبح قاضى العسكر هو القاضى التركى الذى جاء مع الجيش الفاتح . عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٠٠

(٣) كان مذهب مالك أكثر المذاهب الاسلامية انتشاراً بمصر فى فجر الاسلام ، وكاد يصبح المذهب السائد فى مصر ، حتى قدم الامام الشافعى إلى الفسطاط سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) فالتف حول الشافعى أتباع من المصريين وبدأ مذهبه فى الانتشار فيها . أما مذهب أبى حنيفة فلم يصب بعض الانتشار فى مصر إلا قبيل الدولة الطولونية .

راجع كتاب « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة » لأحمد تيمور باشا (المطبعة السلفية) .

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٦ .

(٥) راجع كتاب النظم الاسلامية ص ٣٠٤ للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن.

الجزار أنه فُقّـاعى أو أقسماوى ، والمأكول فطالما أوهم الطباخ أن لحم الكلاب لحم ضأن ، فليتق الله ربه ولا يكون سبباً فى إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث »[١].
أما والى القاهرة فينفذ الأحكام ، ويقيم الحدود ، ويتعقب المفسدين ومثيرى الفتن ومدمنى الخمر ، ويحاكم كلا من هؤلاء على حسب جريمته .

وقد امتد مبدأ توزيع منصب القضاء إلى الاسكندرية . فعين السلطان لها ثلاثة قضاة : أحدهم مالـكى ويختص بالنظر فى الأوقاف وأموال الأيتام [٢]، وقاضى شافعى يفصل فيما يعرض عليه من القضايا المدنيـة والجنائية [٣]، والقاضى الثالث حنفى ولم يعرف إلا فى دولة السلطان شعبان أى فى أواخر القرن الثامن الهجرى وكان ينظر فيما ينظر فيه القاضى الشافعى [٤]. وقد ذكر ابن بطوطة أن من أشهر قضاة الاسكندرية حين زيارته لها سنة ٧٢٩هـ القاضى عماد الدين الـكندى الذى وصفه بأنه « من أئمة علم اللسان »[٥]. وكان يعين أيضاً قضاة فى كل من ثغرى دمياط ورشيد . وكان لهم من الاختصاصات ما لقضاة الأقاليم . ولا يخفى أن قضاة الاسكندرية كانوا أهم القضاة ، لما لهذا الثغر من أهمية .

أما القضاء للطوائف غير الاسلامية فى مصر فى دولة المماليك فكان موكولا إلى رجال من طوائفهم يفصلون فى أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق ووقف ونحو ذلك على حسب شرائعهم ونحلهم . ولا تحكم بينهم المحاكم المصرية إلا إذا طلبوا التحاكم إليها والقضاء طُبق مبادئها .

ملابس القضاة :

وكانت الطرحات من مميزات لباس قضاة القضاة فى عصر المماليك بمصر . وكانت الطرحة والعمامة والشاش تصنع كلها من قماش أسود . وفى القلقشندى وصف دقيق لأزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء فى ذلك العصر وهاك نصه : « ويختلف ذلك (أى لباس رجال الدين) باختلاف مراتبهم ، فالقضاة والعلماء منهم يلبسون العمائم من الشاشات

---

(١) معيد النعم ص ٩٢ .

(٢) اقرأ نص تقليد وجيه الدين محمد بن عبد المعطى الاسكندرى المـالـكى منصب القضاء بثغر الاسكندرية . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٤٠٨ — ٤١١ .

(٣) اقرأ نص تقليد علم الدين الأخنائى الشافعى منصب القضاء بثغر الاسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤١٢ — ٤١٤ .

(٤) الخالدى : المقصد ص ١٤٢ .

(٥) تحفة النظار جـ ١ ص ١٠ .

الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه[١] إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقاً متسع الأكمام طويلها ، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصاً بالشافعى . ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه ، من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار . وليس فيهم من يلبس الحرير ، ولا ماغلب فيه الحرير ، وإن كان شتاء كان الفوقانى من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطى ، ولا يلبسون الملون إلا فى بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف فى الطرقات . ويلبسون الخفاف الأديم الطائفى بغير مهاميز »[٢].

وذكر ابن بطوطة فيما شاهده من أزياء القضاة فى مصر أن قاضى الاسكندرية عماد الدين الكندى كان يلبس عمامة تخالف غيرها من العمائم المعتاد لبسها إذ ذاك ، وقال : « لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً فى صدر محراب . وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب»[٣] .

وكان راتب القاضى فى الشهر يبلغ خمسين ديناراً عدا ما كانوا يحصلون عليه من الأوقاف التى كانوا يتولون إدارتها ، وما يجرى عليهم من الغلال والشعير والخبز واللحم والكسا [٤] .

بعض مشاهير القضاة فى العصر المملوكى :

وكثيراً ما كان القضاة فى دولة المماليك البحرية يصطدم بالسلطات التنفيذية والادارية ، بل كثيراً ما كانوا يجدون أنفسهم فى مواقف مخالفة لرغبات السلاطين . ولكنهم كانوا يقفون مواقف مشرفة ويصرون على تنفيذ الحق ، ولو أدى ذلك إلى معارضة السلاطين والمقربين إليهم من الأمراء والوزراء وغيرهم من كبار الموظفين . فكانوا بذلك مثلا أعلى فى نقاء السريرة وطهارة الذمة . وبذلك لم يخل هذا العصر من قضاة ضربوا أحسن الأمثال فى حسن السريرة والتفقه فى الدين والمحافظة على هيبة ذلك المنصب الخطير وعدم التفرقة بين الناس أو التأثر فى أحكامهم بوساطة ذوى الجاه والنفوذ .

---

(١) القربوس : حلقة عنان الدابة . لسان العرب و Dozy : Supp. Dict. Ar. .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤١ — ٤٢ . انظر كذلك
Demombynes : La Syrie, p. XCIII.
راجع R. Dozy : Dictionnaire Detaillé des Noms des Vêtements chez les Arabes
لتفسير أسماء الملابس الواردة فى هذا النص : طيلسان ص ٢٧٨ — ٢٨٠ ودلق ص ١٨٣ — ١٨٥ وفرجية ص ٣٢٧ — ٣٣٤ .

(٣) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ١ ص ١٠ .

(٤) المقريزى : الخطط . جـ ٢ ص ٢٢٤ .

وأحسن مثل للتدليل على صحة ما نقول القاضى عبد العزيز المعروف بعز الدين بن عبد السلام[1] (سلطان العلماء) . فقد روى السيوطى أنه فى سنة ٦٣٩هـ «ولى الشيخ عز الدين بن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلى وكان قدم فى هذه السنة من دمشق بسبب أن سلطانها الصالح اسماعيل استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صيدا وقلعة الثقيف . فأنكر عليه الشيخ عز الدين وترك له الدعاء فى الخطبة وساعده فى ذلك الشيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكى ، فغضب السلطان منهما ، فخرجا إلى الديار المصرية ، فأرسل السلطان إلى الشيخ عز الدين وهو فى الطريق قاصداً يتلطف به فى العود إلى دمشق . فاجتمع به ولاينه وقال له : ما نريد منك شيئاً إلا أن تنكسر للسلطان وتقبّل يده لا غير . فقال الشيخ له : يا مسكين ! ما أرضاه يقبّل يدى فضلا عن أقبّل يده . يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد ، والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكم »[2] . وان هذه الحادثة لتدل على قوة نفس الشيخ عز الدين وأنه لا يصانع أحداً فى الحق ولو كان أميراً أو سلطاناً .

ومن قضاة مصر ذوى الشخصية البارزة والمكانة الممتازة فى دولة المماليك البحرية تقى الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعز . تولى هذا القاضى القضاء فى الوجه القبلى فى ربيع الثانى سنة ٦٨٥هـ فى عهد السلطان قلاوون ، وأطلق عليه اسم « شيخ الشيوخ » تعظيما لقدره ، ونُقل إلى قضاء القاهرة بعد قليل ، وولى الوزارة مضافة إلى القضاء سنة ٦٨٧هـ . ولكنه ما لبث أن صرف عن الوزارة وحل محله شمس الدين بن السلعوس ، وكان يكره القاضى تقىّ الدين ، فعزله عن القضاء ، ولكنه أعيد إلى منصبه بعد قليل . وظل يباشر شئون القضاء حتى طلب منه الوزير ابن السلعوس أن يعين نجم الدين بن عطايا فى أحد الوظائف ، وكان هذا الشخص من أتباع الوزير ، فرفض القاضى تقى الدين طلبه ، فأسرَّها له ابن السلعوس ، فلما مات السلطان قلاوون وتولى ابنه خليل سلطنة مصر ، صرف تقى الدين عن منصب القضاء وجرده من سائر ما بيده من المناصب . ولم يكتف هذا الوزير بذلك ، بل حرَّض عليه بعض الناس بالشهادة ضده « بأمور منكرة حتى ان جملتها كان خمسين قادحاً »[3] . وما زال ابن السعلوس يتعقب تقى الدين حتى تقررت محاكمته وسماع البيّنة عليه وتنفيذ حكم الشرع فيه . فعقد له مجلساً وأدلت الشهود بأقوالها ضده . وبعد ذلك قام القاضى تقى الدين وخطب الحاضرين فى عبارة مؤثرة دفاعاً عن نفسه وتبرئة لشخصه مما رماه به ابن السَّلعُوس ، فقال بعد أن ذكر اسمه وأوضح نسبه : « ليس فىَّ نسب بطرس ولا جرجس ، وإذا ادعوا أنى أشرب الخمر أو

---

(١) انظر السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ٨٠ — ٨١. حيث تجد ترجمة القاضى عز الدين بن عبد السلام .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٧ — ٩٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٧٢ ؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ٦٤ .

أزنى ، بما يقبل من أجل شهوة النفس ، ولكن شدة الزنار ، والتكلم بالكفر من أين وإلى أين ومن الذى لى فيه من اللذة »[1]. عند ذلك بكى هذا القاضى وابتهل إلى الله تعالى أن يتولى عقاب من نسب اليه هذه التهم زورا وبهتاناً ، وبكى الأمراء الحاضرون ودخلوا على السلطان وقالوا له : « إن لوائح التعصب ظهرت ، وأن القاضى برىء من ذلك » .

وهنا اختلف المؤرخون فيما حل بهذا القاضى بعد ذلك . فأورد ابن حجر العسقلانى أن السلطان خليل أمر بإطلاق سراحه مع عزله عن منصبه[2] ، ولم يشر إلى ما حل به من العقوبات التى ذكرها المقريزى ، فقد قال : « إن السلطان رسم أن يركب حماراً ويشهّر .[3] فقبض عليه الوزير ونكل به ، ورسّم عليه وطالبه بمال كثير ، وشنع فى إهنته وأراد ضربه ، فحماه الله منه »[4] .

إلا أن الأمر لم يقتصر على ذلك ، فقد شرح المقريزى ما نال هذا القاضى من الاهانات البالغة على أثر دسائس الوزير ابن السلعوس والتهم الشائنة التى رماه بها . فقال : « وما زال ابن بنت الأعز فى الإحنة إلى أن أخذ يوماً بالترسيم إلى القلعة وهو ماش والأعوان تحتاطه ، فرأى ثلاثة من خواص الأمراء نازلين من القلعة ، فقال لهم : يا أمراء ! أما تنظرون فى حالى وما أنا فيه من الاحنة مع هؤلاء الرسل ؟ فساءهم ذلك وجردوا دبابيسهم[5] يريدون ضرب الرسل ، وقالوا : قاضى القضاة ماش ، وأنتم ركاب ؟ فقالوا : الصاحب أمرنا بهذا ، ما لنا ذنب ولا نريد هذا الفعل ؛ فشق عليهم ما رأوا وعادوا إلى السلطان ، وألقوا سيوفهم وقالوا : يا خوند ! قد بلغ الأمر من حال قاضى القضاة أن يمشى والرسل ركاب ، وذكروا ما هو فيه من الاهنة »[6] . وتكلموا فى ذلك أيضاً مع الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة فتوسط له عند السلطان حتى أمر بالافراج عنه .

وعقب ذلك أقام ابن بنت الأعز بزاوية الشيخ نصر المنجبى (خارج باب النصر) حتى قام بسداد ما فرض عليه من المال الذى بلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار ، فدفعه بعد أن « باع ورهن واقترض »[7]. وقد أدى هذا القاضى فريضة الحج ، وهناك أنشد قبالة المنبر قصيدة طويلة شكا فيها مما أصابه من الاهانات المتتابعة ، ودعا الله تعالى أن ينتقم ممن أهانوه

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٧٢ .

(٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٤٩ ا .

(٣) راجع صفحة ٣٧٦ من الكتاب حيث تجد وصفاً لطريقة التشهير عند المماليك .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٥) ورد ذكر لفظ « الدبابيس » فى أبى المحاسن (النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٧٣) فذكر أن سلار وبيبرس أمرا باستعمال الدبابيس فى تفرقة الجموع المحتشدة أمام القلعة لحماية الناصر محمد سنة ٧٠٨ هـ (١٠٣٧ م) . والدبوس هراوة مدملكة الرأس .

(٦) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٧٧٢ — ٧٧٣ .

(٧) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٧٧٢—٧٧٣ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٠٠ ،

ودسوا له ، فما لبث أن بلغه خبر مقتل السلطان خليل بن قلاوون ووزيره ابن السلعوس ، فأعيد إلى منصبه سنة ٦٩٣ هـ ، وظل يُباشر القضاء حتى توفى فى ١٧ رجب سنة ٦٩٥ هـ عن إحدى وخمسين سنة[١] .

ومن أبرز قضاة مصر فى دولة المماليك البحرية القاضى تَقِى الدين محمد بن دَقِيق العيد المولود فى ١٥ شعبان سنة ٦٢٥ هـ . وقد ولى القضاء سنة ٦٩٥ هـ وسنّه سبعون سنة بعد وفاة القاضى تقى الدين ابن بنت الأعز . وهو مثال للعدل والانصاف وطهارة الذمة ونصرة الحق . يدل على ذلك ما رواه المقريزى من أن مَنْكُوتَمُر نائب السلطنة فى عهد السلطان لاچين وصاحب الحظوة الكبرى لديه بعث إلى ابن دقيق العيد يبلغه أن تاجراً قد مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد أن يثبت استحقاقه الارث بمجرد إبلاغه عنه . فلم يوافق القضاة على ذلك ، واستمرت رسل منكوتمر تفد على دار القاضى للتأثير فيه دون جدوى ، وأخيراً بعث إليه منكوتمر الحاجب كُرْت . ويقول المقريزى : «فلما دخل كرت وقف بعد ما سَلَّم ، فقام له القاضى نصف قومة وردّ عليه السلام وأجلسه . وأخذ كرت يتلطف به فى إثبات أخُوة التاجر بشهادة منكوتمر ، فقال له قاضى القضاة : وماذا يَنْبَنى على شهادة منكوتمر ؟ فقال له : يا سيدى ! ما هو عندكم عدل ؟ فقال : سبحان الله . وكرر ذلك ثلاث مرات ثم قال : والله متى لم تقم عندى بيّنة شرعية ثبتت عندى ، وإلا فلا حكمتُ له بشىء باسم الله . فقام كرت وهو يقول : والله هذا هو الاسلام »[٢] .

ولما عاد كرت إلى منكوتمر ، أبلغه ما قاله ابن دقيق العيد ، وصوّب له الاجتماع به حين حضوره إلى دار العدل . فلما جاء ميعاد اجتماع القضاة بدار العدل ، مر هذا القاضى عليها دون أن يدخلها ، فأسرع اليه الحجاب واحداً بعد واحد ينادونه ويقولون له : « يا سيدى ! الأمير ولدك يختار الاجتماع بك لخدمتك » فلم يلتفت إلى أحد منهم ، ولما ألحوا عليه قال لهم : « قولوا له ما وجبت طاعتك علىّ » . والتفت إلى مَنْ معه من القضاة ، وقال : « أشهدكم إنى عزلتُ نفسى باسم الله ، قولوا له يولىّ غيرى » . وعاد إلى داره[٣] .

وإذا كان منكوتمر نائب السلطنة قد حاول التأثير فى ذمة القاضى على هذا النحو ، فان السلطان لاچين الذى كان معروفاً بالتدين وإقامة الصلوات ومداومة الحضور إلى دار العدل للفصل فى الظلامات ، لم يقر نائبه على ذلك ، وبعث إلى قاضى القضاة يستدعيه للاعتذار إليه عما حدث . ومما يرويه لنا المقريزى عن استقبال السلطان لاچين لهذا القاضى نتبين مدى تقشف هذا القاضى وزهده واعتداده بنفسه وعظم مكانته لدى السلطان وتقديره لكفايته

---

(١) ابن حجر : رفع الاصر ص ١٤٩ أ — ١٥٠ ب — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٢٣ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٨ .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٩ .

الدينية والقضائية : « وبعث إلى القاضى يعتذر إليه ويستدعيه ، فأبى واعتذر عن طلوعه ، فبعث إليه الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود والطواشى مرشداً . فما زالا به حتى صعدا به إلى القلعة . فقام إليه وتلقّاه ، وعزم عليه أن يجلس فى مرتبته فبسط منديله — وكان خرقة كتان خَلَقة — فوق الحرير قبل أن يجلس ، كراهةَ أن ينظر إليه ، ولم يجلس عليه[1] . وما برح السلطان يتلطّف به حتى قبل الولاية[2]. ثم قال له : يا سيدى ! هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه . ادع له وكان منكوتمر ممن حضر ، فنظر إليه قاضى القضاة ساعة ، وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : منكوتمر لايجىء منه شىء وكررها ثلاث مرات ، وقام[3]. فأخذ السلطان الخرقة التى وضعها على المرتبة تبركا بها ، وتفرقها الأمراء قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتها»[4].

ومما يدل على عظم مكانة هذا القاضى العادل وهيبته فى النفوس ، تلك الحادثة التى يرويها لنا السيوطى ، فقد ذكر أن ابن دقيق العيد حضر مرة عند السلطان لاچين ، فقام إليه السلطان وقبّل يده ، فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدى الله تعالى »[5] .

وقد أشاد النويرى بفضل هذا القاضى الشهير عند توليته منصب قاضى القضاة سنة ٦٩٥ ﻫ فقد كان يستقصى أخبار نوابه بجميع الأقاليم ، كما كان يذكرهم بكتبه المشتملة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والاهمال[6] . ومن أهم الكتب كتابه إلى المخلص البهنسى قاضى أخميم سنة ٦٩٧ ﻫ [7] وفى سنة ٧٠٢ ﻫ توفى القاضى ابن دقيق العيد وهو فى منصب قاضى القضاة[8] .

---

(١) ذكر السيوطى (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٠١) صراحة أن هذا القاضى « امتنع من لبس الخلعة (من الحرير) وأمر بتغييرها إلى الصوف فاستمرت الى الآن » .

(٢) ذكر السيوطى (نفس المصدر والجزء ص ١٠١) ان القاضى ابن دقيق العيد قبل منصب قضاء القضاة « بعد امتناع شديد حتى قالوا له إن لم يفعل ولوا فلانا أو فلانا لرجلين لايصلحان للقضاء فرأى أن القبول واجب عليه». وهذا يبين لنا عظم مكانة هذا القاضى حتى ألحوا عليه أولا وآخراً فى قبول منصب قضاء القضاة والاستمرار فيه .

(٣) كان منكوتمر مكروها لدى أمراء مصر حتى انهم أخذوا على السلطان لاچين — قبل أن يحلفوا له — ميثاقا بألا يولية أى منصب من مناصب الدولة . ولكن ما لبث لاچين أن عينه نائبا للسلطنة فطغى وبغى . وها هو قاضى قضاة مصر ينضم إلى أمرائها فى رأيهم فى هذا الأمير . وقد صدق حدس هؤلاء جميعا إذ كان تعيينه فى منصبه إيذانا بزوال حكم لاچين .

(٤) المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٨٤٩ .

(٥) السيوطى : نفس المصدر والجزء ص ١٠١ .

(٦) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١١ ا .

(٧) اقرأ نص كتاب القاضى ابن دقيق العيد إلى نائبه المخلص البهنسى قاضى اخميم فى المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٩٤٨ حاشية للدكتور زيادة نقلا عن النويرى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٨) اقرأ كتاب طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى ج ٦ ص ٢ — ٢٢ حيث تجد ترجمة وافية للقاضى تقى الدين بن دقيق العيد .

ومن الأدلة على نزاهة القضاء واستقلاله عن السلطة التنفيذية فى ذلك العصر ما يروى عن القاضى شمس الدين محمد الحريرى من أنه امتنع عن إقرار السلطان الناصر محمد على طلبه وهو إصدار الحكم بشرعية بناء القصر الذى بناه للأمير بكتمر الساقى(١) — وكان أعز أمرائه وأقربهم اليه — وضمّ اليه أرض الميدان الذى أنشأه السلطان كتبغا وجزءاً من بركة الفيل لتوسيع اصطبل الأمير بكتمر الذى بنى بجوار القصر . وقد عبّر المقريزى عن إعجابه بموقف هذا القاضى الذى ينطوى على النزاهة والاستقامة وسمو الخلق بقوله : « فامتنع من ذلك تنزهاً وتورعاً واجتمع بالسلطان وحدثه فى ذلك . فلما رأى كثرة ميل السلطان إلى أخذ الأرض نهض من المجلس مغضباً وسار إلى منزله »(٢) .

وكثيراً ما كان القضاة يُبادرون إلى تقديم استقالتهم من مناصبهم إذا تعرض أحد لكرامتهم أو اعتدى على استقلالهم . كما كانوا لا يقبلون الرشوة ولا الهدية . ولقد أصبح لهؤلاء القضاة مقام كريم فى الدولة المصرية وفى نظر السلاطين ونظر الأمراء وجميع طبقات الشعب حتى انه ما كان يتم انتخاب الخليفة أو السلطان إلا بحضور قاضى القضاة وشهادته بصحة نسبه واستحقاقه لتقلد منصبه الجليل . وكان كثير من هؤلاء القضاة يتولون إدارة الأوقاف الخاصة بالسلطان وأمراء دولته ويحولون دون تصرف من يخلفهم تصرفاً يضر بالغرض الذى وقفت هذه الأوقاف من أجله حتى لقد بقيت هذه الأوقاف من بعدهم أزماناً طويلة يصرف ريعها على وجوه البر التى حبست عليها .

وعلى الرغم مما عرف عن معظم قضاة ذلك العصر من النزاهة والاستقامة ، فقد ظهر بعض قضاة ساروا فى أحكامهم وفق رغبات السلطان والأمراء . فان القاضى سراج الدين الحنفى الذى تقلد قضاء مصر فى عهد السلطان الناصر (٧١٩ ﻫ) قد حكم بشرعية الأرض التى رأى السلطان إدخالها إلى الأرض التى بنى عليها السلطان قصر الأمير بكتمر الساقى والتى لم تكن ملكا للسلطان على الرغم من رفض سلفه شمس الدين الحريرى إقرار هذا التصرف على ما بيّنا(٣).

ومن ذلك أيضاً أن الأمير قوصون(٤) اعتزم فى سنة ٧٣٣ ﻫ الاستحواذ على ذلك القصر

---

(١) أورد Mayer : Saracenic Heraldry, p. 48 ألقاب بكتمر الساقى كما يلى :

« المقر الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى الغازى المجاهدى المرابطى المثاغرى العونى الذخرى الهمامى الكفيلى الشهابى ولد المقر السيفى بكتمر الساقى الملكى الناصرى » .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٦٨ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .

(٤) أورد أبو المحاسن (المنهل الصافى ج ٣ ص ٤٤ ب) ترجمة حياة الأمير قوصون فقال :

« قوصون بن عبد الله الناصرى الساقى ابن الأمير سيف الدين . كان أكبر مماليك الملك الناصر محمد ابن قلاوون وأعظمهم هو وبكتمر الساقى . رقاه الملك الناصر وزوجه بابنته وهى ثانية بنت زوجها =

الفخم الذى بناه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى[1] وآل إلى ورثته بعد موته وأشهد على وقفه اثنين وتسعين من العدول ، من بينهم تقىّ الدين ابن بنت الأعز وابن دقيق العيد وقد تقلد كل منهما منصب قاضى القضاة فيما بعد . وما زالت تلك الدار بيد هؤلاء الورثة حتى طمع فيها قوصون ووافقه على ذلك السلطان الناصر محمد وأذن له أن يتكلم فى شأنها مع ورثة الأمير بَيْسَرى فأرسل إليهم قوصون ومناهم الأمانى الجميلة وما زال بهم حتى أذعنوا لمشيئته . وهنا يتضح لنا فساد ضمائر بعض قضاة ذلك العصر ، فقد طلب هذا السلطان إلى قاضى القضاة شرف الدين الحرانى الحنبلى أن يحكم بجعل تلك الدار من أملاك الأمير قوصون فأجابه إلى ذلك فى الحال وشهد ببيعها . وكان ذلك الحكم سبباً فى عدم ثقة الناس بذمة هذا القاضى

=الملك الناصر لمماليكه فى صنة ٧٢٠ هـ وكان له عرس حفل احتفل به الملك الناصر وحمل الأمراء التقادم اليه فكانت خمسين ألف دينار . وكان قوصون ممن حضر إلى القاهرة صحبة بنت أزبك خان وهو غير مملوك ، لكنه طلع الى القلعة يوما مع بعض التجار فرآه السلطان فأعجبه فقال لأى شىء ما تبيعنى هذا . فقالوا ما هو مملوك . فقال الملك الناصر لا بد أن أشتريه ووزن مبلغ ثمانية آلاف درهم وجهزت إلى أخيه صوصون إلى البلاد . ثم أنشأه ورقاه إلى أن جعله أمير مائة ومقدم ألف وعظم عند الملك الناصر وحظى عنده حتى صار بمكانة بكتمر الساقى . ولما كان يقع بين بكتمر وقوصون يقول قوصون : انا ماتنقلت من الاصطبلات إلى الطباق بل اشترانى السلطان وصرت عنده مقربا حتى صرت من أعظم الأمراء » وفى دار الآثار العربية لوح من الخشب (رقم السجل ٧٨٥٠) عليه كتابة نصها «مما أمر بعمله بالأمر الشريف السلطانى الملكى الناصرى ناصر الدنيا والدين محمد عز الله أنصاره المقر العالى الأميرى السيفى قوصون الناصرى تقبل الله إيساره وأحسن آثاره فى أواخر شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة » انظر :

J. David—Weill : Catalogue Général du Musée Arabe du Caire, Bois à Epigraphes, tome II, pp. 96—98.

وهو صاحب مسجد الأمير قوصون بالسروجية الذى شيد سنة ٧٣٠ هـ . وعليه الكتابة الآتية : « أمر بانشاء هذا الجامع المبارك بكرم الله تعالى العبد الفقير إلى الله تعالى قوصون الساقى الملكى الناصرى فى أيام مولانا السلطان الملك الناصر أعز الله أنصاره وذلك سنة ثلاثين وسبعمائة .

Van Berchem : Corpus, p. 180.

ومن ألقابه : «المقر العالى المولوى المالكى المخدومى السيفى قوصون الساقى الملكى الناصرى » انظر :

Mayer : Saracenic Heraldry, p. 186—187.

(١) كان بيسرى أحد مماليك السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، ووصل إلى مرتبة أمير مائة مقدم ألف فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وسجن فى عهد بركة خان بن بيبرس ، ولكن شأنه ارتفع فى عهد سلامش بن بيبرس وصار من أقوى أمراء مصر . إلا أنه ما لبث أن سجن فى عهد السلطان قلاوون ، وتكررت مرات سجنه وإطلاق سراحه فى عهد قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل ، حتى توفى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) فى عهد السلطان الناصر محمد ، وعمره سبعون سنة . ومن ألقابه : « المقر الكريم المرابطى المثاغرى المؤيدى المظفرى المنصورى البدرى بدر الدين بيسرى الظاهر السعيدى الشمسى » . راجع Mayer : Saracenic Heraldry, P. 112.

وشكهم فيما يُصدره من أحكام[1] .

وقد فسدت نفوس بعض قضاة مصر فى عصر المماليك إلى حد كبير . والقاضى الحسن بن محمد بن الغورى السداد المعروف باسم حسام الدين من أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى . وُلِد حسام الدين فى بغداد حيث تقلد الحسبة ثم تولى القضاء وفى صفر سنة ٧٣٨ هـ استدعاه السلطان الناصر محمد إلى مصر حيث قلده قضاء الحنفية . وقد وصفه ابن حجر العسقلانى بعبارة نتبين منها إلى أى حد تدهورت أخلاق هذا القاضى ، فضلا عن عدم إلمامه بالفقه وعجزه عن الكلام ، فقد «كان كثير المزاح والهزل والسخف وبذاءة اللسان مع عدم معرفته بالشرط والسجلات وعدم مشاركة فى الفقه وعىّ فى لسانه . وكان يستطيل بمحاورة السلطان له بلسانه التركى ، فكان إذا تكلم بالعربى يقبض لسانه وإذا تكلم معه بالتركى بالغ فى الحط عليهم»[2].

وقد غضب السلطان الناصر على هذا القاضى واتضحت له حقيقة ما انطوت عليه نفسه من الخسة والضعة حين اتصل بمسامعه ما ورد فى كتابه إلى ناظر الدولة معاتباً إياه على تأخير صرف راتبه الشهرى وتطاوله عليه بكلمات مملوءة بالاستهزاء والتحقير مما أثار غضب ذلك الموظف الكبير . وقد حضر هذا القاضى مرة إلى دار العدل ولام الكتبة ووجّه اليهم أفحش السباب ، مما أثار غضب السلطان الذى لام وزيره لأنه أوصى بتوليه ذلك المنصب وصرف هذا القاضى[3] .

ومن أولئك القضاة جلال الدين محمد القَزْوينى الذى تولى القضاء فى عصر الناصر محمد ، وكان مبجلا معظما عند السلطان إلا أنه اضطر إلى عزله عن منصبه لما اتصف به ابنه جمال الدين عبد الله من سوء السيرة فقد أصاب من القضاء مبالغ طائلة على سبيل الرشوة . وكان كثير اللهو ميالا إلى الترف شرهاً فى جمع المال من أى سبيل وبأية طريقة حتى قيل إنه اقتنى عدداً من الخيول الكريمة ورتّب لها الأوجاقية والركابدارية وسابق بها . وكان شغوفاً بسماع الأغانى فأم الدور لسماع المغنيات وشَربَ الخمر وأساء إلى سمعة أبيه . وهكذا وصلت أخلاق جمال الدين بن القزوينى درجة كبيرة من الانحطاط حتى أن السلطان اضطر إلى طرده إلى بلاد الشام . ولكن أباه شفع فيه حتى أعيد فلم يرعو بل شرع بمجرد وصوله إلى القاهرة فى بناء دار على النيل بجوار دار أبيه . ومن الأمور الطريفة فى هذا الصدد مارواه لنا المقريزى من أنه كلف قضاة مصر من نواب أبيه أن يشتركوا فى الاشراف على بنائها وبالغ فى الصرف عليها حتى بلغ ما أنفق فى بناء تلك الدار أكثر من خمسمائة ألف درهم كما أنفق على تجميلها أكثر من مائتى ألف درهم ، وصلت اليه عن طريق الرشوة . وقد بلغ السلطان

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٦٩ .

(٢) ابن حجر : رفع الاصر ص ٨٨ ب — ٨٩ ا .

(٣) ابن حجر : نفس المصدر ص ٨٩ .

الناصر أن قاضى القضاة لا يعين أحداً من نوابه إلا بعد أن يجتمع بأحد أولاده ويقدم اليه مبلغاً من المال . فلما حضر القضاة إلى دار العدل كالعادة ، لم يؤذن لهم فى دخوله . وعندما نزلوا بعث السلطان الى القزوينى مع الدوادار بان نائب الشام شكا من ابن المجد قاضى دمشق وقد اقتضى رأيه أن تسافر إلى دمشق قاضياً كما كنت فانه استحيا وجهه منك ومن الأمراء والناس . وكلما أعرفك أن ترجع ابنك عما هو عليه لا ترجعه فاذا حضرت بدار العدل استعف من القضاء بحضرة الأمراء واعلم أنى آمر نائب الشام أنه إذا رأى أولادك على سيرة غير مرضية قابلهم بما يستحقون »[1]. وعلى أثر ذلك رحل القاضى القزوينى إلى دمشق .

٢ — النظر فى المظالم

كان السلطان الظاهر بيبرس أول من تولىَّ النظر فى المظالم من سلاطين المماليك ، وهو الذى أقام لذلك (سنة ٦٦١ هـ) دار العدل . وكان يجلس بها للفصل فى القضايا فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، يحيط به قضاة المذاهب الأربعة . وكبار موظفيه الماليين والإداريين وكاتب السر . وكان السلطان بيبرس لا يتخلف عن الجلوس فى دار العدل إلا فى شهر رمضان فقط[2] .

وقد أتى المقريزى بوصف شامل لجلوس السلطان للفصل فى المظالم بدار العدل ، ومنه نتبين كيف كانت تعقد محكمة المظالم برياسة السلطان . وكيف كان يجلس أعضاء المحكمة على حسب أقدارهم ومكانتهم ، كما كان يتضح أيضاً مدى اختصاصات هذه المحكمة وطريقة فصلها فيما يعرض عليها من الظلامات . يقول المقريزى : فاذا جلس [السلطان] المظالم كان جلوسه على كرسى إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجله وهو منصوب إلى جانب المنبر الذى هو تخت الملك وسرير السلطنة . وكانت العادة أولا أن يجلس قضاة القضاة من المذاهب الأربعة عن يمينه وأكبرهم الشافعى وهو الذى يلى السلطان ، ثم إلى جانب الشافعى الحنفى ، ثم المالكى ، ثم الحنبلى ثم الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحسبة بالقاهرة . ويجلس على يسار السلطان كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش ، وجماعة الموقعين المعروفين بكُتَّاب الدست ، وموقعى الدست تكملة حلقة دائرة . فان كان الوزير من أرباب الأقلام كان بين السلطان وكتاب السر ، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بُعد مع بقية أرباب الوظائف ، وإن كان نائب السلطنة فانه يقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية ، والجمدارية ، والخاصكية . ويجلس على بعد بقدر خمسة عشر ذراعاً

(١) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٢ القسم الخامس من ٤٦١ — ٤٦٢ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

انظر أيضا Lane— Poole : The Art of the Sarac p. 24.

عن يمينه ويُسرته ذوو السن والقدر من أكابر أمراء المئين ويقال لهم أمراء المشورة ، ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وهم وقوف وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة . ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإعطاء قصص الناس وإحضار الرسل وغيرهم من الشكاة وأصحاب الحوائج والضرورات فيقرأ كتاب السر وموقعو الدست القصص على السلطان ، فإن احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية والقضايا الدينية وما كان متعلقاً بالعسكر فإن كانت القصص فى أمراء الإقطاعات قرأها ناظر الجيش ، فإن احتاج إلى مراجعة فى أمر العسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه وما عدا ذلك يأمر فيه السلطان بما يراه »[١].

ولكى نقدم للقارىء صورة عن القضايا التى كانت تعرض على محكمة المظالم نذكر أن السلطان بيبرس جلس لأول مرة بدار العدل فى سنة ٦٦٢ هـ وعرضت عليه قضية ناصر الدين محمد بن أبى نصر الذى شكا من أن بستانه قد اغتصب منه فى عهد السلطان أيبك ، وأخرج كتاباً من ديوان الجيش يثبت صدق روايته ، فأمر بيبرس برد البستان إليه . ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة . فانه فى سنة ٦٦٣ هـ ارتفعت أثمان الغلال حتى بلغ ثمن أردب القمح نحو مائه درهم وندر وجود الخبز ، فذهب السلطان إلى دار العدل وأمر بتخفيض أسعار الغلال ، رحمة بالضعفاء والفقراء والمساكين وغيرهم من الناس[٢] .

وظلت دار العدل مقراً لمحكمة المظالم التى كانت تعقد برياسة السلطان ، حتى جاء السلطان قلاوون سنة ٦٧٩ هـ وبنى « الإيوان » واتخذه مقراً لهذه المحكمة . وبقى كذلك طوال عهده وعهد ابنه خليل الذى أدخل عليه بعض الإصلاحات . واستمر الحال على ذلك حتى هدمه السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٢ هـ وأعاد بناءه وزاد فى مساحته وأنشأ به قبة عظيمة وأقام به عمداً جلبها من بلاد الصعيد ونصب فى صدره سرير الملك الذى صنعه من العاج والأبنوس ، وقرر أن يجلس فيه يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع على نحو ما كانت عليه الحال فى عهد السلطان بيبرس[٣] ، إلا أن القضاة وكاتب السر والموقعين لم يكن يسمح لهم بالحضور فى يوم الخميس ، إذ أن السلطان الناصر محمد لم يخصص هذا اليوم للنظر فى الظلامات والشكاوى ولم يكن يستدعى أحداً من هؤلاء إلا للضرورة القصوى[٤] . ويظهر أن السلطان الناصر محمد كان يعقد فى يوم الاثنين الجلسة العامة التى يحضرها جميع أعضاء المحكمة للنظر فى بعض القضايا،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٢٠٦ .

(٤) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ١٠٨ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٨٣ .

ويخصص يوم الخميس للنظر فى قضايا خاصة لا يستدعى الفصل فيها حضور جميع أعضاء المحكمة .

وفى عهد السلطان الناصر محمد تغير ترتيب جلوس قضاة المذاهب الأربعة فى محكمة المظالم عما كانت عليه فى عهد السلطان بيبرس . فأصبح القاضى المالكى يلى الشافعى ، وتأخر القاضى الحنفى عن المالكى فى الرتبة . فلما توفى القاضى شمس الدين الحريرى وتولى مكانه برهان الدين عبد الحق بن الحنفى أشار الأمراء على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكى فوقه . وذكروا له أن العادة جرت بذلك قديماً ، إذ كان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف يلى قاضى الشافعية تقى الدين بن دقيق العيد فأمر السلطان الناصر محمد بذلك . فلما علم قاضى الحنفية بما استقر عليه الرأى غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك ، فأنكر السلطان مغيبه وأمر باحضاره . فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده فيما يلى قاضى المالكية ، ونفذ بذلك أمر السلطان ، واستمر حاله على ذلك[١] .

وقد تغير ترتيب جلوس أعضاء محكمة المظالم مرة ثالثة فى عهد السلاطين من أبناء الناصر محمد وأحفاده فأصبح يجلس على يمين السلطان القاضى الشافعى ، ويليه القاضى المالكى ، ثم قاضى العسكر ، فمحتسب القاهرة ، ومفتى دار العدل الشافعى . ويجلس عن يسار السلطان القاضى الحنفى ، ويليه القاضى الحنبلى . وكذلك تغير نظام العمل بمحكمة المظالم فى يوم الخميس ، فسمح للقضاة وناظر الجيش بالحضور إلى الإيوان فى ذلك اليوم كما أصبحت القصص تقرأ والشكايات تقدم ويفصل فيها أسوة بنظام العمل فى تلك المحكمة فى يوم الاثنين[٢] .

أما فيما عدا يومى الاثنين والخميس ، فقد كان سلاطين المماليك منذ سنة ٧١٣ هـ يجلسون بدار العدل فى القصر الأبلق[٣] الذى بناه السلطان الناصر محمد ، فقد كان يخرج إلى هذا القصر ويجلس فيه تارة على سرير الملك الذى نصب فى صدر إيوان هذا القصر وتارة يجلس دونه على الأرض والأمراء وقوف ، عدا أمراء المشورة والمقربين من السلطان فلم تجر العادة بالسماح لهم بالحضور[٤] .

وكان أمير جاندار[٥] هو الذى يستأذن السلطان فى دخول كبار رجال الدولة إذا جلس

---

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار جـ ١ ص ٢٥ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥ ؛ المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) بنى السلطان الظاهر بيبرس قصراً فى دمشق سماه « القصر الأبلق » (راجع كتاب التصوير عند العرب لتيمور باشا الذى نشره الدكتور زكى محمد حسن ص ٨ و١٤٧) .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٥) سبق تفسير هذا اللفظ ومن أشهر أمراء الجندارية الكبار فى سلطنة الناصر محمد الثالثة بلبان طرنا ، وبيبرس الأحمدى ، والدمر الركنى ، ولاجين الابراهيمى ، وبلبان الحسنى ، وأرم بغا ، وأيدمر العلائى الزراق . ولاجين العلائى السلاح دار . Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٩ .

فى الإيوان للنظر فى المظالم . فاذا أراد أمير من الأمراء المثول بين يدى السلطان تقدمه أمير جاندار قليلا فى أثناء دخوله ، وهو مسئول عن حراسة باب السلطان فى الإيوان . كما كان يتحرى أحوال الأمراء الذين يرغبون فى الدخول على السلطان خشية أن تمتد أيديهم إليه (١) .

٣ — الحِسْبَة

وبجانب هذه السلطة القضائية الممثلة فى قضاة القاهرة والأقاليم ، توجد سلطة أخرى للمحتسب . وكان ينظر فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام ويقضى فى الجنايات التى يستدعى الفصل فيها السرعة حتى إن القضاء والحسبة كانا يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد مع ما بين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وأما عمل المحتسب فمبنى على الشدة والسرعة فى الفصل (٢) . ومن الفروق الرئيسية بين القاضى والمحتسب أن الأخير كان له أن يطبق القانون بدون أن ينتظر أو يتطلب شكوى من المجنى عليه .

ظل نظام الحسبة فى سلطنة المماليك على ما كان عليه فى عهد الفاطميين والأيوبيين وأوائل عهد المماليك ، فقد كان من أهم أعمال المحتسب المحافظة على الآداب العامة . فهو الذى ينظر فى مراعاة أحكام الشرع ، ويشرف على نظام الأسواق ، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا تعوق نظام المرور (٣) ويكشف عن صحة الموازين والمكاييل (٤) ، ليمنع ما قد يحدث من غش فى البيع والشراء فيراقب هو ونوابه وزن البضائع أو كيلها ونظافتها ونوعها وثمنها (٥) .

وبذلك كان للمحتسب أن يفصل فى الأمور ذات الصبغة التجارية كالمتعلقة بالموازين والمكاييل غير الوافية وبالغش فى البيع وعدم دفع الديون ، ولكن حتى فى هذه الأمور كان اختصاصه مقصورا على المسائل الواضحة التى كان الحق فيها جليا . فإذا احتاج الأمر الى تطبيق وسماع بيّنة أو يمين ، فإن القاضى يكون هو المختص بذلك .

وكان للمحتسب نواب يطوفون فى الأسواق ، فيفتشون الفنادق العامة ويُشرفون على

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٠ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦١ وما يليها .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ؛ المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٤ .

(٤) كان للموازين والمكاييل دار خاصة بها تعرف باسم « دار العيار » . وكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة يحملون موازينهم ومكاييلهم ليتأكد بنفسه من ضبط عيارها . فإن وجد فيها خللا صادرها وألزم صاحبها بإصلاحها أو شراء غيرها . وقد بقيت هذه الدار فى مصر طوال عهد الفاطميين والأيوبيين . المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤٦٤ .

(٥) المقريزى : نفس المصدر والجزء ص ٤٦٤ .

السقَّايين للتحقق من تغطيتهم القرب ولبسهم السراويل ويمنعون معلمى الكتاتيب من ضرب الأولاد ضرباً مبرحاً . وكان له أن يمنع الناس من تحميل الدواب أو السفن أكثر من طاقتها كما يفعل قلم المرور الآن . ويلوح أن معلمى العوم كانوا مصدر أضرار خلقية ، فقد نص المقريزى على أن من واجب المحتسب إنذار معلمى العوم « بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس »(١) .

وكان من واجبات المحتسب أن ينبه الحكومات إلى الخطر الذى يلم بالمساجد حين تتداعى للسقوط بسبب إهمال إصلاحها ، كما استحدثت الحكومة الحديثة إدارات حفظ الآثار للقيام بهذا الغرض . وكان المحتسب يقضى بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر ، وزاد نفوذه حتى غدا من اختصاصه الإشراف على رجال الشرطة الذين يقومون بتنفيذ أحكامه(٢) .

وقد أجمل قاضى القضاة تاج الدين السبكى المسائل التى يشتد فيها المحتسب فقال : « وعليه النظر فى القوت وكشف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه من ذلك ، والاحتراز فى المشروب ، فربما أوهم الخمار أنه فقّاعى أو أقسماوى ، والمأكول فطالما أوهم الطباخ أن لحم الكلاب لحم ضأن ، فليتق الله ربه ولا يكون سبباً فى إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث »(٣) .

من ذلك نتبين مدى سلطة ذلك الموظف ، وما كان يتمتع به من نفوذ كبير . ويجب أن لا تفوتنا هذه الحقيقة وهى أنه كان يراعى فى اختياره أن يكون من العدول الذين عرفوا بالأمانة والاستقامة والذين حرصوا على حُسْن السمعة وابتعدوا عن الشبهات .

وهاك بعض ماجاء فى « وصية محتسب » لنتبين منها إلى أى حد وصلت سلطة هذا الموظف الكبير ، قال العمرى :

فلينظر فى الدقيق والجليل والكثير والقليل ، ومايحصر بالمقادير ومالايحصر ، ومايؤمر فيه بمعروف أو ينهى عن منكر ، ومايشترى ويباع ويقرب بتحريره إلى الجنة ويُبعد من النار ، ولو لم يكن قد بقى بينه وبينها إلا قدر باع أو ذراع ، وكل مايعمل من المعايش من نهار أو ليل ، ومالا يعرف قدره إلا إذا نطق لسان الميزان ، أو تكلم فم الكيل ، وليعمل لديه

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٦٤ . ومما تجب الاشارة إليه أن المقريزى تولى وظيفة الحسبة فى سنة ٨٠١ هـ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر والجزء والصفحة .

انظر مقال « محتسب » بدائرة المعارف الاسلامية . وراجع « نشوار المحاضرة » تأليف التنوخى (طبعة مرجليوث) ص ٢٥٠ .

وانظر : G. S. Colin et E. Lévi-Provençal : Manuel Hispanique de Hisba ومعالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الاخوة (طبعة Ruben Levy) بلجنة ذكرى جب (Gibb Memorial) .

(٣) السبكى : معيد النعم ص ٩٢ .

معدلا لكل عمل وعياراً إذا عرضت عليه المعايير ، يعرف من جار ومن عدل . وليتفقد أ كثرهذه الأسباب ، ويحذرمن الغش ، فان الداء أ كثره من الطعام أو الشراب ، وليتعرف الأسعار، ويستعلم الأخبار فى كل سوق من غيرإعلام لأهله ولا إشعار. ليقم عليهم من الأمناء من ينوب عنه فى النظر ويطمئن به وإن غاب أو حضر ويأمره بإعلامه بما أعضل ومراجعته مهما أمكن فإن رأى مثله أفضل ، ودار الضرب والنقود التى منها تنبعث وقد يكون فيها من الزيف مالا يظهر فليتصد لهما بصدره الذى لا يحرج جهله الرقباء. وليقم الضمان على العطارين فى بيع غرائب العقاقير إلا ممن لايستراب فيه وهو معروف وبخط مطبب ماهر لمريض معين فى دواء موصوف والطرقيه وأهل النجامه وسائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأ كلهم باللسان وكل انسان سوء من هذا القبيل هو الحقيقة شيطان لا إنسان أمنعهم كل المنع وأصدعهم مثل الزجاج حتى لاينجبر لهم صدع وصب عليهم النكال وإلا فما تجدى فى تأديبهم ذات التأديب والصفع وأحسم كل هذه المواد الخبيثة ومن وجدته قد غش مسلما أو أ كل بباطل درهما أو أخبر مشترى بزائد أو خرج عن معهود العوائد شهره فى البلد وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد [١].

وقد تولى منصب الحسبة فى عصر المماليك أربعة فى وقت واحد : يتصرف كل منهم فى شئون الحكم فى ولايته . فنرى فى كل من القاهرة والفسطاط [٢] والوجه البحرى والاسكندرية [٣] محتسباً خاصاً . وكان محتسب القاهرة أعظم هؤلاء قدراً وأرفعهم شأناً فقد كان له وحده دون بقية المحتسبين حق الجلوس بدار العدل فى أيام المواكب ، وهو يلى فى الرتبة وكيل بيت المال . ومما يدل على عظم مكانة محتسب القاهرة أنه كان يجلس بدار العدل مع قضاة مصر الأربعة وقضاة العسكر ومفتى دار العدل ويشترك فى المسائل المتعلقة بتولية نواب الوجه البحرى وعزلهم [٤]. وكان يلى محتسب القاهرة فى الرتبة محتسب الفسطاط الذى كان يشرف بحكم وظيفته على أعمال الحسبة فى الوجه القبلى . وكانت حسبة القاهرة تضم أحياناً إلى أعمال والى القاهرة كما تسند حسبة الفسطاط أيضاً إلى واليها [٥] .

كذلك عرفت الحسبة فى ذلك العهد فى نيابات الشام . إلا أن المحتسب لم يكن له حق حضور دار العدل كما كانت الحال فى مصر ، بل كان ينيب عنه موظفين يقومون بأعمال الحسبة فى الولايات المختلفة ويتولون نفس الأعمال التى يقوم بها المحتسبون فى مصر [٦] .

---

(١) انظر وصية محتسب العمرى : فى العمرى : التعريف ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢) انظر نص تقليد حسبة الفسطاط فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٢١٢ — ٢١٤ .

(٣) انظر نص تقليد حسبة الأسكندرية فى القلقشندى : نفس المصدر والجزء ص ٤١٤ — ٤١٦

(٤) القلقشندى : نفس المصدر ج ٤ ص ٣٧ ، ج ١١ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٥) القلقشندى : نفس المصدر ج ١١ ص ٢١٠ .

(٦) القلقشندي : نفس المصدر ج ٤ ص ١٨٩ ، ج ١٢ ص ٨٩ .

وأشهر من تولى الحسبة فى دولة المماليك البحرية مجد الدين عيسى بن الخشاب فقد تولاها من سنة ٦٧٨ هـ فى عهد السلطان قلاوون وظل فى منصبه حتى سنة ٦٩٩ هـ [١] . وتولى الحسبة فى عهد السلطان الناصر محمد كل من شرف الدين عبد الكريم بن أبى الفرج بن الحكم الحموى (+ ٧١١ هـ) وأبو العباس احمد بن الرفعة [٢] وأبو المعالى محمد بن يوسف الدلاصى (+ ٧١٧ هـ) [٣] ونجم الدين محمد بن عثمان البصروى [٤] وزين الدين بن الأسعردى (+ ٧٢٠ هـ) [٥] ونجم الدين بن الأسعردى [٦] وعز الدين القلانسى [٧] وشهاب الدين عبد الرحمن بن محمد بن هبة الله النصيبى [٨] (+ ٧٢٨) ونجم الدين احمد بن محمد القمولى [٩] ونجم الدين بن الأسعردى (+ ٧٣٧ هـ) [١٠] والقاضى ضياء الدين أبو المحاسن يوسف بن أبى بكر بن محمد [١١] وشرف الدين والقاضى صلاح الدين عبدالله أبو الحسن على بن الحسين بن محمد الحسينى نقيب الأشراف بالديار المصرية (+ ٧٥٧ هـ) [١٢] ابن ابراهيم البرلسى المالكى (+ ٧٦٥ هـ) [١٣] وتولاها فى عهد السلطان الأشرف شعبان ابن الناصر حسن (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ) كل من ابراهيم محمد بن احمد بن الصاحب [١٤] ابن احمد المخزومى (+ ٧٧٥ هـ) [١٥] ومحمد بن تقى الدين المصرى [١٦] وفخر الدين محمد بن وبرهان الدين ابراهيم بن محمد بن احمد السعدى الاخنائى (+ ٨٧٧ هـ) [١٧] .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٦٧٠ و٨٩٧ .
(٢) ابن الرفعة : كتاب الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص ١٥ .
(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٢٩١ .
(٤) ابن حجر : نفس المصدر جـ ٤ ص ٤٦ .
(٥) ابن حجر : نفس المصدر جـ ١ ص ٤٦٨ .
(٦) Zetterstéen ، تاريخ سلاطين المماليك ص ١٧١ .
(٧) ابن حجر : نفس المصدر جـ ١ ص ٥٧ ، جـ ٣ ص ٣٦٤ .
(٨) ابن حجر : نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٤٥ .
(٩) ابن حجر : نفس المصدر جـ ١ ص ٣٠٤ .
(١٠) Zetterstéen : نفس المصدر ص ١٩٣ .
(١١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ ص ١٧٣ .
(١٢) Zetterstéen : نفس المصدر ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧ .
(١٣) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٩ .
(١٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ ص ٢٧٥ .
(١٥) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ١٢٦ .
(١٦) ابن حجر : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٦٦ .
(١٧) ابن حجر : نفس المصدر جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩ .

٤ ـ تنفيذ الأحكام

لقد ذكرنا من قبل أنه كان لكل من القاضى وصاحب المظالم والمحتسب ووالى القاهرة اختصاصات قضائية وسلطات واسعة .

وإذا أصدر أحد هؤلاء الموظفين حكمه فى قضية من القضايا بدأ تنفيذ هذا الحكم . فإذا قضى الحكم بالحبس سيق المحكوم عليه إلى أحد السجون . ومنها « خزانة شمايل » التى كانت تعد أسوأ سجون القاهرة ويحبس فيها من حكم عليه بالقتل من أصحاب الجرائم والسارقين وقطاع الطريق والمماليك المناوئين لحكم السلطان . ويغلب على الظن أن خزانة شمايل قد بنيت لتكون سجناً ، فلم تكن كخزانة البنود التى بنيت فى الأصل لحفظ الأعلام والأسلحة فى الدولة الفاطمية ثم استخدمت فيما بعد معقلا للأسرى ، وسميت خزانة شمايل نسبة إلى الأمير علم الدين شمايل والى القاهرة فى أيام السلطان الملك الكامل الأيوبى[١] .

ومن السجون التى عرفت فى دولة المماليك سجن الجُبّ بقلعة الجبل . وكان عبارة عن بئر مظلمة كثيرة الوطاويط كريهة الرائحة يقاسى فيها المسجون كل أنواع العذاب وضروب الشقاء . وقد بناه السلطان قلاوون سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) واتخذه سجنا يحبس فيه مَنْ يخرج عليه من الأمراء[٢] . وما زال كذلك حتى أمر السلطان الناصر محمد بهدمه سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨ م) وأنشىء فى مكانه طباق للمماليك السلطانية[٣].

ومن الوصف الذى أتى به المقريزى لهذه السجون نتبين مدى ما كان يلقاه المسجونون من العنت والإرهاق والجوع والعرى حتى كانوا يفضلون الموت على الحياة إذ يقول « وأما الحبس الذى هو الآن فإنه لايجوز عند أحد من المسلمين وذلك أنه يجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم غيرمتمكنين من الوضوء والصلاة . . . ويؤذيهم الحرّ فى الصيف والبرد فى الشتاء . وربما يحبس أحدهم السنة وأكثر ولا جدة له وأن أصل حبسه على ضمان . وأما سجون الولاة فلا يوصف ما يحلّ بأهلها من البلاء . واشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان فى الحديد حتى يسندوا وهم يصرخون فى الطرقات من الجوع فما يتصدق به عليهم لاينالهم منه إلا مايدخل بطونهم وجميع مايجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان وأعوان الوالى . ومن لم يرضهم بالغوا فى عقوبته وهم مع ذلك يستعملون فى الحفر وفى العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة

(١) المقريزى : كتاب السلوك (مخطوط) جـ ٢ القسم الرابع ص ٤٢٢ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، ٢٠٥ — ٢١٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) جـ ٤ القسم الثانى ص ٢٤١ .

Lane-Pool : Egypt in the Middle Ages, p. 294.

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (مخطوط) ج ٤ القسم الثانى ص ٢٤١ ؛ Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٨٠ ؛

والأعوان تستحثهم . فاذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم من غير أن يطعموا شيئا إلى غير ذلك مما لا يسع حكايته هنا » (١)

ومهما يكن فى هذا من صرامة وقسوة فإنه ليس بكثير على المجرمين الذى ارتكبوا فى حياتهم الجرائم الأخلاقية ما يستحقون عليه أشد العقوبات . وإذا قيس هذا بما كان متبعاً مع المسجونين فى أوربا وغيرها فى تلك الحقبة من الزمان يتجلى لنا أنه لا يخرج عن المتعارف المألوف فى معاملة المسجونين .

على أننا نعرف أن كثيرين من الناس كانوا يلقون فى غياهب السجون لأسباب سياسية أو لأنهم فقدوا عطف أولياء الأمور . وفى الحق أن مثل هذه المعاملة التى أشار اليها المقريزى قاسية بالنسبة لهؤلاء . ولسنا ندرى أكان يُباح للمسجونين فى عصر المماليك أن يصنعوا أشياء فى السجون يبيعونها لحسابهم كما كان يحدث فى عصر الطولونيين (٢) . ولسنا ندرى أيضاً أكان بعض الناس فى عصر المماليك يسجنون فى منازلهم فلا يجوز لهم مبارحتها كما كان يحدث فى العصر الطولونى (٣) .

إلا أن عقاب المغضوب عليهم لم يقتصر على حبسهم ، بل كانت هناك عدة طرق لتعذيبهم من بينها المعاصير والضرب بالمقارع . جاء فى ابن إياس : « ثم أن الشجاعى [الأمير علم الدين سنجر وزير الناصر] قبض على الصاحب شمس الدين بن السلعوس الذى رأى من العز والعظمة مالم ير غيره من أرباب الوظائف . فلما قبض عليه الشجاعى جعل يعاقبه ويعصره بالمعاصير حتى مات تحت الضرب » (٤) فى ١٥ صفر سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣م) . وجاء فى ابن إياس أيضاً أن السلطان بيبرس الجاشنكير لما علم بكره الناس له ومكاتبتهم للسلطان الناصر يستحثونه العودة إلى مصر : « رسم بقبض جماعة من العوام نحو ثلثمائة انسان فضرب منهم جماعة بالمقارع » (٥) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٨٧ .

اقرأ نص الافراج عن مسجون فى المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٦٩ — ٧٨٠ حاشية ٤ نقلا عن النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ص ٢٩٨ ب

(٢) أنظر سيرة ابن طولون لابن الداية (طبع Vollers) ص ٥٣ .

Zaki M. Hassan : Les Tulunides, p. 206.

(٣) راجع كتاب المكافأة لابن الداية ص ٢٥ .

والمرجع السابق للدكتور زكى حسن : نفس الصفحة .

(٤) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٠ .

(٥) ابن اياس : نفس المصدر والجزء ص ١٥٠ .

ومن أشهر حوادث التعذيب بالمقارع والمعاصر مارواه المقريزى من أن الأمير بكتمر الحاجب « تزوج [سنة ٧١٦ هـ = ١٣١٦م] بابنة الأمير جمال الدين آقوش المعروف بنائب الكرك وسرق له مال كثير من خزانته بهذه الدار ادعى أنه مبلغ مائتى الف درهم وكان فى الباطن على ما قيل سبعمائة ألف درهم فما جسر يتفوه خوفا من السلطان . وكان إذ ذاك والى القاهرة الامير سيف الدين قدادار . . . فتقدم أمر السلطان اليه بتتبع من سرق المال . فدس الأمير بكتمر الساقى والوزير مغلطاى الجمالى والقاضى فخر الدين ناظر الجيش فى السر أن يتهاون فى أمر السرقة نكاية لبكتمر وأخذوا يحتجون لكل من اتهم ويقولون للسلطان : لعن الله ساعة هذه العملة ، كل يوم يموت من الناس تحت المقارع عدة وإلى متى يقتل المتهم الذى لاذنب له . فلما طال الأمر شكى بكتمر الى السلطان فى دار العدل . فأحضر الوالى وسبه السلطان فقال ياخوند ! اللصوص الذين أمسكتهم وعاقبتهم أقروا أن سيف الدين بخشى خازنداره اتفق معهم على أخذ المال وجماعة من ألزامه الذين فى بابه . فقال السلطان للجمالى الوزير احضر هؤلاء المذكورين وعاقبهم . فأخذ بخشى وعصره »[1] .

وهناك أيضا طريقة التشهير . وكان من يؤمر به ليشهر ويطوف يمد أولا على لوح من الخشب تسمر فيه رجلاه وذراعاه ثم يربط اللوح على ظهر جمل أو حمار ثم يطوف به فى طرق المدينة . وكان هذا الضرب من العقوبة من أقسى أنواع العقوبات التى عرفت فى مصر فى عصر المماليك . جاء فى المقريزى أن السلطان خليل أمر بأن القاضى تقى الدين عبد الرحمن الشافعى ابن بنت الأعز « يركب حمارا ويشهر »[2]. وقال أبو الفدا عند كلامه على كيفية انتقام حكومة الناصر من قتلة أخيه الأشرف خليل أن أتباع بيدرا المحرض على قتل السلطان « وضعوا فى خزانة البنود أياما ثم قطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وأيديهم معلقة فى أعناقهم جزاء بما كسبوا »[3] .

وقد أورد المقريزى وسيلة أخرى من وسائل تعذيب المغضوب عليهم وهى « القطع نصفين » أو « التوسيط بالسيف نصفين » . وكان هذا النوع من القتل شائعاً فى مصر زمن المماليك وفى غيرها من بلاد الشرق أيضاً . وطريقته أن يعرى المحكوم عليه من الثياب ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر جمل ، وتسمى هذه العملية بالتسمير . ثم يأتى السياف فيضرب

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢) كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٧٢ .

(٣) المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٣٠ ؛ أنظر أيضا ابن أبى الفضائل : النهج ص ٥٧٥ المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٧٩٥ — ٧٩٦ .

المحكوم عليه بقوة ضربة تقسم الجسم نصفين من وسطه [1] .

ولا شك فى أن هذه الأساليب لم تكن تتبع إلا مع من عظمت جرائمهم واشتد خطرهم على أمن البلادوسلامتها . فإن أتباع الأمير بدرالدين بيدرا صاحب اليد الطولى فى تدبير مقتل السلطان خليل بن قلاوون يستحقون ما لاقوه من قسوة وتعذيب ولايجدون من يعطف عليهم فى آلامهم أثناء محنتهم التى مروا بها قبل قتلهم ، وإلا اضطربت الأمور وأصبح قتل أفراد الشعب أمراً عادياً ، مادام قتل أحد السلاطين لايقابل مرتكبوه بما يستحقون .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٠٤ حاشية للدكتور زيادة .

مصادر الكتاب

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

اولا ـ مصادر عربية مخطوطة

الأشرف : (+ ٧٧٠ هـ = ١٣٦٨ م) طيبغا البلقميشى اليونانى .

« كتاب غُنية الطلاب فى معرفة الرمى والنشاب » (مخطوط بكمبردج رقم 2 q ١٧٨ — ٢٤٠) .

ابن أَيْبَك : أبو بكر عبد الله صاحب صرخد

« كنز الدرر وجامع الغرر » ٩ أجزاء (مخطوط بمكتبة دار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨) .

أمين الخولى : « الجندية فى الاسلام » (رسالة لم تطبع) .

بَكْتُوتْ الرماح : خازندار الملك الظاهر (+ ٧١١ هـ = ١٣١١ م)

« نهاية السؤال والأمنية فى تعليم الفروسية » (مخطوط بالمتحف البريطانى رقم Orient ٣٦٣١) .

بيبرس الدوادار : (+ ٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م)

« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » الجزء التاسع (مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول رقم ٢٤٠٢٨) .

الجَزَرى : (+ ٧٣٩ هـ = ١٣٣٨ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مجد الدين أبى اسحاق ابراهيم بن أبى بكر بن ابراهيم بن عبد العزيز .

« تاريخ الجزرى » جزء واحد فى ثلاثة مجلدات (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٥) .

ابن حجر العسقلانى : (+ ٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م) شهاب الدين بن على .
« رفع الإصر عن قضاة مصر » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٥) .

الحُسَامى : (+ ٧٨٠ هـ = ١٣٧٩ م) محمد احمد بن لاچين الطرابلسى .
« كتاب الفروسية برسم الجهاد » (مخطوط بمكتبة برلين رقم ٥٨٨) .

الخالدى : (+ ٩٧ = ١٥٣٠ — ١٥٣١ م) بهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبد الله
ابن عبيدالله العمرى .
« كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الانشا » (مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول
رقم ٢٤٠٤٥) .

الذَّهَبي : (+ ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ — ١٣٤٨ م) شمس الدين محمد بن احمد .
« تاريخ الإسلام » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ) .

الزَّرَدْكَاش : (+ ٧٦٧ هـ = ١٤٦٢ — ١٤٦٣ م) . ابن ارنبغا
« الأنيق فى المجانيق » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٠٥ فنون حربية) .

الشُجَاعى : شمس الدين . « تاريخ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبنيه » (برلين
٩٨٣٣) Brockelmann II, 28.

العَيْنى : (+ ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) بدرالدين محمود .
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ٢٣ جزءاً فى ٦٩ مجلدا (مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ) .

العُمَرى : (+ ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) ابن فضل الله .
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً (مخطوط بدار الكتب المصرية
رقم ٢٥٦٨) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى .
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » . الجزء الرابع (مخطوط بدار الكتب
المصرية رقم ١٣٤٣) .

« المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ٣ أجزاء (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١١٣) .

المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقى الدين احمد بن علىّ .

« كتاب السلوك فى معرفة دول الملوك » الجزء الثالث (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٥٥) .

ابن مَنْكَلى : (+ ٧٧٨ هـ = ١٣٧٦ م) القز محمد .

« الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية » (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية) .

النُّوَيْرى : (+ ٧٣٢ هـ — ١٣٣٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .

« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ٣٢ جزء . (صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس) .

النويرى : (+ ٧٧٥ هـ = ١٣٧٣م) محمد بن قاسم بن محمد بن الاسكندرى .

« كتاب الالمام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية » (مخطوط برلين . راجع اهلواردت Ahlwardt رقم ٩١٨٥) . ويقوم بنشره مع ترجمة فرنسية وتحشية واسعة النطاق المستشرق المعروف اتين كومب M. Etienne Combe

ابن واصل : (+ ٦٩٧ هـ = ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) جمال الدين أبو عبد محمد بن سليم

« مفرج الكروب فى تواريخ بنى أيوب » جزءان (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ تاريخ) .

اليُونينى : (+ ٧٢٦ هـ = ١٣٨٤ م) الشيخ قطب الدين .

« الذيل على مرآة الزمان » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

. . . : (المؤلف مجهول الاسم) .

« كتاب الفروسية » (المكتبة الأهلية بباريس) .

ثانيا — مصادر عربية مطبوعة

احمد عيسى بك : « تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م) .

احمد تيمور باشا : « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة » (المطبعة السلفية) .
« التصوير عند العرب » (أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن القاهرة ١٩٤٢) .

الاسحاقى : محمد عبد المعطى بن أبي الفتح بن احمد بن عبد الغنى المنوفى .
« كتاب أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » (القاهرة ١٣١١ م) .

اسماعيل سرهنك : «حقائق الأخبار عن دول البحار» جزءان (المطبعة الأميرية ١٣١٤ هـ).

ابن الإخوة : « معالم القربة فى أحكام الحسبة» (طبعة روبين ليفى Rubien Levy — بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .

ابن إياس : (+ ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن احمد .
« كتاب تاريخ مصر » المعروف باسم « بدائع الزهور » ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ) .

ابن بطوطة : (+ ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله .
« تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » جزءان (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) . ترجمه الى الفرنسية ديفريميرى Defremery وسانجينيتى Sanguinetti باريس ١٨٥٣ — ١٨٥٨ هـ = ١٨٦٩ — ١٨٧٩ م) .

ابن تَيْمِية : « الحسبة فى الاسلام أو وظيفة الحكومة الاسلامية » جزء واحد .

التنوخى: « نشوار المحاضرة (طبعة مرجليوث Margoliouth) .

جورجى زيدان : « تاريخ التمدن الاسلامى » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦م) .

ابن الجيعان : (+ ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م) شرف الدين يحى علم الدين شاكر بن المقر .
« التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » (القاهرة ١٣١٦ هـ = ١٨٩٨ م . نشره المستشرق مورتز Moritz) .

حاجِى خَليفة : (+ ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) . مصطفى المسمى كاتب شلبى .

« كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » . (طبع النسخة العربية وترجمها الى اللاتينية فلوجل G. Flugel . ليبزج ولندن ١٨٣٥ — ١٨٥٨) .

ابن حجر العسقلانى : (+ ٨٥٣ هـ = ١٤٤٩ م) . شهاب الدين بن علىّ .
« الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ٤ أجزاء (طبعة طبعة حيدر أباد الهند سنة ١٣٤٨ — ١٣٥٠ هـ) .

الحسن بن عبد الله : (+ ٧٠٨ هـ = ١٣٠٨ م) .
« كتاب آثار الأول فى ترتيب الدول » (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .

حسن ابراهيم حسن : « الفاطميون فى مصر » عن الانجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م)
« السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية » . (عن الفرنسية) تأليف فان فلوتن (القاهرة ١٩٢٣) .
« انتشار الإسلام بين المغول والتتار » . (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية — مايو ١٩٢٣) .
« انتشار الإسلام فى الهند » (بحث فى مجلة كلية الآداب الصادرة سنة ١٩٤٤)

ابن خَلْدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م م) . عبد الرحمن بن محمد .
« مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٩٠٠ م) . « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ م) .

ابن خَلِّكان : (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) . شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم ابن أبى بكر الشافعى .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » . جزءان . (بولاق ١٢٨٣ هـ ، والمطبعة الميمنية بمصر ١٢١٠ هـ) .

ابن أبى الفضائل : (+ ٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م) . مفضل .
« النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » .

(Texte Arape publiée et traduit en Français par E. Blochet. Patrologia Orientalis, t. XIV. Fasc. 3 Paris, 1911, 1930).

ابن دُقْماق : (+ ٨٠٩ هـ = ١٤٠٦ — ١٤٠٧ م) . ابراهيم بن محمد المصرى .
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » . جزء ٤ و٥ (القاهرة سنه ١٣٠٩ هـ = ١٨٩٣ م) نشره المستشرق فولرز Ed. Vollers

الرَّملِي : (+ ٩١٩ هـ = ١٠٠٤ م) . شمس الدين محمد بن شهاب الدين أحمد بن أحمد ابن حمزة .

« الفتاوى » . وهو مطبوع على هامش كتاب « الفتاوى الكبرى » لابن حجر الهيتمى (القاهرة ١٣٠٨ هـ) .

رشيد الدين فضل الله : (+ ١٣١٨ هـ) .

« كتاب جامع التواريخ » ترجمه إلى الفرنسية مسيو اتين كترمير E. Quatremère وانتهى من تأليفه حوال سنة ٧٠١ هـ (١٣٠١ م) .

زترستين : « تاريخ سلاطين المماليك » نشره ك . ف . زترستين K. F. Zetterstéen (لندن سنة ١٩١٩) .

زكى محمد حسن : « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٣٧)

« مصر الاسلامية » بالاشتراك مع البكباشى عبد الرحمن زكى . (القاهرة ١٩٣٧)

« مصر والحضارة الاسلامية » (الرسالة الخامسة من عشرة من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الدفاع الوطنى) .

السُّبكى : (+ ٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) . تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب .

« معيد النعم ومبيد النقم » . (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود ولهلم موهرمن David W. Myhrman المدرس بكلية أبسلة الملوكانية .

« طبقات الشافعية الكبرى » ج ٥، ٦ (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

السيُّوطى : (+ ٩١١ هـ ١٦٠٥ م) . جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر بن محمد .

« حسن المحاضرة فى أخبار مصر القاهرة » جزءان (القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ) . ترجمة إلى الانجليزية الميجر هـ . س . جاربت . (كلكتا سنة ١٨٨١ م) .

« تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » . (إدارة المطبعة المنيرية سنة ١٣٥١ هـ)

ابن شاكر : (+ ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م) . فخر الدين محمد بن أحمد الكتبى .

« فوات الوفيات » (بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .

ابن شاهين : (+ ٨٧٣ هـ ١٤٦٨ — ١٤٦٩ م) . غرس الدين خليل الظاهرى .

« كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » (باريس سنة ١٨٩١ م) .

أبو شامة : (+ ٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) . عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم
ابن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة شافعى من أهل دمشق .
« كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » .

Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux, t. IV.
وهناك طبعة أخرى فى مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ هـ) .

الشَّوْكَانى : (+ ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م) . محمد بن على
« البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع » ، جزان (القاهرة ١٣٤٨ م) .

ابن طَبَاطَبَا : (ولد سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م وأتم كتابه سنة ٧٠١ هـ = ١٣٠١ م ولا
تعرف سنة وفاته) محمد بن على المعروف باسم ابن الطقطقى .
« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » . (القاهرة ١٩١٣ م) .

عبد الرازق بركات : « الرسالة الفنية » (القاهرة ١٣٤٢ هـ) .

عبد الفتاح عبادة : « كتاب سفن الأسطول الاسلامى » (القاهرة ١٩١٣ م) .

على ابراهيم حسن : « جوهر الصقلى » (القاهرة ١٩٣٣)
« النظم الاسلامية » بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن (مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٣٩) .
« الجيش والبحرية فى عصر المماليك » (الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة
العسكرية التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الدفاع الوطنى (القاهرة —
مارس ١٩٤٤)
« آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية » (بحث فى مجلة كلية الآداب الصادرة سنة ١٩٤٤)

على مبارك باشا : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة » ٣٠ جزءا فى أربع مجلدات
(بولاق ١٣٠٦ هـ) .

العُمَرى : (+ ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) شهاب الدين احمد بن فضل الله .
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » الجزء الأول . نشره وعلق عليه المرحوم
احمد زكى باشا . (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .
« التعريف بالمصطلح الشريف » (القاهرة سنة ١٣١٢ هـ) .

عمر طُوسون ، الأمير : « كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » (الاسكندرية
سنة ١٩٣١ م) .

أبو الفداء : (+ ٧٣٢ ﻫ = ١٣٣١ م) . اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه .
« المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ ﻫ) .

أبو الفرَج الملَطى : (+ ٦٨٥ ﻫ = ١٢٨٦ م) . جريجورى المسمى بارهبرابس .
« مختصر الدول » (بيروت ١٨٩٠ م) .

ڤييت ، جاستون : « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » .
مقالة نشرت فى L'Egypte Contemporaine (1933, pp 241 - 264) ونقلها إلى
العربية محمد وهبى افندى .

القَلْقشَنْدِى : (+ ٨٢١ ﻫ = ١٤١٨ م) أبو العباس احمد .
: « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧ م) .
: « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر » (القاهرة ١٣٢٤ ﻫ = ١٩٠٦ م) .

الـكِنْدِى : (+ ٣٥٠ ﻫ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف :
« كتاب الولاة والقضاة » . به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب « رفع الاصر عن قضاة
مصر » لابن حجر العسقلاني . طبعة رفن جست R. Guest
(E.J.V. Gibb Memorial Series, Vol.XIX,1912)

الماوردى : (+ ٤٥٠ ﻫ = ١٥٠٧ م) . أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى .
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ م) .

أبو المحاسن : (+ ٨٧٤ ﻫ = ١٨٩٦ م) . جمال الدين يوسف بن تغرى بردى :
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ٨ أجزاء .
(مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٩ — ١٣٥٨ ﻫ = ١٩٣٠ — ١٩٣٩ م)
والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثانى (جزءان) — طبع جامعة كليفورنيا
بإشراف William Ppper

محمود محمد عرنوس : « تاريخ القضاء فى الاسلام » (القاهرة ١٣٥٢ ﻫ = ١٩٣٤ م) .

محمد كامل مرسى : « الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة إلى الآن » (القاهرة ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م) .

محمد كرد على : « كتاب خطط الشام » . جزءان .

محمد مصطفى زيادة : « بعض ملاحظات فى تاريخ دولة المماليك بمصر » (القاهرة ١٩٣٨ م) .
(بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب — المجلد الرابع الجزء الأول) .

مصلحة البريد : « تاريخ البريد فى مصر » (القاهرة ١٩٣٤ م) .
وضع بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر بالقاهرة وللذكرى السبعينية لإنشاء مصلحة البريد .

المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) . تقى الدين أحمد بن على .
« المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان (بولاق ١٢٧٠ م) .
نشر مسيو جاستون فييت Yarton Wiet جانباً من الجزء الأول (طبعة بولاق) فى أربعة مجلدات فى المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية فى القاهرة (القاهرة ١٩١١ — ١٩٢٤ م) .
« كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » الجزء الأول والجزء الثانى إلى سنة ٧٤١ هـ نشرهما وعلق عليهما الدكتور محمد مصطفى زيادة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ويناير ١٩٤٢) .
« كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة » نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ محمد جمال الدين الشيال (القاهرة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م) .

ابن مماتى : (+ ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م) . شرف الدين أبو المكارم بن أبى سعيد .
« كتاب قوانين الدواوين » . نشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية . (طبعة الجمعية العمومية الزراعية الملكية بإشارة المغفور له الأمير عمر طوسون — القاهرة ١٩٤٣) .

النويرى : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣٢ م) . شهاب الدين أحمـــد بن عبد الوهاب
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » ١٤ جزءاً .

مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٦ — ١٣٥٧ هـ = ١٩٢٨ — ١٩٣٨ م) .

الهيتمى : (+ ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م) . أحمد شهاب الدين بن محمد بدر الدين بن محمد شمس الدين بن على نور الدين بن حجر .

« كتاب الفتاوى الكبرى الفقهية » . جزءان (القاهرة ١٣٠٨) .

ابن الوردى : (+ ٧٤٩ هـ = ١٣٤٩ م) زيد الدين عمر .

« تاريخ ابن الوردى » جزءان .

ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) . شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى

« معجم البلدان » ١٢ جزءاً . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

ثالثا — مصادر اوربية

Allan : (j).
The Cambridge Shorter History of India. (Cambridge, 1924).

Aly : (Bahgat)
Les Manufactures d'étoffe en Egypte, au Moyen-Age. (Le Caire, 1904).

Arnold : (T.W.).
The Caliphate. (Oxford, 1924).

Atiya : (A.S.).
The Crusade in the Later Middle Ages. (London, 1938).
Egypt and Aragon. (Leipzig, 1938).
Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330 A.D.
An unpublished XIV the Century Fatwa on the Status of foreigners in the Mamluk Egypt and Syria.
Studien Zur Geschichte des Nahen and Fernen Ostens (Festchrift Paul Kahle). Leiden, 1935. pp. 55 et Seq.

Blochet : (E.).
Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). (Extrait de la Revue de L'Orient Latin tomes VI. VIII-XI).

Brockelman : (S.).
Geschichte der Arabischen Litteratur 2 vols. (Weimair 1898-1902).

Browne : (E.G.).
Literary History of Persia — from the Earliest times until Firdawsi. (London, 1909).
Literary History of Persia under Tartar Dominion. (1265-1502 A.D.) Vol. II. (Cambridge, 1920).
Literary History of Persia. Vol. III. The Tartar Dominion (1265-1502). (Cambridge, 1928).

Budge : (E.A.W.).
A History of Ethiopia : Nubia and Abbassinia 2 Vols.
Bulletin of the School of Oriental Studies (B.S.C.G.).

(Cam. Med. Hist.) : Cambridge Mediaeval History (Vol. IV).

Christensen : (A.).
L'Empires des Sassanides (Copenhagne, 1907, Memoires de l'Academie Royale des sciences et des Lettres de Denmark).

Colin : (G.S.) et E. Lévi-Provençal.
Un Manuel hispanique de hisba (Paris, 1931).

Demombynes : (G.).
La Syrie A L'Epoque des Mamelouks. (Paris, 1922).

De Sacy : (S).
Bibliothèque des Arabissants Français (Le Caire, 1933.) (Mem. 1. F.A. Caire).

D'Hosson : (Baron).
Histoire des Mongols depuis Techinguiz Khan jusqu'à Timour Bey ou Tamerlan, Vol. III. (The Hague Amsterdam, 1834-1835).

Dozy : (R.)
Supplément aux Dictionnaire détaille des noms de vêtements chez les Arabes. (Paris, 1845).

(Enc. Isl.) : Encyclopaedia of Islam.

Devonshire : (R.L.).
Rambles in Cairo. (Cairo, 1931).

Hassan : (H.I.).
Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940).

Hautecoeur : (L.) et Wiet (G.).
Les Mosquées du Caire (2 vols.) (Cairo. 1932).

Heyd : (W.).
Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. Vol. II. (Leipzfg, 1925).

Hitti : (P.K.).
The History of the Arabs. (London, 1940).

(J.A.) : Journal Asiatique.

(J.R.A.S.) : Journal of the Royal Asiatic Society.

Howorth : (Sir Henry).
History of the Mongols. Part III. Vol, IV. (London, 1876 1888).

Kendrick (A. F.).
Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period. (Victoria and Albert Musslum).

Lane-Poole (s.).
The art of the Saracens (London, 1888).
The Story of Cairo (London, 1902).
History of Egypt in the Middle Ages (London, 191).
The Muhammadan Dynasties (Paris, 1905).
Medieval India Under Muhammadan Rule (London, 1912).

Lavoix : (H.).
Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte et Syrie.

Le Strange (G.).
Palestine under the Moslems.
Marcel : (M. J. J.).
Histoire de l'Egypte depuis la conquête ds Arabes Jusqu'a l'Expedition Française (Paris, 1848).
Mayer : (L. A.).
Saracenic Heraldry (Oxford, 1933).
Mercier : (L.).
La chasse et les Sports chez les Arabes. (Pari 1927).
Michel : (B.).
L'Origanisation Financière de l'Egypte sous les Sultns Mamlouks d'après Qalqachandi (Le Caire, 1925.)
(Extrait de bulletin de l'institut d'Egypte, t. VII Session 1924—1925).
Muir : (W. E.).
The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (London, 1896).
The Caliphate, its Rise, Decline and Fall. (Oxford, 1902).
Paetow :
A Guide to the Study of Medieval History. (London, 1921).
Poliak : (A. N).
Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Labanon (London, 1939).
Les Revoltes Populaires en Egypte à l'Epoque de Memelouks et leurs Causes Economiques. Vol. 8. (1934).
Quatrmière : (E.)
Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte. 2 vols. (Paris, 1837—1845).
Taimiya : Taki D. Din Ahmad.
"Essai sur les Doctrines Sociales et Politiques" (Le Caire, l'Institut Français d'Archéologie Orientale, 1939).
Toussoun ; (Le Prince Omar).
Le Géographie de Egypte à l'Epoque Arabe I. 1ère, 1—2 parties, (Memoires de la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. VIII, 1ère, 2ère parties — Le Caire 1926—1928).
Sanhoury : (A. A).
Le Califat (Paris, 1926).
Steingass (F.).
Persian—English Dictionary (London) 1930.
Van Berchem : (Max).
Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. (Le Caire, 1824) (Mem. I. F. A. Caire).
Weill (D.).
Catalogue Général du Musée Arabe, objets en Cuivre, t. III.
Weil : (G.).

Geschichte de Abbasidenchalifats in Egypten.
(Stuttgart, 1860 – 1862) Vol. 1.

Wiet : (G.).

Histoire de la Nation Egyptienne, t. IV. (L'Egypte Arabe) (Paris,1926).

Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II. (Le Caire, 193s).

Les Biographies du Manhal Safi (Memoires présentés à l'Instituat d'Egypte Le Caire, 1932).

Trois formules d'indépendence dans L'Egype Mediévale (ed. de la Revue du Caire, 1942).

Corpus inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome II (Mem. de l'Institut fr. d'archéologie Orientale, 1930).

Wright : (R. N.).

The Coins and Metrology of the Sultans of Delhi (Delhi, 1936).

Wustenfeld :

Mahler'sche Vergleichungs — Tabellen, der Mohammeddanishen und Christlichen Zeitreachung (Leipzig, 1926).

Zaky Hassan :

Les Tulunides (Paris, 1933).

Hunting as practised in Arab Countries of the Middle Ages. (Cairo, 1937).

Zambour : (E.).

Manuel de Génalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam.)

كَشّاف

بأسماء الأعلام ، والوظائف ، والدواوين ، والضرائب ، والبلدان ، والأدوات والملابس المستعملة فى الحروب والمواكب والصيد ونحوها ، والأماكن التى تحفظ فيها هذه الأدوات .

١ ــ الأعلام

(ا)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

٢ـ الوظائف

(أ)

(ب)

(ن)

(و)

(ى)

٣ ــ الدواوين

٤ ــ الضرائب والاصطلاحات الاقتصادية

٥ ـ الأدوات والملابس المستعملة فى الحروب والمواكب والصيد ونحوها

٦ — الأماكن التى كانت تودع فيها الأدات المستعملة فى الحروب والمواكب

٧ — البلدان

فهرس
باسماء الوثائق ، والجداول ، والخرائط ، والصور الواردة فى الكتاب

١ — الوثائق التى أشير إليها فى الكتاب[1]

---

(١) لم نثبت فى كتابنا النصوص الكاملة لهذه الوثائق لأنها مدونة فى كتب منشورة ، واكتفينا بإيراد بعض الفقرات المطلوبة لتوضيح الحقائق التاريخية ولإعطاء فكرة عن الطريقة التى كانت تكتب بها تلك الوثائق .

(٢) وردت هذه الوثيقة فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ١٣٧ . وقد أورد القلقشندى فى كتابه هذا أكثر الوثائق التى دونها ابن فضل الله العمرى

(٣) وردت هذه الوثيقة فى بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٩ ورقة ٤٢ — ٤٤

(٤) نشر بيبرس الدوادار : نفس المصدر والجزء ورقة ٨٢ — ٨٥ هذه الوثيقة

---

(١) أورد نص هذا التفويض أيضا كل من المقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٥٣ — ٤٥٧ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١١٢ — ١١٣ . والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٥ — ٤٦ .

(٢) وردت هاتان الخطبتان أيضا فى ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤١٠ — ٤١١ ، وبيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٦٦ — ٦٨ . والمقريزى : كتاب السلوك ج ١ ص ٤٧٧ — ٤٧٩ .

موضع الاشارة اليها
في الـكتاب

موضع الاشارة اليها في الكتاب

(١) وردت هذه الوثيقة أيضا فى النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٣٥ — ٣٦ .

٢ — الجداول

صفحة

٣ — الخرائط

٤ — الصور

تصحيحات

نعتذر للقارئ عن وقوع بعض أغلاط مطبعية راجين منه أن يتفضل باصلاحها قبل قراءة الكتاب :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠	٢	وبالناس	وما بالناس
٢٠	١٤	ونفرقة	وتفرقه
٢٠	٢٢	أهمية	أهميته
٣٧	٢٢	وليحمل	وليجمل
٣٨	٤	فذلك	فلذلك
٤٥	٢٠	بيبرس	[يأتى قبلها] فقال الأمير
٤٥	٢١	فقال الأمير	تحذف
٤٦	٣٠ حاشية٤	11 (1829), pp.3-4 Journal Asiatique 1. Série	Journal Asiatique1.Série11; (1829), pp. 3-4.
٥٢	٨	أعلى	أغـلى
٥٣	١	وعظيم	وعظم
٦٤	١	تزوحه	تزوجه
٦٥	٢	٦٩٣هـ=١٢٩٣ — ١٢٥٤م	٦٩٣-٦٩٤هـ= ١٢٩٣-١٢٩٤م
٩٢	٢٧ حاشية٣	وتقانيهم	وتفانيهم
١١٠	٩	والنهى	والتهى
١١٤	١٢	أبلغتَ	تحذف
١١٨	٦	٧٤٣هـ	٧٤٧ هـ
١٢٠	٢١	فى	وفى
١٢١	١٨	وله	ولا
١٣٠	٢٧	كومسن	كومس

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣٤	٢٨	مدير	مدبر
١٤٧	١٣	بين	بن
١٥٢	١١	الرغبة	الرعية
١٥٢	١٤	الى	تحذف
١٦١	٥	يضاف بعـد كلمة ماردين :	خلت بهؤلاء
١٨٦	٢٠	وخشى	والخشى
٢١٠	١٢	الذين	الذى
٢٢٦	٤	الدول	الدولة
٢٣٩	٣٠	٥٩	٦٩
٢٤٠	١٦	وزيادة	وزيارة
٢٤٣	١٣	الاحباس	المالية
٢٥٥	١٥و١٦	فى ذلك العصر	تحذف
٢٦٠	٢١	الناصر برقوق	الظاهر برقوق
٢٦٧	١٨	البهنقى	البهنسى
٢٨٢	٢	واليمن	فى اليمن
٢٩٧	٢٥	١٩	١١
٣٢٧	٢٥	والخيول الأمراء	والخيول الأمراء
٣٤٧	١٢	للدول	للدولة
٣٥٥	٢	أبنائه	أبناء الناصر
٣٧٩	١١	السؤال	السَّـؤْل

كتب المؤلف

١ — تاريخ جوهر الصقلى (القاهرة ١٩٣٣)

٢ — النظم الإسلامية بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٣٩) .

٣ — النظم الإسلامية للسنة التوجيهية .بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ محمد عبد الرحيم مصطفى كبير مفتشى المواد الاجتماعية المساعد بوزارة المعارف. (القاهرة ١٩٤٣) .

٤ — دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، وهى الرسالة التى نال بها درجة الدكتوراه فى الآداب (التاريخ الاسلامى) من جامعة فؤاد الأول برتبة الشرف الممتازة (القاهرة ١٩٤٤) .

٥ — الجيش والبحرية فى عصر المماليك : الرسالة الثالثة والخمسون من رسائل الثقافة العسكرية التى تقوم بنشرها وزارة الدفاع الوطنى (مارس ١٩٤٤) .

٦ — آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية : بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب (المجلد السابع ، ١٩٤٤) .